

كولن ويلسون



الإنسان وقواه الخفية

القدرة على اكتشاف الأشياء
في أعماق النفس البشرية

اهداءات ٢٠٠١

١. صلاح راتب

القاهرة

كولن ولسن

الانسان وقفواه الخفية

ترجمة
سامي خشبة

دار الآداب - بيروت

عنوان الكتاب الاصلي

THE OCCULT

By

Colin Wilson

جميع الحقوق محفوظة

لدار الآداب - بيروت

الطبعة الثانية

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨

مقدمة

قضية هذا الكتاب قضية ثورية ، ولا بد لي ان اقررها بوضوح في البداية .
لقد آمن الانسان البدائي بأن العالم كان مليئاً بقوى غير منظورة : الاورندا
The Orenda (قوة الروح) عند الهنود الامريكيين ، او ابواكا The Huaca
عند اهل بيرو القدماء . وقال « عصر العقل » ان تلك القوى لم يكن لها وجود قط
الا في خيال الانسان ، وانه ليس سوى العقل وحده ما يستطيع ان يطلع الانسان
على حقيقة الكون . وكانت المشكلة هي ان الانسان قد اصبح قزماً مفكراً ، وكان
عالم العقليين مكاناً يشيع فيه ضوء النهار ، حيث كان الضجر والتفاهة و«العادية»
هي الحقائق النهائية والمطلقة .
ولكن المشكلة الرئيسية بالنسبة للكائنات الانسانية هي ميلهم الى ان يقعوا
في شرك : « تفاهة الاشياء اليومية » ، اذا ما استعرنا عبارة هايدجر (١) في عالم

(١) هايدجر ، مارتن (١٨٨٩-١٩٧٧) احن مؤسسي الفلسفة الوجودية الالمانية وتلميذ ومساعد ادموند
هوسرل ، مؤسس المنهج الفينومينولوجي (الظاهراتي) الحديث . اشتغل استاذاً للفلسفة بجامعة
ماربورج وفريبورج (١٩٣٣) حيث اعلن قبوله لافكار الحزب النازي . وقد تأثر به الوجوديون
الفرنسيون : سارتر ومارلو وبونتي ، اساساً . والمقولة المحورية لفلسفة هايدجر هي مقولة « الزوال »
او « التمحور الدائم » التي قال انها مساوية لمواظف البشر الداخلية . واعتبر الحالة النفسية ،
او « الهوى » مبدأ اساسياً لتلك المواظف ، ووصفها بانها شكل تلقائي وغير متطور من الوعي .
ونظر هايدجر الى القلق والخوف اشكالاً اولية للشخصية الانسانية . ويتكون من تلك الاشكال،
الوجود الذاتي للانسان ، الذي اسماه هايدجر : « الكينونة في العالم » . وهذا هو السبب الذي
يجعل قانون الاشكال الاولى قانوناً للوجود او الكينونة ذاتها . ولكي يكتشف الانسان « معنى
الكينونة » فان عليه ان يتخلص من الاهداف العملية وان يكون واعياً بقابليته للفناء ، وبضعفه
الشديد . ومن خلال احساس الانسان بانه يقف على الدوام « وجهاً لوجه مع الموت » فانه سيتمكن
من ادراك اهمية واكتمال كل لحظة من الحياة ، فيتخلص من « اوتان الوجود الاجتماعي » ، من
نوع الاهداف العملية والمثل العليا والتجريدات العلمية . (ه . م .)

مشاغلهم الشخصية الخائق . وفي كل مرة من مرات وقوعهم في هذا الشرك ، فانهم ينسون العالم الشاسع الهائل ذا المغزى الاكثر اتساعا الذي يترامى من حولهم . ولما كان الانسان بحاجة الى احساس بالمعنى لكسبي بنفس عن طاقاته المخبوءة ، فان هذا النسيان يجلبه - او يدفعه - الى اغوار عميقة من الانقباض والضجر ، وهو الاحساس بان شيئا لا يستحق ان يبذل من اجله اي جهد .

وبمعنى ما ، فان الهنود الامريكيين واهل بيرو كانوا اقرب الى الحقيقة من الانسان الحديث ، ذلك لان حدسهم لـ « القوى غير المنظورة » جعلهم متفتحين لتلقي مظاهر وتجليات المعنى التي تحيط بنا .

من الممكن ان ننظر الى « فاوست » لجوته باعتبارها اعظم دراما رمزية ابدعها الغرب ، طالما انها دراما الانسان العقلي الذي يختنق في غرفة وعيه الشخصي التي تعلوها التربة ، واقعا متخبطا في دائرة الضجر والعقم المفرغة التي تؤدي بدورها الى مزيد من الضجر والعقم . ان اشتياق فاوست الى معرفة « الغيب » هو الرغبة الغريزية في الايمان بالقوى غير المنظورة ، وبالمغزى الاكثر اتساعا ، اندي يستطيع ان يكسر تلك الدائرة فيضع نهايتها .

ان ما يثير الاهتمام هو ان الانسان الغربي قد طور العلم والفلسفة بسبب هذه الرغبة المتلهفة الحارقة الساعية الى المغزى الاكثر اتساعا . ولم يكن تفكيره العقلي هو ما خانه ، وانما كان عجزه عن التفكير بوضوح هو الخائن ، اي ان يفهم ان العقل الصحيح لا بدّ انه ان يستخلص من العالم « زادا » من المعنى اذا كان له ان يستمر في الحصول على « نتيجة » من المجهود الحيوي . وكان الخطا القاتل هو فشل العلماء والعقليين في المحافظة على تفتح عقولهم للاحساس بالـ « هواكا » ، اي بالقوى غير المنظورة . لقد حاولوا ان يقيسوا الحياة بمسطرة طولها ست بوصات ، وان يزنها بصنجات المطبخ . ولم يكن هذا علما ، وانما كان فجاجة لا تزيد اكثر من درجة واحدة على فجاجة المتوحشين ، وقد سخر سويغت منها في قصته « رحلة الى لابوتا » (١) .

يعيش الانسان بأن « ياكل » المغزى مثلما ياكل الطفل الطعام . وكلما ازداد

(١) « رحلة الى لابوتا » : الرحلة الثالثة من « رحلات جاليلير » التي ابدعها جوليان سويغت (١٧٢٦) لكي ينتقد من خلالها اوضاع وشخصيات واسس مجتمع البورجوازيين المتسلطين محدثي النعمة الجدد في عصر سويغت ، الذي كان من اكبر الكتاب انحافطين في انجلترا بالنصف الاول من القرن الثامن عشر . في بلاد « لابوتا » الخرافية ، يكشف جاليلير امبراطورية غامضة ، تحكمها طبقة من المتعطلين الجهلة ، مدعي العلم والفلسف ، يعيشون في اوهام عن مشروعات جبارة ، ولكنها حقا مستحيلة التحقيق . (ه . م .)

عمق احساسه بالدهشة ، كلما ازداد اتساع فضوله وتطلعه الى المعرفة والفهم ،
وازدادت قوة حيويته ، وازدادت قوة قبضته على وجوده الخاص .

هناك طريقان يستطيع عليهما ان ينطلق ويمتد : الى الداخل ، وإلى الخارج .
انني اذا كنت في بلد اجنبي وانتابني رغبة قوية في التشافه اكتشافا شاملا
وعميقا ، وان ازور ابعدا ماكنه ، فان هذا هو المثال النموذجي لامتداد نحو
الخارج . ولن يكون من غير الصحيح ان نقول ان حب الكتب والموسيقى والفن هو
نموذج الرغبة في الامتداد نحو الداخل . ولكنه ليس سوى نصف هذا النوع من
الامتداد . لان ما يحدث اذا ما اصبحت فجأة مغنونا ببلد اجنبي هو ان اشعر
بنفسي كما لو كنت عنكبوتا كامنا في مركز نسيجه . انني اشعر بكل انواع
« المغزى » التي تهتز على طول النسيج ، فاريد ان امس اطرافني فاجتذبيها
جميعا . ولكن نفس الشيء هو ما يحدث في حالات السكنة الداخلية العميقة .
حينذاك اشعر بمساحات داخلية شاسعة ، وبأنواع غريبة من المغزى في «داخلي» .
فلا اعود كائنات انسانية ضئيلا تافها من القرن العشرين ، واقعا في شرك عابس
حياته وشخصيته . مرة اخرى اكون في مركز نسيج العنكبوت ، شاعرا
باهتزازات المعنى . وفجأة اتبين في اعماق المعاني ان اولئك الهنود الامريكيين
واهالي بيرو كانوا على حق . انني اصبح مثل شجرة ادركت فجأة ان جذورها
تفور عميقا ، عميقا في باطن الارض . وفي هذه اللحظة الحاضرة من التطور ،
تمضي جدوري الى عمق ابعد بكثير مما تمتد فروعي من فوقها - انها ابعد
واعمق منها بالف ضعف .

وما يسمى بالقوى السحرية ، انما هو جزء من هذا العالم الكامن الخفي .
قدرات الحاسة السادسة او البصيرة الثانية ، والرؤية المسبقة ، والتواصل
عن بعد ، والتنبؤ . وليست هذه القدرات هامة بالضرورة لتطورنا . ان اكثر
الحيوانات تمتلكها ، وما كان لنا ان نسمح لها بان تفرق فتختفي وراء ستار
اهمال استخدامها لو انها كانت قدرات اساسية . ولكن معرفة الانسان بجذوره ،
بعالمه الداخلي ، « هامة » بالنسبة له بالفعل في هذه النقطة من تطوره ، لانه وقع
في شرك تخيله عن نفسه باعتباره قزما مفكرا . لا بد له بشكل ما ان يعود الى
معرفة انه ، بحق وعين مقدرة ، « ساحر » خارق القدرة ، واحد من تلك
الشخصيات السحرية التي تستطيع ان ترسل صواعق البرق او تأمر الارواح
فتنقاد لها . وقد كان الفنانون والشعراء العظام مدركين لهذا على الدوام . ان
الرسالة التي تحملها سيمفونيات بيتهوفن ، يمكن ان تلخص في عبارتين : « ليس
الانسان ضئيلا ، انما هو كسول الى حد لعين » .

✱

لا تستطيع الحضارة ان تتقدم الى ابعد مما وصلت اليه حتى يسلم الناس بقوى الفيب غير المنظورة تسليماً بديهيماً على نفس مستوى تسليهم بالطاقة الذرية . ولست اعني بهذا انه ينبغي على العلماء ان ينفقوا اماسيهم امام لوحة تحضير الارواح ، او انه ينبغي على كل جامعة ان تقيم « قسماً للعلوم الروحية » على النمط الذي وضعه « معهد الراين » في مدينة ديوك . وانما اعني ان علينا ان نتعلم كيف نمتمد نحو انداخل حتى نستطيع بشكل ما ان نعيد اقامة الاحساس بالهواكا ، حتى نصل الى اعادة خلق الاحساس بـ « القوى غير المنظورة » التي كانت معروفة وعادية بالنسبة للانسان البدائي . « لا بد » لهذه المهمة من ان تنجز بشكل ما . هنالك جوانب مما يدعى بغير الطبيعي ينبغي علينا ان نتعلم كيف نسلم بها دون نقاش ، وكيف نعيش معها بنفس البساطة التي عاش بها اسلافنا معها . يقول بليك : « ان مدركات الانسان ليست مقيدة بأعضاء الادراك » فهو يدرك اكثر مما تستطيع حواسه ان تكتشف (رغم ان ما يدركه يكون بالغ اندقة) . انه « يعرف » اشياء لم يكن قد تعلمها او علم عنها شيئاً من خلال المدرسة او التجربة اليومية ، وفي بعض الاحيان يكون من المريح اكثر الا يعرف تلك الاشياء . ويحكي اوزبيرت سيتويل (١) حكاية غريبة عن قارئة كف :

« كان كل زملائي الضباط الذين يماثلونني سناً ، قد ذهبوا قبل شهرين او ثلاثة في هذا العام لرؤية قارئة كف شهيرة ، قيل عنها فيما اذكر ان مستر ونستون تشيرشل اعتمد ان يستشيرها في بعض الاحيان . وقد اعتاد اصدقائي على زيارتها بالطبع آملين ان يقال لهم ان قصص حبهيم سوف تنجح ، ومتى سوف يتزوجون ، والاتجاه الذي سوف تتطور فيه حياة كل منهم العملية المقبلة . ويحدث في كل مرة ، ان العرافة ما تكاد تبدأ في قراءة حظوظهم ومستقبلهم ، حتى تطوح بالكف الممدودة اليها في انزعاج مفاجيء وهي تصيح : « لا افهمها ! انه نفس الشيء مرة اخرى ! بعد شهرين او ثلاثة ، ينقطع خط الحياة ، ثم لا يمكنني ان اقرأ شيئاً . . . » . وكانت هذه العبارات تبدو لكل شخص قيلت له مجرد عذر ارتجلته العرافة لكي تبرر فشلها : ولكن حينما حكى لي هذه القصة اربعة او خمسة اشخاص ، تساءلت عما كان يمكن ان تندر او تنبئ به . . » (٢)

وكانت هذه القصة تنبئ باندلاع الحرب العالمية الاولى ، وكانت تنبئ بموت

(١) اوزبيرت ، سيتويل : كاتب روائي ودرامي وشاعر تهكمي من البلاط في إنجلترا النصف الاول من هذا القرن . اشتهر بترجمته الذاتية : « اليد اليسرى واليد اليمنى » عام ١٩٤٥ ، والجزء الثاني منها بعنوان : « الشجرة القرمزية » في العام التالي . شقيق الشاعرة المشهورة ايديث سيتويل ، والشاعر الغنائي والناقد التشكيلي ساكفيل سيتويل . (م . ه)
(٢) صباح عظيم (لندن ، ماكميلان ، ١٩٤٨) ص ٢٦٥ .

الرفاق الضباط الذين كانت حظوظ الحياة في ايديهم تنقطع بعد ثلاثة شهور من استشارة قارئة الكف .

من المحتمل ان يكون عدد القراء الذين قد يصرفون الانظار عن هذه القصة باعتبارها من وحي الخيال او كذبة صريحة عددا ضئيلا جدا . وقد يشعر عدد اكبر بانها تحتوي على قدر من الحقيقة ، ولكنها تعرضت نشيء من المبالغة . اما غالبية الناس فقد يقبلونها على انها حقيقية بقدر ما . وان كانت غريبة شاذة . . ولكنها ليست بالغة الاهمية ، وهم على الاقل ، لا يعتزمون التفكير فيها . ونحن ميالون الى الركون الى هذه الاستجابة متى ما واجهنا « الغريب الشاذ » : بان ندفعه الى قسم مستقل ومطلق من العقل ، يحمل لافتة تقول : « الاستثناءات » ، ثم نتركه للنسيان . وقد سمعت ان ابراهام لينكولن ، كانت تنتابه الاحلام والهواجس التي تنبئه بموته قبل اسبوع من اغتياله ، وهذا شيء « غريب » وعارض ، ولكنه ايضا تاريخ قديم ، وربما كان قد تعرض للمبالغة . انني افتح « ملحقا » ملونا من ملاحق صحف يوم الاحد ، فاقرأ انه قبل اسبوع من الانفجار الذي دمر طائرة شركة الطيران البريطانية الاوروبية من طراز « كوميت » يوم الثاني عشر من اكتوبر عام ١٩٦٧ ، فان اتراكب نيكوس بابابترو كانت تطارده الهواجس المشؤومة والاحلام التي تدور حول الموت والحداد ، حتى انه حاول قبل اقلاع الطائرة بساعة ان يحول تذكرته الى طائرة اخرى (x) وليس هذا تاريخا بعيدا ، ولكن ينبغي ان نذكر ان بابابترو « كان » يحمل القنبلة التي انفجرت مصادفة . لقد كان مهربا للمواد المتفجرة ، وكان قد قام بست رحلات مشابهة قبل تلك الرحلة الاخيرة في السنة نفسها . فلماذا اذن لاحقته الهواجس في تلك الرحلة بالذات ؟ اننا نهز اكتافنا ، ونوافق على ان هذه مسألة غريبة وشاذة ، ثم نروح نفكر في موضوع آخر .

اسمحوا لي ان اقول انني لا اقترح - بالتأكيد - انه ينبغي علينا ان ننفي حياتنا في الاهتمام بالاحلام والهواجس ، او لائذين بقارئ الحظوظ والراجمين بالفيب ، انها لفريضة صحية تلك التي تجعلنا نتجاهل انهواجس المشؤومة والاحلام ، ونستمر في الاهتمام بمشاغل الحياة العملية . ولكن الموقف المتصلب المتعنت ازاء مثل هذه الاشياء هو « خطأ » باكثر معاني هذه الكلمة بساطة ومنطقية . فمئذ قرنين فقط من الزمان ، اعلن اكثر العلماء تمتعا بالاحترام ، انه كان من السخف ان يؤكد احد ان عمر الارض يزيد على بضعة آلاف قليلة من السنين او ان يؤكد ان وحوشا غريبة الهيئة قد هامت في غاباتها . وحينما كان بعض العاملين في المحاجر يكتشفون بعض المخلوقات البحرية المتحجرة ، او حتى

جمعية حيوان من فصيلة الدينوصور ، فان الشيء المكتشف كان يفسر بأنه تكوين حجري شاذ ، وأنه تقليد صخري قامت به الطبيعة لاشكال تشبسه اشكال الكائنات الحية على سبيل الدعابة او الاغراب . وطوال الاعوام الخمسين التالية كرس العلماء المتصلبو الرؤوس كل وقتهم وقدرتهم على الابتكار من اجل ان ينكروا بتفسيراتهم الاصول الحقيقية للحفريات والعظام التي كانت تكتشف باعداد متزايدة . وقد استطاع كوفيير ، وهو واحد من اعظم علماء الحيوان في القرن التاسع عشر ان يدمر حياة زميله لامارك (١) العملية حينما وصم نظرية لامارك في النشوء والارتقاء بأنها نظرية خيالية وغير علمية ، اما معتقده هو الاكثر علمية، فكان يقول بأن كل مخلوقات ما قبل التاريخ (والتي كان وجودها قد اصبحت معترفا به) قد بادت نهائيا ولحقها الدمار الشامل في سلسلة متعاقبة من الكوارث الطبيعية العالمية التي مسحت وجه الارض ونظفت البسيطة واعدها لخلق الانسان وحيوانات العصر الحالي .

ومثل هذا النوع من التفكير والمواقف ليس هو الاستثناء في تاريخ العلم ، وانما القاعدة . ذلك ان واحدا من المعتقدات الجامدة الرئيسية للعلم ، يقول بأن الرجل الذي ينكر نظرية ما ، يحتمل ان يكون اكثر « علمية » من هذا الذي يؤكدھا .

وعلى الرغم من كوفيير فان افكار « النشوء والارتقاء » الخيالية قد احرزت الانتصار وسادت على غيرها من الافكار ، رغم ان الشكل الذي استطاعت ان تكون مقبولة به لدى العلماء في الغالب ، جعلها تبدو في صورة قوانين « البقاء للأصلح » الرتيبة الميكانيكية . ان البطء هو قانون التغير . وان آخر التطورات في علم الاحياء ، قد تنتهي بنا الى تغيير تصورنا عن التكون ، بقدر ما غيرت عظام الدينوصورات من تصورنا عن الارض . وتلك هي الفرضية التي يقوم عليها هذا الكتاب . فقد لا يكون بعيدا ذلك الوقت الذي سنستطيع فيه ان نقبل ظاهرة « خفية » باعتبارها ظاهرة طبيعية مثلما نقبل الآن وجود الذات .

(١) لامارك - جان باتيست (١٧٧٤ - ١٨٢٩) . ابرز علماء التاريخ الطبيعي قبل داروين ، واكبر دعاة التفسير التطوري لتاريخ الكائنات الحية ، والذي يخطئ الكثيرون في الظن بأنه كان التمهيد لفكر داروين التطوري . قال لامارك بأن الكائنات العضوية (الحية) قادرة على ان تتكيف (يتجلى) مع التغيرات التي تطرأ على بيئتها ، تكيفا يتم على شكل تحولات تدريجية في الكيان العضوي ككل ، بينما قال داروين بالعكس ، اي بأن الكائنات الحية « تنكس » وتفشل امام تغيرات البيئة ، او تتجمد على حالها فتفنى ، ولا يبقى منها الا ما كان صالحا للبقاء بالصدفة . وكان لامارك هو صاحب اول تصنيف علمي كامل للعالم الحيواني . (ه . م)

ومن اجل ان ازيد هذا التأكيد وضوحا ، ينبغي علي ان اتحدث باختصار عن علم السيبرناطيكما الجديد . فقد « اخترع » علم السيبرناطيكما الجديد في عام ١٩٤٨ ، على يد عالم الطبيعة نوربرت وينار فسي معهد ماساشوستس للتكنولوجيا . انه علم « السيطرة » والاتصال ، في الآلات والحيوانات (وكلمة *Kybernetes* اليونانية تعني رجل الدفة في السفينة ، او الربان ، او الحاكم) . ان الكرة الطافية في صهرج المرحاض تطبيق بسيط للسيطرة السيبرناطيكية ، فحينما يمتلئ الصهرج تقطع سداة الكرة انسياب الماء . ويقدر ضئيل من الذكاء ، يمكنني ان اصطنع جهازا يحقق سيطرة مماثلة لاجلاق صناير حوض الحمام حينما تصل فيه المياه الى منسوب معين ، لكي اوفر على نفسي مهمة القيام والجلوس في الحوض لاجلاق الصناير . ولكن في العلم والصناعة ، فان العملية التي اريد السيطرة عليها قد تكون اكثر تعقيدا بدرجة مضاعفة من صناير حوض الحمام . فقد يكون الهدف من السيطرة - مثلا - عملية كيميائية لا بد ان تتطور في اتجاهات متعددة . وفي هذه الحالة ، لا بد ان استخدم حاسبة الكترونية تنفذ « برنامجا » معيننا وضع لهذا الغرض من اجل اعدادها للتعامل مع عدد كبير من المواقف ستطرا في مسار العملية . ان بطاقة حفر عليها عدد معين من الثقوب تكفي لاعطاء الحاسبة الالكترونية تعليماتها ولجعلها تتصرف مثل المراقب الذي يعلمن على سير العمل سيرا صحيحا .

ومنذ اواخر القرن التاسع عشر كان قد اصبح مفهوما ان الكائنات الحية تستمد خصائصها من خلايا دقيقة يطلق عليها اسم « الجينات *genes* » أي « حاملات الخصائص الوراثية » يحتويها كل من السائل المنوي الذكري والبويضة الانثوية . ان لون شعري وعيني ، وحجم قدمي ، كلها امور تقررهما الجينات ، ولكن لم يكن هناك من تبين الى حد اليقين الكيفية التي تقوم بها الجينات بهذا العمل . وفي منتصف الخمسينات من القرن العشرين اصبح من الواضح ان الجينات تشبه بطاقات الحاسبة الالكترونية بثقوبها المحفورة فيها . اما « الثقوب » فانها بالفعل جزئيات من مادة تسمى « د.ن.م » ترتابط الواحدة منها بالآخري على شكل لولب مزدوج ، في هيئة شيء يشبه لولبين التصق الواحد منهما بالآخر في اتجاهين متعارضين .

وكلما زاد ما نعرفه عن هذا النظام الذي يشبه نظام الحاسبة الالكترونية ، وهو النظام الذي يجعلنا على ما نحن عليه ، كلما زادت مراوفته لنا وزادت حيرتنا ازاءه . ان نظرية داروين في النشوء والتطور تفكر في عنق الزرافة وفي بدن الفيل وتفسرهما على اساس المصادفة ، تماما مثلما قد تفسر شكل صخرة اتخذت هيئة الوجه بأن تشير الى فعل الرياح والمطر . ان العلم يكره « الغائية » ،

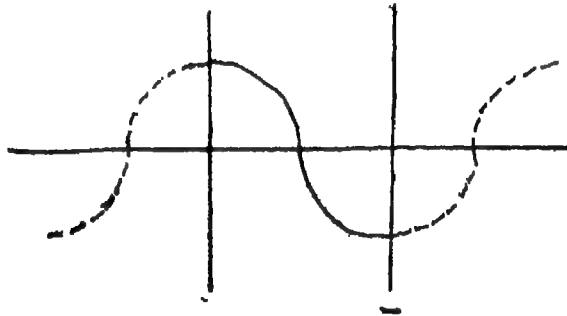
اي انه يكره فكرة « استهداف » غرض معين . ان الصخرة لم « تشأ » ان تنحت حتى تتخذ هيئة الوجه ، كما انه لم يكن من مشيئة الريح والمطر ان ينحتاها على هذه الهيئة ، انما حدث هذا ، هكذا ، وحسب . وبصورة مشابهة ، يكره علماء الاحياء (البيولوجيون) تلك الهرطقة المعروفة باسم « انزعجة الحيوية » ، وهي فكرة ان الحياة بشكل ما « تريد » ان تنتج مخلوقات اكثر صحة وذكاء . انما تم انتاج مثل هذه المخلوقات لان الصحة والذكاء يصمدان للبقاء بصورة افضل من المرض والغباوة . ولكن حينما يتبين المرء ان الكائنات البشرية قد تم انتاجها بواسطة بطاقة حاسبة الكترونية شديدة التعقيد ، يصبح من الصعب عليه ان يتجنب الانزلاق الى « الغائية » والتساؤل عن قد يكون وضع البرنامج لهذه الحاسبة الالكترونية .

في عام ١٩٦٩ ، القى عالم من علماء السيبرناتيكا ، هو الدكتور دافيد فوستر ، محاضرة في المؤتمر الدولي لعلوم السيبرناتيكا بالكلية الملكية في لندن ، ورسم صورة لبعض ادلالات الفلسفة لتلك الكشف . اشار الى انه من وجهة نظر عالم السيبرناتيكا ، فان من الممكن ان ينظر الى الكون باعتباره مجموعة من « المعطيات » وعملية جمع واحصاء وترتيب متصاعد لهذه المعطيات . ان ثمرة البلوط ، على سبيل المثال ، يمكن اعتبارها « برنامجا » لشجرة بلوط . وحتى الدرة يمكن ان نفكر فيها باعتبارها بطاقة حاسبة الكترونية حفر فيها ثلاثة ثقوب ، على اساس ان الثقوب الثلاثة هي : (ا) عدد الجزيئات في النواة ، (ب) عدد الالكترونات التي تدور حولها ، (ج) طاقة تلك الالكترونات ، كما يعبر عنها على اساس اصغر الجزيئات المعروفة من الطاقة ، وهو الجزيء الثابت عند بلانك (١) ،

(١) بلانك - ماكس ١٨٥٨ - ١٩٤٧ . واحد من ابرز علماء الطبيعة الدرية ، وواضعي اساس « فلسفة العلم » في هذا العصر ، الماني المولد ، وعضو اكاديمية العلوم في برلين منذ عام ١٨٩٤ . في ديسمبر عام ١٩٠٠ ، وبينما كان بلانك يعمل على تطوير صياغة نظرية في الديناميكا الحرارية حول الاشعاع الحراري ، توصل الى ضرورة وضع تصور جديد للحركة « الكمية » في الكون ، باعتباره حركة ثابتة ومقطرة ، وهي ما اصبحت تعرف بقانون : « كمية الحركة » في الرياضيات الدرية . وبذلك اصبح بلانك هو واضع نظرية الكم ، التي ارسيت كحقيقة علمية ، قانون لا استمرارية ولا انتظام عمليات اشعاع الطاقة ، وهدت فكرة التكوين اللدري الى جميع ظواهر الطبيعة . وقد كرس بلانك العديد من كتاباته لمشاكل فلسفة العلم ، بما في ذلك المفزى الفلسفي لقانون حفظ الطاقة ، ووحدة الصورة العلمية الطبيعية للعالم ، ومنهجية البحث في الطبيعة ، وقانون السببية ، والتداخل القائم بين العلوم الطبيعية وبين الفلسفة والدين . وقد شارك في الخطوات الاولى للتفكير فنجشتاين الفيلسوف الالماني - ، ثم برتراند راسل في وضع ملامح « الوضعية الدرية » ، التي انقلب بعدها فيما بعد ونقدها بقوة وخاصة عندما حصل بلانك على جائزة نوبل في الطبيعة عام ١٩١٨ ، وفي عيد ميلاده الثمانين اطلق اسمه على الكوكب « بلانكيانا » (ه . م .) .

يمضي الدكتور فوستر قائلا : « من المؤكد انه يجب ان يكون واضحا ان الطبيعة الاساسية للمادة هي ان الذرات هي « ابدية » الكون ، وان التركيبات الكيميائية هي « الكلمات » ، وان مادة « د.ن.م » هي ما يكاد يكون « جملة » طويلة ، او حتى كتابا كاملا يحاول ان يقول شيئا مثل « فيل » او « زرافة » او حتى « انسان » .

ويعمضي لكي يبرز ان وحدة البناء الاساسية في اي نظرية اعلام كهربائية هي الموجة الكهربائية الواحدة ، والموجة الواحدة تتكون من نصفين ، لانها تقاس بدءا من قمة « نتوء » او انحناء ، الى قاع النتوء او الانحناء التالية :



وهذا معناه ان الموجة نظام ثنائي او « مزدوج » ، والحاسبات الالكترونية تعمل على اساس الرياضيات الثنائية او المزدوجة . وهذه خطوة هامة في بناء حجته ، لاننا اذا فكرنا في الموجات باعتبارها المفردات الاساسية للكون ، اذن فسوف يمكنك ان تفكر في الحياة - وفي المادة كلها في الحقيقة - باعتبارها راجعة الى موجات تمت برمجتها بطريقة سيبرناطيكية ما .

ان ما يقوله يبدو بالتأكيد شبيها بالفائية . انني اذا رايت عملية كيميائية معقدة ، توضع لها القواعد ويتم التحكم فيها بواسطة الحاسب الالكتروني، فانني سأستنتج ان شخصا ما قد وضع البرنامج لهذا الحاسب . والدكتور فوستر يقول ان الابنية المعقدة للحياة حول عالم السيبرناطيقا ، تتكشف لعينيه في صورة عملية جمع واحصاء المعطيات وترتيبها بطريقة تصاعدية على نطاق هائل . وهذه مسألة حقيقة علمية . وهو يجد نفسه بالطبع يتساءل عن الذكاء الذي يقوم بجمع المعطيات واحصائها وتصنيفها تصاعديا ؟

يخطو الدكتور فوستر بعد ذلك اكثر خطواته اثارة للنقاش والخلاف . فهو يفسر موقفه بأنه « كخبير في التسيير الذاتي ، حينما اسم نظاما للسيطرة من اجل عملية ما ، فانه من اليديهي ان تكون سرعة نظام السيطرة اكبر بكثير

من سرعة حركات العملية المطلوبة». فانت ، على سبيل المثال ، تستطيع ان تقود سيارتك لانك تستطيع ان تفكر بأسرع من عمل الآلة ، ولو لم تستطع ذلك لاصطدمت سيارتك بأي شيء فوراً . ولكن في هذه الحالة ، لا بد ان توضع البرامج للمادة في صورة ذبذبات - او موجات - اكثر سرعة بكثير من ذبذبات المادة نفسها . اي في شكل اشعاعات كونية . والكون مليء بالاشعاعات الكونية بالطبع . وفي رأي الدكتور فوستر فانه من المحتمل ان تكون تلك الاشعاعات هي القوة الكامنة وراء « برمجة » جزيئات مادة الـ « د.ن.م » .

ولكن ، فلنلاحظ النقطة المحورية هنا . ان الموجة التي تحمل معلومة تختلف تماماً عن الموجة التي لا تحمل معلومة مثلها . ان المعلومة « مفروضة » على بنائها عن طريق الذكاء . ان النتيجة التي يصل اليها الدكتور فوستر - رغم انها تقال بالحذر النموذجي للعالم تحيط بها هالة من المبررات والمقدمات - هي ان مستوى الذكاء المتضمن في بناء مثل تلك الموجة لا بد ان يكون ارقى بكثير جداً من ذكاءنا الانساني . وهذا ايضا نوع من الاستقراء (او الاستدلال) العلمي وليس تخميناً ميتافيزيقياً . انه يذكر « تأثير كومبتون » في الطبيعيات ، الذي يزداد عن طريقه طول الاشعة السينية عن طريق تركيز شديد للالكترونات ، والقاعدة المستخلصة من هذا القانون هي انك تستطيع ان تصنع ضوءاً أحمر من ضوء أزرق . « فالضوء الأزرق الأسرع ذبذبة يضع برنامجاً للضوء الأحمر ، وليس العكس » .

ان ما يقوله الدكتور فوستر لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن حجة « الساعة » التي قال بها بالي Paley ان « بالي » اللاهوتي قد قال انه حينما يتظر الى كيف تعمل ساعته ، فانه يتبين انها تدل على صانع ذكي ، وان الانسان - رغم كل شيء - اكثر تعقيداً من اي « ساعة » في الوجود . ومع ذلك فان الدكتور فوستر - اذا كنت قد فهمته فهما صائباً - لا يحاول ان يدخل الله من الباب الخلفي . انه اقل اهتماماً بالنظريات التي تدور حول من يضع البرامج منه بالحقيقة التي توضح ان « ثمة » عملية برمجة تتخلل الطبيعة بأسرها ، انه مهتم بالسؤال الذي يبحث عن الكيفية التي تحمل بها المعلومات الى مادة الـ « د.ن.م » ، وان « الاشعة الكونية » تتقدم باعتبارها فرضية معقولة للإجابة على هذا السؤال . وهو يقول : « يقيم المرء صورة جديدة للكون باعتباره كوناً مرقماً او كون معلومات ، ولكن بسبب المؤثرات السيبرناطيكية العاملة فيه ، قانني اظن انني افضل ان ادموه : الكون الذكي » .

انه لما يثير الاهتمام ان الدكتور فوستر لا يصل الى هذا الكون الذكي من خلال البدء بفكرة الغاية او الله ، مثلما يفعل المفكرون الدينيون ، وانما يصل اليه

ببساطة ، عن طريق الاهتمام بالحقائق التي نعرفها الآن عن طريق البرمجة
السيبرناتيكية للمادة الحية . ومن خلال هذا الاهتمام تبرز صورة للكون
تتلاءم مع نظريات العلماء وعلماء النفس الآخرين خلال السنوات العشرين الماضية:
تيار دي شاردان ، وسير جوليان هكسلي ، س . ه . وادينجتون ، ابراهام
ماسلو ، فيكتور فرانكل ، ميشيل بولاني ، نودام تشومسكي . ان ما يشترك فيه
كل هؤلاء الرجال هو مقاومة « النزعة التفسيرية » التي اعني بها محاولة تفسير
الانسان والكون عن طريق قوانين الطبيعة او سلوك فئران المعامل . على سبيل
المثال ، يكتب عالم النفس ابراهام ماسلو قائلا : « يتمتع الانسان بـ « طبيعة اسمى »
مما احتوته غرائزه باعتباره طبيعته الادنى ، الحيوانية .. » . اما نظرية الدكتور
فoster عن « الكون المرقم » فقد تكون اكثر جسارة من النزعة النشئية عند
هكسلي ووادينجتون ، ولكن الروح متشابهة بصورة جوهرية ، ليس من
تناقض بينهما .

كل هذا يعني انه لأول مرة في التاريخ الغربي يستطيع كتاب عن « الغيب
ومعرفته » ان يكون شيئا اكثر من مجموعة من الخوارق والاقوال السخيفة المجردة
من المعنى . ان الدين والنزعة الصوفية والسحر ، تنبع كلها من نفس « الاحساس »
الاساسي ازاء الكون : احساس مفاجيء بـ « المعنى » الذي يستطيع الناس احيانا
ان « يلتقطوه » مصادفة ، مثلما قد يلتقط مدياعك محطة مجهولة دون قصد .
والشعراء يشعرون باننا مفضولون عن المعنى بحائط سميك من الرصاص ، واننا
احيانا ، ودون سبب ، نستطيع ان ندرك ان الحائط يبدو وكأنه قد اختفى واننا
فجأة مغمورون بالمغزى اللانهائي للاشياء . ان ايفان كارامازوف ، قتي احدي
روايات دوستوفسكي ، يحكي قصة عن ملحد لم يكن يؤمن بالحياة بعد الموت ،
وبعد ان مات ، حكم الله عليه بان يسير الف مليون من الاميال على قدميه عقابا لله ،
ويرقد الملحد على الطريق رافضا ان يسير مليوناً من السنوات ، ومع ذلك ،
فانه بعد قليل قام فجراً نفسه ، وتحامل على قدميه وسار المليار من الاميال على
مضض . وحينما سمح له اخيرا بان يدخل الفردوس ، اعلن على الفور ان خمس
دقائق يقضيها في الفردوس كانت تستحق ان يسير عشرة اضعاف ما ساره
بالفعل . يضع دوستوفسكي يديه على هذا الاحساس الصوفي بمعنى يبلغ من
الحدة درجة تجعله يفوق او يتجاوز اي شيء نستطيع ان ندركه ويستطيع ان
يجمل « اي » مجهود نبذله يستحق العناء ويكتسب القيمة . انه الاحساس بالمعنى
الذي يدفع الانسان الى ان يبذل الجهود اللازمة من اجل الارتقاء . انه حينما
يؤمن بان ضجره وتشاؤمه يدلانه على حقيقة الكون قانه يرفض ان يبذل اي مجهود .
اما اذا استطاع - مثل الخاطيء الذي حكى عنه ايفان - ان يلمح « المعنى » لمحة

مفاجئة ، فانه جدير بأن يصبح منيعا على القتل لا يمكن قهره ، ويمكن ان يكون سير مليار من الاميال مجرد نكتة .

اذن فقد اتفق العلم الغربي دائما على ان هناك الكثير الذي عليه ان يكتشفه في الكون - ولكنه بصورة جوهريّة كون ميت وميكانيكي . ويمكنك ان تقول ان العالم ليس سوى باحث مجيد عن الحوادث العارضة . والباحث عن الحوادث العارضة ، هو نفسه نتاج حادثة عارضة ، ولكن الانسان يحركه المعنى الى درجة اعلى بكثير مما تحركه الحوادث . لقد وجد عالم الكهوف القديمة ، الفرنسي نوربرت كاستيريت ان الكهوف السفلية في مونتسبان الجديرة بان تكتشف مثيرة للاهتمام ، ولكن هذا الاهتمام لم يكن شيئا يذكر بالنسبة لما شعر به من الاثارة حينما وجد ان جدران الكهوف كانت تغطيها رسوم الاسود والحياد ، فتبين انه قد عثر باصدفة على فن انسان الكهوف في عصور ما قبل التاريخ . ان اكتشاف نتاج الذكاء لاكثر اثارة على السدوام من اكتشاف نتاج الحادثة العارضة .

فلو ان دافيد فويستر على صواب ، او حتى لو ان رايه هو نصف الصواب ، فانها البداية لعصر جديد في المعرفة الانسانية ، ذلك ان العلم سوف يكف عن ان يكون بحثا عن حادثة عارضة لكي يصبح بحثا عن معنى . انه يكتب قائلا : « ان الكون بصورة كلية بناء متكامل من الموجات والذبذبات ، مضمونها الداخلي هو « المعنى » . . معترفا في الوقت نفسه بان ادواتنا ما تزال غليظة الى درجة تمنعنا من ان نحل شفرة المعاني التي تحملها الذبذبات عالية التردد . ولكن ان نؤمن بان المعنى موجود هناك ، وانه من الممكن حل شفرته ، فان هذا يمثل خطوة هائلة الى الامام ، تكاد تساوي اللحظة الخاطفة التي القاهها الملحد على الفردوس .

وبسبب اهدافنا القريبة ، فان هذا الايمان ، يعدنا ايضا بصورة للكون تفسح مكانا لـ « الظواهر الخفية » مثلما تفسح مكانا للطبيعيات الدرية . في الماضي كانت المشكلة دائما هي اين نرسم الخط الفاصل بين نوعين من هذه الظواهر . فاذا كان بوسعك ان تقبل الاتصال العقلي عن بعد « telepathy » والاحاسيس او الاحداث المنبئة بالمستقبل ، فلماذا لا تقبل التنجيم وقراءة الحظ او المسوخين الى ذئاب متوحشة ومصاصي الدماء والاشباح والساحرات يطلقن التعزيمات اللعينة ؟ لانك اذا كنت تزمع ان تناقض المنطق العلمي ، فيمكنك اذن ان تأخذ سعدا بسعيد او ان تلقى جزاء اللص لسرقة عنزة مثلما تلقاه لسرقة حمل . فانظر كم من الاشياء المستحيلة يمكنك ان تؤمن بها قبل ان تتناول طعام الافطار .

ومن الجانب الآخر ، فان نظرية الدكتور فوستر تتفق مع انواع الحدس لدى الشعراء والمتصوفة والمؤمنين بالظواهر الخفية : تتفق على ان ثمة « معاني » تطفو حولنا ، انقطعت الصلة بيننا وبينها بصورة طبيعية بسبب العادة ، والجهل وهتامة الحواس او بلادتها . ان ما يدعى بالموروثات الخفية ، قد لا تكون اكثر من خرافات متوحشين جهلة ، ولكنها يمكن ايضا ان تكون محاولة لتفسير واحدة من تلك النظرات الخاطفة كاللمحة ، تلقى بالصدفة على المعنى الذي يصل الى اعماق ابعد من التوافه اليومية ، في اللحظة التي يلتقط فيها جهاز المذياع الانساني ذبذبات غير معروفة . وعلى اي حال فان كلمة « الغيب » تعني « المجهول » ، الخفي . او ربما لم تكن تلك النظرات الخاطفة عارضة ولم تحدث بالصدفة ، ربما كان « الكون » الذي يحاول ان يتصل بنا ، ان يتواصل معنا .

ولكن سواء كنا نريد ان نمضي الى هذا المدى ام لا نريد ذلك ، فان هناك احساسا بالحرية في كوننا قادرين على ان نقبل ان الكون مليء بالمعنى الذي نستطيع ان ندركه لو ائنا تحمسنا لذلك وبدلنا من اجله ما يتطلبه من جهد . ويعبر برتراند راسل عن الاحساس نفسه في كتابه « تطور فلسفتي » حينما يروي كيف وصل الى رفض الفكرة الكانطية القائلة بانه ليست هناك « حقيقة » في العالم الخارجي ، خارج ذات الانسان : « باحساس بالهرب من سجن ضيق ، سمحنا لانفسنا بان نظن ان الحشائش خضراء ، وان الشمس والنجوم سوف تكون موجودة اذا لم يكن هناك من يشعر بها او يحس بوجودها ، وسمحنا لانفسنا ايضا بان نظن ان ثمة عالما لانهاضي الزمن ، متعددا ، من المثل الافلاطونية . . »

لا بد للانسان ان يؤمن بالحقائق الواقعة خارج ضالته هو الخاصة ، خارج « تفاهته اليومية » اذا كان له ان ينجز اي شيء له قيمة او يستحق الانجاز .

ويصل بي هذا الى واحدة من القضايا المحورية لهذا الكتاب . فمذ عام ١٨٨٧ ، اشار ماكس مولر ، محرر كتاب : « كتب الشرق المقدسة » ، اشار الى انه (١) بسبب كل الدلائل الممكنة ، فان اسلافنا منذ الفين من الاعوام ، كادوا ان يكونوا مصابين بعمى الالوان ، مثل معظم الحيوانات الآن . « لم يعرف اكسونوفون سوى ثلاثة من الوان قوس قزح ، ولم يعرف ديموقريطوس سوى اربعة الوان منها - الاسود والابيض والاحمر والاصفر . » ومن الواضح ان هومير قد ظن ان للبحر لون التبيد . وليس هناك كلمات تدل على الالوان في حديث الشعوب

(١) علم التفكير (نيويورك ، سكريبنر) المجلد الاول ص ٢٩٩ . واقتبسها م بيولا

في « لومبي الكونسي » . (نيويورك - ١٩٠١) ص ٢٨ .

الهندو اوروبية . ويمكننا اذن ان ندرك السبب الذي دفع الاسكندر المقدوني لتلميذ ارسطو ، الى ان ينفق حياته في غزو العالم . فلا بد انه كان عالما واحد اللون كئيبا ، لا تميز فيه بين حمرة النبذ وزرقة البحر الخضراء ، وخضرة الحشائش الزمردية ، وزرقة السماء العميقة . بل ان السبب في مثل هذا العمل مفهوم من الناحية البيولوجية . كانت الحياة قاسية وحشية عنيفة ، ولم تكن للقدرة على ادراك الفروق الحاسمة بين الافكار والالوان من قيمة تفيد في البقاء على قيد الحياة . وقد كان الاسكندر خلقا مليئا بالحيوية ، فاي شيء اذن كان امامه ان يفعله سوى ان يغزو العالم ، ثم يبكي حينما لا يبقى امامه ما يمكن غزوه ؟

ولكن القدرة على الاستمتاع بـ « الذبذبات الحاسمة » تمثل جانبا هاما من متفاساتنا الحيوية . ان رجلا لا يستطيع ان يقرأ ، سوف يقضي وقتا بالغ الكتابة حينما يضطر الى ان يقبع في المستشفى بعد جراحة خطيرة ، بينما قد يجد الرجل الذي يحب القراءة ان الكسل لذيذ وممتع : ان الضجر هو الافتقار الى القدرة على تسجيل الذبذبات الحاسمة . وتعريف الكيان العضوي الحي هو انه كيان عضوي قادر على الاستجابة لذبذبات الطاقة . وهذه الذبذبات تكون « المعاني » . فسواء كنت مسترخيا امام نار المدفأة ، او استمتع بكأس من النبذ ، او انفع بسماع سيمفونية ، او اشم رائحة الحشائش المقطوعة ، وانا اجزها في الحديقة ، فاني اتلقى في كل حالة « معاني » واسجل ذبذبات . ليس الفارق الهام بين الرجل وكلبه فحسب هو ان الكلب مصاب بعمى الالوان ، وانما الفارق الهام بينهما هو ان للرجل مجالا اوسع بكثير للاستجابة فيما يكاد يكون كل ميدان .

كلما ازداد رقي شكل الحياة ، ازداد عمق قدرتها على تسجيل المعنى ، وازدادت قوة قبضتها على الحياة . كان المعنى بالنسبة للاسكندر مرتبطا بالغزو ، وحينما بلغ الحد الاقصى للغزو ، كان ايضا قد بلغ الحد الاقصى لطاقته . كان قد غزا العالم وهو في الواحدة والثلاثين . ومات في الثالثة والثلاثين .

والارتقاء ببساطة هو القدرة على تلقي وتسجيل المعاني الموجودة بالفعل . ان الازرق والاخضر قد وجدا ، حتى وان لم يكن اكسونوفون قد استطاع ان يميز بينهما . ونحن نرتقي على الدوام في قلب عالم يصبح على الدوام اكثر فتنة وسحرا كلما تعلمنا ان نتلقى . وان نسجل ذبذبات جديدة . ولا شك ان البشرية ، بعد الف سنة اخرى ، سوف ترى كونا تتيه فيه الابصار ، يتللا بانني عشر لونا لا وجود لها بالنسبة لنا .

اذن ، فلا بد ان يكون واضحا ان زيادة في « حدة الذهن » انما هي ارتقاء « نحو الداخل » . ان عامل اصلاح الساعات في فترة التمرين ، يبدأ باصلاح

الساعات الدقاقة الكبيرة ، ثم يتدرج ببطء حتى يصل السى ادق الساعات واصفها . انه يطور نوعا متزايدا من السكينة والتركيز ، وهذه ميزات « داخلية » .

لقد بلغ الانسان نقطة في ارتقائه اصبح عليه فيها ان يرتقى من الساعات الدقاقة الكبيرة الى الساعات الصغيرة ، من الكبير الى الدقيق . لا بد له ان يلتفت الى الداخل بصورة متزايدة . وهذا يعني ان عليه ان يلتفت الى المستويات الخفية من وجوده ، الى « الخفي » ، الى المعاني واللبذبات التي كانت حتى الآن اكثر دقة من ان يقبض عليها بيديه او ان يدركها بعقله .



لقد قسمت هذا الكتاب الى ثلاثة اجزاء . ورغم انني كنت انوي اصلا ان اعطيه شكل التاريخ ، فاني شعرت انه يحتاج الى قسم تمهيدي طويل - قسم يستطيع فيه ان اقرر انشغالاتي السابقة وما اقتنع به . لقد قلت ان ثمة علاقة بين القدرة على الخلق وبين الحساسية النفسية psychic . فالشخص الخلاق يهتم بمعالجة قدرات العقل غير الواعي ، وهو في قيامه بهذا ، قد يصبح مدركا لوجود قوى لا تكون - عادة - في متناول الوعي . وهذا هو السبب الذي دفعتني الى تضمين هذا القسم مناقشات حول « الكتاب الصيني للتغيرات Ching » وحول اوراق اللعب من نوع « التاروت » .

اما القسم الثاني فهو التاريخ الذي كنت قد بدأت اكتبه . كان يمكنني ان اختار اما تاريخا للسحر بوجه عام ، او تاريخا للأفراد من اصحاب القدرات الخارقة والقادرين ، مع الخلفية التاريخية اللازمة لربط الواحد منهم بالآخر . وقد اخترت الطريق الاخير .

اما القسم الثالث من الكتاب فقد اهتم بالموضوعات التي لم يكن لدي ما يكفي من الوقت الا لمسها من بعيد في القسم الثاني : السحر ، والمسخ السى صورة الدب ونزعة مصى الدماء ، وتاريخ النزعة الروحانية ومشكلة الاشباح والارواح الشريرة . اما الفصل الاخير من الكتاب « لمحات » فيعود الى موضوعات هذا التمهيد : المسائل الميتافيزيقية التي تثور من خلال النزعة الفيبية ، مشكلة الزمن ، وطبيعة « قدرات الانسان الخفية المستترة » .

هذا كتاب كبير ، وهو تاريخ شامل بقدر ما يمكنني ان اجعله شاملا . ولكن سرعان ما اصبح واضحا لي انه كان من الاساسي ان يصبح اعرابا شخصيا عن اقتناع بشيء معين اكثر من ان يكون دائرة معارف . هناك دوائر معارف جيدة

تبرز من بينها بوجه خاص « دائرة معارف العلوم الغيبية » التي ألفها لويس سبنس ، وهناك أيضا « دائرة معارف علوم الخوارق غير الطبيعية » ، وهناك الكتاب انطموح الواسع المجال : « الانسان والخرافة والسحر » ، الذي لم يكن - في لحظة ذهاب هذا الكتاب الى المطبعة - قد بلغ سوى المجلد الثاني من سبعة مجلدات . ولكن الامر الذي يمكن ان يؤخذ على تلك الكتب هو انها تميل الى ان تكون تكوينها نللمعلومات التي لا شيء يربط بينها . وقد وقعت كتب المرحوم تشارلز فورت في الخطأ نفسه . لقد انفق حياته في جمع التقارير الصحفية عن احداث غريبة ولا يمكن تفسيرها من اجل ان يزعم اعلماء ويبحث في عقولهم القلق؛ ثم فشل في ان يصرف انظار احد عما بين يديه لكي يشغله بما جمعه باستثناء المعجبين به ، لانه لم يفعل اكثر من انه القى في وجوه الناس بجبل هائل من المعلومات والحقائق مثل كومة من خشب الوقود آمل ان تقوم هذه الحقائق وحدها باقناع الناس . ولكن الحقائق لا تفعل هذا . وربما كنت - في هذا الكتاب - قد اسرفت في النقاش، ولكن هذا السبيل لاح لي اسلم السيلين .

في فصل من الفصول الاولى ، اتحدث عن المصادفات ، ومن المؤكد انه كان هناك ما يكفي من المصادفات في تأليف هذا الكتاب . فذات مرة ، بينما كنت ابحث عن معلومة محددة ، سقط كتاب من فوق احد الرفوف وانفتح على الصفحة المطلوبة . وكانت شذرات من بعض المعلومات المطلوبة تصلني او تظهر لي في طواعية كانت تستفز اعصابي احيانا . واعتدت على هذا بعد فترة من الزمن بل بدأت اشعر بنوع من الاستياء الخفيف حينما تروغ مني معلومة لمدة عشر دقائق او نحوها . الامر الذي يبدو انه يوضح ما ارمي اليه من انه اذا ما تدخلت الظواهر والدوافع والقوى غير الطبيعية بشكل اكثر من اللازم في الوجود الانساني، فان ذلك قد ينتهي باعتيادنا الكسل .

وفي اثناء البحث وتأليف هذا الكتاب ، تغير موقفي انا الخاص من الموضوع . ورغم انني كنت اشعر دائما بشيء من الفضول ازاء « الغيب الخفي » وسبيل معرفته - حتى اصبح لدي اكثر من خمسمائة مجلد تبحث كلها في السحر وفي الظواهر والقوى والدوافع غير انطبيعية - فان « الغيب ومعرفته » لم يكونا أبدا من بين اهتماماتي الرئيسية ، مثل الفلسفة او العلم او حتى الموسيقى . وبينما لم اكن شكاكاً بصورة كاملة أبدا ، فقد شعرت بان اكثر الناس مهتمون بالدوافع والقوى غير الطبيعية لاسباب بعيدة عن الصواب . لقد كانت جدي مؤمنة بالروحانيات ، ولم يترك لدي الاشخاص القليلون من الروحانيين الذين قابلتهم من خلالها اي انطباع يجعلني اعتبرهم اذكاء او متيقظين بصورة غير عادية . وقد حدث منذ ما يقرب من عشر سنوات ان تحدث الي « ج . ويلسون نايت » - وهو متخصص

في شكسبير - حول النزعة الروحانية ، واعارني بعض الكتب في هذا الموضوع ، ومرة اخرى سم استطيع ان ادفع نفسي الى الاهتمام العميق به . ولم يكن الامر امر رفض لما قاله عنه ، فقد كنت اكن ما يكفي من الاحترام له ولثقافته في ميادين اخرى لدرجة تجعلني اتقبل فكرة انه لم يكن يعرب عن امانيه واحلامه اكثر مما يفكر تفكيراً جدياً . ولكنني كنت اشعر بان الاهتمام بعوالم الفلسفة او علم النفس ، يجعل من « توافه » الامور ، هذا الاهتمام بالحياة بعد الموت ، مثلما هو الامر في الاهتمام بالشطرنج او بالرقص . كانت تفوح من هذا الموضوع رائحة الشيء « الانساني » ، لا شيء غير الانساني . وقد عبر انبير كلامي عن هذا الاحساس نفسه حينما قال : « لا اريد ان اؤمن بان الموت يفتح باباً على حياة اخرى . الموت بالنسبة لي ، باب مغلق . . تحاول كل الحول التي قدمت الي ان تاخذ من الانسان ثقل حياته . انني اذ ارقب تطليق الطيور العظيمة وانطلاقها الى السماء في بلدة « جميلة » ، فاني لا اطلب لحياتي الا مثل هذا الوزن المحدد اليقيني دون غيره . » وقد امتلك هيمنجواي هذا الاحساس نفسه حينما كان في افضل حالاته . انه احساس بان حياتنا تستطيع ان تقدم : « حقيقة وكثافة » تجعل اكثر العواطف الدينية عادية تبدو نافهة مضللة في حد ذاتها . فانروحاني يقول : « من المؤكد ان هذه الحياة ستكون بلا معنى لو انها وصلت الى نهايتها الختامية بالموت . » اما اجابة كامى فتقول بانه اذا تقبل الحياة بعد الموت باعتبارها « اجابة » او « حلا » لمشكلة هذا الخلو من المعنى ، فانه يفقد حتى احتمال وفوق اللحظات التي تصبح فيها الحياة « حقيقية » بشكل غريب .

ولم يحدث الا منذ عامين فحسب ، حينما شرعت في البحث المنتظم من اجل هذا الكتاب ، ان تبين التماسك والصلاية الملحوظة للدلة على امور من نوع الحياة بعد الموت ، والتجارب الخارجة عن حدود الجسد (مثل الرؤية الوهمية) والتناسخ او اعادة التجسد . لقد ظل موقفى دون تغيير بمعنى اساسي . فاني ما زلت اعتقد ان الفلسفة - اي البحث عن الحقيقة عن طريق الحدس المؤيد بالدهن - هي الوسيلة الاكثر جدارة بالاهتمام والاكثر اهمية من مسائل « الغيب ومعرفته » والاسئلة التي يطرحها . ولكنني اذ شرعت في وزن الادلة واختبارها ، بهذا الاتجاه العقلي غير المتعاطف فانها قد اقنعتني بان المزايم الاساسية للنزعة الفيبيية هي مزايم صحيحة . ويبدو لي ان حقيقة الحياة بعد الموت قد اصبحت قائمة بعيدة عن متناول اي شك معقول . انني اتعاطف مع الفلاسفة والعلماء الذين يعتبرون هذه الحقيقة مجرد هراء عاطفي ، لانسي - بشكل مزاجي - اقف في صفهم ، ولكنني اظنهم يفلقون عيونهم امام ادلة جديرة

بأن تقنعهم لو انها كانت تتعلق بعادات التزاوج بين فئران التجارب البيضاء او سلوك جزيئات اشعة الفا .

في خلال القرون القليلة الماضية ، جعلنا العلم ندرك ان الكون اكثر غرابة واكثر اثارا للاهتمام مما ظنه اسلافنا . وانها لفكرة ممتعة ان نقول ان هذا الكون قد يتضح انه اكثر غرابة واكثر اثارا للاهتمام مما يعلن العلماء عن استعدادهم للاعتراف به .

القسم الأول

استقصاء الموضوع

السحر - علم المستقبل

في مقدمة كتاب « نموذج جديد للكون » الذي ألفه « ب . د . د . اوزينسكي »
فقرة لم يحدث أبدا ان قصرت في تحريك اعصابي واثارتي ، تقول :

« انه عام ١٩٠٦ او ١٩٠٧ . هنا مكتب التحرير الخاص بانصحيفة اليومية
« الصباح » التي تصدر في موسكو . تسلمت لتوي الصحف الاجنبية ، وعلي ان
اكتب مقالا عن المؤتمر القادم في مدينة لاهاي الهولندية . انها صحف فرنسية
والمانية وانجليزية وايطالية . جمل وراء جمل ، متعاطفة ، نقدية ، ساخرة ،
صخبية ، متفاخرة ، كاذبة ، واسوا ما فيها تلك العبارات الالية الكاملة ، العبارات
التي استخدمت آلاف المرات ، والتي سوف تستخدم ثانية في مناسبات مختلفة
وربما في مناسبات متناقضة . علي ان اصنع حصرا شاملا لكل تلك الكلمات
والآراء ، متظاهرا بانني آخذها على محمل الجد ، ثم ، وبطريقة لا تقل جدية ، علي
ان اكتب شيئا من عندي . ولكن ماذا يمكنني ان اقول ؟ انه امر لا يثير سوى
الملل . سوف يجتمع الدبلوماسيون وكل انواع السياسيين - ورجال الحكم
وسوف يتحدثون ، وسوف توافق اوراقهم او لا توافق على ما يقال ، وسوف
يتعاطفون او يتناقرون . ثم سوف يبقى كل شيء على ما كان عليه ، او
ربما اسوأ .

ما زال الوقت مبكرا ، هكذا اقول لنفسي ، فربما طرا شيء ما على راسي
فيما بعد .

واذ ازيح الاوراق جانبا ، فانهي افتح احد الادراج في مكتبي . المكتب كله
مزدحم باكوام مشتبكة من الكتب ذات العناوين الغريبة : « عالم الغامض والغموض » ،

« الحياة بعد الموت » ، « اتلانيس ولوميريا » ، « قواعد الساحر الأكبر وطقوسه » ، « معبد الشيطان » ، « الحكايات الصادقة لآحد الحجاج » وغيرها وغيرها . هذه الكتب وأنا لم ننفلل لأكثر من شهر ، فأصبح عالم مؤتمر مدينة « لاهاي » والمقالات الافتتاحية أكثر وأكثر غموضا ولا واقعية بالنسبة لي .

فتحت آحد الكتب بطريقة عشوائية ، شاعرا بأن مقالي لن تكتب في هذا اليوم . حسنا ، يمكنها أن تذهب إلى انشيطان . فلأن الإنسانية لن تخسر شيئا إذا نقصت المقالات عن مؤتمر لاهاي مقالة واحدة . . . »



حينما قرأت هذه الفقرة للمرة الأولى ، أضفت إليها ظروفها الخاصة مغزى جديدا . كنت في العشرين من عمري ، وكنت متزوجة منذ عام . كانت زوجتي وولدا يعيشان في حي « إيرلس كورت » بلندن ، وكان هذا هو بيتنا الرابع في سنة واحدة ، وكانت مالكة منزلا نصف المجنونة هي رابعة مالكات البيوت اللواتي قابلتهن ، وأكثرهن سوءا . كنت متعطلا عن العمل آحصل على الإعانة الحكومية للبطالة ، وقد وجدت هذا الوضع مثيرا للأعصاب بنفس الدرجة التي تتمتع بها الوظائف التي حصلت عليها في المصانع منذ زواجي . لم تبد لي لندن مجرد مدينة غريبة ، بل بدت لي غير حقيقية بشكل ما . وهكذا فقد أدركت آحاسس أوزينسكي بالفثيان آزاء مشروع الكتابة عن مؤتمر لاهاي ، وأدركت أيضا ذلك الاشتياق إلى « عالم آخر » ذي معنى أكثر عمقا ، مثلته الكتب التي تتحدث عن السحر والغموض . وهناك فقرة في كتاب لويس - فرديناند سيلين تصف العالم بأنه عالم تعفن بالكاذب ، تعفن حتى وصل إلى درجة الانهيار والتحلل . لم يكن علي إلا أن أنظر إلى الإعلانات في أنفاق مترو لندن ، أو إلى العناوين الرئيسية في الصحف اليومية ، لكي آكتشف أنه وصف واضح الصدق . أكاذيب وغبابة وضعف وتوسط عادي - أنها حضارة دون مثل عليا .

كان هذا هو ما جعلني أقرأ أوزينسكي ، وكل الكتب الأخرى عن السحر والنزعة الصوفية الغيبية التي استطعت أن آعثر عليها في المكتبات المحلية ، ليس فقط لأنها كانت منفذا للهرب من عالم المصانع ومالكات المنازل العصيات ، وإنما لأنها آكدت حدسي بعالم له حقيقة من طراز ونظام مختلفين ، « له شكل أكثر كثافة وأكثر قوة من أشكال الوعي » من أنواع مختلف عن النوع الذي بدا لي أنني آشارك فيه الملايين الثمانية الآخرين من أهالي لندن .

ولكنني لو سلطت في ذلك الوقت عما إذا كنت آؤمن حرفيا بالسحر ، لكنني قد آجبت بالنفي : وأن ذلك كان نوعا من الخلق الخيالي الشعري ، رمزا للعالم الذي

كان « ينبغي » ان يوجد ، ولكنه لم يوجد قط . وباختصار ، نوعا من الاماني التي حلت محل التفكير . في الجملة الاولى من كتاب « السحر الشعائري » ، يكتب م.أ. بتلر قائلا : « ان الهدف الرئيسي لكل سحر هو فرض الارادة الانسانية على الطبيعة ، وعلى الانسان ، وعلى العالم الذي لا تدركه الحواس من اجل تحقيق السيادة عليهم » . واذا كان هذا تعريفا صحيحا وعادلا للسحر ، اذن لا تفقت مع جون سيموندز ، كاتب ترجمة حياة آليستر كراولي ، الذي قال : « ان المشكلة الوحيدة في السحر هي انه لا يعمل شيئا ولا يؤدي الى شيء » لقد شعرت بأن السحر ليس سوى محاولة خشنة فجأة اولية في الطريق الى العلم ، وان العلم قد تجاوزه الآن وخلفه وراءه .

ولو كنت قد ظلت على تقبلي لهذا الرأي ، لما كنت اكتب هذا الكتاب . ان الامر يبدو لي الآن ان العكس تماما هو الصحيح . لم يكن السحر هو « علم » الماضي . انما هو علم المستقبل . انني اؤمن بان العقل الانساني قد بلغ نقطة في ارتفاعه وتطوره اصبح فيها على وشك تنمية قدرات جديدة - قدرات كانت قد اعتبرت ذات مرة قوى سحرية . من المؤكد ان هذا العقل قد امتلك على الدوام قدرات اعظم بكثير مما نعتقد الآن : قدرات مثل التواصل العقلي عن بعد ، والاحساس مقدما بالخطر ، والحاسة السادسة او البصيرة ، وصنع المعجزات الطبية (القدرة على الشفاء) . ولكن تلك القدرات كانت جزءا من ميراثه الحيواني الفريزي . فطوال الالف سنة الاخيرة او نحوها ، كان الجنس البشري مشغولا بتطوير نوع آخر من القدرات المرتبطة بالذهن ، والنتيجة هي الحضارة الغربية . ولكن قدراته غير الواعية لم تضر ، وانما « اختفت تحت الارض » . وقد اكملت العجلة الآن دورة كاملة ، فبلغ الدهن حدودا معينة ، ولا يمكنه ان يتقدم الى ما وراءها حتى يسترد بعضا من القدرات المفقودة . وسوف يدرك كل من قرأ الفلسفة الحديثة ما اعنيه . لقد اصبحت فلسفة ضيقة الأفق ، متزمتة ، منطقية ، وهي تحاول ان تعوض افتقارها الى صور الحدس الاكثر اتساعا ، بتركيزها المجري على التفاصيل . لقد قصلت نفسها عن مصدرها .

وما هو في الحقيقة مصدر الفلسفة - او في هذا الصدد - ما هو مصدر اي معرفة ؟ انه يشكل اساسي الاحتياج الى القوة . ليس عليك الا ان تراقب وجه طفل تعلم لتوه ان يفتح بابا بأن يدير « الكرة » لكي تدرك ما هو « الفرض » من المعرفة . وفي القرن العشرين اصبحت القوة كلمة تثير الشكوك ، لانها اصبحت مرتبطة بفكرة القوة اذ تفرض نفسها على الآخرين . ولكن هذا المعنى ليس سوى اقل تطبيقات كلمة القوة اهمية . ان واحدة من الاساطير الاساسية عن السحر ، هي تلك التي تدور حول السلاحر الباحث عن القوة السياسية . انه يتلقى عددا

من التحذيرات ، فاذأ اصر على هدفه ، ناله الدمار . القوة السياسية تدعم الانا ، اما اقوة السحرية فترفع من مستوى اللاوعي ، وتبعده عن مستوى الدافع غير الشخصي . يصف اوزينسكي بداية « بحثه عن الخارق المعجز » بقوله :

« انني تلميذ في الصف الثاني او الثالث . ولكن بدلا من كتاب زيفيرت عن قواعد اللغة اللاتينية . . اضع امامي كتاب مالمينين ، ويورنين عن « الطبيعيات » . لقد استعرت هذا الكتاب من احد الاولاد الاكبر سنا ، وانا اقراه بنهم وفي حماس ، تغلبنى النشوة احياء ويتطكنني الرعب في احيان اخرى ، امام الاسرار التي تتكشف وتفتح امامي . كل ما حولي جدران تنهاوى ، وآفاق لا نهاية لبعدها تنفسح امام عيني في جمال لا يصدق . انها كما لو كانت خيوط كثيرة ، لم يشك احد في وجودها ولم يعرف بها احد ، تبدأ في الامتداد لكي تربط الاشياء بعضها ببعض . لأول مرة في حياتي ، يبرز عالمي من قلب الغوضى . كل شيء يصبح مرتبطا بكل شيء مكونا « كلا » منتظما منسجما متناظرا . . »

قد يكون هذا النوع من التعبير اللغوي مسرفا في تضخيم المعاني : (آفاق لا نهاية لبعدها ، وفي جمال لا يصدق) . ولكن قد يكون من المهم ان نتذكر ان اوزينسكي كان قد درب وتعلم بوصفه عالما ، وانه يحاول ان يكون دقيقا صارما في دقته . انه يعني بالتحديد ذلك : الاحساس المفاجيء بالمعاني ، الاكبر بكثير من ذات الانسان ، والتي تجعل المشاغل الشخصية السابقة كلها ، تبدو في صورة التوافه . وحتى برتراند راسل ، مؤسس « الدرية المنطقية » ، يضع يده على هذا الاحساس : « لا بد لي ، قبل ان اموت ، ان اجد طريقا « ما » لقول الشيء الاساسي الذي هو في داخلي ، والذي لم اقله ابدا بعد - انه شيء ليس حبا وليس كراهية ولا شفقة ولا احتقارا ، وانما هو نفس الحياة ، نسمتها ذاتها ، قوي جامع آت من مكان قصي بعيد ، جالبا في داخل الحياة الانسانية قوة الاشياء اللاانسانية الهائلة والخالية من اي عاطفة الى درجة مخيفة » (١)

ان القوة التي يمكن ان تستمد من هذه « اتقوة الخالية من الانفعال والمخيفة » ليست قوة سيطرة على الاشياء والناس الا بطريق الصدفة . انها بشكل اساسي قوة سيطرة الانسان على ذاته ، والاتصال ب « مصدر ما للقوة والمعنى والغاية » في داخل العقل اللاواعي .

ان القدرة على الاحساس بالاستثارة من خلال « الآفاق التي لا نهاية لبعدها » لقدرة خاصة يتميز بها البشر . ولا يوجد حيوان آخر يمتلكها . انها نوع من

(١) خطاب الى كونستانس هالسون ، ١٩١٨ ، ورد في كتاب راسل : « تطور فلسفتي » ص ٢٦١ .

بعد النظر الذهني يمكن ان يقارن بمنظار مقرب ذي عدستين . ولقد نمينا هذه القدرة عبر عملية التطور والارتقاء التي استغرقت مليونين من الاعوام . وفي الوقت نفسه استبعدت ملكات اخرى وسقطت فريسة تلاهمال وعدم الاستخدام . منها ، على سبيل المثال « غريزة الاهتداء الى البيت » . وفي كتاب « ضرورات موزعة على الاجناس » ، يكرس روبرت آردري ، المؤلف ، فصلا ممتعا (الرابع) لدراسة هذه الظاهرة . لقد اكتشف عالم يدعى جوهان شميدت الحقيقة التي تقول بأن كل سمكة من نوع « الجريث » « eel » (x) موجودة في العالم الغربي ، انما ولدت في بحر سارجاسو (شرقي وسط المحيط الاطلنطي) . ففي الخريف ، تشق اسماك الجريث الموجودة في اوروپا وشرقي امريكا طريقها هابطة كل الانهار حتى تنتهي الى بحر سارجاسو ، فيما بين جزر الهند الغربية وجزر الازور . وفي الربيع التالي ، تشق سمكات الجريث الصغيرة ، التي ولدت في البحر ، طريقها عائدة الى المياه العذبة ، وبعد سنتين ، وحينما يصبح طولها بوصتين ، تعود السمكات التي اكملت دورة نموها الى البيت « وحدها » . اما الاسماك من ذوات السلسلة الفقرية المكونة من ١١٥ فقرة ، فتعود الى اوروپا ، ولكن الاخرى ، من ذات السلسلة الفقرية المكونة من ١٠٧ فقرات فتسبح عائدة غربا الى امريكا . اما الآباء والامهات ، فيبقون في البحر لكي يموتوا .

وتقدم سلحفاة الماء انخضراء التي تقطن البحر الكاريبي عملا استعراضيا مشابها ، بسباحتها ١٤٠٠ ميل من البرازيل الى جزيرة « اسينسيون » في وسط الاطلنطي في اوان التزاوج ووضع البيض . اما فار الظبي الضئيل في صحراء ويومينخ (بالولايات المتحدة) ، والذي لا يزيد حجمه على حجم طرف اصبع الانسان ، فيمكن نقله الى مسافة ميل بعيدا عن بيته ، وهي مسافة تساوي مئة ميل قياسا الى حجم الانسان ، فيستطيع ان يعثر على طريق العودة فورا ودون ادنى احتمال للخطا الى مساحة الخمسين ياردة المربعة التي تكون « وطنه » ولا يبرحها راضيا طوال حياته . اما الحمام الزاجل فيستطيع ان يعود الى مقره على بعد مئات الاميال . وكان المعتقد قديما ان هذا لا يتحقق الا نتيجة لجهد شاق يبذله انسان في تدريب الطائر ، حتى اكتشف شخص ما ، مصادفة ، ان الحمام الصغيرة ، التي ما كادت تتعلم الطيران ، يمكنها ايضا ان تعود الى موطنها الاصلي ، وبيتها ، دون احتمال للخطا تماما مثل الحمام الكبيرة ودون اي تدريب ، بل انها غالبا ما تصل الى البيت في وقت اسرع من الكبار « المدرين » !

وفي حالات قليلة ، كان العلم قادرا على تفسير غريزة الاهتداء الى البيت . ويذكر فيتوس . ب. دروتشر بعض الامثلة في كتابه « حواس غامضة » . فالطائر

المسمى « ذا القبة السوداء » يطير مهتديا بالنجوم - على حشد اكتشاف الدكتور فزانر سوير ، بأن وضع بعضا من هذا الطائر فسي « قبة سماوية صناعية - Planetarium » اما اسماك السلمون - وفي هذا ما فيه من غرابة - فتهتدي بواسطة حاسة شم بالفة التطسور . وربما كانت اسماك الجريث تفعل الشيء نفسه ، رغم ان هذا لا يفسر كيف تعرف سمكات الجريث المولودة في عرض المحيط ان تشق طريق عودتها الى انهار لم ترها من قبل ايدا . اما النمل والنمل فتهتدي بالشمس . ويظن عالم من علماء جامعة كمبريدج ان الحمام الزاجل يهتدي بالحصول عن طريق الشمس على قراءة لموقعه من خطوط الطول والعرض ثم يقارنها بخطوط طول وعرض موقع بيوتها .

وهكذا . ربما لم تكن هناك حاجة لفرض نوع من « الحاسة السادسة » الفاضة تهتدي بواسطتها الحيوانات الى بيوتها . ولا شك ان هناك على الدوام تفسيرات « طبيعية » . ولكن في بعض الحالات ، سيصبح من الصعب ان نتخيل ما تكون تلك التفسيرات الطبيعية . لقد اخذ علماء من جامعة ويلهم بشافن بعض القطط ، مخبأة في حقيبة مغلقة ، في جولة طويلة بالسيارة حول المدينة . ثم اطلق سراح القطط فجأة في ساحة ذات اربعة وعشرين مخرجاً . واستطاعت معظم القطط ان تتجه مباشرة ودون تردد الى المخرج الذي يقع في اتجاه بيتها . وقد اكتشف عالم حيوان الماني اسمه « هانز فروم » ان غريزة الاهتداء عند طائر « ابي الحناء » Robins (پ) تقع فريسة للارتباك والتشوش حينما توضع الطيور داخل حجرة مصنوعة من الحديد ، والتفسير هو ان طيور ابي الحناء تهتدي في طيرانها عن طريق حساسية معينة ازاء ذبذبات كهرومغناطيسية ، والفرضية الشائعة هي ان تلك الذبذبات تنبع من سديم المجرة (الطريق اللبني) ، ولكن ليس هذا اكثر من تخمين غير يقيني .

ولكن ، حتى ولو امكن اثبات ذلك بطريقة قاطعة ، فهل يشكل ذلك حقا تفسيراً لغريزة الاهتداء الى البيت ؟ اننا نتعامل في هذا الصدد مع درجات من الحساسية بعيدة بعدا شاسعا عن تصوراتنا ومدركاثنا الانسانية ، وهي مدركات وتصورات تعتقد ان هذه الانواع من الحساسية ، مهما كانت وظائفها او افراضها ، انواع جديدة من الحواس . او انها بالاحرى ، « حواس قديمة » .

لا بد انه كان هناك زمن تمتع فيه البشر بغريزة اهتداء الى البيت ذات كفاءة مماثلة ، ذلك ان اسلافنا البدائيين كانوا يبحثون عن طعامهم في غابات هائلة شاسعة او في سهوب لا معالم لها . بل ان هناك سببا اكبر من هذا لافتراض ان الانسان قد امتلك ذات مرة حاسة متطورة تطورا غير عادي ، وظيفتها هي التنبؤ

بالخطر ، والا لكان اسلافنا الاوائل قد ابيدوا عن بكرة ابيهم في ادغال العصر البليوسيني الهائلة منذ اكثر من خمسة ملايين من الاعوام ، حينما كانوا يكافحون من اجل البقاء ، ضد مخلوقات اكثر منهم « تخصصا » في كل مجال وبكل طريقة . ولم يعد الانسان بحاجة الى الاستخدام الكثير لفريزة الاهتداء الى البيت او لهواجس التحذير من الخطر . لقد سقطت هذه الملكات فريسة لعدم الاستخدام والاهمال . ولكنها لم تختف اختفاء تاما . اذ يتضح الكثير من الادلة على انه في الظروف التي تشتد فيها ضرورة تلك الملكات ، فانها تصبح فعالة قادرة على القيام بوظيفتها كما كانت في البداية . فكل من قرأ الكتب العديدة التي كتبها جيم كوربيت ، مؤلف « اكلة الانسان في كوماون » سوف يتذكرون عددا من المناسبات انقذتهم فيها « حاستهم السادسة » .

يكفي هنا مثال واحد . ففي كتاب « معرفة الخبرة بالادغال » ، يصف كوربيت كيف كان يهم بالاستحمام ذات مساء حينما لاحظ ان قدميه يغطيهما تراب احمر اللون . كان هناك مكان في طريق عودته الى البيت ، حيث كان لا بد قد سار عبر التراب الاحمر . ولكنه لم يستطع ان يتذكر اي سبب ربما يكون قد دفعه الى ان يسير عبر هذا المكان . . غير انه عاد فتذكر الظروف في مناسبة اخرى . كان قد سار حتى وصل الى دغلة من الحشائش يبلغ طولها حوالي ثماني عشرة بوصة . وحينما اقترب من هذه الدغلة ، راح فعبر الطريق الى الجانب الآخر ، فسار عبر التراب الاحمر على الجانب الاخر من الطريق . كان قد عبر الطريق الى الجانب الايمن ، ثم عاد فعبره الى الجانب الايسر مرة اخرى وهو مستمر في سيره عائدا الى البيت .

كان كوربيت قد اخذته الحيرة . لم يستطع ان يتخيل السبب الذي جعله يعبر الطريق وهو غائب عن الوعي بهذا الشكل . وفي اليوم التالي عاد فاقتفى آثار خطواته . وعلى ارض الدغلة المتربة ، على الجانب الايسر من الطريق ، اكتشف آثار نمر - بطنه ومخالبه - كان راقدا في وسط الحشائش . « لم تكن لدى النمر نية قتلي ، ولكن لو انني في لحظة عبوري به قد توقفت لكي اصغي لاي صوت من اصوات الادغال ، او لو انني سمعت او عطست او نفخت انفي ، او حركت بندقيتي من كتف الى كتف ، لكنت هناك فرصة لاستثارة اعصاب النمر ولكان قد هاجمني . ان اللاوعي عندي - اذ لم يكن متهيئا لتقبل تلك المخاطرة - بالاضافة الى حساسية الادغال ، قد هب لمساعدتي ، فارشداني الى الطريق بعيدا عن الخطر المحتمل » .

كيف نفر حساسية كوربيت ازاء الادغال ؟ هل باعتبارها « حاسة سادسة » ؟ ام نفرها ببساطة باعتبارها شكلا ما من اشكال الملاحظة غير الواعية ؟ انني اميل الى القول بانها لا يوجد بينهما فرق حقيقي . وحينما

يستنتج شرلوك هولمز ان واطسون قد ارسل برقية بسبب ملاحظته للطين العالق بحذائه ويقعه الحبر على اصبعه ، فان هذا بوضوح ، هو ما نعينه بالتفكير العلمي المنطقي . ومن المحتمل ان الاسباب التي دفعت كوربيت الى عبور الطريق كانت منطقية بنفس القدر ، رغم كونها كامنة في اللاوعي . فربما كان - قبل ساعة من شروعه في العودة الى البيت ، قد سمع سحرة النمر ، فسجل ذهنه دون وعي اتجاه مسار صوتها . فاذا اضيفت بعض العلامات الصغيرة الاخرى - مثل غياب الطيور بالقرب من الدغنة ، وغصن شجرة مكسور - يكون عقله اللاواعي قد وصل بالفعل الى استنتاجاته بافضل شكل من اشكال طريقة هولمز . ولكن اذا كان كوربيت قد ظل غير مدرك في وعي لكل هذا ، اذن لكننا نتعامل مع ملكة ربما يكون اسمها هو الحاسة السادسة ، وهي ملكة غير واعية ، ستكون قدرتنا على الملاحظة الواعية بالمقارنة بها قدرات غليظة خالية من الدقة . اننا قد نجد صعوبة في فهم ذلك لاننا نستخدم عقلا الواعي باعتباره أداة للتعلم . ان قيادة سيارتي قد اصبح امرا طبيعيا بالنسبة لي حتى اصبح من الممكن تقريبا ان يدعى عملا غريزيا ، ولكن كان علي ان اتعلم القيام به « بشكل واع » اولاً . ولكن من الواضح انه سيكون من السخف ان نفترض ان الحمايم قد تعلمت الاهتداء في طيرانها بالشمس بالطريقة نفسها . لم تكن هناك في هذه الحالة عملية تعلم واعية ، وانما تمت كلها على المستوى الغريزي .

اننا قد نكون قادرين على تفسير غريزة اهتداء الحمايم الى بيوتها بمصطلحات يستطيع شرلوك هولمز ان يفهمها . الا انه من المهم ان نتبين ان العقل اللاواعي يعمل بسرعة ودقة لا يستطيع وعينا ان يدرك منهما شيئا ، وان عقلنا اللاواعي ربما يكون يعمل مستخدما نوعا من المعلومات اكثر دقة ورهافة من ان تدركه حواسنا الفليضة . كيف على سبيل المثال نفسر قدرة الكاشف من مكامن الماء بالعصا ؟ لقد رايت رجلا يمسك في يده غصنا جافا وهو يسير حول الحقل الذي شيد منزلنا في وسطه ، مقتفيا مسار نبع خفي تحت الارض ، فيميزه بوضوح ، ويميز بينه وبين انبوب ماء ممتد مبدقون . (وقد عدنا بعد هذا الى خرائط المنزل ، فوجدنا انه كان دقيقا دقة كاملة فيما يتعلق بانسوب الماء) . وقد انكر الرجل اقتراحا بان ملكته كانت ملكة « فوق طبيعية » ، واصر على انه يستطيع ان يعلم اي شخص كيف يكشف عن مكامن الماء بالعصا في اقل من ساعة . وقال : « كل انسان يمتلك هذه الملكة ، وهي ليست الا مسألة تمرين » . وعلى قدر ما اعلم فانه لا يوجد عالم واحد حاول ان يفسر قدرة الكاشف عن مكامن الماء ، رغم ان هذه القدرة تعد شيئا عابديا وشائعا في اي اقليم ريفي . وحينما يتم ادراكها « في النهاية » فانها سوف تتكشف لا شك عن شيء بسيط ومذهل مثل حاسة الشم عند اسماك السالمون ، او حساسية

فار الظبي الصغير ازاء الاشعاعات النجمية . ليست هناك حاجة الى ان نضع خطأ مميزاً حاداً بين « الاحساس العادي » العلمي ، وبين القدرات التي يمكن ان تكون قد صنفت ذات مرة فوضعت بين القدرات « السحرية » . ففي الملكة الحيوانية ليست القدرات « السحرية » سوى قدرات عادية شائعة . اما الانسان المتحضر فقد نسي كل شيء عن هذه القدرات لانها لم تعد ضرورية لبقائه او لمواجهة الحياة .

وفي الحق ، فان بقاءه يعتمد على « نسيانها » . فان التطور الرفيع المستويات الفريزية لا يتفق مع نوع التركيز على التفاصيل الذي احتاجه الانسان المتحضر . وهناك تصوير لذلك في الترجمة الذاتية التي كتبها « العراف » بيتر فان دير هيرك ، المشهور باسم بيتر هيركوس (١٩٤٣) . ففي عام ١٩٤٣ كان هيركوس يعمل نقاشاً في طلاء المنازل ، حينما سقط من فوق السلم المرتفع فانكسرت بعض عظام جمجمته . وحينما استيقظ او افاق ، في مستشفى زويدول في مدينة لاهاي - اكتشف انه قد اصبح يمتلك نوعاً من البصيرة او القدرة على رؤية الاشياء الخفية واستبصارها . لقد « عرف » اشياء عن رفاقه من المرضى دون ان يقول له احد شيئاً عنها . وقد كاد هذا ان يكلفه حياته ذات مرة . فلما كان يهافح مريضاً على وشك الخروج من المستشفى « عرف » فجأة ان الرجل عميل بريطاني ، وانه سوف يقتال بأيدي الجستابو في خلال يومين . ونتيجة لتنبؤة ، كاد رجال المقاومة الهولنديون ان يعدموه بتهمة الخيانة ، ولكنه كان قادراً لحسن الحظ على ان يقنعهم بأن « عرافته » او قدرته على معرفة الاشياء الخفية ، هي مقدرة حقيقية .

ولكن نقطة القصور الاساسية في هذه القدرة غير العادية كانت هي انه لم يعد قادراً على العودة الى عمله القديم كنقاش يطلي المنازل ، كان قد فقد القدرة على التركيز . « لم يكن بوسعي ان اركز على اي شيء في تلك الايام . ففي كل لحظة كنت ابدأ فيها اي حديث طويل مع اي شخص ، كانت تلوح لي رؤى مختلفة من جوانب متنوعة من حياته وحياة افراد أسرته واصدقائه » . كان عقله مثل جهاز مذياع يلتقط محطات متنوعة عديدة في لحظة واحدة . ومن وجهة النظر الاجتماعية كان قد اصبح لا نفع فيه حتى ادرك فكرة استخدام قدراته الفريدة على المسرح .

مرة اخرى ، ليس لدى العالم ما يقوله عن قدرات بيتر هيركوس ، ولا عن قدرات مواطنه الهولندي جيرارد كرواسيت ، رغم ان تلك القدرات قد تم اختبارها في العمل واكتشفت حقيقتها واصالتها . ان التنبؤ بالمستقبل ، او

(١) انظر كتاب « نفسانيات » ، تأليف بيتر هيركوس (لندن ، باركو ، ١٩٦١) .

حل جريمة قتل بعد مجرد الامساك بقطعة من ثياب الضحية وفحصها ، هي امور من الواضح انها تختلف عن حساسية كوربيت ازاء الادغال وعن غريزة الاهتداء الى البيت . ولكن قد يكون مما يستحق ان نذكره انه حتى منتصف خمسينات هذا القرن - ظلت ملاحظات شميدت عن اسمالك الجريث - وكانت قد نشرت منذ عام ١٩٢٢ - ظلت موضع التجاهل من جانب العلماء لانها عجزت عن « اندخول في سياق اي تفسير » . ويلاحظ آردي ان حكاية اسمالك الجريث قد وضعت في خانة واحدة مع اكدوبة هتلر الكبرى . وهذا يعني ان احدا لم يكن راغبا في معالجة المشكلة حتى بلغ العلم مرحلة اصبح عاجزا عن التقدم بعدها دون ان يضع تلك المشكلة في اعتباره . ولا شك ان الشيء نفسه سوف يحدث للملاحظات التي سجلت عن هيركوس عن طريق « معهد المائدة المستديرة » في مدينة مين ، وللملاحظات التي سجلت عن كرواسيت عن طريق معهد الدراسات البسيكولوجية التابع لجامعة اوترخت .

من الضروري عند هذه النقطة ان نقول شيئا عن مسار عملية التطور والارتقاء في خلال المليونين الماضيين من السنين . فمند احد عشر مليونا من الاعوام حدث فيما يبدو ان قردا من فصيلة تدعى « رامابيثيكوس Ramapsethecus » قد استطاع ان يطور قدرته على المشي منتصب القامة . وبدأ يفضل السير على الارض بدلا من القفز على الاشجار . وفي خلال الملايين التسعة التالية من السنين استقر بنبات ميله الى السير منتصب القامة ، وتحولت فصيلة « رامابيثيكوس » الى فصيلة « اوسترالو بيثيكوس » ، وهو اول اسلافنا « البشريين » . فما هو الفرق الذي صنعه وضع انتصاب القامة ؟ اول كل شيء ، لقد حرر هذا الوضع يديه ، حتى اصبح بوسعه ان يدافع عن نفسه مستخدما كتلة صخر او فرع شجرة . وثانيا ، وسع هذا الوضع افق رؤيته .

وعلى قدر ما اعلم ، لم ينظر واحد من علماء الانثروبولوجيا الى هذه النقطة باعتبارها نقطة لها مغزاها ربما لان هناك عددا كبيرا من المخطوقات اكثر طولا من الانسان . ولكن عيون الفيل والزرافة تقع على جانبي رأسيهما ، ولذلك فان افق رؤيتهما دائري . اما القرد فينظر الى ما امامه مباشرة ، ان رؤيته اضيق ولكنها اكثر تركيزا . ايمكن ان يكون هذا هو ما جعل القردة تتطور وترتقي اكثر من اي حيوان اخر ؟ ان الرؤية الضيقة تؤدي الى الضجر ، وهي تؤدي ايضا الى نشاط عقلي متزايد ، تؤدي الى الفضول . وحينما تطورت القدرة على الابتكار وتطور الفضول الى درجة معقولة ، تعلمت فصيلة بعينها من فصائل القردة ان تسير منتصب القامة ، وبذلك امتد افق رؤية افرادها بطريقة مختلفة . ان الرؤية الى مسافة بعيدة تعني تعلم التفكير على اساس المسافات البعيدة ، تعني تعلم التجمب وتحسب الامور . ان قدرة الانسان على

السير منتصب القامة وعلى استخدام يديه ، وقدرته الطبيعية على ان ينظر الى البعد بدلا من النظر الى الارض ، هذه القدرات اصبحت اسلحة تساعد على البقاء . لقد طور الانسان ذكائه لانه كان الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة . وهكذا ، ففي بداية الارتقاء البشري ، كان الانسان مرغما على الاستفادة من قدرته على تركيز انتباهه على الاشياء والجزئيات الدقيقة . ولا شك انه كان يفضل لو اكل غذاءه ثم نام في الشمس ، مثلما كان يفعل النمر الهائل سيفي الاسنان ، او فرس النهر . ولكنه كان اعزل عاجزا عن الدفاع عن نفسه اكثر منهما ، فكان عليه ان يحافظ دائما على يقظته وحذره .

وعلى مسار الزمن ، اصبحت هذه القدرة على « تركيز » انتباهه وعلى الحساب والتحسب قدرة من القدرات الطبيعية حتى ان التفكير اصبحت واحدا من نشاطات الانسان العفوية . وقد « اثمرت » هذه القدرة الى درجة لا تصدق . ففي بضعة آلاف قليلة من السنين ، ارتقى الانسان اكثر بكثير مما استطاعت الزواحف الهائلة ان ترتقي في ملايين عديدة من الاعوام . لقد خلق الحضارة ، وبخلقه لها ، دخل مرحلة جديدة من مراحل ادراك الذات - وهي المرحلة التي يدخلها الاطفال من البشر الآن في سن السادسة او السابعة .

وتسبب الوعي بالذات في خمائر فادحة وجلب مكاسب كبيرة . وكانت افدح الخسائر هي « الطبيعية » الغريزية التي يمتلكها الاطفال الصغار والحيوانات . ولكن الكسب الحيوي الاساسي هو الاحساس بالقوة والسطوة والقدرة على السيطرة . لقد اصبحت الانسان هو الحيوان ذو الارادة ، اكثر الحيوانات خطرا على الارض ، لم يقنع ابدا بان يعيش في سلام لمدة طويلة ، دؤوبا على غزو البلدان المجاورة ، مشعلا النار في القرى ومفتصبا ما يجده من النساء . وقد تسبب هذا الدافع الاناني اللانهائي - خلال العشرة آلاف سنة الماضية - في فصله اكثر واكثر عن القرود في غابات الرطبة وعن طيور الجنبه التي تطير الى الجنوب في الشتاء .

انه ليس سعيدا سعادة كاملة بهذه الحضارة التي خلقتها قدراته المتميزة . والمشكلة الرئيسية بشأنها هي انها تحتاج الى الكثير جدا من الجهد من اجل تحقيقها والعثور عليها . كثير من الناس يمتلكون تفضيل الحيوانات للحياة الغريزية في التوحد مع الطبيعة ، انهم يحلمون بمتعة ان يكون المرء راعيا يغالبه النوم على سفح تل مشمس او صائد سمك بالصنارة يلقي خيوطه في نهير صغير . ومن الغريب تماما ان مثل هؤلاء الرجال لم يدانوا ابدا بوصفهم كسالى او فاقدي الهمة ، انهم ينالون الاحترام بوصفهم شعراء ، ويستمتع الجنود ورجال الاعمال بقراءة احلام يقظتهم حينما ينتهي عملهم اليومي .

ان الشاعر ببساطة هو الرجل الذي ما تزال روابطه بماضيها الحيواني

قوية . انه واع بان كيائنا يتضمن مجموعة من القدرات الغريزية منفصلة تماما عن القدرات التي نحتاجها لكي نفوز بمعركة او نوسع مجال عمل ما .

وهو يعنى بصورة غريزية بشيء اكثر اهمية بكثير . لقد طور الانسان قدراته الراحية ببساطة لانه اراد ان يطورها . لقد انتقل من ابتكار العجلة الى اريساد القضاء وكشفه في بضع خطوات قليلة سريعة . ولكنه ايضا قد فاق الحيوانات في جانب اخر : في تطور القدرات « الاخرى » . فليس ثمة حيوان قادر على الحصول على نشوة واحدة او حالة من حالات الوجد التي يصل اليها الصوفيون او الشعراء العظام . ان ووردزورث ففي شعره عن الطبيعة يصبح في « حالة توحيد » مع الطبيعة بمعنى مختلف ككل الاختلاف عن فرس النهر الذي يغفو نائما في الطين . ان الوعي بالذات يمكن ان يستخدم لتطوير قدرات الانسان الغريزية، مثلما يمكن ان يستخدم لتطوير قدرات الذهن . ان الشاعر والصوفي والساحر يشتركون جميعا في شيء واحد : الرغبة في تطوير قدراتهم في « اتجاه سفلي » بدلا من تطويرها الى اعلى . وفي محاور « المادية » يعبر سقراط عن هذا الهدف المثالي : القيام بالعملين في وقت واحد - استخدام المعرفة المتزايدة من اجل الوصول او الامتداد الى الخارج نحو حالة من الاتحاد الغريزي مع الكون . وفي خلال الفين ونصف الانف من الاعوام منذ ذلك الحين ، اضطرت الحضارة الى ان تتركس انتباهها لمشاكل اكثر عملية ، بينما دأب الفنانون والمتصوفة على الاحتجاج بان « العالم اكثر بكثير مما نحتمل » وان الجنس البشري المنتصر ، لا يزيد الا قليلا عن قزم ماهر . فاذا كان للانسان حقا ان يرتقي ، فان عليه ان يتطور « عمقا » وان يطور سيطرته على اعماقه الخاصة .

والآن ، ولاول مرة في التاريخ القصير لجنسنا البشري ، فان نسبة كبيرة من هذا الجنس « تمتلك » رفاهية نسيان المشاكل العملية . وفي امريكا واوروبا ، هناك تزايد يسير بخطى متقاربة ، في الاهتمام بـ « العقاقير المحولة للعقل » وفي علوم الغيب .

ان التعلق الشديد بالامور النفسانية يختلف عن انواع التعلق بالعقاقير المختلفة التي كانت ذائعة في اوائل القرن العشرين ، بل يختلف عن ادمان شرب صبغة الافيون التي عرفت عن دي كوينسي (1)

(١) دي كوينسي - توماس ١٧٨٥ - ١٨٩٥ - كاتب وناقد انجليزي ، عاش فترة من عمره في منطقة البحيرات - بوسط انجلترا ، وكان مساعدا لكل من كوليريدج ودوزورت ، وله العديد من المقالات - مجموعة من كتب - في فروع كثيرة . ولكنه اشتهر بكتابه : « مذكرات مدمن انجليزي على الافيون » الذي صدر عام ١٨٢١ . كما اشتهر احد مقالاته الغريبة بعنوان : « جريمة القتل بوصفها فنا جميلا » (ه . م .) .

وكولريديج (١) ، باعتباره تعلقا أكثر ايجابية في طبيعته . انه امر ثقل فيه الرغبة في الهرب من « حضارة متقيحة » ، عن الرغبة المحددة في « الوصول » الى مكان ما ، او في « الولوج » ، مثلما يلج مأخذ التوصيل الكهربائي في ثقبه الضيق ليحمل تيار الطاقة والنور ، الى عالم القوى اللاواعية التي نثق ثقة غريزية في وجودها . ويصدق نفس الحكم على التسبب الجنسي المتزايد ، انه ليس ببساطة مساناة تحلل اخلاقي ، وانما هو التعرف على ان الاستثارة الجنسية انما هي اتصال مباشر بالقوى الخفية للاوعي . يصف د. هـ. لورانس احاسيس الانلاذي تشاترلي بعد ممارسة الجنس بقوله : « وبينما كانت تجري عائدة الى البيت في ضوء الفسق ، بدا لها العالم حلما ، بدت لها الاشجار تنتفخ وتترنح كشرار قارب مقيد الى صخرة يجتاحها المد ، وكان مرتقى المنحدر الصاعد الى المنزل مفعما بالحياة » .

وتهتم كل اعمال لورانس باحتياج الحضارة الى ان تتخذ اتجاها جديدا ، وان تركز على تطور تلك القدرات « الاخرى » بدلا من الاستمرار في تطوير الذهن . وليس الامر مسألة غرق في نوع من الفيوبة او حالة سلبية من التوحد مع الطبيعة ، مثل البقرات التي اعجب بها والت ويتمان (٢) اعجابا شديدا .

(١) كولريديج - صامويل ١٧٧٢ - ١٨٣٤ - الشاعر الناقد الادبي والدرامي الانجليزي البارز للحركة الرومانتيكية الانجليزية ، والذي عرف بعقليته الغلة التي لم اثمر كل عطاها المنتظر بسبب القاسي المتزايد التي مني بها في حياته الشخصية وبسبب ادمانه المبكر على الافيون . كان من رواد الحركات الادبية والفنية الجديدة في انجلترا الفيكترية ، ومن خلالها دخل في علاقات حميمة مع اهلاد عصره ، مثل دوبرت سودري ووردزورث . وكان من ابرز دارسي الفلسفة الالمانية في بلاده ، ومن اكبر « المحاضرين » فيها حول موضوعات متعددة ، تضمنت التاريخ والفلسفة والادب والنظريات النقدية وتاريخ الاديان . (هـ . م .) .

(٢) ويتمان - والت ١٨١٩ - ١٨٩٢ . شاعر امريكي بارز ، يعده النقاد الغربيون اكبر من عبر عن الروح والحياة والشخصية الامريكية في الشعر ، ويعتونه من ابرز معالم الثقافة الغربية في العصر الحديث ، رغم الهجوم العاد الذي لقيه من نقاد بلاده والمسؤولين والجمهور فيها ، عندما اصدر كتابه الاول « الذي يحياه بهذه الشهرة » ، وهو ديوان قصائده الحرة الغريبة : « اوراق العشاش » عام ١٨٥٥ . عرف بتمزته الفردية المتطرفة ، واستخدامه الشعر الحر ، واحتفائه الصوفي بامريكا ، والديموقراطية ، والرجل العادي . تميز شعره باللفظ الكاسح من الشعور الروحي الذي عبر عنه احيانا بغطائية ، وبالميل نحو كل ما هو حسي حتى لمر النقاد الفرويديون هذا الميل على اساس المثلية الجنسية (او الشذوذ) ورغم عبادته للانسان العادي فقد مجد الفرد المتفوق ، والتميز الروحي للشاعر الذي اعتقد انه يتطابق بشكل كامل مع الطبيعة والكون ، مؤكدا على ما يحتويه كل منهما من انشائ غامض . (هـ . م .) .

ان الطبيعة التي تشعر بها اللادي تشاتولي في جريها عائدة الى البيت تبدو اكثر تشابها بتلك اللوحات الاخيرة لفان جوخ (١٥) حيث يتخذ كل شيء شكلا جديدا تحت تأثير قوة داخلية ما - تحت تأثير ما قال عنه راسل انه: « انفاس الحياة ، قوية لافحة قادمة من بعيد ، جالبة ودافعة الى الحياة الانسانية ضخامة الاشياء الانسانية وقوتها المخيفة الخالية من كل انفعال ».

وبالطريقة نفسها ، فان تفضيل اوربنسكي لان يقرأ كتابا عن السحر بدلا من كتابة مقال عن مؤتمر لاهاي ، يشير الى شيء اكثر ايجابية من امتعاض الشاعر من السياسة . هي سن الرابعة عشرة ، غرق اوربنسكي في حالة من الاستشارة النشوى من خلال كتاب في الطبيعيات ، لانه كان اتصالا مع عالم الاشياء غير الشخصية . ولكن في العلم يمثل طريقا مسدودا بالنسبة لشاب خيالي ، فهو لا يريد ان ينتهي الى حقن الخزائر الفنية بالعقاقير في معامل التجريب البافلوفي . كان يملكه شعور بان كل « طرق الحياة » التي عرضها عليه العالم الحديث قد وجهته الى الاتجاه المعاكس للطريق الذي اراد ان يسير فيه . في لحظات الكتابة والانتباض ، كان ميالا الى ان يتساءل ان لم يكن هذا الاشتياق والحقيقة الى الافاق البعيدة نوعا من الاوهام القريبة ، شيئا يشبه « رغبة فراشة النار في الوصول الى النجوم » . ولكن غريزة ما تدفعه الى البحث باصرار في كتب تتحدث في السحر وفي علوم الغيب ، وفيما بعد ، تدفعه الرغبة نفسها الى التجول في الشرق ، باحثا في الاديرة عن « المعرفة السرية » . ومن المصادفات الساخرة ، انه لم يقدر له ان يكتشف ما كان يبحث عنه ، الا بعد ان عاد الى موسكو وقابل جورديف (١٦) .

ان هذا الاحساس بالمعاني ، والذي لا يبدو واضحا بالنسبة للنوع العادي من الوعي ، انما يمارسه كل انسان في وقت أو آخر . وقد يتجاهل المرء مثل هذه

(١٥) فان جوخ - فنسنت ١٨٥٣ - ١٨٩٠ . الرسام والمصور الهولندي العظيم ، واحد الوجوه البارزة في الفن الحديث كله ، واحد مؤسسي الحركة التأثيرية وما بعدها من فن التصوير الغربي . عاش حياة ممزقة بين الفقر والافتقار الى الحب والفهم ، وبين الاحساس الفادح بشقاء الحياة العمالية ، وضاعمة الحياة البورجوازية ، وعدم تبين اي امل في المستقبل ، خاصة في ضوء فرديته ونزوعه الى الوحدة . كان صديقا لتولوز لوتريك وبيسارو وديجا وسورات وجوجان ، واختلف معهم جميعا ، وخاصة مع جوجان . انغل بالحركة التأثيرية في باريس بعد مرحلته «القاتلة» في هولندا ، وتاثر في باريس ايضا بالفن الياباني ، وكان من رواد المدارس الاحداث ، وخاصة «التنقيطية» اصيب بجنون دوري بعد خلافه مع جوجان عام ١٨٨٨ ، وبعد عامين اطلق على نفسه الرصاص . (هـ . م .)

(١٦) انظر القسم الثاني - الفصل الثامن .

الإشارات البارقة العارضة طوال سنوات ،حتى يدفعها حادث ما الى ثورة الانتباه ومركزه ، او ربما يحدث هذا « التيسير » بالتركيز ودون ان يتنبه له الانسان او يدركه . يقول العلم ان الحياة بدأت من خلال فعل ضوء الشمس في الكربون الممتزج بالماء ، وان الانسان قد بلغ وضعه الحالي من خلال سلسلة طويلة من عمليات الانتخاب الطبيعي . وفي هذه الحالة ، فان قوانين الوجود الانساني هي قوانين مادية ، ويمكن العثور عليها في اي مرجع من مراجع العلم . ولكن ثمة بحفلات من اليقين العبثي السخيف ، يبدو كما لو كان مستمدا من قانون الاحتمالات العادي . ان مارك بريدين ، وهو عازف موسيقى اعرفه ، قد وصف لي كيف خرج من احدى تجارب العزف متاخرا جدا ذات ليلة فاستقل سيارة اجرة انى البيت . كان الاجهاد قد بلغ منه مبلغه ، ولم يكن هناك سوى عدد قليل من السيارات العابرة على طريق « بايزووتر رود » . وفجأة ، وفي يقين كامل ، بينما كانت السيارة تعبر شارع « كوينز واي » ، عرف ان سيارة اجرة اخرى سوف تمرق بسرعة عبر الطريق وسوف تصطدم بسيارته . كان واثقا لدرجة انه شعر بما يغريه بان يحذر السائق ، ثم قرر ان نصيحته هذه ستبدو نوعا من البلاهة . وبعد ثوان قليلة ،انطلقت سيارة الاجرة الاخرى التي كان يتوقعها خارجة من شارع « كوينز واي » وصدمت سيارته ، تماما مثلما كان قد عرف انه سوف يحدث ، وارجع هو تلك الومضة من « الحاسة السادسة » الى الاجهاد البالغ ، حينما كان عقله الواعي قد استرخى تماما واصبح بوسع اللاوعي ان يسمعه صوته .

اننا قد نرفض القصة كنوع من المبالغة ، او نفرها باعتبارها صورة من صور المصادفة . ولكن كلمة « المصادفة » لا تحل شيئا من هذه المشكلة . ذلك ان كل انسان - وكرر هذا مرة ثانية - قد لاحظ كيف يتكرر وقوع المصادفات الخالية من المعنى . وقد حدث منذ بضعة سنوات ان حاولت المداومة على تسجيل مذكراتي عن المصادفات غير المتوقعة ،وانني لاجد الآن مثالا نموذجيا متطابقا مع المثال السابق في مذكرتي في شهر يناير ١٩٦٨ . كتبت حينذاك قائلا : « كنت اقرأ كتاب هوكينز : « حل شفرة النصب الحجرية » ، وكان الفصل الاخير يتحدث عن الاحجار الضخمة المنتصبة في كاللانيش ، التي يصفها هوكينز بانها نوع من الآلة الحاسبة في العصر الحجري . انهيت الكتاب ، والتقطت على الفور كتاب بيل : « الرياضيات ، ملكة العلوم » ، وانفتح الكتاب بين يدي عند الفصل السادس ، فوجدت نفسي انظر الى هامش في اسفل الصفحة يتحدث عن رياضيات العصر الحجري . كانت فرصة مصادفة هذا الهامش ، بعد فراغي على الفور من قراءة الفصل المكتوب من كاللانيش ، لا تعدو نسبتها واحدا في المليون . وحدث الشيء نفسه مرة اخرى في الليلة الماضية حينما كنت اقرأ تقريرا عن جريمة قتل

دومينيك في بلدة موهير بمقاطعة جالاواي . لاحظت ان الضحية كانت تدرس في كلية ماري واشنطن بمدينة فريديريكسبرج بولاية فرجينيا ، حيث كنت قد القيت محاضرة منذ مدة وجيزة . وبعد عشر دقائق فتحت كتاب الملخصات التي وضعها واندا اورينسكي لاعمال هيجل ، فرايت ان المقدمة كانت بقلم كيرتليديكر من كلية ماري واشنطن . . »

ليس هناك ما يسبب الازعاج الشديد في هذه المصادفات باستثناء كثرة احتمالات عدم حدوثها او حدوث ما يناقضها . ويمكنني ان اضيف مثالا آخر من الاسبوع الماضي . فقد اشارت مقالة منشورة في مجلة « عالم الاجرام The Criminologist الى قضية جريمة القتل في نبراسكا دون ذكر لاسم القاتل ، وانفقت عشر دقائق في البحث في كومة من اعداد قديمة من مجلة « الشرطي السري الحقيقي » لانني كنت قادرا على ان اذكر ان الرجل الذي كنت احاول ان اذكر اسمه (تشارلز ستاركويذر) كانت قد نشرت صورته على غلاف احدها . اخذت المجلة وغدت لكي اجلس على مقعدي وانتهيت من المقالة في « عالم الاجرام » . وانتهت المقالة باشارة الى قاتلة تدعى ناني دوس ، لم اكن قد سمعت عنها ابدا . وبعد نصف ساعة فتحت مجلة « الشرطي السري الحقيقي » فاكشفت ان المقالة الاولى فيها كانت عن ناني دوس . ومن الغريب تماما ، انني اذ كنت انظر الى صورتها ، واقرا ما تحتها من تعليق ضم كلمة « ناني » ، شعرت باحساس مفاجيء من اليقين الكامل بان هذه كانت هي المرأة التي كنت اتساءل عنها ، رغم انني احتجت الى بضع ثوان اخرى لكي اعثر على اسمها الثاني في النص .

وقد وصفت مصادفات مشابهة في كتاب بارز هو « المتطهرون والتناسخ » من تأليف آرثر جويردهام (الذي سوف اناقشه بالتفصيل فيما بعد) (x) انه يصف كيف شرع ذات يوم من عام ١٩٦٣ في مناقشة امر قرية تدعى « ليتل جادسدن » فحاول ان يتذكر اسم حانة هناك . وفي وقت تال من اليوم نفسه ، تناول كتابا عن جبال البيرنيز في المكتبة العامة واخذه معه ، وحينما بدا يقرأه في البيت ، حدث على الفور تقريبا ان التقى باسم قرية « ليتل جادسدن » واسم الحانة التي اراد ان يتذكر اسمها من قبل . وقد وقعت هذه المصادفة - وهي واحدة من مصادفات كثيرة - في بداية انشغاله الغريب بمريض كانت ذكرياته عن وجود سابق واحدة من افضل حالات التناسخ التي قابلتني توثيقا واثباتا (انظر القسم الثالث ، الفصل الثاني) .

ان القول بان مثل تلك الامور ليست مصادفات بصورة كاملة ليس هو القول

(x) لندن ، نيليل سبيرمان ، ١٩٧٠ .

بأن « القوى الخفية » كانت تحاول ان تجتذب انتباهي الى رياضيات العصر الحجري او كانت تحاول ان تجتذب انتباه جويردهام الى اسم الحانة . ربما كان كل ذلك في التطبيق نوعا من « الحاسة الحيوية » تنتمي الى النوع نفسه الذي تنتمي اليه فريزة الاهتداء الى البيت عند اسماء الجريث . وكلما زاد انغماس العقل واهتمامه بموضوع ما ، كلما زاد فيما يبدو حدوث تلك المصادفات النافعة ، كما لو كان للعقل الصحيح نوع من اجهزة الرادار . ان التشويش او الانقباض سيمنعان جهاز الرادار من العمل ، او قد يمنعان المرء من تركيز انتباهه الا بعد فوات الوقت . وفيما يلي سطور مأخوذة من تقرير كتب حديثا عن جريمة قتل ، كتبه والد الضحية :

« كان يوما عاصفا هبت فيه ريح باردة وتغير الطقس فيه اكثر من مرة بين سطوع الشمس وبين زخات المطر المفاجئة او هبات الرياح الممطرة . كنت انا وزوجتي عند باب المنزل الامامي ، في لحظة بين هبتين مطيرتين من الرياح ، وكنا نقف مع عاملين من عمال الطلاء كانا يحاولان انجاز عملهما في هذا الجو بطلاء حواف الجدران واطر النوافذ . وكان من الضروري ان نعلم افصان شجرة باسقة امام احدى الغرف . وفي الساعة الرابعة بعد الظهر ، قالت زوجتي : « اين فيونا ؟ » ودون سبب معقول واضح ، ودون حساب ، شعرنا كلانا باحساس غامر من القلق الحاد والخوف ... »

حتى جاءت اللحظة التي ذكرت فيها الطفلة ، كان الواندان مشغولين بشيء آخر ، ولم يلاحظ اي منهما اشارات اللاوعي المنذرة بالخطر . حينما سألت الام « اين فيونا ؟ » سمعت هذه الاشارات بوضوح ، مثل صوت التلفزيون الذي لا يمكن ان يسمع الا اذا اطفئ التلفزيون . وقد كانت الطفلة ضحية لقاتل جنسي . (٢)

ان تجربتي الخاصة في مجال « النذر » المنبئة بالخطر لم تكن شديدة الاتساع ، والحق انه لا يمكنني ان اذكر سوى تجربة واحدة . ففي يوم ١٦ يوليو من عام ١٩٦٤ ، نظرت في كفي قارئة كف عادية في احدى الاسواق بمدينة بلاك بول ، وحدرتني من انه ستقع لي حادثة في غضون الشهر التالي ، وانني لن اصاب اصابة سيئة . وفي منتصف اغسطس من نفس العام قررت ان اصطحب ضيفا في رحلة بقارب بخاري سريع ، رغم احساسني الشديد بالنبيء باحتمال تعرضي للخطر . وثبت لي ان البحر كان اكثر خشونة مما كنت اتوقع ، وحينما

(٢) « جريمة قتل : قصة والد » . تأليف ميشيل هويتيك . صنداي تايز ، ٢٩ مارس ١٩٧٠ .

حاولت ان ارسو بالقرب على شاطئ صخري ، أغرقت القارب تماما ، ولم يصب احد منا ، رغم اننا انفقنا نصف ساعة سيئة في محاولة جر القارب المثقوب من مياه البحر الهائج .

وقد مررت بتجربتين من الاستجابة التليباية الواضحة مع شخص آخر . فقد كنت انفصلت عن زوجتي الاولى لبضعة شهور من صيف عام ١٩٥٣ ، رغم انه كانت ما تزال بيننا وشائج عاطفية قوية . وذات مساء ، في مقهى في وسط لندن ، شعرت فجأة بالغثيان ، وكان علي ان اهرع الى الخارج . واستمرت حالة القيء لعدة ساعات . وقد استمرت في الحقيقة حتى الساعات الاولى من الصباح التالي . وقال طبيب في المستشفى الذي كنت اعمل فيه في ذلك الوقت ، مشخصا الحالة ، بانها كانت حالة تسمم غدائي ، رغم انني كنت قد تناولت الطعام نفسه الذي تناوله العمال الآخرون في المستشفى ، وكانوا جميعا في حالة جيدة تماما . ومع ذلك ، فقد عرفت بعد ذلك بعدة ايام ان زوجتي كانت تعاني من حالة تسمم غدائي ، بعد ان تناولت علبه فاسدة من لحم البقر المحفوظ . في الوقت نفسه الذي كنت انا اتقيأ فيه ، وكانت هي قد بدأت تتقيأ ثم خفت حالتها في الوقت نفسه الذي انتابني فيه انا هذه الحالة .

وفي عام ١٩٥٦ كنت قد القيت محاضرة في جامعة سانت أندروز في اسكتلندا ، وكنت اقود سيارتي الى بلدة سكاي . كنت اشعر بابتهاج غامر واضح حينما بدأت الرحلة لان الطقس كان جميلا ، وكنت انتظر اللحظة التي ساتوقف فيها عند محل لبيع الكتب القديمة في بيرث . ولكن بعد نصف ساعة من مغادرتي سانت أندروز بدأت اشعر بانقباض غير متوقع ولم اعرف له سببا واضحا . وبعد نصف ساعة ، سألت زوجتي لماذا كانت تبدو مجعدة محزونة ، فاجابني بانها كانت تعاني من ألم في اسنانها منذ غادرتنا سانت أندروز .

ولسوء الحظ كان اليوم يوم سبت ، وقد تأخر الوقت جدا حتى كان من الصعب ان نعر على طبيب اسنان في اسكتلندا كلها . وفي صباح يوم الاحد ، كانت اللثة قد اصبحت متورمة بشكل سيء . واستمر انقباضي طوال اليوم . وفي بلدة كيل بمقاطعة لوشالش ، قيل لنا صبيحة يوم الاثنين ان طبيب اسنان متجولا سوف يصل ضمن قافلة طبية في وقت ما من النهار . تركت زوجتي تنتظر بينما اخذت ابنتي لتتجول في البلدة . وفجأة ارتفع عني احساس الكآبة المقبضة . قلت للمفتاة : « لقد خلعت امك ضرسها الأول لتوها » وعدنا في الوقت المناسب لكي نجد زوجتي وهي تخرج من سيارة القافلة ، بعد ان فقدت ضرس العقل التالف .

وحينما كان ابنائي رضعا ، سرعان ما ادركت وجود الروابط والاتصالات

التليباتية . فاذا اردت لابنتي ان تنام طول الليل ، كان علي ان احذر ان ارقسد مستيقظا افكر فيها . فاذا فعلت ذلك استيقظت هي على الفور . اما ولدي فقد كان علي ان اتجنب حتى مجرد النظر اليه اذا كان نائما في مهده . فاذا سالتني زوجتي ان القي عليه نظرة لكي ارى ان كان لا يزال نائما ، في الحديقة او في الشرفة ، كان علي ان اتسلل على اطراف اصابعي ، فأرمقه بنظرة سريعة نسيم استدير في لحظة خاطفة . فلو اطلت نظري ممتلكنا وانا احرق فيه ، لفتح عينيه مستيقظا على الفور . وقد حدث هذا في ظروف مختلفة كثيرة في العام الاول من عمره حتى اصبح علي ان اقبل المسألة باعتبارها شيئا طبيعيا . وبعد العام الاول، بدت هذه الروابط التليباتية كما لو كانت تختفي ، او على الاقل تضعف . ولكن حينما بدأ الطفلان يتعلمان الكلام، لاحظت ان هذه المسألة كانت عملية دقيقة تعتمد على الحدس الى حد كبير - وليست على الاطلاق مسألة محاولة وخطا ، او مسألة تعلم « الكلمات الاشياء » وتركيب الجمل منها بربطها فيما بينها، ولكنها مسألة من نوع يبلغ في تعقيد ما تبلغه القدرة التي تبنى بها الطيور اعشاشها . (٥) ومرة اخرى انتابني احساس - ربما كان وهما - بان في وسع الطفل ان يلتقط افكاري وان يرددها ، او على الاقل ان يستجيب لها حينما يحاول ان يعبر عن شيء ما .

ولكن لا بد - بين البالغين على الاقل - ان يكون انتقال الافكار اقل عادية من انتقال الاحاسيس . ويبدو ان كليهما يعتمدان على توافر الظروف الصحيحة من قدر معين من السكينة والحساسية . ففي يوم ساكن تستطيع احيانا ان تسمع اصوات الناس على بعد اميال .

في الامثلة التي ذكرتها آنفا عن التليباتي - اذا كانت هذه من حصالات التليباتي ، اي انتقال الافكار والمشاعر دون اتصال مباشر - فان عملية «الانتقال» كانت غير واعية وآلية ، مثل تحويل خطوط التليفون . ويبعث هذا على التأمل في احتمال ان تكون الكراهية قابلة للانتقال بنفس الطريقة غير الواعية . لقد كانت تجربتي الخاصة في هذا الشأن تجربة مشكوكا في امرها ، وانا لا اذكرها الا بهدف استكمال تلك التجارب الشخصية . وقد اجد نفسي وانا افكر فيها بشكل جدي حينما اقرا الفقرة التالية من الكتاب الذي وضعه ويلسون نايت عن جون كاوبر بويز : « ان اولئك الذين تعرضوا لفضبه او استفزوه قد عانوا صورا مختلفة لسوء الحظ ، حتى يبدو الامر كما لو كان قد اجبر على ان يعيش حياة

(٥) يؤمن نوليام تشومسكي ، الفيلسوف اللغوي براي شديد القرب والتشابه مع هذا الرأي فيما يتعلق بتعليم الطفل .

تقوم على نزوع عصابي الى فعل الخير خوفا من ان ينزل الاذى بأحد لمجرد ان يفضب منه ... ان طموح بويز المبكر الى ان يصبح ساحرا لم يكن حلما عاطلا من المبررات ... » - (ص ٦٢)

قبل ان انتقل الى كينسنجتون في خريف عام ١٩٥٢ ، كنت أنا وزوجتي قد عشنا في ويمبلدون ، في منزل رجل عجوز كان يعاني من الربو ، وكانت زوجتي هي ممرضته . وفي خلال الشهور الستة التي عشناها في المنزل ، كان قد أصبح أكثر ميلا للشجار وتزايدت صعوبة التعامل معه ، حتى أصبح يظننا جو دائم من التوتر مثل النذر المتجمعة لعاصفة رعدية عاتية . ولست ممن تحتبس الضغائن في صدورهم طويلا ، ولكن احساسي بالفرق في الحقارة والتفاهة ، وبأنني ممنوع غصبا من التركيز على الاهتمام بأشياء أكثر أهمية ، هذا الاحساس أنتج لحظات حادة من البغض والكراهية للرجل جهلني اتمنى له الموت . وفي شهر أغسطس ، هدنا الى المنزل من عطلة نهاية أحد الاسابيع ، لكي نجده قد مات اثر نوبة قلبية .

ولكن ، حينما تكرر الموقف بعد ثلاثة شهور ، وجدت نفسي اأمل في وجوم فيما اذا كان يمكن للأفكار ان تقتل . كانت مالكة المنزل كثيرة الشكوك الى درجة الجنون ، وسرعان ما أصبحت المواقف العنيفة من الوقائع اليومية الحدوث . وبعد شهرين ، ذهبت الى طبيب فقال لها انها مصابة بسرطان في الرحم . وماتت المرأة بعد مدة قصيرة من مغادرتنا المنزل . وانني لا تذكر الآن الطبيعة الفريدة لتلك النوبات المفاجئة من البغض والمقت الشديدتين . وفي بعض المناسبات ، تزايد الغضب حتى وصل الى الدرجة التي قد يدفع عندها شخصا مصابا بمرض عصابي الى انفجار من العنف قاتل ومدمر . ولكن الانفجار لدي كان عقليا خالصا : انفجار من السخط والكراهية ، يتلوه احساس بالارتياح الناتج عن التنفيس ، كما لو كنت قد قذفت قالب طوب على زجاج نافذة فحطمتها .

وتتميز تلك الانفجارات العقلية دائما باحساس غريب فريد بالصحة والاصالة ، وبالحيقة . واعني بهذا انها تبدو بشكل ما مختلفة عن نوبات الاحساس الذي يولده الخيال . ولا يمكنني ان احدد هذه الفكرة أكثر من هذا ، ولكنني اظن ان أكثر الناس قد خبروا هذا الاحساس .

يكتب بويز في ترجمته الذاتية قائلا : « ان البراهين على هذا - اعني على انني قادر ، وغير واع على الاطلاق ايضا على ان امتلك نوعا من « اللامة » (١) »

(١) قاموس المورد - ترجمة لكلمة evil eye وهي غير الحسد . وفي القاموس الوسيط :

كل ما يغاف من فرع او شر او مس - والعين المصيبة بسوء - الجزء الثاني ص ٨٤٦ . م.هـ .

اي ان تكون لي عين شريرة تنزل الاذى بمن اذوني ، هذه البراهين مد تراكمت وتخللت حياتي كلها حتى لقد اصبحت من عادتي ان اصلي لآلهتي بلهفة وعجلة من اجل كل عدو جديد . » - (ص ٤٨٠)

ان حالة بويز تشير الاهتمام بسبب الطبيعة المتميزة الغريبة لمبقريته . فحتى منتصف الخمسينات من عمره ، انفق بويز جانبا كبيرا من حياته في الفناء المحاضرات في امريكا ، وكان قد كتب ثلاث روايات في اوائل عقده الرابع ، وكانت روايات ممتعة ولكنها غير بارزة ، ولكنه في عقده السادس اصدر سلسلة من الروايات الهائلة - في حجمها وفي التصور الذي تطرحه - بدءا بروايتي « وولف سولنت » و « حكاية حب جلاستونبري » . ان اكثر ما يلفت النظر في تلك الروايات هو ما تحتويه من « نزع تصوفية في الطبيعة » وحيويتها التي لا تصدق . من الواضح انه استطاع ان يغوص حتى وصل الى ينبوع ما من ينابيع اللاوعي ، وكانت النتيجة سيلا متدفقا فيه من جلال شلالات نياجارا وعظمتها شيء كبير . وربما كانت رواية « حكاية حب جلاستونبري » رواية فريدة في بابها من حيث انها الرواية الوحيدة التي كتبت من وجهة نظر عين الله ، « وابلست وسيلة تصور بها هذا الراي هي ان نقتطف فقرتها الاولى :

« في عز الظهيرة من ذات يوم خامس من احد شهور مارس حدث ان تحركت على بعد نصف ذراع من محطة سكة حديد براندون رغم ان ذلك حدث وراء ابعاد بحيرات الفراغ وسط اقصى المجموعات النجمية ، تحركت واحدة من تلك الموجات الدقيقة اللانهائية وسط الصمت الخلاق لليلة الاولى التي تتحرك دائما حينما تشير وخزة استثنائية من الوعي المرهف الحاد اي كيان عضوي حي في الكون الفلكي . عبر شيء ما في تلك اللحظة ، موجة ، حركة ، اهتزازة ، اكثر دقة ونحولا من ان توصف بالمغناطيسية ، واكثر ضآلة وضعفا من ان توصف بالروحانية ، عبرت بين روح كائن انساني بعينه كان يخرج من احدي عربات الدرجة الثالثة من قطار الساعة الثانية عشرة والدقيقة التاسعة عشرة القادم من لندن وبين الروح الالهية الشيطانية لليلة الاولى الحياة كلها » .

تمنح تجريدية اللفة هنا انطبعا زائفا عن كتاب يمكن ان يكون اي شيء ، الا ان يكون تجريديا . ولكن هذه التجريدية في اللفة تكشف ايضا عن رغبة بويز في النظر الى شخصياته واحداثه من وجهة نظر « كونية » ما ، تبدو فيها الطحالب النامية في بركة آسنة والميرقات الدودية في شجرة عفنة ، في مثل اهمية الشخصيات الانسانية .

وعلى المرء ان يلاحظ الفرضية المسبقة في تلك الفقرة الاولى ، وهي الفرضية الماثلة في كتاب بويز كله : وهي القائلة بأن ثمة نوعا من « الاثير انفسى » يحمل الاهتزازات العقلية ، مثلما يفترض ان « الاثير الضوئي » يحمل موجات الضوء .

وهذا هو ما اعرفه بانه الاقتراح الجوهرى للسحر او لمجموع علوم الغيب ، وربما كان هو الاقتراح الاساسى الوحيد . وهو ما سوف يقبل على علانيته على طول هذا الكتاب .

ولكن الامر الذى يبدو بالغ الاهمية في بويز هو انه يعتمد ان يأخذ على عاتقه مسؤولية غرس « التعدد العقلي » ، اي القدرة على الخروج من هويته الخاصة لكي يدخل في هوية غيره من الناس بل من الاشياء : « يمكنني ان اشعر بنفسى داخلا في الهوية المتوحدة لعمود يدعم جسرا صغيرا ، او لجذع شجرة ، او لعمود حجري في دائرة صخرية من العصور القديمة ، وحينما افعل هذا ، يصبح شكلي وقد اصبح مثل شكل هذا العمود ، او الجذع او هذه الكتلة من الصخر . » (ترجمة ذاتية ص ٥٢٨) .

وكانت هذه محاولة لدفع عقله بنعومة الى حالة من السكون المتطابق مع « الاثير النفسى » ، اي مع العالم الموضوعى الشاسع الذى يحيط بنا . لقد مر كل الناس بتجربة الاحساس بالفتيان ، ثم التفكير في شيء آخر ، ثم الاحساس باختفاء الفتيان . ان « الموضوعية » تسبب في ان تطفو القوة سابحة الى داخل الروح ، في شكل دفقة كاسحة من القوة والاتصال بالقوى الغريبة الهائلة التى تحيط بنا . وفي مقطع مشهور من قصيدة ووردزورث « استهلال » ، يصف الشاعر رحلة في قارب الى البحر في منتصف الليل ، فتركت قمة منتصبة هائلة في عقله انطبعا عميقا ، ويصف ما حدث بعد ايام من هذه التجربة :

عقلي . . .

راح يعمل باحساس معتم خال من التصميم ،
احساس بالاشكال المجهولة للوجود ، وفوق افكارى
انبسطت ظلمة ، ادعوها الوحدة
او الهجران الصريح . الاشكال المألوفة كلها
لم تبق ، ولا صور الاشجار البهيجة ،
ولا صور البحر ولا السماء ، ولا الوان الحقول الخضراء .
ليس الا الاشكال الهائلة الضخمة ، تلك التى لا تحيا
مثل البشر الاحياء ، تحركت ببطء عبر العقل
في وضع النهار ، فكانت هما لاحلامى . (الكتاب الاول)

كان ووردزورث ، مثله مثل بويلز ، قد حقق العبور الى ما وراء شخصيته الخاصة ، وحقق اتصالا مباشرا مع « الاثير النفسي » . ولكنه مع تقدمه في السن ، فقد هذه المقدرة على التسامي بشخصيته ، وفقد الشعر عظمته . اما بويلز فانه لم يفقد ابدا قدرته على استحضار نوع غريب من النشوة . وفي « الترجمة الذاتية » يصف ما حدث اذ كان يلقي محاضرة عن ستيرنديرج (١) في مسرح يكاد يكون خاليا في سان فرانسيسكو ، وهناك تبع في داخله ..

« ... ذلك الروح الحارس الغلاب ، الذي يمكن ، مثلما اشرت لكم من قبل ، ان يلمس في مكان ما من طبيعتي ، وهو الروح الذي يملك حينما يلمس قوة الشيطان نفسه ... ادركت لحظتها ، وبحيوية تزيد عن اي ادراك سابق ، ان سر الحياة يتكون من المشاركة في جنون الرب . وانا اعني بعبارة المشاركة في جنون الرب القدرة على استشارة نوع غريب فريد من الابتهاج والجلد في داخل نفسك اذ تواجه الجهاد الخالي من الحياة والومي والحركة ، انه ابتهاج يساوي في ذاته نشوة جنسية كونية حقيقية ... » (ص ٥٣١) .

ويحدث الشيء نفسه مرة اخرى في المسرح الرومانسي الدائري المكشوف في فيرونا :

« وحيدا كنت في تلك الدائرة الرومانية ، تحت تلك السحب التي لا تسقط منها قطرة مطر واحدة ، برز ذلك العنصر الخارق المعجز فسي طبيعتي واتضح الى الدرجة التي شعرت عندها - بما لم اشعر به سوى مرة او مرتين منذ ذلك الحين - بانني قد وهيت حقاً نوعاً ما من القدرة غير الطبيعية .. ولم اشعر بهذا الا مرة واحدة بعدها ، منذ خمس سنوات فحسب ، حينما زرت « ستونهينج » ... ان الاحساس الذي يملكني في مثل تلك الحالات هو الاحساس باكبر قدر من القوة الغلابة يمكن تصوره .. » (ص ٤٠٣) .

هناك اسباب تبرز الاعتقاد بان بويلز لم يفهم دوافع تلك القوة وطريقة عملها . وهناك قصة غريبة نسبت الى بويلز وصديقه تيودور درايزر :

(١) ستيرنديرج - اوجست ١٨٤٩ - ١٩١٢ . أشهر الكتاب الدراميين ، السويديين ، ومن ابرز الاسماء في الدراما الحديثة على الاطلاق . عرف باعماله المفعمة بالتشاؤم والواقعية ، وتأثره بالممارسة الطبيعية ممزجة بالفكر نيتشه . يعد ، مع إبسن وتشيكوف ، أحد رواد الدراما السوسيوسيكولوجية . اصيب في منتصف حياته بنوع من الجنون ، وانغمس في اهتمامات علمية غريبة ، ولكنه نهالها بمنهج تجريبي غير علمي ، ودخل المصحات العقلية أكثر من مرة (ه . م .)

« قال درايزر انه حينما كان يعيش في نيويورك ، في الشارع السابع والخمسين من الحي الغربي ، كان جون كاوبر بويز يأتي لتناول الغداء من حين الى حين . وفي هذا الوقت كان بويز يعيش في هذه البلاد في بلدة صغيرة على بعد نحو ثلاثين ميلا من نيويورك على ضفة نهر الهدسون ، وكان من عادته ان يغادر منزل درايزر في وقت مبكر جدا لكي يلحق بالقطار السدي يستقله الى بيته . وذات يوم ، وبعد محادثة طويلة دارت عقب تناول الغداء ، نظر بويز الى ساعته وقال في عجلة انه لم تكن لديه فكرة عن تأخر الوقت الى هذا الحد ، وان عليه ان يرحل معه فوراً والا فاتته القطار . وعاوناه درايزر على ارتداء معطفه ، وقال بويز وهو في طريقه الى الباب :

« سوف اظهر امامك ، ها هنا ، فيما بعد في هذا المساء . وسوف تراني » .

وقال درايزر : « هل تنوي ان تحول نفسك الى شيخ ، ام انك تملك مفتاحا لباب منزلي ؟ » وضحك درايزر وهو يطرح هذا السؤال ، لانه لم يكن يصدق للحظة واحدة ان بويز كان يعني ما يقول بجدية .

وقال بويز : « لا اعرف انني قد اعود في شكل روح او في شكل شبحي نوراني ما » .

وقال درايزر انه لم تكن هناك اية مناقشة من اي نوع في ذلك المساء عن الاشباح او الارواح او الروى ، وانما دار الحديث اساسا عن الناشرين الامريكيين وعن اساليبهم في العمل ، وقال انه لم يفكر بعد ذلك ابدا في وعد بويز بالعودة الى الظهور ، وانما راح فجلس يقرأ لمدة حوالي ساعتين وحيدا . ثم رفع عينيه عن كتابه فرأى بويز واقفا في فتحة الباب القائم بين بهو المدخل وحجرة الجلوس . كان للشبح ملامح بويز ، وقامته الطويلة ، وملابسه الفضفاضة المصنوعة من صوف التويد ومظهره العام ، ولكن وميضاً ابيض شاحبا كان يشع من الشخص المائل امامه . نهض درايزر على الفور وخطا خطوات واسعة نحو الشبح وهو يقول : « حسنا ، لقد بررت بوعدك يا جون . انك هنا . فتعال واحك لي كيف فعلتها » . ولم يجبه الشبح ، وانما اختفى حينما كان درايزر على بعد ثلاثة اقدام منه .

وحالما افاق درايزر الى حد ما من دهشته ، التقط سماعة تليفونه فطلب رقم منزل جون كاوبر بويز في الريف ، واجابه كاوبر على التليفون وتعرف درايزر على صوته . وبعد ان استمع بويز الى قصة الشبح من درايزر قال : « لقد قلت لك انني ساكون هناك ، وان عليك الا تدهش » . وقال لي درايزر انه لم يستطع ابدا ان يحصل على اي تفسير من بويز الذي رفض ان يناقش الموضوع مع درايزر

من اي وجهة للنظر « (٢) » .

لماذا كان ينبغي على بوير ان يرفض مناقشة المسألة من اي وجهة للنظر ؟ لانه لم تكن لديه فكرة عن كيفية قيامه بهذا العمل . لقد اعتمدت المسألة على طبيعة العلاقة النفسية بينه وبين درايزر : « كان من عادتي ان اشعر بوعي بانطلاق دفقات من الجاذبية المغناطيسية بيني وبين درايزر . . الامر الذي يبدو لي بعيدا عن مجال الكيمياء العضوية ، وراجعا الى تدخل قوة غيبية غامضة من نوع ما » . ومن المحتمل ان يكون ظهور الشبح مقصورا على عقل درايزر وحده: فلو كان هناك شخص آخر في الحجرة لما كان بوسعه ان يراه .

انني قد ابدو متناقضا مع نفسي بالقول بان بوير لم تكن لديه فكرة عن كيفية اظهاره لـ « شبحه » . ولكنني في الحق لا اناقض نفسي . ذلك اننا الآن مهتمون بالمسألة الاساسية ، وهي مسألة السيطرة « الواعية » على العقل اللاواعي . ان كل وظائف العضوية ، من الهضم الى الاخراج ، تخضع لسيطرة اعماقسي اللاواعية . فلو كنت في حالة عصبية ، لوجدت انه من المستحيل ان اتبول في مرحاض عام مع وجود اشخاص آخرين يقفون بالقرب مني ، ولا سبيل لاي قدر من الجهد الواعي لان يدمر هذا الكبت ، وانما احتاج الى ان استرخي لكي اترك للاوعي مهمة انجاز هذا العمل . كان ستندال (١) يعاني من اضطراب جنسي محرج كان يدموه « الاخفاق le fiasco » فحينما كانت استثارته الجنسية تبلغ النقطة التي يصبح فيها متهيئا لممارسة الجنس ، فانه كان يعاني من نوع محرج من انهيار القدرة على هذه الممارسة . ولم يكن بوسع اي قدر من الرغبة الواعية ، جديها شريكته التي خاب املها ، ان تؤدي الى اي فرق . انني اذ احاول ان اذكر اسما نسيتها فانني اعتمد ثانية على « لا وعيي » من اجل « دفعه السي

(٢) و . ا . وودوارد ، « منحة الحياة » - (نيويورك ، دانون ، ١٩٤٧) . اقتطعها البروفيسور ويلسون نايت في كتاب « البحث عن العصر الذهبي » ص ١٢٨ .

(١) ستندال - الاسم الادبي لـ « بيير بابل » ١٧٨٣ ب ١٨٤٣ ، والد الرواية الواقعية والطبيعية في فرنسا ، واحد الوجوه البارزة في الفكر الاوروبي مع بداية « ازمة الضمير » في الحضارة الغربية التي بلغت ذروتها بين سقوط نابوليون حتى الحرب العالمية الاولى ، بكل المدارس الفلسفية والفنية التي ظهرت انادها وبعدها . يعتبره النقاد ، الخطوة التي مهدت للظهور بلزائه فيما بعد في مجال الادب الروائي الواقعي ، وفي اكتشاف شخصيات العالم البوردوازي في عصر ما بعد الثورة . اثر ستندال ايضا في بورجيه واتين وژولا ، وآخرين كثيرين من كتاب فرنسا واوروبا : دي جوتكور وموبا سان ، وديكنز وناكري وتورجنيف . اشترك ستندال في بعض الحروب النابوليونية ، ولكنه كره نابوليون ، وان كان قد احتقر وطنه لانه خذل نابوليون . واحب بايرون لامعجابه بيونابرت ، وعاش مثل بايرون ، في المنفى باختياره ، وفي ايطاليا مثل بايرون . (هـ.م.)

اعلى « ، رغم انني في هذه الحالة قد اكون قادرا على ان اتصرف دون لجوء الى معونته ، انني قد ابحث عن الاسم في كراسة العناوين عندي ، او ان احصل عليه باللجوء الى حيلة تدامى وترايط الافكار .

ليس هناك سبب يمنع العناوين من تعلم « الحيل » الاساسية للتليبائي ، او حتى « الظهور الشبحي » مثلما قد يدرب ذاكرته للوصول الى مستوى اكبر من الكفاءة او للتخلص من « كبت التبول » عن طريق الايحاء الذاتي . ورغم هذا فانه يظل عاجزا عن تفسير كل ذلك ، حتى لا قرب اصدقائه .

ويمكن للانتكاس العاطفي الحاد ايضا ان يستثير « الملكات النفسية » . وتقدم لنا حالة ستريندبرج الكاتب المسرحي مثالا مثيرا للاهتمام . فقد تسبب تحطم زواجه الثاني في تفجير ازمة عاطفية اقترب في اثنائها من الجنون . لقد عانى من اوهام وتصورات الاضطهاد ، وصفت كلها باسهاب في الكتاب الذي يضم سيرته الذاتية بعنوان « الجحيم Inferno » . وكانت النتيجة تطورا لم يكن هو يسعى اليه ولم يحسب حسابه للقدرات النفسية التي تتطابق مع حالته بيتر هيركوز . انه يصف واقعة عارضة من وقائع الظهور الشبحي ، فيقول :

« في خريف عام ١٨٩٥ كنت امر بفترة مرض خطير في العاصمة الفرنسية حينما تغلب على الاشتياق الى ان اكون في وسط عائلتي الى الدرجة التي رايت فيها منزلي من الداخل ، وللحظة نسيت ما كان يحيط بي بالفعل ، لانني كنت قد فقدت الوعي بالمكان الذي كنت فيه . كنت حقا هناك وراء البيانو مثلما ظهرت ولم يكن لخيال السيدة العجوز دخل في المسألة على الاطلاق . ولكن لانها كانت تدرك هذا النوع من حالات الظهور الشبحي ، وكانت تعرف مفزاهها ، فانه رأت في ظهوري هناك اندارا بالموت ، فكتبت خطابا لتسال ان كنت مريضا » . (طبعة ١٩١٢ ، ص ٨٦) .

ان ما يثير الاهتمام في هذا التقرير القصير هو ان قدرة ستريندبرج على الظهور الشبحي كانت مرتبطة بالخيال . لقد تخيل بوضوح الحجرة التي كانت ام زوجته تجلس فيها وهي تعزف على البيانو ، وتمكنت كثافة رؤياه الخيالية بشكل ما من « عرضه » في داخل تلك الحجرة الحقيقية . كان قد استخدم « الاثير النفسي » كما لو كان قد استخدم التليفون او دائرة تليفونية مغلقة .

وفي نفس الكتاب يصف ستريندبرج حادثة ربما كانت ذات مغزى اكثر عمقا . ففي الساعات الباكرة من الصباح ، في اثناء فترة من التوتر العاطفي ، كان جالسا في مشرب للنبيذ ، محاولا اقناع صديق شاب بالا يهجر حياته العسكرية من اجل السعي الى ان يكون فنانا .

« بعد ان سقت ما استطعته من حجج وطرحت عليه مناقشات لا نهاية لها، اردت ان استدعي الى ذاكرته حادثة قديمة على امل ان تؤثر على قراره . كان قد نسي الحادثة التي اردتها ، ومن اجل ان استثير ذاكرته شرعت في وصفها له . قلت : « الا تذكر ذلك المساء في حانة اوجستينر . » ومضيت في وصف المائدة التي تناولنا عليها وجبتنا ووضع ال « بار » والباب السدي كان الناس يدخلون منه ، وقطع الاثاث والصور . . وفجأة تماما، توقفت . كنت قد فقدت وعيي تقريبا ، ولكن دون ان يغشى علي ، وبقيت جالسا في مقعدي . كنت في حانة اوجستينر ، وكنت قد نسيت مع من اتكلم ، حينما رحت اغفم بكلمات هي . « انتظر دقيقة ، انا الان في حانة اوجستينر ، ولكنني اعرف جيدا تماما انني في مكان آخر . لا تقل اي شيء . انني لم اعد اعرفك ، ومع هذا فاني اعرف انني اعرفك . اين انا ؟ لا تقل شيئا . ان هذا لممتع ومثير للاهتمام » ثم بذلت مجهودا لكي ارفع عيني - لا اعرف ان كانتا مغلفتين ام لا - فرأيت سحابة ، وخلفية ذات لون غير متميز ، ومن السقف هبط شيء مثل ستارة المسرح . كانت هذه هي الجدار الذي يقسم الحجرة الى قسمين ، علقت عليه الرفوف والزجاجات .

قلت : « اوه ، اجل » بعد ان شعرت بفصصة من الالم تتخللني وتغبرني .
وقلت : « انني في مشرب « ف » للنبيذ » .

كان وجه الضابط قد اصبح متشنجا بسبب الانزعاج والقلق وبكى .
قلت له : « ما الامر ؟ »

اجابني : « كان هذا شيئا مربعا » (ص ٩٢ - ٩٣) .

يمكننا بالطبع ان نتجاهل الامر كله باعتباره من نيت خيال ستريندبرج ، الذي كان مستشارا تحت وطأة الضغط العاطفي . ومن جانب آخر فان هذا الحدث متطابق مع نظرية « الملكات النفسية » التي حاولت ان الخصها ، والتي تحمل طابع الحقيقة . (ان سترندبرج رجل امين الى درجة ملحوظة ، على الرغم من امراضه العصبية ، مثلما يكتشف القاريء حينما يكون من الممكن له ان يقارن روايته للاحداث برواية شخص اخر) . مرة ثانية علينا ان نقول انه كان مجهدا جسديا وعاطفيا . كان يدفع نفسه فيصل الى اقصى حدود طاقته حينما كان يستخدم قدراته على الاقتناع . وان الامر ، يبدو على النحو الذي يقرره هو نفسه في الكتاب ذاته بقوله : « في الازمات العظمى للحياة ، حينما يصبح الوجود ذاته مهددا ، تكتسب الروح قدرات علوية متزنة » .

ويمكننا ان نعرض على واحدة من اكثر المعالجات لتلك القدرات تماسكا وإثارة للاهتمام في الكتاب المسمى « الدفاع النفسي عن الذات » *Psychic Self Defence* . (١٩٣٠) الذي ألفته ديون فورشن *Dion Fortune* ، وهي عالمة نفس فرويدية النزعة ، كان اسمها الحقيقي هو فيوليت فيرث *Violet Firth* قفي سن العشرين

(عام ١٩١١) كانت تعمل في مدرسة ، تحت رئاسة مدير شديد الموطاة قصوي السيطرة ، اخذ موقف النفور منها ، فوجه (او هكذا اعتقدت فيوليت فيرث) تيارا من الشر والخبث النفسي ضدها ، مستخدما اساليب اليوجا والتنويم المغناطيسي الفنية . وكانت النتيجة ازمة مزمنة ، في صورة احساس دائم بالروع والبؤس اكثر بكثير مما يمكن ان يسببه هجوم نفسي فعلي . وقادها احتياجهما لتحليل ذاتها الى دراسة علم النفس (الذي كتبت حوله عددا من الكتب) ، ووصلت فيما بعد الى الاحساس بأنه حتى نظريات فرويد ويونج تفشل في تقديم تفسير او تصوير عادل حقيقي لمقدار ما يتمتع به العقل الانساني من تعقد ، فتحوط الى دراسة علوم الغيب (كانت تتمتع دائما بدرجة ما من القدرة على ان تصبح وسيطا) . وانضمت الى جمعية الفجر الذهبي (وهي جمعية للسحر والسحرة سنناقشها في القسم الثاني من هذا الكتاب) فاشتبكت في مصادمات نفسية ابعد مدى مع مسز مارتز ، زوجة مؤسس الجمعية . ونتيجة لتلك التجارب المزعجة (٥) وصلت الى الاعتقاد بأن في وسع العقل البشري ان يصد وأن يقاوم القوى النفسية المعادية التي تبرز (بصورة غير واعية غالبا) وتنبع من اشراق الناس وذوي النوايا السيئة . بل ان الاكثر اثارا للاهتمام هو الاشارة الى ان العقول المتفائلة الصحيحة تصد وتقاوم سوء الحظ العادي ، وان « الميل للتعرض للحوادث » او سوء الحظ العام هما نتيجة لنفسية أصبحت قابلة للاختراق والانكسار امام الهزيمة او التجرد الميت .

وينبغي علي عند هذه النقطة ، ان الخص نظريتي الخاصة الاساسية عن تلك القوى التي يتمتع بها العقل .

في رواية جونسون: « راسيلاس ، امير الحبشة » مشهد ينظر فيه الامير الى منظر المراعي الذي تجلله سكينه السلام في « الوادي السعيد » حيث يعيش ، فيتساءل متعجبا لماذا لا يستطيع ان يكون سعيدا مثل الاغنام والابقار . يفكر متاملا بكآبة بينه وبين نفسه : « لا يستطيع ان اكتشف في داخلي قدرة على الادراك لا تفيض بمتعتها التي تتطابق معها كل التطابق ، ومع ذلك فلست اراني مبتهجا . من المؤكد ان للانسان حاسة كامنة مستترة لا يوفر لها هذا المكان ، اشباعا ولا رضا او مسرة ، او ان للانسان نوعا من الرغبات متميزا عن الحواس لا بد من اشباعها قبل ان يستطيع ان يكون سعيدا » . (الفصل الثاني)

الخط تحت العبارة السابقة من هندي . ان « الحاسة الخفية المستترة » هي شهية الانسان المفتوحة الى الارتقاء والتطور ، والرغبة في الاحتكاك بالحقيقة والتواصل معها . ولكن ليس هذا هو كل شيء . من ذا الذي لم يخبر ذلك

(٥) انظر القسم الثالث ، الفصل الثالث .

الاحباط الغريب الذي يأتي في لحظات المتعة والتحقيق ؟ حينما كنت طفلا ، كان هذا هو ما اشعر به ازاء الماء . فاذا خرجت مع ابوي في رحلة بسيارة عامة ، كان من عادتي ان اطل براسي من النافذة في كل مرة نعبر فيها فوق احد الجسور ، شيء ما في مسطحات الماء الواسعة كان يشير في داخلي رغبة مؤلمة وجدها غير قابلة للفهم . ذلك لانه لو انني اقتربت بالفعل من الماء ، فما الذي كان يمكنني ان « افعل » لكي اشبع هذا الاحساس ؟ اشربه ؟ اسبح فيه ؟ وهكذا ، فاني حينما قرأت لأول مرة تلك الفقرة من رواية « راسيلاس » ادركت على الفور ما عناء جونسون بقوته : « حاسة كامنة مستترة ما . . او رغبات متميزة عن الحواس لا بد من اشباعها قبل ان يستطيع ان يكون سعيدا » .

واطلقت على هذه « الحاسة الخفية » اسم « الملكة س » ووصلت الى ادراك ان لهذه « الملكة س » علاقة ما بالحقيقة . في « طريق سوان » (١) يصف بروست كيف تذوق قطعة من الكعك مغموسة في الشاي ، فتذكر فجأة طفولته في كومبراي - تذكرها بقدر من الكثافة والحدة حتى انه للحظة كان بالفعل هناك . . . « متعة غريبة فائقة الجمال غزت حواسي . . وعلى الفور أصبحت تقلبات الحياة ووجوهها المتبدلة غير ذات قيمة بالنسبة لي ، كوارثها لا ضرر منها ، وقصرها وهم . . الآن لم اعد اشعر بانني متوسط عادي ، ولا عارض عابر ، ولا قابيل للفناء . . »

قبل ذلك بخمس دقائق ، كان بوسعه ان يقول : « اجل ، لقد كنت طفلا في كومبراي » ، ولا شك انه وصف طفولته تلك بالتفصيل ، ولكن الكعكة المغموسة في الشاي أصبحت تعني ان يقولها وان « يعيها » . يقول تشسترتون (٢) :

(١) طريق سوان Swans Way عنوان المجلد الاول (في الترجمة الانجليزية) من رواية مارسيل بروست الشهيرة : « البحث عن الزمن الضائع » الذي نشر عام ١٩٢٢ ، وصدرت الترجمة الانجليزية للرواية بعنوان « تذكير الاشياء الماضية » . ويقدم هذا المجلد - الذي أصبح أشهر الأجزاء السبعة للرواية - نظريات بروست وتأملاته الذهنية حول الانسان والزمن ، التي سيقوم على اساسها بناء ونسيج روايته - او جوانب ذكرياته المتعددة ، ذات التركيب الهارموني هي بناء سيلفوني متداخل النسيج متقابل التكوين . ويحكى بروست في « طريق سوان » ذكرياته عن « اسرة سوان » التي كان يمر بمنزلها وممتلكاتها على جانبي هذا الطريق مع امه اثناء جولاتهما في طفولته في ريف مقاطعة كومبراي ، وهو احد طريقين كانا يتخذانهما في هذه الجولات . والطريق الاخر هو « طريق اسرة جورمانت » الذي سيحكى ذكرياته عنه ، من الاسرة والشخصيات والاجواء الاجتماعية المرتبطة به في الجزء الثالث من الرواية ، بنفس العنوان . (ه . م .)

(٢) تشسترتون (جيلبرت كينيث) ١٨٧٤ - ١٩٣٦ . كاتب وشاعر وصحفي انجليزي متمسك بالاهتمامات . شملت كتاباته التاريخ والدين والتراجم ، والروايات والمسرحيات والقصص البوليسية . اعتنق الكاثوليكية واصبح مولعا بالاعلان عن آرائه الدينية في كل مناسبة . (ه . م .)

« اننا نقول اشكرك حينما يناولنا شخص ما الملح، ولكننا لا نعني هذه الكلمة . ونحن نقول ان الارض كروية، ولكننا نعني هذه الكلمة ، رغم انها صادقة » . اننا لا نقول الشيء فنعنيه حقا اذا كانت « الملكة س » متيقظة ، ذلك الوصول المؤلم الى ما وراء الحواس . ان « الملكة س » هي مفتاح كل التجارب الشعرية والصوفية ، حينما تستيقظ ، تكتسب الحياة فجأة خاصية حادة نافذة جديدة . كان فاوست على وشك الانتحار في اجهاده ويأسه حينما يسمع اجراس عيد الفصح ، تعيد اليه الاجراس طفولته، وفجأة تستيقظ « الملكة س » ، فيعرف ان الانتحار هو اكثر انواع السخف الخالي من المعنى جدارة بالضحك على الإطلاق » .

« الملكة س » بسيطة ، هي تلك القوة الخفية التي تمتلكها الكائنات الانسانية فتصل بها الى ما وراء الحاضر . فنحن نعرف ، بعد كل شيء ، معرفة كاملة تماما ان الماضي لا يقل حقيقة عن الحاضر ، وان نيويورك ولاهاسا وسنغافورة وستبني جرين كلها لا تقل حقيقة عن هذا المكان الذي تصادف انني فيه الآن . « ومع هذا فان حواسي لا توافق على هذا » . انها تؤكد لي ان هذا المكان، هنا والآن ، لاكثر حقيقة بكثير من اي مكان آخر او اي زمان آخر . فلا يحدث الا في لحظات معينة من التبصر الداخلي الحاد الكثيف ان اعرف ان هذا ليس سوى اكلوبة . « الملكة س » احساس بالحقيقة ، حقيقة الاماكن الاخرى والازمنة الاخرى . وان امتلاكها - رغم ما عليه من تشتت مبعر وعدم يقين او تأكيد - هو ما يميز الانسان من كل الحيوانات الاخرى .

ولكن اذا كانت الحقيقة الثقيلة الموطاة لهذا المكان وهذا الزمن مجرد وهم ، فكذلك هو احساسي بانني هنا والآن . يقول كريشنا في « البهاجادجيتا » (٣) :

(٣) بهاجافادجيتا : اشهر اجزاء الملحمة السنسكريتية الكبرى : المهابهاراتا (جرب ابنساء بهاراتا العظام - من اجل ورائتهم وعودتهم الى عرش ابيهم) وهي الملحمة التي نشأت فسي وادي الكنج وارض الهند وترجع الى الالف الثاني قبل الميلاد . وتتكون البهاجادجيتا من ١٨ فصلا ، يتوزع عليها الحوار الاخلاقي والديني والفلسفي ، بين بطل الملحمة ، واعظم اخوته « ارجونا » وبين سائق عربته الحربية البطل « كريشنا » الذي هو تجسيد الاله العظيم فشنو . ويعتبر هذا الجزء ، الذي كثيرا ما يقرأ مستقلا عن الملحمة ، اعظم تعبير كلاسيكي عن الديانة الهندوسية (وبهاجادجيتا تعني : افنية الرب المبارك) مثلما تعتبر موعظة الجبل تعبيرا عن جوهر المسيحية ، او خطبة الوداع تعبيرا عن جوهر الاسلام . ورغم خلسو البهاجادجيتا من اية دروة درامية ، فانها في الحقيقة خلاصة لحظة درامية ، باعتبارها الاجابة المطولة التي يقدمها الاله البطل : كريشنا - فيشنو على سؤال ارجونا حينما ولفت جوشه قبل المعركة العاسمة تنتظر امره بالهجوم : كيف يمكنه ، وهو الذي يبحث عن الحق والخير ، ان يأمر بارتكاب خطيئة القتل وسفك الدم ؟ ويتدخل كريشنا ، لكي يوفق فلسفيا بين البحث عن الحق والخير ، وبين فعالية الانسان =

« انني لست هنا ، ولا انا في اي مكان آخر » . وهكذا ، فاذا كان بوسع « الملكة سر » ان تجعل ستريندبرج يدرك بوضوح حقيقة مكان يقع على بعد عدة مئات من الاميال عنه ، افليس من المعقول انها قد « تنقله » الى هناك بمعنى آخر ؟ .

سيكون من الخطأ ان نفكر في « الملكة سي » باعتبارها ملكة « غيبية » . انها ليست كذلك ، انما هي القدرة على الإمساك بالحقيقة والقبض عليها ، وهي توحد نصف عقل الانسان ، الوعي واللاوعي .

فكر في الآتي : ماذا يحدث اذا ذكرتني فجأة مقطوعة موسيقية او رائحة خشب يحترق بشيء وقع منذ عشر سنوات ؟ انه امر يشبه لمس ساق ضفدعة ميتة بسلك يحمل شحنة كهربائية . يتقلص عقلي ويتقبض ، اذ يقبض فجأة على « حقيقة » ذلك الزمن الماضي كما لو كان هو الحاضر . الشيء نفسه هو ما يحدث لما رسيل بروس في « طريق الجمع » حينما يتذوق الكعكة المغموسة في الشاي - فهذا الماضي يفيض عائدا متراجعا كالحقيقة . ان ما يحدث هو ان وعينا المشتت الكسول بشكل عادي « يركز » ، مثلما قد اقبض قبضتي في تشننج . ان النغمة او الرائحة لا توقر اكثر من المثير او المهيج ، وتقوم قوتي الداخلية بالباقي - وهي قوة داخلية لا ادرك وجودها بشكل طبيعي - .

منذ بضع سنوات ، اجري علماء النفس تجربة كلاسيكية على قطة . ربط سلك بالعصب الممتد بين اذن القطة ودماعها ، وربط الطرف الآخر للسلك بمولد كهربائي صغير ينتج نبضات كهربائية منتظمة . وحينما كان ينطلق صوت مرتفع بالقرب من اذن القطة ، كانت ابرة المسجل تقفز بعنف . ثم وضع قفص مليء بالفئران امام القطة . وراحت هي ترقب الفئران بتمعن . ثم اطلق نفس الصوت المرتفع بالقرب من اذنها . ولكن الابرة لم تتحرك . كانت القطة شديدة الاهتمام والتركيز بالفئران حتى انها تجاهلت الصوت . وبشكل ما « اطفأت » او اوقفت تشغيل الرابطة الجسدية المادية بين الاذن والدماغ . لقد اختارت ان تركز على شيء آخر .

== بوصفه كائنا اجتماعيا ، مسنا/للعل انه لن يلقى فضيلته اذا اجترح الشر دون غرض او رغبة انانية في الحصول على ثماره لنفسه ، ودون ان يلقى يؤتته الحقيقة النهائية والمطلقة. وهكذا تم المصالحة بين الغالية وبين النزعة الروحية النهائية والمطلقة من خلال تفسير الموقف الاصلي للانسان ونواياه (انما الاعمال بالنيات) . وتبين نهاية المحمة كلها هذا المعنى ، اذ يقلل ارجوا واخوته بعد انتصارهم وفوزهم بالجميلة ديواوي وبالعرش ايضا ، يفضلون ان يهجرُوا كل شيء ، ويذهبوا الحياة كنسك زاهدين في جبال الهيمالايا المقدسة (بعكس النهاية المعتادة للمحمة الغربية : الفوز بالفنائم والتشبع بها) (هـ ، م)

تمتلك كل المخلوقات الحية تلك القدرة على « التركيز » على شيء يثير اهتمامها، ثم « تطفىء » كل شيء آخر . ان الشخص الذي اعتاد على مدينة حديثة ، من المحتمل ان يطفىء ، او ان يقطع تأثير اكثر من ٩٩ بالمائة من المثيرات التي تقع على الحواس . ونحن كلنا نعرف هذا . ولكن الشيء الذي لم ندركه بعد هو القدرة غير العادية التي نمتلكها في صورة مقدرتنا على التركيز على جوانب بعينها من الحقيقة . وهذه القدرة هي « الملكة س » ، ولكننا في هذه اللحظة ، لا نكاد نستفيد منها بشيء ، غير واعين بإمكاناتها الكبيرة .

ان الامر ليستحق طرح هذا السؤال : ما هي « وظيفة » الوعي ؟ حينما تكون غارقا في سبات النوم ، لا تكون مالكا لأي وعي . وحينما تكون متعبا جدا ، فان وعيك يكون مثل ضوء خاب لا يكاد يضيء شيئا . وحينما تكون كامل اليقظة والاستثارة ، فان الوعي يبدو كما لو كانت قوة اضاءته (مقيسة بعدد شمعاتها) تزداد . هدفه ووظيفته هو ان يضيء الحقيقة ، ان يمتد الى داخل طواياها ، وهكذا يعيننا على ان ننصرف فيها وان نغيرها او ان نبدلها . ومن الواضح ان هدفنا الرئيسي ينبغي ان يكون زيادة قوة اضاءة هذا الوعي . فحينما تكون اضاءته منخفضة تصبح الحقيقة « غير حقيقية » وحينما يزداد قوة ، تصبح الحقيقة اكثر حقيقة : وهذه هي « الملكة س » .

ان واحدا من اوضح امثلة اعمال « الملكة س » يمكن ان يعثر عليه في المجلد العاشر من كتاب آرنولد توينبي (١) : « دراسة للتاريخ » حيث يصف كيف قرر ان يكتب هذا العمل . انه يتحدث عن الاحساس بـ « الحقيقة » الذي ينتساب المؤرخين فجأة : « ان كاتب هذه الدراسة قد عاش تجربة صغيرة حقيقية من هذا النوع ، في اليوم الثالث والعشرين من مايو عام ١٩١٢ ، بينما كان جالسا يروح عن نفسه على قمة قلعة ميسترا ، بينما الجدار الاصم لجبل تايجيتوس يوتر الافق امامه في الجانب الغربي من المنطقة ، الى حيث كان يحدق ببصره ، وكان

(١) توينبي - آرنولد جوزيف - ١٨٨٩ - ١٩٧٥ . المؤرخ البريطاني المعاصر الشهير ، والكتاب الذي يذكره ويلسون هنا هو اشهر اعماله ، ويضم دراسة شاملة للحضارات الست التي اعتبرها توينبي اهم الحضارات الانسانية في التاريخ (المصرية واليونانية والهندية والرومانية والاسلامية والمسيحية الغربية) وهي دراسة تهدف الى اثبات فلسفته التاريخية القائمة على مزيج من التفسير الميتافيزيقي (التاريخ باعتباره انعكاسا لتجلي الروح الانسانية) والتفسير الفردي (التاريخ باعتباره انعكاسا لرؤى الافراد المتوحدين) الذين يجسّدون مدارج تطور روح الانسان . وقد رأى توينبي ان التاريخ يسير في دوائر مغلقة (كل دائرة حضارة مستقلة) تولد وتنمو وتتحلل وتنهيار حتى دمارها النهائي . ورأى توينبي - على عكس شبنجلر - انه من الممكن انقاذ الحضارة الغربية على ايدي الاكليروس والنزعة الكهنوتية (هـ . م) .

سهل اسبرطة المفتوح يمتد متراميا في الجانب الشرقي المقابل ، من حيث كان هو قد جاء في ذلك الصباح ...»

« لم تكن التجربة الحسية التي اثارت خياله التاريخي صوت ترانيم لاغنيات شعائر دينية ، انما كانت منظر الاطلال التي شق وسطها طريقه صعدا الى القمة ، وقد كان هذا المشهد مربعا مروعا ، ذلك انه في مدينة الجنيات المدمرة تلك ، كان الزمن قد وقف ساكنا منذ ذلك الربيع من عام ١٨٢١ بعد ميلاد المسيح الذي اقفرت فيه مدينة ميسترا من ابنائها .. ففي صباح يوم من ايام شهر ابريل ، ومن قلب زرقاة السماء ، انهمر سيل ابناء الجبال المتوحشين من فوق جبل ماني فامتلكوها ، واجبر اهلها على الفرار طلبا للنجاة بحياتهم ، وسلبوا وذبحوا في فرارهم ، ودمرت منازلها المهجورة ، وتركت منازلها مقفرة منذ ذلك اليوم الى هذا اليوم ...»

لم يكن ما طرا لتويني في هذه المناسبة هو ببساطة مسألة « المفز القاسي لجرائم البشرية وبلاهاتها » . وانما الحقيقة « الكلية » للمشهد الذي استحضره بخياله . وهو يذكر ست تجارب اخرى ظهر فيها نفس تأثير الحقيقة من ابتغات الرؤى الوهمية واستحضارها . فاذا كان يقرأ كيف واجه زعيم منفي هارب من زعماء حركة الوحدة الإيطالية زوجته حينما رفضت ان تساعده ، فانتحر امام عينها ، كان يقرأ هذه الواقعة : « فنقل في ومضة واحدة عبر هوة الزمان والمكان ، من اوكسفورد في عام ١٩١١ بعد ميلاد المسيح الى مدينة تيانوم عام ٨٠ قبل الميلاد ، لكي اجد نفسي واقفا في فناء خلفي في ليلة مظلمة ، اشاهد ماساه شخصية ...» وهو يسجل تجارب مشابهة - ولاها في اختصار شديد - حينما كان يقرأ ما كتبه برنال دياز وهو يصف كيف وقع بصر الاسبانيين لأول مرة على مدينة « تينو شتيتلان » ، ثم وهو يقرأ ما كتبه فييهاردوين في وصفه لرؤيته الاولى لمدينة القسطنطينية خلال الحروب الصليبية ، ثم وهو يقرأ ما كتبه جندي يوناني في وصف كيف حاول ان ينقل فتاة من الاغتصاب . واخيرا تأتي تجربة يفيم فيها ويختفي الخط الفاصل بين « الملكة س » وبين التجربة الصوفية :

« في كل واحدة من التجارب الست التي سجلتها لتوي ، كان الكاتب قد اصبح غارقا في تواصل مؤقت مع الممثلين الحقيقيين لكل حدث تاريخي بعينه من خلال ما وقع على خياله من تأثير نظرة آسرة مفاجئة الى المشهد .. ولكن ثمة مناسبة اخرى وهب فيها تجربة اكبر واكثر غرابة . في لندن ، في القسم الجنوبي من طريق باكينجهام بالاس ، كان الكاتب يسير متجها الى الجنوب على طول الطوار المحاذي للجدار الغربي لمحطة فيكتوريا ، وكان الوقت بعد ظهر يوم لا يبعد كثيرا عن تاريخ بداية الحرب العالمية الاولى .. ووجد الكاتب نفسه

منغمسا في تواصل ، ليس فقط مع هذه الحادثة او تلك من احداث التاريخ ، وانما مع كل ما قد كان في الماضي البعيد او القريب ، ومع كل ما سوف يجيء . في تلك البرهة ، كان مدركا بشكل مباشر لمسيرة التاريخ منسابة عبره برقة في تيار عتي ، ومدركا لحياته الخاصة تنهادى كالموجة في انسيابة هذا المد الشاسع العريض . واستغرقت التجربة وقتا كفاه طوله لان يرى بعينه السطح الاحمر المصنوع من الطوب في عصر الملك ادوارد ، والواجهات الحجرية البيضاء لجدار المحطة تمر على شماله ، ولان يتعجب - نصف مدهوش ونصف مسرور - متسائلا عما يجعل هذا المشهد العادي المتناثر هو الاطار والموقع المادي لنوع من الاستنارة العقلية . بعد لحظة او لحظتين ، كان التواصل قد توقف ، وكان الحال قد عاد ثانية الى عالمه اللندني اليومي الذي كان هو وسطه وبيئته الاجتماعية حيث يعيش ويقطن . . » (٢٠)

هذه الصفحات التي كتبها توينبي تفف بين اوضح ما كتب من وصف لعمل « الملكة س » ، وهي تبرز النقطة التي كنت احاول صياغتها . فحينما اكون نصف نائم ، فان احساسي بالواقع يكون مقصورا على نفسي مقيدا بها وبما يحيط بي بشكل مباشر . وكلما ازدادت يقظة ، كلما طال امتداده . ولكن ما ندعوه « الوعي المستيقظ » لا يكون في العادة افضل بكثير جدا من النوم . اننا نظل مجلببين في حلم يقظة بليد وسلبى . ولكن هذا لا يرجع الى ان ثمة حدودا طبيعية للوعي ، وانما هو يرجع فقط الى اننا نظل غير مدركين لان هذا الوعي يمكن ان يمتد . اننا مثل الكلاب التي تظن انها مربوطة بالقيد او السلسلة ، بينما هي حرة في الحقيقة .

ان « الملكة س » ليست « حاسة سادسة » وانما هي قدرة عادية من قدرات الوعي . ولا بد ان يكون واضحا مما كتبته فيما سبق انها هي المفتاح ، ليس فقط لما يدعى بالتجربة الفيزيائية ، وانما لمجموع مستقبل ارتقاء الجنس البشري .

الجانب المظلم من القمر

في خريف عام ١٩٦٦ ناقشت مسائل علوم الغيب مع الشاعر روبرت جريفز في بيته في ماجوركا . وعلى الفور ، اطلق جريفز ملاحظة جعلتني اجفل . « ان القدرات الغيبية ليست بالندرة التي تتخيلها . فهناك واحد من بين كل عشرين يمتلكها بشكل من الاشكال » .

كان ما اثار اهتمامي الى درجة كبيرة هو الرقم الدقيق : ٥ بالمائة . فهذا ايضا هو رقم « الاقلية المهيمنة » بين الكائنات البشرية . في السنوات الاولى من هذا القرن ، سأل برناردشو ، المستكشف هنري ستانلي عن عدد الاشخاص بين رجاله ، الذين استطاعوا ان يتولوا قيادة جماعة الاستكشاف حينما كان ستانلي نفسه مريضا . قال ستانلي : « كانت نسبتهم واحدا بين كل عشرين » وقال شو : « هل هذا الرقم تقريبي ام بالتحديد » . واجاب ستانلي : « بل بالتحديد » .

وقد اعاد الصينيون اكتشاف مسألة ال ٥ بالمائة المهيمنة في خلال الحرب الكورية . فرغبة منهم في الاقتصاد في القوة البشرية ، قرروا ان يقسموا اسراهم الامريكيين الى مجموعتين : القادرين على التفكير في مشروعات ما وتنفيذها ، والسلبيين . وسرعان ما اكتشفوا ان الجنود القادرين على التفكير والتنفيذ كانوا بالتحديد واحدا من بين كل عشرين : ٥ بالمائة . وحينما ابعدت هذه ال ٥ بالمائة عن بقية المجموعة ، كان من الممكن ترك الآخرين دون حراسة على الاطلاق تقريبا .

والادلة المستقاة من علم الحيوانات تشير الى انه من الممكن لظاهرة ال ٥ بالمائة المهيمنة ان تنطبق على « جميع » الحيوانات .
ويبرز هنا السؤال الهام : الى اي مدى يمكن ان يكون افراد ال ٥ بالمائة

المهيمنين من الناحية البيولوجية هم الشيء نفسه الذي تعنيه « ال ٥ بالمائة من اصحاب القدرات الغيبية » الذين اشار اليهم جريفز ؟ من المؤكد ان هناك اسبابا عديدة تدفع الى الزعم بتطابق المجموعتين . ففي المجتمعات البدائية يكون الزعماء القادة هم ايضا الكهنة والسحرة . والرجال الذين قادوا جماعات الصيد لا بد انهم كانوا - مرة اخرى - هم الذين امتلكوا درجة عالية من « حساسية الادغال » . ما هي القدرة التي تميز القائد الزعيم ؟ انها القدرة على التركيز ، تركيز الارادة في لحظات الطوارئ والخطر . وهذا معناه القول بانها شكل من اشكال « الملكة س » .

باختصار ، يبدو من المحتمل ان كل الناس يملكون اثرا باقيا من « القوى الغيبية » ، القوى التي تنبع من المستويات الاكثر عمقا لحيويتهم ، تلك التي اطلق عليها جرانفيل باركر الكاتب المسرحي اسم « الحياة السرية » . ان افراد نسبة الخمسة بالمائة المهيمنين ماهرون في توجيه تلك القوى وترويضها اكثر من معظم الناس . ان السحرة ، والاطباء الذين يستخدمون السحر والعرافين والوسطاء كانوا من اعضاء نسبة الخمسة بالمائة المهيمنين الذين طوروا قدراتهم الطبيعية .

ويتدقق ضوء جانبي آخر هام على هذا الموضوع عن طريق البحث الحديث حول التنويم المغناطيسي الذي يبعث على النعاس العميق ، وقد وصف جانب منه في كتاب « العقل والجسد » الذي وضعه الدكتور ستيفن بلاك (١٠)

ويشير الدكتور بلاك الى ان معظم الناس يمكن تنويمهم مغناطيسيا اذا هم تعاونوا في هذا الاتجاه - ان الشخص الذي لا يقبل التنويم المغناطيسي قد يكون مريضا عقليا - ولكن عددا ضئيلا فقط من الناس هم « القابلون للنعاس العميق » . ومن الغريب تماما ان عددهم الدقيق تبلغ نسبته خمسة بالمائة من البشر . ويمكن معالجة من يقبلون النعاس العميق من عدد مدهش من الازواج الجسدية عن طريق الايحاء في حالة التنويم - اوجاع تبدأ من الربو الى الدمايل الصغيرة . وحتى من يقبلون درجة متوسطة من النعاس عن طريق التنويم ، يمكن الايحاء اليهم في حالة النوم المغناطيسي فلا تتأثر جلودهم بعد التلقيح بالطعم المضاد للتدرن الرئوي الذي يتسبب بشكل طبيعي في ورم خفيف في موضع التلقيح . وقد تمت معالجة مرضى كانوا يعانون من عدد كبير من الدمايل الصغيرة على مرحلتين ، بمعالجة جانب واحد في كل مرحلة ، من قبيل التاكيد من ان الدمايل كم تختف من تلقاء نفسها . والمعتقد ان هذه الدمايل تظهر بسبب

(١٠) لندن ، ويليام كيمير ، ١٩٦٩ .

المدوى من « فيروس » معين ، ومع هذا فقد اختفت دون ان تترك آثار ندوب
في فترات تتراوح بين خمسة أسابيع وشهرين . (٢٠)

ولكن تجارب الدكتور بلاك كانت اقل اهتماما بمعالجة اوجاع بعينها منها
باهتمامها باثبات ان الجسد يمكن ان يتأثر بالعقل الى درجة غير عادية ، وفي
هذا المجال كانت تجاربه ناجحة الى درجة بارزة . والقضية هنا ، مرة ثانية ،
هي القدرة الخفية للعقل اللاواعي ، والتي يمكن الوصول اليها واستخدامها عن
طريق « التنويم المغناطيسي العميق » في نسبة من البشر تبلغ خمسة بالمائة . ان
خمس بالمائة من البشر قادرين - احتمالا على الاقل - على الوصول الى عتبات
القوى الخفية لـ « الحياة السرية » .

اما جريفر فاعل اهتماما بالسحرة واصحاب الاسرار الباطنة (٢١) منه
بالشعراء ، ويحتوي كتابه الهام : « الربة البيضاء » نظرية عن طبيعة الشعر لا
تربط بين الشعر وبين قدرات اللاوعي فقط ، وانما تربط بينه ايضا وبين
العبادات السحرية التقليدية .

هناك ، طبقا لما يقوله جريفر ، شكلان من الشعر : « شعر عرائس الفنون
Muse Poetry » و « الشعر الابوللوني Apollonian Poetry » . الاول يخلقه
« الالهام » ويحكمه الدوق » ، اما النوع الثاني فيخلقه الدهن ، وهو يربط بين
« شعر عرائس الفنون » وبين الربة البيضاء في الديانات القمرية البدائية . اما
العلم ، مثله مثل الشعر الابوللوني المنسوب الى اله الشمس ، فهو محاولة
للقضاء على كل الخرافات القمرية والتنعم والاستدفاء في نور العقل
الشمسي النقي » .

ان تعليق جريفر عن اصل « الربة البيضاء » لمثال بارز على ما يعنيه بالحدس
الشعري :

« بدأت الاستنارة ذات صباح حينما كنت اعيد قراءة ترجمة اللادي تشارلوت

(٢٢) انظر مقالة كتبها ستكلير وجيبين في مجلة « ذي لانسيت The Lancet » في عدد
اكتوبر ١٩٥٩ ص ٤٨١ .

(٢٣) يقول : « لست الان من اصحاب الاسرار الباطنة ، انني اتجنب باصرار عمليات
السحر ، والروحانية واليوجا ، وقراءة المستقبل والكتابة الآلية ، وما الى ذلك » . (خمسة اقسام
في اليكس نيوبورد ، دويلداي ١٩٥٨ ، ص ٥٨) .

جست للحممة « المابينوجيون » « The Mabinogion » (١) وهو كتاب يضم أساطير ويلز القديمة ، فوجدت قصيدة غنائية مزدراة تدعى « أغنية تاليزين » (٢) . وفجأة عرفت (ولا تسألني كيف كان ذلك) ان سطور القصيدة التي كان الناس يهلونها دائما باعتبارها هراء فارغا لا شك فيه ، قد كونت سلسلة من الالغاز المنسوبة الى بواكير العصور الوسطى ، وعرفت انني قد اكتشفت حلول كل هذه الالغاز المحيرة . رغم انني لم اكن دارسا متخصصا في التراث الويلزي ، ولا دارسا متخصصا في تراث العصور الوسطى ، ورغم ان العديد من سطور القصيدة كانت قد تغيرت مواضعها عمدا ، ربما بيد مؤلفها (او بايدي خلفائه) لاسباب تتعلق بالامن .

« وعرفت ايضا (ولا تسألني كيف كان ذلك) ان الاجابة لا بد ان تكون بشكل ما مرتبطة بحكاية شعرية ويلزية قديمة تدور حول « معركة بين الاشجار » ورد ذكرها في ملاحظات وهوامش اللادي تشارلوت جست على ترجمتها للحممة « المابينوجيون » ، وتتخلل القصيدة اسماء طائر من الطيور المائية (ابو طيط) وكلب وطي من العالم الآخر ، وينتصر في المعركة اله معين استطاع ان يخمن ان اسم غريمه المقدس هو « قرون » او « آلدر Alder » . لم يحاول احد من قبل ابداء ان يفسر هذا الهراء . والاكثر من هذا ، هو ان كلا النصين ، لا يمكن ان يكون لهما معنى الا في ضوء التقاليد الايرلندية الدينية والشعرية القديمة . ولست دارسا للتراث الايرلندي ايضا .

(١) المابينوجيون The Mabinogion - مجموعة متصلة الحلقات من الحكايات الشعبية والاسطورية في ويلز القديمة ، تتصل اساسا بحياة الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة . وتعد الفصل صياغة اوروبية محلية للأساطير المسيحية الاولى ، مثل اسطورة الكاس المقدسة واسطورة الرداء وبارباس اللص . وكانت هذه الحكايات مكتوبة في الاصل باللغة الوثنية القديمة ، التي هي فرع من اللغات الكلتية والغالية الاقدم عهدا ، ولذلك ظلت مختلفة عن الاداب الرسمية ، وعصية على افهام الدارسين الى ان تمت ترجمتها في القرن الثامن عشر . وتنضم المابينوجيون تنوعات هامة وعميقة عديدة حول مغامرات الملك آرثر وفرسانه ، ومنها نقل شعراء وكتاب كثيرون ، مثل مالوري في « موت آرثر » وآخرين من اوائل الرومانتيكيين . (ه . م .)

(٢) تاليزين Taliesin - اقدم واعظم الشعراء الشعبيين في ويلز القديمة ، الذي جمع الاغاني والاساطير الويلزية في ملحمة واحدة نسبت اليه . ولكن كثيرين من الباحثين في الادب الكلتية القديم يعتبرونه ، هو ذاته ، اسطورة ، مثلما ينظر بعض الجريجولوجيين الى هوميروس . وقد نسبت اليه كميات من الشعر في مختلف الانواع ، اكثر تنوعا وحجما مما يمكن لشاعر واحد ان يؤلف في خلال عمر واحد بالغ الطول الى درجة غير عادية . ولكن شعراء الرومانتيكية الانجليزية اولعوا به ، ومنهم تينسون وتوماس بيكوك وغيرهما (ه . م .)

« ولما لم تكن هناك اية علامة على وجود الجنون في عائلتي ، فاني لم اكن استطيع ان اصدق انني على وشك الجنون . كان الاكثر احتمالا هو ان الهاما ما قد هبط علي . وهكذا فقد قررت ان اتأكد من الموضوع بمساعدة رف ممثليء من الكتب الموثوق بها حول الادب الكلتى وجدتها في مكتبة والدي (وغالبيتها كانت موروثه عن جدي ، وكان مولعا بجمع الآثار الايرلندية الصغيرة النادرة) ولكنني لم اكن قد قرأت واحدا منها .

« ولكي اختصر قصة طويلة ، اقول ان اجابتي على اللغز ، وهو بالتحديد الاسماء المكونة من حروف تنتمي الى ابجدية درويدية **Druidic** (١) قديمة ، تطابقت بدرجة مخيفة من الدقة مع « اغنية تاليزين » التي لم تكن هراء فارغا الى الحد الذي كان ذائعا عنها . وثبت ان قصيدة « معركة الاشجار » كانت طريقة لا هراء فيها كما كانوا يزعمون لوصف الصراع بين الكهنة المتنافسين في بريطانيا الكلتية من اجل السيطرة على المعرفة والتعليم القوميين . ترون الآن انني اكتشفت ان كلمة « اشجار » تعنى « التعليم » في كل اللغات الكلتية ، ولما كانت الابجدية هي اساس كل تعليم ، ولما كانت الابجدية الدرويدية (مثلما تذكرت من كتاب يوليوس قيصر « الحروب الغالية ») سرا يوضع تحت الحراسة الفيور في بريطانيا وغالة - حقا ، فان طلاس حروفها الثمانية عشر لم تحل لما يقرب من الف سنة - فلا بد ان امتلاك السر كان شيئا يستحق الصراع من اجله . واكتشفت ايضا ان الابجدية في عصر قيصر كانت تدعى « بيوبل لوث **Biobel - Loth** لانها كانت تبدأ بالحرفين ب ، ل ، وانه نتيجة لـ « معركة الاشجار » حلت الـ « بيوبل لوث » محل ابجدية كلتية اخرى اقدم عهدا شديدة الشبه بها ولم تقل عنها سرية وغموضا ، كانت تدعى : بيث ليوس نيون **Beth - Luis - Nion** كانت حروفها الثمانية عشر تفسر باعتبارها اشارات الى مجموعة من الاشجار البرية ، بما فيها شجر الألد **Alder** . واكتشفت ان

(١) درويدية - نسبة الى درويد **Druid** الكاهن الواحد من جماعة مغلقة من الكهنة القدماء في بلاد الغال وبريطانيا قبل الفتح الروماني . انهم حفلة الديانة التي نسبت اليهم ، وهم السحرة الذين كانوا يقيمون طقوسهم في غابات البلوط الكثيفة في غرب اوروبا ، وكانوا يعبدون شجرة بلوط ضخمة او يعتبرونها رمزا للاله ، كما كانت ابجديتهم مستمدة من الاشجار . تعود أقدم المعلومات المنظمة المتوافرة عنهم الى كتابات بليني الأكبر ومذكرات يوليوس قيصر أثناء غزوه لبريطانيا ، ومنها نعلم انهم جماعة مغلقة سرية ، تعبد الشجر ، وتدرس النجوم والطبيعة ، ويؤمن بتناسخ الارواح وانتقالها ، وتعالج السحر ، ولا علاقة بينها وبين جماعات الكهنة السرية الاخرى المنتشرة على شواطئ بحر الشمال او البلطيق . وكان رمزهم «المميز هو « بيضة الثعبان » ساكن الشجرة ، التي نسبوا اليها قنرات خرافية هائلة ، وقال بليني انه رأى احداها في حجم التفاحة الكبيرة . (ه . م .) .

هذه السلسلة من الأشجار كانت تخدم غرضا مزدوجا : باعتبارها ابجدية ، وباعتبارها تقويما مقدسا - فالحروف الساكنة في كلمة الشجرة Tree تشير الى الشهور التي تزدهر فيها تلك الأشجار وتشتهر بها ، اما الحروف المتحركة في الكلمة فتشير الى منازل الشمس او ابراجها ، والى الاعتدالين والانقلابين . انه تقويم يمكن اثبات وجوده عن طريق استخدامات الأشجار في الاعياد في اوربا كلها ، ومن الممكن ملاحظته في العصر البرونزي (وربما قبل هذا) منتشرا من فلسطين حتى ايرلندا ، وكان مرتبطا في كل مكان بعبارة ربة القمر الثلاثية التكوين قبل ظهور الشعوب الآرية ، والتي كانت في بعض الاحيان تدعى « ليوكوشيا » اي « الربة البيضاء » . (١٠)

ان ما توصل جريفز الى اكتشافه من خلال البحث وسلسلة من المصادفات، هو ان ربة القمر الثلاثية التكوين كانت رمزا عالميا في الشعر والديانات الاسطورية في العصر قبل المسيحي : الاغريقي ، والكتلي والفينيقي والروماني والاسكندنافي والهندي ، بل والافريقي .

« ان اكثر الحقائق المنفردة اهمية في التاريخ المبكر للدين والاجتماع الغربيين ، كانت دون شك ، عطية الكبت التدريجية لعبادة الربة القمرية الام الملهمة ، بالاضافة الى كبتها .. على يدي ، او من خلال عبادة الرب الشمسي ابولو العقلية المزدهمة بالعمل ، هذه العبادة التي رفضت الابجدية الموسيقية للأشجار وفضلت عليها الابجدية الفينيقية التجارية - ال « أ ب ت » المألوفة - ففرست بذلك بداية الادب والعلم الاوروبيين » .

كانت ربة القمر هي ربة السحر ، ربة اللاوعي ، ربة الالهام الشعري . وقد تم صبغ الديانة الاسطورية للانسانية بالصفة « الشمسية » ، ثم حدث في القرب ان تم تنصيرها ، او صبغها بالصفة المسيحية ، واعتُبر رب العقل المذكور لنفسه مكانا مترايدا الاهمية ، مزودا على الدوام بتلك الحجة التي لا تقاوم ، والتي تقول بأنه يمكنك ان ترى الشيء في ضوء الشمس بشكل اكثر وضوحا مما تراه في ضوء القمر . ولكن هذا ليس صحيحا . على العكس ، ان اشياء معينة تصبح غير مرئية في الضوء القوي . ان الوعي الزائد من الحد ، وحالات التفكير العقلية تشبه شبكة الصيد الواسعة الثقوب التي تهرب من خلالها كل الاسماك الصغيرة .

ويصف جريفز كيف تملكته الافكار والهواجس المتعلقة بالربة البيضاء وشجرتها المقدسة ، شجرة الألد ، في عام ١٩٤٤ ، حيثما كان يكتب رواية

(١٠) محاضرة حول « الربة البيضاء ، خمسة اقلام في اليد » ص ٥٤ .

عن « جاسون وركاب سفينة الأرجو » (١) . كان على مكتبه في ذلك الوقت ، صندوق نحاسي صغير نقش على غطاءه رسم غريب . وفوق هذا الصندوق كان يضع تمثالا نحاسيا صغيرا لرجل احذب يعزف على آلة الفلوت . وبعد عشر سنوات اكتشف ان الرسم الموجود على غطاء الصندوق كان يمثل ربة القمر الثلاثية التكوين الافريقية « نجام » ، وان الرجل الاحذب كان الرسول الخاص للملكة ام في دولة افريقية كانت تزعم انها من نسل « نجام » مباشرة . واذ عاد الى ماجوركا في عام ١٩٤٦ . استمرت المصادفات في التراكم . فقد مات جارك له كان من هواة جمع التحف فاوصى بمجموعة من الاشياء الصغيرة لجريفز ، كان من ضمنها تمثال يشبه الدمية له عين واحدة . واكتشف فيما بعد ان هذه الدمية كانت تمثالا لكاهن من كهنة « اوكرافو Okrafo » ، وهو بديل للقربان البشري الذي كان يقدم للربة البيضاء . واهداه احد الاصدقاء خاتما له فص من العقيق الاحمر ، ولم يكن الصديق يعرف شيئا عن الكتاب . وكان على الفص نقش لختم تبدو فيه الرموز الثلاثة الاساسية لهذه العبارة : ظبي وقمر وايدة موزقة .

وحتى بعد ان انتهى الكتاب ، استمرت الاشياء الغريبة في الحدوث . فقد مات اول من رفضه من الناشرين بسبب هبوط مفاجيء في القلب اصابه بعد الرفض بقليل . ورفضه ناشر ثان بخطاب وقح يقول فيه انه لا يستطيع ان يعرف له راسا من ذنب ، وتشكك في قدرة اي شخص على ان يستخلص منه شيئا معقولا ، ولكن هذا الناشر ارتدى بعد قليل ملابس نسائية داخلية وشنق نفسه على شجرة في حديقته (٢) . ومن الجانب الآخر ، كما يقول جريفز ، فان الناشر الذي قبله - وهو الشاعر ت . س . البيوت - لم يسترد نقوده فحسب ، وانما منح ايضا في ذلك العام وسام الاستحقاق . (على ضوء التعليقات التي اوردناها عن بويز في الفصل السابق ، قد يجد المرء لنفسه علرا اذا هو تساءل عن مدى

(١) جاسون وركاب سفينة الأرجو - جاسون من أبطال الميثولوجيا والاساطير والحكايات الشعبية اليونانية المتداخلة . صاحب وزعيم مغامرة السفينة « أرجو » التي ينسب اليها وهو وزملاؤه « ارجو نوتس » حينما خرج مع زملائه - ومنهم هرقل الكبير ويوليسيز في صباه . تحت رعاية « هيرا » كبرى ارباب الاوليمب ، بحثا عن « جزة ذهبية » يحق لمن يمتلكها ان يعتلي عرش تساليا . ويغوي جاسون معارك كثيرة مع وحوش وكائنات خرافية ، تنتهي بلوذه بالجزء الثمينة وبقلوب « ميديا » الساحرة التي ستكون سببا في دماره بعد ذلك . (ه . م)

(٢) ان مثل هذه الميثة لاكثر شيوعا مما يظن الناس . وانا امتلك كتابا ألمانيا عن الطب الشرعي يضم عددا كبيرا من مثل تلك الصور . ومن المعتاد ان يكون الموت الفعلي خفيا او شفا ذا طبيعة اشبه بالحوادث العارضة ، والهدف هو الاستشارة الجنسية الماسوشية . وفي بعض الاحيان تستخدم ملابس الاطفال كبيرة الحجم بدلا من ملابس النساء الداخلية .

ما كانت تلك الاحداث من عمل الربة ، والى اى مدى كانت نابعة من رغبة غير واعية عند جريفز نفسه .

يقول جريفز : « ان سلاسل من الاحداث التي تزيد طبيعتها عن طبيعة المصادفات تحدث كثيرا في حياتي حتى انني احرم على نفسي ان ادعوها ظواهر شبيهة خارقة للطبيعة ، لا بد لي ان اصفها بانها نوع من العادة » . « حسنا جدا : ارجعها الى المصادفة . انكر انه كانت هناك اية صلة بين تمثال الرسول الاحدب القائم على الصندوق . . وبين نفسي ، التي اصبحت فجأة خاضعة لفكرة ربة أوروبا البيضاء ، واكتب عن توائها القبائلية في سياق روايتك عن ركاب الارجو ، وهي التي تلقي علي الان اسراراً قديمة تنتمي الى عبادتها في ويلز ، ايرلندا وأماكن أخرى . ارجوكم ان تصدقوني : لم اكن اعرف مطلقا ان الصندوق كان لتكريم الربة « نجام » ، او ان الاغريق الهيلانيين ، بما في ذلك الاثينيون الاوائل ، كانوا عنصرىا مرتبطين بشعب نجام - البربر الليبيين ، المعروفين باسم الجارمانيين ، الذين ارتحلوا جنوبا عبر الصحراء الكبرى الى النيجر في القرن الحادي عشر الميلادي ، وتزاوجوا هناك مع الزنوج . ولم اكن اعرف ان نجام نفسها كانت ربة القمر ، واشتركت في كل صفاتها مع الربة البيضاء عند الاغريق وفي أوروبا الغربية . لم اكن اعرف الا ما قاله هيردوتس ، من ان الربة الاغريقية « اثينا » كانت هي نفس الربة الليبية « نايت » - (والتي كان احد اسمائها الاخرى هو « لاميا ») .

كتاب « الربة البيضاء » كتاب بالغ الصعوبة ، معقد ومرهق . ولكن القارئ الذي تسحره خيوطه الغريبة المشتبكة ، سرعان ما يكتشف ان جريفز لا يبالغ حينما يقول ان اسراراً قديمة أصبحت « تلقى عليه » . كان قد وقع على « نسق معرفي » كامل ، يماثل في تعقيد علم الطبيعة الحديث الذي تنتمي افتراضاته الاساسية الى القوى « القمرية » اكثر من انتمائها الى القوى الشمسية . وقد أنجز هذا عن طريق استخدام حدسه الشعري لاقتفاء أثر مفاتيح عبر ديانات اسطورية لا صلة واضحة تربط بينها . لقد اكد الشاعر راندال ياريل ان هذه الديانة الاسطورية في مجموعها ليست سوى التجسيد العقلي لعبادة جريفز لـ « ايويج ويبلش Ewig - Weibliche » ولميله الى « الاسراف في تقدير النساء على حساب الرجال » ، (وهو الامر الذي يعترف به في احدى قصائده) . وانه

لمن الصعب أن نرى كيف يبدي المرء مثل هذا الرأي إذا كان يعرف الكتاب معرفة جيدة ، فإن تماسكه الداخلي يشي بأصالته وصدقه .

من الحق أنه لا ينبغي أن يكون هناك صراع بين نسقي المعرفة « القمري » و « الشمسي » ، لأن كل معرفة لا ينبغي أن تكون إلا صادقة أو زائفة . وقد يقول المرء أن الصراع ينشأ من النزعة القطعية الجامدة الضيقة لطرق التفكير « العلمي » . ويعبر أوزبنسكي عن هذه الفكرة بوضوح في الفقرة التي تلي ذلك النص الطويل الذي سبق أن اقتطفته :

« ولكن توجد هنا في تلك الكتب نكهة غريبة من الحقيقة . واني لاشعر بها الآن بوجه خاص بقوة ، لاني حبست نفسي لمدة طويلة بدأخل ذاتي ، وسجنت نفسي داخل قيود « مادية » مصطنعة ، وانكرت على نفسي كل الاحلام عن الاشياء التي لا يمكن أن تقوم داخل تلك القيود . لقد كنت أعيش داخل عالم مجفف تراي متحجر ، مع عدد لا نهائي من المحرمات مفروضة على تفكيري . وفجأة حطمت تلك الكتب الغريبة كل الجدران من حولي ، وجعلتني افكر وأحلم بأشياء ظلت لمدة طويلة أخشى أن افكر أو أن أحلم بها . فجأة بدأت أجد غريب المعاني من حكايات الجنيات القديمة ، أصبحت الغابات والجبال والانهار كائنات حية ، وامتلا الليل بالحياة الفاعمة ، وباهتمام جديد وتوقعات جديدة بدأت أحلم ثانية بالاسفار البعيدة ، وتذكرت الكثير من الاشياء الغريبة كنت قد سمعت بها عن الاديرة القديمة . والافكار والاحاسيس التي كان قد مر وقت طويل منذ كفت عن اثاره اهتمامي ، فجأة بدأت تكتسب عندي المغزى وتثير الاهتمام . وظهر من عميق المعاني ودقيق المجازات الماهرة ما كان يبدو لي بالامس فقط خيالا شعبيا ساذجا أو خرافة فجة خالية من العبرة أو من المهارة . (x)

من الواضح أننا قد بلفنا بهذا نقطة حاسمة في هذه المناقشة . سيكون أكثر القراء راغبين في القبول بفكرة أن الانسان يمتلك قدرات غير واعية مختفية عن الذهن الواعي فلا يدركها . ولكننا نفترض الآن وجود قوى « خارجية » ربات بيفاضات ، وأبجديات سحرية وما الى ذلك . ومن المؤكد أن هذه هي النقطة التي ينبغي فيها أن نقرر بحسم أنه اذ لم يكن موت ناشري جريغز مجرد حادث عارض ببساطة ، الا يمكن أن يكون قد جاء بسبب التأثير غير الواعي لـ « العين الشريرة »

(x) نموذج جديد للكون » . ص ٤ .

او « اللامة » التي كان جريفز نفسه يمتلكها ؟ اولا يحتمل الا تكون هذه المسألة الفريية عن الاشياء النحاسية التي كانت على مكتب الشاعر نوعا من « التواصل عن بعد » او « التليبائي » من جانب جريفز ، وانما كانت محاولة من جانب تلك الاشياء لاجتذاب انتباهه اليها ؟ اليس تلك اذن هي الخطوط الفاصلة بين العلم والخرافة ؟ لقد ظن الانسان القديم ان البرق هو الرب ، وكشف بنيامين فرانكلين ان البرق كان شحنة كهربائية ، استاتيكية ، وهذه هي حقيقتها بالتحديد .

هذا حق ، ولكن ثمة بالنسبة ما هو أكثر من ذلك . وهذه هي النقطة التي لا بد عندها أن يقرر مبدأ جوهري آخر .

من السهل تماما ان نرى قدراته الانسان المنطقية قد عزلته عن قوى عقله غير الواعية . انك اذا ما شرعت في حل مسألة رياضية في منتصف الليل ، فستجد انه من الصعب ان تعود فتفرق في النوم . ذلك ان عملية الحساب الرياضي ، تتضمن نوعا فريدا من التركيز لمستويات عقلك العليا ، وحينما نشرع في الحساب فانك توقف هذه المستويات العليا مثلما يقظ علاء الدين الجني المأسور في المصباح واطلقه من اساره . ولكن النوم يعتمد على عودة الجني الى سجنه في المصباح والسماح لمستويات العقل السفلي بان تنطلق سابحة في حرية . او اذا فكرت في نفسك - أعني في شخصيتك الكلية - باعتبارها شيئا شبيها بالسيارة، فانك بالنوم « تغير السائق » .

وقد كان الارتقاء الانساني طوال المليونين الماضيين من السنين هو ارتقاء السائق الواعي ، الجني المأسور في المصباح . والحضارة كيان بالغ التعقيد ويحتاج الانسان الى تنظيم عقلي بالغ التعقيد أيضا لكي يتعامل معها . فإذا ما قورن الانسان الحديث بسلفه القديم منذ مليونين من الاعوام ، فانه سيبدو شبيها بشركة عملاقة تقارن بـ « دكان » صغير تديره أسرة صغيرة .

ومشكلة الشركة العملاقة هي ان أجهزتها العلوية المتحركة فيها تبلغ حدا هائلا من الضخامة . ان فاتورة الكهرباء التي ينبغي دفعها مقابل استهلاك مبنى ضخ من مباني الشركات الكبرى كافية لتشغيل مائة من المشروعات الصغيرة . وتبلغ كل الاجهزة والمشاكل العلوية الاخرى لهذا المبنى نفس النسبة من الضخامة المروعة .

والنتيجة هي ان الانسان المتحضر يميل الى أن يعاني من التوتر الفائق غير الواعي .

فكر فيما يحدث حينما يتزوج شاب ويشرع في تكوين أسرة . ان عليه ان يفكر في مستقبله وفي عشرات الاشياء الاخرى الى جانب المستقبل ، حتى يصبح

مثل لاعب السيرك الذي يلعب بعدة كرات فيحتفظ بها جميعا في الهواء في وقت واحد . فاذا ما طرات له هذه الفكرة حينما يكون في شهر العسل ، فانه لن يسمح لها بان ترعجه . على العكس : انه اذ يتغذى بتيارات قوية من الطاقة التي اثارها الجنس ، فهو يشعر بانه يمتلك من القوة ما يكفي لمواجهة تلك المشاكل وزيادة .

وبعد سنوات قليلة ، تأتي اوقات يستبد به فيها التعب من لعبة الكرات الطائرة ، فيتمنى او استطاع ببساطة ان يترك الكرات جميعا لكي تسقط على الارض . ولكن بما انه - بالطبع - يحب زوجته واطفاله ، فان اسقاط الكرات جميعا مسألة غير واردة على الاطلاق . ولكن هناك اوقاتا يكف فيها عن تكريس قلبه لمسألة المحافظة على الكرات الكثيرة الطائرة في الهواء ، فيترك العملية لكي تصبح عملية ميكانيكية خالصة لا روح فيها .

ان ما يحدث في تلك اللحظة لمثير للاهتمام . تصل فواتير كثيرة في نهاية الشهر . فاذا كان في حالة صحية ومتفائلة ، فانه سوف يدفع قيمة الفواتير ، ويحسب ما بقي له في البنك ، ثم يشرع في التفكير في اخذ أسرته في نزهة خلوية يوم الاحد . اما اذا كانت معنوياته منخفضة ويشعر بالانقباض ، فانه يتجنب دفع قيمة الفواتير لاطول مدة ممكنة ، بسبب ما يروق له من شعور بالامن تتولد من معرفته ان قيمة حوالة الدفع ما تزال مستقرة في البنك . وتبقى الهموم في صورة المشاكل التي لا حل لها في مؤخرة عقله ، تاكل طاقته الحيوية مثلما ياكل المصباح الذي تركته مضاء طاقة الكهرباء . فاذا شعر بنفسه وهو يتزايد انقباضا ، فان كل مشكلة جديدة تبدو له وقد اصبحت اكبر حجما ، وتزداد طاقته هبوطا . انه ينزلق الان نحو ما اسماء علماء النفس قبل خمسين عاما : « حالة الحساسية المفرطة » حيث تبدو الحياة في صورة سلسلة من العقبات التي لا يمكن اجتيازها ، ويصير كل كتيب صغير جبلا شاهقا . هنا يصبح كل كيانه النفسي سلسلة من الحجرات التي ترك النور فيها جميعا مضاء ، وتصبح الحياة خملا ثقيل . ويعتاد بعض الناس مثل هذه الحالة من التوتر الدائم المفرط فيقبلونها باعتبارها حالتهم العادية ، فيسلمون بانه من الطبيعي ان يفقدوا شعرهم في الخامسة والثلاثين من اعمارهم ثم يصابوا بالقرح المعوية في الاربعين .

لاحظ ان السمة المميزة الاساسية لهذه الحالة هي انك « توقفت عن ملاحظة الاشياء » . انك مثل رجل يجري لكي يلحق قطارا ، فلا يعود لك من الوقت ما يكفي للاتفات براسك الى اليمين أو الى اليسار . وحتى اذا ما استطعت ان تلحق بالقطار ، فانك لا تسترخي فتتظر من النافذة ، مثلما لا بد ان يفعل اي طفل عادي . انما يستمر التوتر الداخلي ، انك تحاول ان تقرأ جريدة ، أو ربما ببساطة تأخذ في

التحديق امامك بنظرة خالية من أي معنى ، وعقلك يضرس بأسنانه ويجررش بها على همومه .

فكر الان فيما يحدث اذا ما خرج مثل هذا الشخص في اجازة ، فيبدو نه كل شيء فجأة « على ما يرام » . ها هو الصباح مشرق، مشمس ، وهو يستطيع ان ينسى المكتب لمدة اسبوع أو نحوه وان يستمتع في بساطة بالمنظر الجميل . يبدو الامر حينذاك كما لو أن شخصا ما قد ضغط على زر ايقاف محرك هادر ، يخبو هدير الالة ويموت ، ويبدو الصمت شيئا كالمعجزة . يبدو الامر كما لو ان نبعا من الحيوية قد تدفق فجأة في الوعي . لقد كف عن ان يكون سلبيا ومنقبضا . انه ينظر الى المشهد الجميل امامه باهتمام عظيم ، او يصفى باستمتاع الى الثروات المحيطة من مشرب الحانة . لقد استرخى التوتر الداخلي وانبسط . انه لا يضيع طاقته الحيوية هباء بعد . ولانه يلاحظ الاشياء الان مرة أخرى ، فان آلية تراجعه الى الوراء تبدأ في العمل . ان المتعة التي يحصل عليها من منظر شجرة تجري خارج القطار انما تعني ان حواسه قد بدأت في الامتداد الى الخارج ، وفي توقع ان تكون الاشياء مبهجة ومثيرة للاهتمام ، وهو الامر الذي يعني بدوره ان ينابيع طاقته الحيوية تصبح أكثر غزارة وتدفقا . ان النظر الى الاشياء « باهتمام » انما يعني انعاش العقل . في رواية « رحلة الى الشرق » يكتب هيرمان هيسه (١) جملة هامة تقول : « ... كنت مسؤولا عن قسم الموسيقى لمجموعتنا، وقد اكتشفت حينذاك كيف يتسبب الوقت الطويل الذي نكرسه للتفاصيل الصغيرة في اشعارنا بالهيبة وفي زيادة قوتنا » - (الفصل الاول) . تماما . ذلك لانك حينما تركز اهتمامك بجدية على التفاصيل الصغيرة فانك تخفف من انتوتر المفرط العام في بقية عقلك ، وحينذاك تكون ينابيعك الحيوية قد تجددت .

ويلاحظ ويليام جيمس ايضا ان « التعامل بتنمر واستئساد » غالبا ما يكون افضل علاج . لحالة « الحساسية المفرطة » حينما تصبح كل التلال الصغيرة جبلا شاهقة . فالطبيب يرغم المريض على ان يبدل جهودا هائلة ، وتكون النتيجة الاولى شعورا حادا بالتعاسة والحزن ، يتبعه - على الفور تقريبا - احساس بالارتباك والخلاص . ولان الافراط في الحساسية غير ضروري (فهو ليس أكثر من عادة رديئة) ، مثل خوف الطفل من الاشباح ، فانه اهدار للطاقة الحيوية لا هدف له .

(١) هيسه هيرمان (١٨٧٧) شاعر وكاتب الماني حديث ، عاش في سويسرا منذ شبابه الاول . كان من الكتاب الالمان الشرفاء الذين عارضوا النازية بقوة رغم ايمانهم العميق بوطنهم ونزعتهم التصوفية في تصورهم لمكانة الامة الالمانية . حصل على جائزة نوبل للادب عام ١٩٤٦ ، فكان اول الماني يحصل عليها بعد الحرب العالمية الثانية ، وشارك بجهد كبير في اعادة صياغة الثقافة الليبرالية الالمانية بعد اندحار النازية . (ه . م)

وحالما ينتزع العقل دفعة واحدة عن طريق صدمة قاسية من حالة سلبته البائسة، فان القوى الحيوية تبدأ في العمل من جديد .

وحيثما يكون الكائن الانسان في حالة صحية ، فانه يركز على مشكلة واحدة في المرة الواحدة ، مكرسا لها وفيها كل احساسه بالاستهداف والقصد ، ويحافظ على مستوى مرتفع من القدرة على التراجع او الانسحاب النشط من بيئته . انه يفعل كل شيء ببطء ، باهتمام عميق ، وحينما يشرع في الاحساس بالتعب ، يقلل من سرعته ويخفض من نشاطه ، ويتيح لقوى لاوعية الفرصة للقيام بعملية التجديد . انه يعرف ان تجاوز الحد في الاجهاد وما يصحبه من انقباض واحساس بالهزيمة تشكل كلها دائرة مفرغة لا بد من تجنبها اذا كان يريد ان يكون فعالا وصحيا .

ورغم ان الإفراط في الحساسية حالة تؤكدتها وتبرزها الحضارة الحديثة ، فانها ليست مرضا خاصا من امراض الحضارة . انها مرض من امراض الوعي - اي انها مرض يتبع ان يكون الكائن انسانا . ان عامل المزرعة اذ يذهب الى عمله لجدير بان يتجاهل الاشياء المحيطة به مثلما يتجاهلها ولا يشعر بها البائع المتجول المتعجل في سيارته . واذا كان سكان قرية من قرى الامازون « اقرب الى الطبيعة » من سكان نيويورك ، فعادة ما يكون ثمن هذا هو القدرة والجهل وعدم اشباع الاحتياجات الضرورية . ان الإفراط في الحساسية هو الثمن الذي ندفعه مقابل سيمفونيات بيتهوفن وروايات بلزاك ، وما تحقق من تقدم في المعرفة الطبية التي تقي الاطفال من الموت بالجذري .

ومع هذا فانه ليس ثمننا ضروريا او لا مهرب منه . انه نتيجة للجهل بمصادر اقتصادنا الحيوي وسوء ادارتها .

والنقطة التي تجدر ملاحظتها هنا هي انه على الرغم من ان الإفراط في الحساسية قد لا يكون ضروريا ، فانه منتشر كما تنتشر الإصابة بنزلة البرد العادية . ولن يكون من قبيل تجاوز الدقة ان نقول ان كل الناس يعيشون في حالة ما من حالات « التوتر » والقلق اكثر جدا من المستوى الذي يحتاجونه بالاعتدال من اجل الوصول الى الكفاءة الحيوية الفعالة . فان من الميول العامة السائدة للوعي ان « يفرد الانتباه حتى يجعل سمكه بالغ الرقة » ، ومثلما يحدث لطفل تجاوزت استثارته حدها لكثرة ما يجده امامه من الدمى في عيد الميلاد ، لا بد ان تكون النتيجة هي الاجهاد العصبي .

والامر المثير للاهتمام حقا في هذا السياق هو اللحظات التي يسترخي فيها التوتر ، بسبب نوع من الراحات الدائري او الانغماس الكامل في بعض المهام الصغيرة . ويصف بيتس مثل هذه اللحظات ، اذ يجلس في مشرب مزدحم للشاي في لندن :

بينما رحت احدث في المشرب والشارع
فجأة التهاب جسدي وتوهج والتمتع ،
ولمدة عشرين دقيقة او اكثر او اقل ،
بدت سعادتي هائلة عظيمة ،
حتى اصبحت مباركا ، قادرا ان امنح البركات .

ربما كانت هذه حالة من حالات الايحاء الذاتي ، يستطيع المرء ان يتخيل
الشاعر اذ يزداد توتره واجهاده بينما يشق طريقه وسط الزحام في وسط لندن ،
ثم يجلس ليحتسي قدحا من الشاي الساخن بينما ينظر من نافذة محل « سولن
وادجار » الى الشارع . فجأة تتوقف كل محركانه وتصمت في سكون ، ويمضي
في التحديق الى الحشود المتزاحمة العابرة باهتمام عميق .

هذا هو في الحقيقة ما يكون شاعرا من الشعراء . انه شخص يتمتع - بشكل
طبيعي - بصحة جيدة ومرونة فائقة ، وكثيرا ما تمر به لحظات تختفي فيها حالة
الحساسية المفرطة المعتادة ، وفجأة تفرقه الدهشة والبهجة اذ يتبين مقدار ما
يشير به كل شيء من اهتمام ومتعة . ان ما يحدث في مثل تلك اللحظات هو انه يبدأ
في سماع « اصوات الصمت » . انه يدرك ان العالم ثري بالمعاني التي كان جديرا
بالا يلتفت اليها لو كان في حالته العادية . وانا اركز على كلمة « المعاني » لانها اب
الموضوع وجوهه . ان المعاني التي ندركها حينما تختفي حالتنا المعتادة من الافراط
في الحساسية ، موجودة بالفعل . انها ليست وهما ، انها ليست شيئا نابعا من
ذواتنا بصورة مطلقة .

من الحق ان لكلمة « مثير للاهتمام » دائرة ذاتية ، انني « انا » الذي اقرر
ما هو مثير للاهتمام وما ليس كذلك . ومع ذلك فان له معنى موضوعيا خاصا به .
فحينما يدرس شرلوك هولمز وثائق قضية من القضايا ثم يفهم بقوله : « انها تثير
الاهتمام للغاية ، يا واطسون » فان من الممكن ان يعبر عن المعنى الذي يقصده
بقوله : « انها اكثر تعقيدا مما يظهر على السطح . » ان الاحساس بالمعنى الذي
يبرز في داخلنا حينما تختفي حالة الافراط في الحساسية هو نوع من التعرف
على التعقيد ، نوع من « الاهمية الكامنة » في الاشياء .

اننا اذا ما فكرنا في الارتقاء الانساني باعتباره عملية من « التعقد » المتزايد
(اذا استخدمنا تعبير تيار دي شاردان) أصبح من الواضح ان هذا الارتقاء يعني
ايضا « افراطا في الحساسية » متزايدا ، وان هذا بدوره يعني ميلا متزايدا لعدم
ابصار « المعنى » .

من المهم ان نفهم ان « المعاني » التي بدأ أوزبينسكي يراها في الغابات والانهار

والجبال لم تكن مسألة خيال أو استسلاما لنزعة عاطفية . وكان ما وصل اليه جريفز من « معرقة قمرية » حقيقة فعلية ، حقيقة يدركها الشعراء في لحظات الصمت والسكون . وفي الاسطورة الكاتية التي تحكي قصة « جويون Guion » والتي رواها واقتطفها جريفز ، يستخدم الصبي جويون في تحريض رجل يحتوي على « تميمة معرفة » سحرية ، وتتطاير من الرجل ثلاث شرارات فتحرق اصبعه ، حينما يدس اصبعه في فمه ، يرى فجأة معنى كل شيء ، في الماضي والحاضر والمستقبل . وفي أسطورة سيغفريد ، مثلما رواها فاجنر بالموسيقى ، تسقط قطرات من دم التنين على يد البطل فتلسعها ، ويدس سيغفريد يده في فمه فيصبح قادرا من فوزه على فهم أغاني الطيور و « غمغمات الغابة » . وفي الحاليتين تتمتع التيممة السحرية بنفس التأثير : غرس نوع من الصمت الداخلي العميق الذي يسمح بخلق نوع جديد من ادراك المعنى .

فاذا اتفقنا على أن « عروس الشعر » أو « الساحر » هو شخص يستطيع عقله أن يسترخي فيدرك تلك المستويات الأكثر عمقا من المعاني ، فلا بد لنا من الاعتراف بأن هذا يتضمن مسألة ذات طريقتين . ان المعنى موجود هناك حقا ، خارجي بالنسبة لعقله ، وقدرته على « التسلل كالنغم » نحوه ليست سوى البداية .

بل ان نقطة أكثر أهمية واثارة للاهتمام تبرز هنا . لقد قارنت الانسان بسيارة لها سائقان : الشخصية الواعية ، والدوافع الخفية غير الواعية . عند الانسان المتحضر ، يكون دور السائق غير الواعي أليا الى حد ما وميالا وقائما على التكرار بالمقارنة مع دور « السائق » الواعي ، انه يزيد قليلا عن مهندس مراقبة وصيانة يسيطر على النوم والذاكرة ووظائف المعدة والأمعاء . اما العقل الواعي فانه هو الذي يكتب السيمفونيات ، ويخطط لقزو الفضاء ويبني الحضارة . ولكن في المجتمعات « السحرية » في الماضي السحيق ، كان السائق « غير الواعي » يتمتع بنفس هذه الدرجة من الاهمية . حينما كان يتولى القيادة ، لم يكن ذلك مجرد دفع المرء الى النوم ، وانما كان هدفه هو توسيع ذلك النوع الاخر من المعرفة ، المعرفة الحدسية لـ « المعاني » التي تحيط به مثل غمغمات الغابة . لقد استهدف الساحر والصوفي أن يفوصا بشكل ما الى ابعاد أكثر عمقا « في داخل » الطبيعة ، وان يهدا قبضة العقل غير الواعي وأن يزيدا من قوته . لم يكن النوم حالة سلبية يفيق فيها الجسد من اجهاد اليوم السابق ، وانما أداة من أدوات البحث والاستقصاء ، بل كان أحيانا مقدمة تمهيدية أساسية للسحر . ففي ايرلندا القديمة ، كانت عملية اختيار ملك جديد تتضمن « التضحية بشخص مقدس ، يقف على رأسه كاهن من « الدرويديين » يتمم حتى يفرقه النوم . وفي اثناء النوم ، تنشك فوقه الاناشيد ،

حتى يهبط عليه « الوحي » لينبئه بأحق المطالبين بالعرش بان يكون ملكا . (٢٠) بالنسبة للعقل الحديث ، يوحى مثل هذا الاحتفال على الفور بان هناك خدمة تهدف الى الاحتيال على المتوحشين السذج . ولكن هناك حالات تم تسجيلها عن « سحر النوم » تقل عن الحالة المذكورة سهولة في التفسير . في كتاب « انواع من الجزر » يتحدث آرثر جريمبل ، الذي كان مشرفا على مشاكل الارض في جزر جيلبرت جنوبي المحيط الهادي ، فيصف الاحتفال السحري المخصص للنداء على الدلافين من البحر لتسهيل اصطيادها . وكان جريمبل قد قيل له ان يأكل لحم الدلافين لكي يزيد جرمه . وقاده هذا الى التساؤل : « عن الكيفية التي يستطيع بها ان يخرج بحصيلة منتظمة من هذا اللحم النادر » . وجاءه الجواب المفيد من احد ابناء الجزيرة يقول ان اقارب هذا الرجل نفسه في قرية كوما ، على بعد سبعة عشر ميلا من الاهوار المتصلة بالبحر ، هم الذين توارثوا مهنة النداء على الدلافين عن الرؤساء الكبار لقبيلتي بوتارياتري وماكين مينج . وكان ابن عمه المباشر من الخبراء البارزين في هذه العملية ، وانه يستطيع ان يدفع نفسه الى ان يحلم الحلم الصحيح المطلوب حسبما يريد . وقد خرجت روحه من جسمه في احد هذه الاحلام ، وذهبت الروح فبحثت عن قطع الدلافين في ماواها تحت سطح البحر عند الافق الغربي فوجهت اليها الدعوة الى الرقص ، في العيد ، في قرية كوما . فاذا هو نطق كلمات الدعوة بطريقة صحيحة (وقليلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات) فان الدلافين تتبعه وهي تطلق صيحات الفرح الى سطح البحر » .

وفي الموعد المحدد ، اخذ جريمبل الى قرية كوما ، حيث كانت كل الاطباق اللازمة للعيد قد اعدت ونظمت . اما منادي الدلافين الودود السمين ، فقد اعتزل في كوخه ، وطوال اعدة ساعات اطبق الصمت على الجميع . ثم اندفع منادي الدلافين خارجا من كوخه وسقط منبطحا على وجهه ، ثم نهض واقفا : « ملوحا بيديه في الهواء وهو يثب في مكانه ، وحنجرتة تفتح بصوت مرتفع غريب كصوت الجرو الصغير . ثم خرجت الكلمات متحشجة من فمه قائلا : تييريك تييريك ! (اي :) انهضوا ! انهضوا !) . . لقد جاؤوا ، لقد جاؤوا . . . » واندفع القرويون جميعا الى مياه البحر ووقفوا وقد وصلت المياه الى الصدور . ثم جاءت الدلافين : « كانت الدلافين تتحرك نحونا على شكل طابور منتظم طويل ، تفصل بين كل واحد منها والذي يليه مسافة ياردينين او ثلاث ، على امتداد ما كان بوسع عيني ان تبصر . جاءت في بطء شديد ، وقد بدا عليها انها غارقة في تهوية من الناس . وكان قائدها يطفو بصعوبة كمن يسير في حلمه اثناء

(٢٠) انظر : ه . ر . هايز : « في البدء : الانسان الاول واربابه » - نيويورك ، بوتنام ،

النوم . واقترب الحالم من القائد دون كلمة لكي يسير بجانبه نحو المياه الضحلة .. وكان القرويون يرحبون بضيوفهم ويقودونهم الى الشاطئ بكلمات مددنة .. وبينما كنا نقرب من الشاطئ الضحل الزمردي اللون ، بدأت زعانف الحيوانات تلمس الرمال ، فضربت بذيولها برقة كما لو كانت تسال العون . وانحنى الرجال ليطوقوا اجسادها الشبيهة بالبراميل الضخمة بأذرعتهم ولكي يضعوها برفق على حافة الشاطئ . كان يبدو عليها وكان رغبتها الوحيدة هي ان تبلغ الشاطئ . وبعد ذلك ، ذبحت الدلافين « المنومة مغناطيسيا » وتم اكلها .

وقد يكون من الواجب ان نذكر - بشكل عابر - ان الحيوانات يسهل تنويمها مغناطيسيا . ويقدم « بلاك » وصفا لهذا في كتابه « العقل والجسد » ويضيف ان هذه الظاهرة قد وصفت في بعض الكتابات القديمة التي يرجع عهدها الى عام ١٦١٦ ، حينما لاحظ « تشيوينترا » انه اذا ما ضغط راس دجاجة على الارض ، ثم رسم خط بالطباشير يمتد من امام منقارها ، فان انطائر سيظل « مثبتا » في مكانه حتى يفرغه صوت مرتفع .

ان اولئك الذين توارثوا النداء عن الدلافين عن اجدادهم في جزر جيلبرت نموذج على تطور « المعرفة القمرية » ، والقصة في مجموعها تؤكد نقطة حيوية . لقد اعتدنا على التفكير في النوم باعتباره حالة لا سيطرة لنا ، ولا يمكن ان نسيطر عليها ، نفقد فيها كل « قوى » الفعل والتفكير التي نمتلكها بشكل طبيعي . ومعظم احلامنا تنسى عند اليقظة . واكن « ج.و. دان » ابرز في كتابه الشهير « تجربة مع الزمن » عام ١٩٢٧ ، اننا نستطيع بقدر معين من الجهد ان نتعلم تذكر الاحلام . وقد درب نفسه على ان يفعل هذا عن طريق الاحتفاظ بقلم وورقة الى جانب الفراش لكي يسجل الاحلام في كل مرة يستيقظ فيها من النوم اثناء الليل . وكانت النتيجة هي اكتشافه ان الاحلام كثيرا ما تحتوي على لمحات من المعرفة المسبقة لاحداث سوف تقع فيما بعد . (وسوف نناقش هذا في الفصل الثالث من القسم الثالث من هذا الكتاب) . ان « سحر » المناديين على الدلافين هو خطوة ابعد في هذا الاتجاه - مثلما كان الامر مع الكهنة الدرويديين . وهذا ايضا هو ما يفسر الاهمية التي كانت القبائل البدائية تعزوها الى الاحلام ، وهو ما يفسر السبب الذي جعل ربات القمر حاميّات للديانات السحرية .

وقد يكون هذا ايضا هو السبب الذي جعل عباد الربة البيضاء ينظرون اليها باعتبارها ربة مدمرة بالاضافة الى انها ربة ملهمة . ان العقاقير ذات التأثير النفسي ، التي تؤدي الى اخماد نشاط « العقل المنطقي » ووضع القدرات غير الواعية السفلية في مقعد قيادة الشخصية ، هذه العقاقير تستطيع ان

تولد انواعا من الرؤى للجمال او للرعب . ان العقل الذي يفتح نفسه للمعانسي السفلية غير الواعية يكون قد هدم تحصيناته ، وطوح بعبدا بعزلته ، ونزع كل ما يشبه اجهزة « امتصاص الصدمات » التي تحميه . ان الوعي اليقظ بالنهار يستطيع اللجوء الى الآراء والاحكام الشائعة السائدة والمتعارف عليها ، يستطيع اللجوء الى « الحقيقة الموضوعية » . ولكن في حالات انطلاق القوى السفلية غير الواعية ، يفيم الخط الفاصل بين الحقيقة وبين خيالات المرء الشخصية ، ودون قدر معين من المعرفة ومن الانضباط او النظام ، يصبح العقل تحت رحمة ميله الخاص الى الهلاك . ويعلق جريفز على هذا تعليقا صائبا بقوله ان الكابوس او الحلم المرعب هو واحد من اكثر جوانب الربة البيضاء قوة . ولا بد لنا ان نحدد هذا الجانب - رغم ان جريفز قد لا يتفق معنا - بالقول بان الخطر هنا انما ينبع من جهل « عبادها » المخلصين وليس من اي ميل الى التدمير عند الربة نفسها .

وهناك سؤال هام آخر ينبع من قصة جريمبل عن النداء على الدلافين : ان التعليق الذي يقول فيه : « فاذا هو نطق كلمات الدعوة بطريقة صحيحة (وقيلون هم من يعرفون سر هذه الكلمات) ، فان الدلافين تتبعه . . » فاذا كانت قدرة الذات السفلية للحالم هي التي تستطيع بشكل ما ان تنوم الدلافين مفناطيسيا ، فلماذا ينبغي وجود شكل محدد للكلمات ؟ ومن الواضح ان هذا السؤال انما يحتوي على كل مجال الطقوس والاناشيد السحرية .

ويكاد الجواب ان يكون يقينيا : ان هذه المسألة لا تهم الا الساحر ، الذي ينبغي ان يؤمن بالصحة الموضوعية لما يفعله . ومشكلتنا هي اننا نحتوي على عقليين ، وقد بلغ من اعتياد العقل الواعي على دوره الذكري القائم على السيطرة انه كثيرا ما يتدخل في عمليات اللاوعي الانثوي الرقيقة . يقول « 1 . هـ . فيزيال » وهو شاعر اخر يتمتع بعقل لاواع نشط الى درجة غير عادية ، اذ يصف في ترجمته لنفسه كيف اشتغل في مكتب لارسال البرقيات فتعلم كيف يرسل اشارات « مورس » باستخدام مفتاح :

« كنت شديد القلق ، فاخذت ارسل البرقيات بطريقة مهوشة خاطئة لا يمكن قراءتها . اما الارسال بطريقة صحيحة فكان شيئا مبهجا . فبدلا من ايلام العضلات ، كان هناك احساس باللعب الحر في ادارة المفتاح ، تعاون مرن خال من المجهود مع الجهاز الآلي الدائم الارتداد . وذات يوم ، وبينما كنت امارس عملي ، بدأ معصمي في انتحرك بهذه الحرية المبهجة . كان رئيس الوردية ينظر الي بدهشة ورضا من مكتبه . وكان ان القيت نظرة سريعة الى نظارتيه اللامعتين اللبثيتين بتعبير عن الرضا ، وعلى الفور اختفت هذه القدرة ، او الموهبة - ايا ما كانت -

ثم لم تعد أبدا . . » (٢٤)

ان الطريقة المهوشة التي اتبعها فيزيالك في البداية هي الاقراط فسي الحساسية الذي كنا نناقشه منذ قليل ، انه العقل الواعي الدائب على التدخل ومقاطعة نشاط « الانسان الآلي » غير الواعي الذي يتعامل مع تلك المسائل والاشياء الآلية .

اذن ، فان من الممكن ان يدرب العقل غير الواعي على الاستجابة لتركيبية معينة او لمجموع من الرموز . ليس على عاشق لموسيقى فاجنر الا ان يسمع « قكرا » (٢٥) واحدا من « Liebestold » لكي يحس بشعره يخز كالشوك ويقف . اما القديس الهندي « راما كريشنا » فيمكن ان يغيب في حالة من النشوة (السامادهي) بسماع اسم الام المقدسة (١) . وفي قصيدة « الارض الخراب » يستخدم ت . س . اليوت عن عمد مقتطفات اصبحت ذات شحنة عالية من المعنى في سياق آخر مختلف ، بما في ذلك مقتطفات من النصوص الشعرية لاوبرات فاجنر . ويقول جريفر انه ليس سوى الشعر الذي تلهمه عرائس الغنون حقا هو ما يستطيع ان يولد هذا الاحساس بوقوف الشعر الذي يعطن ١ . ي . هوسمان انه محك الشعر الجيد، ومن الواضح انه على صواب بمعنى عام . ولكن البوابات السحرية يمكن ان تدفع الى ان تستجيب لاي « افتح يا سمسم » ، اذا تكلف المرء مشقة نطقها . لقد شعر المراهقون في الخمسينات بشعرهم يقف ، هذا الشعور المشهود له بالصدق ، حينما كانوا يرون صور المرحوم جيمس دين . وان نفمة معينة لتبلغ مستوى « القمة بين اغاني البوب » بان يتم عزفها المرة بعد المرة حتى تستثير استجابة شماتية . وقد استطاع هتلر بعد تجربة طويلة ان يدرب مستمعيه ونظارته الى الدرجة التي اصبح من الممكن فيها لارتفاع بسيط معين في نفمة صوته ان يبدأ لديهم النشوة العاطفية الانفعالية .

(٢٤) « ساعة صباح من الحياة » ، لندن ، جون بيكر - ١٩٦٨ .

(٢٥) « قدر » ترجمة لمصطلح Bar ، وهي وحدة للقياس في الموسيقى - وسمها مجمع اللغة العربية في القاهرة ، نقلا عن قاموس النهضة - اسماعيل مطهر - الطبعة الاولى، القاهرة ، مطبعة النهضة ، (ه . م)

(١) كالي (الام المقدسة) الربة الهندوسية العظمى ، الخالقة والمدمرة . زوجة الرب الاعظم « شيفا » الذي خلق الكون معها ، ويخلقه باستمرار كلما قامت هي بتدميره لكي تمكنه من اعادة خلقه من جديد . تماثيلها الهائل في معبدها في كلكتا (التي اخلت اسمها من كالي : كالي-جان ، اي : هتيات كالي ، التي يهبط منها الحجاج الى مياه نهر الكنج) يمثلها ذات عينيْن حمراوين واسنان كالخناجر، تتعلو بمقد من الجماجم وحلقتين من الجشواربع الذرع ذات اطراف دامية ، وزنار من الافاعي . اسمها ايضا : دورجا (الام) و« بارهاتي » : الحافظة . (ه . م) .

ان الرمز - او شكل الكلمات - الذي يؤدي الى الاستجابة ، شيء تحكمي الى درجة معينة . وقد قرأت ناقدا اكد ان سطورا من شعر كيتس تقول : « المياه المتحركة في مهمتها الشبيهة بمهمة القسيس ، مهمة الضوء النقي حول شواطئ ارض الانسان » تفقد « سحرها حينما توضع كلمة « البارد » محل كلمة « النقي » في الشطر الثاني . اما انا شخصا فلا اجد اختلافا في تأثير البيت بين الحالتين ، واستنتج ان استجابة الناقد - او افتقاره الى الاستجابة - انما كانت مسألة استجابة تقوم على التعمود .

ويؤدي الاستدلال هنا الى القول بان النطق الصحيح الدقيق للدعوة كان اكثر اهمية بالنسبة للمنادي على الدلائل مما كان بالنسبة للدلائل نفسها . لقد سيطر هذا النطق الصحيح على آلية انطلاق القوة التي استدعت الاسماك الى « الحفلة » ، وربما ادى الخطأ في النطق الى تحذير الدلائل باطلاق احساسه بالذنب بسبب خداعه لها ، او بالاحرى بسبب ايقاظ « رقيب » الواعي .

وقد يحق للمرء ان يلخص هذا بان يقول ان للعقل الواعي جلدا سميكاً مثل جلد الخريت ، انه قوي ولكنه غير حساس . اما العقل اللاواعي فليس لديه سوى « طبقة واحدة رقيقة من الجلد » ، انه حساس الى درجة خطيرة . وهو يحتاج الى العقل الواعي ذي الطبيعة الذكرية مثلما تحتاج المرأة الى زوج : لما يتمتع به من قوة واحساس بوجود هدف محدد . كذلك فان العقل الواعي لا يستطيع ان يستمر صامدا دون العنصر الانثوي ، انه « الحياة السرية » . غير ان العلاقة المثالية بين الاثنين لا تتحقق الا حينما يتركز العقل الواعي على هدف واحد في التزام كلي . ومن هنا ينبع تفضيل الذكور للانواع الخطرة من الرياضة - تسقى الجبال ، قيادة سيارات السباق - طالما ان التركيز الكامل المطلوب يحقق وحدة العقلين الواعي واللاواعي ، فيحقق بالتالي قدرا اضافيا جديدا من القوة . كذلك فان عملية الاغواء تتحرك بنفس الدوافع . ففي « الغزو الجنسي » يصبح وعي الذكر ذا « هدف واحد » ، بينما يستثير الاتحاد مع الانثى اعماقا من الاستهداف الغريزي . غير ان تطوير قوة الارادة وحدها انما هي عملية عقيمة بصورة اساسية ، فقوة الارادة ليست سوى رأس حربة الهدف . فالانجاء الحقيقي للوعي يكمن في توسيع المعرفة ، الادراك الاكثر واتساعا لعلاقات العالم الفعلي ، بمعنى اضاءة وغرس استبصارات اللاوعي « القمرية » . وهذا هو السبب الذي جعل تطور المعرفة « الشمسية » على يدي الانسان الغربي شيئا لا بد من قبوله باعتباره ارتقاء حقيقيا ، على الرغم من انه ارتقاء احادي الجانب ، وهو ارتقاء لا ينبغي ان يظل احادي الجانب .

ان المعنى الاساسي لكل هذا هو القول بان « الانسقة السحرية » - الكابالا

لعبرية ، وكتاب التغيرات الصيني، ومجموعة اوراق لعب انتاروت ، ومفتاح سليمان ، وكتابي الموتى المصري والتبتي - لا ينبغي انظر اليها باعتبارها محاولات مدائية فاشلة في سبيل تكوين « العلم » ، وانما ينبغي النظر اليها باعتبارها محاولات للتعبير عن تلك الاعماق من المعرفة « القمرية » بمصطلحاتها الخاصة. ان كتابي الموتى المصري والتبتي - واولهما يدعى في لفته الاصلية : « بيرت ايسم هرو » اي : « الظهور بالنهار » ، ويدعى الثاني في لفته الاصلية : « باردوثودول » قد كتبنا لكي يقرأ بصوت مرتفع للشخص المحتضر في محاولة لاعطاء « الذات اللاواعية » قدرا معيناً من السيطرة على تجاربها الغريبة . وقد يبدو هذا للأذان الغريبة شيئاً سخيلاً خالياً من المعنى ، حتى نعترف بمعقولية فكرة السيطرة على « الذات النائمة » ودوافعها . حينذاك ندرك ان ما كان يحاول ان يفعله المصريون والتبتيون القدماء لم يكن شيئاً صبيانياً او خارجاً على المنطق العقلي ، وانما كان خطوة متقدمة على اي معرفة نمتلكها في الغرب. (ان التجارب على التنويم المغناطيسي المؤدي الى النوم العميق ربما كانت اقرب شيء عندنا لتلك المحاولات القديمة) وكل من يرغب في اختيار هذه الحقيقة يستطيع القيام بذلك عن طريق بذل مجهود من اجل الوصول الى قدر معين من السيطرة على احلامه : مثلاً ، ان يحاول النوم على ظهره للتوصل الى كابوس ، ثم التصدي للسيطرة على الكابوس ومنعه من الوصول الى ذروته العادية .

اما كتاب التغيرات الصيني او « اي تشينج » فواحد من أكثر انسقة المعرفة « القمرية » إثارة للاهتمام ، ومن المؤكد أنه واحد من أكثرها سهولة . وهو أيضاً ينفرد بكونه متخلصاً من الجوانب الضارة ، فالدراسة المتعمقة فيه لن تؤدي الا الى الأخير . يبدأ كتاب « اي تشينج » في صورة سلسلة من النبوءات الالهية ، يبلغ عددها أربعاً وستين نبوءة ، كتبها (طبقاً لما تقوله القصة القديمة) الملك وين ، مؤسس أسرة تشاو الملكية الحاكمة ، قبل ما يزيد على ألف عام من ميلاد المسيح . وقد توسعت هذه النبوءات الاربع والستون فيما بعد عن طريق « الصور » والتعليقات التي كتبت في سطور منفردة مستقلة . (وسوف يبرز معنى هذا بعد لحظة واحدة) . ثم جاء كونفوشيوس ودارسون آخرون فكتبوا تعليقاتهم على هذا كله ، وكانت النتيجة هي النص الضخم الذي نشر في ترجمة حديثة مليئة بالشروح والتعريفات في مجلدين عام ١٩٥١ . (٥)

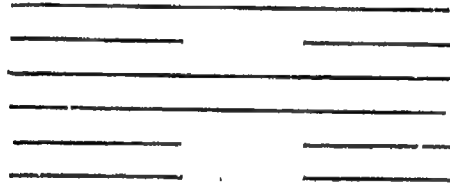
اذن ، فإذا نظرنا الى كتاب « اي تشينج » في أكثر مستوياته بساطة ، لأمكننا أن نعتبره كتاباً في قراءة الطوالع مثل « تقويم مور القديم » ، ولا شك أن

(٥) ترجمه الى الالمانية ريتشارد ويلهم ، ثم ترجمه الى الانجليزية كاري. ا. باينز ، مع مقدمة كتبها يونج . لندن ، رولندج ، ١٩٥١ ، نيويورك ، بانثيون ، ١٩٥١ .

هذا الجانب هو ما يفسر الشعبية الملحوظة التي حققها الكتاب في السنوات الأخيرة . ولكن جانب قراءة الطوالع هذا إنما يقوم على نسق معين ، وإن دراسة هذا النسق لأكثر فائدة وتكشف عن أشياء أكثر بكثير من تلك التي يزيع عنها أنوحي استار الغيب .

ويقوم هذا النسق على التعارض البسيط بين النور والظلمة ، أو بين الإيجابي والسلبي ، ويدعوان هنا : « يانج » ، « يين » . ونستطيع أن نحدث على الفور ، بناء على ما سبق قوله في هذا الفصل ، أنه لا يفترض أن يتطابق كل من « النور » و « الظلمة » مع الخير والشر ابتدائيين ، وإنما مع المبدئين الأساسيين القمري والشمسي . وبتعبير آخر نقول ، أن « يين » ليس اسما جديدا للخصائص والمبادئ السلبية ، وإنما هو اسم للجانب المعتم ، « الجانب الآخر » من العقل .

يمثل يانج بخط غير منقطع ، هكذا : ————— ، أما يين ، فيمثله خط ينقطع في منتصفه هكذا : ——— ——— . وكل نبوءة من النبوءات الأربع والستين ، تصنفها ستة من تلك الخطوط ، الواحد منها فوق الآخر مثل الشطيرة ، هكذا :



ويتصادف أن يمثل هذا الشكل النجمة السداسية رقم ٥٦ ، المسماة « لئ » الجوابة . ولكل واحدة من النجمات السداسية الأربع والستين اسم مميز . وكل من له ميل حسابي سوف يتمكن من رؤية الكيفية التي نبعث بها أربع وستون نجمة سداسية من اسمي يين ويانج . فإذا أنت بدأت برسم خطين جنباً إلى جنب ، أحدهما يمثل يين ، ويمثل الآخر يانج ، ثم ترى كم من التركيبات يمكنك أن تحصل عليها بتكوين الخطوط الجديدة فوقهما ، على شكل الشطيرة ، فسوف ترى أن من الممكن أن ترتب ستة خطوط في أربعة وستين شكلاً مختلفاً بالتحديد . انني أبداً بخطين :

————— ————— —————

فإذا أضفت خطاً ثانياً لكل منهما ، أصبح من الممكن أن توجد تركيبتان :



وحينما اضيف خطأ ثالثا ، توجد ثماني تركيبات . وباختصار ، يتضاعف العدد معي في كل اضافة جديدة لخط جديد واحد للشطيرة .

ولكن لماذا اربع وستون نجمة سداسية في المحل الاول ؟

يبدو ان الجواب لا بد ان يكون هو ان الملك وين قرر ان هناك ثمانية رموز اساسية ، كالتالي :

تشي ين ، الخالق ، السماء
كوون ، المتلقى ، الارض
كين ، حافظ السكون ، الجبل
كان ، السحيق ، الماء
تشين ، المثير ، الرعد
صان ، الرفيق ، الرياح
توي ، الفرحان ، البحيرة
لي ، المتشبت ، النار

لدى الوهلة الاولى ، سيميل الطالب الى التساؤل عن السبب الذي يجعل من المفروض ان تحتوي القائمة على كل من « الماء » و « البحيرة » ، اللذين يبدوان كما لو كان احدهما يكرر الاخر ، حتى يلاحظ ان الرموز تأتي في شكل أزواج . السماء والارض ، الماء والنار ، الجبل والبحيرة ، الرعد والريح . وفي كل زوج منها يحمل الزوجان خصائص متعارضة : الخالق والمتلقى ، العنيف (الرعد) والرفيق (الريح) ، الهامد (الجبل) والفرحان (البحيرة) ، المتشبت أو المعتصر (النار) وعكسه ، الهاوية ، الفراغ (الماء) . وكل من تلك الخصائص يمثل شكل ثلاثي ، ثلاثة خطوط ، وعلى ذلك فان كلا من النبوءات الاربع والستين يصنعها اثنان من الرموز .

ومن الواضح ان الملك وين قد فكر وتأمل في هذه التركيبات الاربع والستين من الرموز ، ففسر كلا منها باعتبارها موقفا أو ظرفا نمطيا من مواقف أو ظروف الحياة الانسانية . فمثلا ، اذا مثل الشكل السداسي الارض في وضع علوي (أي على قمة الشكل السداسي) والسماء اسفلها ، فمن الممكن ان ينظر الى الاثنين كما لو كان احدهما يضغط على الاخر بقوة تناظر قوة الاخر ، فتحاول السماء ان تتحرك الى الاعلى ، وتحاول الارض ان تتحرك الى الاسفل ، فتوازن احدهما الاخرى توازنا تاما كاملا ، ولذلك اطلق الملك وين على هذا الشكل السداسي اسم السلام (أو الانسجام) . ومن الجانب الاخر ، اذا كانت السماء هي العليا والارض السفلى ، فسوف يتحرك الاثنان متباعدين في اتجاهين متضادين ، دون اتصال خلاق بينهما ، وينظر الى هذا الموقف باعتباره

جمودا أو سكونا . ويكشف هذا التفسير عن اننا نتعامل هنا مع الدافع الخلاق للعقل الواعي ومع خاصية التلقي للاوعي ، ذلك انه حينما يتحرك هذان الاثنان متباعدين ، فالظرف القائم ، في الحقيقة ، هو ظرف الجمود الكامل لكل حيوية .

قد يبدو هذا شيئا خياليا ، أو ببساطة شيئا مرتجلا وسطحيا . ولا أستطيع أن أقول إلا ان التعرف عن قرب بكتاب « اي تشينج » ورموزه ، سرعان ما يبدأ في الكشف عن تماسك داخلي ملحوظ ، وأن مثل تلك المعاني لا تصبح واضحة إلا في ذلك الحين . في البداية تبدو مساحة المنظر الشاسعة غريبة متنافرة الاجزاء ، وسرعان ما تصبح مألوفة ، فيبدو كل شيء فيها منطقيا ومعقولا . ومن أوائل العقول العظيمة في الغرب التي اعترفت بهذا ، كان ليبنتز (١) ، الذي سعى هو نفسه الى تحقيق حلم غريب بأن يخلق « حسابا كونيا » يمكن التعبير من خلاله عن كل حقائق الفلسفة والرياضيات . وقد لاحظ ليبنتز ان الطريقة التي شيدت بها الاشكال السداسية تشكل في النهاية نسقا رياضيا ثنائيا او مزدوجا ؛ اي انه نسق لا يستخدم الا الرقمين « واحد » و « اثنين » بدلا من أن يستخدم الارقام من واحد الى عشرة ثم يكررها . والنسق الثنائي هو اساس الالات الحاسبة الحديثة والعقول الالكترونية . ولا شك أن ليبنتز كان مخطئا حينما افترض - أو زعم ، أن الملك وين ، أو آخر المعلقين على كتابه وهو « شاو يونج » - كان يعرف شيئا عن النسق الرياضي الثنائي ، ولكن غريزه كانت على صواب دقيق حينما رأى ان كتاب « اي تشينج » هو ابن عم بعيد لنظامه الحسابي الكوني الشامل . ان ليبنتز هو من كان متعارضا مع النزعة العلمية ، ففكرته عن رمزية رياضية تستطيع ان تعبر عن كل « حقيقة » ليست سوى نوع من السخف ، فحتى اللغة العادية - وهي الأكثر مرونة بكثير - تحطم على صخور التصورات البسيطة التي تتضمن المشاعر . اما كتاب « اي تشينج » فهو شبكة نسجت من خيوط أكثر رقة ورهافة .

(١) لايبنتز / جوتفريد فيلهلم فون (١٦٤٦ - ١٧١٦) الفيلسوف والعالم الرياضي والطبيعي الألماني ، وأحد مخترعي حساب التفاضل والتكامل ، وقد نشر رسالته حوله عام ١٦٨٤ ، أي قبل رسالة نيوتن بعام واحد ، وأثار بها نقاشا طويلا ، ووضع الاساس لقانون « حفظ الطاقة » ، واهتم ايضا بعلوم الجيولوجيا والاحياء والتاريخ . كانت محاولة لايبنتز في الفلسفة ، الجذب بين افكار النزعة المادية الميكانيكية (عند ديكارت وهوبز) وبين الفوائين الارسطية عن الاشكال الجوهرية التبادلية للعمل . قال بوجود « جواهر روحية متفردة » يتكون منها العالم ، وأطلق على كل منها اسم « الموناد » ، وهي لا نهائية العدد ، متميزة ، تتحرك ذاتيا ، ووسطها يلف « الموناد » الاسمي ، الله . وبذلك تنشأ العلاقة بين المادة والحركة ، والمادة هي الاصل . وبذلك تقوم العلاقة السببية ، الابدية بين الجميع ، ويكون للكون « تناغمه القديم » . وكان لايبنتز أول رئيس للأكاديمية العلمية في برلين ، وقال عنه راسل انه مؤسس المنطق الرياضي . (ه.م.)

ومن الممكن استشارة النبوءة (او الوحي) اما باستخدام سيقان نوع من النبات ذات الاوراق الكثيرة ، او بالقاء ثلاث قطع من العملة المعدنية واستطلاع الوجوه التي تقع عليها . اما طريقة استخدام سيقان النبات فتستغرق وقتا طويلا ، فهي تتضمن تقسيم خمسين من هذه السيقان بخمسين طريقة مختلفة ، بدءا من تقسيم الساق اعتباطا الى قسمين ، ثم انقاص كل كومة من السيقان بانتزاع مجموعات تتكون كل مجموعة من اربع سيقان . والعملية اطول بكثير من أن نصفها هنا ، بالإضافة الى أنها لا تؤدي الى أي نفع . اما طريقة استشارة النبوءة عن طريق القاء قطع العملة فأكثر بساطة . فعلى من يريد الاستشارة أن يلقي الى الأرض بثلاث قطع من العملة المعدنية . فاذا شكلت الوجوه التي نقشت عليها الرؤوس الاغلبية (بأن تكون اثنتين او ثلاثة) فان خط « يانج » هو الذي يتشكل . اما اذا كانت الاغلبية للوجوه التي نقشت عليها الكتابة (او الديول) فان خط « يين » هو الذي يتشكل . ولا بد من القيام بهذه العملية ست مرات ، يتكون منها « سداسي » يراجع بعد ذلك ويكشف عن معناه في كتاب « اي تشينج » . ويطلب من السائل أن يظل مركزا ذهنه على السؤال الذي يطلب اجابته طوال الوقت الذي تستغرقه العملية .

ويبرر عالم النفس ك.ج. يونج (١) كل هذا بالمبدأ الذي يدعو به النزعمة التزامية Synchronicity أي افتراض أن « الحوادث » و « المصادفات » ترتبط كلها بشكل ما بالعقل اللاواعي - وهو افتراض وضعناه نحن في اعتبارنا وبحسنه بالفعل في هذا الكتاب . فالعقل الباطن « يعرف » الاجابة على السؤال - هذا هو الافتراض الذي يستخدم لتفسير كل اعمال التنبؤ والعرافة - وتستطيع « المصادفة » - التي تحكم سقوط قطع العملة او تقسيم سيقان النبات - أن تسجل هذه المعرفة وأن تبرزها واضحة للعقل الواعي .

وانه لمن الامور ذات المغزى الهام أن واحدا من مؤسسي حركة علم النفس التحليلي ، والذي كانت حياته المهنية انشغالا دائما بالعقل الباطن ورموزه ، يصل الى القبول بمثل تلك الفكرة في السبعينات من حياته ، ثم يعرب عن أسفه ذات

(١) يونج - كارل جوستاف (١٨٧٥ -) من العلماء والاطباء النفسيين البارزين الذين انتجهم مدرسة التحليل النفسي . سويسري الاصل ، تتلمذ على فرويد ودامه في البداية ، ثم أصبح استاذاً للمدرسة في علم النفس والفكر الغربي الحديث نسبت اليه . فقام خلاله مع فرويد حول قوله بأن محور الليبنو (الطاقة او القوة الكامنة الدافعة) هي ارادة الحياة ، لا الرغبة الجنسية وعلى هذا الاساس اكتشف قانون تصنيف الشخصية : المنبسط ، والمنطوية . واخضع علم النفس للثقافة القومية بما تتضمنه من اساطير واديان وتراث اخلاقي ، فاكتشف قانون « الذكرة الجماعية » للامة ، او للجنس (ه. م.) .

مرة لانه لا يملك خمسين عاما اخرى من الحياة لكي يكرسها لدراستها . ذلك أن السؤال الحقيقي الذي ينبغي ان يطرح حول كتاب « اي تشينج » ليس هو التساؤل عما اذا كان الكتاب ناجحا باعتباره مساعدا بسيطا على التنبؤ او قراءة الطالع ، وانما هو التساؤل عما اذا كان هذا الكتاب يجسد نوعا من المعرفة القمرية الحقيقية مثل اساطير الربة البيضاء .

ولكن قبل مناقشة هذا الجانب من كتاب « اي تشينج » باعتباره كتابا في الحكمة - ينبغي علي ان اقرر ان نبوءاته كثيرا ما تتمتع بنوع غريب من الدقة التي تسبب قلقا عميقا . هناك تلك القصة التي تروى عن الحاكم « لي » في القرن السابع قبل الميلاد ، اندي كان قد اغتصب السلطة ، ثم استشار الوحي لكي يعرف ان كان ابنه ، تشينج تشانج ، سيخلفه على العرش ام لا . وكانت النتيجة هي ظهور السداسي العشرين ، الذي يعني التأمل ، او التطلع بالنظر الى الافق البعيد . ويبدو الحكم في البداية محيرا بقوله :

التأمل . لقد تم الوضوء والغسل ،

ولكن التقدمة لم تقدم بعد .

انهم يرفعون اليه الابصار ممثلين بالثقة .

ولكن هذا ، الى جانب « الصورة » التي تتبعه ، يؤكدان « طريق القانون والشعيرة » . فالحكم يتحدث عن تلك اللحظة في الاحتفال الديني حينما تكون خمر القربان قد أريق ، ولكن قبل ان تكون التضحية بالقربان نفسه قد تمت بعد ، هذه اللحظة التي يكون كل شخص فيها غارقا في التأمل ممثلنا بالوقار والهيبة . تحدث « الصورة » عن ملك قديم عجوز زار الشعب وعلمهم - مرة اخرى ، تظهر هذه الفكرة الصينية العريقة عن « العلاقة الصحيحة » بين الحاكم والمحكوم . ولا بد ان المفتصب « لي » كان قد بدأ بالفعل يشعر بوخزات الضمير بينما هو يقرأ تلك السطور .

وهناك المزيد من التفاصيل . فانه اذا تم الحصول على أحد الخططين « بين » او « يانج » عن طريق ثلاثة نقوش لرؤوس او لذيول (بدلا من الحصول على أحد الخططين بواسطة اثنين فقط) فإن الخط يدعى في هذه الحالة « خطا مغيرا » ، فهو يميل الى ان يتغير الى ضده . في هذه الحالة ، فإن خط بين ، في المحل الرابع ، يكون هو الخط المغير ، وهذا هو ما حول السداسي الى حالة الجمود ، او السكون ، التي يقول حكمها :

الاشرار لا يقدررون على زيادة

المحافظة على حياة الانسان السامي .

يتتعد العظيم ، ويقترب الضئيل .

ومن الواضح أن المعنى الكلي للحكم هنا لا يكون في صالح صاحب السؤال .

وقد اثبت الكاهن الذي فسر هذه النبوءة للملك لي أن عنوان السداسي يعني ايضا « النظر الى الافق البعيد » - فالسداسي مرتبط ببرج للمراقبة اقيم فوق التلال - وأن المعنى الاخير كان يعني انه اذا استمر الامير في الحكم ، فلن يكون ذلك في هذا البلد : « تشيين » وانما في مكان آخر - وتقول القصة ان الكاهن اشار الى دولة « تشي » ، لان حكامها كانوا من سلالة كهنة الجبل المقدس ، الذي يتضمنه ايضا سداسي « النظر الى الافق البعيد » .

وتختتم السجلات القصة بالقول ان « لي » نفسه قد عزل في الواقع عن العرش بأيدي جيرانه في الدولة المجاورة ، ولكن احفاد ولده اصبحوا فيما بعد حكاما لدولة « تشي » مثلما قالت النبوءة . (x)

ويستحق الامر ان ندرس الشكليات السداسيين - حاملي رقم اثني عشر وعشرين - على ضوء هذه القصة . انهما اطول بكثير من ان نناقشهما هنا بالتفصيل ، ولكن من الممكن أن نقرأ فيهما اشارات كثيرة أخرى عن مصير لي وتشينج تشانج . وسواء استطاع المرء ان يقبل القصة ام لا ، فانها تقدم نظرة نافذة الى الطريقة التي استخدمت بها النبوءة .

في كتاب « الانسان ورموزه » الذي اشرف يونج على تحريره ، هناك تقرير مطول كتبه يولاند جاكوبي عن تحليل شخص انطواني كنيب رفيع الثقافة يدعى هنري . فقد حدث ان اقنع هنري - ضد ارادته الى درجة كبيرة - بأن يحاول القاء قطع العملة واستشارة النبوءة . « كان لما وجده في الكتاب تأثير هائل عليه » اما ما حدث باختصار فهو ان النبوءة التي توصل اليها ، كانت تحمل عددا من الاشارات المزعجة الى حلمه ، والى حالته النفسية بشكل عام . كان السداسي هو السداسي الرابع ، المسمى « بلاهة الشباب » ، وكان يحتوي على تحذير من ان يوقع المرء نفسه في حبال الخيالات غير الحقيقية والاهام الفارغة . وازاف الحكم الحتمي تحريما بالعودة الى استشارة النبوءة مرة اخرى . ولكن حدث بعد ليلتين ، وبعد ان رأى حلما يتكون من صورة لسيف وخوذة يسبحان في الهواء ، ان قام ففتح الكتاب بطريقة اعتباطية ، فوقع بصره على السداسي الثلاثين ، المسمى « لي » ، الذي يتكون رمزه من مجموعة من الاسلحة ، السيوف والمغافر .

هذا هو نوع المصادفات التي سيبحث عنها دارسو كتاب « اي تشينج » وسوف يشهدون بصحتها ، وعادة ما يكون التأثير محيرا مذهلا من الناحية

(x) انظر هيلموت ويلهم : التفسير : لعاني محاضرات في كتاب « اي تشينج » . (نيويورك ،

هاربر ، ١٩٦٠) ص ٩٥ ، ٩٧ .

النفسية . وكانت الحالة بالنسبة لهنري، هي التوافق التدريجي مع قواه غير الواعية التي أصبح كتاب « اي تشينج » هو رمزها وهو الامر الذي اكمل العلاج . وليس هذا بالامر الصعب على الفهم في ضوء ما قيل بالفعل في هذا الفصل . كانت مشكلته السيكلوجية الاساسية نوعاً من رفض الايمان بكل وجود سوى وجود الذات Solipsism ، احساس بانه قد وقع في شرك « الوعي » ، مع احساس تابع له بالانفصال الكامل عن بقية العالم ، احساس دائم بأن لا حقيقة هناك . ذلك ان العقل اللاواعي هو النقطة التي يرتبط عندها الانسان حقاً بالطبيعة . وقد وصف مؤرخ علوم الغيب « و.ا. وايت » كيف قادته سنوات الدراسة أخيراً الى ادراك انه ليس هناك انفصال حقيقي بين الانسان وبين بقية الكون ، ووصف أيضاً كيف تحول هذا الفهم العقلي الى استبصار يحسه بعمق بالغ من خلال مرض خطير أصابه فجعله يظل في حانة تشبه الوعي طوال شهر كامل . هذا هو ما انتجه كتاب « اي تشينج » على هنري وان كان بدرجة أقل . وهو أيضاً ما يحدد الهدف الحقيقي من كل الدراسات عن السحر وعلوم الغيب . اننا نعرف - بشكل نظري - اننا نمتلك عقلاً « لا واعياً » . ومع هذا فانني اذ اجلس هنا ، في هذه الحجرة ذات صباح مشمس ، فانني لا أشعر به بأي شكل من الاشكال ، لا يمكنني ان اراه ولا ان أحس به . انه يشبه ذراعاً رقدت فوقها لمدة طويلة في نومسي ، فأصبحت كالميتة تماماً خالية من كل احساس . والهدف الحقيقي الذي تسعى اليه اعمال من نوع « اي تشينج » أو « كابالا » أو « مفتاح سليمان » هو استعادة الدورة الدموية الى تلك المناطق من العقل .

أما عن تجربتي انا الشخصية مع كتاب « اي تشينج » ، فانها باتأكيد قد دفعتني الى التعامل معه - ربما - باعتباره أكثر كل تلك الاعمال عمقا وابلغها أثراً . لقد صادفت هذا الكتاب لأول مرة ، في تلك الفترة التي تحدثت عنها من قبل بالفعل ، حينما كنت أسكن في ويمبلدون . ومن الواضح ان اول ما قد يطمح كاتب مبتدئ الى ان يستشير « الوحي » بشأنه ، هو مستقبله بوصفه كاتباً . انه يطلب « نبوءة بعيدة المدى » . أخذت ثلاثة بنسات ، وألقيتها احدى الارض ست مرات ، وفي كل مرة كانت هناك غالبية من الرؤوس ، مكونة شكلاً سداسياً صنع من ستة من خطوط يانج : وهو السداسي الاول في الكتاب ، الذي يصحبه حكم يقول :

يصنع المبدع النجاح السامي

فيؤمن عبر البقاء والحفظ مصونا .

وفي مئات المرات التي استشرت الوحي فيها منذ ذلك الحين ، لم تخرج لي قطع العملة الثلاث أبداً بستة سطور مكتملة . ومن الواضح انني كنت مدفوعاً الى

الاقتناع . والمرة الوحيدة الاخرى ، التي رأيت فيها قطع العملة الثلاث وهي تسقط بهذه الطريقة كانت حينما قام الكاتب بيل هوبكينز لأول مرة باستشارة الوحي . قال بوقاحة ونزق : « اذا خرج بحكم جيد ، سوف اؤمن به . فاذا لم يفعل ، فلن اؤمن . » وانجز الوحي ما كان يتوقع منه فخرج بالسداسي الاول مرة اخرى .

انني لا اذكر بوضوح سوى مثال واحد آخر فحسب لدقة الكتاب منذ ذلك التاريخ . فقد حدث في ويمبلدون ان استشرته بشأن الرجل العجوز الذي كنا نعيش معه ، الذي كان رجلا يتقلب بين انجاذبية الساحرة اللطيفة والخشونة البالغة . وكان السداسي الذي حصلنا عليه هو « صانج » ، اي الصراع ، مع حكم يقول :

الصراع . انك مخلص .

تعترض طريقك العقبات .

وقفة حذرة في منتصف الطريق تجلب الحظ الحسن
انها لا تدفع المرء الى عبور المياه العظيمة .

وقد دلني هذا على ما كنت ابغي معرفته بالتحديد : وهو ان كان ينبغي علي ان ابرح ذلك المكان بأسرع ما يمكن أم ان أبقى فيه . « وقفة حذرة في منتصف الطريق تجلب الحظ الحسن . الانطلاق الى النهاية القصوى يجلب سوء الحظ » . لم يمكنني ان احس ما كان القصد بالاشارة الى « الرجل العظيم » ، ولكن النص يوضح ان الرجل العظيم لا يشير الا الى « رجل نزيه مجرد من الهوى ، تبلغ سلطته حدا كافيا من الضخامة لانهاء الصراع . » وكان الرجل الوحيد الذي نعرفه من هذا النوع هو شقيق المريض الذي تشرف زوجتي على تمريضه ، وبناء على ذلك فقد قمنا باستشارته وشرحنا له المشكلة . ولقد نجح حقا في تلطيف الامور لمدة قصيرة . اما بالنسبة لعبور المياه العظيمة ، فاننا كنا نفكر في الانتقال عبر نهر التيمز ، عائدين الى شمالي لندن ، حيث كنت اعمل . واثبت الوحي انه على صواب في هذا التصدد ايضا . فقد ساء الموقف بسبب انتقالنا الى « إيرلس كورت » بعد موت الرجل العجوز .

ولكن السطر الاخير كان هو اكثر ما اثر فيّ في هذه المناسبة بالذات . كنت قد حصلت على ثلاثة رؤوس من قطع العملة الثلاث ، وعلى ذلك فقد كان معنى التعليق المطبق على هذه الحالة ، تسع مرات عند القمة هو :

حتى اذا ما وهب المرء - بالصدفة - حراما من الجلد ،

فانه عندما يقترب الصباح من نهايته

سوف يكون قد انتزع منه ثلاث مرات .

وكانت واحدة من اكثر عادات الرجل العجوز اثارة لحنقي هي ان يمنح زوجتي بعض الهدايا حينما يكون رائق المزاج ، ثم يستعيدها مرة أخرى ، بل وقد يمنحها لشخص آخر . ومن الواضح ان السطور المذكورة من كتاب « اي تشينج » انما تشير الى عملية منح المرء وساما من جانب الملك - فقد كان الحزام الجلدي مقابلا للوسام أو للنوط - ولكنه تطابق مع موقفنا بالتأكيد .

ويصف يونج ، في مقدمته لكتاب « اي تشينج » كيف استشاره بشأن مسألة الطبعة الجديدة من الكتاب التي كان قد اقترح ان يقدمها للعقل الغربي . وكانت الاجابة هي « تينج » اي « الرجل » ، وهو الذي يصفه التعليق بأنه قارب للطقوس الشعائرية يحتوي على نوع روحي من الغداء ، اي ان كتاب « اي تشينج » يصف نفسه بأنه شبه بهذا القارب . بل ان « السطر » الاخير ، وهو سطر بالغ القوة ، قد تنبأ بالنجاح الذي لا يصدق والذي لقيه الكتاب في اميركا في العقد الماضي (حيث يستمر في الانتشار في سوق الكتب بنفس القدر الذي يباع به الكتاب المقدس) . يقول :

الـ « تينج » له حلقات من الزمرد

حظ حسن عظيم .

لا شيء يستطيع الوصول الى هذا المدى .

(يعني حمل بعض قبضات من الزمرد ان « القارب » يصبح شيئا جديرا بالتوقير والاحلال العظيم) .

ولكن اكثر السطور التي ابرزها يونج اهمية - بالنسبة لهدفنا الان - كان القائل :

« تينج » بسيقان مقلوبة .

يؤكد اذاحة الاشياء التي تسبب الجمود والتوقف .

يضم الرجل محظيته الى اسرته من اجل ولدها .

فلا لوم عليه .

ويفسر يونج هذه السطور بأنها تعني ان كتاب « اي تشينج » يشير الى نفسه باعتباره رجلا (اي قاربا مقدسا) لم يستخدم منذ مدة طويلة (اي انه ترك مقلوبا) . ولكن السطور الهامة هنا هي تلك التي تشير الى المحظية . « فالرجل يتسرى بمحظية حينما لا يكون لزوجته ابن » كذلك يقول يونج في تعاليقه ثم يستطرد مكملًا : « كذلك فان الناس يستفيثون بكتاب « اي تشينج » حينما لا يرون مخرجا آخر . وعلى الرغم من الوضع شبه الشرعي للمحظية في الصين ، فانها في الحقيقة لا تتمتع الا بوضع انتقالي حرج بشكل ما ، وهكذا هو الاجراء السحري الذي يقوم به الوحي اذ يبدو كمبعوث لا يستخدم الا لخدمة غرض اسمى وارفع .

وليس في هذا ما يدعو الى اللوم ، رغم أنه اجراء استثنائي .

ورغم أن يونج « يوضح شيئاً ثم يتجاهل شيئاً آخر ، فمن الواضح أن تفسيره هذا يمثل انتقاصاً لدور كتاب « اي تشينج » باعتباره وسيلة لقراءة المستقبل . اذ لا بد له ان يكون اجراء استثنائياً ، لا لعبة من ألعاب الحفلات المسلية . ذلك ان المغزى الحقيقي والدائم للكتاب لا يتمثل في استخدامه كوشي متنبئ بالغيب ، وانما في النظر اليه باعتباره كتاباً في الحكمة .

ان اول ما يلاحظه كل من يستشير كتاب « اي تشينج » هو اشارته الكثيرة الى « الرجل السامي » . واثماً ما تتضمن اقواله ونصائحه ، سواء كانت في صف المستشار او ضده ، وانما ما تتضمن نصيحة للرجل السامي حول كيفية معالجته للموقف المعين . وكل من استشار كتاب « اي تشينج » في لحظة الازمة او الشدة سوف يذكره بالثناء من اجل تأثير هذا الجانب المنعش للعقل والمنشط للذهن . يقول اليوت : « الحياة ايام عديدة » . ولكن البشر عادة ما يقعون في شرك الحاضر ، فيستجيبون للمشاكل بتوتر وقلق يعالجان كل مشكلة كما لو كانت مسألة حياة او موت ، وقد قال جونسون ذات مرة لبوزويل ، الذي كان يشكو اليه من مشكلة صغيرة : « ايه يا سيدي ، فكر في ضالة ما سوف تبدو عليك تلك المشكلة في نظرك بعد عشر سنوات » .

ويشير هذا الى مغزى عنوان كتاب التغيرات . فبينما اعيش خلال الحاضر ، تبدو كل ظواهر الحياة « حقيقية » صلبة وذات اهمية دائمة . اما الحقيقة ، فانها تجري مثل سطح نهر منساب . ان « الانا » التي تنظر من خلال عيني لن يطرأ عليها تغيير في عشر سنوات من الزمن ، ولكن كثيراً من تلك الاشياء « الدائمة » من حولي ستكون قد اختلفت .

لقد كان لكتاب التغيرات تأثير عظيم على كل من الديانة الطاوية (١) والنزعة الكونفوشيوسية . ويستطيع المرء ان يقول ان حجر الاساس في كتاب « اي تشينج » انما يتكون من مفهومين اساسيين ، اولهما طساوي والاخر

(١) الطاوية Toism واحدة من الديانات العيشية الكبرى الثلاث القديمة (مع الكونفوشيوسية والبوذية) ، اسسها الفيلسوف لاوتسي (حوالي القرن السادس ق.م) واقامها على الكتاب المنسوب اليه : « كتاب العقل والفصيلة » . قال لاوتسي ان « طاو » - اي الطريق - هو كلية الوجود والاشياء ، وهو عالم الظواهر ونظامه ، وهو المبدأ الاخلاقي الذي يحكم سلوك الانسان الطيب ، « اليه يرجع اصل كل شيء ويتطابق مع مشيئته ، ثم يعود اليه » . ومع ذلك فهو ليس الها بالمعنى المعروف في اللاهوت المتوسطي ، بمعنى انه لا يخلق العالم ، وانما يوجد فيه ، ويحكمه . (ه . م .)

كونفوشيوسي . ومن الممكن ان نعثر على المفهوم الكونفوشيوسي في كلمة لينسيوس **Mencius** يقول فيها : « اولئك الذين يتبعون الجانب العظيم من انفسهم سيكونون عظماء ، انما اولئك الذين يتبعون الجانب الضئيل من نفوسهم فسيكونون رجلا ضالا . » اما المفهوم الطاوي فقد لسنائه بالفعل في حديثنا عن الافراط في الحساسية . يلاحظ تشونج تزو ان الطفل الرضيع يستطيع ان يحتفظ بقبضتيه مضمومتين طوال يوم كامل دون ان يتعب ، بينما لا يستطيع الشخص البالغ ان يحتفظ بهما مضمومتين لكثر من دقائق قليلة . ويستطيع رجل سكران ان يسقط من عربة سائرة دون ان يجرح نفسه . وقال نجار انجر عملا كان من الكمال بحيث بدا في صورة غير طبيعية ، قال في تفسير ذلك انه حينما يكون على وشك الشروع في انجاز مهمة صعبة فانه اعتاد ان يهبط بعقله الى اقصى حالات السكينة ، محاذرا من اي عملية انتقاص من طاقته الحيوية . وبعد ايام قليلة من مثل هذه السكينة ، فانه لا يعود يهتم باهمية مهمته (حتى ولو كان يصنع اداة موسيقية للملك) . انه يذهب الى الغابة ، فتهديه غريزته الى الشجرة الصحيحة التي ينبغي ان يقتطع منها الاداة المطلوبة . وفي اثناء صنع الاداة ، فانه لا يبذل اي مجهود واع ، وانما يكتفي بان « يدفع قدراته الطبيعية الى الدخول في علاقته مع القدرة الطبيعية للخشب » . . تحمل كل الامثال الطاوية نفس هذا المضمون . ان الجزار الذي يقطع كتل اللحم بدقة ورشاقة متناهيتين يفسر ذلك بانه يقوم به بنفس الطريقة - في سكون كامل وتركيز كامل - مما يؤدي بعد تسعة عشر عاما الى ان تظل مهارته بنفس الكفاءة والحدة .

هذا هو المبدأ الاساسي في اليابان لطقوس « زن » (禅) مثلما سيعرف قراء كتاب « زن في فن الرماية بالقوس » الذي كتبه ايوجين هيريجيل .

وهذا يعني القول بأن من يتقن طقوس « طاو » او « زن » انما يضع نفسه في الحالة التي ناقشناها بالفعل فيما يتعلق ببيوز . يهدد العقل الواعي بانواع توتره فيهدأ ويتطامن ، وينتقل مركز جاذبية الانسان الى « الحياة السرية » . وهناك فصل مشهور من كتابات « تشونج تزو » يصف فيه عملية الفرق في السكينة بانها : « تشبه الانصات لموسيقى السموات والارض » الانصات لصوت الرياح او لاصوات الطبيعة الاخرى ، كما لو كانت هذه الاصوات تخلق موسيقى

(禅) زن zen احدى الفرق التي خرجت من الديانة البوذية في الصين بعد القرن السادس ق.م ، واخذت طقوس اليوجا والتحكم الارادي في الجسد والطاقة الفكرية في العقل من الديانة الطاوية ، ورات في « البوذا الاعظم » رمز الاستنارة الابدية ، التجسيد الشامل لكل الكائنات مثل « طاو » عند لاوتسى (الهامش السابق) . ولكنها على عكس بقية الفرق البوذية ، اعتقدت في اليقظة المباشرة للعقل والروح (ساتوري) - ه . م . -

هائلة ، فتستغرق تلك الاصوات كلية في التفكير في مغزاها العميق . ويشعر العقل في الاستجابة لصوت الرياح كما لو كانت موسيقى هائلة .

وقد اكتشف علم النفس الحديث هذا المبدأ من مبادئ « طاو » . ان فيكتور فرانكل ، مؤسس علم « العلاج النفسي عن طريق اللغة Logos therapy على سبيل المثال ، يحكى قصة عن اخراج مسرحية في احدى المدارس حيث احتاج الامر الى من يمثل دور شخص « يفافى » ويتأنيء في نطقه . وتم اختيار صبي من التلاميذ راح يمثل الفأفة بطريقة رديئة ، ولكنه حينما صعد الى منصة المسرح ، وجد نفسه عاجزا عن الفأفة . ويصف فرانكل هذه الحالة بانها « قانون المجهود المعكوس » . ان الفأفة نتيجة للانفراط في الحساسية ، نوع من « هيبة المنصة » - اي انه نوع من ارجاع قدر كبير من الاهمية لفعل يتقدم عقلك الواعي الى اتيانه ، كما لو كان « جاويشا » فييا ، فيفسد كل شيء . اما المبدأ الذي يقول به فرانكل فيقوم ببساطة على اقناع « جاويشك » الخاص بانجاز التأثير « المعاكس » عن طريق عملية خداع او تحايل . مثل ذلك مثل « الارنب برير » اذ يقنع « الثعلب برير » (١) بان يلقيه فوق الرقعة ذات اتورود الشائكة ، او « توم صوير » (٢) وهو يقنع اصدقاءه بان يفسلوا الجدار لكي ينظفوه بان يتظاهر بانه سيتمتع بهذا المنظر استمتعا لا حد له . ان التلميذ الذي يفافى « يريد » ان يفافى فوق منصة المسرح ، فالجاويش يشرع في التدخل فيتحقق التأثير المعاكس ويكتمل . كان نجار تشونج تزو جديرا بان يعمل بطريقة بالفة الرداءة لو انه سمح لنفسه بان يفكر في البلاط حاملا همه ، انه يتفق عدة ايام في تهدئة « الجاويش » حتى ينام قبل ان يشرع هو في التفكير في الخشب . ان فرانكل يعالج حالاته القلق المفرط بان يقول للمريض ان « يحاول » ان يفعل عامدا الشيء الذي يتلهم من اجل الا يفعله ، فينفس بذلك عن المشاعر المتوترة والانفعالات المتقدة فيسمح ل « الروبوت ، الانسان الآلي » الكامن في اللاوعي بان يمضي في العمل بطريقته الخاصة في هدوء .

يمكن تحت كل هذا ويؤكد ، الاعتراف بان الانسان يمتلك قوى داخلية هائلة « سمح » هو لها بان تكون عصية عليه غير طيبة وبعيدة عن متناوله من خلال الانراط العام في الحساسية واساءة استخدامه لعقله .

(١) « الارنب برير ، والثعلب برير - من الحيوانات التي تدور حولها « حكايات العم ريموس » للاطفال ، التي كتبها جويل تشاندر هاريس . (ه . م . ه)

(٢) توم صوير - الصبي المخامر ، بطل رواية مارك توين الشهيرة بنفس الاسم ، الذي اصبح رمزا للبراءة المفقودة تدريجيا ، لكي يحل محلها الذكاء الاخلاقي والبطولة العملية والجنسنة المهذبة من خلال تجربة الاحتكاك بالحياة في عالم الكبار الفاسد . (ه . م . ه)

اما نجار تشونج تزو فقد اختار ببساطة ان يتواصل مع « الجزء العظيم من نفسه » من اجل ان يصنع الاداة الموسيقية ، كان بوسعه ان يختار « ان يقتني خطوات الجزء الاصفر من نفسه » خاصة اذا ما كان حرفيا ماهرا ، وكان ممن المحتمل الا يتمكن انسان من معرفة الفارق بين النتيجتين . وهذا ايضا ما يعنيه جريفز بالفروق بين شعر عرائس الفن وبين الشعر « الكلاسيكي » . ليس هذا الشعر الاخير سوى صنعة حرفية بصورة اساسية ، خلقته او صنعته المستويات العليا من الشخصية ، جيد الصنعة ولكنه دون الهام .

والبشر هم الكائنات الحية الوحيدة انذين يمتلكون هذا الاختيار . بين اقتفاء آثار الجزء الاعظم ، او الجزء الاكثر تفاهة . ويتوقف الفارق ويعتمد على قدرة الانسان التي لا يتميز بها غيره على التخيل . فحينما يواجه اي حيوان موقفا معتما غامضا ، فانه يصبح غيبيا بليد الاحساس . ان الصقر ، وهو اكثر الطيور قسوة وحدة ، يصبح ساكنا متلبدا اذا ما وضعت على راسه غمامة سوداء تغطي عينيه . اما الوعي السامي الذي يتميز به الانسان فيعنى انه يستطيع ان يرى الى بعد اكبر ، ان احساسه باهدف يمتد ليخترق المسافات البعيدة . ولكننا ما نزال حيوانات بنسبة ٩٩ في المائة . وقايلون منا هم من يهتمون بتطوير هذه القدرة الفريدة المتميزة . اننا ننساق مع التيار يوما في اثر يوم ، يملأنا الضجر حينما تصبح اشياء معتمة غير واضحة ، ويتمكننا الانقباض حينما تبدو الاحتمالات القريبة محدودة والافاق الميسورة مظلمة لا نور فيها ، فلا نستخدم قدراتنا على التبصر والتخيل الا حينما يواجهنا نوع يثير الاهتمام من التحدي ، ثم نترك هذه القدرات لكي تنطرح في اهمال واهن بين كل لحظتين من لحظات هذا التحدي . ولا بد لنا من الاعتراف بان هذا الموقف ينطبق علينا جميعا اغلب الاحوال ، بما في ذلك من كانوا اشباها لبيتهوفن او اينشتين . « الانغماس » في الاشياء والهموم هو نصيبنا المشترك وقدرنا . اما ما يجعلنا بشرا بصورة فريدة فهو لحظات عدم الانغماس الغريبة ، عند ذاك يختفي الضغط . واذا بنا فجأة نرى الحياة من بعد ، كما لو كنا آلهة اذ نراها من عل ؛ من وجهة نظر طائر محلق بدلا من نظرة عين الدودة المعتادة . في تلك اللحظات من التفاؤل والتثبت ، يبدو من السخف ان ينبغي لنا ابدا ان نفرق ، او نستسلم لحالة الانقباض او الاحساس بالهزيمة ، اذ يكون من الواضح فجأة اننا غير قابلين للهزيمة وغير قابلين للتدمير . فكل حل وسط او تراجع انما يبدو نتيجة لنوع سخيف وعبثي من سوء التقدير . انني افتح بطريقة عابرة كتابا عن الموسيقى فاقرأ قصة عن كيف وجد المؤلف الموسيقى جيز والدو زوجته في الفراش مع عشيقها ، فقتلها بسيفه بينما قتل خدمه العاشق ، ثم يذهب الى واحدة من قلاع فيقتل طفله الثاني خوفا من ان لا يكون هو اياه . ولا شك ان دفاعه - امام محكمة حديثة -

سيبدو نوعا من الجنون ، ولكن هل كان ذلك جنونا ؟ انني اذا حاولت ان اضع نفسي في مكانه ، فأنني ارى على الفور انه لم يكن جنونا . لم يكن تصرفه الا « انغماسا » اعمى في الموقف ، مثل انغماس رجل يتصارع مع ثعبان عاصر من نوع البوا . كان عليه - اذ سقط في دوامة من الانفعالات - ان يصدر حكما من نوع ما وان يتصرف بناء عليه ، ولكن من المحقق ان اكثر الناس سيعجزون عن اصدار الحكم الصحيح في مثل هذا الموقف . انه موقف شبيه بموقف خادم قمرة القيادة اذ يطلب منه ان يتولى قيادة السفينة وسط العاصفة ثم نتوقع ان يتخذ القرار الصحيح . ان ما فعله جيزوالدو ليس شرا بالضرورة . من المحقق انه كان سيصبح شرا لو انه قرر في هدوء وروية ان يقتل زوجته وطفله . ولكن كان واقعا في قلب العاصفة، وكانت احكامه بالغة السرعة ، بالغة الانغماس ، ولذلك فانها كانت بالغة العنف . من وجهة النظر الاجتماعية والاخلاقية ، ربما كان الافضل لو انه انفجر باكيا وتساءل عما فعله لكي يستحق مثل هذه الخيانة . ولكن من وجهة نظر جيزوالدو فان مثل هذا التصرف كان جديرا بان يكون مساويا للهريمة .

ان المرء اذ يفكر في موقف من هذا النوع ، فانه يدرك افتقار الانسان الى القدرة على النظر من بعيد، ويدرك افتقارنا الى التجربة وعدم نضجنا في المشاكل المعقدة للظروف الانسانية . ولكن لا ينبغي ان يكون امر على هذا النحو . اننا نستطيع ان نمتلك « مسافات التقاط انغماس » حينما نتمكن من اتخاذ وجهة نظر بعيدة منفصلة عن الاشياء . لقد كان البشر جديرين بان يصبحوا كائنات اكثر قربا من الالهة لو اننا نظرنا الى ما تعلمناه من لحظات البصيرة النافذة تلك باعتباره شيئا تتعلق به الحياة والموت . ولكن اكثرنا يستطيعون الانسياق مع تيار الحياة دون اتخاذ اية قرارات اخلاقية عظيمة . وهكذا فان الجنس البشري لم يظهر اي تقدم في مجال الحكمة عبر ثلاثة آلاف عام .

هذه هي النظرة المتبصرة العميقة التي تكمن في قلب كتاب « اي تشينج » : انه بوسع الانسان ان « يختار » الا يتبع الجزء « الصغير » من نفسه . ان طريقة طاو ومنهجه - منهج التواصل مع قدراته اللاواعية عن طريق التركيز الدقيق على اشياء متميزة بعينها - يفتح الطريق الى مستويات تطويرية اكثر سموا .

وكل من يقوم ببساطة بقراءة ودراسة كتاب « اي تشينج » بينما هو يفكر في رموزه وافكاره ، متجاهلا في الوقت نفسه قدراته باعتباره وسيلة للتنبؤ والعرافة: فانه سيدرك ان « هذا » هو اكثر مستويات معانيه عمقا واكثرها كثافة . انه مثل الموسيقى التي تولد حالة من البهجة الكثيفة الفائرة المفاجئة، من الابتعاد والانفصال الداخلي ، من الحصول على « مسافة التقاط الانغماس » .

ان القاريء الذي ينغمس في كتاب « اي تشينج » يشرع في رؤيته باعتباره كلا متكاملًا ، وربما اصبح اكثر مهارة في استخدامه كوسيلة للعراقة ، فان هذه القدرة على التنبؤ ، مثلها مثل الفطس في الماء ، من الامور التي يمكن ان تتطور ببساطة عن طريق بذل المجهود من اجلها . وسوف يدرك هذا القاريء ايضا ان قدرة الكتاب على التنبؤ بالاحداث ليست سوى نتيجة ثانوية جانبية لا اهمية لها ، لغرضه الاساسي الحقيقي .

هناك نقطة اخيرة يجب الا نغفل عنها . ان ريتشارد ويلهلم يشير الى ان المعنى الاول لـ « ين » هو « الغائم ، المحجب » بينما المعنى الاول لـ « يانج » هو « رايات تخفق في الشمس » . فهل يستطيع المرء ان يبتكر رمزين اكثر نفاذا الى المشكلة المركزية الرئيسية للوجود الانساني من هذين الرمزين ؟ البلادة والضجر في مواجهة « لحظات الرؤيا » .

الشاعر عارفا بالغيب

الشاعر انسان تطورت لديه الملكة « س » بصورة طبيعية الى درجة تزيد عن تطورها لدى اكثر الناس . فبينما يبحث اكثرنا دون رحمة مناطق برمتها من الادراك ، فنتسبب بهذا في افكار حياتنا العقلية ، فان الشاعر يستبقي القدرة على ان ينتهج فجأة لمجرد « حقيقة » ان العالم « يوجد هناك » .

فهل يمتلك الشعراء في الحقيقة درجة اعلى من القدرات على معرفة الغيب مما يمتلكه اكثر الناس ؟

في الوقت الذي كنت اناقش فيه مسألة « ملكات معرفة الغيب » مع روبرت جريفز في ماجوركا ، قابلت ايضا الشاعر لويس سينجر ، وهو معاصر لجريفز . كان موقف سينجر من مثل هذه الامور مليئا بالشك الى حد كبير ، رغم انه اخبرني بانه قام ذات مرة باستقصاءات مختلفة في موضوع النزعة والاعمال الروحانية . سألته ان يسرد علي بعضا من تجاربه . وكانت النتيجة وثيقة هامة تقع في خمس عشرة صفحة ستتاح لي الفرصة لكي اقتبس منها اكثر من مرة في هذا الفصل . كان سينجر، مثل جريفز ، محظوظا بامتلاكه قدرة الشاعر على الوصول الى الاسترخاء الكامل . انه يتحدث عن : « التركيز على لا شيء » ، والسماح للعقل بان يفرق في حالة من السلبية المطلقة .

لم تستطع جلسات تحضير الارواح ان تقنع سينجر بان الظاهرة الروحانية حقيقة واقعية . ولكنه احتفظ بعقله مفتوحا ، وبدل الجهد لكي يجعل نفسه في حالة مزاجية متفتحة تسمح له بالتلقي الايجابي حينما يكون وحيدا . واخبرته امرأة وسيطة بان له ان يتوقع زيارة من « سيدها » ، وهو روح طفل ، في غرقته :

« .. ورحت في هدوء غرفتي انتظر زيارتها بعقل مسترخ مستريح . .
وبالطبع لم يحدث شيء . وفي الليلة التالية قررت ان اجرب استخدام شمعة .
اشعلت الشمعة ووضعتها تحت نظري مباشرة . وتوهج اللهب دون ان يزعجه
شيء . بعقل مسترخ رحت اراقبه ، آملا في ياس بأن يلفحني واحد من تلك
« الانفاس » الروحية الغامضة . ولكن لم يأتي واحد منها . ومع ذلك ، فقد
شممت فجأة رائحة عطر جميل لم أكن قد لاحظته من قبل . شممت في حالة
السلبية الكاملة التي كنت فيها دون بادرة من شك ايا كانت . نهضت وحاولت
ان اقتفي اثرها . لم يكن هناك شيء في غرفتي يمكن ان يكون مصدرا لها .
واخيرا تركت انفي يقودني . قادني من اعلى نقطة في المنزل الى الطابق السفلي
حيث كان الحمام . وهناك وجدت المصدر - قطعة من الصابون المعطر . كان هنا
اذن اول درس محدد تلقيته . ففي حالة السلبية ، وحينما تكون قوى الادراك
الدهني مهجورة تماما ، تصبح الحواس مفرطة في حساسيتها . ففي حالتي الطبيعية
ما كان بوسعي ان اشم رائحة الصابون ، ولكن ذلك كان بامكاني وانا في
حالة غير طبيعية .

ها هو اذن مثال آخر على زيادة حدة ملكة معينة لكي تتجاوز قدراتها
الطبيعية عن طريق نوع من الجهد الذي يبذل في هدوء . انه المقابل الحضري
لحساسية الادغال التي تمتع بها كوربيت . لقد بدا الامر كما لو ان ملكاته ادركت
ان المطلوب منها ان تبدل قدرا اكبر من الجهد ، ولكنها لم تكن واثقة من نوع
هذا الجهد . لقد اكتشفت حاسة الشم رائحة ما كان بوسعها ان تهتم بتسجيلها
في الحالة الطبيعية العادية . فان جهازنا العصبي يحتوي على بعض الثغرات
الصغيرة ، تسمى « النقاط المفصلية » - وظيفتها هي حجز واستيعاد المثيرات
الحسية غير الضرورية ، والا لكننا نشعر بكل تغير بسيط في درجة الحرارة ،
وبكل نفحة هواء ضئيلة تهب على وجوهنا ، ولتضاءلت قدراتنا على التركيز
الى حد عظيم .

ويبرز هذا نقطة حيوية هامة . لقد كان « من خلال » التركيز ان استطاع
سينجر ان يستعيد حاسة للشم فائقة الحساسية بصورة غير طبيعية . ان
هذه الملكات - التي لا بد ان تحبس وان تحرم من العمل لاسباب عملية - لم يكن
القصد من وجودها ان تكبت وتكبل بالقيود على الدوام . ينبغي لنا ان نكون
قادرين على ان نستخدمها لكي نعتمد عليها متى شئنا ذلك . اذن ، فلماذا
لا نستطيع ذلك ؟ لاننا نفشل في تطويع القدرة على التركيز ووضع العقل في
حالة سكون شامل - الامر الذي سيؤدي الى استعادة تلك الملكات .

ولكن ربما كان اكثر ما يبرز من نقاط اثاره للاهتمام في تقرير لويس

سينجر عن « استقصاءاته » في عالم التجارب الروحانية ، هي الطريقة التي تؤدي بها هذه التجارب الى نتائج محددة يقينية ، رغم انه ظل على اتجاهه التقديري وتصلبه العقلي . ففي اول جلسة يحضرها لتحضير الارواح اقنع نفسه بان « النتائج » تحققت من خلال رغبة كل واحد من الحاضرين في ان يحدد .

اعلنت واحدة من الجالسات انها استطاعت ان ترى بعض الاضواء . وقد اعلنت انا موافقتي لانني كنت اكثر ادبا من ان اعترض . وقالت اخرى انها تستطيع ان تشعر بلفحة هواء . ومرة اخرى ابدت موافقتي التي اشتركت فيها مع الجميع . ثم لم يحدث شيء لبرهة تالية . واخيرا شعرت بان دوري قد جاء لكي اقول شيئا ، فاعلنت ان النور يزداد توهجا . وقوبلت هذه الملاحظة بالموافقة الاجماعية . ومن المؤكد انني غاليت في القول حينما ابدت ملاحظة قلت فيها ان اضواء جميلة تتراقص من حولي . ثم قلت انني اشعر بلفحة هواء . وهكذا قال كل الحاضرين . وحدث فيما بعد ان سبحت الطلبة كالمعجزة في الهواء ، في الهواء الرقيق الشفاف ، ثم سمع صوت تعرفت عليه شقيقتي بانه صوت شقيقتها يتحدث . وكان الجميع واثقين من انه ليس صوت الوسيط - فيما عداي انا . بالنسبة لي لم يكن ثمة ادنى شك في انه صوت الوسيط ، بل ان الصوت لم يكن متنكرا ولا مقلدا بمهارة . وكان كل ما كسبته من جلسات تحضير الارواح هذه هو اكتشاف مقدار ما يصبح الناس قابضين للخضوع للايحاء في ظل الظروف ، ومقدار ما يصبحون سادجا يسهل خداعهم . ولكنني اكتشفت ايضا مقدار اجهاد (الاجهاد الممتع) الذي يمكن ان يولده التركيز على حالة السلبية الكاملة .

اقتطفت هذه الفقرة لكي اظهر ان سينجر كان - وما يزال - غير مهيا لان يكون بحكم مزاجه « مؤمنا حقيقيا » . فحينما استطاعت وسيطة ما في النهاية ان تقدم نتائج اقنعتة بالفعل ، فانها كانت تؤفق وتأفك ، بل انه لم يتردد في ان يعزو اقتناعه الى التواصل عن بعد او التليبائي :

« لم يكن احد من الحاضرين قد زار حجرتي ، او بالنسبة لذلك الموضوع ، لم يكن فيهم من يعرف اين كنت اسكن . ومع هذا فقد وصفت المرأة الوسيط حجرتي بالتفصيل ، ثم شرعت في نصحي . قالت انني اعتدت ان اكتب وانا في الفراش ، وان يدي تقف بين النور وبين الورقة فتلقى ظلا يسبب الاجهاد لعيني . وقالت انني في خطر من ان انزلق فاسقط وانا اهبط الدرج بسبب حالة خفي المنزلي البائسة . اما بالنسبة للمنزل نفسه ، فقد كانت المرأة قادرة على ان تخبرني بعدد الدرجات المؤدية الى الباب الامامي ، وان المنزل كان المنزل قبل الاخير عند نهاية الشارع . وقالت ان منزلا في مقابل منزلي تقريبا كان قد اعيدت زخرفته منذ مدة وجيزة . وباستثناء هذه الملاحظة الاخيرة ، فاني لم اكن

اعرف ان كانت ملاحظاتها الاخرى عن المنزل صائبة ام مخطئة . كنت اسكن في شارع دانفرس ، بحي تشيلسيا ، وهو شارع يعبر ميدان بولتون . وكانت المنازل كالشرفات دون انقطاع فيما بينها . وحينما عدت الى البيت وجدت ان المرأة كانت على صواب في كل ما قالته . . كانت النتائج التي استخلصتها من جلسة تحضير الارواح هذه الى شقين : (١) ان الاشياء التي كنت انوي ان اعالجها ، مثل وضع النور حينما اكتب وانافي الفراش وحالة خفي المنزلي ، قد نقلت نفسها الى الوسيط دون صعوبة ، مثلما هي الحالة مع العلامات التي اسجلها في ذهني دون وعي لكي احدد مكان المنزل واتعرف عليه . (٢) لم يكن من الممكن الاجابة على اي سؤال برز من التأمل الذهني او من المعلومات المدروسة . وهكذا فانه لم يكن في وسع الوسيط ان تجيبني على سؤال عما اذا كان يسوع المسيح ينتمي الى الاسباط . . »

لقد اكتشف انه كان يستطيع ان يؤثر على جلسة تحضير الارواح ، ليس فقط عن طريق الايحاء اللفظي وانما عن طريق التواصل الروحي عن بعد . لقد اوحى اليه سلة دائرية لنقل الكلاب بشكل زورق صغير مصنوع من الجلد :

« . . . ان لي ، بالاشتراك مع معظم الشعراء ، ذكرى مرئية نبصرها ، ليست حقيقية فقط وانما هي ايضا خيالية . . انني اتخيل انني ابصر زورقا صغيرا من تلك الزوارق التي تشد على هيكلها صفائح الجلد . كانت المقاعد قد رتبت في شكل الدائرة المعتادة ، وبالمصادفة وضع احد المقاعد بحيث كان داخلا اكثر من اللازم في قلب الدائرة . وامرنا المرأة الوسيط بان تتركه في حاله . فان احد الارواح قد يرغب في الانضمام الى الدائرة . وترك المقعد على حاله ، ومن المؤكد بما فيه الكفاية ان روحا غير مرئية لنا قد شغلته . وقالت المرأة الوسيط ، انها كانت روح بحار غريق .

بعد ذلك حاولت في اكثر من مناسبة ان اقول مقدما هوية الروح التي سوف تأتي ، مستخدما طريقة العرض البصري المرئي . . ونجحت في ذلك الى حد كبير .

وكان عند هذه النقطة ان بدأت في اللهي بفكرة العقل الجمعي . ولناخذ مثال الزورق المشدود من الجلد ومن يفترض انه البحار الغريق . فلنفترض انني - دون ان اتحدث - نقلت فكرة القارب ، قارب غير محدد مطلقا ، الى الجالسين في الدائرة . كانت المرأة الوسيط والجالسون الآخرون في الدائرة يتلقون هذه الفكرة ويتمسكون بها ، طالما انها مستمدة من تجاربي الخاصة ، متبلورة في شكل البحار الغريق . »

✱

انه يحكى حوادث اخرى ذات طبيعة مشابهة ، وهو من حين الى حين يحاول عامدا ان « يوجهها وجهة معينة » حتى يكتشف الى اي حد يمكن « ابتلاعها » وقبولها . امه الاستنتاج الذي توصل اليه فهو : « ان الروحانيين هم السى اكبر حد ، اكثر من قابلتهم في حياتي سداجة وسرعة تصديق . انهم يصدقون ما يصل الى كل ما يتعلق بما يدعى الظواهر غير الطبيعية . وبالمقارنة مع سداجتهم واسراعهم الى التصديق ، فان الايمان الذي حرك الجبال يبدو شبيها بالشك وعدم الايمان » . ورغم هذا ، فقد وضع بعض الملاحظات عن التأثيرات النفسية المحددة التي لا يمكن تفسيرها الا من خلال التواصل الروحي عن بعد . يقول : « ان احد الاهداف هو منح الوسيط شيئا من القوة . . فاذا حدث هذا فسي اثناء « الصلاة » ، فان جماعة المصلين يطلب منها ان تصدر : الدبذبات الصحيحة . . . اما في جلسات تحضير الارواح فان هذا التأثير يتحقق عن طريق السماح للعقل « بان يوجه الوسيط ، او بالاحرى بان يدعمه ويسنده . وهذا شيء يصعب وصفه . قالمرو يشعر بأنه شيء يصدر عنه بصورة تلقائية . وقد قمت انابتطوير هذا الاسلوب الى حد معين ، فاكتشفت انني لم يكن بوسعي فقط ان استخدمه للايحاء بحالة النعاس للوسيط وانما ايضا لانهاء هذه الحالة » .

وقد اشترك لويس سينجر فيما بعد في « حلقة تطوير » حيث كان الغرض بالنسبة للاعضاء ، كل على حدة ، هو تنمية قدراتهم كوسطاء . ولكن سينجر لم ينجح . فهو يقول : « لقد اغمضت عيني ، وافرغت عقلي من كل شيء ، بل ان راسي هدم فيه النعاس في بعض المرات . اما السبات الحقيقي ، فلم يأت ابدا ! » وعطى الرغم من هذا ، فان الوسيط اخبره يانه قد توصل الى الحصول على مرشدين من الارواح ، وكان احدها روحا هندوكية . وحدث ذات مرة ، حينما كان منفردا بصديقه من اعضاء الحلقة ، انه قرر ان يحاول الفرق في النعاس : « قلت لها : هل تسمحين بان تراقبينني ، وسوف اطلب من الروح الهندوكي ان ياتي . او مات براسها موافقة ، فاقمضت عيني وغرقت في حالة اشبه بحالة النعاس . وفجأة شعرت بامعائي تقوص حتى بدا كسي انها اطبقت على جلدي . وبعد لحظة قصيرة فتحت عيني لكي اجد مود وهي تحديق بعينيها بعيدا عني نحو الجانب الاخر من الحجرة . شعرت بالضيق وقلت لها : ماذا تفعلين ؟ الم توافقي على مراقبتي ؟ اجابتنني بقولها : كنت اراقبك بالفعل . ولكنك خرجت من جسدك وكنت تجلس هناك على ذلك المقعد البعيد » .

وقد استطاع فيما بعد ان يطور قدرات متواضعة على قياس الذكاء وقدراته العقل Psychometry واقصد بها القدرة على التقاط « الدبذبات » من الاشياء التي تسلم اليه . يقول : « وجدت ايضا انه كان بوسعي ان اري « المرشدين »

او الشخصيات الثانية ، الخفية للناس ، وان ارى صوراً رمزية الاحداث المقبلة في المستقبل القريب لا البعيد . ولست املك اقل فكرة عن كيفية حصولي على هذه القدرة . لم اكن مدركاً لاي تغير طرأ على عقلي ولا على شخصيتي . الفارق الوحيد بين ما انا عليه الآن وما كنت عليه من قبل هو انني استطعت الان ان امد يدي (مجازاً وليس حرفياً) فاقبض على ما كان يفر مني من قبل . »

اما الحادثة الوحيدة التي لم يكن بوسعها ان يفسرها عن طريق فكسرة التليباتي او التواصل الروحي عن بعد ، فكانت محاولة لتكرار وتقليد تجربة وصفها « ج . و . ديون » في كتابه « تجربة مع الزمن » حيث استطاع ديون ان يستحضر صورة مرئية لساعته بينما كان راقداً في الفراش ، فاصبح قادراً على ان يتنبأ بالوقت على وجه الدقة (٥) ويمضي سينجر قائلاً :

« على رف صغير في حجرة نومي كانت هناك ساعة تنبيه ذات محيط معدني ابيض . وكان لديّ موعد ذات صباح ، فاستيقظت . كانت الظلمة المطبقة تسود الحجرة . . حاولت ان اكرر تجربة ديون . رايت ساعة التنبيه امام عيني ، فقررت بناء على ما رايت ان بوسعي ان استمر في النوم لمدة ساعة اخرى على الاقل ، فنمت الساعة بالفعل . وحينما استيقظت للمرة الثانية ، « نظرت الى الساعة التي اناها ببصيرتي ، ثم نهضت ، فازحت الستائر الثقيلة عن النافذة ، فتأكدت من دقة الرؤية التي ابصرتها . ولكن الامر الغريب هو ان محيط وجه الساعة في « الرؤية » كان ذهبي اللون . . ثم رحت احلل رؤياي مثلما يحلل المرء حلماً من الاحلام . ان للطيور والحيوانات نظاماً آلياً داخلياً تعرف به الوقت . انها تتحرك في نفس الدقيقة التي يكون طعامها بانتظارها . . من المؤكد انني نفسي استطعت ان اذهب سعيداً الى النوم ، بعد ان اسر انفسي رفعتي في ان استيقظ في ساعة معينة بالتحديد ، فاستيقظ في تلك الساعة على وجه الدقة . وعلى ذلك فلم يدهشني انني رايت الوجه الصحيح عن طريق البصيرة . كان كل ما حدث هو ان معرفتي اللاواعية بالوقت قد كشفت عن نفسها عن طريق صورة الساعة التي استعرضتها لنفسي . اما بالنسبة للون الذهبي الذي بدا عليه محيط وجه الساعة ، فانه من الممكن ان يكون رمزاً متفائلاً لنتيجة التجربة . ولكن لا بد لي من الاعتراف بانني رايت هذا التفسير بعيداً عن الدقة حينما اكتشفت ان الساعة كانت متقدمة عن الوقت الصحيح لمدة عشر دقائق . »

كان قد رأى الوقت بالفعل « مثلما حددته الساعة » ، ولم يكن هو التحديد الصحيح . والتفسير بالتأكيد هو انه ايا كانت « القدرات » التي استطاع

(٥) انظر القسم الثالث ، الفصل الثالث .

ان يطورها ، فانها لم تكن معتمدة بشكل كلي على التواصل التليبائي مع العقول الاخرى ، ولكن يمكن القول بانها كانت قادرة على ان تتعامل مباشرة مع المادة .

لقد اقتبست فقرات من هذه الوثيقة بمثل هذا الطول لانها تبدو لي تلخيصا كامل التوان لكل ما يعتبر « مع » او « ضد » كل التجارب المماثلة في علوم الغيب . لقد كان سينجر شاعرا ، رغم ان موقفه كان يميل نحو الشك ، وان محاولاته لتطويع قدراته كانت في مجموعها ناجحة . ان ما يمكن ملاحظته هنا على الفور ، هو ان الانغماس الوثيق في محاولة « معرفة الغيب » يبدو كما لو كان يؤدي الى « جعل » الاشياء تحدث ، مغيرة بذلك من مجموع اطار حياة القائم بالتجربة الذي قد يكون حتى ذلك الوقت غير روحاني بصورة كاملة . ويسجل سينجر ملاحظة تقول : « ان المرء حالما ينغمس في الامور الروحانية ، فانه سيجد نقصا معيننا في التواصل مع اولئك الذين لم تكن لهم تجربة مشابهة » .

ثم يستمر بعد هذا لكي يضع الملاحظة الهامة التي تقول : « لا يصل الانسان الى الصوفية والروحانية عن طريق الرغبة الارادية ، وانما عن طريق عدم الرغبة الارادية في هذه او تلك . لا بد من التخلي عن الارادة قبل ان يصبح الوصول ممكنا . ان الوصول - بكلمات اخرى - تلقائي غير ارادي . والافعال التي تسبق الوصول افعال مؤثرة في عملية الفاء او افناء الارادة بشكل كامل » . ومع ذلك فلا ينبغي ان نفهم هذا فهما حرفيا ، لانه من الواضح ان من « الممكن » لامكانيات المرء ان تتطور ، مما يوحي بأن الجهد يسدي خدمة معينة وينفع الى حد ما . ومن ناحية اخرى ، فان موقفا سلبيا ، وسالبا ، يتخذ المرء من حياته يبدو مؤديا على الدوام الى غرس ميل للتسليم بسيطرة الحدوث العارض ونزوع الى المصادفات المزعجة . ويتضح هذا وضوحا شديدا بقراءة كتابات ستريندبرج المتأخرة عن سيرته الذاتية ، وعلى سبيل المثال : « جهنم » ، « اساطير » ، « يوميات الباحث عن الغيب » ، فالقاريء العقلاني العادي قد يروق له ان يصدق انه من الممكن ان تكون لكل الحوادث الغريبة والمصادفات الطارئة تفسيرات طبيعية ، وان اللوم يجب ان يقع على الاختلال العقلي والذهان الذي اصيب به ستريندبرج .

انه يكتب قائلا على سبيل المثال :

« منذ بضعة ايام ، وبينما كنت اسير على الطوار ، رايت صاحب فندق صغير وهو يسيء معاملة شحاذ السكاكين الذي كان يقف في الشارع . لم اشأ ان اسير بين الرجلين فاقطع التواصل بينهما ، ولكن لم يكن بوسعي ان اتجنب ذلك ، فشرعت باحساس حاد من عدم الارتياح وانا امر بين الرجلين

المشاجرين . كنت كمن قطع حبلا ممتدا بين الاثنين ، او كما لو كنت قد عبرت شارعاً أفرقه الماء . (اساطير . ص ٩٤) .

سيكون اول رد فعل للقاريء هو ان يصرف نظره عن هذا الكلام باعتباره تخيلاً لا اساس له ، وشيئاً ذاتياً بشكل مطلق . ولكن جورديف ، وهو مصدر اكثر توازناً واتزاناً واكثر جدارة بالتصديق ، قال لاوزبونسكي : « لم تلاحظ كيف تصبح شديد التوتر اذا ما عبر بك رجل عن قرب شديد وانت تسير على طوار ضيق ؟ ان التوتر نفسه يحدث بين الكواكب . . » (١٠)

لقد اعتقد ستريندبرج ان عداياته وانواع سوء الحظ التي تعرض لها كانت راجعة لمحاولة قام بها لممارسة السحر الاسود . وهو يزعم انه قد لاحظ قدرته على ممارسة نوع من التأثير انتليائي على الغائبين من الاصدقاء . كان منفصلاً عن زوجته ، فاراد ان يبتكر طريقة لتحقيق نوع من المصالحة . واوحت اليه قوة ما اشبه « بالفريزة الكاملة » بفكرة استخدام قدراته التليائية لكي يجعل ابنته تمرض - ولكن دون ان يكون مرضها خطيراً - وانما بما يكفي لاتخاذ هذا المرض علماً وذريعة للقيام بزيارتها . وشرع في العمل مستخدماً صورة لها . وبدأ يحتاجه احساس بقرب وقوع شر وبيل ، وحينما كان يفحص بكرة بندقة تحت مجهر بعد بضعة ايام ، رأى ان لها شكل يدي طفل ممدودتين في توسل ، واكد له احد الاصدقاء هذا التشابه الملحوظ . لقد اخطأته محاولته المرمى . لقد سقط طفلاً زواجه الاول مريضين - وهناك خطاب منه يصف مرضهما ويحمل نفس تاريخ محاولاته لممارسة تأثير « العين الشريرة » . ومنذ ذلك التاريخ طارده سوء الحظ ، واقتنع هو بانه قد جلبه على نفسه . ان القائمة التي تضم تجاربه في « البحث عن الغيب » غريبة الى الحد الذي تفري عنده بصرف النظر عن الامر كله بالنسبة له باعتباره نوعاً من مخادعة الذات او الايهام الذاتي . فالمصادفات انعازة التي لا يمكن تصديقها تصبح عادية معتادة ، وقد اقتنع هو بانها جميعاً أحداث متعمدة باعتبارها علامات ونذراً . فمعظمه عندما يوضع على كتفي صديق ، يجعل هذا الصديق يتقلص ويتلوى ، ويعتقد ستريندبرج ان هذا راجع الى « سياله الكهربائي » . وهو يحلم بساعة دقاقة ذات مظهر غيرعادي ، فيراها في اليوم التالي في نافذة العرض لاحد الدكاكين . وهو يرى منظراً خلاوياً جلياً وسط الاشكال التي صنعها الطلاء والصدأ على صفحة حوض الاستحمام مصنوع من الزنك ، ثم يتعرف على المنظر بعينه حينما يزور موطن زوجته في النمسا . وهو يشك في امتلاكه القوة التلقائية التي تجعله قادراً على تحليل المادة ، او ان يصبح غير مرئي ، ولكن الاصدقاء الذين ينظرون اليه

يفشلون في رؤيته حتى يلمسهم ويتحدث اليهم . وبعد انفصاله عن زوجته الثالثة، هاربيت بوس ، يقتنع بأن « جسدها الاثري » يزوره في الليل ويمارس له العادة السرية . وهو ايضا يملك القدرة التلقائية على ان يترك جسده او على « الانتقال ببصيرته » (مثلما أصبحت هذه القدرة تدعى فيما بعد) . وقد اشرت من قبل بالفعل الى مثليين من امثلة اعمال هذه القدرة . وفي مناسبة اخرى ، ينقل نفسه في خياله الى مشهد من مشاهد ماضيه بحيوية تصل الى ان يجد نفسه بالفعل واقفا في الحديقة التي كان يلعب فيها في طفولته ، يتشمم الزهور المختلفة قادرا على ان يلمس الاشياء . وحينما توظفه زوجته من هذه « الغفوة » مثل تلك الامور ، تمتزج الحقيقة بالوهم امتزاجا كاملا حتى يستحيل ان نرسم خطا فاصلا بينهما . ان استعداد المرء لتوقع الاحداث الغريبة يبدو انه « يجعلها » تحدث ، ولا يستطيع المرء ان يقبل الا انها - في عدد كبير من الحالات، تحدث بالفعل .

والحقيقة هي اننا بحاجة الى مراجعة المعالجة العقلانية البسيطة لمثل تلك المشاكل . لقد التقى كل منا بأناس تقع لهم على الدوام انواع خاصة من الحوادث او اشكال سوء الحظ . ويتكاد الامر يبدو في صورة انهم يجتذبون لانفسهم نوعا معينا من المواقف او الاحداث . وفي حالات عديدة ، يستطيع المرء ان يرى انهم لا يفعلون شيئا - بشكل واع - لجلب هذه المواقف او الاحداث لانفسهم . ولا بد للمرء ان يقبل ببساطة ان هناك انماطا معينة من الناس يبدو ان انواعا معينة من الاحداث تقع لهم بشكل خاص . وليس هناك تفسير عقلائي يستطيع ان « يغطي » هذه الظاهرة بشكل كامل .

هناك نقطة هامة تبرز فيما يتعلق بستريندبرج . لقد كان شخصا « متوحدا » ، محبا للوحدة . انه يقول في الجملة الاولى من كتابه « جهنم » : « باحساس من الفرح الوحشي عدت من محطة سكة حديد الشمال حيث ودهت زوجي » . اعطتني حريتي التي اكتسبتها حديثا احساسا بالاتساع والتسامي على اهتمامات الحياة الضئيلة » . ان الحياة والسكن على افراد ، في حجرة واحدة ، في مدينة غريبة ، يولد احساسا غريبا يكاد يكون احساسا بنوع مهلك قاتل من الكثافة ، كأنما المرء يعيش في فقاعة من الزجاج - مثلما سيشرح كل من مارس هذه التجربة . وتتمتع كل الاعمال الكلاسيكية العظيمة التي دارت حول موضوع « الوحدة » بهذه الميزة المسيطرة ، ميزة الكثافة الفليضة القوام ، مثل : « مذكرات مالت لوريدر بريج » لريلكه ، « جوع » لنوت هامسون ، « الفتيان » لسارتر ، « دكتور جلاس » لزودربرج و « مذكرات » لاميل ، « مذكرات رجل مخفق » لباربيون . ان الرجل الاجتماعي مشتت منقسم الذات . اما الانسان

الذي يعيش لحسابه الخاص وفي وحدة معتزة فتتولد فيه عقلية متوحدة مفردة التركيب والاتجاه ، سواء راق له هذا الوضع او نفر منه . والتوحد العقلي المفرد التركيب والاتجاه هو المطلب الاول الذي تحتاج اليه تجربة البحث عن الغيب ، حينما تشرع قوى اللاوعي في فرض الاحساس بها على الوعي .

ولكننا اذ نقيم تجارب ستريندبرج الغريبة تلك ، فاننا لا يجب ان نرسم الخط الفاصل بين الاشياء التي « وقعت حقا » ، وبين اوهام الخيال ، وانما يجب ان نرسمه بين الاحداث التي « ارادها هو بصورة تلقائية » بشكل ما ، وبين الاحداث التي لم يلعب فيها عقله اللاوعي دورا نشيطا من اي نوع . انه - على سبيل المثال - يصر على ان المنظر الجبلي الذي رآه مرسوما في صدا حوض الاستحمام المصنوع من الزنك قد تماثل بشكل دقيق مع الجبال القريبة من موطن زوجته في دورناخ ، وهي الجبال التي لم يكن قد رآها من قبل ابدا . ولا بد ان يقول التفسير العقلاني انه تعرف على المنظر القريب من دورناخ باعتباره مشابها بشكل غامض للاشكال التي صنعها الصدا في الحوض المصنوع من الزنك . اما تفسير ستريندبرج الخاص فلا بد انه يقول ان « قوى غير منظورة » قد تعمدت ان تقود مصيره ، ورتبت الامر كله لكي تجعله واعيا بوجودها . ومن الممكن ان تكمن الحقيقة بين التفسيرين : ان التواصل التليباتي مع زوجته - التي كانت في دورناخ اذ كان هو يستحم في ذلك الحوض - هو الذي غرس المنظر الجبلي في عقله ، فرآه هو في خطوط صدا الزنك المتعرجة ، مثلما يرى المرء وجوها تتبدى له وسط لهب نار مشتعلة .



يبدو الشعراء قادرين على تقديم ميدان خصب بصورة خاصة للبحث في موضوع « البحث عن الغيب » ، وقد حاولت انا ان اقيم الحجة للتدليل على ذلك بالقول بان السبب في هذا يرجع الى ان « الملكة س » هي ملكة الخلق والابداع وهي ملكة البحث عن الغيب في وقت واحد . بل ان روبرت جريفز يمضي الى ابعد من هذا حينما يوميء الى ان كل القصائد الحقيقية انما كتبت في « البعد الخامس » (١) . ولكن المرء لا يحتاج الى الفلو في القول الى هذا الحد ، لكي يصبح قادرا على رؤية ان الشعر انما ينبع من قلب نوع خاص من الوجدانة والسكون الداخليين . لقد زودني المؤرخ والشاعر « م . ل . راوز » وهو كلتي

(١) البعد الخامس - بما يعني انه كتبها خارج اطار الابعاد الثلاثة للمكان والبعد الرابع (الزمن) ، اي انه كتبها في بعد ذاتي كامل ، قد يكون الحلم ، او الخيال .

ايضا مثل جريفز ، زودني هو الاخر ببعض المذكرات الخاصة التي كتبها حول تجاربه في ميدان ما فوق الطبيعة ، حيث يتبدى ذلك الارتباط في وضوح كامل .
لقد كان راوز ، مثل ستريندبرج ، على الدوام معتزلا محبا للوحدة ، مثلما يبدو واضحا من كتابه عن سيرته الذاتية : « طفولة على الرصيف » . ان شعره مغمم بخاصية الوحدة والسكون :

الخليج كله طافح بالبحر الصامت ،
بصيحة كروان ، او صرير محراث ...

او :

امسية ، وصمت ، وتسؤل طيور .
بوق ينفخ نغمته المثيرة فوق المدينة ..

او :

القمر ، والصقيع ، وضوء اصائل ايام الشتاء
كما لو كان اللوء يرى الحياة تعبر
من تحت البحر ..

انه يكتب ، في مذكرات بعنوان « تواصل روحي وما اليه » قائلا :
« تاتي تجربة غريبة لي تحت نفس العنوان - التشاؤم او توقع الشر وليس التليباتي او التواصل الروحي » .

كان لحجرة جلوسي - قبل تخرجي - في كنيسة المسيح نوافذ من الطراز الفيكتوري ذات مصاريع خشبية ثقيلة يزن كل منها ما لا يقل عن ٢٥ او ٣٠ رطلا . وفي مساء من امسيات الصيف ، كنت اطل من النافذة منحنيا براسي خارجها ، وقد رفعت المصراع الخشبي الثقيل الذي كان مرتفعا فوق عنقي الممدودة تماما - مثل المقصلة - حينما طرأت على رأسي الفكرة : افرض ان هذا الشيء سقط على عنقي ؟

لم اكن في حالة طيبة ، وكنت واقعا تحت تأثير مزاج قائم . قلت :

« فليسقط هذا الشيء الملعون ! »

وبعد ثانية واحدة نسيت الامر كله ، ثم تراجعت من وقفتي وسحبت رأسي الى الداخل بشكل عرضي تماما . ومثل ومضة البرق في نفس اللحظة ، سقط المصراع .

لم يكن ما اخافني كثيرا هو انه سقط ، وانما اخافني انسي تحديته ان يسقط ، جربت العناية الالهية واختبرتها ..»

ثم يستمر قائلا :

« وفي نفس هذه الفترة تقريبا ، وكانت فترة مرضت فيها امعائي واشتد توترتي ، في ختام اصيل احد الايام ، طرا على راسي فجأة انسي اذا هبطت من مسكني فذهبت الى المكتبة ، فلا بد انني سارى شابيين متعائنين . هبطت بالفعل، ونزلت طابقيين من عدة درجات ،ودخلت المكتبة - فرأيتهما هناك كما تخيلتهما!

لم اعرف من كانا ، كما انني لم اتعرض لمثل هذا الموقف منذ ذلك الحين . وارجو ان اكون قد تصرفت مثلما يليق بالرجل المهذب فانسحبت بهدوء . ربما لم يكن من التهذيب الشديد انني رحلت ، ولكنني تصرفت تصرفا من وحي اللحظة ودون تدبر ، كما لو كنت اسير في نومي - وهكذا كان الموقف بحذا فيره !

... انني لاجرؤ على القول بأن (مثل تلك التجارب) انما تعود الى ظروفنا الحيوانية الاولى ، حينما كان العنصر الحدسي فينا وفي تركيبنا اكثر قوة بكثير، وأنه الآن قد تقلص وتضاءل الى حد كبير ، فاصبح اكثر ضعفا مع تطور انتصاب قامتنا ونمو القشرة الخارجية لادمقتنا ، بما يعني نمو ملكات التفكير عند الجنس البشري الذي لم يزل غير شديد الانسانية .

ان الافتراض الذي قال به راوز ، من ان ملكات الحيوان لا تتضمن فقط حواس متطورة تطورا غير طبيعي ، وانما تتضمن ايضا نوعا من « البصيرة الثانية» او « الحاسة السادسة » هو من الافتراضات التي لقيت قبولا واسعا . وقد قال لي الشاعر الاسكتلندي هاف ماكنديارميد ان زوجته كانت تعرف دائما موعد عودته من رحلاته الطويلة - وقد ابتعدت به احدي هذه الرحلات حتى وصل الى الصين - لان كلبه كان يذهب فيجلس عند طرف الشارع الضيق الذي يقع فيه منزله قبل حوالي ثمان واربعين ساعة من عودته في كل مرة الى البيت . ويبدو ان التواصل الروحي هو الفرضية الواضحة هنا . باستثناء ما حدث في مناسبة واحدة ، حينما ذهب الكلب فجلس عند طرف الشارع قبل ان يعرف انه كان يوشك ان يعود الى منزله .

وقد رايت بنفسي كلب ايف فارسون ، زوجة الكاتب نيجلي فارسون ، وهو يزمر عند ركن في حجرة نومها كانت توضع فيه ذات يوم السلة التي كان ينام فيها الكلب السابق الذي كان قد مات . واخبرني ايف فارسون انها احتفظت في البداية بسلة البرت في ذلك الركن ، ولكن سلفه الميت قام بـ « طرده منها » اكثر من مرة حتى انها قررت ان تنقل السلة . ومرة اخرى يستطيع المرء ان

يفسر هذا بالإشارة الى شكل ما من اشكال « الحندس » الحيواني التليباتي - بل انه قد يصل الى درجة ان ايف فارسون نفسها ربما كانت قد نقلت دون وعي منها الى البهرت المعرفة بوجود الكلب السابق . ولكن لا يهم عدد المرات التي يعتمد المرء فيها على فرضية التليباتي ، فبصرف النظر عن كثرة مثل هذا الاعتماد، تظل هناك الاحداث التي لا يمكن ان تتلاءم مع هذه الفرضية . ان راوز يكتب قائلا :

« في كتابي « طفولة على الرصيف » اروي قصة شقيق ابي الاصفر ، تشارلي ، الذي قتل في حادثة منجم في جنوب افريقيا . فقد كان الصبي قبل مغادرته المنزل ، يعبت على الدوام قليلا بالساعة الدقاقة في المطبخ ، محاولا ان يجعلها تدق ، وكانت قد توقفت عن الدق منذ زمن ، ولكنه لم يستطع ابدا ان يصلحها . وذات يوم ، وفي موعد تناول الطعام ، دقت الساعة بصوت مرتفع ، الامر الذي ادهش ابي وامي وهما يجلسان امام المائدة - فقد كان هذا هو الوقت الذي قتل فيه تشارلي طبقا لما اكتشفا فيما بعد . وقد وصفا على الدوام هذه الحادثة وصفا غير دقيق (لانهما قليلا ما كانا يعرفان معاني الكلمات) بقولهما انها نوع من توقع المستقبل توقعا شعوريا ، او بكلمة اكثر دقة : « علامة » او « امارة » .

وهذا هو ما يؤكد ويبرز المشكلة التي يواجهها المرء كثيرا في الكتابة عن البحث عن الغيب ومعرفته . ان افتراض التليباتي والتواصل الروحي او « الملكة س » قد يفسر الكثير . يقول راوز : « لقد اكتشفت ان هذه انظواهر تحدث بكثرة اعظم في فترات المرض - ربما حينما تكون حساسية الانسان او قدرته على التلقي اكثر قوة ، وحينما تكون كوابحه العقلية في حالة هبوط » . ولكن التليباتي وحده لا يستطيع ان يفسر دق ساعة على الحائط .

ان الافتراض التالي في درجة صحته هو ان تلك الملكات الغريبة ، تستطيع في ظل ظروف معينة ان تؤثر بصورة مباشرة على المادة ، باستثناء اننا ما نزال نتعامل فقط مع البشر - او الحيوانات ومع قدراتهم غير الواعية . « ليس » مع اية « قوة غير مرئية » خارج الانسان . ويبدو ان « فرضية تأثير الحد الأدنى » هذه قد ولدت من خلال قصة رواها آرثر جريمبل في كتابه « نماذج من الجزر » .

لقد آمن اهالي جزر جيلبرت بأنه حينما يموت شخص ما ، فان على روحه ان تمضي لكي تقف عند بقعة رميلة عند الطرف الشمالي من جزيرة « ميكين مينج » ، وهي بقعة عرفت باسم « موقع الخوف » . وبعد زيارة هذا المنزل الواقع في منتصف الطريق الى الآخرة ، فان الشبح يستطيع بعد هذا ان ينطلق الى الفردوس ، هذا اذا استطاعت بعض الطقوس التي لا بد ان تقام على

جسده الميت ان تؤدي الى عكس تأثير نوايا « ناكما » وهو الحارس القائم على البوابة ، الذي يحاول ان يخنق الروح في شبكته .

وقد استطاع جريمبل ان يقنع الحاكم المحلي بان يأخذه لرؤية « موقع الخوف » . ونستطيع ان نتنبأ بان الرجل كان متوتر الاعصاب الى حد بعيد ، ولم تكن الزيارة رحلة ممتعة ابدا . وفي طريق العودة ، رأى جريمبل رجلا يقترب منهما : « لقد رايتك عند نقطة ما وهو يظهر عبر القوس الذي صنعه الشاطيء عند منحني طويل . كان بوسعي ان اتابع كل خطوة من خطواته اثناء تقدمه واقتربه منا . لم تغفل عنه عيناى ، لانني كنت قد ركزت همي كله على ان يعطيني ذلك المشروب . كان يسير وهو يعرج بقوة . . كان رجلا لحيما قويا في الخمسين من عمره تقريبا ، وقد بدت ملابسه وكأنها ملابس العيد وقد لف وسطه بحزام من الجلد . . . ولاحظت ان صدغه الايسر كان يحمل آثار ندبة لجرح طويل يمتد من عظمة الفك حتى قمة الراس ، كما لاحظت ان عرجه كان بسبب التواء قدمه وكاحله الايسر . ما زال بوسعي ان ارى الرجل في ذاكرتي . . لقد تجاهل التحية التي وجهتها اليه تماما . بل انه لم يلتفت الي برأسه ولم يحول عينيه نحوي . لقد عبرني كما لو لم اكن موجودا » .

ونادى جريمبل الحاكم ، الذي كان يسبقه بمسافة على الطريق ، فسأله من الرجل . وكانت النتيجة ان اصيب الحاكم بالهستيريا ، وانطلق يجري الى بيته . وتبعه جريمبل الى القرية ، وذهب فاشتكى الى القاضي المحلي عن الاحداث الغريبة التي تجري من حوله . وكان بوسع الاهالي ان يتعرفوا على الرجل من عرجه . كان اسمه « نايريا » ، وكان قد مات في الوقت الذي رآه فيه جريمبل . وكان جسده مسجى في نفس ذلك الوقت داخل كوخ قريب . وكان رد الفعل الداخلي الاول لدى جريمبل هو الاصرار على رؤية الجسد ، لكي يتثبت من انه كان نفس الرجل يقينا . ولكنه اذ تذكر ان اي تطفل على الطقوس او قطع لمسارها قد يؤدي بالروح الى الوقوع في ايدي « حارس البوابة » الرهيب ، فانه قرر ان يتنازل عن رغبته .

اما الحاكم الذي كان قد مر بالرجل الامرج ، فانه لم يكن قد رأى احدا .

يشك جريمبل - وهو على حق في شكه تماما - في وجود حارس البوابة - او في اهمية « موقع الخوف » باعتباره محطة في منتصف الطريق الى الفردوس . ولكن الرجل الميت كان قد آمن بهما ، وهو الايمان الذي كان كافيا لظهار خياله او شبكه الوهمي على طول الطريق المؤدي الى الشمال . وقد يبدو محتملا ان الرجل كان ما يزال حيا حينما رآه جريمبل يطلع عابرا به ، وان افكاره هي التي عرضت صورته . وكان كل اهالي الجزيرة يؤمنون بان على الارواح ان تدخل

الفردوس بعد مرورها بـ « موقع الخوف » ، وكان هذا كافيا لانتاج الشبح أو الخوسال .

انه افتراض يغري بالاعتناع به ، طالما انه من الممكن ان يطبق على اكثر الظواهر الخارقة للطبيعة بدءا من الارواح الشريرة الصخابة حتى السحر الاسود : وهذه هي فكرة ان « السحر » شكل من اشكال التليباني او التواصل الروحي الذي يمارسه « العقل الجمعي » بدلا من ان تقوم به العقول الفردية .

ولكن هل هو افتراض يؤدي حقا الى تبسيط اي شيء ؟ كيف يستطيع التليباني الجمعي ان يفسر القدرات « التنبؤية » التي يتمتع بها كتاب « اي تشينج » ؟ او تنبؤ مارك بريدن ان سيارة الاجرة التي كان يستقلها ستصدمها سيارة اخرى ؟ او اي حالة من عشرات الحالات التي يحتويها كتاب « المستقبل قائم الآن » الذي ألفه « و . اوزبورن » ، واليكم مثالا نموذجيا منها :

« هذا التقرير قدمته الانسة دولاي من مسرح الكوميدي فرانسيز . وهو يتعلق بالنهاية المأساوية التي انتهت اليها المثلة الشابة الانسة ايرين موزا . كانت الانسة موزا في حالة تنويم مغناطيسي حينما سئلت ان كانت تستطيع ان ترى ما ينتظرها شخصا في المستقبل . فكتبت ما يلي :

« ستكون حياتي العملية قصيرة: انني لا اجرؤ على قول ما ستكون عليه نهايتي . سوف تكون نهاية مرعبة » .

ومن الطبيعي ان القائمين بأمر التجربة ، الذين اثرت عليهم هذه النبوءة تأثيرا عظيما ، قد محوا كل اثر لما كتبه الانسة موزا قبل ان يوظوها من نومها المغناطيسي . ولذلك فانها لم تكن تعرف معرفة واعية ما كانت قد تنبأت به لنفسها . ولكن حتى لو انها كانت قد عرفت ، لما تسبب ذلك في تحديد نوع الميثة التي لقيتها .

لقد تحققت نبوءة « ان حياتي العملية ستكون قصيرة » بعد بضعة اشهر . ومن المؤكد ان نهايتها كانت « مرعبة » . فقد انسكبت من مشطلة شعرها قطرات من محلول مطهر صنع من بعض المواد المعدنية فوق موقد مشتعل . وعلى الفور لفت النيران الانسة موزا ، فقد امسكت النار بشعرها وملابسها فأصيبت بحروق قاسية حتى انها ماتت في المستشفى بعد بضع ساعات (١) .

(١) آرثر. د . اوزبورن . المستقبل قائم الآن . (مع مقدمة بقلم ايلين ج . جاريت رئيسة مؤسسة دراسات الباراسيكولوجي) نيويورك ، كتب الجامعة ، ١٩٦١ .

فاذا كان من الممكن ان تفسر مثل تلك الحالات عن طريق التليثاني والعقل الجمعي ، فعلى المرء ان يضمنها فكرة ان الماضي والمستقبل يقعان ايضا في متناول العقل الجمعي - وهذا هو افتراض يونج فيما يتعلق بكتاب « اي تشينج » .

ان الفكرة التي توحى بها حالة الانسة موزا هي الفكرة التي لا بد قد طرات لعدد كبير جدا من الناس - ربما حينما يستيقظون في منتصف الليل : فكرة ان حياتنا نوع من الاسطوانة الموسيقية او الفيلم ، نهايتها او نهايته - الى حد ما - مقرر سلفا . وانا اقول « الى حد ما » لاننا نمتلك جميعا احساسا لا يمكن انكاره بحرية الارادة في لحظات الازمة او الاستثارة الشديدة . انها فكرة من الافكار التي طرات للعديد من الباحثين عن الغيب : ان الحياة اساسا لعبة من نوع ما ، شرطها المسبق هو ان على لاعبيها ان يعانون من فقدان الذاكرة ، ثم يكون عليهم ان يتكيفوا بأفضل صورة تمكنهم مع سلسلة الاختيارات التي تعرض لهم على مدى ثلاثة ارباع قرن . وفي هذه الحالة يمكن ان نعتبر المجرمين هم الخاسرين ، فهم الذين اختاروا اسوأ البدائل الممكنة ، اما الرابعون فلا بد ان يكونوا اولئك الذين اقتربوا من الانتصار على عادة « النسيان » التي نبدأ بها اللعبة . وفي رواية « الغريب الفامض » طرح مارك توين تأكيدا مقلقا يقول ان الله ارهقه ان يكون وحيدا في كون خال فخلق استعراض « خيال الظل » الذي ندعوه الحياة ، حيث لا يوجد من هو حقيقي سواه هو ، اما الآخرون فكائنات آلية ، صنعت بحيث تبدو كالحية . ان مؤسس علم العلم scientology ل . رون هابارد ، يقول ان الناس آلهة اخترعوا العالم ليكون لعبة لهم ، « هبطوا » اليها ، ثم اصبحوا ضحايا فقدناهم ذاكرتهم ، وهكذا وقعوا في فخ لعبتهم . ولسنا هنا بحاجة الى الاشارة الى ان كل الاديان العظيمة تؤمن بالرأي القائل بان جوهر الانسان وجوهر الله واحد . ولقد صاح نيجنسكي (١) في لحظة جنونه « انا اله ، انا اله » .

وبمناسبة تلك اللوحات عن المستقبل ، من المهم ان نضع في اعتبارنا آراء

(١) نيجنسكي - فاسلاف (١٨٩٠ - ١٩٥٠) رافض باليه روسي بولندي المولد - كان الرافض الاول في فرقة الباليه الامبراطورية في بتروجراد (قبل الثورة) عام ١٩٠٧ ، وتلقى في باديس ، في الرقصات التي صممها دياجيليف العظيم ، وفي باليهات اخرى كثيرة لكبار الموسيقيين الروس والفرنسيين . اصابه في نهاية حياته الجنون ، ودخل مصحفا عقليا حيث مات . يعتبر رمزا في علم النفس الحديث للترجسية الجسدية ، وكتب عنه ويلسون دراسة جيدة في كتابه الاول « اللامنتمي » . (ه . م .)

شاعر آخر ، وهو « و . ب . بيتس » (٢) الذي بدأ أيضا بقبول التليبائي باعتبارها « فرضية الحد الأدنى لعمله » . لقد استثير اهتمام بيتس بالبحث عن القيص على يدي « ماري باتل » خادمة خاله جورج بوليكسفين التبي كانت تمتلك حاسة سادسة . كان باستطاعة بوليكسفين ان تقول لكم : « كم من المرات الكثيرة وصل الى البيت مصطحبا ضيفا على غير انتظار ، فوجد المائدة معدة لثلاثة اشخاص » .

« ذات صباح ، كانت على وشك ان تأتية بقميص نظيف ، ولكنها توقفت ، قائلة ان هناك آثار دم على صدر القميص وانها يجب ان تأتية بقميص اخر . وفي الطريق الى مكتبه سقط اذ كان يعبر فوق جدار واطيء ، وجرح نفسه فسال دمه حتى وصل الى قماش القميص في البقعة التي قالت انها رات فيها الدماء . وفي المساء قالت له ان القميص الذي ظنته ملوثا بالدم كان نظيفا تماما » . - (في كتاب - احلام يقظة ، الفصل السابع عشر) .

وفي لندن ، فيما بعد ، حضر بيتس جلسات تحضير الارواح ، والاحتفالات السحرية ، وانضم الى « جماعة الفجر الذهبي » التي كان يتزعمها شخص اسكتلندي غريب يدعى « ماكجريجور ماذرز » ، كان بيتس قد قابله في المتحف البريطاني . وقد قال بيتس ان ماذرز هذا كان هو : « الذي اقنعني بان الصور تتصاعد فتبرز امام عين العقل من مصدر اكثر عمقا من الذاكرة الواحية او غير الواحية » . وقد روت صديقة بيتس ، الممثلة فلورنس فار ، كيف خرجت لكي تتمشي مع ماذرز فلما وصل الى مرعى الاغنام قال : « انظري الى الاغنام . ها انا اتخيل نفسي كبشا » وكانت النتيجة غير العادية هي ان الاغنام راحت تجري خلفه . ويكتب بيتس قائلا :

« كان قد اعطاها قطعة من الورق المقوى رسم عليها رمز هندسي ملون فقال لها ان ترفعها امام جبهتها فوجدت نفسها تسير على حافة هضبة مرتفعة

(٢) بيتس - ويليام بطر (١٨٦٥ - ١٩٣٩) الشاعر والكاتب الدرامي الايرلندي العظيم ، وقائد حركة الميعت الايرلندي . تأثر بحركة « ما قبل راڤايل » الانجليزية في الثلث الاخير من القرن الماضي التي شملت فنون التصوير والشعر ، وكان من كبار شعرائها الاخوان دويلتي وبالمور وسويندون وفي فرنسا مالارميه ، وتأثر ايضا بويليام بليك وشيللي والرمزية الفرنسية وميتريك ، وبالديانة والسحر الهندوسيين . تصفحت اعماله مادة اسطورية خصبه من الميثولوجيا الكلتية ، وتميز شعره بكثافة رمزية اصبحت بالغة الغموض في اواخر ايامه . حصل على جائزة نوبل للادب عام ١٩٢٥ ، رغم ما عرف عنه من شذوذ الاطوار وغياب اللهن ، وكانت تتنابه حالات فيسوبة عقلية مندعباه الباكر . اصبحت متحمسا للنزعة الروحية ، وكانت زوجته ، جورجى ليس ، تمقد جلسات يومية لتحضير الارواح . (ه . م) .

تطل على البحر ، والنوارس وطيور الماء تتصايح فوق رأسها . .

وقد اعطاني رمزا مصنوعا من الورق المقوى وامرني بان اغمض عيني . وجاءت الرؤية ببطء ، لم تكن ثمة تلك المعجزة السريعة المفاجئة كما لو كانت ومضة سكين لامعة قد اخترقت حجاب الظلام ، ذلك ان مثل تلك المعجزة غالبا ما تكون امتيازا للمرأة ، وانما راحت تبرز امامي صور عقلية لم يكن بوسعي ان اسيطر عليها : صحراء وعملق هائل اسود يرتفع بجسده فينهض معتمدا على كلتا يديه من وسط كومة من الخرائب القديمة . وقد شرح لي ماذر ما رأيته فقال انني ابصرت واحدا من جماعة السمندل (♁) لانه كان قد اطلعني على رمز هذه الجماعة ، ولكن لم يكن من الضروري حتى ان اطلع على هذا الرمز ، فقد كان يكفيني تماما لو انه اكتفى بان خيله لي .

كانت تلك الرموز التي خطها ماذر على قطع من الورق المقوى مستمدة من « الكابالا » التي كان ماذر نفسه قد ترجم منها عدة كتب (او انه نشر لها اعدادا من عنده) تحت عنوان « كشف القناع عن الكابالا » . والكابالا (التي سيقال عنها ما هو اكثر من هذا فيما بعد) كمية ضخمة من التعاليم اليهودية الصوفية الغامضة القديمة بالاضافة الى عدد كبير من التعليقات على المخطوطات الموروثة ، وقد دونت لأول مرة في القرن الثالث عشر ، وهي تتساءل عن كيف امكن ان الله ، الذي يفترض انه كامل وابدي لا يتغير ، قد خلق العالم على هذه الصور المختلفة المتعددة المترتبة ؟ وتجبب الكابالا بانه قد خلق في البداية عشر « فيوضات » او ينابيع - تدعى سفيروث وهذه الفيوضات هي التي قامت بالفعل بعملية الخلق . وكان من المحتم ان تتجسد الـ « سفيروث » ومخلوقاتهما جميعا عن طريق الرموز ، وتلك « الرموز الكابالية » كما تدعى ، هي التي كان ماذر يستخدمها .

ولم يكن يبتس مقتنعا اقتناعا كاملا بأي شكل بماذر الذي كان شخصا ذا تكوين غريب شاذ الاطوار . وهو يقول انه حينما كان ماذر يأتي بزعم مسرف في مبالغته ، فان اصدقاءه كانوا يتسامحون معه ويتظاهرون بتصديقه : « كما لو كان شخصا في مسرحية من تأليفنا » (♁) وهذه طريقة مهذبة للقول بانهم كانوا يتسامحون مع كل شيء من جانبه بالنظر اليه باعتباره « شخصية » ذات تكوين خاص ، ولكن يبتس وقع فريسة لخدعة تأثير الرموز على العقل . « لقد مضى

(♁) السمندل Salamander نوع خرافي من السحالي ، جاء ذكره اول مرة عند بليني في حديثه عن حياة برابرة شمال الدانوب ، وعنه نقل البيزنطيون الذين نقل عنهم العرب والفرس . قال بليني انه نوع هائل الحجم من العقايا ، بارد كالثلج يصمد للنار . وقال انه قام بتجربة ، ولكن « المخلوق تحول في التو الى رماد » . (ه . م .)

(♁) « الترجمة ذاتية » ، نيويورك ، ماكملان ، ١٩٥٦ ، ص ١٨٧ .

وقت طويل قبل ان اعترف شخصيا بان للرموز قدرات موروثة ، ذلك انه بدا لي
لوقت طويل ان بوسع المرء ان يستوعب كل شيء عن طريق القدرة على تركيب
الخيال فوق الخيال ، او عن طريق التليباتي . . » (x)

لقد كان على استعداد تماما لان يقبل فكرة التليباتي ، بل وان يقتنع بقدرة
المرء على ان يعرض صورة جسمه في مكان آخر . انه يحكي ما حدث حينما كان
في باريس ، فخرج ذات صباح لكي يشتري الصحيفة ، وفي طريق خروجه مر
بالخادمة التي كانت قد وصلت حديثا من الريف . كان يفكر - في لحظة مروره
بها ، في انه لو ان كذا وكذا قد حدث ، لكان قد جرح ذراعه ، وفي ومضة بارقة
راى نفسه وقد ضمد ذراعه ووضعها في « علاقة » تربطها الى عنقه . وفي
عودته ، فوجيء بمضيفه ومضيفته يقولان له : « لماذا اذن قالت لنا الخادمة
منذ قليل ان ذراعك موضوعة في علاقة الى عنقك ؟ »

وهو يكتب ايضا قائلا : « ذات اصيل ، في نفس الوقت تقريبا ، كنت افكر
باهتمام شديد في احد الطلاب ، كنت لا اريد ان ابعث اليه برسالة ، ولكنني
كنت مترددا بشأن كتابتها . وبعد يومين وصلني خطاب من مكان يبعد عني
مئات الاميال حيث كان يعيش هذا الطالب . وقال في رسالته انه حدث في ذلك
الاصيل (حينما كنت افكر فيه بهذا الاهتمام) ان ظهرت امامه فجأة وسط حشد من
الناس في احد الفنادق ، وانني بدوت له صلبا متماسكا كما لو كنت قد ظهرت
له بجسدي . وراى الطالب زميلي ، ولكن لم يرني احد غيره ، فطلب مني ان
آتي ثانية حينما يكون الآخرون قد انصرفوا . قاخفت ، ولكنني عدت ثانية
في منتصف الليل فأعطيته الرسالة . اما انا ، فلم اكن اعرف شيئا عن هذا
الظهور مرتين » (١) .

وهذه قصة تشبه الحالات التي اشرنا اليها فيما سبق ، وهي تفسر الدهشة
الواضحة التي اصاب بوير حينما اتصل به درايزر بالتليفون لكي ينبئه بانه
(اي بوير) قد ظهر له . ويتماشى تفسير بيتس لمثل تلك الظاهرة مع ما قد
قيل هنا بالفعل . انه يقول : « ان طاقات العقل الاكبر والاعظم نادرا ما تنطلق
فَتقوم بدورها الا حينما تنحصر الاصابع من قبورها » - وهذا يعني انه يرجعها
الى « تحرير » من نوع غريب للاوعي . وهو يوافق على ان « رؤيا » فلورنس
فار لحانة الهضبة المرتفعة يمكن بسهولة ان تكون نوعا من التليباتي ، ان لم تكن
خيالا خالصا . ومع ذلك فانه يبدو هنا ان ثمة قدرا معقولا من الادلة التي تثبت ان

(x) مقالة عن السحر في كتاب « مقالات ومقامات » ، لندن ، ١٩٦١ ص ٤٨ . وقد نشرت

اول مرة في كتاب « افكار عن الشر والخير » .

(١) « مقالات ومقامات » ص ٣٧ .

الرموز قد انتجت صوراً عقلية محددة في استقلال كامل عن العقل نفسه . : « لقد كان الرمز نفسه هو الذي انتج ذلك التأثير ، او على الأقل لم يكن التأثير ناتجاً عن نيتي الواعية - ذلك لانني لو اخطأت فأمرت شخصاً ما بأن يحدد في رمز مختلف عن الرمز المطلوب - وقد كانت الرموز مرسومة على بعض البطاقات - لكان الايحاء بالرؤيا قد تم عن طريق الرمز الذي اشرت اليه ، وليس عن طريق افكاري التي لم احسن الربط بينها وبين الرمز الصحيح . . »

هكذا بدت الرموز غالباً مستقلة بشكل غريب عن العقول التي تستخدمها : انه يتحدث عن امرأة ايرلندية شابة ، « ظنت ان بغاحة حواء ، كانت من النوع الذي يمكن ان تشتريه من بائع الفاكهة ، ولكنها اغتت فنامت ، فرأت في نومها شجرة الحياة ، وارواحاً تنهد طول الوقت وهي تتحرك بين اغصانها بدلاً من النسج ، وتتغازل بين اغصانها كل انواع طيور الهواء ، وعلى اعلى اغصانها ، طائر ابيض يضع تاجاً على رأسه » . وحينما عاد يبتس الى البيت ، فتح كتاب ماذرز « كشف القناع عن الكابالا » فقرأ : « الشجرة » ، هي شجرة معرفة الخير والشر . . وفي اغصانها تستقر الطيور وتسكن فتبني امشاشها ، وللارواح ولللائكة امكنتها » . وهو يقرر انه وصل الى تلك الفقرة حينما فتح الكتاب عفواً في اول لحظة ، ولذلك فانها لا يمكن ان تكون تدخلاً تليبائياً من الصورة التي كانت في ذهنه هو . ومرة اخرى ، حدث ان كاتباً في احد مصارف غربي ايرلندا كان يبتس قد اوحى له بأن يفغر قليلاً ، فرأى الشجرة في حديقة تحيطها الجدران فوق قمة جبل ، فرأى الارواح تنهد عبر اغصانها ورأى للتفاح وجوها انسانية كانت تصدر عنها اصوات قتال . ان الصورة المأخوذة من كتاب « زوهار » وهو احد كتب الكابالا ، تستبدل هنا بصورة مأخوذة من جبل « المظهر » عند دانتي بفردوسه المسور عند قمته . اما اصواته المعركة (وقد سمعت فتاة اخرى صوت تصادم السيوف يصدر من قلب جذع الشجرة) فمن الواضح انه يمثل ما سوف يحدث اذا ما اكل التفاح . ويتصدى يبتس لتفسير كل ذلك بالحديث عن « روح العالم anima Mundi التي وصفها الفلاسفة الافلاطونيون . » كنوع من الذاكرة الجنسية : « مستقلة عن ذاكرة كل فرد متجسد على حدة ، رغم ان هؤلاء الافراد يشرونها ويخصيونها باستمرار بتصوراتهم وافكارهم » . اذ يكاد كل من شغل نفسه بمثل تلك الامور ان يكون قد وصل من خلال افغشاء او حلم ، على رمز او حدث غريب وجديد ثم عاد فعثر عليه بعد ذلك في عمل من الاعمال لم يكن قد قرأه او سمع عنه من قبل . ولم يتم حتى الآن تصنيف او ترتيب الامثلة التي تنتمي الى هذا النوع ، ولم تحصل الا على القليل جداً من التحليل الذي يمكن ان يقنع شخصاً لا علاقة له بالموضوع ، ولكن بعض هذه الامثلة تحمل ما يكفي من البرهان لاقناع اولئك الذين تصادف ان عبرت بهم امثال

تلك المواقف ، وهو برهان يثبت ان ثمة ذاكرة للطبيعة تكشف عن احداث ورموز القرون البعيدة . وقد تحدث الصوفيون من بلدان وازمنة متعددة كثيرة عن هذه الذاكرة . . » وهو يحدد الخطر الحقيقي الكامن في تلك « المعرفة القمرية » : « ربما يكون من الافضل انه لا يؤمن بها سوى عدد قليل ، لانه اذا آمن بها الكثيرون ، لهجر كثيرون البرلمانات والجامعات والمكتبات وهرعوا الى البراري الوحشة لكي يهدروا الجسد بهذا الشكل ، ويضيعوه سدى ، ولكي يسكتوا همسات وصرخات العقل القلق الذي اذا ما ظلوا يحملونه وهم احياء لعبروا الابواب التي يعبرها الموتى كل يوم ، لانه من من العقل يمكن ان يتحمل مشقة او يزجج نفسه بوضع القوانين او كتابة التاريخ او تحديد وزن الارض اذا ما بدت اشياء الابدية قريبة وفي متناول الايدي الى هذا الحد ؟ » وبرز الدوس هكسلي نفس النقطة بالحديث عن تأثيرات مادة المسكالكين في كتابه : « ابواب الادراك » : قائلا انه في عالم يتعاطى فيه الجميع الاهتمام بالامور الروحانية فلن تكون هناك حروب ، ولكنه سيكون عالما بلا حضارة ايضا .

يخطو يتس - اذن - الخطوة المنطقية التالية في هذه المناقشة - وهي الخطوة التي اتخذها يونج نفسه بعد ذلك بعدة سنوات : القول بان هناك ذاكرة للجنس ، تعمل عن طريق الرموز . ان من الممكن الوصول الى ذاكرة الجنس هذه عن طريق « اسكات همسات العقل القلق وصرخاته » ، اي عن طريق الوصول الى عمق مغين للسكون الداخلي ، حيث تكون في متناول ذاكرة الفرد المحدودة .

بل ان يتس يمضي الى ما هو ابعد من هذا فيقول ان « انواع العلاج السحري » التي تستخدمها الشعوب البدائية قد تنتج تأثيرها عن طريق الوصول بشكل ما الى تلك الاعماق البعيدة عن الوعي : « انني اظن ان ادوات او رموزا سحرية من مثل قشرة بدر الكتان ، او الماء المنبتق من شوكة منزوعة من شجرة دردار ، انما تقوم بعملها بان توقظ في اعماق العقل حيث تتمزج بالعقل الاعظم ، ثم تزداد ضخامة عن طريق الذاكرة العظمى ، نوعا من الطاقة الشافية او نوعا من القوة المغناطيسية الغلابة . وليست هذه هي ما ندعوها بانواع العلاج عن طريق الايمان ، ذلك انها قد استخدمت وبنجاح ، مثلما يؤكد تراث كل البلاد ، للتأثير على الاطفال وعلى الحيوانات ، وهي تبدو لي في صورة الدواء الوحيد الذي امكن ان تستخدمه ايدي القدماء بامان كامل . . » ثم يختتم كلامه قائلا : « انني لا استطيع ان افكر الآن في رموز اقل مما ابدعته القوة التي هي اعظم من كل قوة اخرى ، سواء استخدمها بوعي اساتذة السحر ، او استخدمها بطريقة نصف لا واعية عن طريق خلفائهم ، الشاعر والموسيقي والفنان » .

ها هي اذن نظرية عن السحر تستطيع ان تغطي (تستوعب) كل الظواهر

التي تم وصفها حتى الآن في هذا الكتاب ، من التواصل الروحي البسيط ، الى التعقيدات الفرية لاجدية الشجرة الدوريدية واشكال تجسد الربة البيضاء التي وصفها جريفز .

ومن المهم ان ندرك ان قدرا هائلا من تجربتنا الانسانية انما هو في حقيقته استجابة لنوع ما من الرموز . . وهذا هو ما يتميز به الكائن الانساني : ان الرمز يستطيع ان يسيطر على الخيال وان يسبب استجابة اكثر قوة من الواقعة الحقيقية التي يمثلها . ان السيطرة على قوانا الاكثر عمقا انما تتحقق من خلال رموز اكثر مما تتحقق من خلال افعال الارادة المباشرة . . . فالرموز تستطيع ان تستثير استجابة حتى حينما يملكني الضجر او يستبد بي الاجهاد وحينما تكون حواسي قد فقدت اهتمامها بـ « الحقيقة » ؛ فاذا كان ذلك هو ما ظل يحدث طوال اكثر من مليونين من السنين من النشوء والتطور ، اليس من المقبول اذن ان نفترض ان رموزا معينة قد وجدت لنفسها مكانا دائما في اعماق النفس الانسانية ؟ قلماذا ينبغي ان يكون من العقيدة العلمية الثابتة ان نقبل التأثير « الفرزي » لرمز جنسي على الخيال الانساني ثم ننكر تأثير الرمز الديني الذي قد يكون نفوذه على الخيال الانساني بنفس القدر من العمق والتأصل ؟

ومن المهم ان نلاحظ انه حينما وصل ييتس الى مرحلة محاولة انتساج « نسقه الرمزي » الخاص فان القمر هو الذي اصبحت صورته المركزية . فبعد ستة عشر عاما من كتابته لمقاله عن السحر (وهو المقال المنشور في كتاب : افكار عن الخير والشر) تزوج ييتس من آنسة تدعى « هايدليز » ، وبعد زفافهما بأربعة ايام بدأت العروس في انتاج كتابات اوتوماتيكية . وفي مقال منشور في كتابه « عبر الحب الى القمر الصامت » ، طرح ييتس سؤالا عما اذا لم يكن من الممكن ان نضع على التقويم علامة تحدد موعد ميلاد شخص من نوع نابوليون او المسيح . وقد حاول « المرسل » المجهول الذي استخدم يد زوجته ان يجيب على هذا السؤال عن طريق انتاج نسق من الرموز قائم على وجوه القمر الثمانية والعشرين وعلى نوعين من الناس : اولئك الذين يحصلون على السلطة من خلال كفاحهم ضد الظروف ، واولئك الذين يحصلون على القوة من خلال كفاحهم ضد انفسهم .

ويقترح هذا « النسق » في تعقيده من تعقيد ذلك النسق الذي اوضحه جريفز في كتاب « الربة البيضاء » ولكنه اكثر تحكيميا الى حد كبير ، او انه يبدو بهذا الشكل على الاقل . فالتناس الذين ينتمون الى كل وجه من وجوه القمر الثمانية والعشرين يتمتع كل منهم بأربع مجموعات من الخصائص : (١) الارادة بما يعني توضيح اي نوع هم من الاشخاص اساسا : البطل ، ام الانسان الحسي ، ام الانسان المسوس ، الخ (٢) القناع - اي الوجه الذي يتدعه لكي يظهره للعالم (وهو الوجه الذي غالبا ما يكون عكس شخصيته الحقيقية) . (٣) العقل الخلاق -

وهذا يعني توضيح ميله الابداعي الطبيعي : الميل الذهني ، ام الميل العاطفي ، ام الميل الى التعميد الذاتي ام البساطة . . الخ . (٤) ما يسميه يتس : « جسم المصير » وهو الذي يعني ببساطة مصير الانسان وقدره ، او بما يعني ما يحدده قانون النجوم .

ان لكل من « القناع » والعقل الخلاق احتمالين ، فيوسع كل منهما ان يعبر عن نفسه بصدق ، او بطريقة زائفة ، ان يتس - على سبيل المثال - يمنح اسم « المتقدم » او « الرائد » لانسانه النموذجي الذي نعرفه في مرحلة نيتشه الثانية عشرة . والقناع الذي يخلقه يكون نوعا من « الافراط الذاتي » حينما يكون صادقا ، ونوعا من « التقريط الذاتي » حينما يكون زائفا ، ذلك انه يخلقه لكي يواجه به العالم . والتعبير الحقيقي الصادق عن قدرته على الابداع والخلق هو الفلسفة الذاتية ، والتعبير الزائف هو الصراع بين شكلين من التعبير الذاتي . ويظل هذا التصور غامضا حتى يحاول المرء ان يستبدل جيمس جويس بنيتشه (١) ، حينئذ تصبح رؤية المعنى في حيز الامكان : ان الرائد المتقدم الذي يكون قناعه هو الافراط الذاتي (ستيفن ديدالوس (٢) ، « شيم » صاحب

(١) يقصد ويلسون بمقابلته بين جويس ونيتشه ، المقابلة بين ميزات جويس العقلية والادبية من داب ومثابرة وصبر طويل وتخطيط هندسي صارم ومسبق يعتمد على الجهد الذهني التركيبي لا على الحس ، من اجل تحقيق بناء فني سيمفوني يعتمد على الكشف عن داخل الدهن وتفاصيل الواقع والعلاقة بينهما بالاعتماد على الاسطورة والتحليل اللغوي والمونولوج الداخلي ، وبين مميزات نيتشه العقلية والادبية ، مميزات الرؤية اللامعة الصاعقة الشاملة التي تغلق بناء كاملا في ومضة بارقة من ذهن مخلق وجبار ، يرى فيه الاسطورة مجورا للغير هائل من المعاني ، او لكل المعاني . (ه . م .)

(٢) ستيفن ديدالوس - بطل رواية جيمس جويس الاولى « صورة الفنان في شبابه » ، ثم احدى الشخصيات الرئيسية في الرواية التالية « يوليسيز » . في « الصورة » عاش ستيفن مراحل الطفولة والصبا في المدرسة والمنزل ، ثم مراحل المراهقة والشباب الباكر ، وكان يعاني من اكتئاب الفكري والشعوري في مدرسة الجزويت (اليسوعيين) ، ثم من توتره بسبب الخلاف بين والده وعمته حول قضايا ايرلندا السياسية ، ثم نشهد بداية اهتمام ستيفن بالفن والميتافيزيقا وعلم الجمال ، وقصص حبه الاولى ، وتورده الاول ضد فقر أسرته وتمصبه ، وفقد الكاثوليكية ، وفقد ايرلندا نفسها . كان يشك في كل شيء ، لكنه يشتاق الى الايمان بكبرياء وحساسية فهدج وطنه الى القارة . وفي يوليسيز ، يكون قد عاد الى ايرلندا ، يأكله الاحساس بالام لانه رفض ان يصلح الى جوار والدته المحترمة ، ويعود الى الكاثوليكية ، ولكن شعوره بالقرب ازاء والده الطبيعي ، يجعله اشبه بتليماكوس الاوديسة ، في بحثه عن « ابيه » . وفي ذروة الرواية ، يعثر ستيفن على ابيه الروحي ، في شخص ليوبولد بلوم ، اليهودي ، المتغرب الى

الابند . (ه . م .)

القلم (١) وهو الذي تعبر قدرته على الخلق والابداع من نفسها بصورة مثالية باعتبارها نوعا كثيفا من الذاتية . وفي رواية «يقظة فينيجيان (٢)» تصبح هذه الذاتية غموضا متعمدا في التعبير : انه الغموض الناشئ من الصراع بين الرغبة في الوصول الى جمهور القراء وبين الرغبة في السرية والشدوذ القريب .

(١) شيم ، حامل القلم : هو «جيري ايويكر» ، من شخصيات رواية جويس الثالثة الكبيرة : «يقظة فينيجيان» ، وهو احد التوامين ، ولدى شخصية الرواية الرئيسية ، الاب «همفري تشيمبدين ايويكر» . وهو التوام الذي سيكون المشكلة الرئيسية للأسرة ، لانه ميال الى العزلة ، مولع بالقراءة ، لا يكف عن الكتابة ، الامر الذي سيجعله متهمًا بالانانية ، وبغلة الوطنية ، وهي نفس التهمة التي وجهت الى جويس ذاته طيلة حياته . ولذلك يعتقد النقاد انه صورة جويس لنفسه في الرواية ، مثلما كان سيفن ديدالوس في «الصورة» ثم في «يوليسيز» ومثل «ريتشارد» في مسرحيته الوحيدة «المنفيون» - ومن هنا يأتي مغزى ربط ويلسون بينهما ، وقد اطلق على «جيري» في الرواية لقب او اسم : «شيم حامل القلم» تحويرا من «جيمس الكاتب» احد قديسي ايرلندا الاوائل ، او من «شوماس» احد شهدائها القدماء ، ويعتقد النقاد ايضا انه ارتبط عند جويس بتصوره عن «سويفت» الكاتب الانجليزي المحافظ الكبير ، الذي استخدم جويس ملامح كثيرة من حياته في اعماله ، وخاصة في هذه الرواية . (هـ . م .) .

(٢) يقظة فينيجيان : آخر روايات جيمس جويس واكثرها اهمية ، نشرت عام ١٩٣٩ ، بعد سبعة عشر عاما من العمل المتواصل ، وكانت الناء كتابتها تعرف باسم «العمل الذي يتقدم» . من الناحية الحرفية ، يمكن اعتبارها تسجيلا لاحلام وكوابيس وهواجس وذكريات واحداث اليوم السابق مباشرة من حياة السيد «هـ . ش» ايويكر «مدير احد الفنادق في دبلن ، هو واسرته اثناء نومهم : والاب نفسه يعتبر تجسيدا لمعنى الذكورة في الكون ، نراه باسماء مختلفة ، منها آدم ، ولويسيفر وبعض الاسماء الاخرى المستمدة من التاريخ القومي الايرلندي ، وبعضها يشير الى انه بروتستانتية من اصل اسكتلندي - اي انه «غريب» آخر في ايرلندا مثل بعض ابطال جويس ، ثم الام ، هاجي ، تجسيد معنى الانوثة في الكون ، ولها اسم آخر يربطها بالنهر والبحر ، ثم التوامان جيريكويكين ، والاخير يطلق عليه «شون الرسول» والذي سيكون رمزا لرجل العمل والفعل في الرواية ، مقابل اخيه الشاعر الحالم (حامل القلم - الهامش السابق) ، ثم الابنة ايويويل ، البطلة الثانية للرواية ، والجانب الثاني لعنصر الانوثة في الكون والتي تربط جويس بينها وبين ايويول (في اسطورة الفارس تريسترام) وهي موضوع الحلم العاطفي لابيها ، والتي تبدو مع امها صوريين من المراتين اللتين احبهما سويفت طوال حياته . ومن الناحية الفنية ، تكاد الرواية ان تكون تعبيراً فنياً عن تاريخ البشرية كله ، منظورا اليه من النواحي الفكرية والبنائية والانسانية ، على اساس فلسفات الغرب الكبرى في عصر جويس ، ومن بين من تجسدت افكارهم في خطة الرواية وبنائها: فرويد وفريزر وليفلي وبروول ونيكو وبرونو - وكلها افكار تدور حول اللاوعي والحلم والدافع الجنسي ، والدين والاسطورة والفولكلور والادب الشعبي ، ودورية مراحل التاريخ الحضاري والنزعة الثنائية وصراع التناقضات . (هـ . م .) .

يبدو كل هذا اكثر تعقيدا مما هو في الحقيقة . ان الفكرة المحورية فسي الكتاب لبيسطة جدا : ان تلك المميزات او الخصائص الاربعة (او « الملكات » كما يسميها ويتس) تمر عبر مراحل مختلفة من الاكتمال ، مثل اوجه ومراحل نمو القمر . وهكذا ، فعلى سبيل المثال ، حينما يتحول المرء الى المرحلة العشرين ، مرحلة الانسان المحدد ، فيكتشف شيكسبير وبلزاك ونابوليون ، كأمثلة لما ينبغي ان يكتشفه ، فان المراحل جميعا ، تشرع - ببطء - في اكتساب معنى محدد . ان الشكل الحقيقي « للقناع » هو النزعة التقديرية - البالغة الوضوح تحت كل من الاقنعة الثلاثة - وشكلها الزائف هو الخرافة . وان الشكل الحقيقي لـ « العقل الخلاق » هو اعطاء القناع تركيبة درامية - ومرة اخرى اقول ان هذا امر يسهل ادراكه في مسرحيات شيكسبير وفي روايات بلزاك - اي اعطاء النزعة التقديرية تركيبة درامية (وحيانا اعطاء الخرافة مثل هذه التركيبات) . اما الشكل الزائف للعقل الخلاق فهو تدنيس اللات وانهكها . ان مصير الرجل المحدد هو النجاح المفروض للفعل ، واعني بهذا نوعا من النجاح يجر الرجل المحدد وراءه مثلما يسجل عبد وراء عربة حربية ، وقد يسيطر عليه ويبتلعها .

ان أبسط الطرق لادراك « رؤيا » وفهمها هو البدء بهذا الشكل - عن طريق دراسة تلك الرؤيا . انه لمن الاكثر سهولة بكثير ان تدرك مغزى « مرحلة » ما من خلال بازل (١) او اوسكار وايلد او شيللي مما يمكنك ذلك عن طريق دراسة مكانها في الدائرة القمرية .

وترتبط هذه المراحل المختلفة ايضا بمراحل معينة من التاريخ ، « تبرز » كل منها نموذجا معينا من الشخصيات المسيطرة : المسيح او نابوليون او باسكال او بايرون .

اما ان كان القاريء سيختار ان يقبل كل هذا حرفيا ، فانه امر يرجع الى المزاج الشخصي . ويتس نفسه ، ينهي المقدمة بان يشرح ، دون تركيز ولا اهتمام ، انه لا ينظر الى كل هذا كما ينظر الى الشيء الحقيقي الصادق ، وانما مثلما ينظر الى الترتيب « الاسلوبي » او النمطي للتجربة ، يمكن ان يقارن بالمكعبات في رسم من ابداع ويندهام لويس . ولكن الرسام « يفرض » رؤياه الوجدانية الخاصة على الحقيقة الواقعية ، ذلك لان « الحقيقة الواقعية » هي كل الاشياء بالنسبة لكل البشر ، وهو يشعر بدافع داخلي ملح ، يفرض عليه الرغبة

(١) بازل - تشارلز ستوارت (١٨٤٦ - ١٨٩١) احد القادة الوطنيين في ايرلندا ، ومن السياسيين البارزين في حركة استقلالها ، تحطمت حياته السياسية بسبب قضية شخصية لعمد اعداؤه ان يجرؤوا اسمه فيها . تردد اسمه كثيرا في اعمال جويس ، باعتباره احد ابطاله فسي صباه ألباكس . (ه . م) .

في اطلاعهم على ما هي عليه بالنسبة له هو . وبنفس الشكل يجب روبرت جريفز على التساؤل عما اذا كان يعتقد ان الشعراء ملهمون « بالمعنى الحرفي » بواسطة الربة البيضاء ، بان يقول انك تستطيع ان تقبل هذا المعنى مجازيا او ان تقبله باعتباره حقيقة واقعة ، مثلما تنظر الى مسألة الوحي الذي كان يهبط من الله على انبياء العبرانيين . وان تأكيد جريفز لان « مهمته » التي كان يرغب في انجازها بكتابة كتاب « الربة البيضاء » كانت هي تزويد الشعراء بنوع من علم النحو او الاسطورة الشعرية الخاصة بهم ، انما يماثل اقوال ييتس الشبيهة باقوال العرافين او الكهنة الاشباح : ولقد جئنا لكي نعطيك صورة استعارية للشعر . ولكن الشيء الهام هو ان نعرف ان « الربة البيضاء » و « الرؤيا » مرتبطتان ارتباطا وثيقا بكتاب « اي تشينج » وبالكابالا : فكل هذه محاولات لتنظيم « المعرفة القمرية » ، احساسنا الحدسي بالمعاني وراء الحقائق الواقعية متحولة بذلك الى نظام من نوع ما . ان اهمال تلك المحاولات وصرف النظر عنها باعتبارها خرافات او محض خيال ليس سوى ضلال كامل عن الهدف والمعنى . ان نوع المعرفة الذي نستخدمه لكي نجتاز يوما من ايام العمل في احد المكاتب لهو نوع من المعرفة واع ومنطقي . ولكننا نعيش ايضا على مستوى اكثر حدسية من هذا ، ومن الممكن ان تقارن هذه المعرفة الحدسية باطراف الاعصاب على جانبي السمكة التي تستطيع بها ان تحس بالتغيرات في درجة حرارة الماء ودرجة ضغطه . وحينما اكون متعبا ويملكني الانقياض ، تتوقف هذه القدرات الحدسية عن العمل واصبح عرضة للتأثر بالاحداث العابرة . وحينما اكون في صحة جيدة شاعرا بالنفأول ، فأنني اشعر بنبض الحياة وجيشانها من حولي مثل السمكة . ان شاعرا في حالة من القدرة على « التلقي » الكثيف قد يشعر بانه يشبه العنكبوت كامنا وسط نسيجه ، يتلقى الدبدبات من كل ارجاء الكون . هناك احساس بوجود قوانين خفية ، بوجود « احكام او قواعد للعبة » ليست هي قوانين المصادفة ولا قوانين الطبيعة . فهل يأتي « النظام » او « النسق » الذي تخضع له الرؤية من خلال ارواح لا اجساد لها ، تحدثت من خلال زوجة ييتس ، ام انها كانت نتاجا لعقل ييتس اللاواعي بعد نصف قرن من الدراسات في علوم الفيب ؟ ليس هذا بالسؤال الهام . فلنفكر في الكتاب باعتباره شبكة تحاول ان تصطاد انواع المعرفة الحدسية القمرية التي تروغ من شبك العقل والمنطق ، وتحاول ان « تفرس » الاحساس بانك عنكبوت كامن في مركز نسيجك او سمكة تعوم وسط مياه تيارها . انني على استعداد لان اصدق ان ييتس كان امينا كل الامانة في وصفه لكيفية قدوم « الرؤية » اليه . ولكن حتى اذا كان من الممكن ان ثبت انه كان يبط الحقيقة . ويزيد من ابعاده ، فان هذا لا يغير من قيمة الكتاب . فما الذي يهم في معرفة من الذي نسج الشبكة ان كانت قد اصطادت السمكة ؟ .

يشترك جميع بني الانسان في اشتياق واحد شائع : ان يهربوا من ضيق

حياتهم ، وما تسببه الاشياء المحيطة بهم بشكل مباشر من اختناق . ومثلما يقول اينشتين ، فان هذا هو ما يدفعهم الى الرغبة في الهرب من المدن ، والى ان يدخلوا سلام الجبال في عطلات نهاية الاسبوع . ان ضيق حياتنا يجعل الحواس تنفلق ، حتى نشعر بالاختناق . وهذا ايضا ما يفسر السبب الذي جعل اوزينسكي يجد « نكهة من حقيقة من نوع غريب » في الكتب التي تدور حول قارة الاطلانتيس والسحر . انه لمن المهم لنا ان نحس بان ثمة نوعا اخر من المعرفة ، مختلفة كل الاختلاف عن القوانين المنطقية التي تحكم الوجود اليومي ، وان هناك حقائق غريبة خلف الجدران التي تحيط بنا ، ان الفن والموسيقى والفلسفة كلها طرق للهرب من ضيق الواقع اليومي ، ولكنها تتطلب جميعها قدرا كبيرا من المجهود الواعي النابع من الداخل . فان عليك ان تبذر قبل ان تتمكن من الحصاد .

وبالمقارنة ، فان « السحر » او علوم انغيب ، ليس سوى طريقة بسيطة مباشرة للهروب من ضيق الحياة اليومية . ان دارس علوم انغيب ، بدلا من ان يتحول الى العالم الخارجي ، الى عالم المؤلفين الموسيقيين او الفلاسفة العظام ، فانه يتحول الى الداخل مباشرة ، فيحاول ان يفوس لكي يبلغ اعماقه السفلية المظلمة . وهذا هو ما يوضح السبب الذي جعل اقدم اشكال السحر واكثرها بساطة اشكالا رمزية . فلم تكن الرموز تتمتع فقط بالقدرة الغريبة على التقارب مع العقل اللاواعي ، وانما هي ايضا سهلة الادراك ويسهل ان تكون موضوعا للتأمل . وهذا هو ما يفسر التأثير الهائل الذي مارسه كتاب « اي تشينج » عبر كل هذه القرون الكثيرة . وهو ايضا ما يفسر الشيوع والشعبية التي حظي بها اكثر انظمة المعرفة الرمزية الغريبة اهمية ، وهو « التازوت » الذي يجب الان ان نبدأ فحوصه .

من اكثر الاشياء غرابة فيما يتعلق بمجموعة اوراق « التاروت » هو ما يبدو من عدم وجود اية اساطير تتعلق بالاصل الذي جاءت منه ، رغم ان عالم لغويات من القرن الثامن عشر ، هو الكونت دي جيبيلين ، اعلن انها في اساسها عمل مصري قديم كان يدعى باسم « كتاب توت » (١) ولكن هذا كان قبل ان يساعد « حجر

(١) كتاب توت - اول واقدم كتب السحر المصرية القديمة . اكتشف على مراحل متتالية ضمن برديات الفيوم ، ثم في برديات الاهرام (الجيزة - البدرشين) وقام بترجمته عدد كبير من المصنوعيين الانجليز والاكاد والفرنسيين . يرجع تاريخه الى عصر الدولة القديمة في الاسرات الاولى ، او الى ما قبل ذلك بقليل ، وينسب الى ايمحوتب المهندس والملك والطبيب الاعظم في الاسرة الثالثة (نحو ٥٠٠ ق . م) . يستمد الكتاب اسمه من الاله « توت » مكتشف الكتابة والسحر والارقام ، الذي علمها لايزيس اناء صراعها مع ست ، واصبح عضوا في التاسوع الالهي المصري القديم . (هـ . م . ٢)

رشيد « الدارسين على قراءة الهيروغليفيات المصرية . ولا بد من الاعتراف بان البحوث التالية لذلك لم تكشف عن وجود ما يدل على وجود مجموعة «التاروت» في مصر القديمة . وربما تكون فكرة مصرية « التاروت » قد نشأت من الحقيقة المعروفة القائلة بأن قارئ الطالع من الفجر كانوا يستخدمون « التاروت » في القرن الخامس عشر . ولكن فكرة ان الفجر هم الذين ابتكروا « التاروت » انما ينقضها الدليل القاطع الذي يثبت ان هذه المجموعة كانت معروفة في اسبانيا وفرنسا والمانيا قبل ذلك بقرن واحد كامل على الاقل . وقد صنع رسام يدعى جرينجونير مجموعة من اوراق « التاروت » لملك فرنسا المجنون تشارلس السادس عام ١٩٣٢ - ما زالت سبع عشرة من اوراقها محفوظة في المكتبة القومية National Bibliotheque في باريس . ولكن طبقا لما يقوله دي جيفري ، في كتابه « مختارات من علوم الغيب » الصادر عام ١٩٣١ ، فانه كانت هناك آثار من اوراق « التاروت » في المانيا في عام ١٣٢٩ ، اي قبل قرن كامل من ظهور الفجر في اوروبا .

ان مسألة الا يكون لعمل من نوع مجموعة اوراق « التاروت » اي اصل معروف - حتى ولو كان اصلا اسطوريا - قد لا تسبب الكثير من الدهشة ، حتى يبدأ المرء في دراسة المجموعة . فالمجموعة تتكون من سبع وثمانيين ورقة ، ومن الممكن بالفعل ان تقسم الى مجموعتين: المجموعة الاولى تتكون من اوراق لعب تشبه اوراقنا العادية التي نلعب بها ، باستثناء انها تحتوي على صور بالاضافة الى الارقام . ثم هناك اثنتان وعشرون ورقة تتضمن رموزا نموذجية مختلفة من القرون الوسطى مثل « المهرج » ، « الكاهنة الكبرى » ، « الخنثى » ، « البابا » ، « عجلة الحظ » وما الى ذلك . وتظل اوراق الرموز هذه دون تغيير عبر القرون كما يظل النظام الذي تقوم عليه كما هو دون تغيير . فلو ان المجموعة كانت ابتكارا تحكميا من صنع قارئ الطالع من الفجر ، لكان من حق المرء ان يتوقع وجودها في اشكال ونسخ عديدة . وقد اعلن الكونت دي جيبيلين ، الذي كان يكتب قبل الثورة الفرنسية ، على سبيل المثال ، ان صورة تمثل « الرجل المشنوق » ، وهي رسم لرجل مشنوق معلق من قدم واحد ورأسه الى اسفل ، انما هي نتيجة لخطأ واضح وقع فيه صانع اوراق اللعب الاوائل : وقال ان التصميم الاصلي للصورة كان يمثل الحذر والبراعة ، في شكل رجل يقف على قدم واحدة ، ويمد قدمه الاخرى بحذر بحثا عن الموضع الذي سيضعها فيه . انه رجل ذو « قدم معلقة » بتعبير آخر . ولكن مجموعة اوراق « التاروت » التي صنعت في عام ١٣٩٢ للملك شارلز الخامس ، تتضمن رجلا معلقا من قدمه وقد تدلى رأسه الى اسفل ، مثلما نرى في كل التصميمات الاخرى ، وكان هذا قبل وقت طويل من ظهور الاشياء التي من قبيل طابعي اوراق اللعب .

اذن ، فما الذي تعنيه ورقة الرجل المشنوق ؟ ان لدي عددا كبيرا من النسخ لها في طبعات مختلفة ، وكلها تشترك في اشياء معينة . ان الرجل معلق في عارضة خشبية على شكل صليب في مشنقة ، وقد ربط اليها بقدم واحدة . اما الساق الاخرى فممنثية ، وقسمها السفلي يتقاطع مع الساق الاخرى عند الزوايا الصحيحة ، صانعا بذلك صليباً على شكل حرف T بالفرنسي . ومن الغريب تماماً ان الوجه لا يعلوه اي تعبير ينم عن المعاناة او الاحساس بالالم ، وهناك هالة ذهبية اللون حول رأسه ، هي في مجموعة اوراق الملك تشارلز السادس ، ما تصنع شعره ببساطة . وقد اقام اليغاز ليفي ، وهو دارس لعلوم الغيب ذو خيال خصب في القرن التاسع عشر (١٥) اقام كتابه : « قوانين وطقوس السحر الاسود » ذي الاثنين والعشرين فصلاً على الاوراق القوية الاثنتين والعشرين في مجموعة التاروت ، وهناك قسم صغير في الفصل الثاني عشر (ورقة الرجل المشنوق هي الورقة الثانية عشرة) وقد خصص هذا القسم لتفسيران الرجل المشنوق رمز لبروميثيوس ، انفجست قدماه في السماء ، ويكاد رأسه ان يلمس الارض ، « انه القدير الحر الذي اضحى قريباً ، وهو كاشف حجب الغيب الذي حاصره الموت » . وهذا كله كلام جميل جداً ، ولكن قدمي الرجل المشنوق لم تنفرسا في السماء ، كما ان رأسه لم يلمس الارض . ان م. ي. وايت ، زميل بيتس ودارس موضوعات السحر ، يرداد اهتمامه بالموضوع في كتابه الخاص عن « التاروت » ، فيقدم تفسيراً غامضاً قائلاً : « اننا قد نفحص كل حرف مما نشر من التفسيرات ، ثم لا نجد في النهاية الا قبض الريح » ثم يمتطي في تفسيره قائلاً : « ان ذلك الذي يستطيع ان يدرك ان قصة طبيعته الاسمي قد اختزلت وتضمنت في داخل هذا الرمز سوف يتلقى من التلميحات ما يوحي بانه من الممكن ان تحدث نقطة عظمى . . » ثم يريد في كلامه ما يوضح انه رغم صرفه النظر عن كلام ليفي باعتباره نوعاً من الجهل ، فانه لا يعرف المزيد هو نفسه .

اما اوزبنسكي فقد كتب فصلاً شاملاً مفصلاً بالخيال عن « التاروت » في كتابه « نموذج جديد للكون » الذي كتب فيه قصائد نثرية حول كل ورقة من الاوراق القوية الاثنتين والعشرين في المجموعة . انه يترك صورة الرجل المشنوق لكي تحتل المكان الاخير ، ثم يكتسب عندها لغة النبي من انبياء الكتاب المقدس ، ويقول :

وسمعت صوتاً تحدث الي يقول :
« امسك لسانك ، فهذا هو الرجل الذي رأى الحقيقة
وعرف من العذاب ما لا تستطيع تعاسة على الأرض
ان تسببه ابدا . . . »

(١٦) انظر القسم الثالث - الفصل السادس .

وهكذا يستمر طوال نصف صفحة كاملة . ورغم ما يذكره عن جنة عدن ، وأبي الهول ، وجهنم المظلمة ، يظل اللفز قائما . فما الذي يفترض ان تمثله هذه الورقة ؟ لماذا يتدلى رأسه الى اسفل وقد علق من قدم واحدة ؟ ان ت . س . اليوت يشير مرة واحدة في قصيدة « الارض الخراب » (١) الى الرجل المشنوق ، ويقدم تفسيراً في احدى ملاحظاته يقول انه يربطه بشكل تحكمي ودون تبرير الى « الاله المشنوق » الذي ذكره فريزر في كتاب « الفصن الذهبي » (٢) . ومع

(١) الارض الخراب - أشهر اعمال الشاعر الإنجليزي الحديث ت . س . اليوت ، واعتبرها النقاد الفريسيون أهم الاعمال الشعرية في هذا القرن . اقامها اليوت على اساس العزف على اوتار التناقض بين الحياة الخالية من المعنى ، فتصبح نوعاً من الموت ، وبين الموت في ظل عقيدة ومعنى فينفضي الى حياة ابدية . والارض الخراب عمر عقيم ، مجذب وميكانيكي وكاذب . يعيش في مدينته كالجهيم ، وبحته عن القوة من خلال المجردات الجوفاء بحث عيشي وفارغ - رمز به اليوت الى القرن العشرين ، الذي يهجر التراث القديم ويصبح معادلاً للموت والجمود . والامم اليوت قصيدته على اساس ثروة هائلة من الاساطير والحكايات الشعبية والرموز الدينية ، المسيحية والوثنية في حضارات مختلفة . والحقيقة ان اليوت في القسم الاول من القصيدة (دفن الموتى) اشار الى اوراق التاروت ، حينما تقوم العرافة « مدام سوزو ستريس » بقراءة الطالع للبطل (الشاعر الفارسي) باستخدام الاوراق ، والشخص الذي يذكرها اليوت على الاوراق ، هي : البحار الفينيقي الفريق ، ممثلاً لارباب الفصح في الاساطير الفينيقية القديمة ، والذين كانوا يقدمون فرائيس لاختصاب الارض ، وسيعود هذا الرمز الى الظهور في القسم الرابع من القصيدة ، ويحتل محور التركيز فيه واكثر مساحته ، ثم « الرجل ذو الهراوات الثلاث » ، ممثلاً ملك السمك او ملك الصيادين (ولحق ان العرافة ستحذر البطل من الموت بالماء) ، ثم بيللا دونا ، سيدة الصخور « ممثلة للأنوثة العقيم في الارض الخراب ، واخيراً صورة عجلة الى جوارها تاجر امور ، وسوف يعود الى الظهور في القسم الثالث من القصيدة باسم « مستر ايوجينايك » التاجر من مدينة سميرنا ، الذي يأتي رمزا لهزيمة النبي وصعود التاجر ، في العالم اللنيوي المبطل ، فيعود البطل الى « عطلة نهاية الاسبوع في المدينة الكبيرة » اي الى حفلة فسق شاذ . وربما كان الرجل ذو الهراوات الثلاث هو الذي يقصده ويلسون ب « الرجل المشنوق » لان « البحار الفينيقي الفريق » فريق وليس مشنوقاً ، ثم انه سيعود الى الظهور بقوة في القسم الثالث ، بينما يقول المؤلف انه لم يذكر سوى مرة واحدة . - (ه . م .)

(٢) الفصن الذهبي - أشهر اعمال سيرجيمس فريزر ، ويعتبر ثروة ضخمة في الادب الشعبي المقارن والعادات والطقوس الدينية والسحرية والاساطير والديانات القديمة وتخويراتها المختلفة . وضعه فريزر في ١٢ مجلداً ، صدر اولها عام ١٨٩٠ واخرها عام ١٩١٥ ، اصبح الآن بعد تقدم الدراسات الانثروبولوجية عملاً تراكمياً ومكتيباً ضعيف المنهج رغم بقاء مكانته كعمل هائل المادة ، وساهم في تأسيس علم الانثروبولوجيا ذاته . استمد عنوانه من حكاية وردت في « الانبادة » =

ذلك فان العودة الى الفصل المطلوب في « الفصن الذهبي » بعنوان : « آيس ، ادونيس ، اوزيريس » يكشف ان الارباب المختلفين الذين شنعوا في الديانات الخرافية ، كانوا قد شنعوا بالطريقة العادية ، ولم تتدل رؤوسهم الى اسفل او يطلقوا من اقدامهم ، ثم نجد تفسيرات اخرى كثيرة لصورة الرجل المشنوق . بازيل راكوزي يقول انه « راهب » ضل الطريق فشنع نفسه . ويقول « جريفز » في كتاب الربة البيضاء ان اوراق التاروت القوية الاثنتين والعشرين ترمز الى ايجدية الاشجار الكاملة ذات الاثنتين والعشرين حرفا ، وان صورة الرجل المشنوق ترمز الى حرفها السابع ، حرف « د » الذي يرمز اليه بشجرة سنديان ضخمة . والحرف في هذه اللغة ينطق « ديوري » وهي الكلمة التي تعني « شجرة سنديان » وتعني « باب » ايضا . ولا شك ان الدعامة الخشبية التي يعلق فيها الرجل المشنوق بمشنته تشبه الباب الى حد كبير ، ولكن لماذا يشنق بالقلوب ، ومن قدمه ، ولماذا هو مبتهج الى هذا الحد ، ولماذا هالة الذهب حول راسه . الخ . ليس هناك في هذه التفسيرات جميعا ما يوضح او يجيب على اي من هذه الاسئلة .

انني اؤكد كثيرا على هذه المشكلة لان مثل هذا البحث يمكن ان يكون افضل تقديم ممكن لمشكلة مجموعة اوراق « التاروت » . فمن الواضح تماما انها « تعني » شيئا . فايا كان الشخص الذي ابتكرها او صممها فلا بد انه قد مني شيئا محددا تماما بزمزه . وربما اكتشف احد المؤرخين ذات يوم ان قبيلة ما من قبائل الفجر القدماء ، جاءت من بلد كان حاكمها يشنق المجرمين من اقدامهم وقد تدلت رؤوسهم الى اسفل . ولكن اللفظ يظل غامضا وصامدا امام كل التفسيرات حتى هذه اللحظة ، ولا يستطيع المرء الا ان يحدق في الاوراق متسائلا دون ان يحير جوابا ، محاولا ان يترك للحدس فرصة استكناه معناها .

واليكم في الحقيقة افضل طريقة يمكن بها التوصل الى معرفة مجموعة « التاروت » : ان نحدق فيها ببساطة مثلما يحدق الطفل في صور كتابه الملونة . ومجموعات اوراق التاروت التي صنعت في القرون الاولى لوجودها ، صنعت في العادة بالوان اولية براقية واضحة ، حتى انه ليتمكن دراستها مثلما تدرس الرسوم في كتاب مصور للأطفال . ومما يفيد فائدة عظمى ان يكون للدارس احساس قوي بالعصور الوسطى ، فنصف ساعة يقضيها المرء في تصفح كتاب « ازدهار العصور الوسطى » لجون ايفانز تعد امدادا ممتازا لدراسة مجموعة التاروت . فلا بد للعقل ان يكون ممتلئا بصور

= للرجيل ، من الفصن الذي كسره البطل اينياس من شجرة مقدسة قبل هبوطه الى العالم الآخر . وقد اصبح الكتاب مرجعا اساسيا لاعمالي جيمس جويس واليوت وايزاباوند وغيرهم . صدرت في مصر ترجمة للجزء الاول من نسخة مختصرة له ، عام ١٩٧٠ . (هـ . م .)

الكاتدرائيات القوطية ، وزجاج العصور الوسطى المرسوم الملون ، الذي ربما كان هو مصدر الالهام بالالوان البراقة في مجموعات التاروت ، والمدن الصغيرة التي تحيطها الحقول من كل جانب ، والحرفيين في اعمالهم الدقيقة اليومية . ودون هذا النوع من الاستعداد ، فإن العقل الحديث جدير بأن ينسب الى مجموعة اوراق التاروت تداعياته وافكاره الباطنة الخاصة ، وان ينسبها بالذات الى اوراق من نوع ورقة « البابا » او « الكاهنة العظمى » او « الشيطان » . ويساعد هذا الاعداد ايضا على الاحساس بالصورة التي قد ترجع زمنيا الى عصور ابعد من عصر النهضة ، بل وابتعد من العصور الوسطى . ان ورقة « القمر » مثلا ، تمثل صورة لكلب وذئب ينبحان ازاء قمر له وجه امرأة ، بينما يبرز سلطان ضخم من بحر او نهر في الخلفية ، وتنهمر من وجه القمر قطرات الندى . وعلى جانبي خلفية الصورة يقوم برجان هائلان . وبشكل ما ، تتطابق الصورة مع صور عصر « تشوسر » (١) حيث ينتصب لصوص وفرسان امام مقابر معتمة وقد مدوا ايديهم في صلوات حارة . وصورة القمر بالذات من الصور التي توحى بالتغير الكبير . فهذه الصورة في مجموعة الملك تشارلز الخامس تتضمن اثنين من الفلكيين من عصر تشوسر ينظران الى قمر لا وجه له . . من الواضح تماما ان هذه الورقة تنتمي الى اصول اقدم جدا من العصر المسيحي ، وانها من المحتمل ان تكون مرتبطة بعبادة الربة البيضاء بشكل ما .

ولكن مجموعة اوراق التاروت ، في معظمها ، تنتمي بعمق الى المفاهيم التي سادت في العصور الوسطى ، وإلى العصور الوسطى الغربية بشكل خاص . انها تبدأ بمشعوذ - وهناك مجموعة ترجع الى القرن السابع عشر ترسمه في صورة شخص شرير تماما - وتنتهي بأبله او مهرج (او شحاذا - انه رجل يرتدي ملابس ممزقة) . وفيما بينهما يقوم عالم من الاباطرة والبابوات والمخنثين ، وهناك اوراق ترمز صورها الى القوة ، وضبط النفس ، والعدالة ، والموت .

وتسمى مجموعة الاثنتين والعشرين ورقة القوية بـ « الاركانا الكبرى » ، ولكن الستة والخمسين ورقة الباقية تسمى « الاركانا الصغرى » . . . ورغم ان بعض المصادر تشعر بأن « الاركانا الصغرى » تكون مجموعة من الاوراق مختلفة كل الاختلاف ، لا تشترك في شيء مع مجموعة الاوراق القوية ، فمن

(١) تشوسر - جيوفي (١٣٤٢ - ١٤٠٠) اشتهر الشعراء الانجليز في العصور الوسطى ، واكثرهم اهمية بالنسبة للغة الانجليزية الى الآن مع شيكسبير . نقل في شعره الغزير والخصب صورا بالغة التنوع والثراء للشخصيات والافكار والهموم الكبرى والمثل العليا والموضوعات الادبية للعصور الوسطى (حكايات كاترييري ، ترولووس وكوسبوا ، برسان البلهاء ، اسطورة النساء الطيبات . . الخ) تعتبر لغته واسلوبه في التعبير المقياس الاساسي للغة الانجليزية الحديثة . (ه . م .)

المؤكد انها تشترك معها في نوع من الرمزية المحيرة . فكل ورقة منها تحمل صورة معينة . وقد تكون الصورة سلسلة من الكؤوس تشكل شيئا كقوس قزح، او جسدا ممزقا بعشرة سيوف ، او رجلا يرزح تحت ثقل عشر كتل من الاحجار الثقيلة . وفي مجموعة تاروت وايت ، تتضمن ورقة الخمسة ذات الصولجانات او عصى السحرة على سبيل المثال مجموعة من الشبان في احد الحقول ، يبدو انهم يتقاتلون او يلعبون لعبة غن الحرب او القتال . وفي قصيدة الرجال الجوف ، يقول ت . س . اليوت في بعض السطور :

هراوات متقاطعة في احد الحقول
تسلك مثلما تسلك الريح
لا اقرب ...

ومن الواضح ان هذه اشارة الى تفسير وايت لورقة الخمسة ذات الصولجانات او عصى السحرة . حيث ، بعد ان يتحدث عن الشبان الذين يتصادمون بالهراوات ، يضيف ان هذا « قتال تمثيلي ... قتال زائف صوري .. وبهذا المعنى فانه يرتبط بمعركة الحياة » . ان تفسير وايت لورقة الصولجانات الخمسة، يصبح رمزا لاحساس اليوت بعقم الحركة المستمرة التي تشكل الوجود الانساني . ومن ناحية اخرى ، فان جيرارد انكاوس الذي كتب ونشر تعليقا على « التاروت » تحت اسم « بابوس » المستعار ، يفسر ورقة الصولجانات الخمسة بانها : عقبة يتم تخطيها بالاجتهاد والداب ، ثم انتصار . وينظر بابوس الى ملك السيوف باعتباره رجلا شريرا ، اما وايت فيعتبره رمزا للعدالة الصارمة .

ان « الاركانا الصغرى » هي كما ذكرنا من قبل المصدر الذي جاءت منه اوراق اللعب الحديثة . وهذه الاوراق ، يمكن ايضا ان تستخدم لاجراض « تنبؤية » من العرافة والكهانة وكشف الطالع ، ومن الممتع ان نرى كيف تتقارب معاني المجموعتين ، القديمة والحديثة ، وهذا دليل على ان التقاليد المتبعة في كشف الطالع عن طريق الاوراق لم تتغير تقريبا منذ القرن الرابع عشر ، وهي تقاليد بالغة التعقيد وذات قواعد يتمسك بها اصحاب الحرفة والمفسرون ، وان اتجاه المفسرون غالبا الى فرض افكارهم الخاصة وانواع ثقافتهم على تفسيراتهم المتنوعة .

انها تبدو خطوة طويلة جدا ، تلك التي تفصل بين ايمان يبتس بالطاقة اللاواعية الكامنة في الرموز وبين هذا الاستخدام المعقد لاوراق اللعب . وفي الحقيقة ، فان القاريء صاحب الميل العقلي المنطقي لا يمكن بسهولة ان يلام اذا ما نظر الى المسألة كلها باعتبارها تسلية من كهان فارغ العقل سقيم الوجدان . ولكن صرف النظر عن المسألة كلها على هذا الاساس سيكون اشبه بمن يرمي الطفل مع ماء استحمامه سويا . ويتمائل الوضع هنا مع الوضع ازاء كتاب

« اي تشينج » ، اذ ان استشارة اوراق « التاروت » تعتمد على افتراض ان العقل اللاواعي قد تكون له علاقة بـ « المصادفة » والاحداث العارضة اكثر مما يبدو على السطح . انه يبدو كما لو كان يعرف اشياء لا تظهر للوعي . وفي لحظات معينة من الهدوء - او من الاجهاد - تستطيع تلك الافكار او المعلومات الحدسية ان تربط نفسها بالوعي ، وقد تفعل ذلك بشكل عابر تماما ودون اي اساس منطقي ، او سبب ظاهر محدد . . فلو كان بوسعنا ان نقبل ان الاحداث القريبة التي لاحقت ستريندبرج خلال النصف الاخير من حياته لم تكن كلها من بنات خياله ، وانما كانت بشكل ما مدفوعة الى الحركة بقوة الهواجس المسيطرة عليه ، اذن فلن نكون مطالبين بان نتقدم كثيرا لكي نقبل ان سقوط الاوراق قد يكون متأثرا بنفس الهواجس . وينتج من هذا ايضا ان اية مجموعة من الاشياء يمكن ان تستخدم لقراءة الطالع - ساعة ، زجاجة من زيت الشعر ، قطعة من الشوكولاتة او مرآة مكسورة - بشرط ان يكون لكل شيء من هذه الاشياء معنى محدد لدى قارئ الطالع . وقراءة الطالع باستخدام قطع لعب « الضومنو » و« الزهر » شائعة مثل شيوع قراءة الطالع باوراق اللعب ، وهناك قبائل بدائية عديدة تستخدم حزما من العصي او براعم الزهور والاسنان . والافتراض الذي يحكم العملية على الدوام هو ان المواد المستخدمة لا تزيد عن ان تكون « الطينة » التي تمجنها وتصوغها يدا « النحات » اللاواعي . يكتب آودين (١) في قصيدة تدعى « التيه » قائلا :

المركز الذي لا يستطيع العثور عليه
معروف لعقلي اللاواعي ،
وليس من سبب يدفعني الى الياس
لانني بالفعل هناك .

والمشكلة الاساسية هي اقامة علاقة بين العقل الواعي والعقل اللاواعي . وقد نهض مبتكر « التاروت » بالتحديد لاداء هذه المهمة . ان رموز التاروت تؤدي خدمة مزدوجة : ان تعمل بوصفها نوعا من الابدانية ، يستطيع العقل غير الواعي بواسطتها ان يبوح بالمعاني التي يحتويها . ثم ان تستثير العقل غير

(١) آودين - ويستمان هاف (١٩٠٧ - ١٩٦٧) شاعر من ابرز وجوه حركة الشعر اليساري في إنجلترا في الثلاثينات - مع داي لويس وستيفن سبنسر ولويس ماكيس وكريستوفر ايشروود . كان شعره تطويرا لاساليب عدد من الشعراء الانجليز التقليديين ، يمزج بين التقرير والصورة في التعبير وبين التصور الشمولي للبناء والرؤية ، متأثرا بالرمزية الفرنسية في اوائل القرن . تحول بعد الحرب العالمية الثانية الى الهموم الفلسفية والدينية ، وكان له تأثير قوي على عدد من الشعراء الامريكيين الشباب . (ه . م .)

الواعي بواسطة ما تتضمنه هذه الابدجية في داخلها من حيوية ، بطريقة تشبه قدرة البطاقة المثقبة على « استثارة » آلة حاسبة الكترونية . انه طريق تسيير عليه حركة النقل في الاتجاهين .

ولا شك ان اكثر جوانب « قراءة الطالع » عن طريق الاوراق مدعاة للاحاساس بالخداع ، هو عنصر المصادفة . فالعقل المنطقي يجد انه من الصعب ان يتلصق ان الاوراق التي تسحب عشوائيا من وسط كومة من الاوراق يمكن ان يكون لها اي مغزى حقيقي . وقد اعتقد سترليندبرج ان وسطاء من عالم علوي كانوا يحاولون ان « يطلعوه » على اشياء بعينها كلما واجهته حادثة غريبة او شيء يتطير او يتفاد به . وهذا هو الافتراض الحقيقي ان الذي يكمن وراء كل عملية استكناه للمستقبل او كشف للغيب . وفيما يتعلق باشياء من نوع اوراق التاروت ورموزها ، فان الشيء الذي يحتاج الى بحث اكثر عمقا في اللحظة الراهنة هو العلاقة بين الرموز وبين العقل غير الواعي ، واللحظة التي تبدأ عندها عملية « التغذية السيبرناتيقية التبادلية » بين الاثنين ، على فرار ما يحدث بين البطاقة المثقبة والحاسبة الالكترونية .

وهناك جانب واحد قد تبدو فيه اوراق التاروت في مستوى ادنى من مستوى كتاب « اي تشينج » . فقد اوضحت من قبل انه رغم ان كتاب « اي تشينج » هو كتاب للكشف عن الغيب وقراءة الطالع في المستقبل ، فانه يحاول ايضا ان « يرفع العقل » الى مستوى اعلى من مستوى طرح الاسئلة عما هو مقدر له - اي انه يحاول ان يجعل العقل نشيطا مسيطرًا على ذاته بدلا من ان يظل مهموما في سلبية بما يخبره له المستقبل .

وهذا هو ما يبرز الخلاف الاساسي بين طريقة كل من التاروت وكتاب « اي تشينج » . ان الشرق - بشكل طبيعي - اكثر تجردا واكثر فلسفية من الغرب . والعقل الشرقي يفكر - بشكل طبيعي - على اساس التعرض للروح والطبيعة ، والسماء والارض ، والنار والماء . انه عقل يحدق في المسافات البعيدة . اما العقل الغربي فيعيش في عالم اكثر تجسيدا وتشخصا ، مع وجود « مخلص » يعمل كوسيط قائم بين نفسه وبين السماء . ان رموز التاروت اكثر تعقيدا ، واكثر شخصية واكثر عنفا من رموز « اي تشينج » . وعند الوهلة الاولى تبدو « التاروت » اكثر انشغالا بالتنبؤ بالكارثة اكثر مما يفعل كتاب « اي تشينج » الذي يبدي اهتماما اكبر بتعليم « الانسان الاسمي » كيف يكون سيدا لمصيره .

ولكن الدراسة الاكثر عمقا تثبت لنا ان هذا الاختلاف اقل اهمية مما يبدو على السطح . ان رموز التاروت المشؤومة - الرجل المشنوق ، والهرج الذي

تضربه الصاعقة ، والموت ، والشيطان ، لم يقصد بها ان تكون نذرا بالكارثة بقدر ما قصد بها ان تكون صدمات تطرد العقل من « جرة » تفاهة الحياة اليومية ، ولكي تفرس فيه عادة التركيز على الاساسيات . اما رموز البابا ، ويوم الدينونة ، والخنثى ، فكلها تركز الانتباه على « السماء » ، مثلما تفعل بطريقة مختلفة اوراق اخرى تمثل النجم ، والقمر والشمس . وفي الوقت الذي كانت هذه الاوراق فيه جديدة بالنسبة لاوروبا ، فان هذه الرموز كانت تتمتع بتأثير وجداني عميق ، ولكنها فقدت هذا التأثير منذ عصر الاصلاح . ولكن ، ومثلما اشارت . س . اليوت في حديثه عن شعر دانتي ، ليس هناك ما يمنع العقل الحديث من الدخول في دائرة الاصول المرجعية للعصور الوسطى فيتأثر بها ويتحرك بنفس العمق الذي كان معاصرو دانتي يتأثرون بها ويتحركون . وحينما يتم ادراك « التاروت » وفهمها على هذا النحو - مع بذل مجهود لفهم الحقيقة الداخلية لرموزها - فانها يمكن ان تعتبر المقابل الغربي المساوي لكتاب « اي تشينج » : نسق « قمري » للمعرفة ، يتم نقله والافصاح عنه بواسطة الرموز المتداخلة .

القسم الثاني

تأريخ السحر

تقدم الانسان

اذا كان من الضروري ان نفهم تاريخ السحر ، فلا بد ان نبدأ بمناقشة عملية التقدم والارتقاء . ذلك انه اذا كان دافيد فوستر على صواب ، فان تقدم الحياة وارتقاءها لم يكن حدثا عارضا وقع بالصدفة . وانما شكلته ووجهته قوى تمتلك الذكاء والهدف . والسحر ايضا يفترض وجود مثل هذه القوى . ومن الجانب الاخر ، يصر العلم على انه من الممكن تفسير الكون تفسيراً شاملاً على اساس ميكانيكي . فاذا كان بوسعنا ان نثبت تناقض هذا مع الحقيقة ، لأمكننا ان نقيم قضية السحر على اصلب اساس ممكن .

في عام ١٧٩٤ ، حضر جوته اجتماعا لجمعية العلم الطبيعي ، وهناك قابسل رجلاً كان جوته يكره اعماله كراهية عميقة ، وكان هذا الرجل هو الشاعر شيللر . ولكن ، بينما كانا يغادران المبنى معا ، قال شيللر ملاحظة جعلت جوته ينظر اليه بتعاطف اكثر : قال انه كان يتمنى لو ان العلماء كفوا عن تمزيق كل شيء وتقطيع الروابط بين اجزاء اي شيء وتحويله الى شذرات ومسرق متفرقة ، لان هذا - يجعل متابعتهم عملية صعبة . ووافق جوته على هذا القول بحماس ، وقال : « هناك طريقة اخرى لفهم الطبيعة وادراكها ، الطبيعة النشيطة الحية ، وهي تصارع من المجموع الكلي حتى الاجزاء الصغيرة » ثم مضى لكي يسهب في توضيح نظريته الى الطبيعة باعتبارها : « الجلباب الحي لله » . وانتهى بشرح نظريته القائلة بان كل النباتات قد تطورت عن نبات واحد اصلي . وهز شيللر راسه : وقال « ليست هذه تجربة عملية او خبرة نشأت عن التجربة ، انما هي مجرد فكرة » .

وبمعنى من المعاني كان شيللر على صواب . فان « نظرية » .. جوته كانت

مجرد فكرة . ولكن ما كان جوته يحتج عليه لم يكن هو منهج العلم ، وإنما تصورات المسبقة ، التي يبدو فيها العالم كما لو كان « باحثا في الحوادث العارضة » يكلله المجد . ربما ساعدت مقارنة محددة على توضيح هذه النقطة . لقد اعتقد عالم النفس ج. ب. واطسون ، انه من الممكن تفسير جميع النشاطات الانسانية ، من الجماع الجنسي الى كتابة السيفمونييات ، على اساس ميكانيكي . فلنتخيل باحثا في علم الاجرام ، وهو يحقق او يبحث في جريمة قتل على اساس فكرة واطسون ووجهة نظره . ولتكن الجريمة هي ان رجلا دس السم لامرأته بعد ان امن عليها بمبلغ كبير من النقود . ان عالم النفس لن يكون مهتما بأي شكل من الاشكال بجوانب الخطأ والصواب في القضية ، ولن يهتم حتى بمقدار ما يتمتع به الرجل من عقل - لان الحديث عن العقل والجنون يتضمن الحديث عن حرية الاختيار . اما عالم الاجرام فسوف يبحث اجريمة كما يبحث اية حادثة عارضة اخرى : ولنقل مثلا ، انه سيبحثها مثلما يبحث حادثة سقوط جسر في يوم عاصف . فهي مسألة ضغوط مختلفة الانواع فحسب .

من الممكن ان نرى حياة الرجل باعتبارها سلسلة من الاختيارات - الاختيارات الرديئة التي لم يفكر الرجل خلالها في اي شيء الا في مكسبه او متعته المباشرة . وقد يبدو لصاحب هذا الرأي انه لو كان قد وقع على سلسلة اخرى من الاختيارات ، مع قدر معين من العون ، لكان الرجل قد اصبح مواطنا صالحا . وبكلمات اخرى ، فان صاحب هذا الرأي ينظر الى حياة الرجل باعتبارها سلسلة من « الاحتمالات » كان من الممكن لاي احتمال منها ان يتحقق . اما عالم النفس صاحب النظرة « الواطسونية » فان فكرة الاحتمالات لن تطرا على ذهنه باكثر مما يمكن ان يتساءل عن السبب الذي يجعل الجبل جبلا وليس واديا . بالنسبة اليه ، تكون الوقائع هي « حقيقة » الجريمة ، « حقيقة » المجرم ، وهو يدرسها جميعا مثلما يدرس عالم الجيوأوجيا جبلا من الجبال .

وقد يسمى مثل هذا الاتجاه نفسه باسم « المنهج العلمي » ، ولكن مبن الواضح ان هذا ليس هو الشيء الحقيقي ، فهو متمزمت جامد اكثر من اللازم . وقد اعترض شعراء من نوع بليك وجوته على مثل هذه النظرة الضيقة للعلم ، وأشاروا الى أن العقل الانساني لا يعمل بهذا الشكل . انه يعمل عن طريق سلسلة من القفزات الحدسية ، وليس عن طريق هذا الخطو الثقيل البطيء المقيد الحذر . ومن الممكن التمسك الشديد بـ « الحقائق » . فلو انني فحست لوحة مرسومة بواسطة مجهر قوي لامكنني ان اعرف شيئا عن نسيج اللوحة وعن تكوين الالوان ، ولكنني لن اعرف شيئا عن هدف الرسام ومقصده من رسم اللوحة . و « لن يمكنني » ان اعرف شيئا عن هذا الهدف وذلك القصد اذا ما

ظللت متمسكا بالجهر. انما لا بد لي من التراجع الى الخلف والنظر الى اللوحة في مجموعها قبل ان افهمها .

وفي عام ١٩٣١ اصدر هـ.ج. ويلز (بالتعاون مع جوليان هكسلي) كتابا بعنوان « علم الحياة » يمكن ان نأخذه باعتباره نموذجا نمطيا لمثل هذا النوع من «العلم» . ولما كلن كتاب ويلز وهكسلي يقدم صورة لنشوء الحياة وتطورها على الارض ، فانه يقدم تناقضا كاملا بالغ الوضوح للنظرة التي يقوم عليها كتابنا هذا .

يتخذ ويلز موقفا ايجابيا للغاية في تأكيده انه ليس هناك « دافع الحياة » من نوع فيبي او غير حسي، وفي نفيه لوجود غرض وراء النشوء والارتقاء . فالحياة عملية كيميائية نشأت بشكل ما في البحار الدائسة في فترة من الزمن قبل العصر الكامبري . وهي تختلف عن العمليات الكيميائية الاخرى من حيث انها عملية تبدأ وتتقدم من تلقاء نفسها . ومن الصعب ان تتخيل عملية كيميائية تتمكن من المحافظة على تقدمها واستمرارها دون نهاية ، رغم استطاعتنا ان نتخيل - مثلا - كرة من الثلج تتضخم باستمرار كلما تدحرجت على سفح التل . ولكنها حينما تبلغ قاع السفح، تتوقف . وينتشر حريق الغابة ويمتد حتى يصل الى نهاية الاشجار ، ثم يتوقف . اما ويلز فيسألنا ان نقبل فكرة ان الحياة هي نوع من حريق الغابات يستمر الى ما لا نهاية ، او انها كرة من الثلج تستطيع ان تتدحرج صاعدة سفح التل مثلما تتدحرج وهي تسقط هابطة عليه .

ومن خلال هذه البداية العارضة، استمرت عملية النشوء عن طريق الاحداث العارضة ، ويقول ويلز ان سرعة الحصان ، هي رد الفعل للسرعة المتزايدة للحيوانات التي تفترسه (ولا شك ان العكس صحيح كذلك ، فقد كان على الحيوانات المفترسة ان تزيد من سرعتها لكي تلحق بالحصان) . ونجت الجياد السريعة وانسلت الكثير من نوعها ، اما الجياد البطيئة فقد ماتت . وهذه هي الطريقة التي تقدم بها التطور طوال نصف بليون من السنين . انه منهج مليء بالفجوات والنقاط الضائعة ، ولكنه لا يمكن ان يخطيء اولا تمكن تخطيطه . انه لا يعتمد الا على القوانين الطبيعية (الفيزيائية) وليس على ارادة الفرد . من الطبيعي ان الجواد قد يتعلم ان يجري بسرعة اكبر لانه يريد ان يهرب من الضياع ، ولكنه لا يستطيع ان ينقل سرعته لابنائيه ، على الاقل ، ليس بطريقة الوراثة .

ولكن عملية الاحداث العارضة هذه قد تبدو للقاري غير العلمي بوصفها عملية لا ضرورة لها . ان تجربتي الخاصة تعلمني ان الحياة عملية ذات هدف . ان اهم ما يحدث حينما اقدم على عمل ما هو ان « اركز » . انني ازيد من ضغطي العقلي ، تماما مثلما احكم من قبضتي على مسدس اوشك ان اطلق منه

النار . ثم أصبح ببطء مسيطرًا بإحكام على العملية الصعبة . فإذا امتنعت عن بذل اي مجهود ، ورحت أنفخ دون هدف في البوق الذي أريد ان اتعلم العزف عليه ، فلن أعزف عليه أبدا ولن اتعلم شيئا على الإطلاق ، أو انني قد استغرق سنوات للتعلم بدلا من أسابيع .

وَحالما لاحظت الفارق الهائل بين التركيز الهادف وبين الانجراف الخالي من الهدف ، وجدت انه من الصعب ان اصدق ان الحياة قد بلغت مرحلتها الحالية عن طريق انجرافها السائب . وقد قال ادينجتون انه لو حدث ان قامت قبيلة من القردة بالضرب دون هدف على عدة مئات من الآلات الكاتبة طوال عدة آلاف من السنين ، لحدث في لحظة معينة ان يتمكنوا من كتابة كل كتاب موجود في المتحف البريطاني ، ولكننا نجد في هذا القول نفس القدر من الصعوبة على التصديق . وقد يبدو من الواضح ان قردا لن يستطيع ان ينتج جملة ذات معنى بالصدفة المحض - في خلال سنة من الضرب العشوائي على آلة كاتبة ، ولذلك فليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بانه سيكون قادرا على انتاج نصف مليون من الجمل ذات المعنى في نصف بليون من الاعوام . وقد نجد من الصعب كذلك ان نصدق ان الحياة قد تطورت من الاميبا الى بيتوفن في خلال نصف بليون من السنين المليئة بالحوادث والمصادفات العارضة .

يعتمد النوع الذي يقدمه ويلز من الحجج على نوع متزمت وجامد من الشك، يؤدي الى وضع يقوم على رفض تصديق كل ما لا يمكن اختباره والبرهنة على صحته . ولكن الشيء الذي يختار ان يؤمن به وان يصدقه يبدو شيئا تحكيميا ومتعسفا الى درجة غريبة . انه يقول بعبارة مباشرة : « بعد ان قذفت الارض المنصهرة الفائرة كتلة القمر ، اخذت تبرد بالتدريج . . » ولكن الفحص الحديث لصخور القمر يبدو انه يشير الى ان القمر قد جاء من مكان آخر . وليس هناك ما يدعو الى لوم ويلز لانه لم يكن يعرف هذا ، وانما هو ينبغي ان يلام بسبب هذه اللهجة المتزمتة القاطعة التي يقرر بها ان القمر قد اقتطع من الارض وانفصل عنها . لماذا هو متزمت قاطع بهذا الشكل ؟ انه قد يبدو من « أنخيل الوهمي » ان نقول ان القمر قد جاء من الفضاء الخارجي ، ان « الاقرب السى الاحتمال » انه قد انفصل عن الارض فطار في الفضاء ، وهذا ما يجعل الامر حقيقة . وهنا نصبح جميعا علماء ذوي رؤوس صلبة ، وليس هناك هراء غيبي في عقولنا . .

ولكن قوة الاحتمال ليست هي الحقيقة ولا هي شيء مثل الحقيقة ، والحجة التي تنتج من خلال سلسلة من الاحتمالات التي لا تناقش قد تبلغ من الخطأ ما يبلفه أكثر التخمينات أيقالا في الخيال والوهم . والاكثر من هذا ان مثل

هذه الحجة قد لا تنجح في الاقتراب من حقيقة الشيء الذي تتعرض له ، مثلما يفشل المجهر في الكشف عن حقيقة اللوحة المرسومة . ويعترف ويلز بأنه ليس لديه اية فكرة عن مصدر الحياة ، ولكن « الاقرب الى الاحتمال » انها عملية كيميائية بدأت في البحر . ولما كان لا يعرف شيئا عن اصول الحياة اكثر مما يعرفه اي شخص آخر ، فمن المنطقي الا يكون يعرف شيئا عما اذا كان هناك « دافع غيبي للحياة » او عما اذا كانت عملية النشوء وانتطور عملية هادفة . ولكن على نفس الاساس من الشكوك التي لا تناقش ، تصبح هذه الاشياء « حقائق » هي الاخرى . انه يعرف ان الافراد والاجناس يمكن ان يكونوا هادفين الى اقصى حد ، ولكنه ليس على استعداد لان يسمح للهدف بأن يلعب اي دور في عملية النشوء وانتطور لان خصائصنا الحيوية تتحدد على اساس الجينات (حاملات الخصائص الوراثية) والجينات تتحدد على اساس من التذبذب العشوائي ، مثل عملية « تمشيط مجموعة من اوراق اللعب . ولكنه يبدو لي غريبا انه اذا كانت يدي وعقلي مصنوعين بحيث يطيعان احساسني بالهدف ، فان جزءا آخر من جسمي ، وهو الجينات ، لا بد ان تكون بعيدة بعدا كاملا عن مجال السيطرة . ففي الحقيقة ، كيف يمكنني ان اكون واثقا من ان الجينات لا يمكن ان تتأثر بالقوى الحيوية لارادتي ؟ .

وسوف يجيب ويلز على ذلك بقوله : ليس لدينا دليل على ان ذلك ممكن ، بينما من الممكن ان نفسر عملية النشوء والارتقاء تفسيرا كاملا على اساس الانتخاب الطبيعي . وهذا - مرة اخرى - هو ما يجعل هذا الانتخاب الطبيعي « حقيقة » لا نزاع فيها .

وبذلك ، فاننا اذ نبدا بصورة كيميائية للحياة باعتبارها نوعا من العمليات المتجددة ذاتيا ، نشيد نظرة الى التاريخ منطقية وعلمية تفسر الدين والسحر على اساس من الخرافة . والنتيجة النهائية هي الانسان كما نعرفه اليوم ، مكبلا في قنخ حضارته التكنولوجية ، وضحية لقوى اعظم واضخم منه ، باذلا اقصى ما في وسعه لكي يتجنب حربا ذرية . من الحق ان ويلز قد اتخذ وجهة نظر متفائلة ازاء تطور الانسان وارتقائه ، ولكنه اطلق على المخطوطة النهائية لكتابه « التاريخ المختصر للعالم » اسم : « العقل في اقصى حدود احتماله » .

ولكن الصورة لن تظل مقبضة الا طالما قبلنا فكرة ان « المنهج العلمي » الذي اعجب به ويلز الى هذا الحد هو في الحقيقة مقول وصادق بقدر ما يبدو عليه . انه منهج وضع بحيث يعمل دون اية « نزعة غائية » ، متجردا من كل فكرة عن هدف محدد .

فلماذا يتخذ العلم موقفا معارضا الى هذا الحد من استهداف غرض معين ؟

لانه كان قد عانى من عملية الاستهداف هذه معاناة قاسية في الماضي . فالتوحش الذي يعتقد ان خسوف القمر هو علامة على غضب الله يسد بفاعلية طريق التقدم امام العلم ، ذلك انه باعتقاده قد انهى التساؤل واغلق طريق السؤال . ورجال الكنيسة الذين احرقوا جيوردانو برونو واجبروا جاليليو على التراجع عن موقفه كانوا يسدون طريق التقدم امام العلم . فللعلم اذن سببه القوي للانزعاج من النزعة الغائية . ولكننا اذ نعترف بان العلم المتجرد من النزعة الغائية قد يكتشف الكثير من الحقائق الثمينة ، فاننا نظل نؤكد انه ليس هناك سبب علمي معقول للاعلان الفعلي بعدم قانونية فكرة استهداف غرض محدد او غاية معينة . فاسمحوا لنا ان نفكر في رواية اخرى غير رواية ويلز عن ارتقاء الانسان وتطوره . اننا قد نوافق على انه من المقنع او المتصور ان الحياة هي عملية كيميائية من نوع ما ، بدأت في البحار الدافئة . ولكنني حينما افكر في عملية كيميائية (على سبيل المثال ، اذا اسقطت قطعة من الحديد في كمية من حمض الهيدروكلوريك ثم رحت اراقبها وهي تثر وتنحل) فان مثل هذه العملية تبدو بشكل ما مختلفة كل الاختلاف عن اية عملية حيوية (مثلا ، الطريقة التي يفزود الدود بها قطعة من الجبن) . انني لا استطيع ان امنع نفسي من التفكير في الحياة باعتبارها مبدأ « التنظيم » داخل العملية الكيميائية الخالصة ، يدخل عليها حينما تتحول قطعة الجبن الى يرقات . وانا اعرف في الحقيقة ان اليرقات تتطور من البكتريا الموجودة في الهواء ، فلو ان قطعة الجبن قد حفظت في مكان من الفراغ المعقم ، لظلت معقمة ونظيفة . فمن الصعب بالنسبة لي ان افكر في الحياة باعتبارها عملية تأتي من خارج المواد الكيميائية المتضمنة في العملية ذاتها وباعتبارها عملية تفرض تنظيمها الخاص على هذه المواد .

ومثلما قلت من قبل ، فان ثمة فارقا هائلا بين عملية تحدث بشكل عارض ، وبين عملية اركز عليها احساسى بوجود هدف محدد منها . بل ان هناك فارقا هائلا بين ان افعل شيئا وانا شارد الذهن وبين قعله مع تركيز حقيقي عليه . ان الحياة لا تنفصل عن فكرة الهدف . من الحق انني استطيع ان افكر في مخلوق حي ليس له هدف محدد - مثل بقرة تمضغ علفها ، او فلج فقير يتشاءب فوق الفرن في منزله - ولكن ليس هذا الا لانهما يستمتعان بوجود مسافة يتنفس فيها الهدف ، فان الجهود السابق قد « دفع » ثمن استرخائهما مقدما . فان ابسط الكائنات العضوية الحية لا بد ان تقاوم باستمرار من اجل الوجود .

لقد زادت الحياة في البحار الدافئة، وهناك اكتسبت وطورت هدفها الخاص - او احساسها الغريزي بالهدف - وحواسها الخاصة . وبينما كانت الكائنات

العضوية الدقيقة تتطور الى اسماك وطيور ولبنات وحشرات ، فان هذه الكائنات الجديدة قد طورت ايضا اكثر غرائزها اهمية : الاحساس بالجماعة . ومن الممكن ان نناقش في ان هذه الغريزة التجمعية ، مثل غريزة الاهتداء الى البيت والاحساس المسبق بالخطر ، كانت غريزة تليباية ، يمكن ان تنتقل بالتواصل الروحي .

وفي كتاب « انواع افريقية » يذكر روبرت آردري مثالا ، يبدو لي انه حجة نهائية وكنية ضد النزعة الداروينية المتشددة الشاملة : الحشرة المفردة (النيسطة) . كان آردري يقف مع عالم التاريخ الانساني ل . ب ليكي ، ينظران الى برعم زهرة متعددة الالوان مثل زهرة الليلك . وليس ليكي تويج انزهره ، فتحللت الزهرة بين اصابعه وتحولت الى كمية كبيرة من الحشرات الدقيقة . وبعد بضع دقائق كانت الحشرات قد عادت فاستقرت على التويج ، متزاحمة لتقف كل منها على ظهر الاخريات ، لتصبح مرة اخرى ذلك البرعم المتعدد الالوان ، زهرة « لا توجد في الطبيعة » . كانت بعض الحشرات خضراء ، وبعضها تجمع بين اللونين الاخضر والقرمزي ، والبعض كان شديد الصفرة ، وقد ربت نفسها بحيث تبدو مثل زهرة ذات اطراف خضراء .

وتستطيع نظرية الانتخاب الداروينية ان تفسر اكثر ما نراه من امثلة « المحاكاة » في الطبيعة ، مثل « حشرة العصا » التي تحمل اشواكا على ظهرها . وتستطيع عملية التحول العشوائي ان تنتج مخلوقا يشبه تويج الزهرة فيتمكن من البقاء على قيد الحياة بشكل افضل من اخوته الذين يبدوون في صورة فاتحة لشبيه الكائنات الاخرى . وبينما تستمر الطيور في التهام الحشرات « غير المحاكاة » ، تستمر الطبيعة في « صقل » التشابه في الجانب الآخر . ولكن كيف يمكن ان يطبق هذا المبدأ على جماعة بأكملها ؟ ان « الانتخاب الطبيعي » يؤثر على الافراد وحدهم ، فنحن لا نستطيع ان نتخيل ان جماعة بأكملها قد خلقت عن طريق تكتل هائل للجينات ثم بطريقة عارضة ، ثم تتعلم بطريقة عارضة ايضا ان تحاكي زهرة من الزهور . ولكننا اذا افترضنا ان جماعة « الحشرة المفردة » هي بمعنى من المعاني « فرد واحد » وعقل واحد ، اذن لاصبحت المشكلة اقل تعقيدا .

فاذا افترضنا هذا الفرض ، فسيكون علينا ايضا ان نسقط فكرة ان الجينات لا يمكن ان تتأثر بشكل تليباي . فالبديل لهذا هو ان نتخيل الآلاف من جماعات الحشرة المفردة وهي تعلم نفسها ان تحاكي الزهور ، ولكن هذه المعرفة تمحى تماما في الجيل التالي حينما يفشل « الاطفال » في وراثة الوان ابائهم ، حتى

يأتي اليوم الذي تمد فيه الطبيعة يدها برفق وتسمح للحيلة بأن تصبح وراثية .

لم يكن داروين نفسه مقتنعا كل الاقتناع بأن الخصائص المكتسبة لا يمكن ان تورث . وقد طلب منه عالم الحشرات « فابر » ان يفسر حالة النحلة الفرنسية المعروفة باسم « امونوفيلاس » التي توفر الطعام ليرقاتها بأن تلدغ دودة فسي مركزها العصبي فتشلها . وتقوم حجة فابر على انه لا بد ان تكون النحلة دقيقة كل الدقة في عملية اللدغ ، لانها لو مدت « حمتها » الى عمق اكبر من اللازم لقتلت الدودة ، اما اذا فشلت في الوصول باللدغة الى العمق الكافي لاختدت الدودة تتلوى وسحقت اليرقات . ويقول فابر انه لا بد ان النحلة قد تعلمت هذه الحيلة في « المرة الاولى » او « دفعة واحدة » ثم نقلتها بشكل ما الى اطفالها - والا لما كان هناك اطفال لها . وفي كتاب « علم الحياة » يوجه ويلز الى فابر الاتهام بالمبالغة ، ويصف دقة النحلة بأنها « انعكاس خشن وجاهز خال من التعقيد الشديد » ، وقد شيد نقده هذا على دراسة للأنواع الكثيرة من نحلة الامونوفيلاس الأمريكية . ولكن هذا لا يؤدي الى اختلاف جوهري مع حجة فابر القائلة بان النوع ما كان يمكن ان يبقى وان يستمر دون نقل هذه الحيلة بشكل ما منذ الجيل الاول .

ومرة اخرى قد يحق لنا ان نسأل : كيف استطاع الانسان ان يطور البشرة الجلدية السمكية في اخمص قدميه واسفل الكعبين ؟ من الواضح ان السبب هو المشي قوقهما . ولكن لماذا يتميز « كل » البشر بهذه الخاصية ؟.

وفي مجموعة المحاضرات التي القاها السير الستر هاردي (الذي كان استاذاً لعلم الحيوان في جامعة اوكسفورد وكان داروينيا بارزا) تحت عنوان « التيار الحي » في جامعة جيفورد ، طرح هاردي ظاهرة اكثر غرابة . هناك دودة شريطية تسمى « مايكروستوهام » استطاعت ان تكتسب وان تطور نظاما دفاعيا فريدا . انها تلتهم الكائن المرجاني البحري المسمى « هيدرا » لكي تحصل على كبسولاته اللدغة (التي تسمى نيماتوكيستس) . وحينما يتم هضم الهيدرا في امعاء الدودة ، تعلق كبسولات اللدغ الباقية منها في جدران معدة الدودة ، فتصبح كالفوهات المفتوحة مثل فوهات البنادق ، مستعدة لاطلاق ما تحتويه من مادة سمية عند لمسها . ومن الغريب ان هذه الكبسولات لا تنفجر عندما تلتهم الدودة الكائن « هيدرا » . والاغرب من هذا ان الدودة لا تلتهم الهيدرا باعتباره طعاما ، وانما لكي تسرق ما يملكه من « قنابل » فقط . وحينما يكون على جلدها الخارجي ما يكفي من هذه القنابل الجاهزة ، فانها لن تقترب من الهيدرا ولن تلمسها حتى لو كانت تموت جوعا .

... وبعد مناقشة بعض المشاكل المشابهة ، يخطو السير الستر هاردي خطوة

هائلة باقتراح ان التليباتي يستطيع في الحقيقة ان يؤثر في الجينات ، رغم ان هاردي يهتم بان يؤكد ان هذا ليس سوى نوع من التخمين . والتشبيه الذي يستخدمه - ملاحظا انه : « ليس سوى تشبيه وليس جزءا من الفرضية التي يطرحها » - يقيم التناظر بين هذه الظاهرة وبين رسام يختار الالوان الصالحة للوحة سوف يتم انتاج آلاف النسخ منها . انه قد يقرر الاستمرار في المحافظة على التنوع بين الالوان ، لكي يحاول الحصول على اقصى تأثير ممكن . ويفترض السير المستير وجود « عقل جمعي » لحيوانات النوع الواحد ، ويلعب هذا العقل الجمعي دور الرسام . ولكن الرسام يختار الوانه واضعا في اعتباره التأثير الكلي النهائي للوحة . ها نحن نمود - باختصار - الى فكرة الهدف . والاكثر اهمية ، نمود بفكرة ان « العقل الجمعي » يستطيع ان يؤثر مباشرة على نظام الجينات ، التي تعادل في اللوحة نظام ملاقات الالوان .

ان كل ما نصل اليه بناء على كل هذا هو الانتخاب القائم على المصادفة الذي يصر عليه ويلز ، انما يترك الكثير من الظواهر دون تفسير . لا يشك احد في ان الانتخاب القائم على المصادفة هو بالفعل قوة كبرى من قوى التطور . ولكن لا يشك احد بعد هذا في ان انواعا مختلفة من المصادفة تلعب دورا هاما في حياة سكان المدن : انني قد التقى برجل ينقل الي عدوى نزلة برد حادة ، او يغير مسار حياتي كلها . ولا يعني هذا ان كل ما افعله ، من الاستيقاظ في الصباح حتى الذهاب الى الفراش والنوم في الليل يخلو من الهدف . على العكس ، ان المصادفات العارضة لا تحدث الا على اساس خلفية عامة من الاستهداف نحو فرض معين . وينطبق نفس الشيء على التطور .

ان مثالا واحدا من الامثلة التي نوقشت في الفقرات السابقة ، لا يمثل ادنى مشكلة لنظرية التليباتي في التطور . اننا نفترض ان الحياة هادفة فسي اساسها . انها تنظم المادة من اجل اهدافها الخاصة ، وهدفها هو ان تصبح اكثر تعقيدا ، اي اكثر حرية . فعلى سبيل البداية ، انها تركز على تطوير القوى التليباتية - نفس القوى التي تساعد الحشرة المفردة على ادراك مكانها من «البرعم» . وقد ساعدته هذه القوى أيضا على تمرير العديد من الاكتشافات الهامة الى الجينات . ولهذا العقل الفريزي ، عقل الجماعة ، مستويات عدة . ففي المستوى الاول ، يقوم هذا العقل بتنظيم جماعة الحشرات المفردة في شكل زهرة ، ويتأكد من ان بعضها اخضر اللون ، والبعض الاخر نصف اخضر ونصف مرجاني ، وبعضها مرجاني او قرنفلي تماما . وعلى مستوى آخر يقوم بتنظيم خلايا معدة الدودة الشريطية لكي تحمل الحويصلات اللادغة الى الجلد الخارجي . ذلك ان كل ما نعرفه يدلنا على ان الدودة الشريطية قد تكون قادرة على ان « تأمر » الخلايا بان تحمل الحويصلات اللادغة ، تماما مثلما امر انا الان اصابعي بان تضغط على هذه الصحيفة .

وفي التكوينات العضوية البسيطة مثل الدودة الشريطية ، فان الارتباطات والتوصيلات الفريزية قد تكون اكثر مباشرة . وتؤكد هذه الفكرة بدورها ان كل انواع العمليات انما تحدث الآن في جسدي ، رغم انه من الواضح انني لست واعيا بها . ان الفرضية التي وضعها كيبنر عن وجود عقل جمعي بين خلايا الجسم ، لتنطبق على كل مستويات الحياة .

ان المهارات التي استطاعت الطيور والحيوانات ان تكتسبها وان تطورها تشير الى ان الحياة قد قطعت شوطا طويلا نحو هدفها : السيطرة على شكلها المادي . ولكن بينما تبدو غريزة الاهتداء الى البيت عند الطيور ، او غريزة الانتظام على شكل زهرة عند الحشرة المفردة و«الحاسة السادسة عند الكلاب» ، بينما تبدو هذه الغرائز باعتبارها منجزات بارزة ، فانها بشكل ما ، طرق مسدودة لا تفضي الى شيء . ذلك ان هدفها ليس سوى مجرد البقاء على قيد الحياة . فبعد ما يقرب من نصف مليون سنة من التطور ، فان الخاصية او الميزة الاساسية للحياة هي القسوة : اطفال النحل تاكل دودة شجر حية ، وبعبان يتلعب ضفدعة حية . وقوة التواصل التليباتي بين افراد النوع المتباعدين لم تتضمن اي تعاطف مع الانواع الاخرى . فرغم كل ما تتمتع به الحياة من « ملكات نفسية » فقد ظلت ضيقة وشريرة .

كان ما يزال عليها ان تخطو الخطوة العظيمة التالية - واطخر الخطوات على الاطلاق حتى ذلك الحين . كان عليها ان تكتشف طرقا واساليب جديدة لقهر عالم المادة ، ذلك الذي يعمل وفقا لقوانينه المعقدة الخاصة . كان عليها ان تفهم تلك القوانين ، وان تضع عليها يدها وان تدركها باعتبارها « تعميمات » شاملة . وقد عنى التعقيد المتزايد للاشكال التي كانت تتعلم ان تتعامل معها ، عنى انها كانت بحاجة الى بناء « تصاعدي » متراكب . ان رئيس عمل صغير ، يستطيع ان يظل على اتصال مع كل شيء بنفسه ، ولكن اذا اصبح العمل كبيرا جدا ، فانه سيكون بحاجة الى بناء متكامل من المديرين ، ونواب المديرين ورؤساء المجموعات ، واسطوانات الورش وما الى ذلك . وستكون وظيفة الرئيس هي ان يلقي نظرة شاملة تاركا كل الوظائف المنتظمة العادية لنوابه . والحقيقة هي ان كل كائن انساني هو في النهاية رئيس مؤسسة متعددة الفروع عملاقة .

انه « الرئيس » . . . ويستطيع اذا شاء ان يفعل اي شيء بنفسه . . . ولكنه لم يعد يملك السيطرة المباشرة التي تملكها الدودة الشريطية على خلايا معدتها . ولكنه اذا احتاج هذه السيطرة حقا ، فانه يستطيع الحصول عليها . انه اذا احتاج ان يستعيد قدرة التليباتي او التنبؤ اللاواعي بالخطر - « مثل حساسية الادغال » فانه يستطيع ان يعيد تنشيط هذه القدرة عن طريق مجهود مكثف .

ولكن هنا تكمن النقطة المحورية . ان الخطر الرئيسي الذي يهدده هو نوع من « فقدان الذاكرة » . ان تعقد العمل ، قد يدفعه الى التوتر لدرجة ان يقضي كل وقته منزعجا مهموما دون عمل مؤثر في مكتبه ، محدقا بعينين دائختين في صفحات الميزانيات وارقام الاحصائيات ، متمنيا لو انه كان ما يرال صاحب عمل عائلي صغير . « انه ينسى ضخامة ما يملكه من قوة حقيقية » . وحينما يبلغ هذه المرحلة - بان يصبح مجهدا موهونا باليا - فمن المهم له ان يهبط الى الورشة في الطابق السفلي ، وان يشمر اكمامه ، لكي يعيد الاتصال مع ذاته الاكثر بساطة والاكثر غريزية .

وهذه نقطة تتجاوز اهميتها مدى هذه المناقشة عن علوم الفيب . اننا نفكر الآن في اكثر قوانين الطبيعة الانسانية اهمية . فالانسان يكون في افضل حالاته حينما يكون لديه احساس قوي بالهدف . فحينما تكون وعيي قائما بعمله المناسب - اي ان يقوم بادراك شيء من التعقد الهائل في الكون ، والبحث عن كيفية زيادة سيطرته وقوته - فان طاقته تفيض الى اللاوعي ، وتثير كل قوى العقل اللاوعي . وحينما يحدث المحز عن الوصول الى الهدف الواعي ، او عن تبين هذا الهدف ، فان كل شيء اخر ينهار ببطء .

لماذا طور الانسان الوعي ؟ لقد اقترحت الاجابة على هذا السؤال في مقدمتي للكتاب . ربما كان قد فقد قدراته الحيوانية على التليباني ، ولكنه ايضا كان قد فقد عى الالوان الذي كان يعاني منه . فحينما يتجهج الانسان بالتناقض بين لون السماء الازرق ولون الحقول الخضراء ، او بالوان السحب عند الغروب ، فانه يكون في هذه اللحظة قائما يعمل على مستوى رفيع من الحيوية لا يستطيع اي حيوان ان يقوم به .

وان احساس الانسان بالجمال لهو الناتج المباشر للدافع التطوري لديه . انه احساس مرتبط بالقدرة على ادراك ما هو معقد والسيطرة عليه . فلو انني نظرت الى منزل من عصر التيودور قائم وسط المروج الخضراء واحواض الزهور ، ونهير صغير يجري عند طرف الحديقة ، فان احساسى بالجمال هو بالفعل احساس « بالتعقد » و « النظام » . وكلما ازداد احساسى بعمق البقطة واسماعها ، كلما « استوعبت » تلك المداخل والجمالونات ، وتقاطعات الدعامات الخشبية ، والنوافذ ذات الاطارات الرصاصية ، واحواض الزهور البزاقة بالالوان . انها تولد المتعة لانها تولد احساسا بقدرة العقل على السيطرة على بيئته . وقد ابصر منظرا لا يقل عن هذا تعقدا من نافذة قطار - اكوام الاوساخ ، ومداخل المصانع ، واحياء المنازل القادرة - ورغم انه لا يقل تعقدا عن النظر السابق ، فانه لا يولد اي متعة لانه يبدو كالبرهان على الفشل الانساني في السيطرة على البيئة ،

ودلالة على اناس تركوا الحياة « تهبط بهم الى القاع » . ومن الجانب الآخر ، قد انظر الى جانب من منظر طبيعي لا يقل قوضى - ممثليء بالصخور المسننة ، في تلال جرداء تحت سماء عاصفة - ولكن لانني لا اشعر بالاحتياج الى السيطرة عليه ، فانه يبدو لي منظرا جميلا، لانني استطيع ان استوعب تعقده وتركيبه

الاحساس بالجمال اذن هو احساس بالتعقد او التركيب وبالسيطرة عليه . ولا يكفي احساس منهما دون الآخر . ان المصاب بالعصاب يرى التعقد ، ولكنه يحس به يطفى عليه ويقلبه . انه يفتقد الاحساس بالهدف . وحينما صاح الاسكندر الاكبر مطالبا بعوالم اخرى جديدة لكي يفزوها ، كان يمتلك الاحساس بالهدف ولكنه لم يكن يمتلك الاحساس بالتعقد . لقد شعر بانه وصل الى « نهاية العالم » .

فاذا فكرنا الان في الوضع الامثل لقلنا انه لا بد ان يكون هناك نوع من « الحركة الارتجائية » المستمرة . فالتعقد المتزايد ينبغي ان يولد احساسا متزايدا بالهدف ، وشهية متزايدة التفتح للحياة . وينبغي للشهية المتزايدة التفتح للحياة ان تستثير العقل لكي يوسع من آفاقه ، ولكي يدرك انواعا جديدة من التعقد . ان ما يحدث في التطبيق العملي هو ان البشر حتى اكثرهم عظمة يبلفون نقطة معينة يفقدون عندها الشجاعة ، فلا يريدون اي مزيد من التعقد، وتضمحل ايضا شهيتهم للحياة . ولكن من الممكن ان نتخيل انسانا استطاع ان يعبر هذه النقطة الخطيرة، بشرتب عقله ويتطاول دون نهاية لكي يصل الى تعقدات جديدة ، ويستشعر احساسه بالبهجة لكي يصل الى مستويات جديدة من الهدف من خلال التعقدات الجديدة . فاذا استطاع عقل الانسان ان يبلغ هذه النقطة - التي تشبه « الكتلة الحرجة » في الانفجار النووي - لا يمكن ان يصبح شبيها بالاله . . هناك نوع معين من القلق واليقين انساني الى درجة فريدة ، الحواس تشرتب وتتطاول بلهفة الى العالم ، كما لو كانت تريد ان تعانقه . وكثيرا ما يشعر الانسان بهذه النشوة من اليقين حينما يواجه الكون: البهجة الخالصة في تعقده ، والرغبة في الغوص فيه بقفزة تثير الرذاذ الكثير . ولكنه . . يشعر بالتعب ، ويخبو القلق وتلاشى اللهفة . وليس هذا الاخفاق الا نوعا خالصا من الافتقار الى تنظيم الذات . ان الشخص البالغ يستطيع ان يزيد من قدرته على التحمل العقلي عن طريق التدريب المنتظم الواعي ، حتى يستطيع - على سبيل المثال - ان يستمع الى احدى اوبرات قاجنر كاملة دون ان يشعر بالاجهاد .

ولا بد ان يؤدي هذا الى توضيح السبب الذي يجعلنا مختلفين الى هذا الحد عن الحيوانات الدنيا . فليس هناك حيوان يمتلك تلك القدرة على التطاول بنشوة من اجل ادراك العالم . ان غرائز الحيوانات اكثر حدة من غرائزنا ، وهي اكثر قربا من الطبيعة . ولكنها لا يمكن ان تعرف تلك البهجة السامية للخيال

اذ يلهب بالنار ويسكر منتشيا برؤاه الخاصة، وهذا هو ما يهدف اليه التطور الانساني .

ولكن الانسان اختار طريقا شاقا صاعدا وعرا . من الحق ان تلك القدرة على ادراك العالم قد حققت نتائج هائلة . فقد اصبحت الحياة اكثر سهولة الى درجة لا يمكن قياسها - على سبيل المثال - حينما تعلم الانسان ان العشب البري يمكن ان يبلر وان يزرع وان يحصد ، وان الحيوانات الوحشية يمكن ان تروض وان تربي للحصول على لحومها وعلى جلودها . وقد وضع البروفيسور ل. م. ويتفوجل في كتابه عن تاريخ الاقتصاد الصيني ، وضع تقريرا قال فيه ان الزراعة يمكن ان تغذي ما بين عشرين الى خمسين ضعف ما يمكن ان تغذيهم عمليات الصيد من البشر . وهذا يعني ان الانسان قد حصل على وقت فراغ يزيد ما بين عشرين الى خمسين ضعفا . ولكن ، من الجانب الآخر ، فان هذه الحياة المرتفعة الوعي كانت ضيقة وشاقة، بل وكثيبة اذا ما قورنت بالصيد والفزو وشن الحروب . ان الكتاب الرومانتيكيين المحدثين يحبون ان يعلنوا ان الفلاحين اكثر قربا الى الطبيعة من سكان المدن . ولكن هذا ليس صحيحا بشكل كامل . فان رجلا مثل جون كاوبر بوير يتمتع برباط صوفي غامض مع الطبيعة لانه يمتلك « الفراغ » الكافي لكي يفكر ولكي يستخدم خياله . اما فلاح العصر البرونزي فقد كان عليه ان يبذل جهدا هائلا في العمل لدرجة تمنعه من ان يعتني بخياله . وبدلك ، فرغم ان المحراث قد حرره ، بمعنى ما ، من الاعتماد على الصيد اليومي، فانه قد وضعه في سجن جديد : بيته ، وحقله ، وحظيرة ابقاره .

وقد كان ما حدث حتميا لا مهرب منه . وكان الناس الذين حافظوا على الدرجة العالية من « مواهبهم النفسية » القديمة نادرين . ان القدرة النفسانية تنبع من نوع معين من السكينة الداخلية ، يصبح العقل في اثنائها صافيا ، مثل بحيرة صغيرة من الماء ، يسمح سكونها للطين بالاستقرار في قاعها . اما الرجال الذين امتلكوا تلك القدرة فقد اصبخوا اطباء وكهنة وعرافين . وما زال هذا الى اليوم صحيحا مثلما كان صحيحا منذ خمسة الاف سنة . وهناك تقرير حديث عن هنود قبائل « هيو تشول » في جبال سييرامادري في المكسيك ، وهم يدينون بدين يعتبر من الاديان الباقية من عصر ما قبل كولومبس . ويصف التقرير « الشامان » المدعو « رامون مدينا » ، وهو ايضا الفنان الاول للقبيلة ، وهذا امر له مغزاه . وقد حدث ان زار الشامان قريته « سان اندريز » فاحس بوجود الموت ، وسار نحو منزل مغلق حيث اكتشفت جثة رجل مقتول في سطح المنزل . ويعلق نورمان لويس على هذا بقوله ان الجثة قد تم اكتشافها : « من خلال ظاهرة تلقي قيولا كاملا في هذا الجزء من العالم - ويتقبلها حتى آباء

الارسلالية الفرانسيكانية - باعتبارها نوعا من الادراك يتجاوز الحواس » (٢٤)

ان هذه القدرة التي كشف عنها « انشامان » من الممكن اكتشافها وتطويرها ، مثل عملية البحث عن الماء تحت الارض ، عند اي انسان . انها جزء طبيعي تماما من التكوين العام للمخلوقات الحية . ولكننا غير مدركين لامكانياتنا الخبيثة رغم الاهتمام المتزايد بالبارا سيكولوجي Para - Psychology . وقد تم الكشف عن احدى هذه الامكانيات عن طريق البحوث التي قام بها الدكتور ج. ب . راين في جامعة ديوك . اقترح احد المفكرين ان يبحث فريق الباحثين في الباراسيكولوجي اعتقادا خرافيا لدى المقامر نفسه يقول بانه من الممكن للعقل ان يسيطر على رمية « الزهر » . وتمت ثماني عشرة مجموعة من الاختبارات على مدى لا يقل عن ثماني سنوات . وحينما فحصت هذه الكمية الهائلة من الاحصائيات بعناية ، اكتشفت نتيجة عجيبة . فحينما تعرض الناس للاختبار في البداية ، كانت الارقام التي يسجلونها دائما مرتفعة بالنسبة لـ « الفرصة » المتاحة ارتفاعا كبيرا . وفي الجولة الثانية كانت ارقامهم تنخفض بشكل جذري ، ثم انخفضت بشكل اكبر في الجولة الثالثة . وبكلمات اخرى ، فان العقل كان يستطيع بشكل اكبر ان يؤثر على رمية الزهر حينما يكون منتعشا قبل ان يملكه الضجر ..

قد يبدو في البداية ان نتائج راين تناقض ما قلته : انه يمكن ان تنمي تلك القوى وان تطور بشكل عمدي مقصود . ولكن الشيء الذي تثبتته الاختبارات بالفعل هو انه حينما يكون العقل منتعشا - اي كامل اليقظة متنبه الاهتمام - فان قواه تكون كبيرة . ولكن التكرار يفيل من هذه القوى ويوهنها . ولكن ، ما هو الضجر ؟ انه نوع من تثبيط الهمة او انتزاع الشجاعة ، اضمحلال في الارادة راجع الى احساس بان .. « المسألة لا تستحق كل هذا .. » . وما تظهره نتائج راين بوضوح هو ان قدرات الانسان النفسية تكون عند اقصى امكانياتها حينما تستثار ارادته ، ثم تخبو بشكل جذري حينما تضمحل ..

... وفي الحضارة الحديثة ، بنفس اكثر الناس في أعمال روتينية مضجرة ، نادرا ما تستفز الارادة ، وهي بالتأكيد لا تستثير الخيال . والنتيجة حتمية لا يمكن تجنبها . اننا شبه طائرة ذات اربعة محركات ، ولكنها تطير بمحرك واحد . وقوانا النفسية الطبيعية تنضب تقريبا حتى النهاية .

ولكن هذه الملاحظة اقل كآبة في الحقيقة مما تبدو . ذلك اننا لا بد ان

(٢٥) الناجون ، صنداي تايمز ، ٢٦ ابريل ، ١٩٧٠ .

نسأل مما يؤدي بالفعل الى ذلك الاضمحلال الهائل في قوانا ؟ الضجر ، والميل الى الهزيمة . ولكن ما هو الميل الى الهزيمة ؟ انه اساسا حالة عقلية يفرضها الجهل : وهنا يتذكر المرء قصة الرجل الذي ظل طيلة الليل متشبها باطراف اصابعه على حافة هوة صخرية ، ولما اشرق النهار تبين ان الارض كانت تبعد عن قدميه ثلاثة اقدام فحسب . لقد اختفى الخوف تماما حالما تمكن من الرؤية بوضوح . وفي حالة الكائنات البشرية ، فان الميل الى الهزيمة راجع الى ذلك الانفصال عن اصولنا اتلاوافية . اننا « مغرورون » في الوهمي ، كالفن اذ تجنب فتغرز الرمال . وضع رجلا في حجرة مطبقة الظلام والصمت ، وسوف يجن في خلال ايام قليلة ، او انه على الاقل سيعاني من تورع عقلي بالغ . لماذا ؟ . لان الارادة تنهار حينما يصيبها العمى ، والانهيار اكبر الى درجة لا يمكن قياسها بالنسبة للسبب الذي ادى اليه . فان قليلا من الضجر يؤدي الى تفكك معنوي كامل .

ولكن كلما زادت معرفة الانسان بكيفية تسليط ضوء كشاف باهر على اعماقه البعيدة ، كلما زادت قدرته على فهم قوته الفعلية ، وكلما قل استعداده لذلك الانهيار المؤلم . ومرة اخرى ، لا بد لنا ان نعترف بان اكثر احتياجه الى الحاحا في هذه المرحلة من مراحل التطور ، هي بعث قدراته النفسية النائمة واعادتها الى الحياة .

وفي هذا الصدد ، كان الانسان البدائي يتمتع بميزة عظيمة واحدة تميزه عن الانسان الحديث : كان يعرف انه يمتلك تلك القوى . ولذلك ، فانه حينما كان يريد ان يطورها ، فقد كانت المشكلة ببساطة هي مسألة افضل الطرق الممكنة لتطورها . فلا بد للبصيرة ان تأتي اولا ، ثم يأتي اسلوب تطويرها .

واريد فيما تبقى من هذا الفصل ان ادرس كلا من هذين الجانبين - البصيرة والاسلوب - عن قرب اكثر .

لا بد ان يكون مفهوما - قبل كل شيء - انه ليس هناك فرق اساسي بين التجارب « الصوفية » وبين التجارب التي تنتمي الى عالم السحر او علوم الغيب . ولان وعي الانسان قد تنامي وتطور بسرعة بالغة ، فانه قد فقد الاتصال مع هويته الحقيقية . وحينما يكون ضغطه الداخلي منخفضا - حينما يكون في حالة من الضجر او انعدام الهدف - فانه لا يكون مدركا الا لاكثر مستويات هويته سطحية وقربا . وكلما ازداد عمق احساسه كلما ازداد ما يدركه من نفسه . وهذا هو السبب الذي جعل ييتس يقول :

حينما .. يقاتل انسان بجنون ،
يسقط شيء من عيون طال بها العمى ،

انه يستكمل عقله الناقص ،
يقف لبرهة مستريحا ،
يجلجل بالضحك ، وفي قلبه السلام ..

ان السطر الهام هنا هو : « انه يستكمل عقله الناقص » .
ولقد حددت المشكلة الجوهرية للبشر بوضوح جميل في كلمات « ل . ه .
مايرز » في بداية روايته « القريب والبعيد » . يقف الامير الشاب جالي عند
مشارف قصر كان قد سافر طيلة النهار لكي يبلغه ، فينظر الى مشهد الغروب
على الصحراء . وبينما يتأمل المشهد ، يفكر بينه وبين نفسه قائلا : « لقد كانت
هناك صحراوان : تلك التي كانت متعة وانبهارا للعين ، والاخرى التي كان من
المجهود ان نجتازها على الاقدام . ويبحث في اعماق قلبه عن الايمان بانه قد
يحدث في يوم ما ان يلتقي القريب والبعيد . اجل ، لا بد ذات يوم ان يمتلك
ما يكفي من طول النفس واتساع الخطو والقوة لكي يحقق وعد الاثق بالوصول . وعد
الافق - تلك هي المشكلة ، ليس فقط بالنسبة للشعراء والمتصوفين ، بل بالنسبة
لكل انسان . ومشكلتنا هي ان علينا ان نعيش مع « الواقع » القائم على
الدوام تحت انوفنا ، مثل ثور يحرك المصارع على الدوام قطيفته الحمراء تحت
عينيه ، فلا يسمح له بان يرى شيئا ابعد من بضع اقدام . وليس من الحق
تماما ان نقول اننا واقفون على الدوام في فخ الحاضر القائم ، لاننا نحصل دائما
على « مسافات التنفس » ، تلك اللحظات التي يبدو فيها القلب كما لو كان
يتمدد بالراحة والبهجة .

ولكن المناقض الشاذ هو المعجز الغريب للومي عن المحافظة على هذه البصيرة
او هذا الاستبصار . ان الامر ليبدو كما لو كان هناك عنصر بسيط مفقود وأنه
هو الذي يترك الوعي لكي يصبح باليا مهترئا مرتبكا ومتخبطا .. حينما يتعطل
الوعي الانساني بوقوعه في حالة الحياء ، يضيق ويفقد كل احساس بالقيم .
وحينما يحدث هذا ، يكف الانسان عن التناول الى الخارج ، وعن ممارسة الرغبة
في الامتداد ، ويخبو الاحساس بالجدوى . وحينما يحدث هذا يصبح اي نوع
من الانكار والقباه ممكنا . وقد يمكن القول بان الفارق الاساسي بين الانسان
العبقري وبين الانسان العادي ، هو ان العبقري يمتلك قدرة اعظم على التركيز
بشبات على قيمه الحقيقية ، بينما يفقد الانسان العادي دائما رؤيته لاهدافه
ولما يرمي اليه ، متغيرا متحولا من ساعة الى ساعة ، بل يكاد يتغير من دقيقة
الى دقيقة ، والمجرم هو الانسان الذي امتدت عملية استلاب القيم هذه عنده
الى مدى اكثر بعدا .

لماذا انفق كل هذا الوقت الكثير في التاكيد على « عدم كفاية » الوعي
الانساني ؟ لانه اذا ما تم فهم هذا ، لا يمكن لنا ان نلمح المكنيات وجود نوع كفو

وصالح من الوعي. ولقد كان المتصوفة العظام والقديسون واصحاب الحدى والبصيرة في الماضي ، كانوا ببساطة رجالا تحققوا من وجسود بعض تلك الامكانيات . ولكنهم كانوا يجاهدون نحوها اعتمادا على الفريزة وحدها ، وسط نوع مما يشبه الظلمة المحيطة بالحدس ، مثل رجال يحاولون ان يكتشفوا طريقهم وسط الضباب . اما الانسان الحديث فيمتلك امكانية فهم الكيفية التي يعمل بها الوعي ، فيسير مباشرة نحو هدفه ، وقد توترت الارادة الى اقصى حدود كفاءتها.

ليست مشكلة الانسان هي عجزه عن تحقيق ذلك النوع من الوعي الضروري لتحقيق اقصى استخدام ممكن لقدراته ، وانما هي عدم ادراكه لما يمكن ان يتحقق عن طريق مثل ذلك التركيز. ويؤدي هذا الاكتشاف الى صياغة فكرة ذات اهمية محورية : ان النزوع الى معرفة الغيب ليس محاولة لازاحة الستار عن المجهول ، وانما هو محاولة لازاحة ستار العادية والابتدال اللذين نسميهما: الحاضر القائم .

ان الطريقة الاساسية للقيام بهذا العمل بسيطة للغاية . اني بشكل طبيعي « مغلول الى نفسي » . فاذا لم يكن ما افعله بشكل خاص ، فانني ببساطة قد اترك عقلي لكي يضل دون هدى : فيفكر في اشاعة ما ، او يحاول ان يتذكر كلمات اغنية شائعة ما ، وقد استغرق في مشكلة ما او في بعض الاحزان، او في برنامج ما رايت في التلفزيون في الليلة السابقة . انني « اختار » ما استخدم وعيي فيه . ويمكنك القول بان الوعي يشبه الصندوق ، وانني الذي يقرر ما يضعه في الصندوق .

فلنفترض انني اقوم بجولة في منطقة اليحيورات . وتقع عيناى على منظر مؤثر ، ولكنني ساراه من خلال غلالة من نوع معين - غلالة تصنعها ذاتي ومشاغلي الصغيرة السابقة . انني اسمح للمنظر بان يرتبط بـ « ذبذبات » عادية لا شأن لها .

ولكن فكروا فيما يحدث لو ان المنظر الذي انظر اليه قد تصادف واربط بنوع من الذبذبات اكثر عمقا . مثلا ، لو انني كنت انظر الى المروج الخضراء حول « هاوورث بارسوناج » فجعلتني افكر في رواية « مرتفعات ودرنج » ومأساة فتيات « برونتي » الثلاث (١) . ما الذي يحدث وانا اشعر بالذبذبة المفاجئة

(١) فتيات برونتي الثلاث : يقصد آن وشارلوت واميلي برونتي ، الشقيقات الاديبات الثلاث اللواتي اشتهرن باعمالهن الروائية المنفردة او المشتركة في الحركة الرومانتيكية الواقعية الانجليزية في القرن الماضي ، واتخذن اسم « بل » فصدرت اعمالهن باسماء : آكتون وكيور واليس بل ، على التوالي . اشتهرت من اعمالهن « مرتفعات ودرنج » لاميلي ، بتعبيرها الملتهب وعواطفها الجامحة واخلاقياتها المتحررة سلوكيا المتزمنة فكريا ، واشتهرت ايضا رواية شارلوت « جين اير » برومانتيكيتها الميلودرامية الرقيقة . (هـ . م . هـ) .

للجدية ؟ ان ما يحدث ببساطة هو انني انقذ من نظرتي الشخصية ، القريبة ، الى الحياة ، النظرة الشبيهة بنظرة عين الدودة . اتذكر ان الحياة اضخم ، واكثر اثارة ، واكثر اهمية ، واكثر مأساوية ، مما كنت اراها . او بالاحرى انني كنت « اعرف » هذا طول الوقت ، ولكنني كنت اسمح لنفسي بان انسأها .

وتقوم كل انواع الفنون بعملها بهذه الطريقة - بان تنقذنا من التفاهة التي نختارها لانفسنا بانفسنا ، وهي انتفاهة التي نحن على استعداد لها الى حد كبير . انه مثل نغمة عميقة يعزفها الارغن فتجعل شعري يقف وتسري الرعدة في كل جسدي . انني « اراجع » عن الحياة ، مثل آلة التصوير السينمائي اذ تسجل لقطة بعيدة بعدسة ذات زوايا عريضة . انني - ببساطة تماما - اصبح مدركا بوجود حقيقة اكثر واكبر مما كنت اعرف من قبل .

من الواضح انني استطيع اما ان اقاوم ميلي الخاص للفرق في التفاهة ، او ان اتقبله كشيء بديهي مسلم به . ان ما يدعوه شو بفترة « اليقظة الاخلاقية » - التي تطرا على حياة اكثر الاذكياء المثقفين في بداية مراهقتهم ، بل وقبل هذا احيانا - اما هي مجهود عمدي مقصود لتخلص من تفاهة الطفولة ولتركيز العقل على مسائل من نوع اعظم : الفن ، او العلم ، او الموسيقى ، او الاكتشاف .

ومع « ذبذبة الجدية » ياتي نوع من « التصلب » الداخلي ، كما لو ان حبلا متديلا مرتخيا قدعلق فيه فجأة ثقل ضخيم .

وقد يحدث هذا « التصلب » من خلال جهد معين تبذله الارادة او يبذله الخيال ، وقد يحدث بشكل تلقائي - اي دون اي جهد واع ظاهر (كالاستشارة الجنسية ، على سبيل المثال)

ولا بد ان نؤكد ان هذا التصلب الداخلي ، « ذبذبة الجدية » هو هدف كل النظم الغيبية والصوفية والدينية ، لانه حينما يحدث ، فان الانسان يشعر بتزايد احساسه بالقوة . . على الانسان ان يتخلص من فخ قيمه الضيقة الخاصة ، وان يبقى متفتحاً للقيم الاكبر والاعظم من ذاته . ذلك ان الغاية من وجود الشر هو ان « يتصلوا » بقيم خارج ذواتهم ، وان يصبحوا غير مدركين لدوافعهم باعتبارها « شخصيات » .

والآن وقد حددنا هدف البحث وموضوعه ، فان السؤال الثاني سيكون عن الاسلوب .

فاذا كانت مشكلة الانسان الكبرى هي نوع من التشبث والميل الى صنع الجبال من الهباء المتناثر ، فمن الواضح ان الحل لا بد ان يكمن في مجال التركيز .

ولقد كان هذا على الدوام هو النظام الديني الجوهري . ولكن ، هنا تكمن نقطة هامة لا بد من ادراكها . ان التركيز يشبه بالتحديد عملية تعلم الرياضيات والحساب في المدرسة : انها « قد » تكون تمرينا منفصرا الى درجة كبيره لا يثير شيئا سوى المشاعر او العواطف السلبية . فاذا كنت اكره الرياضيات ، فيكاد يكون السبب اليقيني لذلك هو ان تعليمي كان بطريقة رديئة ، ولان لدي نوعا من المقاومة الداخلية للموضوع ..

ولا بد ايضا ان يكون التركيز تمرينا مجتمعا بشكل كامل ، فلا يطلب الا لمجرد ما يمكن فيه من بهجة خالصة . ذلك لانه حينما يمارس بشكل صحيح ، فانه يحدث حركة ارتجاعية مباشرة وفورية نحو البهجة ، اي نفس ذلك الاحساس بالحيوية المتزايدة التي يشعر بها الانسان في النشوة الجنسية ، او حينما يتم التغلب فجأة على أزمة معينة .

ان ما لا بد من ادراكه هنا هو « هدف » التركيز . لنفكر في المشهد الافتتاحي من « فاوست » ، حيث كان فاوست قد دفع نفسه الى حالة من الهزيمة واليأس ، والسبب في هذه الحالة واضح : كان تفكيره قد اصبح قاحلا مجدبا لا هدف منه ولا غاية يسعى اليها ، وكان قد غرق في حالة من هبوط الحيوية حيث لا يؤدي المزيد من الجهد الى فعل ارتجاعي ما . وحينما يكون على وشك الانتحار ، تدق اجراس عيد الفصح فجأة لكي تذكره بطفولته بوضوح و« تدعوه للعودة الى الحياة » . ويتذكر حينما كان : « حب السماء يندفع نحو مثل القبلية » ويقول :

اشتياق حلو لا يمكن ادراكه
كان يدفعني الى التجول عبر الغابات والحقول ،
وبالف دمعنة محترقة ،
شعرت بعالم ينهض داخلي .

لقد عاد الى الاتصال بالحقيقة الخارجية ، كان قد شق طريقه خارجا من الفقاعة الزجاجية التي كانت تحيط به .

من الممكن ان نرى على الفور انه اذا كان فاوست قد قرر ان يتخلص من يأسه الخائى عن طريق مجهود من التركيز ، لكان السؤال الحاسم هو البحث عما ركز « عليه » . لقد وجهت اجراس عيد الفصح جهوده مباشرة الى « الواقع » . ودون هذه الاجراس ، لكان قد بذل مجهودا هائلا لكي يجهد نفسه فحسب . ولو ان مسافرا كان يموت من العطش في احدى الصحاري ، لكان من المهم ان يوجه كل ما تبقى له من الطاقة نحو اقرب واحة من مكانه .

وقد كتب ت . س . اليوت فقرة مشابهة في القسم السادس من قصيدة
« اربعاء الرماد » بعد ان يصف الاجهاد والركود ، فيقول :

... ورغم انني لا ارجب في ان ارجب تلك الاشياء
فمن النافذة العريضة صوب الشاطئ الجرائتي
الاشرعة البيضاء ما تزال تطير صوب البحر ، صوب البحر طائرة
اجنحة غير منكسة

والقلب الضائع يتصلب ويبتهج
في زهرات الليلك الضائعة واصوات البحر الضائعة
والروح الضعيفة تسرع الى التمرد
بسبب العصا الذهبية المحنية ورائحة البحر الضائعة . .

هنا نجد مرة اخرى تجربة اجراس عيد الفصح ، ولكنها تستثار في هذه
الحالة بواسطة رائحة البحر والعصا الذهبية ، ودفقة البهجة والقوة التي
عبر عنها الشاعر في : « الاجنحة غير المتكسرة » .

ان هذه القدرة على ايقاظ تلك النشوة الخالصة موجودة لدينا طول
الوقت ، ولكننا نحتاج الى فهمها قبل ان يمكن السيطرة عليها . ان دفقة القوة
التي تجعل « القلب الضائع يتصلب » انما هي قوة تقفز الى الخارج لكي « تقابل »
الاحساس بالواقع .

ومن الممكن ان تتحقق نفس هذه اللحظة من خلال الازمة . ان قسيس
جراهام جرين السكير في رواية « القوة والمجد » لا يجرب اليقين الكامل الا
حينما يكون على وشك ان يقف امام فصيلة الاعدام لكي يطلق عليه الرصاص .
حينذاك يتبين فجأة : « انه كان من السهل عليه تماما ان يصبح قديسا »
و . . « شعر كما يشعر شخص تأخر ثواني معدودة بفاته السعادة » . تماما .
ان الامر يكاد يكون مضحكا . اننا ننفق حياتنا في التحديق في اشياء
بالفة القرب حتى اننا نفشل ببساطة في ادراك معانيها الواضحة . يجرنا
الى اسفل نوع من الكسل . ليس ما يدعو الى العجلة . ثمة وقت كثير ، انت ،
يا من تقرأ الآن هذه الكلمات : هذا هو شعورك بالتحديد . هناك الفد ،
واليوم الذي يليه . ولكن حاول ان تركز على ما حدث للقسيس السكير فسي
مواجهة فصيلة الاعدام ، انه يعرف ، من خلال صدمة مرعبة انه على وشك ان
يموت ، الان ، وفي غضون ثوان معدودة . يتمرد كيانه الداخلي . وتندفق طاقاته
مثل موجة مد عاتية . انه يبذل مجهودا جبارا اكثر من كل ما بذله طوال
حياته . انه مثل سندباد اذ يرمى عجوز البحر من فوق كتفيه . انه يجرب الحرية
ثانية واحدة ، ثم يتبين في ياس انه كان يستطيع ان يبذل هذا المجهود في اي

من الثواني البليون او نحوها التي عاشها .. لقد اضاع حياته في نوع من الحلم ،
اننا جميعا في هذا الموقف، جميع البشر . فاذا امكنك ان تركز بوضوح على هذا
الموقف ، لاممكنك ان تدرك ما تعنيه الكنيسة بالحديث عن « الخطيئة الاصلية » .
اننا - انت وانا - لاكثر قوة الى غير حد مما ظننا ابدا .

« هذا » هو ما ينبغي ان ينصب عليه التركيز . انه لا يمكن ان يكون اكثر
من نوع آخر من الحلم . ومن الممكن ايضا ان يكون محاولة لتفجير
فقاعة الحلم .

ولكن ثمة خطر معين في اعتبار حكاية القسيس السكير نقطة انطلاق الى
التركيز : خطر النظرة السلبية . ليس هناك ضرر من استخدام الخيال لاستشارة
احساس بالالام او الفصاة ، اذا كان بوسع الفصاة ان تنجح في الوصول الى تفجير
الفقاعة ، واقامة الاتصال مع الواقع . ولكنها اذا فشلت ، فانها لن تؤدي الا
الى زيادة القلق المكبوت .

.. ان اقامة الاتصال مع الواقع بعد تفجير فقاعة الحلم ، هي تجربة من
تجارب الدروة ، التي لا يمكن التوصل اليها الا عن احد طريقين : التعلم عن
طريق التكرار دون خوف من فشل المحاولات الاولى حتى تكتشف فجأة انك وصلت
في قفزة واحدة ، او قطع الطريق في قفزات متتالية كالومضات - بطريقة
فاوست - ثم الارتداد ثانية حتى تكتشف انك قادر على تحقيق هدفك كلما
اردت ذلك .

وهذا ما يفسر جاذبية العقاقير - وخاصة تلك المؤثرة على الحالة النفسية -
لدى الاذكياء . انهم يظنون انه اذا كان من الممكن الوصول الى « تجربة
الدروة » كلما شاء المرء ذلك بالعقاقير او المحافظة عليها لمدة نصف ساعة ، فانه
قد يكون من الممكن ان نتعلم بسرعة كيف نستعيد بها دون استعانة بالعقاقير .
ولكن هذا القول يتضمن وهما خاطئا . فان معظم العقاقير تعمل عن طريق
تخفيض كفاءة الجهاز العصبي ، مؤدية بذلك الى حالات غير عادية من الوعي على
حساب قدرة العقل على التركيز والتعلم . وليس عليك الا ان تحاول ان تتذكر قائمة
قصيرة من الكلمات الاجنبية وانت في حالة سكر خفيف لكي تبين حقيقة ذلك .
ان العقل قادر على الامتصاص عادة ، مثل ورقة النشاف ، وحينما تكون تحت
تأثير الكحول ، فانه يتحول الى ورقة مصقولة لا قدرة لها على الامتصاص .
والعقاقير تقوم بعملها عن طريق احداث شلل مؤقت في مستويات معينة من العقل ،
مثل المخدر الموضعي ، فتؤدي بهذا الشكل الى خفض طاقتها على الامتصاص .
والاسوا من هذا هو انها تؤدي الى كبح عمليات الفعل الارتجاعي . فحينما
تشعر اللايدي تشاترلي بارض الحديقة وهي تهتز تحت قدميها وتترجح كسطح

البحر ، فان هذا فعل ارتجاعي ناشيء من تركيزها الكثيف على نشاطاتها الجنسية . تركيز نشوان مائة بالمائة ، يدفع الى اعلى كالنافورة طاقات لاواعية هائلة نابغة من اعماقها . وهذه الطاقات هي ما تستمر في التدفق والانتشار حينما تعود الى بيتها . ويصف كتاب « الكابالاه » عملية خلق العالم باعتبارها « تركيزا » كليا وشاملا للطاقة في نقطة واحدة مضيئة . (وقد كانت عبارة « الدرجة السابعة من التركيز » التي استخدمها الكاتبين شوتوفر في مسرحية شو : « منزل القلوب المحطمة » مرتبطة بهذه الفكرة من الكابالاه) . اما جميع العقاقير ، دون استثناء فهي تؤدي الى عكس التركيز ، اي الى استرخاء العقل . وفي حالة تعاطي العقاقير المؤثرة في الحالة النفسية ، فان الجهاز العصبي يتحول الى « الدورة القصيرة » بحيث تكف النبضات العصبية عن اتباع مسارها الخاص ، وتبثثر على جانبي هذا المسار ، خالقة سلسلة من « الاحاسيس » ولكن ليست لهذه الاحاسيس علاقة بالتركيز الواضح الصافي على الواقع الذي حققه القسيس السكير .

العقاقير اذن هي اسوا الطرق الممكنة لمحاولة التوصل الى « الموضوعية التأملية » . انها تزيد ميل العقل اني تقبل سلبيته الخاصة بدلا من الكفاح ضدها . اما اي تجربة من « تجارب الدورة » الاكثر عادية فيمكن ان تكون نقطة انطلاق مثلى . والكثافة الجنسية واحدة من اكثر هذه النقاط قوة ، طالما انها تؤدي في النهاية الى انفجار مؤقت للبصيرة التي تشبه ما انتاب فاوست حينما سمع صوت اجراس عيد الفصح : انها ومضة من القوة التي هي امكانية انسانية طبيعية . وقد اعترف اتباع مذهب « تانترا » (١) في التيب والهند بهذا ،

(١) تانترا Tantra - من الديانات الهندية القديمة (قبل البوذية) وتعتبر اخر مراحل الديانة البراهمانية ، وقد تجسدت في النصوص السنسكريتية المعروفة باسم « الاجما » . كانت البراهمانية تقول ان « براهمان » هو خالق الوجود بالارادة ، وهو ايضا الوجود كله بعد ان تجسد في مظاهر الكون ، حيث ان الكون والوعي به كلاهما جزء من براهمان ، وحيث ان الانسان هو الجزء من « الوعي » الذي يحاول ان يتشبه ببراهمان . ولكن في « الاجما » انفصل الوعي عن الكون ، ليصبح صانعه وحالا فيه في وقت واحد ، وليصبح « الوعي » هي الضفة الوحيدة للاله الواحد ، المتجسد في صور عديدة ، اكثرها رقيا ، هي الانسان ، الذي اصبح دوره ان يعي العالم ، وان يكتشف بوهيه له ، وفيه ، سعادته ، وان يتحقق ، كتجسيد لبراهمان نفسه ، في صورة « ساكني » ابن براهمان والجسيده الكلي الوحيد . والوعي هنا ، في تانترا ، يعني القدرة على الخروج من اطار الزمن (سانسارا) دون الوصول الى الابدية ولا الامتزاج بالكون (نيرفانا) . وبالخروج من اطار الزمن في « تانترا » يتم التخلص من عذاباته وآثاره الممتدة ، دون تجاهلها ولا التوقف عن الوعي بها . ومن هنا يأتي اللقاء بين تانترا والبوذية من ناحية ، وتلبي من ناحية اخرى محاولة البراهمانية الناجحة لطرد البوذية ، والتانترية ايضا - من الهند خوفا من تأثيرهما الاجتماعي . (ه . م . د) .

وهم الذين استخدموا النشوة الجنسية عن وعي وقصد من اجل خلق اعتياد نمطي جديد على الكثافة الآن . هذا هو ما تؤدي اليه النشوة الجنسية) . وقد حدث في سنوات احدث عهدا ان انغمس صانع حديد الماني يدعى كارل كياز في ممارسة اليوجا على طريقة تانترا ، ولدى عودته اسس « جماعة فرسان المعبد الشرقيين » في المانيا عام ١٩٠٢ . وقد تأسست هذه الجماعة كلية على اساس « السر » القائل بان النشوة الجنسية يمكن ان تستخدم كطريق مباشر يحقق البشر من خلاله مستويات جديدة من القوة ...

اسمحوا لي بعد هذا ان اخص نتائج هذا الفصل .

رغم ان علم القرن التاسع عشر قد اطلق على نفسه صفة : « الراي الشائع المنظم Organised Cammon Sense » فانه كان في الحقيقة قائما على منهج ديكارت في الشك في كل شيء يمكن الشك فيه ، على امل ان يكون ما تبقى بعد الشك هو « الحقيقة » . وقرر هذا العلم ان يقوم بواجبه مستغنيا عن مفاهيم الارادة والهدف . وفي ذلك الوقت ، لم يصنع هذا المنهج فارقا كبيرا بالنسبة لعلموم الطبيعيات والاحياء ولا حتى بالنسبة لعلم النفس . ولكنه بدأ في عصرنا يؤدي الى فارق هام . ولقد حاولت ان اخص رايا علميا في الحياة لا يستبعد الارادة ولا الهدف .

وقد سبق ان اخص هذا الراي في الانسان في كتابات ف . و . ه مايرز ، احد مؤسسي « جمعية البحوث النفسانية » قرب نهاية القرن التاسع عشر . وقد ظن مايرز انه من الممكن ان يعتبر الوعي نوعا من الطيف الضوئي . وفي وسط هذا الطيف الضوئي توجد القوى التي نعرفها - النظر والسمع واللمس وما الى ذلك . وتحت الطرف الاحمر من انطيف توجد العمليات العضوية التي « تسيطر عليها بشكل ما دون ان نكون واعين باننا نفعل ذلك - مثل الديدان المجهرية التي تنقل « قنابل » الهيدرا الى جلدها الخارجي . ولكن توجد فيما وراء الطرف البنفسجي للطيف قوى من نوع اخر ، نكاد نجهلها تماما ونجهل عنها كل شيء .

وبنفس الشكل ، اقترح الدوس هكسلي ذات مرة انه اذا كان للعقل البشري نوع من « البدروم » او الطابق تحت الارضي حيث ترمى المهملات والقاذورات والنفايات ، وهو العالم الفرويدي المكون من الغريزة والرغبات المكبوتة - فلماذا لا ينبغي ان يكون له « دور علوي » او « سقيفة » ايضا : « وعي اسمى » يقوم بموازنة « اللاوعي » ؟ .

ان القدرات الكامنة في « اللاوعي » تقع في متناول الارادة الانسانية بالفعل، بشرط ان تكون هذه الارادة منقشعة وحية . ولكن حالما تسيطر العادة - او ما

دعوته من قبل باسم « الروبوت » او الانسان الآلي - فان هذه القوى تخبو وتضمحل . وبنفس الطريقة ، فان السلبيّة العامة ، او الميل الى الهزيمة او الاكتئاب ، والانقباض سوف تثلم حدة هذه القوى وتفلها ، تماما مثلما تثلم القوى الموجودة عند الطرف الاسفل من « الطيف » وتفلها . (وفي احدى الحالات المرضية التي قام « مازلو » بعلاجها تملك الضجر المريضة بسبب عملها الروتيني المنتظم حتى انها كفت عن الحيض) .

ان كل النظم او الانسقة التي تهدف الى زيادة الانتفاع بتلك القوى تعتمد على مستوى مرتفع من التفاؤل وقوة الارادة .

وهذا ما يعيدني ثانية الى الفرض الذي اؤكدته منذ البداية ، والقائل بأن العلم - او النسق المعرفي - الذي لا يتضمن مكانا للارادة او للهدف إنما هو عقبة تعوق التطور الانساني ، وهو في هذه النقطة بالذات من التاريخ ، يعد عنصرا خطيرا للضرر .

سحر الانسان البدائي

يطرح عالم الاجناس البشرية ايفار ليسنر في كتابه « الانسان والله والسحر » فكرة شاملة تقول : ان اسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود اله واحد ، ثم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها وتحولوا الى عباد لآلهة متعددة . وهو يقيم الحجة على ذلك معتمدا على رسوم الكهوف التي تبدو كما لو كانت تصور عملية تقديم قربانين من الدببة والظباء الجبلية . ومن المؤكد ان اهتمام الانسان البدائي بالدببة ما زال واحدا من الاسرار الغامضة في تاريخ العقائد الانسانية . كانت تلك الدببة ضخمة وبالغة الخطر ، ذات قوة هائلة ومخالب كالشفرات ، ورغم احجامها الضخمة فقد كانت ذات سرعة لا تصدق . وقد اعتقدت شعوب بدائية كثيرة ، من هنود امريكا الشمالية الى قبائل الاينو الحديثة في اليابان الى قبائل الاورشون في سيبيريا الشمالية بان الدب يمتلك قدرات غير طبيعية ، ومن الممكن عند تقديمه قربانا ان يبعث رسولا الى الآلهة . وكان الدب واحدا من اخطر المخلوقات في العالم القديم ، ومع ذلك قان انسان النياندرتال (١) خرج وراءه لكي يصطاده حينما كانت هناك دوافع اخرى كثيرة . ويبدو ان الشكوك في وجود مغزى ديني او سحري في عمليات صيد

(١) انسان النياندرتال : فصيلة بشرية عاشت في العصر البليوستوسيني الاوسط والقرصت . وجدت بقاياها العظمية (الفخذين والذراعين والجمجمة والاسنان) في وادي تياندرتال قرب بون بلانسيا ، وعثر على صناعاتها الحجرية (اسلحة مشطوفة على وجه واحد من الصوان) في وادي دوردوني بالقرب من بلدة موبستر في فرنسا ، واليهما نسب « العصر الحجري المويسترن » او « الصناعة المويسترية » . ويفترض ان انسان نياندرتال جاء الى اوروبا من اواسط اسيا وانقرض بعد نحو خمسين الف سنة في العصر الجليدي الاخير . (ه . م .)

الدببة قد تأكدت باكتشاف كهف في « دراخينوخ » بسويسرا ، امتلا بجماجم الدببة التي يبدو انها كانت تقدم كقرايين في بعض الطقوس . وقد تمت كشوف مشابهة في كهوف اخرى بعيدة ، فعثر على جماجم الدببة موضوعة على مذابح خاصة ، بل موضوعة احيانا على نحت خشن يمثل جسدا لدب دون رأس . وهذا دليل لا شك فيه ، في ان انسان النياندرتال - منذ ما يتراوح بين سبعين الف الى ثمانين الف سنة - كان له دين . انها فكرة تبعث على الدهشة . لقد عاشت هذه المخلوقات في كهوف ، وكانوا رحالة غير مستقرين . وكانوا يعرفون النار ، وكان بوسعهم ان يصنعوا حرايا باحراق طرف عصا قوية حتى تصبح ذات سنان حاد ، والا لما كانت لهم فنون ولا ثقافة . وينتمي فسي الكهوف والنحت البدائي الى عصر الخلف المجدلاني لانسان النياندرتال ، وهو انسان « كرومانيون » (١٤) . ولقد عاش انسان النياندرتال حياة شاقة عنيفة ، فاذا حكمنا على ما نراه من بقاياها ، لاكتشفنا ان اكثر ابنائه ماتوا صفار السن . ومع ذلك فقد عبدوا آلهها وقدموا اليه القرابين .

ويزعم ليسنر ان البشر البدائيين كانوا « موحدين » وقيم زعمه على اساس من نوع تضحياتهم . ويقول ليسنر ، ان قبائل التونجوس فسي هذا العصر لا يقدمون قرابينهم بهذه الطريقة لان لكل تل وبحيرة روحا خاصة ، ومن الممكن لجثة اللبحة ان تفضب اله البحيرة . وربما هجر الانسان هذا الشكل من اشكال التضحية عن طريق نسيانه ، حينما بدا يؤمن بان هناك آله للغابة ، والها للجبال والها للمياه أو للبحار . فكيف حدث هذا التغير ؟ من خلال النفوذ المتزايد للسحر والسحرة .

اننا نعرف ان فن انسان « كرومانيون » ، بصورته التي عثرنا عليه بها في كهوف لاسكو او مونتسبان او التاميرا ، لم يكن « فنا » بمفهومنا الحديث ، وانما كان جزءا من طقس سحري ما زالت الشعوب البدائية تمارسه حتى اليوم . فيقوم ابناء قبائل البيجمي في الكونغو برسم صورة الحيوان الذي يريدون صيده على الرمال ، ثم يطلقون سهما على خلقه ، وينحت ابناء قبائل التونجو

(١٤) انسان كرومانيون : فصيلة بشرية ، يظن انها من اسلاف فصيلة الانسان الحالي ولم تنقرض وعثر على بقاياها في الطبقة التي تلو مباشرة طبقة التربة التي عثر فيها على «الصناعة المويسترية » في دوردوني في كهف كرومانيون بفرنسا عام ١٨٦٨ . ويفترض انها عاشت جنبا الى جنب ، وتصارعت مع انسان النياندرتال ، ولكنها صمدت للعصر الجليدي ولم تنقرض بسببه مثلما حدث لفصيلة النياندرتال . يعتقد بعض الانثروبولوجيين ان سلالاتها موجودة الى الان ضمن بعض الشعوب الاوروبية المتاخرة . (هـ . م) .

الحيوان الذي يريدون صيده في الخشب ، وبصنع ابناء قبائل البينيسي سمكة خشبية قبل ان يخرجوا لصيد السمك ، وهكذا . ويترك ابناء قبائل البيجمي صورة صيدهم ، والسهم مفروس في حلقها حتى يصطادوا الحيوان ، ثم يحكون الصورة بشيء من دم الحيوان قبل ان يسحبوا السهم المفروس . وهم يؤمنون بان هذا العمل يقيم ارتباطا غامضا من نوع ما بين الصياد وصيد ، فلا يستطيع الحيوان الهرب . ومهما كانت سرعة جري الصيد ، او مكان اختبائه ، فان الصياد سوف يتجه صوبه دون خطأ ، يقوده ويرشده نوع من القدر . ان قدر الحيوان هو ان يكون صيدا له وغنيمة .

الموقف العلمي ازاء تلك الاعمال هو اعتبارها خرافات بدائية ، ومجرد علامة على الجهل بالسبب والنتيجة . فاذا تصادف ونجحت ، فليس هذا الا لانها تخلق احساسا بالنجاح لدى الصياد . انها نوع من التثويم المغناطيسي الذاتي . وانا اريد القول بان هذا الرأي قد يخطيء الهدف تماما . ان عقل الصياد يصبح « مركزا تركيزا كبيرا » على صيده من خلال الطقس ، منشطا بذلك نفس القوى التي دفعت الاشخاص الذين اجرى عليهم راين تجاربه التي انتهت الى تسجيل تلك الارقام المرتفعة حينما كانوا يحاولون - للمرة الاولى - التأثير على رمية الزهبر .

ان ما اطرحه هنا ، وما سأطرحه طوال هذا الكتاب كله ، هو انه حينما ينتاب الانسان احساس قوي بـ « قيمة » شيء ما ، فانه ينشط « قواه » ويستثيرها ، تلك القوى الكامنة فيما وراء الطرف البنفسجي لطيفه الضوئي العقلي . لقد تطور الانسان الى المرحلة الحالية عن طريق تعلم القيام بأشياء كثيرة بطريقة آلية ؛ انه يتعلم مهارة صعبة معينة عن طريق مجهود وأع ، ثم يمرر ما تعلمه ويسلمه الى « جهازه الآلي » اللاواعي الذي يتعلم كيف يقوم بهذه المهارة بكفاءة وبطريقة آلية - مثل ركوب الدراجة او التحدث بلغة اجنبية . ولكن القيام باداء شيء بطريقة آلية يعني انك لا تحتاج الى ان « تركز » عليه . وقد عني توايد استخدام الانسان لجهازه الآلي اطراد تضائل استخدامه لموهبة التركيز الكثيف . وهذا ما يوضح سبب ميل الانسان الحديث الى رفض الايمان بما يملكه من « قوى » كامنة فيما وراء الطرف البنفسجي للطيف الضوئي . فانه نادرا ما يستخدمها

ومع ذلك فان تلك القوى تعمل حينما يمس احساس الانسان الحديث بالقيم مساعميها - اي حينما يشعر حقا بالقلق على شيء ما والاهتمام الحقيقي به . فان غرض تلك القوى - في نهاية الامر - هو نفس الغرض الذي ترمي اليه كل القوى الاخرى : وهو دفع الحياة الى التحرك بهدوء ونعومة ، وتجنب الكارثة . .

ولم يكن السحر البدائي شيئا أكثر من استخدام تلك القوى ، لقد كان
 باكثر المعاني اساسية وثباتا : « سحرا تعاطفيا » . ويؤكد ليسنر ان « شامانات »
 سيبيريا (وهي المنطقة التي نبتت منها الكلمة اصلا) لم يكونوا « اطباء سحرة »
 ولا ساحرات ، وانما كانوا شيئا اقرب الى الوسطاء . ان كلمة « سامبرابي »
 باللغة المنشورية ، تعني « ان يستثير المرء نفسه » ، بينما تعني كلمة « سام -
 دامين » ، الرقص . والشامان ، يستثير نفسه حتى يصل الى حالة من التهوس
 المقدس او النشوة عن طريق دق الطبول والرقص ، حتى يصل الى الاغماء الذي
 يفترض فيه ان روح الرجل قد فارقت جسده . وفي اغماؤه تصدر عنه اصوات
 مختلف الطيور والحيوانات . ويفترض فيه انه قادر على فهم لغتها . ويصف عالما
 تاريخ العقائد ، ميركا افياد ، الشامانات ، بأنهم « متخصصون في النشوة » ويورد
 قائمة مذهشة بالمنجزات التي تقع في متناول قدراتهم ، تتضمن قراءة الافكار ،
 والعرافة ، والسير على النار ، واكتشاف اللصوص بالاستعانة بمرآة . ويورد ليسنر
 وصفا تفصيليا لاحتفال شعائري لاحدى القبائل ، يتضمن الرقص الفردي والجماعي
 على دقات الطبول ، ومشاركة المتفرجين للراقصين بالتصفيق والانشاد ، ويندمج
 الجميع في حالة بعيدة تماما عن حياتهم اليومية ، ويختتم ليسنر وصفه قائلا :
 « تتصاعد الثورة والهياج ، متنقلة بسرعة ، كالشرارة ، من شخص الى من يليه ،
 حتى يقترب الجميع من النشوة ، ويصبح كل واحد في نفس الوقت مؤديا ومتفرجا ،
 طبيبا ومريضا ، سنانا ومطرقة » (١٤)

ويضيف ليسنر : « ولا استطيع الا ان اؤكد ماسبق ان اكده شيروكوجوروف ،
 من ان اولئك المجتمعين حول احد الشامانات ، انما يجربون نوعا من الاشباع
 اكثر عمقا الى غير حد مما نشعر به نحن بعد حضورنا عرضا موسيقيا او
 مسرحيا » . وهذا تعليق مثير للاهتمام . لاننا قد نسال عن هدف الموسيقى -
 بعد كل شيء ، وما هو هدف كل الفنون ؟ انه محاولة لمواجهة تأثير « الروبوت » ،
 الذي يمكن ان نسماه « عملية التشتت » طالما انه عكس التركيز ونقيضه . ان
 للبشر ذلك الميل القوي للانسياق الى حالة من « اللامبالاة » فيهدرون بذلك ، الوهمي
 الذي كان من الممكن ان يستخدم استخداما ثمينا . واللامبالاة تشبه الفرق
 في النوم ، ففي هذه الحالة ، يكون احساسنا بالقيم « قد » فرق في النوم حقا .
 وتقوم اي ازمة او اي نوع من التحدي بوظيفة الساعة المنبهة ، لكسي تهرنسي
 فتخرجني من حالة الضجر والتجمد . ولكنني اذا اصغيت بتركيز شامل الى احدي
 سوناتات موتزارت للبيانو ، فأنني ساحصل على نفس النتيجة . انها تحدد
 مجرى عواطفنا العقلية وتمنع من حدوث « التشتت » .

(١٤) الانسان والله والسحر ، ترجمه من الالمانية ف.ج. ماكسويل براون جون (لندن ١٩٦١)

ش ٢٧٤ .

فاذا كان لعقل الانسان هذا الميل الفطري الى « بخس قيمة » الواقع ، اذن فسيكون بوسعنا على الفور ان ندرك اهمية (أ) مجموعة من المعتقدات التي يؤمن بها الناس بقوة ، اي مجموعة من القيم ، (ب) وذلك النوع من التركيز والاهتمام في الاحتفالات السحرية البدائية . ان القداس في الكنيسة قد يحول مشاعر الشخص الكاثوليكي ، ولكن هذا الشخص سيظل عارفا بان الاحتفال احتفال رمزي فحسب ، وان اي طبيب متخصص في علم الامراض سيشهد ويؤكد ان الخبز والنبيل لم يتحولا الى لحم ودم . ورغم هذا فان المشاعر والتفكير سوف تتحول لان القداس يركز العقل على « حقيقة » اكثر اهمية مما هو قائم « هنا » و « الآن » ، وهذا الفعل العقلي القائم على وضع « الحاضر » بقوة في مكانه - فعل يساعد على سمو الروح . ويؤمن البدائي ايمانا كاملا بان نفس الشامان قد غادرت جسده وانها تتجول في تلك اللحظة بين السموات او الجحيم .. والبدائي يؤمن ايمانا كاملا بكل ما يقوله له الشامان في اغماؤه . ولا شك ان النتيجة تكون اعمق تأثيرا بكثير جدا واشد انهاكا من الناحية الوجدانية مما تفعله اي واحدة من اوبرات فاجنر .

ان الشامان نفسه قد بلغ درجة الكهنوتية من خلال القيام باكثر انواع الواجبات والطقوس رعبا ، اي انها عملية تلقين ووصول الى المرتبة التي يسمى اليها من خلال الالام . وتتضمن الطقوس عملية حك عنيف لوجهه بمادة خشنة يقصد بها ازالة الجلد القديم ، وحتى الجلد الجديد ، او البشرة الداخلية تحك هي الاخرى حتى تزال ، للرمز الى الميلاد الجديد الكامل . ويطلب من الشامان في قبائل الاسكيمو ان يقضي خمسة ايام كاملة غارقا في المياه المتجمدة . وهم يعتقدون ان روحا نشامان ميت قد تدخل احيانا في جسد الشامان الجديد ، وتسكن فيه ، وتفرق الشامان الجديد في الالام هائلة ، ويملكه الاعتقاد بان جسده قد تمزق اربا وان الارواح قد التهمت . انه « يرى » كل ذلك وهو في حالة الاغماء ، ويقول ليسر ان « البقع الحمراء التي اختبست فيها الدماء تظهر على جسده ، وتمتليء ثيابه احيانا ببقع الدم .. » . وقد مارس شامان عجوز عملية « تمزيق اوصاله » هذه ثلاث مرات .

ان الهدف من عملية التعميد هذه هو « هز العقل لكي يستيقظ » ، وهو بلورة الارادة . ذلك ان المشكلة الرئيسية للبشر هي السلبية و « تفاهة الحياة اليومية » .. والمشكلة هي استفزاز العقل او نخسه لكي يخرج من حالة بلادته وكمونه ، ولدفعه الى محاولة الوصول الى ابعاد مما وصل اليه . وهذا هو السبب الذي يجعل كل انواع الزهد ونزعات التنسك تبدأ بنوع من السيطر الصارمة على الذات ، و احيانا بتعذيب الانسان لنفسه . لقد ظل المتصوف الالمانسي « صوصو » في القرن الثالث عشر يرتدي قميصا من الجلد مزودا بمسامير ثبتت

اسنانها الى الداخل ، وطوال ثمانية اعوام ظل يحمل صليبا ثقيلا من الخشب
ثبتت فيه مسامير ذات اسنان حادة .

واود ان اقول هنا - في جملة اعتراضية - ان من المهم ان نلاحظ ان
الاسطورة الشائعة لدى اهالي سيبيريا الشمالية تقول ان ارواح السحرة
المقدسين او الشامانات ، تولد في شجرة من نوع معين ، داخل اعشاش من احجام
مختلفة ، ثم يأتي طائر ضخم كالنسر فيضع بيضا من الحديد في الاعشاش ، وهذا
البيض هو ما يتحول الى الشامانات . وتتشابه الاسطورة تشابها عجيبا مع
« شجرة الحياة » التي يصفها يتس باعتبارها رمزا كونيا . (انظر الفصل
الثالث .)

ويقدم ليسنر حجة مقنعة بقوله ان رسوم الكهوف التي رسمها انسان
العصر الباليوليتي - وبعضها يرجع الى نحو عشرين الف سنة - تمثل شامانات
يقومون بعمليات سحرية - حيث نشاهد رجلا يرتدون اقنعة لرؤوس طيور
او جلودا للظباء او ثعابين البيسون . اما العصي والقضبان القصيرة فتشبه
عصي الطبول التي يستخدمها الساحر الحديث . ولم يعثر مع تلك العصي على
اي طبول ، ولكن هذه الحقيقة تبدو غير مفهومة .

هذه اذن هي الصورة التي يرسمها ليسنر لحياة انسان النياندرتال وانسان
الكرومانيون ، وهي الصورة التي اقامها على اساس سبعة عشر عاما من
الدراسة . لقد كانت حياة بدائية ، اكثر من حياة اي قبائل بدائية موجودة
الآن في العالم . لقد عاشوا في كهوف او في خيام من الجلد فيما بعد ،
وكانوا يرتدون جلود الحيوانات . وقد عبدوا الله وكان كهنتم هم السحرة .
ومثل العبريين الذين صورهم العهد القديم كانوا يقدمون قرابين من
الحيوانات لالههم . ومثل اي كاهن حديث ، كانت وظيفة الشامان خيرة مليئة
بالبركة بشكل كامل : كان يشخص الامراض ويعالجها ، ويقوم بطقوس ويستحضر
ارواحا ويطلق رقى ويتلو تعاويذ لكي يساعد صيادي القبيلة .

ثم بدأت التغيرات تحدث ، قبل ستين الف عام بالتقريب (١) وبينما اصبح

(١) هكذا كتب الرقم في الاصل ، ولا ندرى ان كان ويلسون قد نقله عن ليسنر ام لا لكن
السير آرثر كيت ، وهو أحد علماء الاجناس القديمة وعلماء الدراسات في الحضارات الانسانية ،
واستاذ تاريخ التشريح الانساني في كلية الجراحين الملكية يذكر ان انسان النياندرتال قد انقرض
في نهاية العصر الموستيري ، اي في حدود ما بين ٣٠ الى ٢٠ الف سنة تقريبا ، وان حياة
الكهوف عموما بدأت في بداية العصر الاشيلي الذي انتهى قبل ٤٠ الف سنة تقريبا ، وان حياة
الكهوف انتهت مع بداية العصر الحجري الحديث في حدود ٨ آلاف سنة قبل الميلاد . راجع تاريخ
العالم ، جون هامرثون ، ص ١٥١ - ١٥٢ - النهضة المصرية . (هـ . م) .

الانسان اكثر تحضرا ، اصبح من المحتم ان يكون السحر اكثر اهمية . ذلك ان الانسان مخطوق يسعى الى المعرفة واليقين ، وقد مثل السحر الشكل الرئيسي عنده للاثنيين . وبدأت عبادات جديدة في الانتشار . لقد استخرج علماء الآثار والحفريات تماثيل انثوية صغيرة من ارض ويلندورف في النمسا ، وفيستونيس في مورافيا ، وسافينيانو في ايطاليا ، وليسبيوج في فرنسا . واطلق على هذه التماثيل جميعا اسم « فينوس » . ومن المؤكد انها تبدو تمثيلا لعبادة ربة ما ، ربما كانت هي الربة البيضاء نفسها . والكثير من هذه التماثيل يصور امرأة سمينة ، ذات تدين هائلين ، مما ادى الى اعتقاد انها ربما تكون وسائل سحرية تساعد على الحمل . ولكن بعض هذه التماثيل يصور امرأة نحيفة . وفي برنو ، في بوهيميا ، عثر على تمثال لرجل . وقد ركز الفنان على الجسم ، اما الوجه فلا تكاد ملامحه تبين .

وحينذاك ، وبطريقة مذهشة تماما ، كف الانسان البدائي عن صنع تماثيل ذات اشكال انسانية . لماذا ؟ لانها كانت اشكالا « سحرية » . فاذا كان بوسعك ان تقتل بيسونا او طيبيا بان تصنع صورة له ثم تقوم ببعض العمليات السحرية عليها ، فان نفس الشيء كان ينطبق على الناس . لقد اصبح من الخطر ان يعاد تمثيل الشكل الانساني . كان عصر السحر قد بدأ . فاذا كان بوسعك ان تقتل الحيوانات بالسحر ، فلماذا لا تفعل نفس الشيء مع اعدائك ؟

ومع تزايد خضوع الانسان للسحر ، تزايد عدد اربابه وشياطينه . وفي فجر التاريخ المسجل المكتوب - حوالي ٣٠٠٠ ق.م - كانت حضارات وادي النيل ، ووادي اليندوس وما بين النهرين مثقلة بافكار كثيرة عن ارباب وشياطين وسحرة مشعوذين كثيرين . وفي وقت ما في هذا الالف الرابع قبل ميلاد المسيح ، قفز الجنس البشري اضخم قفزاته واكبرها حتى ذلك الحين - وهي قفزة هائلة حقا ، حتى ان المرء ليشعر باغراء ان يصدق الفكرة الخيالية التي قال بها آرثر . س ، كلارك في كتابه « ٢٠٠١ » المعروف باسم « اوديسا الفضاء » والتي تقول بان بعض الكائنات الاكثر ذكاء من الفضاء الخارجي ، دابت على زيارة الارض بشكل دوري على مدى تطور الجنس البشري . واستمر العصر الحجري حتى وقت ما فيما بين ٤٠٠٠ ، ٣٠٠٠ سنة ق.م ، واستخدم الانسان فيه السكاكين الحجرية ، ورؤوس الحراب من شظايا الصخور ، ومحاريب من الخشب او الحجارة . ثم اكتشف الانسان استخدام المعادن . ولنا نعرف كيف حدث ذلك . ربما تصادف ان القى رجل ما بقطعة من الصخر تحتوي على ركاز النحاس في نار مشتعلة فاكشف ان معدنا صلبا ولامعا قد انسب منها منصهرا قبل ان يتجمد . واكتشف ان حواف المعدن يمكن ان تصبح اكثر حدة بكثير من حواف

الصوان ، و افضل بكثير في عملية سلخ جلد الحيوانات . وفي نفس الوقت تقريبا ، اكتشف عبقري ما ، ربما كان هو « توبال قاين » الاسطوري نفسه (١) ، الاستخدامات العديدة للعجلة ، لكل من انتقل وصنع الاواني الفخارية . وابتكرت ايضا قوالب الطوب اللازمة لبناء . وشيدت السفن الشراعية . وروضت الثيران لكي تجر المحاريث والعربات . لقد برزت الى الوجود ، الحضارة بالصورة التي نعرفها بها الآن ، اي الحضارة « التكنيكية » . وتم ابتكار الكتابة بعد ذلك ببضعة مئات من السنين . او ان هذا هو التاريخ الذي ترجع اليه السجلات المكتوبة . ان الانسانية لم تعرف في تاريخها تقدما مثل هذا التقدم ، الا اذا حسبنا حساب التقدم العلمي في عصرنا الحالي . وكان سبب هذه اندفعة الكثيفة المفاجئة من المنجزات هو ظهور التجمعات البشرية الكبيرة . كان الانسان قد اصبح اكثر المخلوقات على الارض نجاحا ، وكانت اعداده قد تزايدت . كان قد عرف الزراعة منذ الالف العاشر قبل الميلاد . ولكن الارض كانت ما تزال مغطاة بالغابات والصحاري . وكانت افضل الاماكن للسكن والعيش هي وديان الانهار او على شواطئ البحار . وتجمع الناس معا على ضفاف النيل والاندوس ودجلة والفرات والنهر الاصفر ، في تجمعات متقاربة من الخيام والاكواخ والاحصاص المصنوعة من الاغصان المجدولة . وجاءت حياة المدن بالزرايا والاضرار التي نعرفها ونالفها للغاية - المرض والجريمة ، بالاضافة الى التجارة والفن . وجاءت معها بتقسيم العمل وتوفير الوقت اللازم للتفكير . ودمرت بضربة واحدة والى الابد براءة الصيادين البدائية . واكدت العداء الاساسي بين الانسان والانسان . ففي الطبيعة يوجد قانون : « دع كل واحد وشانه » . وليس هناك سوى حيوانات قليلة تمارس القتل لما يجلبه القتل من لذة . ان امرأة تجمع الثوت البري قد تسمع دبا يتشمم بالقرب منها ، ولكنها كانت تعرف انه لن يهاجمها الا اذا كان يخاف على صغاره . وعند قدوم الليل كان بوسع البغال والاسد ان يشربا من الفدير معا ، جنبا الى جنب . وكان الصيادون من القبائل المختلفة يلتقون في الغابة فيتبادلون التحيات ثم تمر كل جماعة فتضي لهدفها ، الا اذا قامت جماعة بغزو منطقة جماعة اخرى . اما في المدينة ، فقد ساد قانون جديد ، وانه لمن الظلم للغابة ان تستمد منها المعنى المقصود من « قانون الغاب » .

ليس على المرء ان يؤمن بما قاله روسو عن « المتوحش النبيل » لكي تؤمن بان سقوط الانسان من نعيمه القديم جاء مع سكناه في المدن . انما هذا من الافكار العامة او الاراء الشائعة . ربما تكون بعض المدن ثرية وآمنة ، ذات اراض خصبة

(١) توبال قاين - في العهد القديم (تكوين) هو اول من صنع الادوات القاطعة ، مسنن النحاس والحديد : (ه . م . ٢)

وحاكم قوي . ولكن مثل هذه المدن لا بد ان تكون هي الاستثناءات . فان غالبية المدن كانت اكثر قليلا من مجرد جماعات كبيرة من البشر يعيشون معا من اجل الحصول على اراحة والامن ، مثل الفئران في مجاري البالوعات .

ان النتيجة واضحة . لقد كف الانسان عن ان يكون مخلوقا بسيطا وغريزيا . سواء زاق له ذلك ام لا، فقد صار عليه ان يكون اكثر « محاسبة » وبقظة لكي يظل على قيد الحياة . واصبح عليه ايضا ان يصبح ، بمعنى بالغ الخصوصية ، اكثر عدوانية ، ليس ببساطة تجاه الناس الاخرين فقط ، وانما تجاه العالم . وقبل ذلك العصر ، لم تكن هناك سوى جماعات صغيرة من الناس يعيشون حياة العصر الحجري الحديث ، كان حجم كل جماعة منها محدودا بقدرتها على انتاج الطعام . فاذا تزايد عدد السكان بسرعة اكثر من اللازم ، فان الافراد الاكثر ضعفا كانوا يموتون من الجوع . وقد شجع هذا الوضع نشوء وثبات موقف سلبي وسلمي تجاه الحياة والطبيعة . اما المدن الكبيرة فكانت اكثر رخاء وثراء لان الناس كانوا قد سيطروا على مصادر طعامهم ، ولان اشخاصا بعينهم امكنهم ان يصبحوا « متخصصين » في اشغال المعادن ، والنسيج ، والكتابة وما الى ذلك . وكانت هناك طرق عديدة امام الانسان للمحافظة على حياته : العمل اليدوي ، والتجارة ، او الاحتيال على اناس آخرين او اغتصاب ثمرات عملهم . وعلى عكس جماعة العصر الحجري الحديث ، كان هذا عالما كان فيه « العمل » المفامر هو اساس كل شيء . ولن يكون من قبيل المبالغة ان نقول ان « سباق الفئران » بدأ في بداية الالف الرابع قبل المسيح .

وازداد احتياج الانسان للمزيد من الارباب كلما زاد من توسيع نشاطاته . فحينما بدأ في الملاحة عبر البحار ، احتاج لان يقدم التضحيات لاله البحر . وحينما كان يشرع في الخروج الى سفر او رحلة ، احتاج لان يشعر بانه اصبح تحت حماية رب المسافرين ، وما الى ذلك . لقد احتاج كل نوع جديد من انواع العمل الى اله جديد . كان الانسان قد خرج لكي يحقق السيطرة على بيئته . وكانت وسيلته الرئيسية لتحقيق تلك السيطرة ، ما تزال هي السحر .

ووسط كل هذا الفليان والضجيج ، لم تكن هناك سوى فرصة ضئيلة لذلك التركيز الكثيف للعقل الذي كان يميز « الشامانات » القدامى . ومالت كل الاديان والنزعات الفيبية التي نبعت من هذا التركيز الكثيف الى ان تكون بسيطة وصوفية النزعة . انها نوع من محاولة التعرف على جوانب من المعنى الكامن « هناك بالخارج » ، وعلى ملامح من القوى التي قد يستطيع الانسان ان يلتصق بها لكي يستمد منها الطاقة اذا استطاع ان يوجه عقله نحوها باقتناع وايمان قوي . ان كل الاديان الكبرى : اليهودية والبوذية والهندوسية والمسيحية والاسلام – اديان بسيطة بهذا المعنى . ولكن هذه الاديان ، عندما تقع في ايدي العاديين

من الناس - وهم الـ ٩٩ بالمائة اللادينيين - فانها سرعان ما تفقد هذه الساطة، وهذه الرؤية الواضحة ، ثم تشرع فى اصطناع حشود من الملائكة والارباب والشياطين .

ويؤدي هذا الى اثاره نقطة اخرى ذات اهمية محورية بالنسبة للسحر . ويا لها من نقطة رئيسية ظلت بعيدة عن الفهم حتى ظهر فرويد . يتميز البدائيون من الناس بنوع خاص من النزعة التطهيرية المتزمتة . يروي ساحر قبيلة « هيوشول » من قبائل الهنود الحمر ، الذي يدعى رامون ميدينا للباحث نورمان لويس ، ان اي فرد من ابناء القبيلة يمارس علاقات جنسية اكثر من عشر الى خمس عشرة مرة في السنة فانه يعتبر ملعونا ونجسا . ويفسر الساحر ذلك بان موقفهم ازاء الجنس اقيم على العادات الفريزية للجد المقدس للقبيلة ، وهو الطبى ، الذي لا يمارس نشاطه الجنسي الا في موسم قصير من فصول السنة . هذا الى جانب ان الانغماس في الجنس ، يؤدي الى ضياع القوى الحيوية .

وقد يكون هذا القول اكثر دقة مما يبدو في ظاهره . ان الجماع الجنسي في حد ذاته قد لا يؤدي الى اهدار الحيوية . ولكن هناك ارتباط من نوع ما بين تنظيم الذات وبين القدرات التي تكفل البقاء . لقد امتدح الساحر الهندي صبينا كان يستحم في نهر متجمد عند الفجر لان مثل هذه الاعمال تقوي البرود الجنسي الطبيعي الذي يقدره رجال الهيوشول ويمدحونه في نسائهم . ان نساء القبيلة يعكس الفضائل المطلوبة من جانب رجالهن ، الصراحة والاخلاص والوفاء ورعاية البيت بطريقة جيدة .

وعلى العكس من ذلك ، يميل ساكن المدينة الى ان يكون اكثر جنسية . ان التنفسات الطبيعية لسيطرة الذكر ورغبته في اظهار قوته هي الصيد والقتال . فاذا اضمحلت هذه المجالات ، كان من الطبيعي ان يحل محلها اهتمام بالجنس ، ذلك ان ولوج الانثى هو عمل من اعمال السيطرة في اعلى اشكالها . وبذلك تكون ممارسة الجنس مع فتاة هادئة مروضة خاضعة لاحكام المنزل اقل اشباعا لهذا الدافع من ممارسة الجنس مع فتاة اكثر توهجا واستقلالا . وتحديا . وسرعان ما يظهر النوع من البشر الذي تطلبه الظروف . لقد انتجت ثقافة المدن المحظيات او العاهرات المشهورات المتالفات ، الشبيهات ، بالسرينات (١) ذلك النوع

(١) السيرينات Sirens من مجموعات العرائس الغرافية في الميثولوجيا اليونانية ، فصلها امرأة ، ونصفها طائر . ذكر هوميروس في الاوديسة انهن يسهرن البحارة بغناء مله يدهلهم عن كل شيء ، فيقيمون في جزيرة السيرينات ، يسممون الفناء حتى يموتوا جوعا (ولم ينج منهم سوى اوديسيوس ، الذي صب في اذان بحارته شمعا سقلا حتى لا يسموا لغناهن ، وفيد نفسه الى سارية السفينة حتى لا يهرب اليهن) . ولذلك اصبح رمزا لكل امرأة خطيرة مراوغة ، ولم يذكر هوميروس سوى اثنتين ، واصاف فيزجيل في الانبياء ، واحدة . (هـ . م)

من النساء اللواتي يتنافسن على اجتذاب اهتمامهن ذوو السيطرة من الرجال . تصبح فضيلة ان تواجه المرأة الرجل بنوع من التحدي . ويسرد علينا ليونارد كوتريل قصة اخذها من احد سجلات التاريخ الصينية عن المحظية الخاصة للامبراطور « وو » التي عرف عنها انها دائمة التجهم يصعب ادخال السرور على قلبها . كانت تحب سماع صوت تمزق الحرير ، فكانت ابواب طويلة من القماش الثمين تمزق امامها . وذات مرة ، وبناء على خاطرة خطرت لها ، امر الامبراطور بايقاد نيران التلال التي لا تشتعل الا اذا كان الامبراطور يأمر امرائه وسادته الاقطاعيين بان يتجمعوا للدفاع عن البلاد ضد البرابرة . ووصلت الجيوش الى قصر الامبراطور ، لكي يقال للامراء ان الامر كله ليس سوى نكتة لا اصل لها . وحينما رأت المرأة التعبير الذي ارتسم على وجوه الامراء ، ضحكت ، وكانت هذه اول ضحكة في حياتها ، على ماتروي الاسطورة .

وتحمل هذه القصة مغزى معيناً مثلها مثل كل القصص القديمة . فحينما هاجم البرابرة البلاد لغزوها بالفعل ، واوقدت نيران التلال ، لم يات احد ، وقتل الامبراطور ودمرت مدينته (٢) .

اما الصورة المقابلة للسيرينات فكان هو الدوق جوان . ان ملحمة «جلجامش» البابلية ، وهي اقدم من هوميروس بألف عام ، تبدأ بوصف كيف ان الشهية الجنسية للمحارب - والملك - جلجامش : « لم تترك عذراء لحبيبها ، ولم تترك ابنة المحارب ولا زوجة النبيل » . ويعترف مواطنون بنوع من البصيرة الفرويدية - انه « يشع » او « يختزن » حافزا هائلا يدفعه الى الغزو ، ويتوسلون الى الالهة ان تخلق رجلا يملك من القوة ما يكفي لان يكون على يديه سقوطه . وتخلق الالهة الانسان - الاله « انكيكو » ، الذي كان لا بد من استئناسه اولا بواسطة بغي تعتمد على تربيته جنسيا ، اذ انها : « لم تكن تشعر بالخجل من ان تأخذه ، فخلعت ملابسها وتجردت ورحبت بلهفته اليها . . » . وكانت لهفته اليها من القوة بحيث جعلته يمارس الحب معها طوال اسبوع كامل ، اضمحلت قوته خلاله بشدة ، حتى انكرته الوحوش ، رفاقه القدامى ، وفشلت في التعرف عليه . بل ان حجم قامته ايضا يتقلص (فما نحن نواجه مرة اخرى فكرة الشعوب البدائية القائلة بان الجنس يضعف القوة ويمتص الطاقة) . وفيما بعد ، وبعد ان يكون انكيكو وجلجامش قد واجه احدهما الآخر في ميدان النزال دون ان يتغلب احدهما على الآخر ، ثم تعاهدا على الصداقة ، يشعر انكيكو بان حياة المدينة المتعفنة موهنة لقوته مؤدية لاضمحلالها ، فيخرج هو وجلجامش بحثا عن المفامرة . وحينما يعودان وتحاول الربة عشتار (وهي فينوس البابلية) ان تغوي جلجامش ، يرفضها . فان

(٢) ليونارد كوتريل في « نمر تشين » الفصل الرابع .

طاقاته البطولية كانت قد اتجهت الى مساراتها وقنواتها المناسبة ، فلا يعود يهتم بمشاغل الاغواء غير الرجولية . وتكاد القصيدة كلها ان تكون احتجاجا من جانب الاخلاق القبلية القديمة ضد ما في المدينة من اغراء وتشبع جنسي كما ان تحليلاتها لحالات الشبق المفرط والانعاظ الشديد عند جلعامش تقوم على نوع من الادراك يوحى بان المؤلف السومري الاصلي كان « شامانا » او ساحرا . (وقد كان الشامانات شعراء ايضا ورواة للقصص ، وتشير الاياداة الى ان احد الشامانات كان يعرف من مفردات اللغة اثني عشر الف كلمة ، وهو يعادل ثلاثة اضعاف ما تعرفه القبيلة) .

لقد اوضحت في هذا الكتاب ان الانسان لم يخلق في الحقيقة من اجل الحضارة . انه باعتباره مخلوقا شديد الحيوية موفور الطاقة وعدوانيا ، فانه يجد صعوبة في تكييف نفسه مع قيود الحضارة . وتبدو استجابته ازاء قلة التحدي بالضجر والميل الى ان يصبح رخوا مهملًا هابط المعنويات . اما الفريزة الجنسية فتبقى على اصلها من القوة ، ولا بد لها ان تحمل ثقلا متزايدا من السيطرة المحبطة . والنتيجة : التوتر الجنسي والاحباط الجنسي . اما ملحمة جلعامش وهي واحد من اقدم ما كتب من الوثائق والآثار القديمة ، فتكاد تتماثل في تخلفها مع تخلف بترونيوس (١) او مارتيا (٢) حيثما تعالج الجنس . هذا باستثناء جانب واحد ، وهو ان النزوع الى المثلية الجنسية homosexuality لم يكن قد ظهر بعد . ولكن من الجدير بالملاحظة ، ان المثلية الجنسية - وهي نادرة او لم توجد بين القبائل البدائية - تبدو وكأنها كانت علامة من علامات تاريخ الحضارة انغرية منذ بدأت تلك الحضارة تحيا في المدن . (وقد اثبتت التجارب التي اجراها عالم النفس جون . ب . كالهون حيث دفعت الفئران الى ان تحيا وتتناسل في ظروف الازدحام الشديد ، اثبتت ان الفئران بدأت تنزع الى المثلية الجنسية حينما ازدحمت في « اكواخ قلرة » .)

(١) بترونيوس اتيوس (او) جايوس - مات عام ٦٦ م : كاتب ادبي روماني ساخر ، وصفه تاسيتوس بأنه : « حكم اللواق الرقيق » . كان مسؤولا عن الترفيه في قصور نيرون . ومن هنالك استوحى روايته الساخرة « ساتيريكون » ، التي تقدم بالنثر والشعر صورة حية ساخرة لانسواع الترف والورذائل والنساء وقواعد السلوك الاجتماعي ، في العصر الإمبراطوري . قال تاسيتوس في « الحوليات » انه مات منتحرا بالسسم هربا من اعدام مرعب بامر نيرون . (ه . م .)

(٢) مارتيا (هاركوس هاليوريوس ماتياليس) : كاتب روماني من القرن الاول الميلادي . ولد في اسبانيا وعاش في روما اكثر حياته . عرف بالعبارات المحكمة في تعليقاته اللاذعة الساخرة على « الاخلاق » الرومانية والمجتمع في عصره . (ه . م .)

ومن المهم تماما هنا ان نقول ان من الممكن ان يقال الشيء نفسه عن
 الفسق بالمحارم incest فلدى البدائيين تحريمات قوية بشأن ممارسة
 الجنس مع ذوي القربى . ويعتقد هنود الهوشول ، ان كل من يمارس الجنس
 مع احد ذوي القربى او مع شخص من خارج القبيلة فانه سيتحول من فوره الى
 حجر . اما عن تحريم العلاقات خارج القبيلة فهو مفهوم تماما : الرغبة في النقاء
 العنصري . ولكن لماذا تحريم ممارسة الجنس مع الاقارب ؟ لقد حقق عالم
 الانثروبولوجي كلود ليفي شتراوس شهرته بكتاب اسمه « الابنية الاولى للقرابة »
 في عام ١٩٤٩ حيث يقدم النظرية الهامة التي تقول بان ممارسة الجنس بين ذوي
 القربى عند البدائيين لم تحرم بسبب اخوف من اضعاف العنصر ، وانما لان
 المتوحشين كانوا واقعين تحت سيطرة فكرة الهبات او العطايا . يقول ليفي ان
 الاعطاء او المنح كان عاملا اساسيا من عوامل تخفيف التوتر الاجتماعي ، ووسيلة
 من وسائل تدعيم روح الجماعة وتجنب الحرب . ولكن الموقف الاناثي الطبيعي للذكر
 كان يدفعه الى المحافظة على البنات والاخوات الجميلات داخل العائلة ، فيصبحن
 بذلك حريمًا خاصا : فقد كانت النساء نوعا من الممتلكات ، يحافظ عليها او يتخلص
 منها بحسب تقدير الذكر وما يظنه الصواب . ولكن هذا الموقف قد يصبح
 مصدرا للتوتر الاجتماعي ، ويضيف ليفي شتراوس الى ذلك ، ان بقية رجال
 القبيلة قد يشعرون بانه من الظلم ان تظل اكثر الفتيات جمالا ملكية خاتمة
 لابائهن واخوتهن . وبذلك اصبحت النساء ائمن الاشياء بين ممتلكات القبيلة
 وثروتها ، فاصبحن يوهبن كمطايا وهدايا لرجال القبائل الاخرى الذين كانوا
 بدورهم يقدمون هداياهم الخاصة من نسائهم . وبذلك اكدت النساء الانسجام
 والتوافق داخل القبيلة الواحدة ، وبالتدريج اصبحت غشيان الاقارب حراما
 (تابو) . ويقوم رأي ليفي شتراوس على ان « تابو » غشيان المحارم يكشف عن
 نوع من « المسيحية الطبيعية » عند المتوحشين ، يشبه القول المسيحي : « من
 الافضل ان تعطى على ان تأخذ ... » .

انني اذكر هذا الرأي لانه يلقي الان قبولا عاما ، ولانه يبدو لي خاطئا
 بشكل ظاهر . فليس هناك دليل على ان الانسان البدائي كان يميل ميلا طبيعيا
 الى غشيان اقاربه ثم اصلح من نفسه بدافع من الرغبة في المحافظة على علاقة
 ودية مع جيرانه . ولكن اذا كان كذلك حقا ، فماذا كان من شأن البنات
 القبيحات اللواتي لم يكن « عملة » اجتماعية اذا صح القول بذلك ؟ هل كان
 يحافظ عليهن في الحريم العائلي ؟ ولماذا كان ينبغي لتقديم ابنة جميلة ان يؤدي
 الى تخفيف من حشد قبيلة بأكملها ؟ انها ما كان بوسعها ان تكون زوجة لآخر من
 رجل واحد . فلو كان هذا هو الدافع حقا للتخلص منها لكان من اكثر منطقا
 ان تجعل ملكية عامة لكل ذكور القبيلة .

ولكن الاعتراض الحقيقي ، اذا كان خط مناقشتنا صحيحا ، هو انه من الاكثر بساطة بكثير ان نزع ان الانسان البدائي قد عرف بشكل غريزي ان غشيان الاقارب يمكن ان يؤدي الى اضعاف النقاء الوراثي للقبيلة باكثر مما يؤدي الى ذلك الزواج من القريبات . فكل طفل يحصل على نصف « جيناته » - حاملات الخصائص الوراثية لديه - من ابيه ، وياخذ نصفها الآخر من امه . وهو قد يحصل على « جينة مرتدة » من احد والديه - مثل قصر النظر او اي نقص آخر - ولكن تظل هناك احتمالات كثيرة قائمة لان تتوازن هذه الجينة الارتدادية بوحدة اخرى صحيحة من الوالد الآخر . فاذا تزوج « اقارب الدم » فان الفرص تكون اكبر لكي يتلقى الطفل « جينتين » مرتدتين ، بما يؤدي في المدى الطويل بالتزاوج بين الاقارب الى انتاج سلالات اكثر ضعفا من سلالات الزيجات « المتزوجة » الطبيعية . فاذا كنا على صواب في قبول ان الجينات تتأثر بشكل ما بنوع من « العقل الجمعي » ، اذن فان للعقل الجمعي سببا ممتازا يدفعه الى خلق نفور غريزي من الزواج بين الاقارب في القبائل التي يعتمد وجودها على حيويتها العنصرية .

وحينما بدأ الانسان يعيش في المدن ، ضعف شأن تحريم زواج الاقارب والاختلاط الجنسي فيما بينهم . وليس لزيجات الاخوة والاخوات عند المصريين القدامى علاقة بهذه المناقشة ، لان هذه الزيجات كانت نتيجة للاعتقاد بان الملوك والملكات كانوا من الالهة ولذلك فانهم لم يكونوا قادرين على التزاوج ببني الغناء العاديين من البشر (١) ولكن طبقا لما يرويه سونونيوس وتاكيثوس فان بعض القياصرة انفسوا في الفسق بالمحارم بدافع البحث الخالص عن اللذة ، وعلى

(١) لا يورد ويلسون مصدره هنا (ولا ادلة تحليله) كما لم يورد دليلا على فكرة الرغبة في « النقاء العنصري » التي رد بها على ليبي شتراوس . رغم انه يطالب شتراوس بالدليل على مقولته . وايا كان الامر ، فان زواج الاخوة باخوانهم في مصر القديمة لم يكن مقصودا على الملوك (بل ان الملوك كانوا يملكون حق الزواج من بنات الشعب : مثلا زوجة امنحتب الثالث ، الملكة « تي ») ام اخناتون في نهاية الاسرة الثامنة عشرة ، من المعروف الشائع انها كانت من ابناء الشعب) . ولكن سبب هذا التزاوج بين الاخوة في مصر كان راجعا الى دوافع اجتماعية واقتصادية خالصة (هي ان الملكية كانت تنتقل بالوراثة بين اجيال النساء : من الام الى ابنتها ، فكان لزاما ان يتزوج الشقيق اخته ليحافظ على ممتلكات الاسرة في داخلها . ثم تحولت هذه الدوافع او امتزجت بدوافع دينية (قادمة من ديانة اوزيريس الشعبية) فحينما يموت الاب (اوزيريس) الذي كان متزوجا من اخته (ايزيس) يتحول الابن (حورس) الى اوزيريس جديد ينهي موته وينجب من اخته « حورس » جديداً ويضمن بزواجه منها استمرار حماية الغصب (بموت الاله - اوزيريس - الاب) وحماية الاسرة بانجاب حورس جديد . راجع رانكة (مصر القديمة) ، بيتري (سكان النيل) ، برست (فجر الضمير) . ه . م .

سبيل التنوع الغريب لاستشارة الشهية التي كانت قد اتخمت وتبلدت بسبب الاسراف البالغ في العمليات الجنسية .

ولقد كان السحر البدائي بشكل اساسي ، هو استخدام قوى الانسان الخفية للتاثير على عملية الصيد ، او ربما على المعارك . ويعتبر وصف جريمبل لعملية « نداء الدلافين » مثالا كاملا وصحيفا للزعة السحرية البدائية . ولكنه في ظل الظروف الحضرية الجديدة ، اصبح بشكل حتمي اكثر قربا وارتباطا بالجنس . واصبح الاحباط الجنسي بشكل متزايد اكثر شيوعا في المدن . كان بوسع السادة الكبار ان يستمتعوا بما يمتلكونه من « الحريم » ، وكان بوسع النبلاء الشبان الصغار ان يطاردوا المحظيات والبغايا الشهيرات ، وظل بوسع الرجل الفقير ان تكون له زوجته التي يثقلها العمل الكثير والاسرة الكبيرة ، ولم يكن امامه سوى ان يتلفت براسه لكي ينظر الى الفتيات عاريات الصدور في مروره سن بالشارع . وكانت نسبة الموت اكثر واسرع بين الرجال عنها بين النساء ، ولذلك كان هناك الكثير من الازامل المحبطات جنسيا . (وقد انعكس هذا في قصة عشتار التي تطارد جلعامش ، مثلما في قصة فينوس وادونيس ، او حتى في قصة يوسف وزوجة بوتيفار) . وقد امضى برونيسلاف مالمينوفسكي سنوات عدة في ملاحظة حياة اهل جزر « تروباياند » ، وسجل الطقوس السحرية المرتبطة بعملية تدشين قارب جديد . وكان هدف هذه الطقوس هو حماية بحارة القارب من الساحرات الطائرات اللواتي كن يسعين الى اغراق القارب والتهام اجساد البحارة . ويستطيع المرء هنا ان يرى بوضوح الاصل الجنسي للخوف من الساحرات . وكان من المعتقد انه اذا ارادت فتاة ان تمنع جيبها من خيانتها . فكان عليها ان تخبز فطيرة تحتوي دماء طمثها ، فاذا اكلها الحبيب اصبح عاجزا جنسيا مع النسوة الاخريات . وكان على الشاب الذي يريد ان « يسحر » فتاة ان يغريها بشرب مشروب يكون قد مزج به كمية من سائله المنوي . (وتبقى هذه المعتقدات السحرية اليوم وتتغلغل وتنتشر من صقلية الى ابعد اطراف الجنوب الامريكي) .

ان ما حدث للسحر بعد ان تم « تمدينه » هو انه اصبح عرضة لان تمتزج به كمية كبيرة من عناصر الهراء . فيقول كورنيليوس اجريبا - وهو ساحر من القرن السادس عشر .. انه يجب على النسوة الساعيات الى منع الحمل ان يشربن بول البغال ، لان البغال عقيمة لا تتناسل . ومن الواضح ان هذه الوصفة لن تزيد فائدتها على فائدة اكثر مانعرفه من « ادوية الحب » . ولكن سيكون من غير الصحيح ، من جانب آخر ، ان نزع ان السحر الجنسي لم يكن بشكل اساسي اكثر من خرافات قبة . ان الجنس يمثل واحدة من الوظائف الانسانية القليلة التي لم ينجح

« الروبوط » في اخضاعها لـ : « اوتوماتيكيته » المعتادة . انني اذا كنت متعبا، فقد يفشل منظر جميل او سيمفونية لموزارت في اثارة اهتمامي . ولكن نظرة سريعة لفتاة غريبة وهي تخلع ملابسها سوف تثيره . وهذا يعني القول بان الجنس يملك نوعا من الدفاع التلقائي انداخلي ضد خسارة « ادراك القيمة » الذي يسببه الاجهاد او اعتياد الاقتراب من الشيء . وهذا يعني ان للجنس « خطا ساخنا » يربطه بعقلي اللاواعي . ولقد سلبت انحضارة من الانسان الكثير من طاقاته وقدراته الاكثر عمقا . ولكن الجنس ظل دون ان يتأثر . وما زال من الممكن للجنس ان يفجر القوى اللاواعية، ويبدو الآن انه من المؤكد الى حد كاف ان مشاهدة « الاشباح المتحركة » انما تنتج بسبب الاضطرابات الجنسية غير الواعية لدى الفتيات والاولاد البالغين ، وبوجه خاص ، الفتيات . ويكتب رايز س . جونسون قائلا :

« ان من اكثر ملامح ظاهرة « الاشباح المتحركة » اثاره للدهشة، هي ما يبدو في الغالبية الساحقة من الحالات من ان شخصا شابا هو الذي يكون العميل او الوسيط غير الواعي لتأثيرات الناتجة . وفي ٩٥ بالمئة من هذه الحالات يكون هذا الشخص فتاة صغيرة ، في قول برايس ، الذي يضيف ان الـ ٥ بالمائة الباقية يكونون من الاولاد والفتيان . والاكثر من هذا انه يبدو ان التغير الجنسي او الصدمة الجنسية كثيرا ما تكون مرتبطة اما ببداية حدوث الظاهره او بتوقفها . وعلى هذا فان فترتي البلوغ والمراهقة هما اكثر الفترات مناسبة للتأثر . ويخبرنا برايس بان قدرة اليانورا زاجان اختفت في ليلة واحدة مع اول ظهور للطمث عندها ، وان الاخوين شنايدر كانا لامعين في سن البلوغ وقبله وبعده بقليل ، ولكن المؤثرات كانت تتلاشى كلما تقدما في سن المراهقة ، وعلى النقيض من ذلك ، فان قدرة ستيلاسي اصبحت بارزة وملحوظة مع نضجها الجنسي ، وانه في حالة استركوكس فان الظاهرة التي استمرت معها سنة كاملة قد ابتغثتها صدمة جنسية جاءت بسبب ما تعرضت له من محاولة اعتداء جنسي ، وان الاشياء التي كانت تراها كانت تبلغ ذروة قوتها كل ثمانية وعشرين يوما . . ويحكى برايس ايضا عن لقاء بينه وبين زوج فريدا و . وهي وسيطة نمساوية شابة الذي قال له انه كان يحدث عندهما تبليغ زوجته ذروة استثارتها الجنسية في باكورة حياتهما الزوجية ان الزخارف والتعليقات في منزلها كانت تسقط احيانا من فوق جدار المدفأة في حجرة نومهما ، وقال له ايضا ان قدرتها على الوساطة كانت تختفي تماما في خلال ايام الطمث . . »

ويقتطف جونسون ايضا حالة ذات طبيعة مشابهة ، كان قد قام بتحليلها الدكتور س . ا . ماير ، مساعد يونج . ففي ذروة عملية التحليل ، تخيلت المريضة

نفسها - وهي في حالة نعاس - وهي تتوغل اعمق واعمق في مدينة ما ، وهو الامر الذي كان رمزا لمشكلتها (والمفترض انها مشكلة جنسية ، رغم ان جونسون لا يقول ذلك) . وفي اللحظة التي وصلت فيها الى مركز المدينة ، سمعت صوتا عاليا ، وتحطم امامها عامود قوطي خشبي فانقسم نصفين .

.. وهذا ايضا يتماشى مع النظرة التي اقدمها : وهي انه منذ ان اصبح الانسان « ساكن مدينة » قام ارتباط قوي بين قدراته النفسانية القديمة وبين طاقاته ورغباته الجنسية . فبوسع الجنس ان يثير درجة من قوة الارادة والكثافة التي نادرا ما يمكن ان توجد في المجالات الاخرى من الحياة المتحضرة .. وقد استطاع بارتول(١) ان يقبض على شيء من هذه الفكرة في باليه « ساحر المعجزات » حيث تجتذب بفي ساحرا الى حجرتها ، وهناك يهاجمه اثنان من البلطجية . انهما يضربانه ، ويطعمانه ، واخيرا يشنقانه ، ولكنه يرفض ان يموت حتى تروي رغبته الجنسية وتشبع . وقد تم رسم الساحر في صورة الرجل الصامت ، الجامد الشعور الذي لا تعبر عن رغبته الا عينان مشتعلتان : رجل يسير وفقا لمشيشة ارادة هائلة ، وهي الصورة النمطية الشائعة للساحر .

ان هذا الربط بين السحر والجنس ، لهو حقا ما خلق فكرة « السحور الاسود » . وكانت هذه هي المرحلة الثانية من مراحل انحطاط فن السحر .

اسمحوا لي ان اخص تاريخ السحر بالصورة التي يبرز بها من خلال كل ما تقدم .

... منذ حوالي سنتين الف سنة ، ظهر انسان « كرومانيون » ، وكان ارقى نموذج من النوع الانساني ظهر حتى ذلك الحين . وقد لعب السحر دورا كبيرا في حياته اكثر مما لعبه في حياة النماذج السابقة . كان السحر هو علم العصر الحجري . وكان انسان « كرومانيون » هو اكثر المخلوقات التي ظهرت حتى ذلك الحين على الارض ذكاء .

وحدث ما لم يكن بد من حدوثه : فقد تحول سحر الشامانات التعاطفي الابيض الى شيء أكثر شخصية . وظهرت الكهانة . ولا بد ان نميز بوضوح بين الكهنة وبين السحر والشعوذة العاديين وهما ببساطة محاولة استخدام قوى

(١) بارتول - بيلا (١٨٨١ - ١٩٤٥) موسيقي مجري ، يعتبر ابا الموسيقى المجرية الحديثة . اشتهر بعملته التي استغرقت معظم حياته لجمع الموسيقى الشعبية من المجر ورومانيا وترانسلفانيا وسيلوفينيا فجمع نحو تسعة آلاف لحن اصلي ، بالإضافة الى ٢٠٠ لحن عربي وتركى ، واستخدم الكثير منها في اعماله للاوركسترا وللعروض المسرحية الراقصة . هـ . م .

غير عادية مثل التواصل من بعد او الكشف عن الماء اللذين يمثلان شكلين بسيطين من اشكال السحر . اما الكهانة فهي محاولة الاستخدام « المنتظم » لثل تلك القوى عن طريق الرقي والتعاويد والاحتفالات الخاصة والطقوس وما الى ذلك . وبذلك يمكننا ان نضع خطأ مميّزا بسيطاً بين الاثنين بالقول بان السحر سلبي في جوهره ، بينما الكهانة كانت ايجابية .

ولكن ربما كان اكثر الفروق اهمية بين الاثنين هو ما يلي : ان السحر يعتمد على مستوى من الوعي اكثر سموا ، وعلى ادراك للحقيقة اكثر اتساعا مما يمتلكه الناس في العادة . وفي هذا الصدد يرتبط السحر ارتباطا وثيقا بالنزعة الصوفية . وقد تعتمد الكهانة على قوى اكبر او اسمى من القوى العادية ، ولكنها تنطلق من الوعي اليومي العادي ، ومن الشخصية العادية اليومية . والميزة الاساسية المميزة للشخصية اليومية العادية هي رغبتها الملحة في السلطة والقوة : الرغبة في المال ، والممتلكات ، والفزوات الجنسية ، والمكانة الاجتماعية . اما الدافع الصوفي فهو من الجانب الآخر ، يتنازل عن كل تلك الاشياء . ان شاعرا مسحورا بطزاجة دقيقة مطر في شهر ابريل يشعر باشواق غريبة ، بشيء ينفجر ويتصارع في داخله ، يجتاحه احساس بالشراء والغموض الذي يكتنف الكون والذي يجعل مطامح العاديين من الناس تبدو غيبة مخطئة . ولقد يقال ان « كل » الناس انما يخضعون لضغوط تلك الدوافع الى التسامي الذاتي : حتى السياسي الذي يمضي في الكذب لكي يكسب اصوات الناخبين ، وحتى الدون-جوان الذي يكذب لكي يقتنع فتاة بان تذهب معه الى الفراش . هذا حق . ولكن الفرق الاساسي هو ان الشاعر « يرقض نفسه » بشكل ما . انه ليس مهتما بنفسه ولا هو شغوف بشخصيته ولا بالوسائل التي تؤدي الى زيادة عظمتها وقوتها . انه جدير بان يفضل لو يصبح نقياً وواضحاً مثل الماء العذب القراح . ان الفرق بين الكاهن والساحر هو ان الساحر « ليس مهتما ولا مشغوفا » مثل الشاعر او العالم ، اما الكاهن فيريد السلطة الشخصية ويسعى اليها .

لقد ظهرت الكهانة الى الوجود منذ ستين الف عام ، ولكن حينما كان الناس يعيشون حياة بسيطة في القرى الصغيرة ، فانها ظلت رمية لا اهمية لها من سهم سحرة القبائل ، او الشامانات . ولكنها بمجيء حياة المدن ، فانها خلعت السحرة القدامى - او خلعت رداءهم - واتخذت لنفسها وجوداً مستقلاً . ومنذ ذلك الحين ، ظل السحر والجنس على علاقة وثيقة . وهذا ما يفسر عنف العقاب الذي كان يوقع على الساحرات في العصر المسيحي .

ولكن ثمة سبب يبرر الظن بان حدثا اخر بارزا قد لعب دورا في تغيير تاريخ الانسانية في الالف الرابع قبل الميلاد : الطوفان .

ففي اوائل العشرينات من هذا القرن، ذهبت بعثة بريطانية امريكية مشتركة، تحت قيادة ليونارد وولي ، لاستكشاف هضبة اورابية « تل الابيض » الذي يقع في منتصف الطريق بين بغداد والخليج العربي . كانت هذه الهضبة هي موقع مدينة « اور » القديمة الكلدانية . وكان المعروف منذ ازمة قديمة ان الكلدانيين هم مؤسسو علم الفلك وفن التنجيم .

وكان عقد العشرينات غنيا بكشوفه الاثرية التي اماطت النقاب عن فترات تعود الى مرحلة ابتكار الكتابة - حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد . ولم تقل الكنوز المكتشفة جمالا وغرابة عن تلك التي اكتشفت في مقبرة نوت عنخ آمون عام ١٩٢٢ . ولكن في صيف عام ١٩٢٩ ، وبينما كانت عمليات الحفر توشك ان تنتهي، قرر وولي ان ينزل بالحفر الى اسفل تل كان يحتوي قبورا لنبلاء سومريين (كان وولي يدعواها بقبور ملوك اور) . وهناك اكتشفوا الواحاً طينية اقدم من تلك التي وجدت في القبور: الواح ترجع الى عصر ابتكار الكتابة . وحينما استمروا في الحفر ، عثروا على المزيد من الفخار السومري ، يشبه ذلك الذي كان قد عثر عليه من قبل واصبح من الواضح ان الحضارة السومرية كانت قد ظلت مستقرة دون ان يتتابها تغير ظاهر عبر مرحلة زمنية طويلة .

وحيثاذا ، وازاء دهشة الجميع ، بلغوا في الحفر طبقة من الطين الابيض الناصع ، وكان سمكها يزيد على ثمانية اقدام . وتحتها ، او اسفل جانبها السفلي ، عثروا على المزيد من القدور الفخارية وبقايا وآثار المباني . في هذه المرة كانت القدور الفخارية مصنوعة بالايدي ، وليست مشكلة على عجلة الفخاري . كانوا قد وصلوا الى ثقافة العصر الحجري .

كان العصر الحجري مفصولا عن عصري البرونز والحديد بعلامات تدل على حدوث الطوفان . ودلت الحسابات على ان الطوفان قد وقع في حدود عام ٤٠٠٠ ق.م . وهو تاريخ تحول الانسانية العظيم نحو سكنى المدن .

وفي سبعينات القرن الماضي، كان باحث يدعى جورج سميث يعمل - في المتحف البريطاني - في فحص بعض اللوحات الطينية ذات النقوش من الكتابة المسمارية كانت قد وجدت في نينوى ضمن الحفريات التي قام بها راسام ، مساعد اوستين لايرد . وكانت تلك اللوحات جزءا من مكتبة الملك الدموي سنحريبه المشهور في التوراة . وقد كان سميث هو الذي تبين ان تلك اللوحات كانت جزءا من قصيدة قديمة تدور حول بطل يدعى جلجاميش . ولقد ذكرت من قبل الجزء الاول من هذه الملحمة : كيف اقتنعت الالهة بضرورة خلق انكيدو لكي يكون كفوا لجلجاميش ، وكيف قامت الصداقة بين الاثنين . ثم رحيل جلجاميش وانكيدو الى جبل الارز (الذي يعرف بموقعه الآن بين سوريا واسيا الصغرى) وقتالهما مع

حارسه ، العملاق همبابا الذي يتمكنسان من قتله . ولدى عودتهما ، تقع قصة محاولة الربة « عشتار » اغواء جلجاميش ، حينما يرفضها فانها تقنع الارباب بارسال ثور هائل متوحش لتدمير مدينة اوروك . ويتمكن جلجاميش وانكيدو معا من ذبح الثور . حينذاك ترسل عشتار مرضا غامضا يفتال انكيدو . ويشعر جلجاميش بالوحدة - ويدرك فجأة انه من ابناء افناء . فيقرر ان يذهب لكي يستشير رجلا وهبته الارباب الخلود - هو « أوتا - نابيشتم » . ويرحل جلجاميش الى جبل غريب يحرسه « الرجال العقارب » وينفذ الى قلبه ، حيث يكتشف نوعا من الحقائق التي تذكرها « الف ليلة وليلة » . وتخبره الربة « سيدورى » ان كل الناس يولدون لكي يموتوا ، ولكنها ترضى في النهاية بمعاونته على مقابلة « أوتا - نابيشتم » وهو الذي يحكي لجلجاميش قصة الطوفان ، وكيف حدرته الربة « ايا » من ان العالم سوف يدمره الماء ، وكيف افلت من الدمار الشامل بأن بنى لنفسه السفينة . ونتيجة لذلك قررت الارباب ان تجعله خادما وان تفلته من الموت .

ولست هناك بقية طويلة للحمة جلجاميش بعد ذلك - فان ما بقي منها بعد ذلك لم يكتشف بعد . فبناء على نصيحة « أوتا - نابيشتم » يأتي جلجاميش بنبتة الحياة الابدية التي يعثر عليها في قاع البحر ، ولكن ثعبانا يأتي فيسرق النبتة اثناء نوم جلجاميش ، فيعود البطل الى اوروك حزينا فارغ اليدين .

ولقد دهشت انجلترا الفيكترية حينما نشر سميث ترجمته لقصة الطوفان المأخوذة من « جلجاميش » . وكانت هناك بعض الألواح الطينية ما تزال مفقودة ، فتبرعت جريدة « الديلي تلجراف » سميث بالف من الجنيهات لكي يذهب بحفا عن الألواح المفقودة . لم تكن فرصته للعثور عليها تزيد نسبتها على واحد الى مليون . ولكن من المدهش تماما انه عثر عليها ، بعد خمسة ايام فحسب من العمل في الحفر . (ان بعض « المصادفات » الصعبة التصديق التي وقعت في عالم الحفريات الاثرية لتكفي لدفع اكثر الناس شككا الى الايمان بربوات القدر) . لقد استخرج سميث الجانب الاعظم من قصيدة جلجاميش بالصورة التي نعرفها بها الآن (١٤) . ولسوء الحظ ، لم يعثر على الكثير من الاضافات اليها ،

(١٤) لا يوضح ويلسون هنا ما يقصده ب « الصورة التي نعرفها الآن » للحمة جلجاميش . فنحن في الواقع نملك منها عدة صور . فبالإضافة الى القصائد السومرية الخمس عن جلجاميش ، القصيرة والمستقلة بعضها عن البعض ، توجد ثلاثة مصادر للملحمة الكاملة ، اولها هو ما يسمى «النسخة البابلية» ويبدو ان هذه هي ما يتحدث عنها ويلسون ، ثم المصدر الاكادي المختصر ، وقد عثر عليه في عاصمة الحيثيين القدامى في اسيا الصغرى ، ثم هناك « نسخة نينوى » التي تعتبر اكمل نص للملحمة واقلها تلفا ، وقد عثر على مقاطع منسوخة من هذه النسخة في مدينة « سلطان » =

رغم انه كانت هناك شذرات متفرقة في اللغة السومرية الاقدم عهدا ، تشير الى ان القصيدة تسجل تراثا ينتمي الى الالف السابق من السنين .

والاساطير التي تتحدث عن «طوفان» ما منتشرة في كل تراث اسطوري في العالم ، وهو طوفان صحبته ثورات بركانية ، واعاصير وانفجار ينابيع غزيرة . وفي الاسطورة اليونانية كان دوكاليون ، ابن بروميشيوس هو الناجي الوحيد (مع زوجته بيرها) من الطوفان الذي دمر به زيوس العالم . (والسبب الذي تقوله الاسطورة هو نفس السبب الذي تقول به التوراة : ان الجنس البشري كان قد أصبح فاسدا فسادا مطلقا) وبحكمى اوفيد هذه الاسطورة (١) . كذلك تحكي الاسطورة الهندية « ريج فيدا » حيث يقوم بطلها « مانو » ببناء فلكه ثم يلجأ الى قمة جبل حينما يتوقف تدفق الماء ، تماما مثل دوكاليون واوتانايشتم . وتوجد اساطير الطوفان في كتاب « بوبول فوه » ، وهو الكتاب المقدس لدى هنود الكويشي في امريكا اللاتينية ، كما توجد لدى هنود امريكا الشمالية . وكل قارىء يشك في عالمية اساطير الطوفان ، عليه ان ينظر تحت كلمة « طوفان » في فهرست كتاب « تورا العالم » من تأليف باللو ، حيث يمكنه ان يختار الاسطورة التي تروق له من بين ست صياغات لحكاية الطوفان ، من بينها صياغات فارسية وصينية وهندوسية .

ومن الممكن بالطبع ان تكون كل واحدة من هذه الاساطير ، انما تشير الى طوفان مختلف . فليس مما يعقل ان تكون الصين وشمالى امريكا قد تعرضتا لطوفان واحد في وقت واحد . ولكنه من المهم ان نفكر في التالي : « الا يمكن » ان يكون ثمة حادث معين في تاريخ الارض انطوى على كارثة بلغت من الضخامة حدا يكفي لان يفرق الطوفان مساحات واسعة من الكرة الارضية بأسرها ؟

= التركية شمالي بلاد ما بين النهرين . (راجع : « جماليات ملحمة جلجاميش » المجلدات من ١٧ الى ٢٢ - دياجونوف وترافيموف ، ترجمة عزيز حداد - منشورات مكتبة الصبياد - بغداد ١٩٧٣) . وعلى اية حال فان قصة جورج سميت واسمه وترجمته لا ترد نهائيا في قائمة المراجع ، واصول الملحمة ، واولل مرات نشرها مع ترجماتها الحديثة ، التي تضمها هوامش كتاب دياجونوف الذي ترجمه عزيز حداد . وان كنت لم اطلع على ترجمة الاستاذ طه باقر المشهورة للملحمة . (٢٠٠٥)

(١) اوفيد - بابليوس اوفيدوس ناسو (٢) ق. م - ١٧ (ق. م) شاعر رومانسي من العصر الاسطى ، عرف بكتابه العظيم « ميتامورفوز » الذي جمع فيه واعاد صياغة اساطير « التحول » العظمى في الميثولوجيا اليونانية ، وحيث سرد اسطورة دوكاليون والطوفان ، واصبح نموذجا من نماذج الشعر الاوروبى الكلاسيكية (ترجمه ثروت عكاشة في ممر الى العريضة باسم « مسخ الكائنات » . ولايفيد اعمال شعرية عظيمة اخرى ، « قصص حب » ، « هيروديات » ، « (الحب) » اعتبرت في عصر النهضة وما تلاه ، اصول الشعر العاطفي الاولى . (٢٠٠٥) .

كان هناك مهندس الماني غريب ، يدعى هانس هوربيجر (H)، اقتنع بأنه يملك الجواب على ذلك السؤال ، وقد وضع اسم هتلر في قائمة اتباعه ، وحتى اليوم، فان لنظرية هوربيجر عن « الجليد العالمي » مؤيدين يعدون بالآلاف . (ففي كتاب : « صباح الصحرة » يعلن لويس باولز ان له بعد ، مليوناً من الاتباع) . يقول هوربيجر ، ان الكارثة حدثت بسبب القمر ، بسبب عملية « أسر » القمر الحالي للأرض . فطبقاً لما يقوله هوربيجر ، فان قمرنا الحالي هو القمر الرابع الذي تأسره الأرض . وكان ذات مرة مجرد كوكب صغير اقترب أكثر من اللازم من الأرض - في دورانه الخلزوني الحتمي حول الشمس - فأصبح تابعاً للأرض ، مما أدى الى أحداث موجة تدمير انزلت بسطح الأرض تخريباً شديداً .

اما نظرية « الجليد العالمي » Weisteislehre فنأخذ اسمها من يقين هوربيجر من ان الكون بدأ حينما اعترضت كتلة هائلة من الجليد مسار شمس ضخمة ، فحدث انفجار مروع، ما زال مستمرا الى الآن . ويقول هوربيجر ان هذا هو السبب فيما يلاحظه علماء الفلك من ان الكون يتمدد . ومن المؤكد انه لا يوجد هذا الشيء الذي يدعونه « الفضاء الخالي » ، لان الانفجار لا بد ان يكون قد بعثر مادته في كل ارجاء الكون . ان ما ندعوه « فضاء » ممتلئ في الحقيقة بكميات من الهيدروجين الخفيف وبللورات الجليد الرقيقة . (وترجع فكرته العظيمة الى الفترة التي كان يعمل فيها مهندسا ، فرأى الحديد المصهور ، وهو يسقط بالصدفة على ركام الصقيع ، مما أدى الى الانفجار ، ونجاة امتلكه اقتناع قوي ، بان هكذا كانت بداية الكون) .

وسوف يكون من الممتع ان نرى كيف تصمد فكرة هوربيجر بعد النزول على سطح القمر ، ذلك انه كان قد اعلن ان سطح القمر تغطيه طبقة كثيفة من الجليد، يبلغ سمكها عدة اميال (١) . وطبقاً لما يقوله هوربيجر ، فان اقمار الأرض الثلاثة السابقة ، كانت نيازك هائلة يغطيها الجليد اقتربت من الأرض اقتراباً شديداً . ثم جاء اليوم الذي سقطت فيه هذه الاقمار على الأرض - ذلك انها كانت تدور في مسار حلزوني حول الأرض، فكان لا بد ان تقترب منها مثلما تقترب ابرة الجراموفون من مركز الاسطوانة . وتفسر هذه الكوارث الهائلة عصور التطور في الأرض ، مثل العصر الجليدي العظيم ، وما الى ذلك .

وقبل ان نصرف النظر تماماً عن هوربيجر كرجل مجنون ، علينا ان نتذكر

(H) هانس هوربيجر (١٨٦٠ - ١٩٢١)

(١) لقد تم النزول على سطح القمر ، ولم يكن هناك « جليد » ، رغم ان النزول تم على الجانب المقابل للأرض من القمر . (هـ . م) ..

ان العلماء ما يزالون عاجزين عن تقديم اي تفسير لبعض تلك التغيرات التي طرأت على مناخ الارض . ففي خلال الملايين العشرين السابقة من السنين ، جاء عصر من الامطار الغزيرة (الموسيني) ثم تلاه عصرا متد طوال اثني عشر مليوناً من السنين سادها الجفاف المروع وانتشرت الصحاري (اليلوسيني) ، ثم جاء عصر « البيلستوسين » فكان عصرا غريبا متفجرا تخللته تحولات هائلة في الطقس ، كانت من ضمنها اربعة عصور جليدية طويلة ، استمرت مليوناً من السنين . وفي كتاب « اطوار افريقية » كتب آردري فصلا ممتعا يصف فيه النظريات المختلفة التي حاولت ان تفسر وان تصف العصور الجليدية الاربعة التي طرأت على الارض في غضون الحقب اليلوستيسينية ، التي امتد آخرها ، المسماة حقبة « فورم » طوال المدة من زمن انسان النياندرتال الى منذ ما يقرب من احد عشر الف عام فحسب . وتتضمن هذه التفسيرات كلاما عن النيازك ، والتحوليات المفاجئة ، في قطبي الارض ، والانفجارات المفاجئة في الاشعاعات الشمسية ، بالإضافة الى نظرية آردري الخاصة التي تقول ان المجموعة الشمسية برمتها تخرق في دوراتها سحابة هائلة من الغاز كل مائتي مليون سنة . ومن الممكن بالطبع تقديم ما يدحض كلا من هذه النظريات . وبذلك فاننا ما نزال نفتقد اي فكرة محددة عن السبب الذي ادى الى حدوث العصور الجليدية العظمى فسي العصر ما قبل الكامبري ، والعصر البرمي ، وعصر اليلوستيسين . وبالتالي فان فرضية هوربيجر ليست اكثر من فرضية تشبه غيرها من الفروض ، وخاصة طالما انه يبدو الان ان قمرنا « هو » بالفعل جرم غريب ، اصطاده الارض بجاذبيتها من الفضاء الخارجي .

حقا ان هوربيجر يرجع تاريخ اسر قمرنا الحالي (الذي يدعوه :الكوكب لونا) الى حوالي ١٢ الف سنة قبل الميلاد . ولكنه ايضا ، متيقن تماما من ان اسر « لونا » هو الذي سبب الطوفان . وقد نوقشت هذه النظرية في واحد من اكثر الكتب الشاذة امثالا ، هو كتاب « قارة الاطلنطيس والعمالق » الذي كتبه المرحوم البروفيسور دنيس سورات عام ١٩٥٢ . ان سورات ، وهو احد اتباع هوربيجر ، يسقط على جملة غريبة من قصة نوح . تقول هذه الجملة : « كان هناك عمالقة على الارض في تلك الايام » . وهناك الكثير من البراهين الجيولوجية التي تثبت ان العمالقة قد وجدوا « بالفعل » ذات يوم . ففي منتصف الثلاثينات ، اطلع عالم الانسانيات . ج.و.هـ. كوينجر فولد على « سن » وجد بين مخلفات كهف كوانجس في الصين (من العصر التيرتاري المتأخر) بدا انه كان لقرد عملاق ، يبلغ حجمه ضعف حجم الفوريلا الحالية . ثم اكتشفت فيما بعد كميات من هذه الاسنان التي تثبت ان السن الاولى لم تكن امجوبة شاذة ، وبعد ذلك ، في اواخر الثلاثينات ، وبالقرب من قرية سانجيران في جاوة ، اكتشفت

بقايا جمجمة وفك لعلاق بشري - لانسان يبلغ حجمه ضعف حجم الانسان الحالي . وقد وصف فون كوينجز فولد كل هذا في كتابه البسارز « القرد ، والعمالة ، والانسان » . وجاءت الحرب التي قطعت مسار كل شيء ، فأبعد اليابانيون كوينجز فولد ، ومنعوا اكتشافاته من ان تتحول الى انباء عالمية هامة . ان « العمالة البشرية » التي كشف عنها كوينجز فولد ، ترجع الى اكثر من نصف مليون من السنين . .

انني اود ان اقترح اذن ، كافتراض مثير قد يكون صحيحا بقدر صحة الفرضيات الاخرى ، انه في حدود عام ٤٠٠٠ ق.م ، اسرت الارض قمرها الحالي . وربما كان للارض اقمار سابقة او لم يكن لها اقمار - فليس لدينا طريقة نعرف بها طالما ان الكتابة لم تكن قد عرفت بعد (١) . وتسبب أسر التابع الفضائي في ثورا نعيم ، من ثورات بركانية او موجات مدّ عاتية . وهلك جانب كبير من الجنس البشري ، كما كان للكارثة الهائلة آثار بعيدة المدى على الناجين . كان الانسان طوال آلاف من السنين فلاحا مزارعا بدلا من ان يكون صيادا . كان يعيش في جماعات قروية صغيرة آمنة حيث كانت التغيرات ضئيلة من قرون الى قرن . ذلك انه مثلما يلاحظ جيرالد هوكينز في كتابه : « فك رموز صخور ستون هينج » : « ليس من الضروري ان ترحب القبائل البدائية بالتغيرات الجذرية ، انها قادرة تماما على ان تقاوم ابتكارا جديدا حتى لو كان مفيدا بشكل ظاهر ، وان تقضي على حياة المبتكر باعتباره خائنا او مخربا . وحيانا ما يعتمد التغير الكبير المغزى على القوة » - ص ٣٥ . وقد كان الطوفان صدمة كبيرة ، مستثيرة اعماق ينابيع ارادة البقاء . لقد بلغ الامن الذي استمر قروننا نهايته . وانتقل الناجون معا الى وديان الانهار . ومثلما يحدث في كل ازمنة الكوارث ، اخذت الضباع البشرية في اجتناب البلاد ، مما جعل السفر عملا غير مأمون ، واخذت هذه الضباع تغير على الجماعات الصغيرة التي نجت من الكارثة . وكانت « المدينة » هي رد الفعل الفريزي من جانب البشرية ازاء الكارثة : التجمع معا بهدف الراحة والحماية . فاذا كنا على صواب في اعتبار

(١) كانت الكتابة معروفة في مصر منذ بداية عصر الاسرات على الاقل (٢٢٧٧) ق.م في قول فلاندرز بيتري ، او ٢٤٠٠ في قول جيمس برستد ، وكان هناك ايضا آله للقمر يدعى «خونسو» وكان لها معليا فخري أقصى الجنوب قبل ان يصبح احد الارباب العظمى طوال عصر الاسرات . ولم يسجل المصريون ولا جيرانهم من اصحاب الكتابات المعاصرة (بابل مثلا) حادثة « أسر القمر » . راجع :

M . A . Murry : The Splendour That Was Egypt , F.S. book , Lodon 1966 .

وراجع ايضا « مصر » ، « تأليف دريوتون ولغانديه ص ٧٢ - تعريب عباس بيومي - مكتبة النهضة المصرية . ه . م .

القمر سببا في الكارثة ، فان الناجين بدأوا يحدقون في الكوكب الجديد فسي السماء - الذي كان يرسل ضوءا احمر اللون من خلال الجو المغبر - فراوا فيه شيئا مرعب المعنى ؛ راوه الها . ان الانسان مخلوق له نظرة اشبه بالرؤية تجلله مشاعر الروعة والقموض ، فيستجيب افضل استجابة للتحدي العنيف . كان الانسان قد اعتاد على العالم الاخضر المسالم الذي تلا العصر الجليدي الاخير (الذي كان قد بدأ قبل ٥٥ الف عام) ، وهو عالم كان الانسان قد اصبح فيه المخلوق صاحب السيادة الاعظم بعد ان كانت حيوانات الماموث والبر المسيف الاسنان قد بادت وانقرضت . ولولا الكارثة لكان قد استمر في حياته الرعوية او الزراعية لمدة خمسة آلاف سنة اخرى مثل اسلافه ، الذين يشبهون قبائل الاوروبيين الاستراليين وغينيا الجديدة . ولكن الطوفان جاء فهزه من اعماقه واقتلعه من عالمه الساكن الريب .

ويعتقد هورينجر ان الطوفان هو الذي دمر قارة الاطلنطيس ، ولذلك فقد يكون هو الوقت الملائم للحديث عن تلك الاساطير . تعود اسطورة قارة الاطلنطيس الى افلاطون وحده ، الذي يحكي القصة في الثنتين من محاوراته : تيمائوس ، كريتياس . ان كريتياس الذي ذكره افلاطون ، وهو شخص حقيقي وليس من بنات خيال الفيلسوف ، يقول ان اسرته تمتلك بعض الوثائق التي كتبها صولون حاكم اثينا ، الذي جاء بمعلوماته من كهنة مصر . ومن المؤكد ان الامر يبدو كما لو كان افلاطون قد ادخل مادة تلك الوثائق في المحاورتين من اجل المحافظة عليها ، وهذا هو التفسير الوحيد الذي بغيره لا يبدو لذكر هذه الوثائق اي مغزى في المحاورتين ، فانها لم تذكر بهدف استخدامها كمثال يضرب مستمدا من خرافة ذات مغزى . يقول كاهن مصر لصولون ان اليونانيين ليسوا اكثر من اطفال فيما يتعلق بالمعرفة التاريخية . انهم لا يتذكرون سوى طوفان واحد ، بينما كان هناك اكثر من طوفان ، بل واكثر . وكان واحد من اعظمها هو ذلك الطوفان الذي دمر قارة الاطلنطيس الشاسعة ، التي تقع فيما وراء اعمدة هرقل (مصيق جبل طارق) وكانت اكبر من ليبيا واسيا معا . وكان الدمار قد جاء في وقته ، ذلك ان اطلنطيس كانت قد قررت ان تهاجم مصر واثينا . وقد حدث كل هذا قبل افلاطون بنحو تسعة آلاف عام . ويضيف افلاطون ان اطلنطيس كانت تفرض سيطرتها على الكثير من الجزر الامر الذي يجعلها تبدو كمجموعة من الجزر بدلا من ان تكون - او بالاضافة الى كونها قارة .

وقد بدأ الاهتمام الحديث بقارة اطلنطيس في عام ١٨٨٢ ، حينما اصدر كاتب امريكي يدعى اجناتايوس دونيللي كتاب : « اطلنطيس ، العالم الغارق تحت

البحر» . وهو كتاب جدير بالاهتمام وما يزال قادرا على الهاب الخيال طوال ساعات . ويؤكد دونيللي ان قارة اطلنطيس كانت قارة ضخمة تقع في المحيط الاطلسي ، وان ملوكها وملكاتهما اصبحوا الارباب والربات في كل الديانات الاسطورية التالية ، وان هذه القارة كانت اصل اسطورة « جنة عدن » ، وانها قد دمرت منذ نحو ١٣ الف عام تقريبا . وهو تاريخ يتفق الى حد ما مع ما قاله كل من افلاطون وهوربينجر . ويدرس كتاب دونيللي كل اساطير الطوفان في العالم ، والمصادفات التي تلتقي حتى تتكون منها : « ثقافة عالمية » ، وهي الثقافة التي فكر فيها سوروات فيما بعد .

وجاء بعد دونللي باحث جاد وعالم في الانثروبولوجي ، هو لويس سبنس ، الذي كتب ستة كتب عن الاطلنطيس . ودخل سبنس اكثر من ميدان غريب لكي يثبت وجود القارة الغارقة : فهو يقول على سبيل المثال ان حيوان « الليمنج » القارض الصغير الذي يقطن النرويج ، يهاجر احيانا هجرة « جماعية » فيسبح متوغلا في الاطلنطي ، وتبلغ الجماعة نقطة معينة ، وتروح تسبح في دوائر صغيرة ، ثم تفرق . ويقول سبنس ان الشيء نفسه يحدث مع بعض اسراب الطيور .

... لقد نشر حتى الان اكثر من الفين من الكتب والمقالات حول موضوع اطلنطيس . ومن الموضوعات المشتركة بينها ، فكرة ان سكان الاطلنطيس قد دمروا انفسهم باستخدامهم للسحر الاسود . ولكن هذه الفكرة لا تتماشى مع رأي افلاطون ، غير انها منتشرة بما فيه الكفاية لذكرها .

اما احداث محاولات حل مشكلة الاطلنطيس واكثرها عقلا ، فهي محاولة البروفيسور ا.ج. جالانوبولوس . وتقوم نظريته على حقيقة بسيطة فغل عنها الكتاب الاخرون : وهي ان الارقام التي ذكرت فيما يتصل بالاطلنطيس كانت ارقاما ضخمة جدا . ويعبر افلاطون نفسه عن شكوكه فيما اذا كان الاطلنطيون قد تمكنوا من حفر خندق حول مدينتهم الملكية يبلغ طوله عشرة آلاف طول (١١٣٥ ميلا) . ومن المعترف به ان القدماء كانوا قادرين على القيام باعمال ضخمة . فان طول سور الصين العظيم كان يبلغ ١٥٠٠ ميل - ولكن من جانب آخر ، فان خندقا يبلغ كل هذا الطول ، يستطيع ان يدور حول لندن الحديثة - لندن الكبرى - عشرين مرة ! ومعنى هذا ان المدينة الملكية في اطلانطيس كانت اكبر من لندن الكبرى الحديثة ثلاثمائة ضعف . ومن الواضح ان هذا كلام لا يعقل . ولكن اذا خفضت هذه الارقام بنسبة واحد الى عشرة ، فانها تصبح معقولة اكثر .

.. كذلك يبدو الرقم الذي حدده الكاهن المصري - وهو ٩٠٠٠ قبل افلاطون (اي ما يقرب من ١١٦٥٠٠ قبل زماننا هذا) . انه رقم قد يكون مقبولا لسدى

دونللي وسبنس وهوربيجر، ولكن الأدلة الحفرية تثبت ان ثقافة ذلك الزمان كانت ما تزال في العصر الباليوليتي (اي العصر الحجري القديم) . ولم يكن الانسان الحديث قد ظهر بعد ، وكانت حيوانات الماموث ، والخرتيت المشعر ، والبيبر المسيف الاسنان ما تزال موجودة ، رغم قتلها . وكانت اول حضارة انسانية ، وهي الحضارة المصرية ، ما تزال قابضة على بعد ستة آلاف سنة في المستقبل . ولكن اذا حذفنا صفرا واحدا من الرقم ، فجعلناه تسعمائة سنة قبل افلاطون ، لاصبح التاريخ اكثر معقولية بكثير . لقد وجدت اثينا كبلدة محصنة في العصر البرونزي (حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) ، كما كان ثمة مستوى مرتفع من الحضارة في كريت القريبة في عام ١٦٠٠ ق م ، وهي التي كانت عامرة في ذلك الحين بسكنى المينويين .

والبحر بين بلاد الاغريق وجزيرة كريت مليء بالجزر، كانت في ازمة سحيقة جزءا من اليونان نفسها . واقصى هذه الجزر الى الجنوب هي جزيرة سانتورين، التي كانت ذات يوم دائرية الشكل ، وكان قطرها يتراوح بين الخمسة والستة اميال . وفي حدود ١٥٠٠ ق.م انفجر بركان اقتطع جزءا من الجزيرة ، واحالها الى شيء يزيد قليلا عن صخرة عملاقة . اما سانتورين الحديثة فتتكون من ثلاث جزر : الكبرى ، وهي « ثيرا » فتشبه هلالا كبيرا ، وتغطي سطوح الجزر الثلاث صخور بركانية ورماد بركاني الى عمق كبير نسبيا . ولا بد ان الانفجار الهائل قد ادى الى موجة مدّ عاتية مثل تلك التي اعقبت انفجار بركان كراكاتاو في اغسطس عام ١٨٨٣ ، وربما كانت موجة اكبر ، لان انفجار بركان سانتورين كان اقوى بثلاثة اضعاف . ان ثورة بركان كراكاتاو تعتبر اقوى انفجار بركاني حدث على الارض . ويقول روبرت فيرنو عن هذا الانفجار ، انه كان يعادل انفجار مليون قنبلة هيدروجينية . . . ، فقد انقضت موجات من مياه البحر يبلغ ارتفاعها اكثر من مائة قدم على سواحل الجزر ، فقتلت ٣٦ الف انسان ، ومسحت مدنا بكاملها من الوجود . فاذا كان انفجار بركان سانتورين اكبر من هذا بثلاثة اضعاف ، لكان في وسع المرء ان يشرع في فهم اسطورة الاطلنطيس . فلا بد ان جزيرة كريت قد فقدت نصف سكانها كما دمر اسطولها كله . ومن الممكن ان يفسر هذا الانفجار تدمير قصور كروسوس وفياستوس ، هذا الدمار الغامض ، في نفس تلك الفترة تقريبا . ولا بد ان موجة المد قد اصابته اليونان نفسها بضربة قاصمة - وربما حصلنا هنا على اصول اسطورة ديوكاليون عن الطوفان (رغم انني اكثر ميلا الى ارجاع تاريخها ٢٥٠٠ سنة اكثر من هذا التاريخ ، فتتوافق مع زمن الطوفان الذي اجتاحت اور الكلدانية) . ويقول البروفيسور جالاتوبولس ان كريت نفسها كانت في الحقيقة هي المدينة الملكية ، بينما كانت سانتورين هي العاصمة التي ومنفها

افلاطون . ولا بد ان امبراطورية الاطلنطيس كانت تفرض سيطرتها على الجزر الكثيرة في البحر الابحي . ويصف افلاطون جزيرة العاصمة فيقول ان قنوات دائرية كانت تجري فيها ، وتربطها قناة واحدة عميقة . وتظهر آثار هذه القناة في بقايا سانتورين الحالية .

ولكن لماذا « ضرب » افلاطون كل ارقامه في عشرة ؟ يقدم البروفيسور جالانوبولس افتراضا لا يقل اصاله عن افتراضاته الاولى لتفسير هذا السؤال : ان الكاهن الذي نسخ الوثائق قد اخطأ في فهم الرمز المصري الدال على رقم ١٠٠ - وهو على شكل جبل ملتف - فظنه الرمز الدال على رقم ١٠٠٠ - وهو زهرة لوتس . ويشير جالانوبولس الى ان الناس الآن يمكن ان يخلطوا بين « البليون » الانجليزي والبلليون الامريكي ، فالاول يعني مليون مليون ، بينما يعني الثاني الف مليون فقط .

ولا شك ان دونللي وهوربيجر كانا سيسارعان الى رفض هذا الحل للجزر الاطلنطيس باحتقار بالغ (١٤) فمن الاكثر رومانتيكية ان يؤمن المرء بوجود قارة شاسعة ، كان اهلها اصحاب حضارة رفيعة حينما كانت اوربا لا يسكنها سوى الصيادين من سلالة الكرومانيون . ولكن الادلة التي جمعها الاستاذان جالانوبولس وماريناثوس تبدو قاطعة . لقد وصف افلاطون حضارة تنتمي الى العصر البرونزي ، وكانت كريت في هذا المستوى من الحضارة بالتحديد . واذا خفضنا الارقام بنسبة واحد الى عشرة ، فان وصف افلاطون للمدينة الملكية ولسهلها الواسع ينطبق على كريت بدقة . فما لم يتم اكتشاف دليل قاطع على وجود قارة مفقودة كانت في وسط المحيط الاطلنطي ، فان مسألة قارة الاطلنطيس تكون قد انتهت الآن . . .

وقبل ان نخرج من عالم ما قبل تاريخ « علم الغيب » المعتم ، لكي ندخل زمن تاريخه المكتوب والمسجل ، حيث يوجد قدر كبير يؤسف له من التهريج والهراء الخالص ، علينا ان نتذكر ان السحر ينتمي الى الجزء الخفي من النفس . وقد

(١٤) وقد دفعه أيضا دوبرت جريفي في مقاله : « اطلنطيس المفقودة » - (الواردة في كتابه : حليبة الروافع - ١٩٦٩) . اما اقتراحه الخاص ، والذي تدعمه احوال التراث الاغريقي التاريخية في زعمه ، فهو ان الاطلنطيس يمكن ان توجد في صحراء ليبيا ، في السهل الساحلي الواسع . المعتد الى داخل القارة خلف خليج سرنة الفحل . ويقول انه : قبل اربعة آلاف عام ، اجتاحت المياه الملحة القادمة من البحر الابيض المتوسط مساحة عظيمة من هذا الاقليم ، ولكن حينما جاء زمن صولون ، ساء الدليل الباقي الوحيد على الكارثة ، مجموعة من البحيرات الملحة ، كانت اكبرها تدعى « بحيرة تريتنويس » التي كانت تقع بالقرب من سفوح جبال اطلسي . ثم تقلصت هذه البحيرات ، وتحولت بعد ذلك الى سهوب ملحية . . .

يمكن ان يدعى السحر علم اكتشاف قوى الانسان الخفية وهو يقوم على الحدس القوي بان هناك الكثير ، الكثير بلا نهاية ، في الحياة ، الذي يزيد عما تقابله العين او الحواس اليومية . وحينما يتم ادراك هذه الفكرة بوضوح كنوع من الحدس ، فانها تولد نوعا من القلق او الاثارة الهائلة الممتعة ، من النوع الذي يشعر به الطفل حينما يتساءل عما سيجده في حقيبتة ليلة عيد الميلاد ، او حينما يكون بانتظار ان يصلحلب الى السوق العام . ولا ينبغي المخافة والشعوذة ان يؤثرعلى هذه الحالة من التساؤل ، لانها تنتمي الى الواقع الحقيقي ، بصرف النظر عن مدى ما قد تبدو عليه تجلياتها من السخف .

ان الاعتراف بهذه الحقيقة الواقعية هو اساس علم النفس عند يونج . ان يونج ، مثله مثل سير اليستر هاردي ، مقتنع بوجود اللاوعي الجمعي . ويؤدي هذا الى ما قد يكون اكثر اضافة الى علم النفس امتاعا : نظرية الانماط . انه يؤمن بان ثمة رموزا معينة ، لا يمكن ان يتضائل معناها ابدا او يستهلك ، لانه مثل السحابة الكهربائية ، يطوف حول هذه الرموز في سرعة غريبة . ومثلما يعكس الحلم حياتي الشخصية ، كذلك تعكس الاسطورة حياة الجنس كله . والانماط هي « موتيغات » شكلية او اديبة ، رمزية ، تتردد بكثرة في الاساطير . ان البطل ذا الالف وجه ، الذي اقتفى جوزيف كامبيل تاريخه في كتابه بنفس العنوان ، نمط من هذه الانماط . ويقول يونج في كتابه : « مقالان في علم النفس التحليلي » : « توجد صورة جماعية للمرأة في لاوعي الرجل » وتنطبق هذه الصورة « فوق » مختلف النساء اللواتي يقابلهن ، وطالما انها « تتجاوب مع اعماق الحقائق في الرجل » فانها قد تؤدي الى علاقات غير مناسبة مطلقا ، لانه ربما يكون يحاول على الدوام ان يضع المرأة الحقيقية داخل نوع من قميص المجانين . وتقول فريدا فوردهام عن النمط الانثوي في دراستها عن يونج : « انها تتمتع بخاصية خارجة عن اطار الزمن - انها تبدو شابة على الدوام ، رغم ان هناك ما يوحي فيها على الدوام بسنوات الخبرة الممتدة وراءها . انها عاقلة حكيمة . ولكنها ليست كذلك بشكل صارم نهائي ، انما هناك بالاحرى : « شيء مغمم بالمعنى بطريقة غريبة ، يتعلق بها فلا يفارقها ، نوع من المعرفة السرية ، او الحكمة الخفية » . انها مرتبطة دائما بالارض ، او بالماء ، وربما تكون قد حصلت على قوة عظيمة . انها ايضا ذات جانبيين ، او سطحين : سطح مضيء واخر معتم . . . » . اننا نحصل بهذا الشكل مرة اخرى على « الربة البيضاء » التي تحدث عنها جريغز ، او الربة ذات الوجهين في الفلسفة التائيرية .

والجانب الثوري من هذه النظرية هو فكرة يونج عن ان الانماط تطفو باستمرار في اللاوعي الجمعي ، وقد تظهر في الاحلام التي تبدو ذات صلة ضئيلة

بالمشاكل الشخصية لصاحب الحلم . (في كتاب « الانسان ورموزه » يصف يونج احلام فتاة في الثامنة عشرة من عمرها مليئة بمثل هذه الرموز الميثولوجية) .
اننا نجد هنا تفسيراً لما تحدث عنه ييتس من « شجرة الحياة » الرمزية وارواحها ، ولـ « شجرة الشامانات » السبيرية .

يقول فيليب فرويند في وصفه لنظرية يونج عن العقل البدائي : « (انه) اقل تطوراً بكثير في امتداده وكثافته من عقلنا . ولم تنفصل بعد او تتمايز فيه الوظائف المختلفة ، مثل الارادة والتفكير . انها في حالة ما قبل الوعي ، بمعنى انه لا يفكر بشكل واع ، وانما « تبرز » الافكار منه تلقائياً . لا يستطيع المتوحش ان يزعم انه يفكر ، وانما يمكن القول بان : « شيئاً ما يفكر في داخله » .

يتذكر المرء هنا ملاحظة ماهر من انه ليست الموسيقى هي التي تؤلف ، وانما الموسيقى نفسها . « ان تلقائية فعل التفكير لا تكمن ، بصورة عرضية ، في ادراكه ، وانما ما تزال كامنة في لاوعيه . والاكثر من هذا انه عاجز عن اي عمل واع من جانب الارادة ، عليه ان يضع نفسه اولاً في « حالة الارادة » او ان يترك نفسه لكي يوضع في هذه الحالة عن طريق الابداء التنويمي من جانب الشامان .. » (١٠)

ولهم ما بين هذا الوصف من تشابه مع ما وصف به بعض الدارسين شعوباً بدائية حقيقية او متخيلة ، فانه وصف يمكن ان ينطبق علينا الى حد كبير . فاي شخص يمكنه ان « يريد » بشكل احسن ، اذا هو وضع نفسه في حالة ارادة . والاكثر من هذا ، فان حادثة معينة او اقتراحاً خارجياً يستطيع ان يبلور ارادتي بطريقة تبدو ابعد مما تستطيعه قدرتي الواعية . ويؤكد هذا مرة اخرى ان « انا » الوعي يعاني من نوع من انقطاع الطاقة الدائم ، ويرجع هذا الى ان ما يحرك قوة ارادتي انما هي الحسابات العقلية والاحتياجات ، وانني نادراً ما اكرس نفسي لها تكريساً كاملاً . وحينما تواجه حقيقتي الاكثر عمقاً احتياجاً شديداً للإحاح ، فان النتيجة ستكون طوفاناً من القوة يدهشني انسا نفسي . وقد يظهر هذا الطوفان في ذروة النشوة الجنسية . وقد حدث مع نهتشة في شكل عاصفة وعدية - الاحساس المفاجيء الفامر بجمال الوجود . يؤكد كل هذا ان الوعي العقلي نوع من « الصمام » الذي يفصلنا عن القوة الكاملة لتيار الحياة الكامن داخلنا . والسحر اعتراف بهذه القوة ، ومحاولة لاختصار الوسائل الكفيلة بالوصول اليها ... ان حالات الوعي « المنخفض » لا يستطيع ان تفهم الحالات الاسمى وتماماً - مثلما يقول الدكتور ديفيد فوستر - مثل استخدام الضوء الازرق لكي يكون وسيلة تسجيل سبيرناتيكى للضوء الاحمر ، ولكن العكس مستحيل . ان علم نفس يونج يمضي الى مدى ابعد من المدى الذي وصل

اليه فرويد وتلامذته لانه يؤكد على تفوق الضوء الازرق على الضوء الاحمر للوعي العقلسي .

انني اذكر مفاهيم يونج عند هذه النقطة لانها لا بد ان تذكر باستمرار عند النظر في التاريخ اللاحق للسحر . وسيكون من الممتع ان نستطيع القول بلسان المصريين القدماء ، والكلدانيين والبابليين وغيرهم قد امتلكوا فهما معيننا لعلوم الغيب ، وان هذا الفهم قد ضاع تماما منذ ذلك الحين . وليس هذا صحيحا . لقد تمت المحافظة دون شك على التقاليد والمعارف الاساسية للسحر من خلال الشامانات الطبيعيين . ولكن حضارات الالاف الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح تمثل نوعا من خيبة الامل من زاوية التطور الداخلي للانسان . كان الانسان بين مقعدين ، لم يستقر على اي منهما . كان قد فقد الاتصال بالبساطة القديمة التي جعلت سحر الشامانات القدماء مؤثرا ، ولكن علمه الجديد كان من نوع بالغ الخشونة والغلظة . وكانت تلك الالاف الثلاثة من السنين اقرب الى برج بابل من ناحية المعرفة المنظمة . فالمصريون ، اصحاب اقدم حضارة انسانية على قدر ما نعرف حتى الآن ، كان لهم اكثر من الفين من الارباب . ويتحدث افلاطون عن تراث حكمة كهنتهم ، ولكن ما نعرفه عن معتقداتهم - التي وصفت على سبيل المثال في كتابي سيمر واليس بادج : « الديانة المصرية » ، « السحر المصري » ، لا يكاد يبرز شيئا من تلك الحكمة . كان السحر المصري قائما على « الكلمات ذات القدرة » . لقد آمنوا بان كلمة او جملة ، تنطق بشكل معين بدقة ، يكون لها تأثير سحري ، وان هذه القوة السحرية يمكن ان تحول او ان تنقل الى التعائم والجعلان السحرية . ويروي بادج بعض القصص النموذجية من السحر المصري . فقد استدعى الكاهن تشا - تشا ايمانخ الى حضرة الملك سنفر (الذي حكم فيما بين ٢٦٥٠ ، ٢٥٠٠ ق.م) وطلب منه الملك ان يسري عنه ضجره وملله ، فأوصى الكاهن ان يقوم الملك بنزهة على البحيرة بصحبة فتيات راقصات يرتدين الشباك . وفقدت احدى الفتيات غطاء رأسها الفيروزي اللون في مياه البحيرة . فاستدعى الكاهن مرة اخرى ، فاستخدم بعض الكلمات التي استطاع بقوتها (هيكوا) ان يجعل طيات الماء تركب احداها الاخرى . وعثر على غطاء الرأس المفقود في قاع البحيرة ، ثم امر الكاهن المياه بان تعود الى مكانها (پ) . اما الساحر تيتا ، الذي عاش في زمن حكم سنفر وابنه خوفو ، فقد عرف كيف يلصق رأسا في

(پ) ينبغي لكل من يرجع الى اعمال سيمر واليس بادج عن مصر ان يعذر من ان تاريخه لزمن الاحداث لا يعتمد عليه اطلاقا ، اذ انه يزيد نحو ١٢٠٠ سنة عن الزمن المحتمل . انه يرجع زمن حكم خوفو الى ٢٨٠٠ ق.م ، بدلا من ٢٦٠٠ (هـ .م) - راجع كتاب موري الذي اشرنا اليه من قبل ص ٢٠٠ - حول تحديد التواريخ المصرية - واستحالة تحديد ما قبل تخبس الثالث () (ولا حظ ان فلاندرزيتري يتفق مع بادج ويختلف عنهما جيمس برستد فيما يتعلق بتواريخ الاسرات السبع عشرة الاولى)

جسده بعد ان يكون قد قطع - وذلك طبقا لما جاء في مخطوط قديم ، يقول : « ثم جاءه احدهم بأوزة ، وبعد ان قطع رأسها ، وضع الجسد في الجانب الغربي من البهو ، ووضع الرأس في الجانب الشرقي . ثم وقف تينا جانبا وتمتم ببضع كلمات ذات قوة سحرية ، بدأ الرأس بعدها والجسد في التحرك فسي نفس الوقت والاتجاه ، وراحا يقتربان احدهما من الآخر ، حتى التصق الرأس بالمكان الصحيح له من قمة جسد الطائر ، الذي يبدأ يصيح على الفور » . ثم راح تينا يستعرض نفس المعجزة مستخدما ثورا في المرة الثانية . ويتحدث المؤرخ السعودي عن مشعوذ يهودي ، كان تلميذا لـاحد الكهنة المصريين ، قطع رأس رجل ثم امسك لصفه الى جسمه ، واستطاع ان يحول نفسه الى جمل ثم سار فوق جبل مشدود .

ان تكون ثمة فائدة من التفكير فيما اذا كان كل هذا قد تم من خلال التنويم المغناطيسي . فمن الواضح تماما ان هؤلاء الناس كانوا سادجا يصدقون كل شيء بسهولة الى درجة سخيفة ، وكانت حالتهم العقلية من ذلك النوع الذي ما زال يمكن ان يوجد في قرى عديدة اليوم (ففي برنامج تلفزيوني بريطاني حديث اسمه « اسرة الانسان » ، وصفت امرأة متخصصة في رعاية الامهات قبل الولادة ، بعض المعتقدات غير العادية التي ما زال ابناء الطبقات المتوسطة يؤمنون بها في مدينة اشر بمقاطعة سوري : من ذلك ايمانهم بأنه اذا قفزت قطعة فوق بطن امرأة حامل ، فلا بد ان يولد الطفل مشوها بشكل ما ، واذا وجدت المرأة الحامل منكبوتا على بطنها فلا بد ان يحمل الطفل علامة تشبه العنكبوت على الجزء من جسمه المقابل لمكان وقوف العنكبوت الاصيل) (١) . .

.. اما اكثر الاشياء اهمية فيما يتعلق بالسحر المصري - وربما كان هو الشيء الوحيد الهام - فهو تأكيدهم لما ضمنه ليسر من ان السبب الذي جعل اسان الكرومانيون يتوقف عن صنع صور البشر ، هو ان هذا الانسان قد آمن بأن لهذه الصور قدرات سحرية . اذ تروي واحدة من حكايات بادج ان زوجا مخدوعا تمكن من القضاء على عشيق زوجته بان صنع تمثالا من الشمع لتمساح ، ثم امس خادمه بان ياقبه في النهر حينما يكون العشيق قد نزل للسباحة او الاستحمام . وتحول تمثال الشمع الى تمساح حقيقي يلتهم العاشق ، اما الزوجة الخائنة فقد تم احراقها . وتدور قصة اخرى حول الملك نيكتانيبوس السدي

(١) كانت قصص السحر المصري القديم بالفعل ساذجة الى الحد الذي وصله ويلسون ، ولكن السبب بسيط ، هو ان السحر كان عملا « مستحيلا » على البشر من الناحية العملية ، لا يمكن موقوفا على الآلهة الذين به خلقوا العالم ثم احكروه لانفسهم . ومحاولات السحر من جانب الكهنة كانت عمليات « شعوية » يقومون بها لتسليية الملوك . راجع « فجر الصمير » برستد . ص ٢٠٥ .

استطاع ان يهزم اسطول اعدائه بأن اقام معركة بحرية بين سفن صغيرة كالدمى تسيح فوق بحيرة صناعية . اما « كتاب الموتى » وهو كتاب يحتوي على الطقوس التي يجب ان تتلى على جسد الميت لكي تلقنه سبيل سيره في العالم الآخر ، فيصف كيف يمكن هزيمة الافعى « ايبب » بصنع تمثال من الشمع للافعى ورسم اسمها عليه باللون الاخضر ، ثم جرات التمثال فوق سطح تغطيه اوراق البردى ، ثم يجب ان تحرق هذه الاوراق والتمثال معها في نار القش الهائلة اربع مرات في اليوم ثم يمزج الرماد بالبراز ثم تحرق ثانية ، ولا بد من البصق باستمرار على تمثال ايبب الشمعي وهو يحترق . ويؤكد بادج ان ارسطو قدم للاسكندر الاكبر صندوقا مليئا بتمائيل شمعية تمثل اعداءه جميعا ، وتقول الحكايات الخرافية ان ارسطو علم الاسكندر « كلمات القدرة » التي تستطيع ان تهزم اعداءه وتجعلهم اسرى لقوته (ولكن اريان لا يذكر هذه القصة في كتابه عن حياة الاسكندر) . وكان باستطاعة الصور والتماثيل الشمعية ان تقوم باعمال اخرى اقل سلبية من الاممصال السابقة : معالجة الامراض ، وتحقيق حب امرأة هاجرة ، اما الصور التي تدعى « شابتي » فكانت توضع في المقبرة مع الشخص الميت ، ويفترض فيها ان تخدمه وان تكون بديلا له في العالم السفلي . وربما كان ما يقدمه « كتاب الموتى » هو اكثر التصورات شمولاً عن التعقد العسير على التصديق للمعتقدات الدينية المصرية ، لان فصوله التي يبلغ عددها ١٩٠ فصلا ، تعالج كل انواع الرعب التي لا بد لروح الميت من مواجهتها في رحلتها الليلية الطويلة في العالم السفلي (امينيتيت) ، وهي تتضمن تعاويذ تتلى لطرد انواع كثيرة من الافاعي ، ووحوش ذات اشكال بشرية وذبول ، وتماسيح ، وخفافس وضباع عملاقة - وكل تلك المخلوقات شياطين حقيقية ذات اشكال حيوانية - ورقى تضمن عدم سرقة قلب الميت فتمنع بالتالي حدوث موت آخر . فاذا ما قورن كتاب الموتى المصري بكتاب الموتى التبتى الذي وضع لنفس الغرض ، ولكنه الذي يعترف بان كل انواع الرعب انما هي من انتاج عقل الانسان نفسه ، فان الكتاب المصري يبدو في النهاية في صورة خليط فج بعيد عن النضج .

ويلاحظ بادج ملاحظة دقيقة في قوله : « من مصر ، وعبر اليونان وروما ، انتقل استخدام التماثيل الشمعية الى اوروبا الغربية وانجلترا ، وفي العصور الوسطى وجدت افضل مؤيديها بين اولئك الذين اهتموا باعمال « الفن الاسود » او اولئك الذين ازادوا انزال الاضرار بجيرانهم او اعدائهم . « ولكن المعنى الذي يفشل في ابرازه هو ان هناك فارقا بين الاستخدام السحري للصورة من اجل توجيه العقل بوضوح الى هدفه او موضوعه ، سواء كان ذلك بهدف استخدامها للسحر الابيض او الاسود ، وبين الاعتقاد بان الصورة نفسها ، تتمتع بقدرات سحرية ، اذا ما زودت بكلمات القدرة .

... لقد تحدثت بشيء من الاستفاضة عن المصريين ، لانني لا اقتصزم تخصيص المزيد من المساحة للسحر في العالم القديم . فقد اعتنق السومريون والمصريون والحثيون والفرس والاعريق والرومان خليطا من السخافات لا تبتعد كثيرا عن النظام المصري . ولما كان الاعريق يملكون اكثر الازهان حيوية فسي الشرق الادنى ، فانهم ايضا قد تميزوا باقل قدر ممكن من الايمان بالسحر ، رغم انهم قد آمنوا (مثل المصريين بالاحلام والرؤى المقدسة والعرافين . وكان العرافون لديهم ، مثل عراقي « دلف » الذين كانوا من اشهرهم ، كهنة سحرة (شامانات) تقريبا ، ومثل الشامانات كانت عرافة دلفي تفرق في سلسلة من التشنجات لحظة الوحي . اما سحرة فارس (الذين جاءت من اسمهم *Mago* كلمة *Magic*) فسوف نبحثهم فيما بعد حينما نتحدث عن زرادشت . وقد كانوا اصحاب نظام كهنوتي يشبه النظام المصري . وكان الرومانيون لا يقلون ايمانا بالخرافات عن المصريين . وتعطي روايتا روبرت جريغز عن كلوديوس صورة صحيحة لانشغالهم الذي لا ينتهي بالنذر والعرافات وانواع الفأل ، ومحاولاتهم للتنبؤ بالمستقبل عن طريق زجر الطير ورصد طيرانه او احشاء الحيوانات . وتدور رواية ابوليوس « الجحش الذهبي » حول الجوانب الاكثر خفة من هذه المعتقدات . فهناك على سبيل المثال حكاية الطالب تليفرون الذي يوافق على ان يمضي ليلة كاملة في مراقبة جثة شخص ميت لحمايته من الساحرات اللواتي يردن تمزيق انفه واذنيه باسنانهن . وتتلو الساحرات تعويذة على تليفرون فيفرق في النوم وتلتهم الساحرات انفه واذنيه ويفعن مكانها قطعا من الشمع القرمزي . فلا يكتشف تليفرون ما حل به الا بعد وقت طويل حين يلمس وجهه المجدوع المصطلم . وليس هناك فيما تتضمنه حكايات « الجحش الذهبي » او روايتا كلوديوس من سحر يزيد على مستوى السخف والخرافة . وفي هذا المجال - الايمان بالنذر وانواع الفأل - كان الاغارقة احسن قليلا . لقد تعطل ابحار اسطول اثينا بأسره في حروب البليبونيز (القرن الرابع قبل الميلاد) لان جنديا عطس ، ولكن قائد الاثينيين ، تيموثيوس ، جعلهم يسخرون من الموقف ويتخلصون منه بقوله انه لو كانت الالهة قد ارادت حقا ان تحلدهم من الابحار لكانت قد جعلت كل الاسطول يعطس .

اما الايمان بالتنجيم فياتي تحت عنوان مختلف . لقد لقي التنجيم قبولا عاما - ولا شك ان اكثر من مارسوه كانوا مخادعين ومحتالين مثل اكثر سحرة العالم القديم . ولكن لا بد من النظر الى التنجيم باعتباره جزءا من سلالة اعمال الكهنة السحرة (الشامانات) باكثر مما هو ابن غير شرعي للسموعة . هناك اشخاص معينون يتمتعون بموهبة طبيعية في مسألة « الكشف » عن الغيب ، سواء باستخدام الكتاب الصيني « اي تشينج » او اوراق التاروت ، او قراءة الكف .

فاذا اصبح مثل هؤلاء الاشخاص منجمين فلا شك ان اقوالهم يمكن ان تمتلك دقة مخيفة .



... لقد حاولت ان اخص تطور قوى الانسان « الخفية » منذ فجر التاريخ الى مرحلة دخولها فيما يشبه « برج بابل » المشوش الالسنه المختلط الاجناس، وهي مرحلة التدهور والانحلال . فحينما يمتلىء رأس انسان بالخرافات والمعتقدات ، فالما هو ينتزع نفسه باستهانة من المكائنه التي تتيحها له قدراته السحرية الطبيعية . وحينما ياخذ في تدوين التمثال الشمعي لعدوه ، فانما هو يشرع في وضع نفسه في حالة انتقامية وتافهة ويضع عقله في نفس الموضع ، الذي هو عكس النزعة الروحية التي مثلها الشامانات (الكهنة السحرة) وعكس اي نوع من انواع النزعات الصوفية . وهناك موقف سلبي وغبي من السحر لا بد من الاعتراف به وادائه . ففي كل مكان من العالم ، وفي ازمئة حديثة للغاية ، ويبين شعوب مختلفة من حيث المستوى الحضاري ، كان من يمارسون السحر يعذبون ويحرقون ويطاردون باعتبارهم شياطين بشرية . وقد حكى ليستر عن حوادث من هذا النوع بين قبائل البدائيين في شمال اليابان ، وحكى بادج عن حوادث مشابهة وقعت في انجلترا قبل عدة عشرات قليلة من السنين .

وفي نهاية القرن الثامن عشر ، كان جييون يكتب عن مطاردات السحرة في روسيا القديمة بأسلوبه الفخم ، وراح يتفاخر بأن العقل المستنير الحديث قد كف عن كل انواع التعصب المدفوعة بدوافع الدين والهوى . ولكن من الواضح ان تفاخره ، وتهائنه لابناء عصره ، جاءت قبل اوائها .

خبراء ومبتدئون

لا شك ان عملية اقتفاء آثار تاريخ السحر قرنا بعد قرن وبلدا بعد بلد ستكون مهمة طويلة ومعقدة . وهناك لحسن الحظ منهج اكثر بساطة : النظر في حياة الاشخاص الرئيسيين في تاريخ السحر الغربي . وهذا هو ما اهتمز به القيام به في الفصلين التاليين .

ولا بد لي ان ابدأ بتكرار فرضيتي الاساسية العامة . ان القدر البيولوجي للانسان هو ان ينمي وان يطور الملكة « س » . وقد ظلت كل المخلوقات الحية على سطح هذا الكوكب تحاول ان تفعل هذا طوال تاريخها . ووصل الانسان الى منتصف طريق نحو هذا الهدف . والانسان القدير ، الخبير الحقيقي ، هو الانسان الذي تكون الملكة « س » قد تطورت لديه الى مدى ابعد من المتوسط العام .

وطبقا لهذا التعريف ، لم يكن هناك خبراء حقيقيون كثيرون . ولا يعني هذا ان الاسماء العظيمة في السحر كانت لدلسيين مشعوذين او لاشخاص يخدمون انفسهم (رغم ان بعضهم كان كذلك) . لقد امتلك اكثرهم درجة عالية من القدرات او القوى « الفطرية » ، القربة من « حساسية الادغال » التي امتلكها كوربيت . وتكمن هذه القوى عند الطرف الادنى من وعي الانسان - الطرف الاحمر للطفيف الضوئي . اما الملكة « س » فتكمن عند الطرف البنفسجي . .

... ان الساحر او الخبير المحنك « نمط » انساني اساسي : انه يرمز الى مصير الانسان التطوري . ويمسك الوصف الذي قدمه بلوير - ليتون في روايته « المطاردون والمطاردون » بجوهره الحقيقي : « لو امكنك ان تتخيل افعى جبارة تحولت الى انسان ، محتفظة في الاهداب الانساني بنموذج الافعى الاصلية ، لاممكنك

ان تحصل على فكرة افضل (عنه) ، غرض الجبهة وتسطحها ، ورشاقة القوام الدقيق يخفي قوة الفك المميت - والعين المربعة الكبيرة الطويلة ، خضراء لامعة كالزمردة - والى جانب كل هذا هدوء من نوع معين خال من الرحمة ، كما لو كان نابعا من الوعي بامتلاك قوة هائلة لا حدود لها . « وحينما يضيف ليتون فيما بعد نهاية جديدة للقصة ، فانه يمد هذا الرسم السريع الخطوط فيحوله الى صورة كاملة لرجل يبدو كما لو كان مزيجا من اليهودي التائه وكونت سان جيرمان .

ولكن لماذا هذه الاشارة الى الخطر الوشيك ؟ ان الافاعي ترمز الى الحكمة، وترمز ايضا الى البرودة والقضاء المميت . وانها لفكرة مثيرة للاهتمام ان نتذكر انه لا توجد صور لـ « ابطال خيترين » في الادب العالمي . هناك في العادة ابطال لهم اخطاء هم المهلكة واربابهم المعصية على التصديق . ولكن اقرب الاشياء الى الانسان الاسمي الحقيقي ، بالمعنى الاصلي لهذه العبارة ، هو الشخصية الموجودة في المسلسلات الهزلية الامريكية . اما الساحر المؤذي الذي رسمه ليتون - واشباهه في كتابات هوفمان ، وتييك ، وجان بول ، وحتى في كتابات تولكبين - فهو اقرب الانماط التي يبدو ان الخيال الانساني قد استطاع ان يقترب من خلاياها من فكرة الانسانية الاسمية . وعلينا اذن ان نتوقع التالي ، ان افتقارنا الى الاحساس بالمعنى انما يعني اننا نفهم السلبي بشكل افضل من فهمنا للايجابي . هل يستطيع احد - على سبيل المثال - ان يتخيل واحدا مثل « هتلر » مساويا له تماما في القوة ولكنه خير كامل الخير يسعى الى السيطرة على العالم من اجل تحرير الفقراء والقضاء على معاداة السامية ؟ كلا . ان رجل الدولة او الحاكم الخير بميل دائما الى ان يكون مثاليا عاجزا عن التأثير .

افضلنا لا يستطيع ان يقنع احدا ، بينما اسوانا مليء بكثافة حادة تلهب الخيال . .

... وباختصار اقول، ان علينا ان نعترف بان تلك القدرات ليست سوى امر شائع وعادي . انها توجد على نطاق اكثر اتساعا وعمومية مما تقبل غشادة الاعتراف به .

فكيف نستطيع ان نستجمع تلك القوى والقدرات ؟ ربما كان مما يتجارب هدفنا ان نسأل : ما الذي يمنعنا من ان نستجمعها ؟ والجواب هو : الغمائم التي تغطي عيوننا ، والآفاق الحبيسة الضيقة التي تحبس نظرنا ، الحقيقة المقررة من ان وعيي مشغول باشياء تافهة ، من نوع البحث عن السبب الذي يجمع سيارتي تستخدم زيتا اكثر من اللازم ، وما اذا كانت فتاة معينة ، ان تكون مخلصا لزوجها . والطريق الوحيد الذي لا شك في نجاحه من اجل تنمية تلك

القدرات هو ان ينظم البشر انصرفهم عن التفاهات ، ورفضهم لما هو قريب ، وتركيزهم على ما هو بعيد .

لا يد للإنسان ان يطور نوعا ايجابيا من الوعي . فقد بلغ الانسان وضعه الحالي على سلم التطور والارتقاء من خلال قدرته على تحويل عقله الى ميكروسكوب (مجهر) والتركيز به على الاشياء الضئيلة الصغيرة الحجم . ولكن هذا الموقف حوله الى ضحية لكل ما هو ضئيل وسلبى . ان التاريخ الانساني هو تاريخ الصبائية ، والشاجرات البهاء حول اسباب تافهة . انه أشبه بما كانت تقول ربة البيت في رواية « تحت غابة اللين » في جملتها : « قبل ان تسمح للشمس بالدخول ، احرص على ان تسمح حذاءها . » فأصبحنا بذلك عبيدا لقدرتنا المدهشة على الوقوف عند التفاصيل . ومن الواضح ان مثل هذه المرأة لن تكون قادرة حقا على الاستمتاع بان تكون على قيد الحياة . انها اسيرة في شرك سلبيتها الخاصة . وهكذا نحن جميعا .

ولست اعرف الا دينا واحدا جعل من الاعتراف بهذه الحقيقة اساسا له : الزرادشتية ، دين الفرس القدماء . تقول النصوص الفارسية القديمة ، التي يجمعها عنوان « الجانا » ، تقول ان الكائن الاسمى ، اهورامازدا ، قد خلق توأمين ، انتجا فيما بينهما الحقيقة والوهم . وتعتبر الحقيقة والوهم هنا العنصرين الاساسيين اللذين خلق العالم منهما . انهما ليسا « الايجابى » و « السلبى » ، لان كلا منهما ايجابى على حد سواء . وقد انحدرنا فيما بعد الى مستوى الخير والشر . (وهناك مرحلة تالية ايضا لتدهور الفكرة الاصلية ، حينما اصبح اهورا مازدا ، العلة الاولى ، مطابقا للخير ، بينما اصبح عدوه « اهريمان » مطابقا للشر) . ذلك ان الحقيقة هي « المعنى » - كاملا هناك بالخارج - اما الوهم فهو « الخضوع » الانساني ، او هو ميلنا الى ان نقبع اسرى لقيمنا التي نخترها بأنفسنا . اننا نستمد قدرتنا على الفعل ، والعمل ، والتركيز ، والتطور ، من نفس هذا الخضوع ، حتى انه لا يمكن ان يعتبر شرا او عنصرا سلبيا . انما يصبح سلبيا من خلال الغباء الانساني وميل البشر الى الاستسلام للهزيمة .

وكان « المايجى » الدين اشتقت من اسمهم كلمة « Magic » اي السحر - هم كهنة هذا الدين القديم . وانني لاود ان اقترح اذن ، كافتراض لن يمكن البرهنة عليه ابدا او دحضه - ان « المايجى » الاصليين قد استمدوا قدراتهم السحرية من نوع ما من « الوعي الايجابى » - من الاعتراف بان الخضوع لا يكون خيرا الا بقدر ما يظل مفتحا على حقيقة المعنى القائم خارج نفسه .

الوعي الايجابى حالة متفتحة سعيدة من حالات العقل ، الانسان العاشق يمتلك وعيا ايجابيا - خاصة اذا كان قد اكتشف لتوه ان الفتاة تبادل نفس مشاعره . انه احساس بما في العالم من قدرة رائعة على إثارة الاهتمام . وما

زلنا نستخدم كلمة « السحر » بهذا المعنى - اذ نتحدث عن « سحر ليالي الصيف » او « سحر اللحظات » . . ليس هذا سوء استخدام للغة . انما هو ما يقوم عليه ، ويدور حوله السحر الحقيقي .

ان القليل الذي نعرفه عن كهنة « الماجي » مستمد كله من « التاريخ » لهيرودوتس ، بنفس القدر الذي تقوم عليه معرفتنا بقارة الاطلنطيس مما ذكره افلاطون بشكل كامل . ان هيرودوتس ، الذي كان يكتب في القرن الخامس ق.م ، قبل افلاطون بعدة عشرات قليلة من السنين ، كان يتحدث عن مراحل متأخرة من الدين الماجي . ولكنه حتى في هذه الحالة ، قد ادهشه ما في عقيدتهم من نقاء . فكتب يقول : « ليس لديهم صور او تماثيل للارباب ، ولا معابد ولا مذابح ، ويعتبرون استخدام مثل هذه الاشياء علامة على اليلاهة . . ومع ذلك فان من عادتهم ان يصعدوا الى ذرى اعلى الجبال ، وهناك يقدمون القرابين والاضاحي الى « زيوس » وهو الاسم الذي اعطوه لمجموع دائرة السماء . ويقدمون قرابينهم بنفس الشكل الى الشمس والقمر ، والى الارض والنار والماء ، والى الرياح . . » . وقد تطور الفرس بعد هذا الى عبادة الشمس ، ميثراس ، الذي هو « مخلص » يشترك في الكثير مع يسوع ، (والذي كاد دينه بعد عدة قرون ان يحل محل المسيحية في روما) .

وتاتي كل الاشارات المرجعية عند هيرودوتس بشكل عارض وجزئي ، وبذلك فاننا لا نعرف سوى ان « الماجي » كانوا ماهرين في تفسير الاحلام ، وانهم كانوا فئة بالغة القوة ، استمرت في السيطرة على الحياة الفارسية حتى بعد محاولة بدلت للاستيلاء على السلطة فادت الى عمليات اعدام جماعية - ويفترض ان السبب هو ان احدا لم يكن يستطيع ان يتصور الحياة اليومية بدونهم .

كان كهنة الماجي هم سلالة الكهنة السحرة (الشامانات) في العصر الحجري الحديث . ولكن مع فرق واحد هام . لقد استمد الشامان قوته من « مانا » ، القوة السحرية التي تتخلل الطبيعة . اما الماجي فكانوا ايضا « خبراء » وباحثين متعمقين في الدراسة والمعرفة . لقد عرفوا شيئا من علم الحساب والتنجيم ، وكلاهما كان قد نشأ في بلاد ما بين النهرين القريبة ، كما كانوا ماهرين في عمليات الكشف عن الغيب بالعرافة والتنبؤ . وتدين معتقداتهم الدينية بشيء للهندوس ، ومن المؤكد انهم قد اعتقدوا بتناسخ الارواح وقدرتها على الانتقال . ومن الاشارات القليلة اليهم ، التي توجد متناثرة عند الكتاب الكلاسيكيين ، فانه يبدو بشكل مؤكد الى حد كبير ، ان « الماجي » بدأوا كجماعة ، من المتصوفة ذات نظام اشبه بالنظام الذي تحدث عنه وردزورث . فيتحدث فريدرش فون

شليجل عن : « تجليلهم البدائي للطبيعة » ، ويقول انهم لم يكونوا فئة من الكهنة ، وانما كانوا « جماعة » او « تنظيم » ينقسم الى مراتب من المبتدئين ، والاساتذة ، والاساتذة الكبار او المكتملين (١) ويتحدث ايفاز ليفي : رغم انه ربما لم يكن افضل من يمكن الاعتماد عليهم في هذا الصدد عن : « الاسرار التي منحتمهم السيطرة على قوى الطبيعة الغيبية » ، (وهذا يعني القول بانهم كانوا شامانات) ، ثم يشير الى اقوال بليني ولوكيوس باعتبارهما مصدرين لاقواله ، فيقول انهم كانوا يستطيعون توليد الكهرباء . وقد وجدوا قبل مولد « نبهم » زوروستر (او زرادشت) في القرن السابع ق.م بوقت طويل . ومن الدليل الذي تمدنا به الترانيم الجاثية الاولى وترانيم « زيندا فيشتا » التي ربما يكون زرادشت نفسه هو كاتبها ، يتضح ان الدين قد تحول من عبادة الطبيعة الى شيء اقرب الى ديانات بلاد ما بين النهرين بملائكتها وشياطينها . ولكنه تدهور فيما بعد الى مستوى عبادة النار . وفي زمن قورش (الذي مات عام ٥٤٩ ق.م) انحدر المؤسسون العظام للامبراطورية الفارسية ، كهنة المايجي ، الى طبقة دينية حاكمة ، مثلهم مثل كهنة مصر .

ولكنهم في ايامهم الباكورة الاولى ، كانوا جماعة من النساك العابدين والفلاسفة ، مثل الاغارقة الذين كانوا يحتفون بالاسرار الاورفية والالويزية ، او مثل جماعة « الاسينس » اليهودية . وربما كانت اكثر ملامح هذه الجمعية القديمة اثارا للحيرة ، هي انهم لم يكونوا من اصحاب المعابد . فاذا كان ما قاله هيرودوتس صحيحا عن انهم كانوا يمارسون عباداتهم على ذرى الجبال ، اذن ، فلا بد اننا ان نربط بين هاتين الحقيقتين ، لكي نستخلص ان المايجي كانوا من متصوفة الطبيعة بأكمل معاني هذه الكلمة .

... ولا يبدو ان هناك شك في ان المايجي كانوا جماعة او تنظيميا يتمتع بقدر غير عادي من النقاء ، فكانوا الحلقة الطبيعية الواصلة بين شامانات العصور الحجرية وبين العبادات السحرية المختلطة المشوشة في الحضارات المدنية . كانوا التعبير عن احتياج الانسان الى الهرب من مصيره الحيواني ، والسؤال ان « يرى من وراء الغلالة الحاجة للنظر » .

وهذا هو ما يثير السؤال : لماذا ؟ ليس الانسان مخلوقا متصوفا بطبعه . انه يزرع ، وينسل الاطفال ويرعاهم ، ويخوض الحروب ، فاذا كان يؤله الطبيعة ويعبدها ، فليس ذلك الا بسبب الاعتقاد الخرافي القائل بان العناصر ارباب مؤلهة .

(١) فلسفة التاريخ ، بون ، ص ٢٢٤ .

وأنا أميل الى الاعتقاد بان الاجابة تكمن في الحرب . فالقصائد الطويلة القديمة كلها تدور حول المعارك والحروب . فقد كان هوميروس يؤلف «الايادة» في نفس الوقت تقريبا الذي كان فيه كهنة المايجي يؤلفون الترانيم الجائية باللغة البكتريانية ، لغة شرقي فارس . لقد كان العالم عالما عنيفا وقاسيا . ويحكى هيرودوتس قصة الملك استياجيس ، جد قورش ، الذي يحلم بأن ابن ابنته سوف يخلعه من عرشه . فيرسل الملك احدا خدمه ، ويدعى هارباجوس ، لكي يقتل الطفل . وبدلا من ذلك يسلم هارباجوس الطفل لاحد الرعاة . وفيما بعد ، حينما يكتشف استياجيس ان الطفل قورش ما يزال على قيد الحياة ، ينتقم الملك من خادمه انتقاما مروعا . فيدعوه الى مأدبة ، ويطلب منه ان يرسل ولده الذي يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، لكي يساعد في اعداد المأدبة . وفي المأدبة ، يأكل هارباجوس من اللحم حتى يمتلىء ، ويسأله استياجيس ان كان قد استمتع بطعم اللحم ، ويؤكد هارباجوس استمتاعه وتلذذه الشديد . وحينذاك ، يوضع اثناء مفطى امام هارباجوس ، وحينما يزيح الغطاء ، يكتشف راس ولده واطرافه . كان يأكل لحم ولده . ويقول هيرودوتس : «ان المنظر .. لم يؤثر على سيطرة الرجل على نفسه . ولما سئل ان كان قد عرف الحيوان الذي كان يأكل لحمه ، اجاب بأنه عرفه تماما ، وان كل ما يفعله الملك لا بد من قبوله » . ولكن هارباجوس ، كان فيما بعد هو منظم انتصار قورش على جده ، وذبحه .

يبدو القسم الاول من القصة ملفقا - شديد الشبه بقصة اوديب وغيره من الابطال الاسطوريين . ولكن من الثابت كحقيقة تاريخية ان قورش خلع جده من العرش بمساعدة هارباجوس ، الذي كان قد ارسل لكسر جيش قورش ، فانضم اليه بدلا من محاربته ، ولذلك فان قصة هارباجوس تبدو صحيحة . انها تظهر المزاج البربري لهؤلاء الطفلة الشرقيين (١٢) وقد امر استياجيس ايضا باعدام جميع كهنة المايجي الذين اقنعوا هارباجوس بالابقاء على حياة قورش . ان الحياة في عالم بهذا الشكل ، يخيط بهم العنف والظموح ، يراقبسون انحدار الانسانية المتجهة الى سكنى المدن ، لن تكون - اذن - سببا يؤدي الى الدهشة حينما يتحول ورثة الشامانات عن كل هذا العالم ، فيفارقون انفسهم في سكنة الطبيعة الصوفية وهدوئها .

(١٢) تحكى اسطورة افريقية عن الملك اتيروس (ملك ارجوس ، وجد مينلاوس واجا ممنون من قادة الاغريق في الايالة) انه اطعم اخاه لحم ولديه بسبب شكه في خيانة اخيه له . وتعباه هذه القصة لعنة بيت اتيروس التي استخدمها اسكيلوس وسوفوكليس وديوريديز في مسرحياتهم عن اوديسس والكنترا (ولدي اجا ممنون) وعن الهجينيا ابنة اجا ممنون التي قدمها قرباناً في اوليس . (هـ . م . ٢)

وعلىنا ان نتحدث ايضا - في هذا الصدد - عن الاسرار الدينية لدى اليونانيين ، وخاصة تلك التي دارت حول اورفيوس واليوزيس ، وعن جماعة « الاسنس » العبرية ، التي ظهرت بعد الاغريق ببضع قرون . ذلك ان كل تلك الجماعات اتسمت بخصائص هامة مشابهة لتلك التي تميز بها كهنة الماجي في بلاد الفرس . ويفترض ان الديانة الاورفية قد وجدت على يدي الشاعر والمفني الاسطوري اورفيوس - الذي يكاد يكون معاصرا لزرادشت - والذي اشترك ايضا في رحلة سفينة الارجو ، وعمل على تهدئة مشاجرات الإبطال الديسن اشتركوا فيها بأغانيه . وهناك قصائد مختلفة منسوبة اليه ، تصف خلق العالم بخروجه من بيضة كونية ، وتحدث بالتفصيل عن الحياة بعد الموت . ومثلما اعتقد المسيحيون فيما بعد ، اعتقد اتباع اورفيوس فيما يبدو ان كل من لم يتبع ديانتهم قد حكم عليهم بالهلاك ، ذلك ان افلاطون ، يقتطف واحدة من خرافاتهم التي تعنى ان اولئك الذين لم « يهتدوا » سيقضون حياتهم الاخرى ، الابدية ، وقد حكم عليهم بمحاولة ملء « منخل » بالماء ، مستخدمين في ملئه « منخلا » آخر (وقد كان لدى الاغريق احساس قوي بما يحتويه معنى اللاجذوى من انواع الرعب ، مثلما تدل على ذلك ايضا اسطورة سيريف ، الذي كان عليه في الابدية ان يدفع صخرة الى قمة تل ما ان تبلغها حتى تتدحرج فيهبط لكسي يدفعها من جديد الى الابد) . ولكننا لا نعرف شيئا عن اسرار التعميد او الهداية في الديانة الاورفية ، ولكن قد يمكن تخمين الكثير منها من خلال ما نعرفه عن اسرار طقوس الديانة الاليوزيسية ، طالما ان الديانتين قد امتزجتا غالبا ، كما استخدم اليوزيس في الطقوس الاورفية . كانت اليوزيس ، وهي مدينة على بعد اربعة عشر ميلا الى الغرب من اثينا ، هي المكان الذي عثرت فيه ديميتير - ربة القمح والخصوبة - بابنتها كوريه (او برسفونيه) التي كان قد اختطفها هاديس (رب العالم السفلى والدار الآخرة) . ومن المدهش تماما ان كلتا الربتين ، كانتا صورا اخرى من ديانا ، ربة القمر ، او الربة البيضاء عند جريفز . وكانت الاسرار الاليوزيسية ، تبدأ بعملية تنظيف واستحمام في البحر ، ثم تبدأ عملية الافصاح عن المعرفة الغيبية ونقلها ، ثم تبدأ عملية التلقيح او التعميد التي تتضمن بعض الاختبارات - وربما كانت هذه الاختبارات تتضمن التجول عشوائيا في بعض الدهايز تحت الارض المزودة ببعض « المفاجئات » التي اعدت بعناية - واخيرا تأتي عملية تكليل الشخص الذي تمت تهيئته وانتهى تعميده بالازهار . (وكل من يعرف « اوبرا » الناي السحري » (١) لموتسارت يمكن ان يكون فكرة

(١) الناي السحري - اوبرا موتسارت التي ألفها حول ليبريتو من شعر ايمانويل شيكاليديز .
تلخص قصتها في ان آلهة الظلام تقدم الناي السحري للامير الراعي تامينو ، ليتعكن من اسر
قلب بامينا . ولكن حبه لها كان شهوة جسدية خالصة . ويعرف تامينو انه لا بد من تلهيب الناس =

ما عن الجانب « الطقسي » من الاسرار . وكانت كل هذه الطقوس تضمن لمن يتم تعميده ان يقضى الابدية مستريحا في الحقائق الاليزيه .

اما جماعة الاسنس ، وهم جماعة يهودية من القرنين الثاني والثالث م ، فقد كانت لهم ايضا طقوس تعميدية يملأها الوغار ، وعلى المرشح او الطامح في دخول الجماعة ان يبقى تحت الاختبار والملاحظة لمدة عام . ثم تجري له عسدة اختبارات لمدة عامين آخرين . وكانت الجماعة اساسا جماعة دينية « تطهيرية » ، انتقلت فيما بعد الى البراري بالقرب من البحر الميت ، وهي الجماعة المسؤولة عن كناية وثاني البحر الميت . وكان اعضاؤها مثل اتباع اورفيوس ، يطالبون بحياة ذات تظهر صانرا ، ورفض مطلق لقتل اي كائن حي . ويقول ماكس ديموت بوضوح في كتابه : « اليهود والله والتاريخ » ان يوحنا المعمدان كان من اعضاء جماعة الاسنس ، وان المسيحية كانت نتاجا غير مباشر لعقيدة الاسنس . وقد يكون هذا صحيحا الى حد كبير . ويعتقد الكاتب الصوفي الفرنسي ادوارد تسيوري ان يسوع قد دخل جماعة الاسنس ومر بكل طقوس التعميد اللازمة لدخولها .

ان كل ما تشترك فيه جميع هذه الفرق هو الاحساس بما تبثه اسرارهم من جلال ومهابة ورهبة وروع . لقد نظر الاغارقة والرومان الى دياناتهم نظرة بسيطة فيها قدر من الاستخفاف ، وكان اليهود اقل ورعا والتزاما بالدين مما يحاول العهد الجديد ان يقنعنا به (فالفريسيون كانوا في الحقيقة متساهلين متسامحين ، بينما كان الصدوقيون واقعيين من الناحية السياسية ولم يؤمنوا بالخلود ولا بالبعث بعد الموت) . وكل من قرا ترجمة باتير : « ماريوس الايكتور » سيتذكر التصوير البهيج لديانة « نوما » في الفصل الاول ، وجوه الرعوي الشديد الاسترخاء . (وكان نوما امبراطورا اسطوريا لروما كان يستطيع ان يسيطر على البرق والصاعقة طبقا لما يقوله اليفاز ليفي) .

ولكن الاسرار كانت مسألة مختلفة . وكان هدفها هو رفع العقل الى ما فوق التفاهة اليومية ، الى مستوى التأمل الثابت في خصائص الطبيعة المعجزة . وكانت الطريقة المتبعة في ممارسة الطقوس تجتهد ان تجعل المرشح لدخول الجماعة او اعتناق الدين قادرا على ان يطابق بين نفسه وبين ديميتير وكوري او اورفيوس . وتتخذ قصة ديميتير طابعا دراميا يتلاءم مع هذه المعالجة . فقد تمكن هاريس رب العالم السفلى من اختطاف ابنتها كوريه واغتصابها ، وخرجت

=بقوة آلهة النور . ويجتاز تامينو وبامينا جميع الاخطار الارضية حتى يتطهرا ويظهرا الناي ، ويكتشفان في النهاية « الحقيقة المقدسة » ويتعلمان اسرار ايزيس . انتهى مولسارت من وضعها عام ١٧٩١ وعرضت لأول مرة في ستوكهولم في نفس العام . (ه . م) .

ديميتير للبحث عنها . ويطول البحث وتمر ديميتير بمغامرات هديدة ، حتى يستبد بها القنوط ، فتعلن للارباب انها قررت الا تعرف الارض ربيعا حتى تعود كوريه . وتمر شهور القحط الباردة ويأتي الربيع فلا يطلع اي شيء اخضر ، واخيرا يوافق كبير الارباب على مودة كوريه بشرط الا تكون قد اكلت شيئا من طعام العالم السفلى . ولكن كوريه التي كانت قد صامت طويلا ، كانت قد اضطرت الى اكل ست من حبات الرمان ، فيحكم كبير الارباب بعودتها الى امها ستة شهور ، ويبقيها في العالم السفلى عند هاديس ستة الشهور الاخرى ، وينقسم العام بهذا الى ربيع وصيف ، والى شتاء وخريف . فالاسطورة تفسر الفصول ، وتأخذ الطقوس هذا التفسير فتطبقه حرفيا . وتبدأ الطقوس بصيام شعائري ، ثم بقيام للصلاة ليلة بكاملها ، حيث يجلس المرشحون على مقاعد خشبية مغطاة بجلود الماعز وقد غطوا وجوههم بفلالات سمكة ، وعليهم ان يتأملوا حول اغتصاب كوريه واحزان ديميتير وبحثها الطويل . وفي هذا القسم المنطوق من عملبة التعميد ، كان كل معنى من هذه المعاني يلحن عن طريق التمثيل الدرامي المقدس والاحتفالات . ثم تبدأ الاختبارات . ومن المحتمل ان الاختبارات كانت مربعة وربما كانت خطيرة بالفعل . ثم تأتي الذروة الدرامية بعد كل هذا ، فنرى ديميتير المثقلة بالاحزان في معبدها باليوزيس ، والحقول الجرداء العارية من كل خضرة ، واستعادة ابنتها ، حيث تأمر الربة الرحيم حقلا من القمح فتطلع سنبله على الفور . وعند هذه النقطة من الاحتفالات ، يشاهد العباد سنبله قمح ناضجة .

اما الاسرار الاورفية ، التي ربما كان يحتفل بها في اليوزيس ايضا ، فاستخدمت قصة اورفيوس بنفس الطريقة ، مؤكدة احزانه على فقد ايورديس ، ونزوله الى العالم السفلى ، وفقدانه لها للمرة الثانية حين بثقت وراءه ليطمئن على وجودها معه في قارب خارون بعد ان نجح في استعادتها بأمر من كوريه التي كانت قد اصبحت زوجة لهاديس وملكة للعالم السفلى ، بعد ان قبسل شرط هاديس بالا يلبثت وراءه حتى يعبر نهر ستيكس الذي يفصل عالم الموت عن عالم الاحياء ، واخيرا موت اورفيوس حينما تمزقه اربا وتقطع اوصاله عرائس الغاب ، المياندات التراقيات ، لانه رفض ان يغني لهن ، وفضل ان يلقي اشعاره عن ايورديس .

ولكن ما لم نعرفه حتى الان هو طبيعة الاسرار التي كانت تلقن للداخلين الجدد ، وهي اسرار كانت ذات خاصية سحرية بالتأكيد . وحتى جماعة الاسنس ، الذين كانوا جمعية زهد او تنسك ديني ، كانت لهم اسرار « سحرية » . يقول المؤرخ اليهودي جوزيفوس : « لقد درسوا بداب عظيم كتابات طبيعة معينة تعالج الميزات الغيبية للنباتات والمعادن » . اما بالنسبة للافريق ولكهنة المايجي فان الطبيعة

كانت شيشا او كائنا حيا ، غلالة تخفي اسراراً غريبة . فلكل شجرة ولكل زهرة ولكل لون معنى غيبي . (ويكرس جريفز فصلين كاملين من كتاب « الربة البيضاء » لدراسة وكشف المغزى الغيبي للأشجار المختلفة) . ولقد كان هناك مغزى معين لكل نوع من الزهور التي كانت كوريه تقطفها حينما اختطفها هاديس .

اما الديانة الاورفية ، فانها سرعان ما امتزجت بعبادة الرب ديونيزيوس ، الذي جاء اصلاً من تراقيا ، والذي كان يعبد هناك في شكل عجل . وسرعان ما شاعت عبادة ديونيزيوس في كل بلاد الاغريق في القرن السابع ق.م ، لانه كان بالتحديد الرب الذي احتاج اليه اليونانيون لكي يكتمل به مجمع اربابهم . وتحت اسم « باخوس » اصبح ربا للنبيذ ، وكان رمزه احيانا عضوا تناسليا للذكر ضخم الحجم . ويتحدث فريزر عن طقوس تراقية تتضمن رقصات وحشية ، وموسيقى مثيرة واسرافا في كل شيء حسي ، ويلاحظ ان مثل تلك الانطلاقات كانت غريبة على طبيعة اليونانيين العقلية الواضحة . ومع هذا فقد راحت الديانة الجديدة تنتشر كالسنة اللهب عبر كل بلاد الاغريق ، وخاصة بين النساء ، وربما كانت تشير بذلك الى نوع من التمرد ضد الحضارة ، واصبحت ديانة عريجات حسية صارخة . كانت النساء يستشن انفسهن الى حالة جنونية ثم ينطلقن الى التلال ، ممزقات اوصال اي كائن حي يصادفنه في طريقهن . وتحكي مسرحية يوريديز « الباكيات » كيف مزقت حشود النساء جسد الملك بنثيوس الذي عارض ديانة باخوس ، وكيف كانت امه واخواته بين الجماعة من النسوة التي مزقت اوصاله في حالة من « الجنون الباخوسي » . ففي اثناء النشوة التي يصل اليها عباد باخوس او عابداته ، كانوا يتحولون الى حيوانات ، ويتصرفون مثل الحيوانات ، فيقتلون الكائنات الحية وياكلونها نيئة تقطر دما .

وقد عرف الفيلسوف نيتشه المغزى العميق لكل هذا ، فأعلن انه هو نفسه تابع وعبد للرب ديونيزيوس . وتحدث نيتشه عن : « النشوة المباركة التي تبرز ناهضة من اعماق اعماق الانسان » ، فتحال احساسه بالشخصية المتميزة : وهي باختصار ، النشوة الجنسية او السحرية . لقد رأى في ديونيزيوس مبدأ اساسيا للوجود الانساني ، احتياج الانسان الى ان يتخلص من شخصيته فيقذف بها بعيدا ، وان يفجر فقاعة الحلم التي تحيط به فيصل الى درجة ممارسة اليقين المؤكد ، الكلي النشوان لكل شيء ومن كل شيء . وبهذا المعنى فـان ديونيزيوس هو بشكل اساسي ، الرب ، او القديس الراضى للسحر . ان روح ديونيزيوس تتخلل كل سحر ، وبوجه خاص السحر الاسود في عبادات الساحرات المتأخرة ، بعريدياتها الدورية الصاخبة الشديدة الشبه بعريديات النسوة فسي احتفالات عبادة ديونيزيوس ، وحتى في استخدام الماعز ، وهي الحيوان المقدس عند ديونيزيوس (اليس من الامور الدالة ايضا ان ديونيزيوس كان الها ذا قرنين ،

مثل الشيطان المسيحى ؟) . .

كان كل هذا هو الخلفية اللازمة لمعرفة « المبدع العظيم » الاول في التاريخ المكتوب : فيثاغوراس . من الحق ان المؤسس الاسطوري المصري لفن السحر ، هيرميز تريسميجيستوس (هيرميز المثلث العظمة) يفترض ان يكون قد سبق فيثاغوراس ، لكن وجود هيرميز الفعلي موضع شك كبير : (وقد قال المصريون ان هيرميز هو نفسه الرب توت ، الذي منحهم فن الكتابة) بالاضافة الى ان الوثائق المرتبطة به والمتعلقة بتاريخه تعود الى العصر السابق على المسيحية . اما فيثاغوراس فقد ولد حوالي عام ٥٧٠ ق.م - وهو عصر بارز وهام ، لان في هذا الزمن بالتقريب ، ولد بوذا في الهند ، وفي الصين ولد كونفوشيوس ولاوتسين .

ونحن نميل في عصرنا الى ان نربط بين فيثاغوراس وبين بواكير العلم والرياضة . ولكن هذا خطأ . لقد كان اولا متصوفا دينيا يهتم بكل شيء . لقد اراد ان يفهم العالم لانه اعتقد ان مبادئه الاولى كانت في اساسها مبادئ صوفية او غيبية ، وان الرياضيات قد اثبتت له هذا الاعتقاد . فالعدد ، او الرقم ، طبقا للمفهوم العاذي الشائع ، هو مجرد رقم - اي نوع من التجريد . اما فيثاغوراس فقد عرف ان للارقام تفردا متميزا كالجبال والبشر . لقد عرف صديقا له باعتباره « اناني » الاخرى مثل الرقمين ٢٢٠ ، ٢٨٤ . وكان ما يقصده بهذا هو انه من الممكن قسمة الرقم ٢٢٠ على الارقام ١ ، ٢ ، ٤ ، ٥ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٤٤ ، ٥٥ ، ١١٠ ، وان حاصل جمع هذه الارقام هو ٢٨٤ . اما الارقام التي يقبل ان رقم ٢٨٤ القسمة عليها ، فهي ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧١ ، ١٤٢ ، وحاصل مجموعها هو ٢٢٠ . اذن فان الرقمين ٢٢٠ ، ٢٨٤ هما « رقمان متحابان » .

هكذا كانت الطريقة التي اشتغل بها عقل فيثاغوراس : عن طريق القياس . (وينطبق هذا على السحرة بشكل عام ، بشعارهم القائل : كما هو فوق ، كذلك تحته) . لم يكن اهتمامه بالعلم والارقام رغبة في بناء سلسلة من المنطق او التفسير المتناسك ، وانما كان احساسا بان كل حقيقة على حدة قد تكون رمزا لشيء اكبر منها بكثير - وقد تعكس هذه الحقائق اجزاء من السماء ، مثل شظايا مرآة مكسورة .

وقد ولد فيثاغوراس في جزيرة ساموس لاحد التجار . ويبدو ان بوليكراتيس طاغية الجزيرة ، قد احب فيثاغوراس ، فأرسله بتوصية الى صديقه امازيس فرعون مصر ، طالبا منه ان يلحق فيثاغوراس كل الاسرار المصرية .

وهناك قصة عن الفرعون امازيس مع بوليكراتيس تكشف بعمق عن الطابع النقديري العجيب لذلك العصر . فقد عرف بوليكراتيس بانه رجل محظوظ الى درجة لا ينافس فيها احد . واحس امازيس ان هذا الحظ لا يمكن ان يدوم ، طالما ان

الارباب الا يسمحون للبشر بان تطول سعادتهم . فنصح بوليكراتيس بان يفرض على نفسه قدرا ضئيلا من العذاب او المعاناة او الظروف غير المناسبة . فأخذ بوليكراتيس خاتما ثميناً ورماه في البحر . وبعد ايام اتاه صياد بسمكة هدية . ووجد بوليكراتيس خاتمه في بطنها . واصبح امازينس مقتنعا بان شيئاً لن يتمكن بعد ذلك من منع سوء الحظ الذي لا بد سيأتي . وفي الحقيقة ان الطمع هو الذي جاء بسقوط بوليكراتيس . فقد راح حاكم فارسي لجزيرة مجاورة يفره بالمجيء لزيارته على اساس ان الجزيرة مليئة بذهب كثير ، ولما ذهب بوليكراتيس اعتقله الحاكم الحاقدا وراح يعذبه بطريقة قال عنها هيرودس انها كانت مفرزة للدرجة لا يمكنه ان يذكرها . ومما يلفت النظر ان ابنة بوليكراتيس رأت الكارثة في حلمها قبل ان تقع واخذت تحاول اقناع والدها بعدم الذهاب ، ولكنه اصر على الذهاب الى حتفه . وهنا نستطيع ان نرى مرة اخرى الخصائص المميزة لتلك الفترة من التطور الانساني : القسوة والحسد والاحلام المنذرة والخرافات والقدريّة المتشائمة التي تبرهن الايام على صحة ما كانت تخشاه بدقة مفحمة .

وبعد مجموعة من الطقوس ، تضمنت الختان ، ثم تعميم فيثاغوراس في طبية ، وتعلم اللغة المصرية كما يقول ديوجينيس ليرتيوس ، وارتبط بعلاقات مع الكهنة الكلدان ومع الماجي الفرس . وتعلم منهم الفلك ، - وكان الكلدانيون قد ابتكروا رموز دائرة البروج (الزودياك) ورموز الارقام . (وربما كانت نظرية فيثاغوراس المشهورة عن مربع وتر المثلث القائم الزاوية قد جاءت مع ما تعلمه فيثاغوراس من الكهنة المصريين .) ومع ذلك ، فان الملك الفارسي قمبيز تمكن من غزو مصر ، فأرسل فيثاغوراس الى بابل ، ف قضى هنالك نحو عشرين سنة درس فيها اسرار بلاد ما بين النهرين . وبشكل عام ظل فيثاغوراس بعيدا عن موطنه طوال اربع وثلاثين سنة ، وفي خلال هذه المدة ، لا بد ان يكون قد التقى بحكماء من الهند والصين ، اذ يظهر عنصر قوي من التصوف الشرقي في فلسفته المتأخرة ، بالإضافة الى اعتقاد في البعث بالجسد طوره وعبر عنه في نوع من التناسخ ، وهو الاعتقاد بان الروح قد تنتقل الى جسد مخلوقات اخرى ، بما في ذلك الحيوانات .

ويعود فيثاغوراس الى ساموس ، حيث يكشف ان راعيه بوليكراتوس قد اشد سوءاً ، وكان النظام قد اكتسب اساليب القهر المنظم ، فانتقل الى كورتونا في جنوب ايطاليا . وكانت جاذبيته الشخصية عظيمة لدرجة انه جمع عددا كبيرا من التلاميذ ، ولكنه اثار من حوله الحسد ايضا والعداوة . وحتى اخوه في الفلسفة ، هيراقليتوس ، كان لديه بعض الملاحظات الساخرة عن فيثاغوراس . واستطاع احد الإعداء ان يثير ضده سكان كورتونا ، وذبح بعض اتباعه . (ويقول ادوارد شوربه ان سيتون ، الذي اثار الناس ضد فيثاغوراس كان أحد التلاميذ الذين ابعدهم الفيلسوف) ويقول ديوجينيس ليرتيوس ان فيثاغوراس

قد قتل في كورتونا حينما احترق في منزله الذي اشعلت فيه النار . امسا بروفيري فيقول انه استطاع انفرار الى ميتابونتا حيث مات بعد ان بلغ الثمانين .

وفي خلال الاعوام الثلاثين التي عاشها فيثاغوراس في كورتونا ، اصبح واحدا من اهم مصادر التأثير الثقافي في عالم البحر الابيض المتوسط . وقد جلب النزعة التصوفية الشرقية الى الغرب . وكانت مدرسته مدرسة للتصوفة ، وكانت طقوس التعميد فيها طويلة عسيرة . وقد كان فيثاغوراس فيلسوفا اكثر منه ساحرا . وفي الحقيقة انه هو الذي ابتكر كلمة : فيلسوف . ولكن فلسفته ذات النزعة التصوفية المتطرفة ، كانت ذات تأثير عظيم في تاريخ السحر .

وطالما قد قلنا هذا ، فلا بد من الاعتراف بان فلسفته كانت اصيلة ثبير الدهشة اكثر منها فلسفة عميقة او نافذة . ومن الواضح انه امتلا بالدهشة حينما اكتشف ان ثمة علاقة بين « النوتات » الاربعة الرئيسية في سلم الموسيقى اليونانية وبين المسافة التي تفصل بين كل منها اذا ما قيست على وتر القيثارة .

.. وقد اقام فيثاغوراس فلسفة كاملة تصوفية النزعة على هذا الاكتشاف . فقد كانت المسافة بين انوتات على اوتار القيثارة هي ٣ ، ٤ ، ٦ ، كما كان من الممكن انتاج النوتات نفسها على اساس نسبة ١ الى ٢ (اوتكاف) ، ٣ الى ٤ (النوتة الخامسة) ، ٣ الى ٤ (النوتة الرابعة) . وتتضمن الارقام الاربعة ارقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ التي يصل حاصل جمعها الى عشرة ، وهو رقم مقدس . ويبدو هذا الاكتشاف شيئا بسيطا الى درجة السخف بالنسبة لاذنانا المعقدة ، ولكن لا يد من ان نتذكر ان عددا قليلا جدا من الناس في تلك الايام هم من كانوا يستطيعون ان يعدوا الى عشرة ، كما كان حساب الضرب ما يزال مجهولا ، حتى عند المصريين . وطرافيثاغوراس - كنوع من الالهام او الكشف - ان تلك النوتات الاربعة - التي اذا ما عزفت معا اصبحت منسجمة متناغمة الى هذا الحد - لا بد ان تكون قابلة للتفسير على اساس كل الارقام . وقفز ذهنه الى الفكرة المذهلة عن احتمال ان يكون كل ما في الوجود والكون من تناغم راجعا الى اسرار عددية كامنة في الارقام من نفس ذلك النوع . فالوجود او الكون يبدأ بالوحدة الخالصة النقية المقدسة ، رقم واحد ، ثم تنمو الى « الاربعة المقدسة » ، وحاصل جمع الارقام الاربعة الاولى هو عشرة ، الرقم المقدس ، الذي منه ينبع كل شيء آخر .

وبنفس الطريقة تستطيع ان تصنع مثلثا من النقاط ٤ بان تضع اربع نقاط للخط السفلي ، وثلاث نقاط للخط التالي ، ونقطتين لما يليه ، ونقطة واحدة للقمة او الرأس المثلث (ويبدو ان الاغريق كانوا يسجلون الارقام بطريقة رسم النقاط البدائية) . وقد اثبت هذا لفيثاغوراس ان المثلث ايضا رمز صوفي مقدس .

فإذا صنعت عددا من تلك المثلثات ، وزودت كلا منها بخط اضافي من النقاط ، فانك ستلاحظ ان ايا من تلك المثلثات ، اذا ما اضيف الى المثلث السابق عليه؛ فانهما يصنعان « مربعا » . وهذا يعني القول بان مثلثا مصنوعا من ٣ نقاط اذا ما اضيف الى مثلث مصنوع من ٦ نقاط ، لصنع ٩ نقاط ، وهذا معناه ٣ مرات ثلاثا .

ويبدو كل هذا مثل لعبة حسابية لا ضرر منها . ولكننا نستخدم الادراك المختزن عبر قرون طويلة من العلم . فمن اجل ان نفهم التأثير الكامل لفيثاغوراس على عالم البحر الابيض المتوسط في زمانه ، فان علينا ان نتخلى عن كل تعقيدنا ، وان نرحل الى الوراء الفين وخمسمائة من السنين . كانت هناك « اسرار » كثيرة ومتنوعة - الادرفية والاليوزيسية والمصرية والبابلية - كما كانت هناك آراء تشير الاهتمام حول الحياة والموت والالهة . ولكن احدا لم يحاول ان يوحد كل تلك الاسرار فيحولها الى بنية واحدة عجيب من المعرفة . ولقد عرف فيثاغوراس شيئا عن الارقام ، وعرف شيئا عن الموسيقى ، وعرف شيئا عن التنجيم ، وعرف اشياء عن آلهة مصر وكلدانيا وفارس والهند . وكانت الاسرار الفيثاغورية قائمة على اسرار اورفيوس ، الذي كان في تلك الفترة ، قد اصبح متطابقا بشكل ما مع ديونيزيوس . وديونيزيوس هو قوة الحياة ذاتها ، لا شكل لها ، وغلبة مسيطرة . وابوللو هو رب الفن والنظام والتناغم المنسجم . انسه ليس النقيض حقا لديونيزيوس - فليس سوى الموت نقيضا للحياة . ان ابوللو يمثل شكلا من اشكال ديونيزيوس اكثر تعقدا وانتظاما ، محاولة تبذلها الطاقة التي لا شكل لها لكي تعبر عن نفسها باعتبارها جمالا مرئيا ، في تناقض مع القبح والفوضى . وابوللو رب كوني وعالمي ، انه حورس المصريين ، وميثراس الفرس ، وماردوك البابليين . فكيف اصبح ديونيزيوس هو ابوللو ؟ من خلال تنظيم المادة تنظيمما متناغما منسجما ، طبقا لقوانين التناسب المقدسة ، مثل ذلك القانون الذي عثر عليه فيثاغوراس دون قصد في الموسيقى .

كان هذا هو جوهر رؤية فيثاغوراس ، وعلى الرغم من جوانب عدم الدقة فيها ، فانها رؤية سليمة بشكل اساسي - وربما كانت اكثر سلامة وصوابا مما سوف تصادفه في اي مكان آخر من مملكة السحر . لقد ادرك فيثاغوراس بشكل غريزي الحركة التطورية الصاعدة للحياة ، الحركة التي تبتعد بالتدريج من الغريزة الحيوانية و « حساسية الادغال » صوب : « الرؤية البعيدة » او القدرة على ادراك آفاق الحقيقة البعيدة . وعلى العكس مما فعله معاصروه ، طاليس ، وهيراكليتوس وبارمينيديس ، وعلى العكس مما حدث لارسطو فيما بعد ، لم يفقد فيثاغوراس قدرته على الامساك الواثق بالجانب الغامض الفيني ، الـ « واحد » - الذي قد يدعوه الهندوس : « براهمان » - ولكنه حاول ان يفهم الى « واحد » باستخدام ذهنه .

وكانت النتيجة معقولة احيانا ، وفي احيان اخرى لم يكن لها معنى . ويقول ديوجينيس انه اعتقد بان الهواء القريب من الارض ملوث ، ولذلك فان كل مخلوق يعيش على الارض عرضة للمرض والموت . اما الاجواء العليا فهي في حركة دائمة ، ولذلك فانها قادرة على توفير الخلود . وكان موقفه من الجنس مليئا بالاشمئزاز والنفور ، رغم انه كان متزوجا وكانت له ابنة واحدة على الاقل ، وقد نصح بالجماع الجنسي في الصيف لا في الشتاء ، ولكنه يضيف : « ان ممارسة هذا العمل ضارة في كل الفصول ، وايست مفيدة للصحة على الاطلاق » . وقال ان لذة الحب ، تجعل الرجل : « اكثر ضعفا من حقيقته » .

.. وقد صدق معاصروه كل انواع الاساطير المتعة عن قدراته السحرية . وتقول احدى القصص انه تمكن من ترويض دب مفترس بان همس في اذنيه ، ونادى شرا من السماء لكي يستقر على معصمه . وحين كان مع احد تلاميذه يرقبان سفينة اثناء دخولها الميناء ، وتساءل التلميذ عن اي كنز يمكن ان يكون عليها ، تنبأ فيثاغوراس بان حمولتها كانت جثتين جيء بهما الى الوطن لكي يدفنا في ترابه . هكذا احيطت حياته بالاساطير السحرية حتى لم يعد هناك سبيل الى معرفة ما اذا كان وسيطا ، ام كان ببساطة فيلسوفا ذا نزعة صوفية . ويبدو ان معاصريه اعتادوا ان يسخروا منه في امثالهم ، ويؤكد احد مؤرخيه ان نزوله المزعوم الى العالم السفلي لكي يتحدث مع الموت كان خرافة مصنعة ، وقد اختبأ فيثاغوراس بالفعل ذات مرة طوال عدة اسابيع في احد الكهوف ، وطلب من امه ان تكتب له اخبار ما يحدث في العالم الخارجي لكي يتظاهر بانه عرف ما يعرفه بطرق خفية غير طبيعية . وربما كانت فيه لمسة الدجال ، ومعظم « المبدعين الكبار » كانت فيهم هذه اللمسة ، مثلما سنرى . وربما كانت نزعة فيثاغوراس الى الدجل - مثل مراعمه عن تذكره لمرات تجسد روحه السابقة في عملية تناسخها وما الى ذلك - ربما كانت نوعا مما فعله جورديف ، لكي يخلق الجو المناسب لاستقبال افكاره . وقد عاش فيثاغوراس الى سن متقدمة جدا - ويقول ديوجينيس ليرتيوس انه بلغ التسعين - فيبدو انه كان رجلا قوي الجسم والصحة ، اسنطاع ان يذهل الجميع ذات مرة بالفوز ببطولة الملاكمة في الالعاب الاولمبية .

.... فاذا لم تكن قادرين ابدا ان نتيقن مما اذا كان فيثاغوراس قد امتلك شيئا من القدرات الغيبية ، فلن يكون هناك شك من اي نوع في حالة اكثر تلاميذه شهرة ، وهو ابولونيوس من تيانا ، الذي عاش في القرن الاول الميلادي ، والذي كتبت ترجمة حياته بعد ذلك بقرن واحد على يدي يوناني متمرس يدعى فيلوستراتوس . وتمتلىء هذه « الحياة » بالكثير من انواع العبث السخيف والوان العجائب .. لقد امضى ابولونيوس الكثير من حياته ، مثل فيثاغوراس ، في الترحال ، اما فلسفته ، التي تظهر في شكل سلسلة من الخطب عند

فيلوستراتوس ، فهي تركيبة تجمع بين افكار فيثاغوراس وتراث المصريين والبابليين والهندوس السحري . وقد كتب فيلوستراتوس كتابه عن ابولونيوس لكي يهديه الى الامبراطورة جوليا ، زوجة سيفيروس ، ويبدو انه اقام كتابه على اساس ذكريات داميس النينوي ، وهو تلميذ وصديق لابولونيوس . (لقد كان هذا الاسم : الامبراطورة جوليا ، هو الذي جاء لكي يمهر امرا صدر لديوجينيس ليرتيوس لكي يكتب كتاب : « حياة الفلاسفة » الذي اقتبس منه) . وكانت النتيجة هي المزيج المعتاد من الواقعية والخرافة . وليس من العسير جدا ان نرسم الخط الفاصل بينهما . يقال لنا ان ابولونيوس كان ربا من الارباب ، وابنا لبروتوس ، وان احد المشهرين به ، وهو تيجيلينوس ، قد سحب اتهاماته له (بعدم الايمان بنيرون) حينما اعترف بابولونيوس كاله . ومن الجانب الاخر ، فمن الواضح تماما ان ابولونيوس قد امضى جانبا كبيرا من حياته في الدفاع عن نفسه ضد الاتهام بانه يمارس السحر الاسود ، وانه كان في الحقيقة فيلسوفا متجولا رحالة ، ووسيطا ، لم يكن يعتبر الها على نطاق واسع ولا حتى كساحر حقيقي . . . وثمة لمسة انسانية واحدة تبدو من الاصاله والصدق بحيث لا يمكن ان تكون من ابتكار الناس . فحينما ذهب ابولونيوس لكي يستشير عرافة دلفي ويسألها ان كان اسمه سوف يذكر في المستقبل ، اجابته بانه « قد » يذكر ، وانه لن يذكر الا لانه سيلعن كثيرا . ومزق ابولونيوس الورقة التي كتبت له فيها النبوءة - الامر الذي لا يبدو مناسباً كرد فعل من فيلسوف . ولكن العرافة اثبتت انها كانت دقيقة في نبوءتها . لان الكثيرين من اعداء المسيحية حاولوا فيما بعد ان يقيموا من ابولونيوس منافسا للمسيح يسوع ، وقد اصبح معروفا بشكل اساسي كعدو للمسيح) .

وتبدو القصص التي تحكي عن قدراته السحرية كما لو كانت منتزعة من كتاب « الجحش الذهبي » . ففي روما ، قيل انه احيا من الموت سيدة شابة ذات اصل وقربات ارسطراطية ، ادى موته الى ان ترتدي المدينة كلها ثياب الحداد . (ومن الطبيعي ان القدماء لم يكونوا يعرفون ان الدمار الحاد للدماغ يحدث في خلال ساعات من الموت (٢) وبذلك فان الشخص الذي يكون قد اميد بمعجزة الى الحياة لا بد ان يعود ابله او معتوها ، وينطبق نفس الاعتراض بالطبع على احياء العازر على يد المسيح) . وحينما قدمه صديقه وتلميذه مينيوس الكورنثي الى من

(٢) المعروف ان التحلل في خلايا المخ (وهو ما يسمى بالموت البيولوجي) يسدا بعد ٥ الى ٧ دقائق من توقف الدورة الدموية والنفس (وهو ما يسمى بالموت الاكلينيكي) . ولكن ويلسون يقول ان الدماغ الحاد للدماغ يحدث في خلال ساعات من الموت . والمعروف انه من الممكن نظريا اعادة تشغيل القلب والدورة الدموية في خلال الدقائق التالية لتوقفهما ما لم يكن التحلل قد سدا في المخ . (ه . م .)

ستكون عروس مينيوس في المستقبل ، تعرف ابولونيوس على الفور على حقيقتها كمصاصة دماء (تدعى لاميا - وقد كتب كيتس قصيدة بهذا العنوان عن نفس الحكاية) . ورفض مينيوس ان يصدق تحذيرات صديقه ، ولكن ابولونيوس جاء الى الزفاف ، وببعض اللمسات السحرية جعل الضيوف والمأدبة يختفون جميعا - فقد كانوا كلهم اوهاما مرئية صنعتها لاميا - ثم جعل العروس تعترف بانها كانت تعتمز التهام مينيوس . (اما كيتس ، العاطفي ، فيجعل لاميا افعى عاشقة ، تتحول الى امرأة لكي تفوز بحبيبها ، اما ابولونيوس ، الفيلسوف البارد القلب ، فيكشف حقيقتها ، ويدمر سعادة الحبيين) .

وهناك قصة اقل خيالية من سابقتها تحكي ان ابولونيوس حذر اهل افسوس من طاعون قادم . ولحسن الحظ اكتشف ابولونيوس شحاذا يحمل عدوى الطاعون ، فاقنع اهل المدينة بان يرجموه حتى الموت ، فتحول الشحاذا الى كلب اسود . وربما كانت القصة صحيحة دون نهايتها ، وان ابولونيوس نصح السكان برجم الشحاذا وقتله كأخف الضررين .

اما نوع التشهير الذي كان على ابولونيوس ان يواجهه طوال حياته ، فتصوره الحكاية التي تروي عن محاكمته امام الامبراطور دوميتيان . فقد ظهر عدو لابولونيوس اسمه ايوفراتس ، اتهمه بالتآمر ضد دوميتيان وبقتل احد رعاياه ، لكي يعرف من باطن اظفاره وامعائه موعد سقوط الامبراطور . (ولا بد ان نتذكر ان الرومان كانوا يؤمنون بالتنبؤ عن طريق النظر في الامعاء ، ولكن امعاء الحيوانات لا البشر) وجاء ابولونيوس من تلقاء نفسه الى روما وقدم نفسه لكي يجيب على الاتهام ، واثقا فيما يبدو من ان مصيره لا يدل على انه سيموت بيدي الامبراطور . وكان دفاعه هو انه لم يحدث في حياته ان قدم ضحية بشرية في اي وقت ، وانه قد امضى الليل في تساؤل جالس الى جوار تلميذ له يحتضر ، هو فيليسكوس من ميلوس . ويقول انه فيلسوف ، ويبدو انه ينكر امتلاكه لاي قوى سحرية . ويقول ايضا انه سيكون سعيدا لو تمكن من النزول الى هاديس لكي ينقذ روح فيليسكوس . ولما كانت احدى الاساطير الدائمة عنه تقول انه بالفعل قد نزل الى هاديس (مثل فيثاغوراس) فانه قد يبدو ان هذا الجزء من القصة حقيقي بالفعل ، على اي حال . وهكذا نحصل على لمحة من صورة ابولونيوس كما كان في الحقيقة : فيلسوف ، طبيعي ، وعرف متنبئ الى حد ما ، على استعداد لان يبدل نفسه من اجل خير الناس . وهناك القصبص الكثيرة عن قدراته الاخرى: القدرة على اخصاب الارض (مثل الشامانات القدامى) وعلى الكشف عن الكنوز المدفونة . وهي قصص مليئة بالهراء الكثير ، وفيها دائما بذرة حقيقة ما . . ولا شك انه من السهل تماما ان نعرف السخافات حين نراها ، ولكن الاقل سهولة ان نصل الى الحقيقة الكامنة وراءها .

عالم القليلين

عاش ابولونيوس من تيانا في واحد من ابرز العصور في التاريخ الانساني . ذلك انه بشكل مفاجيء تماما ، انتشرت في عالم البحر الابيض المتوسط باسره جماعات من الناس الذين ارادوا ان يديروا ظهورهم لحياة المدن ، والذين شعروا باشتياق حاد الى التأمل ومعرفة اللانهائي . ومثلما فعلت جماعة الاسينس ، انتقلت هذه الجماعات الى البراري وكونوا جماعاتهم الخاصة . لم يكونوا مسيحيين ، وجاءت الكنيسة لكي تشير اليهم باعتبارهم « الغنوصيين » او « الادريين » ولكي تدمضهم بالهرطقة والتجديف ، وبمثل ما عرفت به الكنيسة من عنف ورغبة في الشمول ، فانها قامت بتدمير اكثر سجلاتهم المكتوبة ، وتركت اقوالا معادية ومشوهة منهم في الكتابات الدينية .

كان هذا الخروج الجماعي الى البراري ظاهرة غريبة . ومن الممكن اعتباره الخطوة التطورية العظمى الثالثة التي خطاها الجنس البشري . كانت الاولى هي ابتكار حياة المدن حوالي ٤٠٠٠ ق.م . وكانت الخطوة الثانية هي الحركة الدينية التي اجتاحت العالم الغربي في القرن السابع ق.م - وهذا هو العصر الذي انتج زرادشت وبوذا ولاوتسي وكونفوشيوس ، واورفيوس وفيثاغوراس وديونيزيوس ، بالاضافة الى ديانات الاسرار التي انتشرت في كل بلاد اليونان وجيرانها . . . كانت هذه حركة دينية حقيقية انتشرت في موجات متلاحقة في العالم الغربي ، ووصلت الى بلاد الغال والى بريطانيا في شكل الديانة الدرويدية (وليس تاريخ ظهورها معروفا ، ولكنه في حدود ٤٠٠ ق.م) .

واستهلكت الحركة قوتها ، وحل محلها نزوع متحضر الى الشك في بلاد اليونان والرومان . ثم حدث في القرن السابع قبل ميلاد يسوع ان بدأت موجة

جديدة في استجماع قوتها . وكانت هذه الموجة ردة فعل ضد الشك الوثني والامبريالية الرومانية . فبينما كان يهوذا المكابي يقود حملته من حـسـرـب المعصابات ضد الرومان ، تراجعت جماعة الاسينس الى شواطئ البحر الميت واقاموا هناك نوعا من اليهودية الصوفية . وقبل ميلاد عيسى بنحو مائة عام ، استضافت جماعة الاسينس رجلا يسمى نفسه ببساطة : « المعلم الاعظم » . ولكن اسمه الحقيقي لم يصل الينا .

ثم جاءت المسيحية ، ومعها جاء مولد النزعة « الادرية » . وليس من الضروري ان ننظر اليهما كاتجاهين متعارضين ، وانما كتعبيرين مختلفين عن الاشتياق الانساني الى الهرب من عقم الوجود الانساني – ولا جدواه . لقد احرزت المسيحية سطوتها ونفوذها من خلال تبشيرها بنهاية العالم ومجيء ملكوت الرب . واعلنت بصراحة واضحة ان نهاية العالم سوف تحدث في خلال حياة الناس الذين كانوا يعيشون في نفس الزمن الذي وقعت فيه عملية الصلب . وقال تلامذة عيسى ان معركة عظيمة سوف تنشب – معركة اطلقوا عليها اسم « ارماجيدو » وهو نفس اسم المعركة الكبيرة التي كسبها تحتسـمـس الثالث المصري قبل خمسة عشر قرنا وكانت ذروة العصر القديم وفاتحة امتزاج الحضارات القديمة – ولا بد في هذه المعركة لكل من لم يكن مسيحيا ان يفرق في الموت الابدي ، بينما سيعيش المسيحيون الى الابد على الارض التي ستكون قد عادت الى صورتها الاصلية : جنة عدن . وكانت هذه حجة قوية ، وهي تساعد على تبرير النجاح الهائل الذي احرزته المسيحية . ولكنها ليست السبب الوحيد لهذا النجاح ، والا لكانت قد ماتت وانتهت حينما لا تاتي نهاية العالم مع اكتمال القرن الاول على الاكثر بعد ميلاد المسيح . لقد هناك اشتياق عميق واصل الى المعنى والامل وراء المعاني المحدودة والامال الصفيقة في الحياة اليومية ، بصراعها المخيف الدائم من اجل ما يقيم اودها . . وفي زمن عيسى كان العالم المتحضر كله يجتاحه احساس بالبغض والرفض لنوع الحياة التي يمكن ان نجدها عند اليسوت في « الارض الخراب » وفي « الرجال الجوف » .

وقد عبرت النزعة الادرية عن كل هذا بوضوح اكبر حتى مما نجده في المسيحية . ولقد كانت هناك العشرات من الجماعات والفرق الادرية ، وتنوعت معتقداتهم واختلفت الى درجة كبيرة . ولكن الاعتقاد الاساسي عندهم كان يقول بان العالم لم يخلقه الله ، وانما خلقه شيطان غبي مغرور (او قوة خلاقية غير عاقلة – ديميـورج Demiurge كما أسماها افلاطون . هـ . م) . اما الله فهو فوق الخليقة ، وفوق الخلق ، ويشار اليه باعتباره ، العلوي البعيد ، الظلمة العميقة ، اللاموجود . وقد عنى هذا التعبير الاخير ان الله يكمن وراء كل شيء نعينه نحن

بالوجود . انه يقيم في عالم الـ « بليروما » او « الكمال » الغيبي المطلق . (ويشكل هذا الرب أساس قوانين الكابالاهلم القبلين أساس مذهب بوهم الصوفي ، حيث أطلق على الله اسم *ungrund* او « من لا ارض له ») . ولكن كان هناك انشاق أساسي في هذا الرب الصوري العلوي ، ومن ثم جاءت السقطة . وكانت النتيجة النهائية لهذه السقطة (التي يعتقد بعض الأدريين انها جاءت بسبب « صوفيا » التجسيد الإنشوي للحكمة) هي الـ « ديمبورج » او الـ « آركون » الذي خلق الكون . وهذا الاركون (الرئيس او الحاكم باليونانية) هو « رب » العهد القديم – الكائن الذي أطلق عليه بليك اسم : اللاحد القديم – ووضحت كتابات الأدريين القديمة هذا التطابق بين الاثنين بأن نسبوا الى ربهم كلمات منتزعة من العهد القديم . ان الزمن بديل شبيه ومزيف للأبدية . لقد خلق « ديمبورج » ستة آخرين من الاركونات لمساعدته في عملية الخلق . انه يجهل الاصل المقدس السامي الذي سقط منه جهلا مطبقا ، ويعتقد نفسه الاله الوحيد . وقام الاركونات السبعة بخلق الانسان ، الذي كانت حالته تراجيدية بشكل مزدوج لانه وقع في شرك عالم خلقه اله مخدوع .

ومع ذلك فثمة ومضة من الامل . هناك شيء ما في الانسان يرفض هذا العالم الزائف ، ويشتاق الى موطنه الحقيقي الاول . واعتقدت احدي فرق الأدريين – تدعى « الاوفيين » (مشتقة من *Ophis* اي افعى) اعتقدت ان الثعبان في جنة عدن كان ممثلا لنوع من الخير المقدس فمنح الانسان نوعا من المعرفة المحرمة حتى يستطيع ان يشرع في مسيرته الطويلة نحو انقاذ نفسه . ان الميزة الرئيسية في القانون الغنوصي (الادري) هو ميله الى تحويل اشرار العهد القديم الى ابطال – من نوع قابيل وعيسو ومن اليهما . وقد احتقر الأدريون المسيحية وكرهوها بقيمهما المزيفة الضيقة المتعصبة ، اكثر حتى مما احتقروا وكرهوا الديانات المتدهورة في بلاد الاغريق وروما .

حينذاك يجد الانسان نفسه في سجن ، ولكن بمعونة الافعى الحكيمة (التي تلعب نفس الدور الذي يلعبه بروميثيوس في الاسطورة الاغريقية) تتاح له فرصة الافلات عن طريق المعرفة (وكلمة غنوصي *Gnosis* تساوي المعرفة) . ان المواطن الحق للانسان هو « النور المقدس » (ويجب ان نلاحظ ان مفهوم النور يلعب دورا هاما في تعاليم اورفيوس وفيثاغوراس ايضا) . ان الانسان باستخدام ارادته وذهنه ، سيحقق الحرية في الوقت المناسب .

(ومن افضل واكثر التعبيرات اكتمالا عن النزعة الادرية ما نجده في رواية دافيد لندساي الرائعة :رحلة الى اركتوروس (عام ١٩٢٠) رغم انه مما يشك فيه ان كان لندساي قد عرف الفلسفة الادرية اصلا) .

وظهرت فيما بعد فرقة من الادريين اسمت نفسها « المانويين » نسبة الى الفيلسوف ماني (١) . بل لقد ذهبوا الى ابعد مما ذهب اليه المانويون الاصليون باعتقادهم ان كل ما ينتمي الى العالم شر ، وان كل ما ينتمي الى الروح بنومما خير . واعتقدوا ان الجنس سييء لانه ببساطة يمد من اجل تجدد Peneuma الخليفة الشريرة ، وان الانسان الموشك على الموت هو انسان محظوظ لانه يكون على وشك ان يفلت من هذا العالم . (وهم قد يساعدون المحتضر بتجويعه ، بل بخنقه احيانا) .

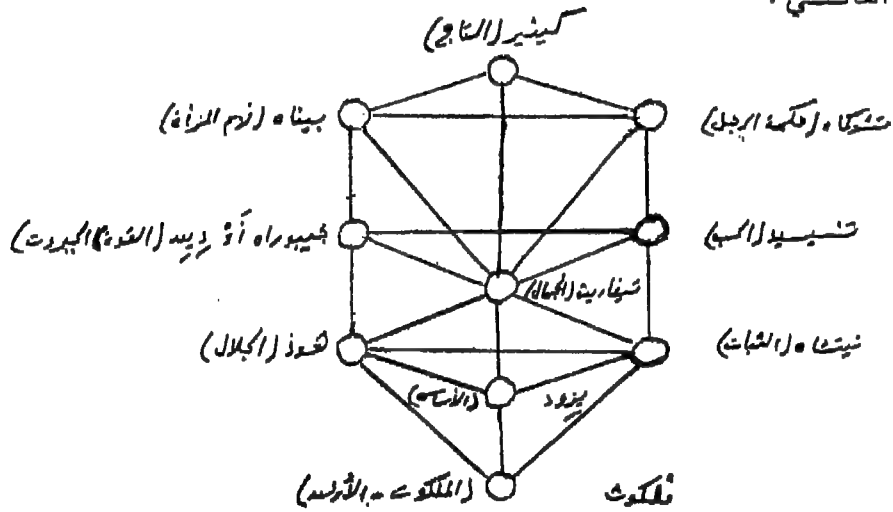
ومن الممكن ان نرى ان النزعة الادرية في جوانب معينة تتفق بشكل اقرب مع النزعة التطورية الحديثة باكثر مما تتفق المسيحية معها . لم تكن المعرفة - عند النزعة الادرية - هي سقطة الانسان ، وانما كانت خلاصة ، ورغم ان هذه المعرفة كانت تعني بالدرجة الاولى « المعرفة المقدسة » او الالهية او الغيبية (الثيوصوفية) فمن المؤكد انها لم تنف ولم تستبعد المعرفة العلمية . على العكس ، ان النزعة الادرية ، تتخللها بكثافة تعاليم فيثاغوراس ، من نزعتيه الصوفية المتعلقة بالارقام الى جانب اعتقاده في التناسخ وفي انتقال النفس من جسد الى جسد .

ومن الضروري عند هذه النقطة ان نتحدث باسهاب شديد عن القبلين الكابالاه Kabbalah (التي تنطق ايضا كابالا Cabela ، او قابالاه Qabalah) طالما انه يبدو الى درجة مؤكدة انها تستمد من تعاليم الادريين . هناك كتابان كبيران للقبلين : « سفر يتزيراه » او « كتاب التكوين » و « زوههار » او « كتاب الاشراق » . ويعتقد ويت Waite ان القسم الاول قد كتب في القرن الثاني بعد الميلاد رغم ان ريتشارد كافنديش ، وهو اكثر تحفظا ، يضع زمن تأليفه بين القرنين الثالث والسادس . ولكن ما جاء في حكايات التراث القديم (الشعبي) يعلن ان تعاليمهم الاساسية ترجع الى زمن ابراهيم ، وعلى ذلك فلا يمكن ان يكون

(١) ماني (او مانيشويوس - مؤسس الديانة « المانوية » في فارس القديمة (نحو ٢١٦م) . وكان من الشخصيات المسيطرة في بلاط سابور الاول . روى عنه الكتاب الصرب والفارس المسلمون قصصا وتواريخ كثيرة متناقضة ، فجاء ذكره في مروج الذهب للمسعودي والشاهنامة للفردوسي ، وادخ له البيروني ايضا . يفترض ان كهنة المانوي قد صلبوه عام ٢٧٧ بعد موت سابور . قال ماني بان العالم يحكمه - ولم يخلقه - الهان متعاديان : اهورامازدا للنور والخير واهريمان للظلمة والشر . ويغني العالم بفنائهما معا . وكان للمانوية تأثير كبير على المسيحية الغربية بمسد القرن الرابع ، بتأثير النسطورية في شمال العراق ، رغم ان المانوية في الاصل كانت تحويرا لذيانات الطبيعة الفارسية القديمة . وقد اعتبرتها البابوية منذ القرن السادس احد الخصوم الرئيسيين للمسيحية الكاثوليكية . (ه . م .)

ثمة شك في انها تمثل مرحلة باكرة جدا من النزعة الصوفية اليهودية . اما كتاب الاشراف (او الظهور) فقد تمت كتابته باللغة الارامية ، في اسبانيا حوالي عام ١٢٥٧ على يد قيلاني يهودي يدعى موسى الليوني . وتكمن اهمية القبلانية في انها واحدة من اقدم مذاهب الفكر الصوفي في العالم . وقد نظر اليها طوال قرون عديدة باعتبارها مفتاح كل اسرار الكون ، وكانت ذات تأثير على كل فيلسوف او مفكر ديني بالفعل منذ مؤسس جماعة الاسينس حتى روجر بيكون .

... واساس كل نزعة قبلانية عبارة عن رسم توضيحي يعرف باسم « الشجرة المقدسة » ، يتكون من عشر دوائر تتصل باثنين وعشرين خطا بالشكل التالي :



والدوائر العشر هي الـ « سفيروث » او تحليلات الرب . وهذا الرسم التوضيحي رسم غنوصي (أدري) بشكل اساسي : وهذا معناه انه يمثل الخلق باعتبارها سقوطا من حالة الالهية المطلقة الى مملكة الارض . تبدأ النفس رحلتها متجهة الى اسفل ، متقدمة عبر عشرة « اجواء » مثل طبقات ثمرة البصل ، منتهية الى حالة من فقدان الذاكرة داخل الجسد الارضي . والصوفية بالطبع ، هي المحاولة التي تبذلها الروح لكي تصل الى الاتحاد بالرب مرة ثانية . وتؤكد القبلانية ان هذا لا يمكن ان يتحقق بالقفز مرة واحدة ، وانما لا بد للنفس ان تشق طريقها عائدة عبر الاجواء التسعة التي تعلوها بادئة بان تفصل بين نفسها وبين الجسد الارضي (وقانون الجسد الوهمي قانون رئيسي بالنسبة للنزعة القبلانية : فكرة ان الانسان يمتلك « جسدا روحيا » او شبحا له نفس شكل الجسد الارضي وامتداده ، يستطيع ان يفصل نفسه ويتعد صاعدا الى اعلى) . ويعتبر كتاب القبلانية - مثل كتابي الموتى المصري والتبتي ، كتابا مرشدا للنفس

في طريقها الصاعد . ولكنه مثل « اي تشينج » كتاب في الحكمة يمكن ان يدرس لما له من قيمة في حد ذاته . وتقول بعض المصادر القوية ان اوراق التاروت الانتين والعشرين انما هي تمثيلات مصورة للطرق الانتين والعشرين ، وبذلك فان اوراق التاروت هي وثيقة قبلانية بشكل اساسي .

وادرالك جوهر الكابالاه عملية سهلة . . ففي القمة يقف « كثير » ، الرب الاخلاق نفسه . وقد يسأل المرء : كيف يمكن ان يعتبر الرب تجلياً لنفسه ؟ والجواب هو ان القبلانيين يفكرون في اسمى شكل من اشكال الرب باعتباره غير ظاهر ولا يمكن التفكير فيه - لا موجود بمعنى الكينونة فيما وراء الوجود ، انه الـ **Ungrund** او « الذي لا ارض له » . وكثير ، الرب ، هو في نفس الوقت تجلٍ لـ « اين سوف » الذي هو هذا الرب اللانهائي . ورمزه ملك ملتج ، مثل زيوس الاغريقي .

وقد طرات على الرب فكرة ، واصبحت الفكرة اصلاً لكل الخلق والخليفة . وانقسمت هذه الفكرة الى اثنين ، واصبح هذان الاثنان « عالم » التشوكان وعالم البيناه . (ولاحظ ان الجانب الايمن من الشجرة مذكر ، والجانب الايمن مؤنث . ويعكس « ويت » هذا الوضع ، ولكن ليس لهذا أهمية) . والتشوكماء او « هوكماء » هو الروح مانح الحياة ، القوة الخلاقة الاساسية ، حكمة الرب ، وهي تنتج بشكل طبيعي نقيضها ، بيناه المؤنثة ، المبدأ السلبي للكون ، الام ، شيء مثل الفكرة الكاثوليكية عن العذراء المباركة .

هذا هو المثلث الاول للشجرة ، الرب يخرج من نفسه المبدأ المذكور الخلاق والرحم المؤنث للحياة كلها . ان التصورات الجنسية تتخلل الكابالاه كلها ، ولن يكون من التجديف او عدم الايمان ان تصور التشوكماء ، والبيناه في صورة قضيب وفرج . ان كرادلي ، في كتابه « السحر في النظرية والتطبيق » يسوى بين البيناه وبين « العاهرة العظمى » . وقد يبدو هذا مناقضاً لفكرة انها ربما تكون قد صورت لكي تكون المقابل المشابه للعذراء مريم . ولكن الكابالاه مليئة بمثل هذه الرموز المتناقضة . وقد يستطيع المرء ان يقول ان كلا من رموزها ، حينما نتأملها من بعد ، فانها تبدو واضحة لا ابهام فيها كالنجم ، ولكنها اذا فحصت عن قرب ، فانها تبدو كما لو كانت مصنوعة من ضباب كالسدخان لا يكف عن تغيير شكله باستمرار . وقد انعكس هذا في بعض الاسماء التي اسبغت على البيناه في قائمة التشابهات التي وضعها ديون فورشن : اما الام القائمة العقيم ، وآيما الام المشرقة الولود ، وخورسيا ، العرش ، وما راه البحر العظيم . وهي ايضا « يوني » ، (الفرج) وكيتيس (وهي كلمة اصطلاحية اوروبية تعني نفس الشيء) وتشاليس ، بينما تكون « تجربتها الروحية » مجرد « رؤية للحزن » تذكرنا بالعذراء .

والثلث التالي من الشجرة هو اكثر مثلثاتها اثارا للاهتمام بشكل ما . هنا يكون الذكر : « هيزيد » او « تشيزيد » هو الحب الحامسي ، الخاصة الاساسية للاب . وهذه الخاصة مرتبطة بالدكاء المتلقي ، وبالقوة التي تخلق الحضارة . كوكبه هو « المشتري » ، جوبيتر ، والرب الاغريقي الذي يرتبط به هو « نبتيون » او (بوزايدون) رب البحار . ولكن من الغريب تماما ان تبلى زوجة في صورة اي شيء باستثناء الانثى . ان جيهورا (او دين) مرتبطة بالمريخ (مارس) ، الحرب ، وبزاحفة اليازيليسك السامة الميتة الخرافية ، وبالقسوة والعنف . وربما كان من الافضل ان تفهمها باعتبارها « كالي » ، الام المقدسة المدمرة في الميثولوجيا الهندوسية ، التي هي في وقت واحد الام الحية للكون ، والرمز المجسد للعنف الفوضوي . لونها هما الاحمر والاسود ، بالاضافة الى البرتقالي ، لون النار . انها العدالة في اكثر جوانبها خشونة . وتتضمن رموزها الملازمة لها السيف ، والرمح ، والسوط والسلسلة . والطاقة والشجاعة والنشاط هي خصائصها الايجابية .

اما تيفاريت ، الزاوية الثالثة من هذا الثلث الثاني ، فيقيم الوثام والصلح بين النقيضين . من المفري ان نفكر فيه باعتباره يسوع ، لان احد رموزه هي الحرب المصلوبة ، ولكن يكاد يكون من اليقين ان هذا الرمز يعود الى العصر السابق على المسيحية . وربما يكون مرتبطا بالاله المشنوق عند فريزر . تيفاريت هو الجمال ، وستطلعنا لمحة سريعة الى الرسم التوضيحي على انه يقف في خط مباشر مستقيم ممتد من الرب الخالق ، كيثير . رمزه التنجيمي هو الشمس . ولا بد من النظر اليه باعتباره نافورة مندفة من الحيوية والدفع .

وفي الثلث التالي (نيتشاه ، هود ، ميزود) نكون قد هبطنا الى صفات هذا العالم وهذه البشرية . نيتشاه هو الثبات والنصر ، وقد يمكن اعتباره رمز الفريزة الحياة في الطبيعة ، بطاقتها التي لا تحد وبقدرتها على تجديد نفسها . وتقول ديون فورشن : « عن طريق الرقص والصوت واللون تبعث وتتحرك ملائكة النيتشاه » وقد وصف جوليان جرينفيل النيتشاه بسطربين من شعره :

والحياة لون ، ودفع ، ونور
واشتياق ابدى لتلك ال . . .

اما مقالته الانثوية ، هود (الجلال والمجد) فهي عالم المالكات العقلية ، ووجه خاص الخيال والدكاء . ويقول كافنديش ان لها ايضا جانبها الشرير - العقل والمنطق - وهو الجانب الذي تحتقره الكابالاه . وهكذا يمكن ان نفكر في « هود » باعتبارها معنى يمزج بين بعض الخصائص التي نجدها عند بليك في رؤيته

وخياله ، مع ما تتميز به الوضعية المنطقية من ضيق الرؤية ومحدوديتها .

اما « ابن » هذين المجالين فهو « يزود » ، مجال القمر (ها نحن نعود الى ربة جريفر البيضاء) . ومن الغريب تماما ان يكون احد رموز « يزود » اعضاء الرجل التناسلية . (واحيانا تعتبر الشجرة كلها كأنها صورة رجل - وهي فكرة استعارها بليك لكتبه التنبؤية - ويعبر هذا المجال ايضا عن اجزاء معينة من الجسد . « يزود » هو مجال السحر . (ولاحظ انه يمزج بين القوى البعيدة العمق للطبيعة - نيتشاه - وبين الذكاء والخيال ، وهي تعبير واضح عن القوى الكامنة فيما وراء السحر) . واوراق التاروت المثلة له هي الاربعة تسعات ، التي تمثل القوة العظيمة ، والسعادة العظيمة ، والمكاسب المادية ، وتمثل ايضا الياس والقسوة ، هي الجوانب السلبية في الربة نفسها .

وآخر المجالات هو « ملكوت » ، الارض . انه مرتبط بقوس قزح وبالقوى المثمرة في الطبيعة . ورمزه فتاة صغيرة ، متوجة ، جالسة على عرشها ، ومن اسمائها « مالكا » اي الملكة ، و « كاللاه » العروس والعذراء . هذا هو عالم التجدد والتوالد ، عالم طاقات الربيع ، ذلك « الثمل » العاطفي الذي تولده بعض النساء الصغيرات دون وهي منهن . (ان فرانك فيدكينه يدعو شخصيته « لولو » باسم : « ايروجيست » اي روح الارض) . اما ويليام بليك فيضع يده على جوهرها - البراءة والفرح الخالص ، في كتابه : « كتاب ثيل » . اما فضيلتها السلبية ، فهي « الكسل » ، ووضوح هذا المغزى لا يحتاج الى اي شروح .

تلك اذن ، هي المجالات العشرة ، قلب الكابالاه ، الجوانب العشرة للرب . وتربط بين العشرة اثنتان وعشرون طريقا ، تتماثل مع المجموعة الكبرى القوية (الاركانا) في اوراق التاروت . والمجالات العشرة نفسها تعتبر طرقا ، فيصبح مجموع الطرق اثنين وثلاثين . ولكل طريق منها رموز عديدة واشباه تماثلها - ولم يكن في وسعي ان اشير الا الى عدد قليل من هذه الرموز والاشباه . . ولاشك ان الكابالاه كانت في الاصل مذهبا خالصا من مذاهب العرافة وقراءة الفيب ، معتمدة على التأمل في الجوانب العشرة للرب . وقد امتزجت مع التنجيم واشكال العرافة الاخرى حتى اصبحت نسيجاً عنكبوتيا معقدا - رغم جماله - من الاشباه التماثلية المتطابقة . ويميل الدين اليهودي الى الخشونة ، والجمود المذهبي والادعاء المفرور ، بقواعده ونظمه واحكامه ، والكابالاه هي جانب الصوفي القيمي والرهباني . . .

اما عوالم المجالات العشرة - التي تنقسم الى اربعة عوالم تتطابق مع المثلثات المذكورة (اتزيلوث ، وبرياه ، وبتزايه ، واسياه) فمن الممكن اكتشافها وجوبها بطريقة ذهنية ، او من خلال النظم الصوفية ، التي تدعوها ديون فورشن «الارتحال

في الرؤية الصوفية « . ويعتقد المؤمنون بالمعارف الغيبية ان النفس ، او الجسد الوهمي او الشبحي ، يمكن ان يتم تحريره من الجسد المادي من خلال الطرق المختلفة للتركيز الشبيهة باليوجا . فيستطيع الجسد الوهمي بعد تحرره ان ينطلق عبر الاثنين والثلاثين طريقا ، والشجرة قبلانية كتاب مرشد كالخريطة، تكتمل بالتعليمات والتحذيرات المختلفة . وتفسر ديون فورشن بعض هذه التعليمات بأنه اذا رأى « الجسد الشبحي » جوادا (رمز المريح) او ضبعاً (رمز القمر) في مجال النيتشاه (الزهرة) فلا بد له ان يعرف ان ثمة اضطراباً في طريقه الهاديء وانه لا يستطيع ان يعتمد على الرؤية المتاحة له . ففي طريق الزهرة ، ينبغي ان يرى الجسد الشبحي حمائم وحيوانا ارقط كالفهد او الوشق (القط البري) ...

وتتعامل فروع اخرى من الكابالاه مع « الجيماتريا » (g) وهو نظام تقابل - او قلب - فيه الكلمات العبرية الى ارقام ، ثم الى كلمات اخرى لها نفس الارقام - والى « كلمات القوة » ، الاسماء المقدسة للملائكة والشياطين في كل مجال والتي يمكن ان تستخدم في عمليات السحر والاستحضار . واكثر تلك الاسماء اهمية هو الاسم الرباعي الحروف : « يهوه » : YHWH ، الذي يظهر في كل الكتابات المقدسة والسحرية ، والنصوص grimoires ، او كتب الاستحضار السحري . لقد ساد الاعتقاد بأن الاسماء كالرموز ، تمتلك خصائص سحرية ، واكثر اشكال « الطلاس » او « الاحجية » تكون قطعة صغيرة من الورق كتب عليها اسم احد الملائكة من القادرين على الحماية . .

... وربما كان ابولونيوس من تيانا قبلانيا ، وقد كان بالتأكيد قريب الصلة من النزعة الادرية (الفنوصية) . ويرتبط اسمه دائما باسم مؤسس واحدة من اكبر المدارس الادرية ، وهو سايمون ماجوس (س او مايمون الساحر) الذي اعطى اسمه لاتباعه فأصبحوا : السايمنيين . وبسبب ما التزمه المسيحيون من حرص وقسوة في تدمير كل وثائق هذه الجماعة ، قاننا لا نعرف عن سايمون الا القليل . وترد اشارة اليه في « اعمال الرسل » في الفصل الثامن باعتباره ساحرا من السامرة ، كان الناس يعتبرونه مشعوذا يصنع بعض الحيل العجيبة . وطبقا لما جاء في « الاعمال » فانه اعتنق المسيحية . والقليل الذي نعرفه عنه مستمد من الكتابات التي تركها مختلف ابناء الكنيسة الذين كانوا يتخذون ازاءه موقفا

(x) *geōmetria* في قاموس القرن العشرين (تشامبرز) ان اصلها اليوناني : *gematria*

وهي اللغة العبرانية الكهنوتية Rabbinical ولم ترد في « المورد » عند البعلبكي ، ولا في « النهضة » عند مطهر . (ه . م .)

عدائيا . (بل انهم جعلوا اسمه اسما لاحدى الخطايا ، الساييمونية ، بسبب الاسطورة التي تقول انه عرض مالا على الرسل لكي يسبقوا عليه مقدرة اتيان المعجزات كاليسيح) .

ومن خلال ضباب الاسطورة والمبالغات ، يمكننا ان نستشف صورة عامة لرجل يتمتع ببعض القوى النفسية الخاصة (كالوسيط) ويكاد يكون فيثاغوريا في حبه للمعرفة . لقد تعلم اسرار سحرية من كهنة مصر ومن كهنة الماجي الفرس (ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء الاخرون هم « الملوك الثلاثة » الذين حضروا ميلاد يسوع في الحظيرة) . وكان تلميذا لدوسيثيوس العربي ، الذي قال عنه الابساء الكلمينتيون انه كان مسيحا كذابا . ومع ذلك ، فانه لا يبدو بالفعل انه كان اسوا من مؤسس فرقة الادريين . اما ان سايمون كان وسيطا ذا قدرات غير طبيعية فواضح من عمليتين « سحريين » يعزيان اليه : القدرة على ان يجعل جسمه يطفو في الهواء ، والقدرة على ان يجعل قطع الاناث الثقيل تتحرك دون ان يلمسها . .

فاذا قبلنا اذن بهذين العمليتين كإمكانية محتملة ، ورفضنا القصص التي تؤكد انه استطاع ان يجعل نفسه غير منظور او ان يحول نفسه الى حيوان ، فسيكون لدينا شخصية فيثاغورية اخرى ، استطاع ان يوازي نفسه بين النزعة الذهبية وبين السحر (وقد قيل ايضا انه كان قادرا على ان يعبر نارا ملتهبة دون ان يحترق ، وكان يوسع الوسيط دانييل دنجلاس هوم في القرن الماضي ان يمسك قطعة ملتهبة من الفحم بيده وهو في غيبوبة الاتصال ، وكان يستطيع ايضا ان يرفع جسده في الهواء بارادته وان يحرك كتلا ثقيلة دون ان يلمسها ، ويقول من ذكروا هذه الافعال ان هوم قام بها مئات المرات طوال اربعين عاما وانه كان يقوم بها في وضوح النهار وفي امكنة خلوية وبالصدفة يستحيل معها اعداد خدع او حيل مسبقة تساعده في اعماله) وقيل ايضا عن سايمون انه استطاع ان يستحضر هيلين الاغريقية ملكة طروادة ثم وقع في غرامها . ويقول اعداؤه المسيحيون ان المرأة كانت بغيا تدمى هيلينا ، جاء بها سايمون من مبفى في صور . ولكن من المهم ايضا ان نذكر ان سايمون اطلق عليها اسم « سيلين » ربة القمر ، وهو ما يكفي لدفع الرمال الى الشك في ان ما كان يجري حقا انما كان صراعا بين المسيحية المذهبية الجامدة وبين عبادة ربة القمر ، الربة البيضاء القديمة .

ويقول اليفاز ليفي ، بخيالياته المعتادة البعيدة عن الدقة : « اصبح سايمون عاشقا لخدمته (هيلين) عشقا مليئا بالانفعال ، وهذا الانفعال يضعف ويزيد صاحبه مجدا في نفس الوقت ، فأعادت اليه حالات الصرع التي كانت تنتابه الى جانب الظاهرة الملهكة التي كان يطلق عليها اسم موهبته في اتيان العجائب . وانطلقت من راسه ديانة خرافية كاملة مليئة ببقايا عصور السحر المتزجة بالاحلام الشبقية

العنيفة ، وراح يطوف البلاد ، حاجا ، مثل الرسل ، حاملا معه هيلين . . »

لقد امكن ان يقال كل ذلك لان هذا هو ما يناسب الاسطورة التي صاقتها الكنيسة من سايمون ماجوس . وطبقا لهذه الاسطورة ، يبدو سايمون بشكلا اساسي كشخصية تراجيدية ، ساحرا اسود كان غالبية سحرة مجرد وهم - الهمة اياه ابو الكذب نفسه . انه يريد القوة والزعامة والنبوة ، ولكن يقتصر الى النقاء وسمو العقل الضروريين (ومن هنا يأتي عرضه لشراء السحر من الرسل) . وتمضي به الاسطورة الى حيث يذهب الى روما فيصبح مقربا من نيرون ، مستخدما الخداع والحيل والتنويم المغناطيسي لكي يدعم وضعه . ويستطيع سايمون ان ينوم واحدا من جراس نيرون ويقنعه في النوم انه قد قطع رأسه عن جسده ، في الوقت الذي لم يكن قد قطع الا رأس ظبي صغير ، وبذلك يقنع نيرون بانه يستطيع ان يحيى الموتى . ويصبح سايمون ساحر البلاط عند نيرون ، ويحتفي اليهود في روما بتعاليمه الفنوصية . ويحاول الرسول بطرس ان يساعد مواطنيه المخدوعين فيذهب الى روما ويتحدى سايمون في مباراة سحرية . ويستحضر سايمون كلابا ضخمة تندفع نحو بطرس الرسول ، ولكن بطرس يجعل الكلاب تختفي بان يبرز في وجهها رغيفا من الخبز المقدس . وحينذاك يرفع سايمون جسده ، ويطير خارجا من النافذة ، ولكن سانت بيتر (القديس بطرس) يجثو على ركبتيه ، وينزل سايمون مرغما بصلاته الخاشعة التي ابتهل فيها الى الرب ان يسقط الساحر . ويموت سايمون بسبب تحطم ساقه ، ويلقى بطرس في السجن بأمر نيرون . (وسوف يهرب بالطبع طالما انه يملك كل الاوراق القوية) .

وليس هناك الا القليل الذي يمكن ان نعرفه من هذه الصياغة المسيحية للقصة ، باستثناء اختيار سايمون لظبي يذبحه لكي يمثل به نفسه ، وعلاقته مع الهروس هيلين ، وهي ما توحى بان المسيحيين ربطوا بين سايمون وبين بعض الطقوس الجنسية الوثنية . ويقول الاسقف « ابرونيوس الغالي » في رسالته رفضه للنزعة الادبية ، ان السايمونيين اعتقدوا بان الحكمة (صوفيا) قد سجت في الارض على ايدي الاركونات السبعة وتعرضت لكل انواع المهانة ، بما في ذلك سجنها في جسد امرأة واجبارها على ان تكون بغيا في بيت للدعارة . فهل يمكن ان تكون حكاية هيلين في قصة سايمون مجرد مصادفة ؟ ام هل عبد السايمونيون امرأة باعتبارها تجسيدا للانوثة الابدية وربما كانت تشير الى نشوة الجماع الجنسي بالاشارة الى اصلها المقدس الالهي ؟ ان العادة المسيحية التي تقضي بتدمير سجلات التاريخ تعني اننا لن نعرف الحقيقة ابدا . ان معرفتنا بالادريين تبقى معرفة عامة وغامضة : اننا نعرف ان السايمونيين قد مارسوا

السحر ، وان الثيرابوتيين (١٤) قد مارسوا نوعا من العلاج الروحي ، وان الكنعانيين نظروا نظرة متعاطفة الى يهوذا ، وان سيرينثوس ، قائد السيرانثيين ، ربما كان هو مؤلف سفر الرؤية الذي ينسب عادة الى القديس يوحنا . ولا يمكن ان يكون هناك سوى شك قليل في ان الادريين قد حافظوا على الكثير من تقاليد الاورفيين وافكارهم ، وانهم لذلك يقفون في نفس الخط المستقيم من السلسلة التي جاء منها السحر الغربي وتراثه في العصور الوسطى .

لقد وجد المؤرخ جيبون شيئا من الصعوبة في كبت سخريته حينما كان يكتب عن المراحل الاولى من تاريخ المسيحية فقال : « ان قوانين الطبيعة كانت كثيرا ما تهجر وتطرح جانبا لصالح الكنيسة » . وحينما تدرس الوثائق المرتبطة بتلك المراحل ، سيكون من الصعب الا نشعر بنفس الاحساس . لقد كانت المسيحية وباء اكثر منها دين . لقد اعتمدت على الخوف والهستيريا والجهل . وقد انتشرت في العالم الغربي ليس لانها حق ، وانما لان البشر سذج يسهل انخداعهم مؤمنون بالخرافات . ان رواية « كوفاديس » التي كتبها شاينكويتز ، تطلعت على جماعة من النفوس العظيمة تتحدى وتقهّر روما الجبارة لانهم كانوا يمتلكون حقيقة اسمى من تلك التي يمتلكها الوثنيون . ولكن قد يكون من الاكثر دقة ان نفكر في المسيحيين الاوائل باعتبارهم حركة جماهيرية قريبة الشبه من حركة ييللي جراهام او شهود يهوه . ثمة شيء منفرد وكره في الطريقة التي يمتدحون بها انفسهم بنفس الحماس الغبي الذي يميز اعلانات التليفزيون . لقد تم اختراع قطمان بكاملها من الشياطين بهدف اثبات ان القديسين يستطيعون التغلب عليها بقليل من الصلوات . ففي قصة مثل قصة الساحر سيبريان ، الذي اصبح «سانت سيبريان » فيما بعد ، وهي القصة التي وردت في كتاب « الاسطورة الذهبية » يتفاخر الشيطان بكلام كثير : « لقد بددت الفوضى في السموات ، وطرحت الملائكة على الارض ، وخدمت حواء . . وصبغت الارض بالدماء . . انا الذي غرس فكرة صلب المسيح » وما الى ذلك . ويعلق الكاتب قائلا : « يقول كل هذا ، دون ان يعرف الملعون المسكين الضعيف ، ان قوة المسيح لا تقهر » (١٥) وهذه صورة نموذجية لنفخة الكتاب المسيحيين الاوائل . انهم يبدون غير مدركين ان اعطاء مخلصهم صفات السوبرمان الكوميدي ، فانما هم بذلك يقضون على اي نوع من الاهتمام الرياضي في الصراع ، ويجعلون الناس الذين يملكون شرارة الاستقلال يشعرون بان الافضل لهم ان ينحازوا الى الشيطان . ان سيبريان يريد من الشيطان

(*) Therapeutae ثيرابوتيا : فرقة تقليدية من النساك اليهود ، كانوا مرتبطين بجماعة الاسينس وعاشوا اساسا على شاطئ بحيرة مربوط جنوبي الاسكندرية . (ه . م .)

(١٤) اوردها ١٠م . بظر في : خرافة المايجوس ، اوكسفورد ، ١٩٤٨ ، ص ٨٩ .

ان يساعده على التفجير بفتاة تدعى جوستينا ، التي كانت قد تحولت الى المسيحية واصرت على ان تبقى عذراء ، ورغم ان انطاكية كلها يجتاحها طاعون مهلك (تقهره الفتاة في سنته السادسة عن طريق الصلاة) فانها تظل منيعة على هجمات الشيطان ، واخيرا يعترف الشيطان بأن « المصلوب اعظم من الجميع » ويقرر سيبريان ان يصبح مسيحيا .

ليس الغرض من هذا الكلام ان يكون اتهاما للمسيحية بوصفها هذا ، فالدين يقيم بأسمى تجلياته وما يجسده ، لا بأكثرها هبوطا . اما كل انواع الدعاية فالمقصود منها ان تؤثر في ذوي العقول الضعيفة ، ولا تستثني من ذلك سير القديسين والكتابات الدعائية المسيحية . ولا بد ان تقيم المسيحية بمتصفاتها وبالترعات التصوفية فيها ، وليس بما تحتويه من « نصب دينية » اذا امكن ان نستخدم هنا عبارة مارلو . وربما كان اكثر الاعتراضات التي وجهت الى المسيحية اساسية هو اعتراض نيتشه : انها تمجد الفضائل السلبية . لقد اجتهد القديس اوغسطين لكي يبتكر المقابلة بين « مدينة هذا العالم » وبين « مدينة الرب » عبر ما يقرب من الف صفحة من كتابه الاكبر . ويحمل هجومه على المدينة الارضية قوة الاقناع ، فهو يرسم كبرياءها ، وغرورها وقصر نظرها ونفعيتها - وباختصار ، عبوديتها للشخص وحده . ويتوقع المرء من مدينة الرب ان تكون مدينة يحكمها الاندفاع صوب غير الشخصي بواسطة الرؤية والقدرة على الخلق . وبدلا من هذا يتحدث اوغسطين عن التضحية بالذات ، والطاعة ، والتواضع ، والعفة . وكلها فضائل سلبية . وفي ظل هذه الظروف ، لا يكون من المدهش ان المسيحيين الاوائل قد امضوا معظم وقتهم في الشجار فيما بينهم ، وفي احراق « الهرطقة » ، وفي اختراع قصص يملأها الهراء عن الشياطين . ان قراءة اي كتاب من كتب التاريخ المسيحية المبكرة - مثلا كتاب جون كاسيان : « مؤسسات الحياة الرهبانية » الذي كتب حوالي ٤٠٠ ميلادية ، يعني التخبط عبر مناقشات طويلة عن الاخطاء والخطايا - الدوافع الشهوانية ، والشبق ، والزهو الزائف ، والكبرياء وما الى ذلك . انه يصف اللامبالاة *accidia* (١) - مرض الملل الذي أصيب به او بلوموف - ويصف العمل اليدوي له علاجا . ان الرهبان الذين ينفقون اكثر وقتهم في هذا الوضع السلبي للعقل ، كانوا يحولون عقولهم الى برك آسنة عطنة .

... وقد كان اوغسطين على حق في اعتباره افلاطون اهم رائد وثنسي للمسيحية ، لان افلاطون ، كان اول من عبر عن الفكرة القائلة بان النفس تعيش كل

accidia

(١) هكذا كتبها ويلسون ، وفي قاموس القرن العشرين ، الكلمة لائينية

لا مبالاة ، عدم اهتمام . (ه . م .)

زمانها في محاولة تحرير نفسها من الجسد ، وان الموت لهذا السبب : « اكتمال لا بد من الاخلاص في الرغبة فيه » (٢) اما الاغارقة الاقدم عهدا ، فانهم لم ينظروا الى النفس ابدا باعتبارها عدوا للجسد بشكل ما، كانت النفس *Pneuma* هي نفحة الحياة ، ولكن الشبح الذي هبط الى العالم المادي الاسفل كان بشكل ما نسخة مطابقة من الجسد ، والمبدأ الذي بث فيه الحياة ، وليست عدوة له . لقد حدث بشكل مفاجيء تماما ، وبعد اربعة آلاف سنة فقط من الحضارة ، ان اصبح الانسان واعيا بنفسه *Soul - Conscious* مدركا بوجود جزء من ماهيته ذهبت الى ما وراء الجسد وشؤونه اليومية . ولقد كانت احتياجاته حتى ذلك الحين بسيطة : الطعام والشراب والامن وقدر معين من الاثارة . ولكنه راح يرداد مما يمكن ان يسمى « الاحتياجات العليا » ، الاحتياج الى توسيع وتعميق الوعي . ولكنه لم يفهم هذا ، لم يكن يملك المفاهيم اللازمة لادراك ما يحدث . ومثل يسوع نفسه ، لم يكن قد بشر ابدا بالتاكيد بحرب تشنها النفس ضد الجسد . انما بشر بالحب الكوني ، بمبدأ العون المتبادل . وكان اكتشافه هذا رأيا شائعا او عقيدة سائدة اكثر منه اكتشافا مبتاعيا . كان هو المبدأ الاقتصادي لتقسيم العمل .. كان يسوع يؤيا تنبأت بملوكوت الرب على الارض ، واراد ان يقنع البشر بان يتصرفوا كالألهة لا كالحوانات . لم يكن يحمل مقنا للجسد بوصفه جسدا ، وكان على استعداد كامل لان يأكل مع العامة ومع الخاطئين . لقد كان القديس بولس هو من اخترع دين النزعة الخلاصية الذي اعتمد على تعذيب الذات والذي ازدهر اعتمادا على الهستيريا واثارة العواطف الحادة . ولقد تصادف ان تناسب مع احتياج الجنس البشري عند تلك النقطة من التطور ان يتم رفض « الذات السفلي » التي تعيش وتموت كالحوان . وانه لمن الممكن ان تقبل القول بأن « الولع بالصليب » الذي اخترعه سانت بول كان واحدة من اعظم الكوارث التي نزلت بالبشرية : كظل اسود هائل من التعصب ، والشمولية الكاملة تجعل الشيوعية تبدو لطيفة لا ضرر منها اذا ما قورنت بها . كان ما احتاجه الانسان الغربي في تلك اللحظة دينيا ايجابيا . وقد قشلت ديانات الاغريق وروما لانها افتقرت الى الجدية والعمق . وكانت الانسانية تحلم على الدوام برؤية الحرية . كان البشر في قبضة الامراض العصابية التي تسببها الحضارة . وكان ما يزال في وسع غرائز الانسان ان يتذكر الايام التي عاش فيها على صيد الدب والرعي في المراعي الشاسعة . كان كطفل في السنة الاولى في المدرسة يشاق الى ايام اللعب والحرية . واتخذ الاشتياق شكل الحنين المرضي للعودة الى نوع من العصر الذهبي . وقد فازت المسيحية على الاديان المنافسة لها وابعدها ببساطة عن

(٢) من مونولوج « هاملت » في مسرحية شيكسبير « الحياة ، ام الموت .. تلك هي المشكلة » .

هـ . م .

طريق تقديم حلم تناسب بشكل او بآخر مع هذا الحنين . وقد كان من الممكن نديانة ديميتير او ديانة اوفوريوس اليونانية ان تكونا منافسا خطيرا ، ولكنهما كانا قد فقدتا حيويتهما عبر القرون ، كما انهما اعتقدا بالتناسخ على اي حال ، وكانت فكرة الولادة من جديد ، مرة بعد مرة الى الابد والمجيء بالتالي مرات لا نهاية لها الى الارض فكرة اقل اشباعا من فكرة الجلوس الى يمين يسوع في فردوس ارضي . اما دين ميتراس ، الرب الشمس ، فكاد ان يكون متطابقا مع المسيحية في عناصره الاساسية : المخلص ، وقدر هائل من النعيم (او النعمة على الكافرين) - وكاد هذا الدين في لحظة معينة ان يحل محل المسيحية في الامبراطورية الرومانية . ولكنه كان يفتقر الى حماسة المؤمنين الجدد التي تميز بها المسيحيون الاكثر شمولية ، فقاموا في الوقت المناسب بطرده وتصفيته بالكفاءة النفاذة المعتادة . ولا بد لنا ان نتذكر ان الديانة ، الديونوزيسية قد احرزت مثل هذه القبضة القوية ، بشكل جزئي - لانها اعلنت مثل تلك التهديدات المربعة : فقد هددت من يعارضها بان يفقد عقله وان يجن وان يلتهم اطفاله وما الى ذلك . . . وقد استخدمت المسيحية ، بمعرضها الشيق المليء بالشياطين والابالسة والاقزام الشريرة - وهو المعرض الذي كان عدم الايمان بوجوده خطيئة - استخدمت نفس تلك الوسائل القاسية ، فلم تتحطم قبضتها القاتلة الا في عصر جاليليو ونيوتن .

لقد كانت المسيحية كارثة . ولقد كان من الممكن ان تكون افضل لو ان الدين العظيم لعصرنا كان اكثر ايجابية ، شيئا اكثر قربا الى اورفيوس او ديونيزيوس . ولكنه - بالمعنى التاريخي - كان ما يزال يمثل خطوة ضخمة الى الامام بالنسبة للجنس البشري . فلأول مرة في تاريخه العنيف ، اعتقد قسم كبير من البشر اعتقادا كاملا بفكرة جامدة لم تكن مرتبطة بحياتهم اليومية . ولهذا الامر اهمية بالغة التفرد . ذلك ان الحياة اليومية كما لاحظنا من قبل ، توقع الانسان في شرك صندوق صغير اسمه : الحاضر الناعم ، وهي تدمير احساسه بالهدف البعيد المدى بنفس الكفاءة التي يسلب بها « القماء الاسود » من الصقر شراسته . . . وهكذا ، قرغم ان الكثير يمكن ان يقال ضد المسيحية ، فلا بد ان نعترف بانها امتلكت فضيلة رجحت كل الاخطاء . فقد حولت القسم الأعظم من البشرية الى مخلوقات ذات هدف معين . فاذا كانوا قد آمنوا بشكل حرفي بالابالسة ، فانهم قد آمنوا ايضا باللائكة والسماوات .

كانت القرون العشرة الاولى من تاريخ المسيحية هي الانحدار الى الحضيض بالنسبة للساحر . لقد آمن الجميع بالسحر ، بالطبع ، ولكنه كان يعتبر الملكة الخاصة بالشيطان . . . وظهرت اسطورة كان لها نفوذ هائل على العصور الوسيطى ، كانت تدور حول قسيس يدعى ثيوفيلوس . ولما كان من الواضح انه

مخلوق بالغ الفقر من الناحية الروحية ، فقد رفض عرضا قدم اليه لكي يكون اسقفا على اساس خوفه من المسؤولية ، ولكن الرجل الذي قبل المنصب راح يعذبه حتى اشرف على الموت . واتصل بثيوفيلوس يهودي عجوز شرير (وكسان اليهود في ذلك العصر هم كبش الفداء) استطاع ان يستحضر الشيطان . ووافق ثيوفيلوس ان ينكر مريم ويسوع (اللذين قال عنهما الشيطان انهما يعاديانه) وفي مقابل هذا الانكار انقلبت حظوظ ثيوفيلوس ، فخلع منافسه ، واصبح هو اسقفا في مكانه . ولكنه بدأ يخاف على خلاصه الابدي ، فراح يصلي للعداء مريم ان تهب لمساعدته . وفي الوقت المناسب استطاعت ان تحصل على عفو من الرب عن ثيوفيلوس ، الذي اعترف بخطيئته علنا ، ثم مات بعد ذلك بوقت قصير في جو من الزهد والثبات الروحي ، بعد ان احرق شريكه الشيطان .

لسبب ما ، لمست هذه القصة السخيفة عواطف المسيحيين طوال الف عام (ويحدد ١٠٠ م . بطر التاريخ بانه يمتد من ٦٠٠ الى ١٦٠٠ ميلادية) . وكانت هذه هي القصة الاولى من نوعها : خادم من خدم الكنيسة يتواطأ مع الشيطان ، ويقترب من اللعنة الابدية (وهي فكرة كانت تثير الرعدة من الرعب في قلب كل انسان) ، ولكنه ينتهي بالابتهاال الى العداء المباركة ، التي كانت قد تحولت بالفعل الى رمز للحنان والرحمة في الكنيسة . وكان من الممكن صياغة تعديلات من هذه القصة لا نهاية لعددها : فتصور انواع المهانات التي يتعرض لها ثيوفيلوس على ايدي منافسه الناجح ، والحيل السحرية التي يقوم بها الشيطان لخلع الاسقف المنافس ، ومخاوفه وندمه . كانت القصة « تحتوي على كل شيء » كما قد يقول منتج من منتجي هوليوود . وكانت هذه القصة هي البداية لتراث القصص المشابهة ، التي تبلغ ذروتها بقصة فاوست واسطوره . كانت ديانات الشامانات القديمة قد نسيت تماما . فاذا تصادف واكتشف احدهم رسوما من العصر الحجري على جدران احد الكهوف تصور السحرة المرتدين الاقنعة ذات القرون ، لكان من الطبيعي ان ينظر اليها باعتبارها دليلا على ان البشر القدماء كانوا خاضعين لسلطة الشيطان قبل ان يأتي يسوع من السماء لكي يخلص الجنس البشري .

ولم تعد المسيحية دين المقهورين بعد تحول الامبراطور قسطنطين (عام ٣١٢ م) ، وفجاءه اصبح المسيحيون هم « الكلاب الغالية » وشرعوا في قهر غيرهم بكفاءة بحسدهم عليها يبرون نفسه . وبامر من اسقف الاسكندرية (الذي يؤيده الامبراطور ثيودوسيوس) احرقت مكتبة الاسكندرية - التي كانت تضم - بين اشياء اخرى - مجموعة الكتب الخاصة بأرسطو . كانت المعرفة شرا ، لم يطرد آدم من الجنة لرغبته في ان يعرف ؟ الى جانب ان الباحثين في المكتبة كانوا

موضع شك في انهم يمارسون السيمياء ، وهي محاولة تحويل العناصر الخسيسة الى ذهب واكتشاف حجر الفلاسفة ، سر الحياة الابدية . ولكن السيمياء اكتسبت قدرا كبيرا من الاحترام في الوقت المناسب بأن اعلن اصحابها ان البحث عن حجر الفلاسفة كان رمزا لبحث المسيحيين عن الاتحاد الصوفي بالله .

امبراطور بارز واحد فقط هو الذي حاول ان يقف وقفة حازمة ضد هذا الدين السلبي السام الذي كان يغزو الغرب ، ذلك هو الامبراطور « جوليان » الذي عرف باسم « المرتد » ابن اخت قنسطنطين . وكان جوليان مثقفا باحثا حسن التريية رقيقا ، بالغ الهدوء وحب العزلة حتى لقد استطاع ان يفلت من الاغتيال بايدي ابناء قنسطنطين ، فبلل محاولة قوية للتخلص من المسيحية بعد ان ارتقى العرش عام ٣٦١ . كان طموحه ان يستعيد عبادة الارباب الوثنيين ، وان يأتي بديانة مיתراس (عبادة الشمس) محل المسيحية كدين رسمي . وفي رسالته الى ساللوسـت Sallust : « عن الشمس السيد الاعلى » يتحدث عن : « الاشتياق الغريب الى الاشعة الشمسية » الذي تملكه عن طفولته ، ويضيف انه استطاع بطريقته الخاصة ، ودون مساعدة من المعلمين او الكتب ، ان يتعلم « العرافة باستخدام الاجرام السماوية » اي انه تعلم التنجيم . ولسوء الحظ ، فان جوليان ، رجل السلام ، وقع في خطأ محاولة ان يصبح محاربا ، فمات اثناء حملة في فارس ، بعد عامين فحسب من ارتقاؤه العرش . وقام صديق مدرسته القديم ، اسقف القسطنطينية (جريجوري نازيانز) بكتابة « رسالتين في ذم جوليان » . ولكن جوليان كان قد ابدى تجاهه عطفًا من نوع خاص عظيم ، ولذلك كان جريجوري مضطرا الى ان يبتكر دوافع شريرة في تبرير هذا العطف . وعلى كل الوجوه ، كان موت جوليان المبكر مأساة بالنسبة للغرب كله . ولو انه كان قد عاش قدر ما عاش اغسطس ، اول الاباطرة ، لكان العالم قد اصبح مكانا افضل واكثر عقلا . ولقد استطاع ابسن في مسرحيته « الامبراطور والجليلي (١) » ان يدرك بعضا من اهمية جوليان ، ويجب ان يقرأ هذه المسرحية

(١) الامبراطور والجليلي . آخر مسرحيات ابسن التي استمدتها من التاريخ والاساطير ، وآخر مسرحياته الشعرية . انها مسرحية ذات اتساع ملحني ، تدور حول الصراع بين المسيحية والوثنية ، وهي ايضا تراجميا البطل الذي يشك في نفسه . يستمع الامبراطور جوليان المرتد الى نبوءة من عراف من مجيء امبراطورية ثالثة (غير الاسكندر واغسطس) لن تكون وثنية خالصة ، ولا مسيحية خالصة . ولكن جوليان يرتد عن المسيحية ويعاود احياء الوثنية ، ويفشل لانه من المستحيل ان يبعث الى الحياة « مثلاً اعلى » كان قد سقط من قبل وتمزق ، ولان عمليات التعذيب الجماعية لا تؤدي الا الى اذكاء شعلة المسيحية ، بالاضافة الى شكوكه هو الذاتية ، ومخاوفه من الفشل . (هـ . م)

كل من يهتم بالامبراطور الفيلسوف (وكان الامبراطور الفيلسوف الآخر ، ماركوس اوريليوس ، قد اضطهد المسيحيين وعذبهم قبل جولييان بقرنين كاملين ، وقد اخذ اعداؤه هذا عليه دائما ، ولكن يبدو ان الحقيقة تبين ان العقول المتوازنة الرشيدة ، مثل عقل جولييان وماركوس اوريليوس ، لا بد ان يزعجها ما فسي المسيحية من خرافة وهستيريا وتطرف عاطفي) . ان فكرة وجود امبراطور مثل جولييان ، تطول به الحياة ، لمن اكثر الاشياء التي « كان لا بد ان توجد » والتي تثير الاسف لانها لم تتحقق في التاريخ الغربي .

كان امتداد الحياة بمثل هذا الامبراطور ، سيؤدي بالتأكيد الى فارق هائل في تاريخ السحر . فالوثنيون لم يكونوا يشعرون بالرعب من السحر ، لانهم لم يكونوا يربطون بينه وبين الشيطان (او شبيهه الوثني : ست ، اهريمان .. الخ .) اما في ظل المسيحية ، فقد اصبح السحر : « السحر الاسود » ، واصبحت قوته مستمدة من الابالسة ، بدلا من ان تكون مستمدة من قوى الانسان الخبيثة . كانت المسيحية تستشيط غضبا وتفقد صوابها في كل ما يتعلق بالسحر . ولكن « السحر » ملكة انسانية ومن الممكن تطويرها كأي ملكة اخرى . ولكن في ظل المسيحية ، اصبحت مظاهر الوساطة ، والحاسة الثانية الى آخر هذه المظاهر ، تعتبر دليلا على الوقوع في قبضة الابالسة او على تدخل الملائكة . اصبح « المنظورون » على هذه القدرات ، والتهيثون لاكتسابها اما رجالا مقدسين واما شعائرة ودجالين . واصبح الراهب الذي يتصادف ان يمتلك قدرة على الاحساس بما لا يحس به العاديون من الناس ، عرضة لان يجد نفسه موثقا الى عامود الاحراق او يعلق قديسا بين القديسين .

ومن الامثلة على هذه الحالة الاخيرة ، سانت جوزيف من كوبرتينو ، او « الراهب الطائر » ، الذي اكد الكثيرون من الشهود اعماله الخارقة، والذي كان اشهرها القدرة على الطيران ، والذي شهد الطبيب الذي عالجه على سيرير موته في سن الستين ، ان جسده كان يبعد عن الفراش مسافة ست بوصات ، وكان قد اصبح قسيسا فرنسيسكانيا في سن الثانية والعشرين بعد ان عمل بالرعي واشتغل سائسا في احد الاصطبلات ، والذي تكاد معظم القصص عن حوادث « طيرانه » ترتبط بحالة معينة من الفرح . ويبدو ان طيرانه كان مرتبطا بالحالة التي يدموها الهندوس « سامادهي » اي « النشوة » ، رغم انه كان مولعا بتجويد نفسه وجلد جسده بالسياط ، وان هذه الاعمال - لا معجزة الطيران - هي التي منحتها مرتبة القداسة .

فماذا يمكن ان نفعل ازاء مثل هذه الظاهرة ؟ قد يكون ملائما لو اننا استطعنا ان نصرف النظر عن الامر كله باعتباره حزمة من الاكاذيب او من الهوس

الجماعي او التنويم المغناطيسي الجماعي . ولا شك اننا نستطيع - على هذه الاسس - ان نزيح جانباً ٩٥ بالمائة مما ينسب الى القديسين من معجزات دون ان نشعر بوخر الضمير (ومن الامثلة النموذجية في هذا المجال ما ينسب الى سانت دانستان من جالستونبري ، الذي قيل انه دفع كنيسة بيده فقير وضعها) . ولكننا لا نستطيع ان نخطيء الدليل القاطع ، لانه مقنع واضح . لقد شاهد اعمال سانت جوزيف ملوك ودوقات وفلاسفة (او فيلسوف واحد على الاقل هو لايبنتز) فحينما اقترح الاساقفة تنصيبه قديساً ، بدأت الكنيسة تحقيقاً في مسألة طيرانه وفي الحوادث المذكورة عنها ، وحصلت الكنيسة على المئات من الشهادات عن مئات من الحوادث . وقد اصبح قديساً بعد اربع سنوات من موته .

... لقد استطاع الاب جوزيف ان يطير . ولا يمكن ان يكون ثمة شك في ذلك . وقد لا يكون ثمة معنى للتساؤل : وكيف يمكن ان نفكر هذا ؟ لاننا لا نستطيع حتى ان نبدا في فهم العناصر والادوات والقوى والطاقات المشتركة في مثل هذه العملية . . وقد يعزو بعضهم هذا العمل الى الارواح ، وقد لا نشك نحن في ان اعمال الاب جوزيف ترجع الى قدراته هو الخاصة . ولكن اكثر المواقف قرباً من العقل هو افتراض ان كل الناس قادرين - احتمالاً - على الطيران واتيان الاعمال الاخرى التي قام بها سانت جوزيف . هناك خطأ اساسي في الطريقة التي يدرك بها البشر العالم . اننا نفكر في العقل باعتباره شيئاً عاجزاً مشلول الارادة وسط عالم من المادة الجامدة ، مجرد ملاحظ او متفرج سلبي . اننا نتبنى رأياً سلبياً في انفسنا وفي العالم ، غير مدركين للمدى الذي تصل اليه سيطرتنا على الاشياء التي لا تبدو الا انها « تحدث » فحسب . .

ومن الممتع هنا ان نسجل ان دوق برونزويك ، رفيق لايبنتز في رحلاته وراعيه ، تحول الى الكاثوليكية بسبب طيران الاب جوزيف . واقول ان هذا ممتع لاننا نكاد نكون واثقين من انه لم يكن هناك اي ارتباط بين معتقدات الاب جوزيف ، وبين قدراته الخاصة كإنسان . .

في عام ١٩٢٣ ، كتب توماس مان ، الذي كان في ذلك الحين واحداً من اشهر كتاب اوربوا ، مقالاً بعنوان : « تجربة في معرفة الغيب » وصف فيه حضوره لجلسة استحضار للارواح مع الوسيط ويللي شنايدر ، وهو مساعد طبيب للاسنان كان في التاسعة عشرة من عمره . وكان مان قد امسك بمعصمسي شنايدر اثناء الجلسة ، ثم يصف انتواءات جسمه الغريبة وتصيبه عرفاً ، مثل امرأة في لحظة الولادة . او مثل عرافة دلغي . ثم طارت في جو الحجرة الناديسل والاجراس ، وصدحت الموسيقى من صندوقه موسيقى ، وضربت مفاتيح آلة

كاتبة تحت « تفر » الاصابع الروحية لمرشد يدعى مينا . ويشهد مان قائلا : « ان اي خداع ميكانيكي او الاعيب » خفة اليد « كانت مستحيلة على اي انسان » . لقد كتب مان مقاله بوصفه شككا متفتح العقل ، لم يشر اهتمامه بعلوم الغيب من قبل تجربته ، ولم يكن له بها اي اهتمام بعدها . لقد اكتفى بان وصف في صراحة ما كان قد رآه ، وكانت نظريته هي ان الظاهرة قد حدثت بواسطة عقل الوسيط ، الذي استطاع بشكل ما ان يحول احلامه (وكان شتايدر غارقا في النوم) الى حقائق موضوعية . وبالنظر الى طبيعة شهادة مان التي لا يمكن ان تكون موضع شبهة او شك ، فقد يحق للمرء ان يتخيل ان الصحفيين في العالم كله سيداون البحث عن كيفية حدوث هذا النوع من الظواهر واسباب حدوثها . ولكن لم يفعل منهم ذلك احد - على الاقل خارج دوائر « الروحانيين » . ولو ان الشهود كانوا اشخاصا من نوع البابا واسقف كانتربري ، لما كان هناك اي فرق . فالحكاية لم تكن تستطيع ان تثير الاهتمام ، وان تناسب او تتداخل مع ما هو قائم قبلها ..

والتحدي المطروح هو ان تصبح تلك الظواهر « متداخلة » مع ما هو قائم ، مثلما جعل انيشتاين حركة براون والقباض فيتزجيرالد تتداخل مع ما هو قائم ، بصياغة نظرية النسبية . وقد عبرت الكلمات التالية عن محاولة مان لتقديم تفسير ما : « لقد كان هيجل هو الذي قال ان الفكرة ، الروح ، هي المصدر النهائي لكل الظواهر ، وربما كانت فيسيولوجيا المافوق طبيعي اكثر ملاءمة من فيسيولوجيا التكوين الطبيعي على اثبات ما قاله . وقد يحق للمرء ان يوسع من نطاق هذا التفسير بالقول بانه ليس للبشر فكرة عن مدى انغماسهم غير الواعي في ظاهرة حياة كل منهم . اننا قد نقبل الفكرة القائلة بان عقلي اللاواعي يستطيع ان يجعلني انسى مظلة في منزل معين اريد ان اعود لزيارته ، ولكننا لن نقبل الفكرة التي تقول بان هذا العقل - في ظل ظروف معينة - قد يستطيع ان يجعل المظلة تطير في الهواء .

اما اذا كانت القوى التي جعلت سانت جوزيف يطير في الهواء كالبالون والقت خاتما احسن به توماس مان يلمس وجهه هي قوى تستطيع ان تنقل الحركة من بعد ، او ما اذا كان بوسع سانت جوزيف وويلي شتايدر ان يوقرا بشكل ما الطاقة اللازمة لموايل فوق المستوى البشري ، فهذا امر لا يجرؤ احد على ان يقطع فيه برأي في المرحلة الحالية . ولكن ان تكون تلك القوى هي بشكل احتمالي ، تحت سيطرة كل انسان ، فلا يمكن ان يكون في ذلك شك ..

.. ولقد كان الكنيسة موقفان مختلفان في حادثتين تشبهان الى حد كبير حادثة سانت جوزيف . تتعلق الاولى بالراهب يوهان يتزر ، السويسري الذي عاش

في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر ومات في الربع الاول من القسرون
التاسي ، والذي زعم انه يرى اشباحا لرهبان موتى ، وان الاشباح تكلمه ، فطلب
منه زملاؤه (الدومينيكان) ان يسأل الاشباح في موضوع خلافي حاد بينهم وبين
الفرانسييسكان : هل تعتبر العذراء ، كابنها المسيح ، متخلصة من الخطيئة الاولى كما
يقول الدومينيكان ، ويعارضهم الفرانسييسكان . ووصلت المسألة عن طريق
الاشباح الى العذراء شخصيا ، التي جاءت بنفسها بصحبة القديسة باربارا وبعض
الملائكة لكي تعلن ان الفرانسييسكان هم المخطؤون ، وانها متخلصة من الخطيئة
الاولى ، لانها تجسّد لقوى الهية وليست من بني البشر . واكتشف يوهان ان
في الامر خدعة ، وان رئيس الدير وكبير الشمامسة واحد الرهبان كانوا يتنكرون
في ازياء مختلفة يساعدهم في ذلك راهب رابع . وحاكمتهم البابوية ، واحرقتهم ،
ولكن يوهان حرم وطرده من خدمة الكنيسة .

وكانت الحالة الثانية متعلقة بالاب فاشير ، الذي عاش في ميرابو بالقرب من
بواتييه ، وكان شخصية مرموقة في الكنيسة الكاثوليكية ، وصديقا للبابا نفسه ،
وكان في الخمسين من عمره تقريبا حينما بدأت صورة للمسيح في كنيسة
الصفيرة تدمى من اليدين والقدمين ، وحينما نقلت لكي تفحص في روما توقف
النزيف ، وبدأت عيون الصورة تبكي . وحدث اكثر من مرة ان تسبب دخول الأب
فاشير مكانا فيه صورة اوتمثال للمسيح في نفس النتيجة . واعلن اسقف بواتييه
ان الاب فاشير مخادع ، وصدر الامر بحرمانه وطرده من خدمة الرب ، رغم ان الكثيرين
من « المفكرين » كانوا قد بداوا ينتبهون الى فكرة التأثير النفسي الخاص للانسان
وقدرة العقل البشري على نقل تصوراتهم وتجسيدها في الجمادات والاشياء ، فقالوا
ان الاب فاشير هو الذي يحدث هذه الظاهرة بنفسه في صور المسيح وتمائيله ،
بشكل غير واع بالطبع . . وهذا يعني القول بأن الظواهر قد تكون حقيقية في كل
حالات « المعجزات » ولكنها لا تبرهن على شيء معين فيما يتعاق بالدين ، وانما
هي تبرهن على قوة اعتقاد الناس بما يحدث وبمضمون الظاهرة نفسها . لقد
نصب جوزيف من كوبرتينو قديسا ، ودمغ جيتزر بالنصب والخداع ثم طرد من
الكنيسة ، وجرم الاب فاشير وابعد وطرده . ولقد كان من الممكن ان يكون منطقيا
بنفس الدرجة لو انهم جميعا قد اصبخوا قديسين ، او انهم ربطوا الى عامود
الاحراق واشعلت فيهم النار . ولكن حالة الاب فاشير لا تثبت الا ان الكنيسة
قد اصبحت اكثر حذرا واكثر عصبية مثلها مثل رجال العلم في التعامل مع ما
لا يمكن تفسيره .

يؤكد كل هذا صعوبة رسم خط فاصل بين الظواهر الطبيعية وتلك التي
تبدو فوق مستوى الطبيعة . وفي حالات شهيرة ، مثل القصص التي تروى عن

سيطرة الشياطين على راهبات «دير ايكس ان بروفينس» وراهبات دير لودان) وقد وصفها الدوس هكسلي بعقريّة في روايته : شياطين لودان) ، يستطيع المرء ان يكون واثقا تماما من ان « الشياطين » لم تكن موجودة بالمعنى العادي ، وانما كانت الراهبات المسوسات مؤمنات بوجودها الى حد اليقين . وفي الحالتين المذكورتين ، اتهم احد القساوسة بانه هو السبب في اللعنة التي جعلت الراهبات يتقلبن على الارض ، ويصرخن ويجدفن . وفي الحالتين ، كان القسيس المتهم هو قسيس الاعتراف لفتيات صغيرات ، افتصبهن ، ثم تحولن بعد ذلك الى راهبات . ولكن الراهبة التي اتهمت احدهما ، وتدعى مادلين دي بالود ، وهي مراقة في الثامنة عشرة ، اعترفت في المحكمة بان كل اتهاماتها للاب جودفري كانت خيالات واوهاما ، وانها كانت تحب الاب جودفري حبا قويا ، وان اردافها وفخلديها كانت تتحرك حين تراه حركة مفضوحة . ولكن المحكمة رأت ان الاب جودفري قد تجسده الشيطان ، فاحرقته، كما احرق قبله القسيس جرانديير بسبب تهمة مماثلة ..

وربما كان الاعتقاد بوجود قطعان كبيرة من الارواح والابالسة هو ما يمكن اعتباره المساهمة الرئيسية التي قدمتها المسيحية في دراسة السحر . ويذكر جوزيفوس كتابا يضم الرقى والتعاويذ والترايم اللازمة لاستحضار الابالسة كان يستخدم منذ القرن الاول الميلادي . وكان يفترض ان مؤلف هذا الكتاب هو الملك سليمان الذي يبرز اسمه في اساطير علوم الغيب بوصفه ساحرا كبيرا . وهناك كتاب في السحر يدعى « مفتاح سليمان » ويحتل المكانة الثانية بعد الكتاب الاسطوري : « اقراص الزمرد » الذي الفه هيرميز ترميزميجيستاس (هيرميز المثلث العظمة) باعتبارهما اشهر النصوص المرجعية في السحر ، ويوجد كتاب هيرميز في اشكال عديدة ، والسبب في تعدد اشكاله غريب وهام : فلا بد لكل من يريد ان يستخدم نصائحه ان ينسخه بيده ، وان النص المطبوع بالمطبعة ان تكون له ابة قيمة . (وهذا اعتقاد تؤمن به احدث الساحرات) . ويوضح هذا - الى اقصى حد ممكن من الوضوح ان الضرورة الاساسية في عملية العرض السحري هي عقل الساحر نفسه . عليه ان يدخل في علاقة عميقة وحميمة مع النص الذي يستخدمه ، لان « قواه هو » هي التي سوف تستخدم وليس القوى الكامنة في الكتاب . وبنفس الطريقة ، لا بد للساحر من استخدام ادواته السحرية الخاصة التي يصنعها بنفسه : بما فيها القلم والحبر ورشاقة الماء ودواة الجبر وخلاطة الرمل والبخور والشموع ، كما ان عليه ان يصنع بنفسه سكاكينه وسيفه وفأسه وما الى ذلك . وعليه ان يزود تلك الاسلحة بمقايض خشبية منحوتة . وعليه ايضا ان يختار وان يلقن جماعته واتباعه ومساعديه . ولا بد من صناعة مقايض الاسلحة من خشب شجرة البقس الصلب ، وان يقطع الفرع الذي ستصنع منه

المقابض بضربة واحدة . وقد يقوم من يريد ان يكون ساحرا بجولات واسعة في الغابات ، يقطع فيها كميات هائلة من الاغصان ، قبل ان يعثر على الفصن الصالح ، افرضه ، أو يتحطم السيف في يده . وقبل ان يشرع في اعماله السحرية ، عليه ان يصوم تسعة ايام وان يلتزم بقواعد مختلفة كثيرة . وتبدأ الطقوس بالدوران حول محيط دائرة سحرية يرسمها بالسكين ، ثم يرسم في الدائرة رموزا معينة من الكابالاه . ويدبح حمل ويسلخ ، يستخدم الجلد المسلوخ المدمى غطاء لرموز منحوتة تشبه الحروف .

اما عملية الاستحضار الشعائري نفسها فتستغرق حوالي ساعة ، وتتضمن تهديدات توجه الى الارواح اذا هي لم تظهر . ولكنها في خلال ذلك ، وطبقا لما يصفه كتاب « مفتاح سليمان » لا بد ان تكون قد ظهرت . بعضها يرتدي ثياب الجنود ، وبعضها في ثياب انبياء ، واخيرا يأتي الملك نفسه بصحبة السحرة . وعند هذه اللحظة ، وبعد ان يقدم نفسه وهو يحرق البخور مبينا بعض الرموز لذلك (الذي يفترض انه الشيطان نفسه او على الاقل احد ممثلي الجحيم الاصفر شانا) ، بعد كل ذلك يستطيع الساحر ان يطلب ما يريد : سواء كان معلومات عن المستقبل ، او بعض المساعدة من الابالسة لانجاز بعض الخوارق . ويكرر اسم الرب واسم يسوع عدة مرات لابعاد الارواح وترويضها . ويجب الا ينتهك احد الدائرة السحرية ، كما يجب ان تكون الدائرة محكمة الاغلاق ، والا فقد تهاجم الابالسة الساحر وتمزقه اربا ..

ولكن من اجل ان نفهم الروح المسيطرة للسحر الذي ازدهر بشكل غير متوقع في القرن السادس عشر ، (ولا شك ان السنوات من ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ كانت هي قرن السحر) فلا بد ان نفهم شيئا عن النزعة الصوفية التي ألهمت هذه الروح وحركته . ذلك انه لا يمكن ان يقال كثيرا ان جوهر السحر وجوهر النزعة الصوفية هما جوهر واحد ، فالفرق الحاسم هو ان السحر يقع عند الطرف الأدنى من الطيف ، وتقع النزعة الصوفية عند الطرف الأعلى . ولكن السحر والنزعة الصوفية كلاهما محاولة للوصول الى التناغم مع « القوة الداخلية » للإنسان . ان افلوطين ، الذي عاش بين ٢٠٥ الى ٢٧٠ ميلادية ، لم يكن مسيحيا ، ولكن تأثيره على المتصوفة المسيحيين كان هائلا . وقد قارن البشر بمجموعة من المنشدين واقفين حول المنشد الاول ولكن انتباههم ينشئت بفعل ما يجري حولهم وما يبدو امامهم من الاشياء ، وهكذا يفسلون في الغناء بنغمة واحدة او بالتوقيت الصحيح . وقد اعتقد افلوطين ان الخليقة كانت سلسلة من الخطوات المؤدية الى البعد بالتدرج عن « الواحد » او (الرب) ، وقد اطلق على هذه الخطوات اسم « فيوض » . (وقد استعار القبلانيون فيما بعد افكاره ، مثلما استعار

ويليام بليك الكثير بعد ذلك من الكابالاه) . ولا شك ان هذا الراي راى غير مسيحي بشكل قاطع ، ذلك ان الشر عند افلوطين شيء سلبي ، يعتمد على عدد الخطوات التي ستخطوها مبتعدا عن « الواحد » ، انه شيء يشبه من يسير مبتعدا عن منزل اضيئت انواره في الليل ، متحركا نحو الظلمة المتزايدة في الحديقة . ولكن لماذا ينبغي ان يسير الناس مبتعدين عن « الواحد » ما لم يكن ذلك بسبب الشيطان ؟ يقول افلوطين ان ذلك يرجع الى اننا فارغو العقول ، يسهل تشتيت انتباهنا . والفيلسوف هو الانسان الذي يستطيع بعزم ان يتجاهل ما يشتت الانتباه واشكال التعدد ، ويحاول ان يبحث وان يرى طريقه للعودة الى الواحد . ويختتم افلوطين قائلا : « تلك هي حياة الالهة واشباه الالهة من البشر ، تحرير من كل الروابط والقيود الارضية ، حياة لا تجد متعة ولا لذة في الاشياء الارضية ، وطيران من الوحيد الى الوحيد » .

هذه هي الفكرة المسكرة في قلب النزعة الصوفية ، وعلى الرغم من الاختلاف الظاهري في الهدف ، فانها ليست بعيدة عن النشوة المقدسة عند اصحاب الديانة الديونيزيسية . انها الاحساس بان هذا العالم المتبدل الذي يلوح لنا اننا قد الصقنا به ، هو عالم يمكن الافلات منه . اننا جميعا في وضع شخص « دائخ » يدور حول نفسه بعد حادثة مخيفة ، لا يعرف الى اين يتجه - فهو في نصف وعيه فقط . اما المتصوف فهو الانسان الذي « وصل الى .. » جزئيا . لقد ابصر لمحة خاطفة من المعنى الحقيقي للحياة والموت .

وكان ديونيزيوس الاروباجيتي واحدا من اقدم المتصوفة المسيحيين واوسمهم نفوذا ، وكان يظن انه هوديونيزيوس الذي دخل المسيحية على يد القديس بولس ، ولكنه ليس هو نفس الشخص بالتأكيد . وكتابات المتصوفة تأخذ شكل التأملات حول موضوع « الرب » الذي يعرفه ديونيزيوس ، بطريقة افلوطين والقبلايين باعتباره نوعا من العتمة المقدسة والفراغ . فكيف يمكن ان يكون هذا الرب هو الرب الشخصي للمسيحيين ؟ يفسر ديونيزيوس ذلك بان الرب هو مصدر الخير والجمال ، بينما يظل هو وراءهما ومن فوقهما . ويثبت ما كان لديونيزيوس من تأثير ونفوذ هائلين ان المخلوق الذي كان الى وقت غير بعيد نوعا من القردة ، قد اكتسب « أشواقا مقدسة » مثل خنفساء تحاول ان تتحول الى فراشة . ويؤكد كل المتصوفة ما في التجربة الصوفية من سلام وصمت عميقين . تتحدث القديسة كاترين من سيبينا عن الامتزاج ب : « محيط من الراحة » . ويبدأ ميسيتز ايكهارت اغنيته الاولى باقتباس من « حكمة سليمان » يقول : « أبرهة يقلف صمت السكون الهاديء كل شيء .. » رغم انه لا علاقة مباشرة بين هذه العبارة وبين بقية الموعظة . ويقول سانت جون الصليبي ان الاستنارة تأتي : « في صمت وراحة ،

بعيدة عن كل ما هو مادي ملموس وطبيعي . اما جيرترود من هلفتا ، فتصف كيف حدثت استنارتها حينما كانت : « تجلس على حافة بركة الاسماك وتأملت جمال المكان ، وليونة الماء المنساب ، والخضرة العميقة للاشجار المحيطة ، وطيران الطيور الحر والحمائم بوجه خاص ، ولكن قبل شيء ، تأملت الهدوء الساكن للمنظر المنعزل الذي ملأني بالبهجة » . يختفي « التوتر اللاواعي » الذي ناقشته في الفصل الثاني ، ولا يعود العقل عرضة العشى ، ولا للفليان المكتوم ، ينبع سلام هائل في اعماق العقل مثل نبع يارد ، وفيما يشبه الصدمة المفاجئة ، يلمح الانسان امكانياته الخبيثة في نظرة خاطفة .

انها مجرد خطوة واحدة بعيدا عن « المسيحية الخفية » او « مسيحية الخاصة » نحو عالم السيميائي والمنجم . يكتب البتروس ماجنوس الذي عاش بين ١٢٠٦ و ١٢٨٠ قائلا : « سيعيش السيميائي في وحدة كاملة ، بعيدا عن البشر . وعليه ان يكون صامتا كتوما . . » . ولا بد له ايضا ان يختار « الساعة الصحيحة للعمليات » وهي ساعة ان تكون الاجرام السماوية في اوضاع مناسبة . ويضيف فيلسوف ودارس لعلوم الغيب - فيما بعد - في خطاب موجه الى كورنيليوس اجريبا : « مع السوق ، لا تتحدث الا عن الاشياء السوقية ، واحتفظ لاصدقائك بكل سر من المرتبة السامية » . وكان هذا الفيلسوف ، صاحب هذا الخطاب ، هو تريشيموس ، الرجل الذي تروي الحكاية القديمة انه التجأ الى دير بندكتي في عاصفة ثلجية ، فاصبح عاشقا للهدوء والعزلة في الدير حتى انضم الى جماعة الرهبان البندكتيين ، ثم اصبح رئيسا للدير فيما بعد .

ويشترك السحر في مبدأ اساسي آخر مع النزعة الصوفية : فكرة : « كما هو فوق ، كذلك تحت » ، وهي العبارة التي تنسب الى هيرميز تريسيميغاستاس . في النزعة الصوفية ، تعني هذه العبارة ان النفس والرب شيء واحد . ولكن نفس المبدأ يصبح في السحر اكثر تعقيدا بكثير . فالانسان هو « الكون الاصغر » ورمزه نجمة خماسية (البنتاكل) ، والعالم هو الكون الاكبر ، ورمزه هو النجمة السداسية (او المثلثان المتداخلان - رمز سليمان) . وقد رأى دارسو علوم الغيب في العصور الوسطى وفي عصر اصلاح آلاف الروابط غير المرئية تربط بين الكون والانسان (وقد اعتقد باراسيلسوس على سبيل المثال ان هناك ارتباطا بين الاعضاء السبعة للجسم وبين الكواكب السبعة) . فاذا استخدمنا مصطلحات علم التشريح الحديث ، لا يمكننا ان نقول ان العلاقة بين الفرد وبين الكون تشبه العلاقة بين كريات الدم البيضاء وبين الجسم كله : انهما تكوينان عضويان منفصلان ، ولكنهما بالتأكيد غير مستقلين الواحد منهما عن الآخر ، وهدف كل منهما متجه نحو خدمة الجسم كله . وقد يشعر الانسان بالانفصال عن بقية الكون ، ولكنه ليس

كذلك ، طبقا لما تنص عليه تعاليم علوم الغيب ، فثمسة آلاف « التشابهات » والارتباطات بين الانسان والكون الاكبر . وما كان باراسيلسوس ليتسطيع ان يجد اي غرابة في فكرة دافيد فوستر عن « الكون الذكي » حيث تستطيع الاشعة الكونية ان تحمل معلومات يمكنها ان تؤثر على حاملات الخصائص الوراثية (الجينات) لقد كان ذلك بالتحديد هو ما عناه بعبارة : « كما هو فوق ، كذلك تحت » .

كان ذلك اذن هو المفهوم الكامن وراء كل السحر الذي ازدهر في « القرن السحري » ، من ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ . « الانسان عضو في حسد الكون » .

وتلاءمت المعتقدات السحرية الشائعة مع هذه الفكرة . ان القديس البرنوس ماجنوس نفسه ، وهو مفكر ديني وقور ، اكثر منه دارسا لعلوم الغيب (وقد نصب قديسا عام ١٩٣١) يشرح باسهاب كيف يمكن ان تستخدم مختلف الاحجار الكريمة للاغراض العلاجية والاخلاقية : فالجهشت يريد القدرة على التركيز ، والزمرد يوحى بالعفة ويغرسها في النفوس ، والعقيق يقوي الانسان ويبعد الاشباح والافاعي . ومن الاعشاب ، يعطى البتل القدرة على التنبؤ ، اما « رمى الحمام » فهو منشط للحب . اما شجرة الحمى فتشفي من المرض والحمى ، ويشفي نبات الكبد كل امراض الكبد . وكان هناك معتقد شائع يقول بانه اذا جرح شخص بضربة من اداة مادية : سكين او بلطة او صخرة ، فلا بد ان تعالج الاداة نفسها ايضا من الجرح الذي تسببت فيه .

... فماذا اذن عن حجر الاساس الاخر للسحر ، وهو الايمان بالنجوم ؟ كيف يمكن ان يتم الوفاق بين هذا الايمان وبين المعتقدات الشائعة الآن ؟ كان جوهان كبلر ، مؤسس علم الفلك الحديث ، يكن بغضا واحتقارا عنيفا للتنجيم ، ربما لانه كان ملزما بان يصنع تقويما سنويا ، مزودا بالتنبؤات اللازمة ، كجزء من واجباته الرسمية في بلاط « جراتز » في العقد الاخير من القرن السادس عشر . وقد تضمن تقويمه الاول تنبؤات بمجيء شتاء قارس البرودة ، وبغزو يقوم به الاتراك . وفي عام ١٥٩٤ كان البرد قارسا لدرجة انه مات بسببه الكثيرون ، واجتاح الاتراك البلاد من فيينا الى نيوشتات . وكتب لبلكر يقول : « تتصرف « السنوات » مع الانسان في خلال حياته بنفس طريقة الحبال المعقودة التي يلفها الفلاح بشكل اعتباطي حول ثمرات القرع الصغيرة في حقله ليحميها من السقوط ، انها لا تساعد الثمرات على النمو ، ولكنها تحدد شكلها النهائي » .

ربما كان علم رجال من نوع البرتوس ماجنوس وكورنيليوس اجريبا وباراسيلسوس ، علما فجاءا مليئا بالاطفاء والثغرات ، ولكنه كان قائما على اساس من هذا الاعتراف الفريزي بالروابط النفسانية بين الانسان والطبيعة . اما علم

نيوتن ، وهايجنس ، وبريستلي فكان اكثر دقة الى درجة لا تقارن ، ولكنه نان قد فقد الاعتقاد بالروابط غير المرئية . وقد غير كيركجارد عن هذا الاحساس بعدهم بقرنين كاملين حين كتب يقول : « اين انا ؟ ومن انا ؟ وكيف حدث ان اصبحت هنا ؟ وما هو هذا الشيء الذي يسمى بالعالم ؟ واذا كنت مضطرا الى ان اشارك فيه ، فإين المسؤول عن كل شيء ، اذا كان علي ان اقوم بدور ، فأين المخرج ؟ اريد ان ارى المخرج . . » . كان قد نشأ الاحساس بالطرد والنبذ ، عاجزا ، معلقا في الهواء جافا كبقية من شيء مهمل .

اما دارسو علوم الغيب في القرن السادس عشر ، على الرغم من كل سخافاتهم ، فكانوا يعرفون شيئا نسيه كيركجارد .

ولم يكن عالما علوم الغيب الكبيران في القرن السادس عشر ، كورنيليوس اجريبا وبارسليساس « ساحرين » بالمعنى انخفي او الخالص للكلمة ، انما كان الاثنان دارسين وباحثين متجولين اكثر منهما فيلسوفين . وكان باراسيليساس هو صاحب العقل الاعظم بين الاثنين .

ويبدو ان اسم اجريبا الحقيقي كان هنري كورنيليس ، وقد ولد في كولونيا عام ١٨٤٦ . ويؤكد صاحب ترجمة قديمة له ، وهو هنري مورلي ، انه سليل اسرة من النبلاء تدعى « فون نيترشايم » ويتخذ اخرون رايأ اكثر ميلا الى الشك ، بقولهم انه اتخذ اسم اجريبا فون نيترشايم ، متشبها بؤسس كولونيا (وعلى اسم قرية بالقرب من كولونيا نفسها) . وعلى اي حال فقد كان ابواه ميسورين بما يكفي لتعليمه في جامعة كولونيا التي كانت قد تأسست منذ وقت قريب .

كان متصوفا بطبيعته ، مفضلا افلاطون على ارسطو ، ودارسا لفلاسفة النزعة الافلاطونية الجديدة . افلوطين ، وايمبليكوس ، وبروفيري ، وبروكولوس . وكان يشترك مع الاخير في بعض الاشياء ، ذلك ان بروكولوس (السدي عاش بين ٤١٠ ، ٤٨٥) كان افريقيا شابا وسيما وثريا ، اعتزم ان يتخصص في القانون ، ولكنه اصيب بحمى الفلسفة فكرس نفسه لدراستها ، فكان آخر الافلاطونيين العظماء . وقد اكد بروكولوس ان الوعي الانساني يستطيع ، في حالة اشبه بالجنون المقدس ، ان يقفز الى « الواحد » الكامن في قلب كل الاشياء ، فيصبح متوحدا معه . وقد تأثر اجريبا بهذا الرأي تأثرا عميقا ، وهو الرأي الذي عثر عليه ايضا في الكابالاه ، الذي كان قسمه الاكبر ، تحت عنوان « الاشراق » او « الظهور » ، وهو كتساب الخلق ، قد كتبه يهودي اسباني يدعى موسى الليوني ، حوالي عام ١٢٨٠ . ويتحدث كل من بروكولوس والكابالاه عن عدد من « الفيوض » او « التجليات » تنبثق من الرب اللانهائي المطلق ، ويتحدثان عن طريق مشتبكة معقدة ، يستطيع الطامح الى المعرفة ان يستكملها من اجل ان يقترب من الرب .

ولقد خدع اجريبا ، فقد كان يفتقر لسوء الحظ الى مزاج الفيلسوف . كان في اكثر جوانبه رجلا من رجال عصر النهضة ، بدنياميكيته ، وولعه بالمغامرة : وتطلعه اللانهائي الى المعرفة . كان يمتلك الاشتياق الحار الى الاستنارة الصوفية ، ولكن دون ان يمتلك المزاج اللازم للوصول اليها . وتبدو حياته تراجيدية بشكل اساسي . الى جانب ان العصر الذي عاش فيه كان اكثر انبساطية وولعا بالظواهر واكثر غليانا من ان يسمح بالكثير من الهدوء والسلام لرجل له مثل مزاجه .

في سنوات عقده الثاني ، ترك اجريبا انطبعا قويا في كولونيا ، فكان لغويا جيدا وقارئا لا يشبع نهمه ، (وكانت الطباعة قد اخترعت قبل مولده مباشرة) . وحينما اصبح سكرتيرا خاصا لماكسيميليان الاول ، ملك روما والمانيا ، بدا الامر انه يوشك ان يبدأ حياة عملية لامعة وممتازة . ولكن بلاط الامبراطور الروماني المقدس لم يكن هو المكان الملائم لدارس باحث . واستخدمه ماكسيميليان في اعمال التجسس ، وارسله الى باريس وهو في العشرين من عمره . وفي جامعة باريس اتصل اجريبا بعدد من اصحاب الارواح الطيبة ، من دارسي علوم الغيب والفلاسفة . وهناك التقى بنبيل اسباني يدعى جيرونا ، كان في طريقه الى مقابلة ماكسيميليان . وكان جيرونا يواجه مشكلة خطيرة ، فقد كان يواجه ثورة او تمردا قام به الفلاحون ، وطردوه من مزرعته واملاكه في قطالونيا . وقرر اجريبا ان يساعده .

اما قصة قيامه بهذه المساعدة ، او محاولته لقيامه بها ، فتقدم عددا من اكثر الصفحات اثارة في الترجمة التي كتبها موراي لحياة اجريبا ، وتستحق ان نلخصها هنا - في سطور قليلة . لكي نحصل على فكرة ما عن شخصية اجريبا القوية العزيمة . . . فالقصة تحتوي على مغامرات ، وتكتيكات عسكرية ، واعمال حصار واختراق للحصار ، وبحث عن عملاء وهرب وسط الاعداء ، وتعامل مع الخونة واختيار للمخلصين . . . ومع هذا فان القصة تنتهي بأسر الفلاحين لجرونا وقتله . وبذلك تضيق كل شجاعة اجريبا ويضيع كل تصميمه وقوة عزمته هباء . وليس هذا سوى الصورة النموذجية لحياته . فانه لم يكن مخلوقا للنجاح الحقيقي .

ولن تكون ثمة فائدة من محاولة استقصاء رحلات اجريبا حول اوروبا - من برشلونة الى ماجوركا ، الى ساردينيا ، الى ايطاليا ، الى افينيون فيلونس قدول ثم الى تشالون سيرسوان ، ثم العودة الى دول حيث التقى اجريبا محاضرات حول مذهب الباحث في العبريات ، ريوشلان ، وهو قبلاني آخر .

لقد سحرت « الكابالاه » اجريبا ، ليس فقط بسبب جوانب التصوف الغيبي فيها ، وانما بسبب تعاليمها « السحرية » ايضا ، وبوجه خاص بسبب علم الارقام فيها المعروف باسم « جيماتريا Gematria » . ففي اللغة العبرية ،

تتمتع كل الحروف بقيمة عددية . وكانت الحروف في اي كلمة « تجمع » الاعداد التي تعبر عنها ، وكانت اي كلمة تضاف اعداد حروفها تعتبر ذات علاقة خاصة بالكلمة الاولى . وبذلك ، اذا اراد متخصص او ممارس للجيماتريا ان يعرف ما اذا كانت فتاة معينة تصلح لان تكون زوجة طيبة ، فانه يجمع الاعداد التي تمثلها حروف اسمها ، فاذا كان الناتج مماثلا للنتيجة جمع الاعداد التي تمثلها حروف كلمة « عاهرة » او « مرفقة » ، فان هذا سيؤدي الى حكم سيء جدا بالنسبة لها . فاذا كانت الفتاة خبيرة بالجيماتريا ايضا ، فانها تستطيع ان ترد عليه بان عدد حروف اسمها يماثل عدد حروف كلمات « الحكمة » او « الفضيلة » ايضا . وقد انفق مارتين لوثر (١) واعدائه وقتا طويلا في تبادل تحويل اسمائهم الى كلمات مهيينة وبذيئة بواسطة الجيماتريا .

وادی قيام اجريبا بالكشف عن هذه الاسرار في جامعة دول السى كسبه للكثيرين من المعجبين ، وحصوله على درجة « دكتور في الالهيات » وبعض النقود في شكل راتب ثابت . ووقع في الحب ، ويبدو انه كان يأمل في الاستقرار تحت حماية ابنة ماكسيمليان « مارجريت اوف غنت » . بل انه كتب مقالا بعنوان: « نبالة النساء » لكي يتلقاها . ولكن اهتمامه بالكابالاه اكسبه عداة الكثيرين بين الرهبان ضيقي الافق ، وقام احد الرهبان من الاخوة الفرانسييسكان بشتمه علانية من فوق منبر الكنيسة بينما كانت مارجريت جالسة وسط المصلين في القداس . وكالعادة ، تبخر خط اجريبا وضاع من يديه ، فاضطر الى الانتقال الى انجلترا .

(١) مارتين لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) مؤسس الكنيسة البروتستانتية الالمانية ، والمؤسس الاول لوحدة الامة الالمانية من خلال توحيده اللغة ومقاييس التمييز والعبادات الدينية ، بترجمته الكتاب المقدس الى الالمانية (العهد الجديد ١٥٢١ ، العهد القديم ١٥٣٢) في بداية تزمه لحركة الاصلاح ضد البابوية والكنيسة الكاثوليكية في روما . كان راهبا في ويتنبرج ، ومن خلال مناقشاته هناك ، خرج باسئلته الخمسة والتسمين حول « قيمة العبادات » ودفعها بالسامير على ابواب الكنيسة (٢١ اكتوبر ١٥١٧) ثم اعلن بطلان الزعم بسمو البابا على البشر ، فحرره البابا وامر بحرق كتاباته ، فرد لوثر باحراق قرار الحرمان علنا ، وقرر الدفاع عن آرائه امام « محكمة وورمز » العليا التي اعلنته « عدوا للامبراطورية المقدسة » لكي تستعدي عليه الامبراطور . وهناك ادى لوثر صلاته الشهيرة : هنا اقف ولافني . ولا املك شيئا آخر . ليكن الله في عونى . « ثم شرع في تنظيم الكنيسة الجديدة وكتب « حول العهد الرهبانية » وقام بترجمة الكتاب المقدس في اثني عشر عاما . كان لوثر اول انعكاس ديني منتصر لانتهيار العصور الوسطى الاطعمية وبداية مجتمع الدولة القومية البورجوازي الحديث . ولكن تركيزه الشديد على المسالة الدينية وحدها ، ورفض البعد السياسي الموضوعي لحركته ، دفعا الى تمزيق المانيا لا الى وحدتها السياسية . (هـ . م) .

وفي خلال هذا الوقت ، كان قد انجز كتابه الاكبر ، الذي يقع في ثلاثة مجلدات ، تضم بحثا كبيرا حول: « فلسفة القيب ومعرفة » ، رغم انه كان على هذا البحث ان ينتظر اكثر من عشرين عاما قبل ان يحصل على فرصة النشر . ولا شك انه كتاب جدير بالانتباه بالنسبة لمؤلف لم يعد عامه الرابع والعشرين . وهو يبدأ بتقرير واضح يقول فيه انه ليس للسحر علاقة من اي نوع بالشعوذة او بالشیطان ، وانما تقوم العلاقة بينه وبين مختلف المسواهب الغيبية - التنبؤ ، والحاسة السادسة ، وما الى ذلك . ومن فصول المجلد الاول النموذجية فسي دلالتها على الكتاب ، فصل بعنوان : « عن النور والالوان والشموع والمصابيح ، وعما تنسب اليه مختلف الالوان من العناصر والمنازل والنجوم » . اما « المنازل » فانها تعني بالطبع علامات خريطة ابراج السماء ، ولكل كوكب منزلا ، احدها للنهار ، والآخر لليل . ولكن الفكرة الرئيسية في عقيدة اجريبا ، هي ما يبينها في بداية الفصل الثالث والستين : « ان للخيال ، او للقدرة على التخيل ، قوة حاكمة في انفعالات الروح ، حينما تكون تلك الانفعالات مرتبطة بالمدركات الحسية . » وهذا يعني القول بانه حينما تكون انفعالاتي مرتبطة باشياء مادية محسوسة ، بدلا من ان ترتبط بافكار ، فان خيالي يبدأ في لعب دور كبير في مشاعري وفيما احس به . ان قدرا قليلا من الانقباض ، يرسل معنويات الى الحضيض ، واصبح ضحية ارجوحة من الانفعال العاطفي . والجملة التالية على شيء من الغموض ، ولكنها تزيد من اتساع هذه الفكرة : « ذلك ان (الخيال) بالفعل ، واعتمادا على نفسه ومن تلقاء نفسه ، وطبقا لتنوع الانفعالات ، يغير - قبل كل شيء - الجسم المادي بطريقة التحول والانتقال التجسدي المعقول ، عن طريق تغيير الحوادث القائمة في الجسم ، وبتحريك الروح صعودا وهبوطا ، الى الداخل والى الخارج . » انها لجملة جديرة بالملاحظة من حيث انها كتبت في عام ١٥١٠ . انها لا تعترف فحسب بالمدى الذي يمكن للبشر ، وخاصة للافبياء منهم ، ان يكونوا ضحايا للايحاء الداتي ، وانما تعترف ايضا بان تلك الاهواء تؤثر بشكل مباشر على الجسم . اننا نلتقي دائما في ادبيات الرهبان والنسك هذه الفكرة القائلة بان جسد الانسان اكثر اعتمادا على ارادته مما يظن الانسان نفسه ابدا . ويمضي اجريبا الى محاولة ابراز ان العشاق يمكن ان يعرفوا مثل تلك الرابطة القوية حتى ان احدهم يشعر بمرض الآخر . ويقول ان الناس يمكن ان يموتوا من الحزن ، حينما تكف الارادة عن العمل . ومن الممكن ان نقارن بين تعاليم اجريبا هذه ، وبين ما اكده باراسيلسوس ، الذي يصغره بسبع سنوات ، من ان : « الخيال القوي العزيمة هو بداية كل الاعمال السحرية » ومن انه : « من الممكن لروحي . . ومن خلال ارادة مصممة قوية فحسب ، ودون سيف او خنجر ، ان تطعن الآخرين وان تجرحهم . » وقد يكون ما تقول به الجيماتريا وعلم التشابهات هراء خالصا وقد لا يكون كذلك (وقد يكون فيها ما هو اكثر مما تقابله العين الناضرة) . ولكننا نتعامل هنا مع

رجال كانوا سحرة لانهم كانوا « شامانات » ، مالكين لنوع من القدرات النفسية الخاصة . من الحق اننا لا نمتلك دليلا مباشرا على ما يلي : ليس هناك حكايات عن القدرات الكشفية المتعلقة بالتنبؤ او بالحاسة السادسة . ولكن هناك الكثير من الحكايات حول القدرات السحرية التي امتلكها كل من اجريبا وباراسلياس ، ولكن ليس فيها ما يمكن النظر اليه بشكل جدي . ولا بد لنا ان نتذكر اننا نعالج عصرا كانت القدرة العامة على التصديق فيه شيئا لا يمكن سبر اغواره ، وكان لا بد لاي قصة ان تكون خيالية لكي تستطيع ان تحرك حاجبا فوق العيس . ان ذلك النوع من الاحداث الذي يمكن الان ان يثير اهتمام « جمعية البحوث النفسانية » - مثل الرؤية السابقة ، واطياف الاجساد الحية ، واثبات المعجزات ، والتواصل عن بعد - اقول ان مثل هذا النوع من الاحداث كان يمكن ان يصرف عنه النظر ويلقى جانبا باهمال باعتباره شيئا اشد تفاهة وغباء من ان يعاد سرد حكايته . وتتميز كل القصص التي جاءتنا عن اجريبا بالحسية وبالطابع المادي فيها . فهو يدفع لاصحاب الفنادق نقودا تبدو من الذهب الصحيح غير مزيفة ولا منقوصة ، ولكنها تتحول الى اصداف حقيرة فيما بعد . وهو يصاحب كلبا اسود اللون ولكنه في الحقيقة جني يرافقه كخادم خاص ، وذات يوم يخاف اجريبا ان يكون الكلب قد سقط نهائيا في قبضة الشيطان ، فيأمره بالابتعاد عنه لكي يتركه ، فيجري الكلب ويفرق نفسه في نهر ساون . وهو يستحضر روح الواعظ الشهير « تيلي » لكي يلقي احدى مواعظه امام ناخب ساكسونيا ، فيبكي كل المستمعين للموعظة تأثرا وشفقة . ومن اشهر ما يحكى عنه خوفه ذات مرة من اتهامه بقتل طالب كان الشيطان قد خنقه في حجرته ، فيطلب من الشيطان ان يتلبس الجثة لكي يخرج بها الى السوق ويتجول قليلا قبل ان يترك الشيطان الجثة فتنهار في السوق . ولكن التحقيق يكشف ان الطالب قد مات مخنوقا ، ويضطر اجريبا الى الفرار من المدينة .

ان مثل تلك القصص لا تقول لنا شيئا عن اجريبا ، رغم ان الاخيرة تعكس بدقة سوء الحظ الذي طارده طوال حياته . لقد ماتت له زوجتان ، وكانت الثالثة كارثة بالنسبة له ، بعد ان تركته مشتتا من الناحية العاطفية ، ومفلسا الى درجة الدمار من الناحية المالية . وقد ادت صداماته مع القساوسة رجال الدين - فقد كان معاديا للكهنوت بعنف ، بعد ان عانى الكثير من جهل الرهبان وفيرتهم - ادت به الى مفادرة الكثير من المدن حيث كان من المتوقع له ان يستقر ليفرغ لحياته البحث والدراسة الهادئة . وفي فترات مختلفة التقى محاضرات عن اللاهوت والدين في كولونيا ، وعن علوم الغيب في بافيا ، واصبح مفوضا عاما في ميترز ، حيث ادى دقاعه عن امرأة فلاحه اتهمت بالشعوذة الى اصطدامه بعضو محكمة التفتيش مما اجبره على مغادرة المدينة . وخابت آماله في التقدم اعتمادا على

الاميرة مارجريت دوقة غينت . بل ان تعيينه طبيباً خاصاً للملكة فرنسا الام ، لويس دي سافوي ، كانت كارثة اضخم . فقد امضى اكثر وقته في محاولة الحصول على راتبه ، فأمر بالبقاء في مدينة ليونز من ١٥٢٤ الى ١٥٢٦ دون نقود ولا اذن بالرحيل وليس من المدهش حقاً انه بدأ في تلك الفترة في الاحساس بانه مطارذ مشؤوم . لقد رغب في حياة الباحث الهادئة، مع حياة منزلية ممتعة . لقد كان صوفياً أصيلاً حقيقياً ، ومع تقدمه في السن ، بدأ يشعر ان السحر ليس اكثر من مضيعة للوقت ، وان اللاهوت وحده هو ما يستحق الدراسة : ورغم انه لم يقرر ان ينشر كتابه عن علوم الغيب الا في عام ١٥٣١ ، فانه كان معروفاً بوصفه ساحراً ، وكانت سمعته سيئة بين القساوسة . وفي عام ١٥٣٠ نشر في انتيورب كتاباً بعنوان : « عن لاجدوى العلوم والفنون » . وهو كتاب غريب ، عدمي النزعة ، فكرته الاساسية ان المعرفة لا تؤدي بالانسان الا الى العجز عن الفهم وتشوش العقل وتوهم الاشياء الزائفة والى اكتشاف ضالة ما يعرفه بالفعل . ويبدو الكتاب كما لو كان تنبؤاً بحديث فاوست في الفصل الاول من مسرحية جوته . ويقول اجريبيا ان الدراسة الوحيدة التي تستحق العناء هي دراسة اللاهوت والدين والنصوص القديمة . ولا شك انه كان مخلصاً في تلك الدعوى . وقد وجهت اليه الحياة بعض الضربات القاسية . فقد ماتت زوجته الثانية في الطاعون الذي اجتاح انتيورب ، واثار كتابه عن لاجدوى العلم ، غضب حاميه ، تشارلس الخامس ، الذي كان قد منح اجريبيا منصب مسجل التاريخ ، فالقى باجريبيا في السجن واعلن انه هرطيق مجدف . وجاء نشر كتابه « الفلسفة الغيبية » لكي يزيد الموقف سوءاً ، لانه كان في صورة عودة مترجمة عن كل ما كان قد قاله في كتابه السابق ، وذاع عن ملأه شخص لا يثبت على فكرة او مبدأ . وعندما عاد الى كولونيا ، ثارت الخصومة بينه وبين هيئة التفتيش ، فعاد الى فرنسا ولكنه ابدى بعض الملاحظات المريبة عن الملكة الام فالقى في السجن مرة اخرى . ومات اجريبيا عام ١٥٣٥ ، قبل ان يبلغ الخمسين من عمره ، ممزقاً ومهزوماً ، يعمته نصف رهبان اوربوا . وكانت هذه نهاية حزينة لتلميذ افلوطين وبروكلوس ، الذي كانت اشد رغباته عمقا هي ان يحيا حياة التأمل والفلسفة ، ولكن الذي دفعه مزاجه القلق المغامر الى الترحال كاليهودي التائه .

وقد يحق لنا ان نذكر - بشكل عابر - ان احدي اساطير اجريبيا تتعلق بزيارة قام بها اليهودي التائه نفسه لمعمل اجريبيا السيميائي في فلورنسا (وفي كتاب دافيد هوفمان عن : « سجلات حياة كارتافيولوس ، اليهودي التائه » قيل ان تاريخ هذه الزيارة كان عام ١٥٢٥) . ويرجو كارتافيولوس من اجريبيا ، ان يجعله يرى طفولة حبيبته في امرأة سحرية . وطلب من اجريبيا ان يحصى العقنود (عشرات السنين) التي انقضت منذ موت الفتاة حتى يستطيع ان يصنع حركة

بمضاه السحرية تشير الى كل عقدها، وحينما بلغ اليهودي رقم ١٤٩ ، بدأ اجريبا يشمر بالنعاس ، ولكن اليهودي اخذ يحصي العقود ، حتى ظهرت قسي المرأة صورة مشهد انقضت عليه . ١٥١ من الاعوام في فلسطين . وظهرت الفتاة ، ريبكا ، وثارت مواطن اليهودي بقوة حتى انه حاول ان يتحدث اليها . وكان اجريبا قد شدد عليه بالامتناع من ذلك . وعلى الفور ، قشيت السحب سطح المرأة ، واغمي على اليهودي نفسه . وحينما استيقظ ، قدم نفسه لاجريبا قائلا انه اليهودي الذي دفع المسيح في ظهره وهو يحمل الصليب ، والذي حكم عليه منذ ذلك الحين ان يطوف الارض دون توقف الى الابد .

وقول اسطورة اخرى ان اجريبا استطاع ان يطلع ايرل سوري على صورة مشيخته ، جبرالدين ، في نفس المرأة .

اما مزاعم اجريبا نفسه عن تمكنه من الاتصال بالموتى واستحضار الارواح للتكهن بالمستقبل ، فيبدو انها تشير دون شك الى انه كان وسيطا موهوبا اكثر منه ساحرا ..



وتشبه حياة باراسيلسας العملية حياة اجريبا من وجوه كثيرة ، رغم انه كان اقل ميلا الى المغامرة ، واكثر من معاصره السابق عليه كتلميذ باحث في الطب والعلم . كان لامع الذكاء ، وكان ايضا صخابا شديد الضجيج ومولعا بالاستفسار والعناد (وكلمة متفاخر ، او تفاخر كاذب Bombast ، مستمدة من اسمه : بومباستوس) .

ولد فيليبوس اوربولوس باراسيلسας ، الذي كان اسمه الحقيقي ثيوغراستاس بومباستاس فون هو هنهايم ، ولد في قرية اينزايدلين ، بالقرب من زيوريخ في سويسرا عام ١٤٩٣ . كان ابن أحد الاطباء ، ويدعى ويليام بومباستاس فون هو هنهايم . كان الطفل ممرضا بالغ الضعف حتى انه لم يكن يتوقع له ان يصل مرحلة البلوغ . وتلقى العلم في بازل ، ثم ذهب الى فورنبرج لكي يدرس على يدي الراهب الاكبر تريشيموس ، الذي كانت كتبه في علوم الفيب قد سحرت لب الطبيب الطموح . ومثل اجريبا ، كان فيليبوس باراسيلسας رومانتيكيا ، اجتذبه بانفعال فكرة اكتشاف حجر الفلاسفة او اكسير الحياة او « الجراند كاثوليكون » وهو دواء كان يفترض انه قادر على شفاء كل الامراض .

وعندما بلغ سن الثانية والعشرين ، راح باراسيلسας - وهو الاسم الذي اطلقه على نفسه مقتبسا اسم الطبيب الروماني سيلسας - راح لكي يعمل لمدة عام في مناجم الفضة في التيرول ، ثم قرر انه اراد ان يرى المزيد من العالم ، فبدأ مرحلة من التجول استمرت تسع سنوات . واعلن ان هدفه كان هو الحصول

على المعرفة الطبية عن طريق رؤية اكبر عدد ممكن من المرضى .

ومن المهم ان نتبين ان باراسيلسাস لم يفكر في نفسه ابدا باعتباره ساحرا او دارسا لعلوم الغيب . على العكس ، كان مزاجه تجريبيا بشكل كامل ذا عقل صلب المراس . وقد آمن بالسيمياء والتنجيم لانهما كانا يبدوان شيئين علميين من المعقول ان يؤمن بهما ، ولكنه كان شديد الشك في انواع الادوية والعلاج التي كانت تتضمن اي شكل من اشكال « السحر » ، سواء كان سحرا «عاطفيا» او من اي نوع آخر . وقد تدعم هذا الموقف المعادي للسحر حينما التقى في باريس برجل بارز جدا ، هو امبرواز باري ، الذي كان سيصبح واحدا من اكبر العقاقرة في الطب . لم يكن باري مهيا لان يفعل ما كان يفعل من قبل لا لشيء الا لان كل الناس قد قبلوه دون معارضة من قبل . وحينما ذهب الى الحرب ، كجراح في الجيش عام ١٥٣٧ ، كانت الجراح تظهر وتعالج بصب بعض الزيت المغلي عليها . وقرر باري ان يجرب نوعا من المرهم المصنوع من مع البيض وزلاله وزيت الورد والترابنتين، فاكشف ان الجروح التي عولجت بهذا المرهم قد برئت والتأمت بسرعة اكبر . فاستنتج، وكان صائبا في استنتاجه، ان اكثر الجنود قد ماتوا نتيجة الصدمة والاجهاد لا بسبب جراحهم . وحينما كانت الاطراف تتمزق بسبب قذيفة مدفع ، كان المعتاد ان تترك لكي تتعفن وتصاب بالفنغرينا ، ثم تبتز بضربة فأس . وحاول باري ان يربط الشرايين والعروق النازفة بخيط متين عادي ، فاكشف انه حينما كان الكنزيف يتوقف ، فان الجندي كان غالبا ما يشفى .

وقد حدث كل هذا قبل سنوات قليلة من لقائه مع باراسيلساس ، ولكن الاتجاه كان قد تشكل بالفعل . فتبادل هو وباراسيلساس تأثيرا مفيدا احدهما على الآخر . وتتابعت جولاته ، طبقا لما يقوله كاتب ترجمته جسون هارجرريف : ايطاليا ، فالمانيا ، فالدنمارك . حيث اكتسب باراسيلساس خبرة بالحرب في حملة الملك كريستيان الثاني ضد السويد ، بل وضد روسيا . كان يتمتع بقدرة طبيعية على العلاج وبراء الجراح : وهذا يعني انه كان يمتلك اكثر من موهبة من مواهب صانع المعجزات .

كتب يقول : « السحر معلم للطب يفضل كل ما ألف من الكتب » ولكن تعريفه للسحر كان : « قدرة تأتي مباشرة من الله » ثم توهب للطبيب بشكل ما . انها نوع من غريزة المعالجة والبرء . ويقول باراسيلساس ، ان هذه الغريزة ، تقوم على معرفة ان الانسان هو « ميكروكوزم » الطبيعة . وهناك مبدأ اساسي للحياة يدعوه السيميائيون « ازوث » ويرمزون له بأسد احمر . والكلمة ايضا تعني « الجوهر » . ويستطيع « ازوث » ان يحول كل المعادن الى ذهب . وثمة قصة يحكيها سادهورف، تقول ان باراسيلساس علاج ابنة صاحب احد الفنادق كانت مصابة بشلل نصفها السفلي منذ مولدها بان سقاها بضعة ملاعق من النبيذ اذاب

السحر وجنون الذئاب *

ذكرت من قبل ان النساء في تراث السحر وعلوم الغيب يعتبرن نوعا من الشر . وفي علوم الارقام ، فان رقم « ٢ » ، الرقم الانثوي ، الذي يمثل الرقصة والامثال والخضوع والحلاوة ، هو ايضا رقم الشيطان . والربة الهندوسية « كالي » ، الام المقدسة ، هي ايضا ربة العنف والدمار . وتميل النساء الى « التفكير » باحاسيسهن وحسهن بدلا من الاعتماد على الملكة المنطقية . وتقدير المرأة لموقف محدد اولشخص بعينه اقرب الى ان يكون اكثر دقة ورهافة من تقدير الرجل ، ولكنه يفتقر الى الرؤية البعيدة المدى . وقد يحق للمرأة ان يطرح هذا الموضوع ببساطة خشنة بالقول بان النساء يعانين من قصر النظر ، وان الرجال يعانون من طول النظر . فالمرأة لا تستطيع ان ترى ما هو بعيد عنها ، ولا يستطيع الرجل ان يرى ما هو شديد القرب منه . ويتبع الربط بين المرأة والشر من الموقف الذي تحاول المرأة فيه ان تفتصب دور الرجل ، حينما يطبق المنطق القصير المدى من اجل الوصول الى هدف بعيد . ويرسم ويليام بليك هذا الموقف في « نبوءته » المسماة : « اوروبا » . في هذه القصيدة نرى « لوس » ربا للشعر ، والشمس ، والزمن ، ونرى زوجته او رفيقته « انيثمارمون » ، وهي الالهة ، ربة للقمر والمكان . ولكن ، رغم انهما : « الرجل وزوجته » المثاليان في الابدية ، فانهما يفشلان دائما في ان يفهم احدهما طبيعة الاخر في مجالات الزمن . ويبدو ان بليك قد اعتقد ان « العقل الانثوي » قد بدأ السيطرة على اوروبا بعد صلب المسيح بوقت قصير ، واستمر في هذه السيطرة طوال ثمانية عشر قرنا ، حتى تمكنت الثورتان الكبيرتان ،

(*) Lycanthropy وتعنى حرفيا : الاستدابة ، او الجنون الذي يخلع لصاحبه انه تحول الى ذئب . (ه . م)

من القنفرس ومن اضطرابات الكبد ، فقد دفع الباحث العظيم الى ان يكتب اليه يقول : « ليس بوسعي ان ادفع لك اجرا يوازي فنك ومعرفتك وعلمك » . ولكنه حينما عالج مواطننا بارزا ، هو القاضي ليتشنفلير ، كان قد عرض مائة جولددين لمن يشفيه ، رفض القاضي ان يدفع الاجر ، واضطر باراسيلسাস ان يقاضيه امام المحكمة . ورغم ان الحق كان الى جانبه بوضوح ، فان اعداءه استطاعوا بشكل ما ان يؤثروا على الحكم الذي صدر ضده . وصدرت منه تصرفات اعتبرت اهانة للمحكمة ، وقرر باراسيلساس ان خير وسيلة يتعمد بها عن متناول اعدائه هي ان يغادر بازل ، الامر الذي ابهج اعداءه لمعرفتهم انه كان جديرا بان يبلغ شأوا بعيدا .

وكان باراسيلساس ، مثل كورنيليوس اجريبا ، ذا شخصية منقسمة . فقد كانت عبقريته العلمية والطبية خير موضع لاي شك . ولكنه ايضا كان محبا للاستعراض . وكانت طريقته في السلوك مدوانية حادة مبتدلة ، وعادة ما كانت ثيابه مهوشة وقادرة . كان رجلا سمينا اصلع الرأس كثيرا ما يصطبغ وجهه بالحمرة من الانفعال . لقد ولد اجريبا سيء الحظ ، اما باراسيلساس فقد صنع سوء حظه بنفسه بسبب فقدانه سيطرته على نفسه بسهولة بالقوة . قفسي ستراسبورج طلب منه ان يدخل في نقاش او مناظرة مع فينديلينوس ، وهو مدافع من جالينوس ، وكان فينديلينوس رجلا مغرورا يستخدم لغة فخيمة طنانة ، ولكن باراسيلساس اصبح العوبة بين يديه حينما بدأ يصخب قائلا :

« انني لن اهبط بنفسي الى الاجابة على مثل تلك القاذورات » ثم انسحب خارجا . ومن الطبيعى ان يزعم مؤيدو فينديلينوس انه كان عاجزا عن الاجابة . وهناك مثال اخر من قصة محاولته لعلاج حاكم بادن الذي كان مشرفا على الموت بسبب الدونطاريا (الاسهال العنيف) التي انهكته تماما . واعطاء باراسيلساس جرعة زعم انها تحتوي على بعض الاحجار شبه الكريمة المسحوقة ، ثم جعله ينام بواسطة لبغة الافيون ، ولما استيقظ الحاكم كان في حالة افضل بكثير . وقدم الحاكم للطبيب جوهرة تعبيراً عن شكره ، ولكن الجوهرة لم تكن ثمينة جدا ، فغضب باراسيلساس ، وقال انه اهين ، وانه اعتاد ان يقدم « حسابا » يحسب فيه قيمة خدماته . فرد الامير بانه كان قد شفي قبل ان يأتي باراسيلساس وان اطباءه هم الذين شفوه . ووضع باراسيلساس جوهرة الامير حول عنقه تذكارا لخيانة الامراء ، ثم رحل عن بادن .

ولم يكن حاميه ، فروبينوس حيا بعد لكي يدافع عنه . كان قد مات نتيجة اهماله نصيحة باراسيلساس بعدم اجهاد قلبه ، ولكن باراسيلساس حمل مسؤولية موته . فعادر بازل ، واصبح جوالا لا يقر له قرار طوال ما بقي من حياته . ولم

تحسن شخصيته . تمسك باخطائه وانهاهال بلسانه على معارضيه في كل فرصة تلوح له . واستمر في الاسراف في الشراب ، وفي ارتداء ثياب تشبه ثياب الخلاء . وجملته مهانته يسرف في الكتابة ، ولكنه واجه المصاعب في اقناع الناشرين بنشر ما يكتبه . (وقد نشرت اكثرية اعماله بعد موته بوقت طويل) . ولسبب ما رفض طلبه بالاستقرار في بلدة اينزبروك . وبعد ثلاثة عشر عاما من الحياة بهذا الشكل ، كان قد اصابه الاجهاد ووهن عزمه ، مثل اجريبا ، الذي كانت سنوات حياته الاخيرة خشنة متعبة بنفس القدر . ولكن الامير بالاتين ، الدوق ارنست ، رئيس دوقات بافاريا ، وجه اليه الدعوة لكي يذهب اليه فيقيم في سالزبورج ، وكان الدوق باحثا في علوم الغيب . ووصل باراسيلس الى سالزبورج في ابريل عام ١٥٤١ . وبدت له المدينة ملجأ مثاليا ، في صورة المكان الذي كان يبحث عنه طوال حياته . ولكن هذا الاسترخاء الهاديء المفاجيء بعد اربعة عشر عاما من المصاعب والمهانة كان اسوأ شيء يمكن ان يحدث له . فمات في سبتمبر ، في الثامنة والاربعين من العمر . وتزعم احدى القصص انه مات مسموما ، وتزعم قصة اخرى ان قاتلا دفعه من فوق قمة عالية ، وربما كانت الحقيقة هي انه كان مجهدا الى درجة التمزق الكامل .

كان باراسيلس اعظم من كورنيليوس اجريبا لسبب واحد فقط : استنباهه الاعمق لطبيعة العلاقة الغريبة بين الجسد والعقل . : « ليس الانسان جسدا . القلب ، الروح ، هي الانسان . وليست هذه الروح سوى نجم مضئ . ولذلك ، فاذا كان هذا الانسان كاملا في قلبه ، فلا شيء من كل ما يقع تحت نور الطبيعة يمكن ان يختفي عن عينيه . . والخطوة الاولى في عملية تلك العلوم هي هذه : استخلاص الروح من النيران الداخلية المستعرة بواسطة الخيال . » اننا نواجه في كتاباته المرة بعد المرة هذا الاصرار على قوة الخيال . وهو يميز الخيال بوضوح من « الوهم » او من مجرد حلم اليقظة . والانسان نموذج مصغر للكون ، ولكنه يبدو كما لو كان انعكاسا في مرآة . تمتد المساحات الشاسعة في داخله - اتها النيران المستعرة الداخلية - وهو يطابق بين الخيال وبين هذه النيران الداخلية . وفي حالة الالهام الخيالي ، تبدو هذه المساحات الداخلية . كما لو كانت تتفتح ، باعثة معنى الحرية ، ومعنى حقائق اخرى . وقد جاء الدوس هكسلي بعد ذلك بعدة قرون ، لكي يوصي باستخدام العقاقير المؤثرة على الجهاز العصبي وعلى التكوين النفسي للانسان ، من اجل استكشاف تلك المساحات الداخلية . اما باراسيلس فلم يكن يعرف شيئا عن تلك الاشياء ، ولكنه آمن بأن للنيران الداخلية قوانينها الثابتة ، تماما مثل نيران السموات : وهي ليست مجرد قوانين ، وانما هي معان (قالقانون شيء جامد وميكانيكي ، اما المعنى فهو شيء » وضع هناك في موضعه » .) ومشكلة الانسان هي ان يدرك تلك المعاني بواسطة الدهن

المسترشد بالخيال . فالخيال هو الشرارة المفجرة التي تدفع الضوء الى زوايا واصقاع المساحات الداخلية ، كاشفة عن المعنى .

وهذا هو جوهر الحقيقة الداخلي عند باراسيلسوس . ان الشخصية التي انطوت على هذا الجوهر كانت شخصية خشنة انانية . فاذا كان الخطأ الرئيسي لاجربيا هو الاشفاق على الذات ، فقد كان خطأ باراسيلسوس الرئيسي هو الاسراف في تأكيد الذات والغضب .

وهذا يعني القول بانهما معا قد امتلکا « المواهب الغيبية » الطبيعية ، ولكن احدهما لم يقترب من الطرف العلوي للطيف - التحرر من الشخصية . وكان اجربيا يقترب من هذا الطرف عندما اقتربت حياته من نهايتها - باستغراقه المتزايد في الصوفية . ولكن العصر لم يكن ملائما ، ولم يكن الوقت ليسعفه . كان عدد من رجال الفعل والعمل يسيطرون على اوروبا: لوتر ، وتشارلس الخامس ، وماكسيمليان - وكان على المفكر ان يختفي وراء قناع المهرج وان يتنكر في ثيابه لكي يترك علامته . وكان رابليه ، وليوناردو ومكلانجلو يشعرون بالتوافق وبانهم « في بيوتهم » باقدار متفوتة مع هذا العصر ، اما سانت جون الصليبي وسانت تيريزا فقد وجدا الملجأ في الجماعات والنظم الدينية ، ولكن لم يكن ثمة ملجأ لاجربيا ولا لباراسيلسوس .



من الضروري عند هذه المرحلة ان نقول المزيد عن السيمياء ، رغم انه من الصعب ان نجادل في الراي القائل بانها الرائد الفج لعلم الكيمياء . ولكن ليس من الممكن ان نصرف النظر عنها بشكل كلي .

في عام ١٨٠٨ قال دالتون ان المادة مبنية من جزئيات صغيرة تدعى الذرات . ولكن لم يحدث الا قرب نهاية القرن التاسع عشر ان اكتشف العلماء طريق استكشاف الذرة . وحينما قاموا بعملية الاستكشاف ، اكتشفوا ان كل المواد في الكون مبنية بنفس « القوالب » : البروتونات والالكترونات ، والبروتون القل من الالكترون ١٨٣٦ ضعفا . والذرة تشبه نظاما شمسيا صغيرا . و « الشمس » في وسطها ، مبنية من البروتونات والنيوترونات (والنيوترون جزئي بمتزج فيه البروتون والالكترون) ، بينما « الكواكب » التي تدور في افلاكها حول البروتون ، هي الالكترونات . وتحتوي كل ذرة على عدد متساو من البروتونات والالكترونات ، والبروتونات تحتوي شحنة كهربية موجبة ، بينما شحنة الالكترونات سالبة . وليس للفرق بين الذهب والفضة اية علاقة بكمية ما في هذا او ذاك من هواء او ماء او نار ، او بما يتميز به « الازوت » الخاص بكل عنصر ،

وانما يقوم الفرق ببساطة على ان ذرة الذهب تحتوي في مركزها على تسعة وسبعين من البروتونات ، وتسعة وسبعين من الالكترونات تدور حول هذا المركز ، بينما لا تحتوي ذرة الفضة الا على سبعة واربعين من كل منهما .

ان تحول العناصر ، يحدث بالفعل طول الوقت ، فعنصر الراديوم ، برقمه الذري ٨٨ (والرقم الذري هو عدد البروتونات في نواة الذرة ، اذ انه لا يحسب عدد النيوترونات) يطلق اشعاعا يعرف باسماء اشعة الفا او اشعة بيتا ، وبظل الراديوم يطلق هذه الاشعة حتى يتحول الى رصاص ، بالرقم الذري ٨٢ . وينطبق نفس الشيء على كل العناصر ذات النشاط الاشعاعي . وبواسطة قذف العناصر بسبالات من النيوترونات ، يستطيع علماء الطبيعة أحيانا ان يطردوا من ذرة العنصر هدا من البروتونات او الالكترونات . فيحولوا بذلك عنصرا الى عنصر اخر . ولكن هذا العمل لا يمكن تحقيقه الا بالنسبة للعناصر ذات الارقام الذرية الشديدة التقارب . فمن الناحية النظرية ، يمكن تحويل الذهب الى زئبق باضافة الكترون واحد وبروتون واحد الى الذهب ، او تحويل الذهب الى بلاتينيوم بطرد بروتون واحد والكترون واحد من ذرته . وغنى عن القول ان هذا لا يمكن ان يتم الا بكميات محدودة وضئيلة للغاية ، وبتكلفة هائلة ، حتى انها لا تكاد تكون حلا مناسباً لمشكلة السيميائيين .

وعلى ذلك قد يبدو اننا سنكون قادرين على ان نصرف النظر عن السيمياء باعتبارها « كيمياء » سابقة على العلم ، وان نتركها متجمدة على ذلك الوضع . واذا كنا نصر على التمسك بموقف عقلي ، فليس هناك بدليل لذلك . ولكن العدل يفتضينا ان نعترف بأن هذا الموقف لن يكون سوى المخرج السهل . وكما هو المعتاد في تلك المسائل الغريبة ، فاننا نخلص الى النتيجة القائلة بانه قد يكون هناك بعض الاستثناءات من قوانين الطبيعة .

فعلى سبيل المثال ، كتب الطبيب الهولندي هلفيتيوس (الذي كان اسمه الحقيقي يوهان فريدريك شفايتور) (١) كتب مقالا تفصيليا عن لقاء له مع احد السيميائيين . وكان هلفيتيوس رجلا ذا سمعة طيبة ، اصبح طبيباً لويليام اورانج ، ويتفق مؤرخو الكيمياء بشكل عام على انه كان فوق الشبهات . فاذا كان قد خدع ، فهذه مسألة اخرى . ولكن احدا لم يستطع القول بالكيفية التي كان يمكن لهذه الواقعة ان تحدث . ويفضل هرمان كوب ، مؤرخ الكيمياء في القرن التاسع عشر ان يحتفظ بعقله مفتوحا ازاء هذه الحالة .

(١) وينبغي الا نغفل بينه وبين الموسوعي الفرنسي المشهور ، كلود ادريسان هلفيتيوس (١٧١٥ - ١٧٧١) المؤلف الشكاك المشهور للكتاب : عن الانسان .

وقد حصلت مقالة هلفيتيوس على ثقل اضافي ، لان موقفه الخاص ازاء السيمياء كان يعيل الى الشك ، ولا شك انه كان سيسعر بالمهانة لو انه وصف يباحث في علوم الغيب .

ففي كتابه : « عن تحول العناصر والاشياء » يحكى كيف جاء شخص غريب الى منزله يوم ٢٧ من ديسمبر عام ١٦٦٦ ، راغبا في مناقشة عملية صنع الالصاب النارية . ويصفه الكاتب بانه رجل ضئيل الحجم عامي اللهجة من شمالي هولندا يغطي النمش وجهه . وقال الغريب لهلفيتيوس انه اعجب بمقاله ضد « مسحوق التعاطف » الذي تحدث عنه السير كيتيلم ديجبي (١) ثم سأل هلفيتيوس ان كان قد رأى في حياته « الجرانداكاوليكون » . وهو العلاج الشامل لكل الامراض ، فقال هلفيتيوس انه لم يره . فسأله الغريب ان كان بوسعه ان يتعرف على « حجر الفلاسفة » اذا رآه ، ثم ابرز صندوقا من العاج يحتوي على ثلاثة قطع من الحجر في لون السلفات . وطلب هلفيتيوس من الرجل ان يعطيه قطعة صغيرة منها على سبيل التذكار ، ولكن الغريب رفض . واستطاع هلفيتيوس ان ينتزع باظفره قطعة صغيرة من الحجر ، ثم حاول فيما بعد ان يضعها في كميسة من الرصاص المصهور . وكانت النتيجة هي : « ان غالبية الرصاص تقريبا قد تطايرت ، وتحول الباقي الى مجرد كتلة صغيرة زجاجية القوام » .

وتحدث الغريب في هذه الزيارة الاولى حديثا طويلا عن استخدام الاحجار شبه الكريمة في معالجة الامراض . . وقال ان « استاذة » قد علمه كيفية تحويل الرصاص الى ذهب .

وفي الزيارة الثانية ، اصطحب الغريب هلفيتيوس للسير في الريف ، وتحدث معه عن اكسير الحياة وعن امور اخرى . واخيرا اعطاه قطعة صغيرة من الحجر الذي يشبه لون السلفات . . وهنا يعترف هلفيتيوس بما حدث للقطعة الاولى التي كان قد انتزعها خفية باظفره من الحجر ، وان الغريب قال له انه كان عليه ان يحيطها بكمية من الشمع حتى لا تتبخر بسبب الرصاص المصهور . . وقد اختفى الغريب بعد هذه الزيارة رغم وعده بالعودة . ويحكم هلفيتيوس انه اخذ نصف اوقية من الرصاص ووضعه في بوتقة على النار حتى انصهر ، ثم اضاف قطعة حجر الفلاسفة محاطة بالشمع . وبعد ربع ساعة تحولت كتلة الرصاص كلها الى ذهب من اجمل وافضل الانواع ، بعد ان تحول من اللون البرتقالي ، الى اللون الاحمر كالدّم الطازج . واكد له احد الصياغ انه ذهب خالص ، ويمضي

(١) كان ديجبي ، وهو « فارس مثالي » قد اعلن ان مسحوقه من سلفات الحديد ، استطاع ان يشفي جرحا حينما وضع فوق ضمادة تنضج دما ، دون ان يلمس الجرح لمسا مباشرا .

هلفيتيوس الى القول بان قطعة من هذا الذهب ، مزجت بالفضة وحمض النيتريك، فتحولت السبيكة كلها الى ذهب .

وفي عام ١٧٨٢ ، ظهر شاب ثري يدعى جيمس برايس في بلدة ستوك بالقرب من مدينة جيلو فورد بولاية سوري وزعم انه يستطيع ان يحول المعادن الخسيسة الى ذهب ، وطلب عددا من الرجال المرموقين في البلاد لكي يشهدوا على قدرته . وتوجهت مجموعة من الشخصيات البارزة ، كان بينها لورد اونسلو ، ولورد بالمرستون (وهو والد رئيس الوزراء المشهور) ولورد كينج ، وشاهدوه وهو يحول الرثيق الى ذهب بتسخينه مع مسحوق احمر ، ويحوّله الى فضة بتسخينه مع مسحوق ابيض . وقد اطلع الملك جورج الثالث على المعدن الناتج . ولكن برايس قال انه لا يستطيع ان ينتج المزيد من المسحوقين دون ان يضر بصحته . وضغطت عليه الجمعية الملكية العلمية ضغطا شديدا ، ويبدو ان المناقشة التالية فد ادت الى ارهاق عقله ، فانتحر بابتلاع السياتيد امام اعضاء الجمعية الذين ارسلوا للتحقق من مزاعمه .

ولكن حياة الكساندر سيتون ، وهو سيميائي اسكتلندي ، تبدو اكثر انواع الحياة اثارة للدهشة . كان يعيش في قرية ساحلية بالقرب من ادنبرة ، وكان يعمل في انقاذ بحارة السفن الهولندية التي كثيرا ما كانت تغرق امام اسكتلندا . وفي عام ١٦٠٢ ذهب الى امستردام ، وتعرف ببحار وقبطان يدعى جيمس هوسين ، وكشف سيتون لهوسين انه يستطيع ان يصنع الذهب ، واثبت ذلك بتحويل قطعة من الرصاص الى ذهب باضافة مسحوق من نوع ما . وقد اعطى جزءا من هذا الذهب السيميائي لطبيب يدعى فان ديرلندين ، الذي يحكى حفيد الحكاية ، وكان مؤرخا للكيمياء . ثم شرع سيتون في الترحال حول أوروبا ، وكان مؤرخ اعماله التالي هو البروفيسور فولفجانج داينهايم من ستراسبورج في المانيا . وكان داينهايم متشككا في مسألة السيميناء ، فدعاه سيتون مع حكيم سويسري يدعى جاكوب سوينجر ، لكي يشهدا عملية صنع الذهب باستخدام مسحوق في لون الليمون . واقتنع داينهايم وسوينجر ، وقد كتب داينهايم القصة بعد ذلك . وراح سيتون يتجول ، وتسبب في صدام مع رودلف الثاني امبراطور المانيا حينما عجز رودلف عن الحصول على السر ، وتكرر نفس الموقف مع امير ساكسونيا الناخب فادخل السجن حتى ساعده تلميذه سينديجوفوس على الهرب . ولكن سيتون رفض ان يفشي السر حتى لمنقذه . غير انه منحه ما تبقى من المسحوق وهو يحضر في كراكاو في بولندا ، فتزوج سينديجوفوس ارملة سيتون ، وعاش حياة ناجحة تحت رعاية سيجسمون ملك بولندا ، ومات في بارما عام ١٦٤٦ ، وهو في الرابعة والثمانين بعد ان تحول الى مشعوذ على اثر نفاد كمية المسحوق التسي

تركها سيتون . وكان قد نشر جزءا من اعمال سيتون باسمه ، وظلت هذه الاعمال تنشر لمدة قرنين كاملين بعد ذلك .

انه ليصعب الدفاع عن تلك القصص او تفسيرها ، مثلها في ذلك مثل اي شيء آخر في هذا الكتاب ، وان اغراء صرف النظر عنها قوي جدا . ربما كان لهلفيتيوس سمعة الرجل الامين الصادق ، ولكن ربما كانت فيه ايضا لمسة المهرج المشعوذ . وانتحار برايس يجعل الامر يبدو كما لو كان قد استخدم الغش لكي يخدع شهوده الاوائل من النبلاء . ولقد اتفقت بقصته لاول مرة في كتاب شعبي اسمه : « اسرار لم تحل » من تأليف فالنتاين ديال . وبحث عن اسم برايس في كتاب ج. م. بستليمان بعنوان : « قصة السيمياء والكيمياء الباكورة » فلم اجد له اثرا ، بل انني لم اجد ذكرا لبرايس في اي كتاب اخر من الكتب المرجعية في الموضوع . فاستنتجت ان ديال لا بد قد عثر على قصة برايس في بعض الكتب التي يشك في صحتها ودقة معلوماتها . ومع ذلك ، فاذا كنت اقرا كتابا عن السيمياء من تأليف ا. ج. هوليارد ، الذي يعد كتابه ، « الكيمياء الاولية » حتى الان من افضل المراجع المدرسية ، وجدت قصة تحمل اكثر التفاصيل التي ذكرها ديال ، باستثناء تأكيد القائل : « لقد سمح لمجموعة من الكيميائيين المتحريين بفحص العمل كله . الخ . » ويقرر هوليارد بوضوح ان مجموعة اللوردات النبلاء لم يكونوا من اصحاب المعرفة في العلم . ولكن ليس هناك من سبب يدعو الى الظن بانهم لم يكونوا يرقبون العملية كلها عن كثب . اما بالنسبة لحياة سيتون وسيندجوفوس فمن الصعب ان توصف مصادرها بانها بنفس الدقة والقوة التي تتمتع بها مصادر حياة هلفيتيوس ، ولن يجد اي متشكك اية صعوبة في تمزيق اوصالها .

فاذا افترضنا اننا لا نتخذ موقف الرغبة في تمزيقها ، فما هو التفسير الذي يمكن تقديمه ؟ يقول لويس سينس مؤلف « قاموس علوم الغيب » ان سيتون رفض ان يبوح لسيندجوفوس بالسر لانه : « كان من المستحيل بالنسبة له بوصفه خبيرا ان يكشف عن عناصر السر الثقيل البغيض » وهذا يعني القول بان المسألة لم تكن مجرد مسألة اعداد كيميائي خالص ، وانما كانت مسألة سحر . والسحر يعتمد اساسا - كما قلت من قبل - على استحضار « الارواح » عن طريق وساطة طبيعية . فاذا كنا نقبل ان « الارواح » او اي عامل اخر غريب (ربما كان عاملا عقليا) تساعد بعض الناس على الطفو في الهواء او الامساك بجمرات الفحم المشتعل ، او منع الاشياء من السقوط ، فربما لم تكن خطوة كبيرة بالنسبة لوسيط من نوع مختلف ، ان يتمكن من تحويل الزئبق الى ذهب .

ومما يستحق ان نذكره هنا ان عالم النفس يونج قد اعتبر السيمياء

سلفا لعلم النفس الحديث بدلا من ان تكون سلفا للكيمياء . وفي كتابه الذي ضم ترجمته الذاتية بعنوان : « ذكريات ، واحلام وتأملات » يوضح انه يعتبر اكتشافه للسيمياء كواحدة من اعظم المغامرات الذهنية في حياته ، وهو اكتشاف حفت به سلسلة كاملة من الاحلام التنبؤية والمندرة . وهو يعترف بانه حينما حاول لأول مرة ان يقرأ مقالا عن القرن السادس عشر عن السيمياء ، فان رد فعله الاول كان : « بالهي الرحيم ، يا له من هراء ! هذا الحشد مستحيل على الفهم . » ولكنه بدأ يتبين بالتدريج انه : « قد عثر بالصدفة ، على المقابل التاريخي لعلم النفس (علمه) الخاص باللاوعي » . وعبر عشر سنوات من الدراسة عن قرب وثيق ، توصل الى رؤية ان السيمياء اكبر بكثير جدا من محاولة صنع الذهب . انما هي محاولة للنفاذ الى ما وراء « اللغز » نفسه - اللغز الذي توصل يونج الى المطابقة بينه وبين اللاوعي - ومحاولة لاكتشاف اللغز الكامن وراء جريان الكون وتحركه . كانت السيمياء هي الشكل المتميز الذي اتخذته السحر في القرن السابع عشر ، ولم يكن حجر الفلاسفة الذي بحثت عنه شيئا اقل من سيطرة الانسان الكاملة على الموت . وبالمصطلح الحديث ، يمكننا القول بانها كانت محاولة الانسان لان يتعلم كيف يتصل ، كلما شاء ، بـ : « منبع القوة والمعنى والهدف » في اعماق العقل ، من اجل تخلي الازدواجيات المربكة والغوامض القائمة في الوعي اليومي العادي .

وسوف يكون من قبيل تجاوز الهدف المقصود ان نقول ببساطة ان يونج قد نظر الى السيمياء باعتبارها شكلا رمزيا لعلم النفس ، حيث تصبح عملية صنع الذهب رمزا لـ : « تحول الشخصية من خلال عملية مزج وخلق العناصر الرفيعة والخشيسة معا ، اي الوعي واللاوعي » ، (رغم ان هذه هي عبارة يونج) . لقد كان من الصعب ان ينفق يونج عشر سنوات كاملة في دراسة موضوع ما الا اذا كان قد شعر بأن في هذا الموضوع شيء هام يمكنه ان يتعلمه منه . وقد آمن يونج ان السيمياء كانت اقل اهتماما : « بالعمليات الكيميائية منها بالعمليات النفسانية ، وبتحويل الشخصية . فلكل البشر لحظاتهم التي يشعرون فيها بانهم يشبهون الالهة او بانهم بشر من نوع اسمى - مثلما وصف نيتشه نفسه بانه يشعر : « بالارتفاع ستة آلاف قدم فوق البشر والزمن » . ثمة سر مقدس يهجع داخل المادة ، ويقول يونج ، ان الانسان في محاولة استخلاص هذا السر ، او « تخليصه » ، فانه يتخذ لنفسه ذورا شبيها بدور « المخلص » . (ان هذا الاحساس - بالغزى المختبيء وراء وجه المادة المتغير - لقريب قريبا واضحا من فكرة دافيد فوستر عن « كون الاعلام » وهو مفهوم كان يونج جديرا بان يشيد به) . وطبقا لما يقوله يونج ، فان السر الذي بحث عنه السيميائيون ، كان هو سر تحول وانتقال « الوعي » الى حالة تشبه حالة الاله ، اي « التفرد » المطلق . وقد ربط يونج بين هذا السر

ايضا ويبين هدف اصحاب اليوجا - ومن المعاني البارزة ان « القدرات » غير الطبيعية التي يمارسها البعض على المادة ، يعتبرها الهندوس نتاجا طبيعيا للتحول الروحي الذي يحدث لممارس اليوجا - مثلما يحدث لممارس السيمياء .

ومن المؤكد ان راي يونج في السيمياء هو اعرق واشمل الآراء التي ظهرت في هذا الموضوع في القرن العشرين ، ومقالاته في هذا الموضوع تقع بين اكثر ما كتبه سحرا وقدرة على الاقتناع . ولم يعد بوسع اي شخص ذكي الآن ان يصرف النظر عن السيمياء بشكل كلي بوصفها نتاجا للخرافة والجهل .



فماذا من امر ذلك الموضوع الشديد الخبث ، التنجيم ؟ هنا يبدو ان للمعترضين قضية لا يمكن رفضها . لقد شيد القدماء حساباتهم على اساس ان هناك سبعة كواكب : عطارد ، والزهرة ، والمريخ ، والمشتري ، وزحل ، والقمر ، والشمس . لقد ضموا الشمس والقمر الى المجموعة ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون ان الارض كوكب . ولم يكونوا بالطبع يعرفون شيئا عن وجود اورانوس ونبتون وبلوتو ، والكويكبات ، تلك الشذرات المتبقية من كوكب انفجر بين المريخ والمشتري (ويستطيع المرء ان يضيف ان بوديس لو ، كان قد تنبأ بوجود هذا الكوكب الضائع ، وتمكن البحث الدقيق من اكتشاف بقاياه بعد ذلك ، وهذا برهان حاسم بالتأكيد على تفوق قوانين العلم بالنسبة لقوانين التنجيم !) فكيف يستطيع المرء ان ينظر بجدية الى « علم » يقول ان كوكب المريخ (مارس) له تأثير يؤدي الى الحرب لانه تصادف ان اطلق على الكوكب اسم الحرب الروماني ؟ .

ولكن قضية التنجيم اقوى مما تبدو عليه . . يستطيع اي محلل نفسي ان يؤكد ان الكثيرين من الناس يتأثرون بالقمر المكتمل ، وليس هناك في علم النفس الحديث ، ولا في النظرية الطبية ، ما يستطيع ان يقدم تفسيراً لذلك . فاذا كان بوسع القمر ان يؤثر علينا، فلماذا لا يكون بوسع الكواكب الاخرى ان تفعل نفس الشيء ؟

اما بالنسبة للاعتراض القائل بان الخصائص التنجيمية لكوكب ما مستمدة بشكل تحكمي من الديانات الاسطورية القديمة ، فان المنجمين سوف ينكرون ذلك بوضوح . فقد اطلقت على الكواكب اسماء الربوات والارباب ، لانه لوحظ ان تأثيرات هذه الكواكب تتطابق مع المعاني التي جسدها الالهة القديمة ، فاطلق على كوكب الزهرة (فينوس) اسم ربة الحب ، لانه لوحظ ان الكوكب يمارس تأثيرا معيناً في مسائل الحب ، وبهذه الطريقة اطلق على المريخ (مارس) هذا الاسم لتأثيراته في مسائل الحرب ، وسمي عطارد (ميركيوري ، هيرمز) بهذا الاسم لعلاقته بالذكاء

والقدرة (ميركيوري هو رسول الالهة المجنح) ، واصبح المشتري (جوبيتر - كبير الارباب) مرتبطا بالخصائص الابوية - القدرة على الحماية ، والمرح اللطيف ، وحب النظام واصدار الاوامر ، وارتبط زحل (ساتورن) بالشر والفشل ، والشمس بالابداع والقدرة على الخلق ، والقمر بالخيال والشعر والخصائص الاخرى للربة البيضاء . والقمر يرتبط ايضا بعدم الثبات والتغير وعدم الاتزان - ومن هنا ارتباطه بالمجانين .

التنجيم يقوم اذن على نفس نظام « المعرفة القمرية » الذي يقوم عليه كتاب « اي تشينج » الصيني ، وابجدية الاشجار ، والكابالاه ، ولا يزيد في كونه « علما دقيقا » من « قراءة الكف » ..

ويستطيع غالبية المنجمين ان يوافقوا على ان جوهر التنجيم هو هذا : انه ليس نظاما او نسقا حسابيا معقدا ، ولا هو مذهب متماسك من المعتقدات ، وانما هو الموهبة ، مثل موهبة تخمين مكان ينابيع الماء تحت الارض ، موهبة رؤية العلاقات بين الشخصية وبين التأثيرات الكوكبية . ومثلما هي الحال مع « الوساطة الروحية » والتنبؤ بالمستقبل ، لا نستطيع القول باكثر من انها « تنتج » نتائج عملية بالفعل ، وليس هناك من يملك ادنى فكرة عن السبب في ذلك . انه نظام قمري ، يرفض ان يتكيف مع مناهج العلم العادي ..



لقد انتج « القرن السحري » ثلاثة رجال اصبحت اسماءهم تكاد تكون متطابقة مع السحر : اجريبا ، وباراسيلس ، ونوستراداموس . ولم يكن احد منهم ساحرا . ولكن ، كان نوستراداموس بين ثلاثتهم ، هو صاحب اعظم ارتباط بالقدرة الغيبية .

ولد ميشيل نوستراداموس في سانت ريمي بفرنسا عام ١٥٠٣ ، لابوين مسيحيين من اصل يهودي . وكان جداه كلاهما - لاييه ولامه ، طبيبين ومنجمين الملك انجو الطيب ، رينيه ، الذي عاش في مدينة ايكس ، في اقليم بروفنس . اما والد ميشيل فكان موثقا عاما . وبعد ان فقد جده لاهه وظيفته على اثر موت الملك رينيه ، فانه كرس نفسه لتعليم حفيده الموهوب ، وتعلم ميشيل اليونانية واللاتينية والعبرية والطب والتنجيم . وحينما مات هذا الجد ، تولى جده الاخر استكمال تعليم ميشيل . وتقرر في الاسرة انه يجب ان يصبح طبيبا ، وارسسل لكي يدرس في جامعة مونتبلييه ، فاجتاز الامتحانات دون صعوبة . وما ان استكمل الدراسة وحصل على اجازته ، حتى اكتسح الطاعون ولاية بروفانس ، فكان قادرا على ان يظهر مهارته الطبية . وقد ثبت انها مهارة ملحوظة مثل

مهارة باراسيلسوس . كان « معالجا » وشافيا للجراح بالفطرة . وقد بدأ كما لو كان غير خائف من الطاعون الذي قتل اهالي مدينة مونتبلييه بالملات . وظل يتنقل في المدة بين ١٥٢٥ و ١٥٢٩ ، مساعدا في مكافحة الطاعون ، وعندما عاد الى مونتبلييه ، تسلم اخيرا اجازة الطبيب التي كان قد حصل عليها قبل اربع سنوات . وفي خلال السنتين التاليتين ، مارس الطب وقام بتدريسه في مونتبلييه ، ثم شرع في التنقل والسفر المستمر مرة اخرى . ولم يكن نوستراداموس مثل اجريبا وباراسيلسوس شخصية استعراضية كثيرة الزهو . كان يتمتع بغريزة مستمدة من اجيال اليهود المضطهدين ، للانحناء للعاصفة واستبقاء نفسه في الخلفية البعيدة عن الانظار . ولهذا السبب تمكن من احراز نجاح مادي اكبر من معاصريه البارزين .

استقر في مدينة آجين ، واصبح صديقا لسكاليجر الذي كان واحدا من اشهر الباحثين دارسي الآداب القديمة في اوروبا . وهناك قرر ان يتزوج ، وازدهر عمله . ثم انفجر الطاعون مرة اخرى ، فقتل زوجته وطفليهما . فبادر الى السفر مرة اخرى ، وتبعته الاتهامات بالهرطقة والتجديف ، لانه كان مندفعاً متهوراً بما يكفي لكي يتلفظ بالوصية التي تمنع صنع التماثيل او الصور النحاسية حين كان يرتب العمال وهم يصبون تماثلاً للعداء .

وجاءت بعد ذلك ثمانية اعوام من التجوال الذي يبدو كما لو كان تقليدا من تقاليد سحرة القرن السادس عشر . وكانت هذه هي الفترة التي بدأت قدراته الغريبة في الظهور والتأثير . بدأ يعيش لحظات خاطفة كالوميض من القدرة على الاستبصار كما لو كان يملك حاسة سادسة . وتحكى احدى القصص انه شاهد في ايطاليا شاباً يدعى فيلكس بيريتي ، وهو راع للخنازير اصبح راهبا . وقيل ان نوستراداموس خر على ركبتيه امام بيريتي وخاطبه مناديا : « قداسك » . وقد اصبح بيريتي هذا فيما بعد البابا سيكتس الخامس بعد موت نوستراداموس . وهناك قصص اخرى كثيرة عن قدرته على التنبؤ بوقوع احداث بسيطة ، خارجة عن سياق الامور الطبيعية المباشرة ، قبل وقوعها . .

وفي عام ١٥٤٤ دمي نوستراداموس مرة اخرى لمكافحة الطاعون ، فسي مارسيليا هذه المرة . وفي نوفمبر ، قطعت الفيضانات الطرق المحيطة بسانت ريمي ، وتولت جثث البشر والحيوانات الطافية مهمة نشر الطاعون الى مناطق بعيدة . وفي عام ١٥٤٦ ذهب الى مدينة ايكس في بروفينس لكي يكافح الطاعون . ويكاد يكون من المستحيل بالنسبة لنا الآن ان نتصور انواع الرعب والفرع التي كانت من الاشياء الشائعة في القرون الوسطى وما بعدها . لقد هجر الناس مدينة

ايكس جميعها تقريبا ، واغلقت الابواب ، وامتلات الشوارع بالجثث التي لم تجد من يدفنها ، وظلت الكنائس خاوية ، ولا تستطيع المحاكم ومجالس القضاء والبرلمانات ان تمارس اي نوع من العمل او السلطة . اما ما استطاع نوستراداموس ان يقوم به في موقف من هذا النوع فليس واضحا بالنسبة لنا ، رغم انه مسن المؤكد انه ادرك اهمية عدم نقل العدوى وقهم اهمية الهواء النقي . (ويجب علينا ان نتذكر ان الاطباء لم يفهموا شيئا عن الجراثيم الا في القرن التاسع عشر، وقبل ذلك كان الطبيب الذي فرغ من تضييد جرح متقيح يذهب لتوليد امرأة دون ان يكلف نفسه عناء مجرد غسل يديه) . وعلى كل حال ، قام نوستراداموس بعمله بشكل طيب حتى ان المدينة خصصت له معاشا دائما . ثم ذهب الى مدينة سالون وقدم هناك نفس الخدمات . وفي عام ١٥٤٧ قرر ان يستقر في سالون ، فتزوج ثانية ، واشترى منزلا ، وامضى ما تبقى من حياته - وهو تسعة عشر عاما - في ممارسة الطب وكتابة: « تنبؤاته » . كان قد تزوج امرأة ، ثم انتقلا الى منزل في شارع ضيق معتم . وكان هناك سلم حلزوني يؤدي الى حجرة في الطابق العلوي حولها نوستراداموس الى حجرة لعمله . من هناك كان يستطيع ان ينظر الى اسطح المنازل الضيقة في البلدة التي كانت تسيطر عليها القلعة القديمة المشيدة فوق الصخور المنحدرة . في هذا المقر راح يعمل بهدوء ، واكتسب لنفسه شهرة في اوروبا كلها بوصفه متكهنا ومتنبئا . وانتقل الى المنزل لتلميذه وتابعه ، جان دي تشافيني ، واصبح كاتب ترجمة نوستراداموس .

وبعد ثمانية اعوام من الانتقال الى سالون ، نشر نوستراداموس الطبعة الاولى من تنبؤاته ، التي منحها عنوان : « قرون » لان التنبؤات ، التي كانت كل منها تصاغ في مقطع من اربعة سطور ، نشرت في مجموعات ، تضم كل مجموعة مائة مقطع . وتتميز المقاطع بغموض بالغ ، بالاضافة الى انها لم تخضع في طبعها لاي نظام . كان نوستراداموس خائفا من ان يتهم بممارسة السحر . ذلك انه اذا كان تعليقه الذي لا ضرر فيه عن تمثال العذراء قد فسر بانه نوع من الهرطقة ، فما الذي كان يمكن ان يحدث حينما يتنبأ بصعود وسقوط الملوك والبابوات ؟ وقد تراجع نوستراداموس تراجعاً واضحا لكي يؤكد انه لم يكن دارسا لعلوم الغيب باي معنى من المعاني ، وهو يقول لابنه - الذي كان عمره لا يزيد على شهرين - معدودة - في المقدمة انه قد احرق كل كتبه عن السحر خوفا من ان يسيء طلاب السلطة والقوة استخدامها . ولكن جيمس لافر ، مؤلف واحد من احسن الكتب التي تناولت حياة نوستراداموس ، يعلن اقتناعه بان نوستراداموس قد استخدم السحر والوسائل السحرية للوصول الى كهاناته وتنبؤاته بالمستقبل .

ومن المؤكد ان الرباعيات (المقاطع الرباعية الايات) تتميز بقدر كاف من

الغربة . والا فما الذي كان يمكن ان يدفع رجلا لان يجلس لكي يكتب مثنى المقاطع من مثل :

.. « الوحوش التي دفعها الجوع الى الجنون ستجعل مسایل المياه ترتجف ، ستقع اكثر الاراضي تحت حكم هيوستر ، وفي قفص من الحديد سوف يسحب الرجل العظيم ، حينما لا يرقب ولا يراعى طفل المانيا شيئا » .

وقد اختلف الباحثون في تفسير تنبؤات نوستراداموس ، رغم ان هذه التنبؤات لم تكف عن شغل تفكير اجيال الدارسين . ان غموضها يتيح قدرا كبيرا من الاختلاف بقدر ما يجتذب انواعا عديدة من الاهتمامات والفضول . ولا شك ان بعض المقاطع تثير قدرا كبيرا من الدهشة لاقتربها من بعض المسائل التفصيلية الدقيقة التي يصعب ان تلفت النظر لحظة حدوثها او في مكان وقوعها وزمانه ، فما بالك بشخص يتحدث عنها قبل وقوعها بثلاثة قرون ، او يشير الى ملابس شديدة الشبه بملابسها ويذكر الاماكن الضئيلة الشأن التي ستقع فيها احداث جسام تجعل المكان التافه مشهورا مرة واحدة في التاريخ . من ذلك ، المقطع الذي يتحدث فيه نوستراداموس عن زوجين ملكيين ، يأتیان من طرق ملتفة وعرة عبر غابة رينز ، ويتوقفان عند صخرة « هيرن » البيضاء ، ثم يدخلان قرية فارين ، قبل ان يسقط الرأس وتثور العواصف وتشب النار وتسيل الدماء وتنقطع الاطراف والرؤوس . انه في الحقيقة يتحدث عن الاماكن التي تأتي في رحلة الملك لويس السادس عشر وزوجته الملكة ماري انتوانيت ، رحلتها المشؤومة في محاولة الهرب من فرنسا ، قادمين من باريس ، فيعبران بغابة رينز ، ويتوقفان عند تل هيرن الصخري الابيض ، امام الحرس الذي يخدع في هويتهما ويسمح لهما بالمرور ليدخلا قرية فارين حيث سيلقى عليهما القبض بسبب خيانة الكونت دي تاريون . وبعد اعتقالهما ينفجر حكم الارهاب الذي يقتل فيه بالمقصلة ، ويقتل اثناءه المئات ، بقطع الرؤوس والاطراف ، بل ان المذهل حقا في رباعية تالية ، ان نوستراداموس يتحدث عن « سوس » اسم البقال الذي سيعتقل لويس السادس عشر في منزله ، وعن الخائن تاريون بالاسم ، مع اختلاف بسيط في حروف الحركة ، وهو الذي كان وزيرا للملك متواطئا مع الثوار .

واذا كان كل هذا شيئا مدهشا فيما يبدو ، فلا بد لنا من تذكر انه لا ينفرد بذلك . ان لأفير يذكر اسم المنجم مايستر تيوديل من اووتون ، الذي كان معاصرا لنوستراداموس ، وقال ان عام ١٧٨٩ سيكون عام تغيرات بارزة واحداث جسيمة ، واثباتات في الطبقات والقوانين ، واذاف ان هذا سيستمر خمسا وعشرين سنة ، الرقم الذي يصل بنا الى عام ١٨١٤ ، عام سقوط نابليون . وهناك منجم

آخر ، يدعى ريتشارد روسان ، نشر كتابه : « حول التغيرات في الزمن » عام ١٥٥٠ ، وقال ان « انقلاباً سيحدث في العالم بعد ٢٤٣ سنة من نشر هذا الكتاب » ، مما يصل الى عام ١٧٩٢ . ورغم ان الثورة قامت عام ١٧٨٩ ، فان تقويمها لسم يصدر الا عام ١٧٩٢ ، وهو العام الذي قال عنه روسان انه عام « اعادة بتكار العالم في المستقبل » . . . وهناك منجمون آخرون تحدثوا عن عام ١٧٨٩ قبل عدة قرون باعتباره حاسماً في التاريخ .

وبشكل عام ، تبدو تنبؤات نوستراداموس عن الثورة ، واعداد الملك والملكة ، وظهور نابوليون ، هي اكثر ما في تنبؤاته من مقاطع مؤثرة ونماذج تدل على قوة قدرته على التنبؤ والرؤية المسبقة . انه يتحدث عن احداث تفصيلية في الثورة قلما تذكرها كتب التاريخ العام ، وقلما يعرفها الان غير المتخصصين : انه يتحدث مثلاً عن مذبحه نانت بالاسم ، وعن ان اهل المدينة المنكوبة ببعقوبي سفاح مجنون يحكمها اثناء الارهاب ، حاولوا تخليص انفسهم فيبيد السفاح « كاريير » نصفهم ويقتل اطفالهم في الدة سادية مرعبة ، حتى يصدر الحكم المفاجيء واللامنتقي ايضا في باريس باعدامه بالمقصلة . وفي احد مقاطعه عن الثورة التي قال انها ستقع في عام ١٧٨٩ ، يقول انها : « نار وماء وحديد وحبل » ثم يقول في السطر التالي : « ان كل من ابتكر تلك الاشياء واستخدمها سيموت بها » . وينتهي نفس المقطع بهذا السطر المذهل : « الا واحدا ، سينشر الخراب في العالم كله . » نابوليون .

وبالنظر الى ان كل الاشياء التي تنبأ بها كانت في المستقبل ، فانه يبدو من الغريب ان مقاطع نوستراداموس الغامضة هذه قد اثارت كل هذا الاهتمام الذي اثارته في خلال حياته . والحقيقة ان هذه المقاطع قد جعلته على الفور ذائع الشهرة . وهي على اي حال اشبه بالتنبؤات عن الحرائق والطوامين والدماء وانواع التمزق والعداوب التي لا شك انها اشبعت الرغبة الانسانية العامة في السماع عن الكوارث .

كانت ملكة فرنسا عام ١٥١٥ هي كاترين دي ميديتشي ، التي كانت دارسة متحمسة لعلوم الغيب . وكان لديها سبب قوي يدفعها الى ذلك . فقد تنبأ لها عراف مشهور ، يدعى لوكجوريك او جوريكوس بموت زوجها ، هنري الثاني ، في مبارزة . وكانت شهرة جوريك كمتنبئ وعراف تطاول شهرة نوستراداموس الاصغر منه سناً . كان جوريك يمارس عمله عن طريق قراءة النجوم ، ولكن يبدو انه لا شك في امتلاكه لموهب غيبية من نفس النوع الذي يمتلكه بيتر هوركوز في عصرنا هذا . فقد حدد في خريطة البروج طالع جيوقانسي دي ميديتشي ابن لورينز الكبير ، وتنبأ بأنه سيكون « بابا » ، وهو ما تأكد بالفعل بعد ذلك (فقد اصبح جيوفاني

هو البابا ليو العاشر ، البابا الذي اصطدم به لوثر) . وفي اسكتلندا قال جوريك لرئيس اساقفة كاتدرائية سانت اندروز انه سيموت على المشنقة ، ضحية لاعداء من البروتستانت . ولكن صراحته جلبت عليه في مناسبة اخرى نتائج سيئة . فقد اخبر جيوفاني بونتيغوليو ، طاغية بولونيا ، انه سيموت في المنفى . فأمر الطاغية بأن يعلق العراف في آلة التعذيب المعروفة بالاسترابادو ، حيث يعلق الرجل من ذراعيه ملووتسسين الى الورا ، ثم يسقط الحبل بسرعة نحو الارض ليرفع ثانية بنفس السرعة قبل ان تلمس قدما الرجل الارض . وامر بونتيغوليو باسقاط جوريك خمس مرات في الاسترابادو ، الامر الذي اقتضاه عدة سنوات قبل ان تشفى كتفاه . ولكن قضى هذه السنوات سعيدا ، وهو يرى الطاغية يساق سجيناً الى المنفى بأمر من البابا يوليوس الثاني، ليموت بعيداً عن بولونيا تصديقاً لنبوءته . بل انه تنبأ باليوم الذي مات فيه البابا بول الثالث : ٢٠ نوفمبر سنة ١٥٤٩ .

وقد تقدم جوريك بنبوءة مزدوجة تتعلق بهنري الثاني ملك فرنسا . فقد تنبأ اولاً بأنه سيكون شاهداً في مباراة حينما يرتقي العرش . ودارت المباراة بين جي سابوت جارناك ، وبين فرنسوا لاتشاتيانييري في عام ١٥٤٧ ، وكان الملك حاضراً لكي يرى تشاتيانييري وهو يلبح بسيف خصمه . وكان الجزء الثاني من النبوءة هو ان الملك نفسه سوف يموت نتيجة لمبارزة . ويبدو ما يتلو من القصة شيئاً بعيد الاحتمال ، ولكن ما حدث هو ان كاترين دي ميديتشي قررت ان تثبت من صحة النبوءة عن طريق استشارة عراف سالون الجديد . وذهب نوستراداموس الى باريس حيث اذهل كاترين ، رغم انه لا يوجد تسجيل لما دار بينهما . وكان نوستراداموس قد تنبأ بالفعل بطريقة موت الملك في مقاطع « قرون » ، بقوله :

الاسد الشاب سيفلب المعجوز في
ميدان الحرب في قتال فردي ، وفي قفص
من الذهب سيفقأ عينيه ، فيصبح الجرحان
واحداً ، ثم يموت ميتة قاسية .

وفي عام ١٥٥٩ تزوجت ابنتا هنري الثاني : احدهما تزوجت فيلب هاهل اسبانيا ، وتزوجت الثانية دوق سافوي . واشترك هنري في المبارزات الودية التي اقيمت ضمن الاحتفالات - ناسيا فيما يبدو النبوءة التي تحدثت عن المبارزة . وحينما كان الملك يتصادم بالرمح مع الشاب جابريل ، كونت دي مونجومري ، انكسر رمح جابريل ، واخترقت شظية من الرمح فطاء الوجه الذهبي لخوذة الملك ففقدت عينه ونقلت الى الخ وراء العين من خلف « القفص الذهبي » . وعاش هنري

عشرة أيام قبل أن يموت ، ميتة قاسية دون شك . وكان على جابريل كوريس ان يفر الى انجلترا هربا من غضبة كاترين . .

وهناك مقطع آخر من « قرون » يبدو انه يشير الى كاترين بقوله :

مستبقى السيدة لكي تحكم بمفردها
بعد موت قرينها الفل على ساحة
الشرف ، وبعد حدادها سبع سنوات
ستعيش وتحكم عهدا طويلا .

وقد ظلت كاترين في حدادها على زوجها لمدة سبع سنوات ، ثم عاشت وحكمت طوال ثلاثين عاما اخرى ، او انها على الاقل ، قد لعبت دورا بالغ النشاط في شؤون فرنسا . فقد اعتلى العرش خلفا لهنري الثاني ، ابنه فرانسيس الثاني الذي كان شابا معلولا وكان نوستراداموس قد قرأ طالعه في خريطة النجوم بطلب من الملكة . وكتب نوستراداموس مقطعا يعلن ان الابن الاكبر للارملمة سيموت قبل ان يكمل عامه الثامن عشر ، وان شقيقه التالي سيتقدم لخطبة عروس وهو في سن اصغر من هذا بكثير . ومات فرانسيس بتسمم في الدم قبل عيد ميلاده الثامن عشر بستة اسابيع . اما شقيقه العصامي ، تشارلس التاسع (الذي كان في العاشرة فقط حينذاك) فقد خطب الى اليزابيث اميرة النمسا وكانت في الحادية عشرة . وحينما بلغ الملك الرابعة عشرة من عمره ، زار نوستراداموس في سالون ، تصحبه ، بالطبع ، والدته . وطلبت كاترين من نوستراداموس ان يقرأ في خريطة النجوم والابراج طالع ابنها الاصغر ، دون انجو ، فأخبرها نوستراداموس ان ولدها سيعتلي العرش . ولكنه كان اكثر اهتماما بالفتى هنري امير نافار الذي كان موجودا ضمن المعية الملكية . فطلب ان يراه عاريا ، ولكن الولد خاف اذ ظن انهم سيضربونه . فرفض . فذهب نوستراداموس الى غرفة نوم الصبي في ساعة مبكرة صباح اليوم التالي وفحص جسمه ، واعلن ان هنري سيكون ملكا ذات يوم . ويجعل هذا من الواضح ان نوستراداموس في تنبؤاته ، او في بعضها ، لم يكن يستند الى التنجيم ، وانما الى نوع ما من الحسد او الفراسة او الطاسة السادسة . وربما كان قد اراد ان يفحص علامات معينة على جسد الصبي - فان الحكاية التي سجلت الواقعة لا تحدد شيئا من هذا . وفي الحقيقة فان تشارلس التاسع ، وهو الملك المسؤول عن مذبحه سانت بارتولوميو ، مات بالسل في منتصف عشريناته . اما هنري الثالث ، الذي خلفه على العرش ، فقد طعنه الراهب جاك كليمنت ، وهو في المرحاض بسكين . وقتله . فاعتلى هنري امير نافار العرش وهو بروتستانتي . وقد تنبأ نوستراداموس بكل هذا بدقة . بل ان مذبحه الهيجونون ، بروتستانتي فرنسا ، في يوم عيد القديسة بارتولوميو ، تأتي بشيوعها عند نوستراداموس ، حيث تحدث عن « متوحش اسود »

سيدبح الناس بيديه مستخدما النار والحديد والسهام . وكلمة اسود **Noir** هي اللفظة التي يستخدمها نوستراداموس عادة للتعبير عن الملك **Roi** ومن المؤكد ان تشارلس كان ملكا بالغ القسوة . كان يصر دائما على استخراج امعاء الفرائس بنفسه حين يخرج للصيد ، وكان يعتاد طاعة غريبة ، هي اصراره على اطلاق النار على دماغ اي خنزيراو حمار يقابله في طريقه . واثناء المذبحة ، كان الملك يطل من احدى النوافذ في اللوفر ، حاملا قوسا مزودا بزناد كالبندقية وهو يصيح « اقتلوا ! اقتلوا ! » ، ثم هبط الى عرض الطريق واشترك بنفسه في اباداة البروتستانت . « وبعد ان تكل يده من استخدام النار والحديد وسهام الاقواس ، هو الملك القاسي ، سينزل الخوف بقلوب الناس اذ يرون اعظم الرجال معلقا من رقبته وقدميه » . هكذا قال نوستراداموس عن نهاية المذبحة . وكان الادميرال كولوني ، قائد الهوجونوت ، هو الهدف الرئيسي من المذبحة . وكانت كاثارين قد اقنعت ولدها بضرورة قتله ، واخيرا صاح تشارلس في جنون : « اذا كان من الضروري ان يقتل ، فليقتل جميع الهيجونوت في فرنسا في نفس الوقت » . وفي نهاية المذبحة اقتيد كولوني في شوارع باريس ، وشنق ثم علق من قدميه على منصة عالية ...

وبدأت صحة نوستراداموس في التدهور . وفي ستيناته تحول النقرس الى استسقاء ، وقد تنبأ بموته بدقته المعتادة :

في عودته من سفارته ، وقد
وضعت هدية الملك في مكانها ، لن
يفعل المزيد ، اذ يكون في طريقه الى الله . سيعثر
عليه اقرباؤه واصدقاؤه واخوته
بالقرب من سريره ودكته .

وارسل نوستراداموس الى آرليه ممثلا لاهل سالون . وفي عودته ، وجد ميتا بالقرب من فراشه ، متكئا على « الدكة » التي كان يصعد الى سريره عليها . ودفن على الفور في جدار كنيسة رهبان الكوردلينبرز ، بناء على طلبه .

وقد استمرت دراسة « القرون » منذ ذلك الحين . وتعلن واحدة من اكثر مقاطعها اثارة للاهتمام :

مثل ملك الغزاة العظام القدماء الهائل ،
في عام ١٩٩٩ ، في الشهر السابع ،
سيهبط ملك الفرع العظيم من السماء .
في هذا الزمن ، سيحكم مارس لصاحب قضية الحق .

ويفسر البعض هذه النبوءة بأنها نهاية العالم ، بينما يظن آخرون انها قد تعني غزوا من الفضاء الخارجي . ان عبارة «ملك الفرع العظيم» تبدو بحزن - كالقنبلة الهيدروجينية . اما ملك الفزاة العظام فيكاد بالتاكيد ان يكون هو « جنكيزخان » ، فان الكلمة التي استخدمها **Angolmois** هي احدى الكلمات التي يرمز بها نوستراداموس دائما الى المقول . وربما كان يحذر من « الرعب الاصفر » . ويتبنى لافر الراي القائل بانه ربما كان نوستراداموس يتبع الفكرة التي كانت سائدة في القرون الوسطى من ان العالم سيعيش سبعة الاف سنة . وقد كان يفترض ان العالم قد خلق في عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد . (وقد حدد رئيس الاساقفة اشراعام بدء الخليقة بانه ٤٠٠٤ ق.م بعد حسابات دقيقة لكل العصور المذكورة في التوراة) . فالالف القادمة اذن هي الالف الاخيرة من السنين في وجود الارض ، وعلى ذلك فربما كان نوستراداموس قد حسب شهر يوليو عام ١٩٩٩ باعتباره بداية النهاية ، لا النهاية . وقد يكون مما يستحق عناية رجال الحكم في العالم ان يبدلوا جهودا خاصة من اجل السلام في منتصف عام ١٩٩٩ .

خبراء ودجالون

يلاحظ المؤرخ سقوطا واضحا في نوعية السحر بعد القرن السادس عشر العظيم . ويستطيع اي انسان ان يخمن السبب . فكل الاشياء تمضي في دوائر . ثمة مصور عظيمة للشعر ، وللرسم ، وللموسيقى ، وللعلم . وفي العام الذي ولد فيه كورنيليوس اجريبا ، ظهر كتاب يدعى : « مطرقة الساحرات » ، كتبه اثنان من الرهبان الدومينيكان ، جاكوب سبرينجر (١٤٣٦ - ١٤٩٥) وهينريش كرامر (١٤٣٠ - ١٥٠٥) ، وهو الكتاب الذي يصفه روسيل هوبه روبينز بأنه : « اكثر الكتب التي وضعت في عبادة الشياطين ودراسة هذه العبادة اهمية وخبثا » . وكان المؤلفان على التوالي هما رئيس جامعة كولونيا ورئيس رهبان احد الاديرة . وقد صدر من الكتاب ست عشرة طبعة باللغة الالمانية ، واحدى عشرة بالفرنسية ، واثنان بالاطالية ، وست على الاقل بالانجليزية . وقد عاش الدكتور فاوست ، الذي اصبح ذلك البطل الهام في الاساطير ، عاش في بداية ذلك القرن ، لان تروثيموس يذكره بازدراف في خطاب كتب عام ١٥٠٧ . وكان من حظ فاوست ان يحل محل ثيوفيلوس في خيال الناس ، ولكن بينما كان ثيوفيلوس مخلوقا مسكينا ضعيفا باع روحه للشيطان في سورة من الياس ، كان فاوست هو البطل الشيطاني ، « بيرم » شاربيه ويعقصهما ويرتكب الموبقات القدرة الجديرة بوغد . وقد اسر ثيوفيلوس خيال الناس عبر ستة قرون لان فكرة التعاهد مع الشيطان كانت فكرة مفزعة للغاية . اما القرن السادس عشر فقد وجدها فكرة على قدر من الاثارة القاتنة ، بل المثيرة للشفف . لقد اثار فاوست نوعا من الاعجاب السري .

كان ما يحدث - مثلما نستطيع الان ان نرى اذ ننظر الى الورا - هو ان الكنيسة كانت تفقد قبضتها القوية . وكان الخيال الانساني يزداد نموا ، وكان

عصر العلم يقترب . وقام سيد ريفي مثقف وذكي ، يدعى ريجنالد سكوت ، بتأليف كتاب : « اكتشاف السحر » في عام ١٥٨٠ ، وقد اتخذ وجهة النظر الجديدة بشكك لا يتراجع عن شكه ، فاعلن ان : « كل المظاهر والاعمال الروحانية ليست سوى ادعاءات دجل مصطنعة . وان الساحرات كن شيئا من ابتكار محكمة التفتيش وتبدو بعض حكاياته مفحشة ومرحة . مثل قصة الشاب الذي كان من سوء حظه ان يفقد عضوه الجنسي في الجماع ، فيذهب الى الساحرة التي تدله على شجرة تحتوي « اعشاشها » على اغصان مختلفة الاحجام ، واذ يختار عضوا هائلا تصرخ فيه : لا ، هذا هو عضو الكاردينال الميت ، فخذ اي عضو آخر يعجبك . . » . ويقول سكوت ، معلقا بجديته : ليست هذه فكاهات من وحي الخيال ، لان من كتبوها هم . . . وقد وصف الملك جيمس الاول كتاب سكوت بأنه : « جدير باللعنة » ثم اف كتابه « عبادة الشياطين » في الرد عليه . ولكن على الرغم من وجود اسم الملك على الكتاب يدعمه ويروج له ، فان الكتاب لم يحقق ابدا ما حققه كتاب سكوت من شعبية .

لقد اخطا سكوت في اعتقاده بان كل المظاهر والاعمال الروحانية كانت راجعة الى عمليات الخداع والغش او الى الاضطراب العقلي من جانب المشاهدين . ولكن هذا الشك كان علامة صحية بعد قرون طويلة من التصديق الكامل . اما بالنسبة للملك جيمس الاول ، فكان قد تحول الى الايمان بالساحرات بسحب قضية « نورث بيرويك » ، حيث عذبت فتاة صغيرة كانت تمتلك بعض اللواهب الطبيعية القادرة على « العلاج الروحي » وشفاء الجراح ، عذبت على يدي سيدها حتى اعترفت بان الشيطان هو الذي كان يساعد ، وبعد مزيد من التعذيب اعترفت على عدد اخر من الناس . وكان هؤلاء من فئات « محترمة » جدا - ناظر المدرسة ، جون فيان ، وسيدة مثقفة مسنة هي آجنيس سامبسون ، وسيدتان اخريان لهما سمعة طيبة - الامر الذي يدفع الى الظن بان الفتاة اختارتهم لانها كانت تأمل انهم سرعان ما سيكشفون عن سخف الاتهامات الموجهة اليهم واليها كذلك . ولكن كانت الطريقة الوحيدة لايقاف عمليات التعذيب غير الانسانية ، كانت تعتمد على ابتكار قصص عن « يوم سبت الساحرات » ، واتهام المزيد من الابرياء . وهكذا فعل الجميع ممن اختارهم الفتاة ، حتى شملت المحاكمة سبعين شخصا . وقد اشرف الملك جيمس بنفسه على بعض مراحل التعذيب ، وخاصة حينما اخترعت الفتاة قصة عن الابحار في سفينة سريعة بهدف محاولة اغراق سفينة الملك . وقد تم احراق غالبية المتهمين السبعين ، واحرق بعضهم دون استخدام « الرافة » اليهودية ، بشنقهم قبل احراق جثثهم ، بل احرقوا احياء . وقد الف جيمس كتابه عن « عبادة الشياطين » كنتيجة لهذه التجربة . ولقد كان تحولا ساخرا ان دفعت شهوة الملك جيمس الى استجواب الساحرات ، صاحب الكتاب والتجربة في النهاية الى الانفاق مع ريجنالد سكوت على ان الجانب الاكبر من المسألة كان

تدليسا وغشا سافرا . وقد توقفت محاكمات الساحرات في نهاية عهده توقفا كاملا تقريبا .



كان الدكتور « جون دي » شخصية من اكثر الشخصيات في تاريخ السحر جدارة بالتعاطف ، رغم انه لم يكن من اكثرها بروزا . وقد امتدت حياته لتغطي عهود خمسة ملوك هنري الثامن ، وادوارد السادس ، والملكة ماري ، والملكة اليزابيث ، وجيمس الاول . ويكاد « دي » ان يتميز بين السحرة بعدم امتلاكه لاية « ملكات غيبية » مطلقا . وقد قال ذلك عن نفسه مرارا . كان متصوفا من نوع ما ، رغم انه لم يكن ينتمي الى مرتبة رفيعة من المتصوفين ، ذلك ان رغبته المسيطرة كانت في المعرفة ، والبحث والدراسة والتعلم . كان رجلا يشبه ان يكون « ه.ج. ويلز » من نوع باكر او بدائي ، يلهبه عطش لا يرتوي لان يعرف كل شيء . ومثل كسل الشعراء والسحرة الحقيقيين ، كان مسوقا برؤية عن واقع يختلف كل الاختلاف عن العالم العادي المبثقل الذي نعيش نحن فيه حياتنا العادية . كان باراسيلسوس واجريبا طبيبين درسا السحر لانه كان جزءا من مهنتهما . وكان في كل منهما جانب يدل على المهرج او المشعوذ . اما « دي » فقد درس السحر لانه كان شاعرا ، تراءى له ان السحر هو القادر على ان يقدم له مفتاح شكل آخر للوجود . ولم يكن فيه شيء من المهرج او الدجال .

كان والد « دي » موظفا صغيرا في بلاط هنري الثامن . وقد ولد في لندن ، في ١٣ يوليو من عام ١٥٢٧ . وكان كورنيليوس اجريبا صعلوكا تملأه المرارة ، يتجول في بلدان اوروبا في نفس الوقت الذي ولد فيه « دي » . وكان باراسيلسوس على وشك ان يطرده اعداؤه من بازل . اما نوستراداموس فكان طبيبا شابا ، لم يحصل على درجته العلمية بعد ، يواصل اسفاره في بلدان اوروبا لمكافحة الطاعون . وحينما يحين الوقت ، سيصبح « دي » هو الآخر جوالا لا يستقر ، رغم انه لن يكون ابدا بدون وطن .

والتحق « دي » بمدرسة تشانترى في تشيلمسفورد . وكانت هذه بلدة تجارية هادئة صغيرة تحيطها المروج الخضراء ، يجري بالقرب منها نهر طيني سريع . واولع دي بتصنع الكتب والمخطوطات القديمة . وسحرته طقوس الكنيسة الكاثوليكية (ذلك ان انجلترا لم تكن كلها بروتستانتية بعد) . وتسبب المنهاج الدراسي الضيق في المحافظة على قوة شهيته للمعرفة . ففي ذلك الزمن ، وطوال قرن آخر ، كانت حتى الجامعات معدومة الطموح بشكل كامل . فبدلا من القراءة والكتابة وتعليم الرياضيات ، كانت تعلم النحو والمنطق والبلاغة والخطابة . كانوا يدرسون اللاتينية ، ولكن اليونانية لم تكن تلقى اي عناينة . وكان التلاميذ

يولكون الى « معلم » يتمتع بالسلطة المطلقة ، ويقوم بتعليم كل شيء ، حتى كان يوسعه ان يضربهم عند الضرورة . وكانت المستويات الاكاديمية منخفضة فسي انجلترا ، ولم يكن هناك سوى القليل الذي يمكن ان يمنع طالبا من انفاق سنوات دراسته الجامعية السبع في شرب الخمر ومطاردة النساء . وفي النهاية لم يكن يوسع اي سيد انجليزي مهذب ان يجد نفعا واضحا حقيقيا لما يعرفه من لائنية ومنطق ، او حتى لما تعلمه من الجغرافيا والرياضيات ، حينما يتسلم مزارع الاسرة وممتلكاتها .

ولذلك ، فحينما ذهب « دي » الى كلية سانت جون في كامبريدج ، في الخامسة عشرة من عمره ، لم يكن لديه سبب للاحاساس بانه قد عثر على بينه الروحي - ملثما شعر برتراندراسل في العقد الاخير من القرن الماضي . ولكن الفرص ، كانت متاحة هناك ، اذا هو ورغب في اقتناصها . ولقد اقتنصها بالفعل ، وبقوة وكثافة غير عاديتين . لم يسمح لنفسه بان ينام في الليل لاكثر من اربع ساعات . بل انه درس اليونانية . وسرعان ما ادرك المسؤولون عن الجامعة ان معجزة صغيرة تعيش بينهم ، وحينما بلغ التاسعة عشرة ، اصبح دي زميلا في كلية ترينتي ، وقارنا مبتدئا (استاذا مساعدا) في اليونانية . وكان قد اصبح فلكيا متحمسا بالفعل .

وجعله الجو السائد في كامبريدج يشعر بالاختناق ، وفي اول فرصة ، ذهب الى جامعة لوفين ، التي كانت واحدة من احسن جامعات اوربا ، وحيث كان اجريبا قد درس من قبل . وهناك قرا دي كتابه اجريبا « الفلسفة الغيبية » فاثرت فيه ، واثارته ، فكرة ان السحر والسيما لم يكونا مجرد دراسات شيطانية ، وانما هامليين مساعدين بشكل عملي في البحث الصوفي عن الله . وكانت سمعة السحر سيئة في انجلترا ، التي كانت مستودعا بعيدا كالمستنقع في كل ما يتعلق بالثقافة . ولكن السحر في القارة كان يشير الاهتمام الذكي . ولا بد ان نتذكر ان السحر والعلم كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا في ذلك الزمن ، بل ان الرياضيات كانت تعتبر دراسة « سحرية » ، نبيها الرائد هو فيثاغوراس . كان للسحر عند دي نفس معنى العلم عند ه . ج . ويلز بعد ثلاثة قرون . كان هو ما ظل يحلم به باستمرار مجال رائع شاسع للدراسة ، دون حدود مرئية من اي نوع . وسرعان ما اكتسب شهرة تطاول شهرة كورنيليوس اجريبا .

وسبقته شهرته حينما ذهب الى باريس عام ١٥٥٠ ، وفي ريمز القسسى سلسلة متكاملة من المحاضرات عن « ابوقليدس » كانت الدعوة لحضورها مفتوحة وموجهة الى الجميع . كانت شهرته قد بلغت درجة جعلتهم يعرضون عليه الاستاذية في الجامعة ، ولكنه شعر بان اشياء اكثر اثارة ما زالت بانتظاره ، فعاد الى انجلترا ، حيث كان ادوارد السادس البالغ من عمره عشر سنوات

فحسب ، قد خلف هنري الثامن على العرش . ومنحه الملك معاشا دائما ، ولكنه باع المعاش على الفور مقابل أبرشيتين .

وفي عام ١٥٥٢ ، التقى بجيرون كاردان ، المتخصص في علوم الغيب ، والذي كان « ساحرا » بالمعنى الدقيق للكلمة : أي انه كان يمتلك حاسة سادسة بالغة التطور ، الى آخر الملكات الفيبية الاخرى . . لقد اكد في مذكراته انه كان يستطيع منذ طفولته ان يرى اشياء « خيالية » باحساس بانغ الواقعية . ويقول انه فسي طفولته ، لم يكن يستطيع ان يسيطر على هذه القدرة ، ولكنه تعلم فيما بعد كيف يختار الاشياء التي يريد ان « يراها » . ويتطابق كل هذا مع الصورة التي شيدناها للقدرة الطبيعية على الرؤية ، صورة الرجل الذي يعاني من نوع ما من الاضطراب الكيميائي (اضطراب تركيبة كيميائية الحيوية) الذي يؤدي الى نفس ما تولده جرعة من عقار عصبي او نفسي على الجهاز العصبي من آثار . وارتبط ذلك كله بنوع من الافتقار شبه الهستيرى الى السيطرة على النفس ، حتى انه كان يندفع الى الجدل بهدف الجدل ذاته ، سواء كان يؤمن بما يقول ام لا ، فيجد نفسه مضطرا الى ان يقول اشياء يعرف انها قد تنفر الناس منه . واعتقد انه يصاحب روحا تلزمه على الدوام ، كما كان منجما ومتنبئا موهوبا الى درجة غير عادية . ولا شك انه يعد واحدا من ابرز الاعاجيب النفسية في كل العصور .

وكان لكاردان تأثير كبير على « دي » الذي بدأ يفكر في الارواح التي يمكن ان يتصل بها لكي تساعد في بحوثه . كانت النقود هي مشكلته الان ، وظلت كذلك طوال ما بقي من حياته . وكان مقتنعا بانه اذا ما جرب طريقته الخاصة في السيمياء - وهي استخدام القوى الروحية - فانه سرعان ما سيحل مشكلة حجر الفلاسفة . ولكن السيمياء نفسها تكلف مالا . وتحطمت اماله في الحصول على منحه ملكية . حينما مات ادوارد السادس في السادسة عشرة من عمره ، واندفعت البلاد الى ازمة سياسية عنيفة . كان ادوارد قد اعلن ان السيد جين جراي هي من يجب ان تخلفه على العرش ، واهل انول نورتمبرلاند (وهو حامي دي وراعيه) السيدة جين ملكة على انجلترا وكانت حفيدة لهنري السابع . ولكن ماري ، ابنة هنري الثامن الكبرى كانت لها افكار اخرى ، فقادت جين ونورتمبرلاند راسيهما . وفي العام التالي ، قاد السير توماس ويات ، ابن الشاعر المشهور ، ثورة احتجاجا على الزواج المقترح بين ماري والملك فيليب عاهل اسبانيا ، واراد ان يضع اختهما الصغرى ، إليزابيث ، على العرش بدلا منها . ولكنه فشل هو الآخر واعدم والقي القبض على اليزابيث ووضعت رهن الاعتقال .

واكتسبت ملري اسم «ماري الدموية » بعد ان امرت باحراق اعداد كبيرة من البروتستانت اثر زواجها من وارث العرش الاسباني الكاثوليكي . اما فيما يتعلق بالبيد دي ، فان كل ما يمكن ان يقال في الدفاع عن عملية احراق البروتستانت

هي انها شغلت الناس عن احراق السحرة . وقد دعي دي لكي يقرأ طالع الملكة ماري في خريطة النجوم . وربما كانت معرفته المسبقة بموتها المبكر هي التي اعطته فكرة الاتصال بشقيقتها الصغرى ، التي كانت ستصبح الملكة التالية ، والتي كانت اسيرة في وودستوك فسي ذلك الوقت . وزار اليزابيث وقرا طالعها في ابراج النجوم هي الاخرى . بل انه اطلعها على طالع اختها ، ذلك انه رغم كل شيء ، لم يكن مصير ماري مرتبطا بمصير اليزابيث ؟ ولكن جواسيس ماري نظروا الى هذه الزيارة باعتبارها تشبه الى حد ما ان تكون مؤامرة سياسية . فالقي القبض على دي ، ووضع في السجن ، متهما بالخيانة . وهناك من بتجربة مخزنة ، عندما رأى زميله في السجن ، بأرتليت جرين ، وهو يحرق متهمنا بالزندقة ، رغم ما كان يبدو عليه من طيبة النفس . وقد كان من حظ دي ان ماري كانت مفرمة بأختها الصغرى ، والا لكان عليه ان يدفع ثمن التطفل بالدخول بيسن الملكة الحالية وملكة المستقبل . واطلق سراحه عام ١٥٥٥ .

وماتت ماري بعد ثلاثة اعوام ، واصبحت اليزابيث ملكة على انجلترا . وكان اول طلباتها هو ان يختار « دي » اليوم المناسب لتتويجها ، فوقع اختياره على اليوم الرابع عشر من يناير عام ١٥٥٩ . وبدا الامر كما لو كان « دي » قد ثبت اقدامه اخيرا ، فقد اصبح بشكل ما ، المنجم الملكي . ولكن اليزابيث لسوء الحظ كانت مقبوضة اليد بخيلة ، فلم تتحسن اوضاع دي المالية . واصبح شبيهها بالرسول الشخصي ، باسفاره الكثيرة الى القارة في بعثات خاصة بشؤون الملكة ، ووزيرها بيرلاي ، وسير والسينجهام ، رئيس جهاز التجسس عند الملكة . ومثلما حدث لاجربيا ، وجد « دي » نفسه غارقا في دوامة المؤامرات والاعمال الخفية . ولا بد ان هذا كان يمثل ضغطا نفسيا كبيرا بالنسبة لعاشق للكتب والهدوء . وفي عام ١٥٦٣ ، اكتشف في امستردام كتابا بعنوان : « ستينوجرافيا » من تأليف تريميموس ، وهو كتاب عن السحر والسيما ومعاني الارقام . وقد اثر هذا الكتاب في كتاب دي نفسه عن السحر ، الذي وضعه بعنوان : « الهيروغلفيات الكبرى » الذي الفه كله في اثني عشر يوما بعد فراغه من قراءة كتاب تريميموس . وقد تحير المعلقون بسبب ملاحظة الوزير ، اللورد بيرلاي ، على الكتاب ، التي تقول : « انه ذو اهمية عظيمة لامن النظام والعهد » . لماذا ؟ انه يعالج « الشفرات » التي ربما كانت ذات اهمية كبرى في عمليات التجسس . وكان دي قد وقع بالفعل تحت هاجس اكتشاف الكنوز بالاستعانة بالارواح - التي لا شك انها كان يمكن ان تفيد النظام والعهد . اما الاحتمال الاخر الوحيد لاهتمام الوزير ، فهو ان « دي » ظن انه امتلك وسائل مؤكدة يستطيع بها ان يعرف خطط اعداء انجلترا عن طريق التنجيم . فاذا كان الامر كذلك ، فان احدا لم يؤمن به ايمانا يكفي لدفعه الى تمويله . وظل « دي » رسولا شخصا ، ومستشارا في امور السحر احيانا .

وتقلبت الحياة بعد ذلك . تزوج فعانت زوجته بعد سنة ، فتزوج ثانية واستقر في منزل امه في « مورت ليك » على نهر التيمز قرب لندن . وبدأ يدرس الوسائل الروحية التي ظنها كفيلة بتوصيله الى ما كان يبحث عنه : حجب الفلاسفة . ولكنه لم يكن يمتلك اي مواهب روحانية خاصة . وجاءه غريب ايرلندي ، كان متهمًا من قبل بتزييف النقود وصكوك المصارف ، ولكنه كان يملك المواهب الروحانية الطبيعية المطلوبة . وبدأ يستخدم « الكرة البللورية » كموضوع للتأمل المركز المؤدي الى القدرة على رؤية الاشياء الخفية . ورحل الى اوروبا لمدة اربع سنوات ، بصحبة زوجته ومساعدته الايرلندي . وهناك زار رودلف الثاني امبراطور المانيا ، وفرانسوا الثالث ملك فرنسا ، ودون بوهيميا ، ولكنه لم ينجز الكثير من العمل . وعاد بعد اسنوات الأربع ، لكي يجد ان منزله قد سرقت منه ادواته ومكتبته ، ولكن الملكة قدمت له تعويضا بسيطا ، ثم ماتت زوجته بالطاعون . واقترب القرن من نهايته ، وكان هو في الثمانين من عمره دون ان يرداد اقترابا من الهدف الذي كان يسعى اليه . ومات في قريته ، مورت ليك عام ١٦٠٨ ، بعد ان كتب مجلدات كثيرة عن ذكرياته وتجاربه واعماله ، وترك كرة بللورية قال ان روحا اهدتها اليه بأمر من الملك روفائيل ، وهي الآن في المتحف البريطاني ..



مع مطلع القرن الجديد ، في عام ١٦٠٠ ، كان عصر السحر قد انتهى ، وكان صوت الشك العقلي قد بدأ يرتفع ويصبح مسموعا : عند رابليه ومونتاني وبيكون جونسون . لقد ثارت نائرة مونتاني بسبب عمليات حرق الساحرات ، وكتب معلقا : « يحتاج الامر الى قدر حاد ولامع من الوضوح لكي يصبح الناس قادرين على قتل غيرهم ، ان حياتنا لحقيقية للغاية ، وخاضعة ايضا لحوادث عارضة خيالية واسمى من الطبيعة » . ولست اظن ان احدا ، ولا حتى المؤمن بعلم الغيب ، يمكن الا يتفق معه . والمشكلة هنا ببساطة هي : اي نوع من الوعي الانساني يعي بهذه الاحداث العارضة ؟ . اما ويليام جيمس ، في كتابه : « انواع من التجربة الدينية » فيضع في تعارض مع « النفس المريضة » ، التي تكون على الدوام مدركة ادراكا عميقا بما في العالم من بؤس وعذاب ، يضع المتفائل الذي لا يرى شيئا ، والذي يرفض مزاجه البؤس بشكل غريزي . وينطبق نفس الشيء على ما يتعلق بالغيب ومعرفته . ان شخصا من النوع المشغول المشحون بالطاقة ، لا يكون لديه وقت لما هو فوق الطبيعة ، ويجعله رفضه المزاجي له يشعر بان هذا العالم القائم من مجموعة من القضايا المحددة العملية ، هو العالم الحقيقي الوحيد . وهذه غريزة صحية . ولا بد لنا ان نتذكر ان جميع الاطفال تقريبا لا يحبون ما فوق الطبيعة ، الا ما يكون منها في قصص الاشباح . وليس هذا نوعا من الخوف

بالضرورة ، وانما هو احتياج غريزي لمواجهة عالم بسيط وواضح يستطيعون فيه ان يتخذوا قراراتهم وان يشكلوا مصائرهم وحياتهم . ويستطيع ان يفهم هذا كل من حاول ان يحب العلم . ثمة شيء في العلم بارد وصلب ومنعش ، مثل معركة مرحلة بكرات الثلج في يوم صقيعي . انه يبدو كما لو كان يفتح مساحات شاسعة من السيطرة والغزو . اما عالم الغيب ، فهو بالمقارنة بالعلم ، عالم رطب يغلله الضباب ، يذكر الانسان بجهله ، ويشجعه على ان يتخذ موقفا سلبيا من وجوده .

وحيثما جاء عصر رابليه وشيكسبير ، ثم عصر نيوتن وميلتون ، بلغ الدهن الانساني مرحلة جديدة من تطوره . كان هناك احساس بالامكانيات والاحتمالات القائمة . ووجود آفاق شاسعة مثيرة . وكان اكتشاف امريكا عام ١٤٩٢ ، رمزا لهذا التغير . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تترنح تحت الضربات التي كالتها لها لوثر وهنري الثامن . حقا ان جاليليو قد ارغم على ان يسحب الراي الذي كان قد عبر عنه عام ١٦٣٢ ، من ان الارض تدور حول الشمس ، ولكن في عام موته (عام ١٦٤٢) ولد نيوتن ، ولم يعد بهم كثيرا ما كان يقوله البابا وكرادته . وعندما نشر كتاب « المبادئ » لنيوتن عام ١٦٨٧ ، خطا العلم خطوة اعظم بكثير من كل ما خطاه السحر منذ مولده في مصر القديمة وكلدانيا . وحيثما يحاول المرء ان يفكر في السخافات المتضمنة في اعمال كورنييلوس اجريبا ، وجون دين وتريميثيوس ، ثم يتحول الى هذا البناء المعقد الرائع من الافكار حيث كل شيء صحيح وصائب ، فانه يصبح قادرا على رؤية السبب الذي جعل السحر يفقد اهميته .

ولكن الحقيقة هي ان نهضة العلم لم تكن ضربة موجهة ضد النزعة الغيبية . على العكس : كان معنى تلك النهضة ان النزعة الغيبية تستطيع ان تحرر نفسها من العلم المزعوم عند اجريبا وباراسيلسوس وان تركز على اهتماماتها الحقيقية .

بعد عام واحد من نشر نيوتن لكتابه : « المبادئ » ولد اعظم دارسي الغيب في القرن الثامن عشر ، رغم انه ينتمي الى تاريخ الدين باكثر من انتمائه لتاريخ السحر . كان ايمانويل سويندنبورج وسيطسا طبيعيا ، رغم ان قدراته لم تتطور وتبرز الا في مرحلة متأخرة من حياته . في سنواته الاولى درس العلوم والرياضيات ، وفي سن الثامنة والعشرين اصبح مستشارا فنيا للهيئة السويدية للمناجم ، والف كتابا عن صهر المعادن وتنقيتها . ثم درس الفلك وعلم وظائف الاعضاء . ولكنه كان رجلا محبطا الى حد عظيم . فبعد ان اصبح مستشارا بفترة وجيزة ، وقع في حب الانسة يلهيم التي قبلته زوجها لها . ولكنها عادت فقررت انها لم تعد تهتم بسويندنبورج رغم كل شيء ، وقسخت الخطبة . وكان سويندنبورج قوي النزوع

الجنسي ، ولا بد ان رفض خطيبته له كان ضربة على كل المستويات : في كبريائه وفي عاطفته ، وفي احساسه الجنسي كرجل (في كتابه عن « الحب الزوجي » يصدىم اتباعه بتصريحه ان العشق السري ، والاحتفاظ بالعشيق امر مسموح به في ظروف معينة - وهذا تصريح جدير بالانتباه اذ يصدر عن ابن اسقف) . بل ان احباطه الثقافي كان مساويا لاحباطه العاطفي ، ذلك ان الاكاديميات السويدية تجاهلت آراءه العلمية التي كانت متقدمة بكثير عن عصرها . ولكنه هرب من احساسه بالاحباط من خلال العمل الشاق . وفي عام ١٧١٣ ، في ذات الفترة التي عانى فيها تقريبا من احباطه في الحب ، طلب منه الملك تشارلس الثاني عشر ان يحل مشكلة نقل سفن عبر خمسة عشر ميلا من الارض (وكان الملك يحاصر الدنماركيين في قلعة فريدريك شالد) . وانجز سويدنبورج ما طلب منه في سبعة اسابيع . ثم اصبح مشغولا فيما بعد ببناء ارسفغة السفن فسي كارلسكرونا ، وبشق القنال الذي كان سيصل بحر الشمال ببحر البلطيق (وهو المشروع الذي لم يكتمل بعد ان قتل تشارلس الثاني عشر في المعركة) . كانت طاقة سويدنبورج هائلة . وقد وضع كتباً في الجبر والفلك والمعادن والاقتصاد وامواج المد وتعيين الملح وفي التشريح .

وقد ادى كل هذا النشاط العملي الى تجويع الجانب الديني من طبيعته ، وانفجر هذا الجانب في عام ١٧٤٤ كالعصار . وبدأ الاعصار بحلم سمع فيه ربحاً تزار وشعر كما لو كانت الريح تحمله ثم تقلد به على وجهه . وبدأ يصلي ثم رأى المسيح امامه . وبعد حوار غامض المعنى ، استيقظ بعد ان سمع المسيح ، في نهاية الحوار يقول : « حسناً . اذن ، فليكن » . ولم يكن هذا سوى واحد من سلسلة من الاحلام والهلوسات الغريبة (او الرؤى) . وبدأت تنتابه نوبات من الهلوسات النشوان ، وفجأة كفت نوبات الشبق الجنسي الدائمة عن مضايقته . ثم بدأ يرى الرؤى التي زار في اثنائها الفردوس والجحيم . وقد اعلن في كتبه ان العالم الاخر يشبه هذا العالم شبيهاً شديداً في كل خصائصه الاساسية ، وان الناس يظنون الى حد كبير مثلما كانوا في حياتهم . ولكن لما كان عالماً اقل مادية من عالمنا هذا ، فان الحالات العقلية للناس اكثر اهمية بكثير ، وما الفردوس ولا الجحيم الا تلك الحالات العقلية . وفي كتبه من مثل : « الدين المسيحي الحقيقي » « الفردوس والجحيم » ، « الحب المقدس » ، « الحكمة » يصف باسهاب وشمول محادثات اشترك فيها مع الملائكة والسياطين والناس ممن تم « صعودهم » . وهذا هو ما يؤدي بنا الى قلب مشكلة سويدنبورج . لقد اعتبره معظم معاصريه مجنوناً او كذاباً . ومال نقاده في القرن العشرين . مثل ا . ج دينجول - السى الاخذ بنظرة فرويدية واعتبار « رؤاه » نتاجاً مرضياً لطاقته الجنسية ، المكتوبة . وهناك بالفعل حالات قوية تؤيد هذا الرأي . . من بينها حوادث يمكن ان

تشير الى امكانية وجود إيهام ذاتي والوقوع في اسر هاجس جنسي .

ومن الجانب الآخر ، وحينما يتحول المرء الى كتاباته ، يصبح من الصعبان نعتمد على هذا الرأي الجانج الى التقليل من شأن الرجل . ان ولعه المرضي بالتفسيرات التوراتية قد يؤدي الى املال القاريء الحديث ، اما فيما يتعلق بالاسلوب ، فانه بالتأكيد ليس كاتباً من نوع باسكال او نيومان . ولكنه كامل العقل حريف ولاذع بما فيه الكفاية - وبذلك فانه قادر على اشاعة الاحساس بالجدّة والطراجة . لا تحتوي اعماله على ومضات من العبقرية ، ولكننا نواجه عقلا متوازنا عميق الجدية . وحينما يواجه تحدي المتشككين في آرائه ، فانه لا يفقد هدوءه ابداً ، بل انه لا يفقد حتى حسه الفكاهي .

ورغم ان تلك الاراء بدت في عيون معاصريه غريبة ووحشية ، فانها تلتقت منذ ذلك الحين قدرا كبيرا من التأييد والدعم . لم تكن النزعة الروحانية موجودة في القرن الثامن عشر ، وانما وجدت في العقد السادس من القرن التاسع عشر . وعندما اقترب هذا القرن من نهايته كان ثمة كتلة لا يستهان بها من الادب الذي يظهر منه - او زعم - ان الارواح هي التي املته (مثل كتاب « تعاليم روح » الذي كتبه ستبانتون موسيس) واستمرت هذه الكتلة في التمدد والانتفاخ منذ ذلك الحين (٢) . وتبدو النغمة السائدة العامة في كثير من هذا الادب نفمة ورع وتقوى الى درجة تثير الفثيان ، ولكن لا بد من الاعتراف بانه ادب يتميز بقدر ملحوظ من التماسك الداخلي ، فحينما يتأمل القاريء السهولة التي كانت الفرق الدينية تصوغ بها تعاليمها ومعتقداتها الجامدة ، فان هذا الاتفاق ، او التماسك الداخلي سيبدو امرا يدعو الى الدهشة . وتتماثل الاوصاف التي يقدمها هذا الادب للعالم الاخر مع الاوصاف التي يقولها سوينبورج . وقد يتبنى المتشككون الرأي القائل بان هذا التشابه راجع الى تأثير سوينبورج في الروحانيين . ولكنهم ينكرون هذا التأثير على اساس مجرد التنوع الكبير والكم الهائل من كتابات الارواح - وعلى اساس انها كتبت في لغات عديدة وعبر عدة

(٢) يقول كتاب « تعاليم روح » باختصار ، ان الانسان لا « يخلص » بموت المسيح على الصليب، وانما ينبغي ان يخلص نفسه باعماله في خلال حياته . وكل الافكار والاعمال تسجل على « جسد الروح »، بحيث يعرف الانسان بمد موته ، ويعرف كيف كان بالتحديد . ولكل اعمال الانسان اهميتها . ان رجلا غنوصيا (ادريسا) طيبا بطبيعته سيحصل على مكانة اسمى من مكانة المعلم على الدهاب الى الكنيسة اذا كان مفرضا خاليا من الالهام . ولا بد للانسان من تقديم « عوض » عن شوره في الحياة الاخرة ، ولكن ليس هناك جحيم ، فالجحيم مجرد حالة عقلية . وليس هناك حد اقصى لا تستطيع نفس الانسان ان تحلقه من تقدم يمكن ان يستمر في العالم الاخر . وتشيع هذه الاراء عند سوينبورج وفي التعاليم الروحية الحديثة .

قرون مما يدحض الزعم بهذا التأثير . اما التفسير المنطقي الوحيد الآخر ، فهو التفسير القائم على افكار يونج والقائم على ان رؤى سويدنبورج كانت عمليات كشف عن نفس « الجنس » ، وتعبيرات عن رموز نمطية شائعة على مستوى العالم ، وان نفس التفسير هو ما ينطبق على النزعة الروحانية الحديثة . ولا يمكننا هنا - دون ان نتحيز لجانب ضد آخر ، الا ان نقول بان الادلة التي تقدم لصالح سويدنبورج اليوم اقوى مما كانت عليه في عصره .

ومن الجانب الآخر ، ماذا يمكن للمرء ان يقول عن كتابه : « اراض في الكون » حيث يقول بان لمعظم الكواكب سكانها ، ثم يتطرق الى وصف هؤلاء السكان بطريقة توحي باننا نشاهد لوحة من رسم هيرونيوموس بوش ؟ فيقول ان جو القمر مختلف عن جو الارض بحيث يتحدث رجال القمر من معداتهم بدلا من رئاتهم ، فتبدو اصواتهم مثل الخوار ، امارجال المريح فوجوهم نصفها احمر والنصف الاخر بلون الليمون ، وهم يعيشون على الفواكه ويرتدون اليافا مأخوذة من لحاء الاشجار ، فاذا كان سويدنبورج « وسيطا » فلا نستطيع الا الزعم بان الارواح كانت « تجر رجله » الى هذا الهراء . او ربما كان الاكثر احتمالا هو ان خياله كان بالغ التطور حتى انه خلط بين احلامه وخیالاته وبين استبصاراته الحقيقية الصادقة .

ولا يمكننا ان نصرف النظر كليا عن التفسير الفرويدي ، او التفسير الذي يجنح الى التقليل من شأن سويدنبورج . لقد « كان » سويدنبورج محبطا من الناحية الجنسية . ومن الممكن بالفعل لبعض تجاربه الدينية ان تضرب كمثال في اي كتاب مرجعي للتركيبة النفسية غير الطبيعية . وقد كان في اواخر العقد الخامس من حياته حينما وصلت قواه السيكلوجية المتفجرة في النهاية الى نوع من التوازن . ولكن الاعتراف بهذه الحقيقة لا ينبغي ان يعمينا عن الهامه الديني الاصيل الحقيقي ولا عن اهمية افكاره الاساسية . لم يكن فيه اي تشابه مع المهرج او المشعوذ ، ولا يبدو في حياته شيء من تبادل فترات التفوق والسقوط التي تبدو من الخصائص المميزة لحياة السحرة . ولا يمكن ان يكون الا القليل من الشك في قدراته الغيبية . ويروي الكونت هوبكينس ، وهو احد معاصريه ، احسن ما عرف من القصص عن هذه القوى :

« كان سويدنبورج مدموا لاحدى حفلات الاستقبال في البلاط . وسألته جلالة الملكة عن بعض الاشياء حول العالم الآخر ، واخيرا سألته ان كان قد رأى او تحدث مع اخيها ، ولي عهد بروسيا . فاجاب بالنفي ، وطلبت منه الملكة ان يبحث عنه وان يبلغه تحياتها ، فوعد سويدنبورج بان يفعل . وفي حفل الاستقبال التالي ، وبينما كانت الملكة تقف وسط سيدات البلاط ، لم يندفع نحوها سويدنبورج

بجسارة تحسب ، وانما قال لها ان اخاها يبلغها تحياته ، وانه آسف لانه لم يستطع ان يجيب على اخر خطاباتها ، وانه يريد ان يبلغها هذا الرد من خلال سويدنبورج نفسه ، ثم تلا عليها رد الامير الميت . وامتلكت الدهشة الهائلة الملكة وقالت : « ليس سوى الله من كان يعرف هذا السحر . . »

وفي اليوم التاسع عشر من شهر يوليو عام ١٧٩٥ ، شب حريق كبير في ستوكهولم ، وكان سويدنبورج في ذلك الوقت في حفل في مدينة جوتنبرج التي تبعد عن ستوكهولم ثلاثمائة ميل . وفي الساعة السادسة مساء اخبر الضيوف بأن النار قد نشبت لتوها ، وبعد ساعتين قال لهم انه قد تم اطفائها وهي على بعد ثلاثة منازل فقط من بيته . وقد تأكد هذا بعد يومين حينما وصل رسول من العاصمة ، مؤكدا كل تفصيلة قال بها سويدنبورج .

وفي عام ١٧٦١ ، طلبت منه ارملة السفير الهولندي ان يتصل بروح زوجها الميت ، لكنني يتأكد ان كان قد دفع تكاليف صنع « طاقم للشاي » من الفضة ، اذان الصانع كان ينكر ، وكانت الارملة واثقة من الدفع . وبعد ايام قال لها سويدنبورج ان روح الزوج تقول بانه دفع التكاليف قبل موته بسبعة شهور ، وان الاتصال موجود في درج المكتب . وقالت الارملة انها بحثت بدقة ولم تجد شيئا في ادراج المكتب . فوصف سويدنبورج درجا سريا في المكتب يحتوي على بعض المراسلات الخاصة والايسالات ، من بينها الاتصال المطلوب ، وقد عثرت السيدة عليه في المكان الذي حدده سويدنبورج .

يشير ١.١. دينجول ، في مقال شامل عن سويدنبورج الى ان الادلة المتوافرة عن تلك القصص الثلاث ، ولعدد اخر من الحوادث المماثلة ، ادلة مشوشة ومتضاربة . وقد يكون الامر كذلك الى حد كبير . . انما تكمن الاهمية الاساسية لسويدنبورج في التعاليم التي بشر بها ، وهي التعاليم التي تقف على خط مستقيم معاكس مع الفرق الدينية الشاذة وتعاليمها المتجهمة المليئة بنيران الجحيم . انه يرفض فكرة ان يسوع مات على الصليب لكي يفتدي خطيئة آدم ، معلنا ان الله ليس باحثا عن القصص ، ولا هو صغير العقل ، وانه طالما هو الله ، فانه ليس بحاجة الى فداء . ومما يلفت النظر ان هذا الرأي المغفول لم يخطر للاهوتيين السابقين . ان الله خير مقدس ، ويسوع حكمة مقدسة ، ولا بد للاقتراب من الخير من السير في طريق الحكمة . ومهما كان من تفكير الناس وظنونهم في المزامم الغريبة لمؤسس الديانة السويدنبورجية ، فلا بد من الاعتراف بان في هذه الديانة شيئا بالغ الجمال والصحة . وهذا الاحساس بالصحة العفية هو السبب الاساسي في شعبيتها الدائمة . وربما لم يكن مؤسسها باحثا عظيما في عالم الغيب وعلومه ، ولكنه كان رجلا عظيما .

✱

كان معنى روح العلم الجديدة ، ومؤداها ، انه لم يعد من الممكن ان يوجد باراسيلسوس او جون دي من جديد . ولو ان باراسيلسوس قد ولد متأخرا قرنين ، لكان قد اصبحت طبيبا وعالما بارزا ، وليس ساحرا . اما بالنسبة للباحثين في علوم الغيب انفسهم ، فلم يعد في وسعهم ان يزعموا بان العلم يقف الى جانبهم ، ولا انهم يمتلكونه ، الامر الذي ادى في مغزاه الى انهم كان عليهم ان يكفوا عن الزعم بامتلاكهم لنوع من المعرفة يفوق المعرفة العلمية . كانوا امام خيارين : اما التهريج والشعوذة ، واما الصوفية . ومنذ عام ١٧٠٠ ، لم يعد هناك « ساحر » دون ان يكون فيه لمسة من المشعوذ الدجال .

ومن المؤكد ان هذا ينطبق على واحد من اكثر الشخصيات اهمية في مرحلة التحول هذه ، وهو فرانز أنتون ميسمر ، الذي عزي اليه دون حق فضل ابتكار التنويم المغناطيسي (الذي اصبحت لاسمه مرادف هو : المسمرية Mesmerism) . وتعتبر قصة حياته واحدة من اعجب القصص في تاريخ علوم الغيب .

كان المفروض ان تكون حياة ميسمر حياة مريحة خالية من الاحداث الغريبة او غير العادية . وكان والداه ميسورين . ولد في سويسرا في ٢٣ مايو عام ١٧٣٤ ، وحصل على درجة علمية من جامعة فيينا حين كان في الثانية والثلاثين من عمره . ويبدو موضوع رسالته كما لو كان قفزة الى الوراء نحو عصر باراسيلسوس : تأثير الكواكب على الجسد الانساني ، وقد كتبت ، بالطبع ، باللغة اللاتينية . كان رجلا ذا شخصية آسرة . وقد وقعت في حبه سيدة مريضة ثرية ، تكبره بعدة اعوام ، فتزوجها ، وانتقل الى قصرها الجميل في ضواحي فيينا . وكان يمتلك ايضا منزلا فاخرا في قلب المدينة .

وتتمتع النظرية التي قدمها ميسمر في هذه الرسالة بأهمية ملحوظة . لقد اعتقد بوجود نوع من « الاثير » النفساني ، يتخلل الفضاء كله ، وان الاجرام السماوية تؤثر في هذا السائل وتنتج فيه حركة تشبه حركة المد والجزر البحرين . وتؤدي عمليات المد المتحركة ابدا ، هذه ، الى الصحة . فاذا اصابك شيء ما حركتها وتأثيرها في الاشخاص ، فالمرض هو النتيجة المؤكدة . وبكلمات اخرى : ان الصحة هي الوضع الطبيعي للانسان . اما المرض فهو نوع من « السد » امام الحركة ، او القيد عليها . ولا بد للانسان ان يعتمد على الحركة بدلا من العقل ، اتحاد غريزي مع الطبيعة . فاذا قام « سد » ما داخل مريض ، فان افضل طريق لمعالجته هي احداث أزمة ما لكي تكتسح السد امامها .

وقد اثارت هذه النظريات اهتمام راهب يسومي يدعى البروفيسور ماكسيميليان هيهل ، الذي حدث ان طلبت منه سيدة ثرية في فيينا ان يصنع لها مغناطيسا لكي تضعه على معدتها التي كانت تعاني من بعض التقلصات ، وقالت انها

عابرة بالصدفة في المدينة ، وقد نسيت المغناطيس الخاص بها في منزلها . وصنع هيهل المغناطيس وشغيت المرأة من التقلصات . وتساءل هيهل : أمن الممكن ان يكون المغناطيس قد حرك « السائل الاثيري » الذي تحدث عنه ميسمير حول الجسم ؟ ونقل هيهل هذا السؤال الى ميسمير ، الذي بدأ يجرب تأثير المغناطيس على مرضاه . ولدهشته ، وجد انها تؤدي تأثيرا واضحا . اذن فللجسم بالفعل ، حركات مد وجزر .

ولم يكن قد مضى وقت طويل ، حينما كان ميسمير يفصد دم احد المرضى (وكانت عملية فصد الدم هي العلاج الشائع وقتذاك لالغالبية الامراض) . فلاحظ ان نزيف الدم كان يتزايد كلما اقترب هو من المريض ، ويخف الى حد كبير حين يبتعد . وكانت النتيجة التي استخلصها واضحة : لا بد ان يكون جسمه هو مغناطيسيا من نوع ما . وفي عام ١٧٧٥ نشر ميسمير كتابا صغيرا عن اكتشافاته وقابلته دوائر المهنة الطبية بالشكوك ، ولكن المرضى كانوا متلهفين الى تجربة العلاج الجديد ، وتزايدت اعمال ميسمير . كان يضع المغناطيسات على اجساد المرضى ، او يضع يديه هو ببساطة ، فتختفي الآلام .

ولكن ما حدث يبدو واضحا الى درجة كافية . لقد آمن ميسمير بان المغناطيسات الى جانب يديه ، قد حركت « السائل المغناطيسي » الراكذ داخل مرضاه ، وقد آمن مرضاه بذلك ايضا . ولذلك فانهم كانوا يشعرون بالراحة من الالم ، كان لميسمير السبب في ان يعتقد بانه هو الذي جاء بهذه الراحة . ومثلما فعل الكولونيل اولكوت ، بدأ ينمي مواهبه ، العلاجية ، المواهب العلاجية المهمة والخفية التي يمتلكها كل انسان .

وتزايدت شهرة ميسمير فجأة من خلال حادثة عارضة . كان البارون هاريسكي دي هوركا ، مصابا بورم غضروفي ويعاني من نوع من التشنجات التي عجز الاطباء عن علاجها . وفي النهاية ، اقترح عليه طبيب استبد به الارهاق وزادت سخريته ان يعرض نفسه على ميسمير ، مشيرا بذلك دون شك ، الى انه طالما كانت متاعب البارون من نبت خياله ، فلا بد ان مهرجا مثل ميسمير لن يزيد لها ضررا .

وذهب ميسمير الى مزرعة البارون في روكوف ، وقد احاط جسمه بعدد من المغناطيسات القوية . وكان يؤمن بانه لا فرق بين مغناطيسية الجسد الحي وبين مغناطيسية المعدن ، فكان يقصد من كمية المغناطيسات التي ربطها حول جسمه ان « يزيد شحنة » جسمه هو الذي سيستخدمه في علاج البارون . وبدأت جلسات العلاج المغناطيسي ، ولكن البارون لم يستجب ، وان كانت عزيمة ميسمير جعلته يصر على الاستمرار لمدة ستة ايام . وبعدها بدأ جسم البارون يستجيب لعمليات

التدليك التي كان يقوم بها ميسمير ، وبدأ البارون يشعر بالراحة . واصبح العلاج الحديث الرئيسي لصالونات فيينا ، ولعن الاطباء زميلهم الساخر السدي ساعدت سخريته على بناء شهرة مشعوذ دجال .

وصنع ميسمير من تصميمه جهازا لتوزيع الطاقة المغناطيسية ، مكونا من عدد من القوارير تحتوي على « ماء ممغنط » وحولها اعداد كثيرة من المغناطيسات ، تربط بينها حبال رفيعة من الصلب ، ثم وضع التركيبة كلها في صندوق خشبي كالوعاء الكبير ، ملأه ببرادة الحديد والماء . وكان يستخدم ابرة معدنية لتوزيع الطاقة المغناطيسية في ارجاء الحجرة . وتمت مغنطة الاشجار والنافورات في الحديقة . وراح المرضى يرقدون تحت الاشجار بالعشرات ، وقد تماسكت ايدهم ليكونوا حلقة لتوصيل الطاقة بعد استقبالها . واستمرت النتائج في التحسن .

وجاء سقوط ميسمير في فيينا بسبب عازفة بيانو حسناء عمياء تدعى ماري تيريزا باراوايز ، وكانت في رعاية الامبراطورة . وزعم ميسمير انه يستطيع ان يردها مبصرة ، دون ان يتبين انها كانت عمياء منذ مولدها بسبب تليف فطري في قرنية العينين . ورغم ذلك ، فقد زعمت الفتاة بعد عدة اسابيع من انتقالها الى منزل ميسمير وبدا العلاج ، انها بدأت ترى بشكل معتم . ولكن اعداء ميسمير من الاطباء ، وحماة الاخلاق ، ومن بينهم الراهب اليسوعي هيهل ، راحوا يتهامون عن السبب الذي يفرض ان يتضمن العلاج قيام ميسمير بتدليك صدر الفتاة ، وفخذيها ، ولماذا كانت كل مريضاته من الشابات الحسان ، ولماذا هو يهمل زوجته العجوز المريضة ولا يعالجهما ؟ وتطوع طبيب يدعى البروفيسور بارث لكي يفحص الفتاة ، فاعلن جازما ان الفتاة لا تزال عمياء ، وبدأ « بوليس الاداب والاخلاق الامبراطوري » يستعد للتدخل في القضية . ولكن ميسمير قرر الهرب من فيينا ، رغم ان بعض اصدقائه اكدوا ان حالة الفتاة كانت في تحسن ، وانها انتكست بعد هربه وتوقف العلاج .

وذهب ميسمير الى باريس ، فتحول الى نوع من الخبل العام ، وقصده الجميع ، ومن لم يقصده كان لا بد ان يشعر بالنقص او الضعف او قلة الحيلة . واكتشف قبل قرويد بقرن كامل ، اهمية العنصر الجنسي في الامراض الهستيرية . كان يدخل حجرة العلاج ، مرتديا « جليبا » حريريا ليلكي اللون : حاملا مغناطيسا طويلا ، يشير به نحو المرضى وهو يمر وسطهم . ثم يدخل الحجرة التالية ليعرف على بيانو ممغنط ، ثم يشكل المرضى سلسلة متماسكة - مكونة من الرجال والنساء بالتبادل - ويضغطون على افخاذهم ليزيدوا من قوة الطاقة المغناطيسية . وسرعان ما تنتابهم التقلصات ، ثم ينهارون على الارض . ولما كانت الطاقة

المغناطيسية تتناول وتنتقل بالأيدي ، والافخاذ منطقة حساسة ، فان الفرص متاحة لهم لتجربة مغناطيسيتهم الحيوانية احدهم على الآخر ، وكل شيء يتم باسم العلم الطبي . ويقوم المساعدون بنقل من يزداد تاثرهم اكثر من اللازم الى « حجرة الازمات » حيث كانوا يتعرضون للمزيد من المغناطيسية الحيوانية لتوصيلهم الى تقلص الدروة النهائية . وآمن الجميع بنظريات ميسمير ايمانا كليا ، اذ ان الايمان الاعمى الحماسي وحده هو ان الذي كان يستطيع ان يبرر تلك الاعمال الشبيهة الجماعية . كانت طريقة مبهجة للتخلص من انواع الكبت المختلفة ، وكان العلاج ناجحا نجاحا لا شك في فهم اسبابه . وانتشرت شهرة ميسمير في كل انحاء فرنسا . وراح يلقي تلاميذه اساليبه الجديدة ، واسس مراكز للعلاج طبقا لها في كثير من المدن الرئيسية . وحينما بدأ الصراع مع السلطات ، كان ميسمير هو من يتمتع بمركز القوة . وعرض عليه الملك لويس السادس عشر مرتبا ثابتا طيلة حياته اذا تعهد بالبقاء في فرنسا ، ولكن الملك اشار الى انه ينبغي ان يسمح لبعثة طبية بان تفحص الادلة التي يقدمها على صحة مزاعمه قبل ان يتم توقيع العقد . ولكن ميسمير رفض ان يقدم الادلة والبراهين المطلوبة ، ورفض ايضا ان يوقع اي عقد . ثم طلب ان يضمنوا له نصف مليون من الفرنكات الذهبية تخصص للبحوث « العلمية » ، وهدد بان يرحل من فرنسا اذا لم يدفع المبلغ دون اي شروط . وتوسل المرضى من الارستقراطيين الى الملك ان يوافق ، ولكن الملك تمسك بموقفه . وفي اليوم الذي كان ميسمير قد حددته نهاية لاندازه ، غادر فرنسا . وكان ذلك في ١٨ سبتمبر عام ١٧٨٠ . وعلى الفور ، اسس اتباعه صندوقا ، ودفع كل منهم مائة « لويس » ذهبي لكي يصبح مالكا لسهم في شركة جديدة للاعمال المغناطيسية . وحينما جمع الصندوق ٣٥٠ الف من اللويسات الذهبية ، وهو مبلغ يزيد كثيرا عما كان ميسمير قد طلبه اصلا ، وافق على العودة الى فرنسا ، واستمرت اعماله وواصل نشاطه بنفس النجاح المكتسح القديم .

وانزعج الملك انزعاجا له ما يبرره ، ثم استسلم اخيرا لمطالب « كلية الطب » باقامة بعثة للتحقيق . وفي عام ١٧٨٤ ، راح عدد كبير من الاطباء يلاحظون وقد خلبت البابهم ، التقلصات العصبية للمرضى ، ووصلوا الى استنتاج يقول انه رغم وضوح ان ميسمير يمتلك قدرة احياء عظيمة القوة ، فان لا شيء يدل على وجود سيال مغناطيسي .

وكانت هذه هي نهاية الطفرة والازدهار بالنسبة لميسمير . وراحت مكانته ، كما راح حظه ، ينهار بالتدريج ، ومضى الناس يتفككون به ويسخرون منه . وذهب اليه طبيب بقصة مختلفة عن مرضه مرضا غريبا . وطلب منه ان « يعالجه » ، ثم نشر الطبيب القصة كلها ، وزعم ان ميسمير كان عاجزا حتى عن تشخيص

المرض . ولما كانت الموجة الآن تتجه ضده ، فان احدا لم يقل ان غالبية الاطباء كان يمكن ان يقموا فريسة نفس الخدعة . وجاءت ماريا باراداي الى باريس ، واقامت حفلا موسيقيا عزفت فيه على البيانو عزفا رائعا ، ولكن هذا العزف لم يغير من الامر شيئا . فقد كانت عمياء كما كانت من قبل . وكان ميسمير ممن الشجاعة بحيث حضر الحفل ، استمع الى الهمسات والتعليقات الجارحة وتجاهلها وسط جمهور المستمعين الذين كانوا يعرفون القصة كلها .

وبقي ميسمير في باريس اثناء الثورة ، ولكنه هرب بعد ان شعر بان حياته كانت في خطر ، وان كان قد خسر كل امواله . واوقفت الشرطة محاولة جديدة للشروع في العمل في فيينا مرة اخرى ، وطرد ميسمير على الفور خارج البلاد . كان يقترب من الستين ، متعبا ، وتسببت الهجمات المتتالية في ضعف ثقته بنفسه ، وهي الثقة الضرورية في منهجه الخاص للعلاج . ولكنه تمكن من ان يعيش حياة مريحة - فان رجلا يمثل هذه الشهرة لن يفتقر ابدا الى المرضى الاغنياء - واخيرا تقاعد في كونستانس . ولم يستجب لعرض تقدم به ملك بروسيا لاقامة معهد للعلاج يطلق اسمه في برلين ، فارسل اليه الملك طبيبا يتعلم منه اسرارها ، ولما عاد هذا الطبيب ، عين استاذ لـ « لمسمريه » في اكااديمية برلين ، واصبح مسؤولا عن مستشفى خصص لاستخدام اساليب ميسمير . وانقضت سنواته الاخيرة بسلام ، حتى مات عام ١٨١٥ ، قبل عيد ميلاده التاسع والسبعين بآيام .

ربما شعر القاريء بان ميسمير لم يكن له اهمية في تاريخ علوم الغيب . ولكن هذا ليس صحيحا . ففي جوانب هامة معينة ، يمكن ان يكون نسخة جديدة من باراسيلسوس . فقد عرف اهمية الروح والخيال ، وشعر بان قوة مؤثرة معينة ، ذات معنى خاص ، تتخلل الكون وتنتشر فيه . حقا انه من الممكن ان يفسر اكثر ما توصل اليه من النتائج على ضوء فهمنا للهستيريا ، والتخفيف من الكبت ، والايحاء الذاتي ، وما الى ذلك . ولكن الشيء الهام ، هو انه ادرك ان المرض ليس شيئا طبيعيا ، وانما نوع من « السد » يقوم في طريق القوى الطبيعية - نوع من التجمد والاختناق العقليين . واتجهت رغبته الفريزية الى محاولة دسع القوى الحيوية الى التحرك مرة ثانية من جديد . فلو كان علاجه خيالا خالصا ، لما كان قد وصل الى النتائج التي توصل اليها بالفعل . ولكنه لم يحسن فهم القوى التي كان يستخدمها ، وان كان قد عرف بوجودها الفعلي .

اما الاكتشاف الذي كان من المفروض ان يتوصل اليه ، وهو الاكتشاف الذي يعزى اليه بشكل عام ، الفضل في اكتشافه ، فقد وقع عليه بالصدفة احد تلاميذه ، الماركيز بيوسيجور ، الذي كان يحاول يوما ان « ينفط » راعيا شابا ، بالتربيت المستمر على رأسه ، فلاحظ ان الشاب قد غرق في النوم . وبقي الشاب

نائما رغم هزّه باستمرار ، وظل فاقد الوعي . وصاح الماركيز : « قف » ، ولدهشته هب الشاب واقفا ، دون ان يفتح عينيه . ثم اجاب على الاسئلة التي طرحته عليه ، واطاع حينما امر بان يجلس او يسير . وحينما اوقف في النهاية ، لم يتذكر شيئا مما حدث على الاطلاق . واطلق بيوسيجور على الظاهرة الجديدة اسم : « النوم التشنجي » ، ولكن جيمس برياد ، الانجليزي ، هو الذي اطلق عليها اسم « التنويم المغناطيسي Aypnotism » في عام ١٨٤٣ . وكان قد تبين ان التنويم المغناطيسي يرجع اساسا الى عملية تضيق الانتباه حتى يصل العقل الى حالة يمكن ان تسمى « احادية الفكرة » او التركيز على فكرة واحدة ضيقة . وهذا يعني القول بان النوم المغناطيسي هو العكس الكامل لما دعوته انا « الملكة س » . وينتج بالتالي ، انه طالما اننا نادرا ما نكون في تلك الحالة من « اليقظة الكاملة » حينما يكون العقل شاعرا بشكل ما ، بوجود وواقعية ازمته اخرى وامكنة اخرى ، فاننا نكون دائما في حالة من الوعي تقرب من حالة النوم المغناطيسي .



واذا كان القرن الخامس عشر هو قرن السحر ، فان القرن الثامن عشر هو اقل العصور سحرا . فيه ، بلغ السحر اكثر مستوياته انخفاضا ، وكان ابرز ثلاثة من ممارسيه في ذلك القرن - كاجليو سترو ، وسمانت جيرمان ، وكازانوف - مغامرين ، اكثر منهم دارسين لعلوم الغيب .

ان وضع اسم كازانوف بين اسماء السحرة قد يؤدي الى دهشة شديدة، ولكنه كان في الحقيقة دارسا جادا للكابالاه وللتنجيم ، ورغم انه كان يظن نفسه دخيلا متطفلا على هذا المجال ، فان قدراته على التنبؤ كثيرا ما ادهشته هو نفسه وازعجته . اما « ذكرياته » فالى جانب انها اعظم التراجم الذاتية في العالم ، واكثر الصور اكتمالا لاوروبا في القرن الثامن عشر ، فهي ايضا افضل تقديم ممكن للاشكال التي اتخذتها « علوم الغيب » في « عصر العقل » .

ولد جيوفاني جاكوبو كازانوف ، الذي اضاف فيما بعد الى اسمه الالفب الفخم : « فارس سينجالت » في البندقية ، في ابريل عام ١٧٢٥ ، ابنا لممثل من اصل اسباني ، وزوجته الجميلة ابنة احد صانعي الاخذية . وكان جيوفاني الصغير معلولا مريضا حتى ان احدا لم يكن يتوقع له ان يعيش . واصيب بنزيف فسي الانف ، استمر مدة طويلة حتى ان جدته اخذته الى احدي الساحرات ، وضعمته في صندوق مغلق وراحت تنشده فوق راسه التعاويذ والرقى . وتسوقف النزيف . واحترقت الساحرة بعض العقاقير ، وجمعت دخانها في لفافة لفحتها حول جسمه . واخيرا اخبرته بان سيدة جميلة سوف تزوره تلك الليلة . وفي الليسل ، راي

كازانوف حورية جميلة تخرج من المدفأة في حجرته - فقد كانت المدافىء ضخمة الحجم في ذلك الزمن - وراحت تدلك رأسه بنوع من المرهم - وهي تتحدث بلغة اجنبية . واختفت كل الاعراض التي كانت تنتابه في الشهر التالي ، واصبح ولدا صحيح الجسم بالغ النشاط .

وقبل ان نصرف النظر عن هذه القصة باعتبارها دليلا على خيال كازانوف الاخصيب ، فقد يكون مما يجدر ان نتذكره ، انه مثل سيليني (١) ، كثيرا ما يبدو اقل صدقا مما هو في الحقيقة . وقد ثبت صدقه دائما حيثما كان من الممكن ان تراجع قصصه على مراجع اخرى ، بل انها كانت تبدو اكثر دقة بكثير . ومن المحتمل ان تكون الساحرة امرأة حقيقية ، اما الحورية فمن الممكن ان تكون مجرد حلم غلام من ابحاء الساحرة نفسها .

واصبح كازانوف قسيسا مبتدئا قبل ان يبلغ العشرين ، ولكن حماسه للجنس الاخر كان سقطته . فطرد من منزل راعيه ، وهو احد الشيوخ الاجلاء ، حينما ضبط مع فتاة تحت حراسة الشيخ: « ينظر الى الاختلاف في التكوين بين الفتى والفتاة » . وبعد عدد اخر من هذه الحوادث السيئة الحظ ، ترك الكنيسة لكي ينضم الى الجيش ، ثم اصبح عازف كمان في احد المسارح ، وانضم الى جماعة من الصعاليك الاوغاد ينفقون ليالهم في البحث عن المتاعب .

وتعرف ذات مساء بشيخ يدعى براجادين ، تعرض لنوبة قلبية وهو فسي طريقه الى منزله بالجندول . واقام كازانوف من نفسه ممرضا لعضو مجلس الشيوخ . وحينما قال اقرب اصدقاء الشيخ لكازانوف ان بوسعه ان ينصرف اذا شاء ، قال كازانوف بطريقته المسرحية المبهودة: « اذا انصرفت مات . واذا بقيت سوف يتحسن . » ومن الغريب تماما ان النبوءة تحققت . ففي اثناء الليل ، كاد براجادين يختنق بتأثير « مرهم » من الزئبق دلكه به طبيبته على صدره . ومسح كازانوف الزئبق ، وغسله ، وامر الرجل بالراحة ، فراح الشيخ في سبات هادئ عميق . وفي اليوم التالي ، اعتزل الطبيب خدمة مريضه وتركه في رعاية كازانوف ، الذي راح يتحدث في علم الطب ، ويشير الى اقوال اطباء علم يسمع بهم من قبل ابدا ، ثم يأمر الشيخ المريض بالعلاج الناجع - الراحة والطعام الخفيف - بوحى من غريزته .

(١) سيليني (١٥٠٠ - ١٥٧١) كان مثالا واشتهر بأعماله في صياغة الذهب ، تلمذ على ميكلانجلو وارتبط فترة ببلاط فرانسيس الاول ملك فرنسا . ولكنه اشتهر في عالم الادب اكثر من مكانته في عالم النحت ، بترجمته الذاتية التي اكملها عام ١٥٦٢ ، ولكنها لم تنشر الا عام ١٧٣٠ ، فاعتبرها النقاد واحدة من اكثر التراجم الذاتية جدية وصدقا في التاريخ . اعجب بها جونه حتى انه ترجمها بعد قراءته لها على الفور الى الالمانية . (هـ . م) .

ثم جاء اليوم المصيري : « كان مسيو براجادين ضعيفا ضعفا طبيعيا ازاء العلوم الغيبية ، فاخبرني ذات يوم ان معارفي ومعلوماتي تزيد كثيرا عما يمكن لشاب صغير في مثل سني ان يحصل عليه ، وانه يظن انني مالمسك لنوع من القدرات غير الطبيعية » . ولما لم يكن كازانوفنا من نوع الرجال الذين يهربون من العناية الالهية او ينكرون عطاياها ، فقد اعترف للرجل بانه من علماء الكابالاه وانه قد حصل على مفتاح سليمان . ووجد سائليه على درجة كبيرة من الاستعداد للانخداع . سألوه عدة أسئلة لا يمكن فهمها ، فأعطاهم عدة اجوبة لا معاني لها ، ففهموها هم على النحو الذي يروق لهم ووجدوا فيها النور الذي يطلبون . يقول « ادركت حينئذ كم كان سهلا بالنسبة للكهنة الوثنيين ان يفرضوا انفسهم على الانسانية الجاهلة ، والمستعدة لجهلها ، ان تصدق كل شيء » .

ومنح كازانوفنا هبة سخية وعومل كما يعامل ابن من ابناء البيت ، فشرع في المقامرة - التي كانت المصدر الرئيسي لدخله طوال حياته - وسرعان ما انغمس في اولى عمليات الخداع الكبرى التي مارسها بوصفه ساحرا . ويبدو ان الدافسح انى ذلك كان مجرد الفروور والنزوع الى الاذى والازعاج . ففي مانتوا ، اقنعه احد الشبان بان يذهب معه لكي يتفرج على مجموعة التحف الاثرية التي يملكها والده ، التي كان من بينها سكين قال الشاب انها تلك التي استلها سانت بيتر (بطرس الرسول) فقطع بها اذن خادم كبير الكهنة ، في الحديقة لحظة القبض على يسوع (ولاحظ ان انجيل لوقا يقول انها كانت سيفاً) . واراد كازانوفنا ان يتسلى بالرجل النبيل المعجوز الساذج ، فقال له انه يمتلك بهذه السكين ثروة كبيرة ، لانها تحمل قوة سحرية تجعلها قادرة على الكشف عن كل الكنوز المخبوءة في ممتلكات البابا . ولكنها تحتاج الى غمدها الاصلي ، وان كازانوفنا - لحسن الحظ - يعرف الرجل الذي يمتلك الغمد . وذهب فصنع غمدا من جلد حذاء قديم ، اقتنع به هاوي التحف الاثرية المعجوز ، ثم عرض عليه ان يكون هو الساحر الذي يستخرج لهم بنفسه كل الكنوز المخبوءة . وكان لدى الابن خطاب من رجل ظن ان ثمة كنزا مخبوءا في ارضه ، التي كانت جزءا من الممتلكات البابوية . وحينما ابرز الشاب الخطاب ، استطاع كازانوفنا ان يلمح اسم القرية : سيسينا . واخرج كازانوفنا ادوات الاعرافة . (مجموعة من اوراق اللعب ذات ارقام على شكل اهرامات) واستخلص منها نبوءة تقول ان الكنز مخبوء في ارض بالقرب من نهر الروبيكيون . ولما نظروا الى الخريطة اكتشفوا ان نهر الروبيكيون يمر وسط سيسينا . ولما تعرف المعجوز وابنه على مكان القرية ، اعترفوا واقتنعوا بانهم يتعاملون مع ساحر قدير .

وفي سيسينا قدم كازانوفنا الى اسرة الفلاح الثري ، جورج فرانزيا . وكانت ابنته الكبرى ، جوفيتا جميلة في الرابعة عشرة من عمرها ، وهو ما كان يامله

كازانوفا . فان مغامرة خالية من حكاية جنسية ما كانت تروق لدوقه الخاص .

كان استاذنا في فن الحصول على ثقة الآخرين بوسائل مختلفة . وقال للرجل المعجوز انهم يجب ان يحافظوا على السرية المطلقة ، خوفا من قساوسة قضاة التفتيش . ولما سئل عن سبب تفوق قوة قضاة التفتيش على قوة السحرة ، اجاب بان السبب هو ان الكهنة والرهبان ياتمر بامرهم شياطين اكثر مما يملكه اي ساحر .

وقال لهم ان جافوت يجب ان تكون وسيلتهم الخاصة للوصول الى الكنز ، لان وجود علدراء طاهرة كان امرا ضروريا . وفي الايام التالية ، قام بعملية « غسل طقسي » لاعضاء معينة في اجساد افراد الاسرة : كان الاب هو الاول ، ثم الابن ، واخيرا ، الهدف الرئيسي من العملية كلها ، جافوت . ويقول كازانوفا انه لم يحاول ان يجعل الفتاة تحبه : « ولكن الرجل يجد تعويضا كاملا في السيطرة المطلقة التي يحققها على امرأة » . وقام هو على تحميمها بنفسه ، واستجابت هي للملاطفات حتى : « انطفأت نارها اللاهبة في النهاية بالنتيجة الطبيعية لما شعرت به من استثارة » . وحينما كان يجفف جسمها ، اقترب منها لكي يقضي على تلك العذرية التي كانت ضرورية لسحره ، ولكن استثارته هو الآخر - لحسن الحظ - وصلت الى ذروتها دون ضرر قبل ان يسقط . وفي الصباح التالي ، جاء دور الفتاة لكي تحممه بنفسها ، واثبتت انها خبيرة في الملاطفة مثل كازانوفا نفسه . ونامت الفتاة في حجرته ، ومنذ تلك الليلة ناما معا باستمرار ، رغم انه استمر : « في احترام النقطة الجوهرية » . فقد قرر انه من الممكن ان تظل عذريتها سليمة حتى الليلة التالية للطقوس الاخيرة .

وهو يذكر بشكل عابر انه قضى جزءا من الليلة التالية في مراقبة العلامات الغريبة التي جعلت فرانزيا يعتقد ان الكنز مدفون في ارضه بالفعل . كانت هناك ضربات ثقيلة يسمع صوتها من تحت الارض بانتظام ، واخذ باب القبو يفتح ويفلق على فترات منتظمة ، كما لو كانت ايد خفية تدفعه . وهو يعترف بانه كان عاجزا عن تفسير هذه الظواهر ، ولكنه يقول : « لا بد ان شيئا غريبا مجهولا كان يتدخل في الامر » .

وحينما جاءت الساعة الفاصلة ، خرج كازانوفا وسط الليل الى الفناء ، مرتديا تاج الساحر وعباءته ورمز المعظمة على كتفيه وبيده السكين وبيده الاخرى صولجان ماكسيموس . ورسم دائرة بالطباشير وارتدى جلبابا من الحرير نسجته يدا علدراء طاهرة على جسده العاري . وحينما بدا يتمم بكلماته الغريبة الوحشية انفجرت عاصفة رعديّة قوية ، راحت تتزايد باستمرار . وبينما كان البرق يشق السماء بدا كازانوفا نفسه يظن انه لو خرج من الدائرة السحرية لكان

مصيره الموت المحقق ، وراح يتساءل ان كانت هناك قوى سحرية اطلقت حقاً من عقابها رغم كل شيء . ولكن الشيء المدهش هو انه قد اقتنع بأنه لو كان قد مس عذرية جافوت لكان الله قد دمره بغضبه ، وان طهارة هذه الفتاة ونقاء روحها هو الذي انقذه من الموت . ولذلك فانه لم ينس فيما بعد ان يعود لكي يهديها « مشدا » ثميناً من العاج . ولكنه اضطر ان يقول لابيها ان الحراس السبعة المرصودين للكنز رفضوا ان يفتحوا الابواب ، واقنعوه بأن يؤجل عملية استخراج الكنز ، واعطوه وثيقة طويلة يصفون فيها مكان الكنز بالتحديد وما يحتوي عليه .

لن يكون ثمة مغزى لاعادة سرد مغامراته الاخرى بوصفه ساحراً . لقد آمنت به مدام دورفيه ، العجوز الذكية ايماناً بسيطاً ، ويفسر هو ذلك بقوله : « لو انني اعتقدت انني استطيع ان اعيد مدام دورفيه الى طريق الاستفادة من حواسها لبدلت المحاولة ، ولكنني شعرت يقيناً بأن مرضها كان مما لا يمكن معالجته ، وبدا لي ان الطريق الوحيد المفتوح امامي كان هو ان احرصها على المزيد من خيلها وانواع هديانها لكي استفيد انا منها » . وبناء على ذلك راح يشترك فسي احتفالات مشهورة كان هدفها هو مساعدة نفس مدام دورفيه على ان تلج جسد طفلة رضية ، حتى تستطيع ان تعيش عمراً ثانياً من جديد . والفكرة التي يصف فيها كازانوفاً هذا الاحتفال تعد فقرة فكاهية حقاً ، وتقدم بعض النظرات النافذة بشأن ذلك النوع من الشعوذة الذي استخدمه « السحرة » الآخرون الى جانب كازانوفاً .

وحينما وقع في حب امرأة انجليزية جميلة ، هي جوستينيانا واين (التي يدعوها الآنسة اكس ، س . ق) استخدم اسم باراسليساس لكي يصل السى النتيجة المطلوبة . كانت الفتاة حاملاً من عشيق سبق ان هجرها ، وذكرت لكازانوفاً انها حصلت على « عقار » قادر على انهاء الحمل . كان العقار : « نوعاً من المزيغ ، مكوناً من عقاقير عديدة . . » . ولما كانت الفتاة قد رفضت محاولاته السابقة للتودد اليها ، فقد اقترح على الفور ، ان الوصفة التي تحملها الفتاة ، ستكون نافذة المفعول اذا اضيف اليها قدر معين من السائل المنوي لرجل غريب ، وعرض ان يكون هو نفسه الرجل الغريب الذي سيضيف العقار الجديد الى الوصفة بوضعه في فتحة الرحم . يقول : « كنا نشبه طبيباً يشرع في اجراء اول جراحة له مع مريضته المفروعة ، ولكن مع الفارق الذي اقتضى ان تقوم المريضة بترتيب حجرة العمليات . » . وحينما اكملت استعدادها - اي حينما كانت قد وضعت العقار ، عدلت من وضعها لكي يصبح ملائماً لاضافة السائل الجديد الى المزيغ السحري » . ومن المؤسف بالطبع ان نقول ان العقار فشل في مهمته رغم الاضافة التي وضعها

كازانوفاً واسندها الى باراسيلسوس . فقد وضعت الانسة طفلها في موعده بعد ذلك ، ثم تركته في رعاية احد الملاجيء .

كان كازانوفاً يتمتع بموهبة غيبية فطرية ، رغم كل شعوزاته المرحية . وحينما كانت احدى تنبؤاته المجنونة تتحقق ، كان يشعر للحظة بذلك الشك الخرافي والفرع الذي انتابه وسط الدائرة الطباشيرية تحت العاصفة الرعدية على شاطئ الروبيكون . وحينما كان يستشير « اوراقه الهرمية الارقام » ويهمس دون قصد بنبوءة ما ، كان يدهش دهشة بالغة حين يراها بعد ذلك تتحقق بدقة .

وتقوم موهبته الغيبية تلك وراء حظه المدهش خلال السنوات الاربعين الاولى من حياته . كانت « حاسة سادسة » من نوع ما ، هي التي تدفعه الى ان يقول او يفعل الشيء الصحيح ، مثلما وجد نفسه يقول انه لو بقي الى جانب باراجدين ، فسوف يعيش . وينطبق نفس الشيء على علاقاته مع النساء . فلو كانت « الذكريات » عملاً روائياً ، لقد تم التفسير اللزوم للتشابه الغريب بين مغامراته الجنسية ، ولاستطعنا اذن ان نقول ان المؤلف انما يسجل خيالاته الخاصة . وقد فحص بعض المعلقين مسألة صدق كازانوفاً بالتحديد على هذه الاسس : ان نفس النوع من الفتيات ، ونفس النوع من المواقف ، هي ما تتردد باستمرار . اما بالنسبة للقراء ذوي البصيرة الاعمق ، والتعاطف الاكبر ، فان نفس هذا التكرار المتشابه هو بالتحديد ما يؤكد صدقه الاساسي . ففي الحياة الحقيقية ، يظل نفس الشيء يتكرر باستمرار بالنسبة للأشخاص ذوي الشخصية المحددة . وكان يحدث بالنسبة لكازانوفاً ، بسلوكه اللطيف الخالي من النفعية ، وكرمه الاصيل ورفيقته الفطرية في حماية النساء ، كان يحدث ان يلتقي بتلك الفتاة التأثرية ، التي كانت تقول له ، في خلال ايام ، واحياناً في غضون ساعات قليلة من معرفتها به : « افعل ما تشاء بي . انني لك » . ومن المنطقي تماماً ان تقع ابنته نفسها في غرامه ، دون ان تعرف شخصيته بالطبع .

ولكن هذا « الرادار » النفساني العجيب بدأ يخونه في اواخر ثلاثيناته ، حينما قاده ولعه الملهب بسيدة بلاط جميلة ، لاشاربيلون ، الى ارتكاب سلسلة من الحماقات لم تؤد اي منها الى اقترابه من هدفه . كانت واحدة من تلك العمليات القليلة الفاشلة فشلاً كلياً ، فقد قررت المرأة منذ البداية ان تدله ، ونجحت في ذلك . فتشقق بذلك ، وبداينهار ، ذلك الوثوق الرفيع في نفسه ، الذي حقق له طوال سنوات حفظاً لامعاً كحظ من يمشي في نومه دون ان يسقط . ومنذ ذلك الحين ، ورغم انه كان ما يزال سيحقق المزيد من « الفزوات » ، فانه كان يسير هابطاً على المنحدر المستمر نحو الهزيمة . ومن المهم هنا ان نشكر ان نفس

الشيء هو ما حدث مع ميسمير خلال سنوات اقامته الاخيرة في باريس ، لقد تلاشت الثقة في النفس : واي شيء يكون « ميسمريا » دون الثقة في النفس ؟ لقد عاش كازانوفنا حتى بلغ الثالثة والسبعين ، فمات قبل عامين من نهاية القرن الذي جسده بحياته الدرامية هذا التجسيد اللامع البراق ، ولكن ، كان هناك شيء جوهري من كازانوفنا الحقيقي ، قد مات في لندن ، تحت ضربات الوباء الخائب بالغاتنة شار بيللون .

وفي ايامه الاخيرة ، التي راح يجرجر على طولها وراءه ثقل خيبته واحباطه ، حافظ كازانوفنا على نفسه حية بكتابة « الذكريات » ، ولكن حينما رفض الكونت ماركوليني - في درسدن - ان ينشر حتى المجلد الاول من هذه المذكرات ، فقد كازانوفنا حماسه ، وتوقف عن الكتابة عند النقطة التي كان قد شرع يكتب عندها عن العام الخمسين من عمره . وقد تكون الخسارة التي وقعت بنا نتيجة لهذا التوقف محل خلاف كبير ، ذلك انه كان يمكن لما تبقى من سنوات عمره ان يخلف في فم القاريء طعم المرارة . ولكن ثمة سبب واحد يدفع كل دارسي علوم الغيب الى الاسف : وهوان كازانوفنا لم يصف لقاءه الثاني مع واحد من اكثر رجال العصر اثارة للحيرة ، وهو « كونت كاجليوسترو » . اذ ربما كان قد استطاع ان يجلو غوامض سر لايد الآن ان يبقى دون حل . لقد سمع الناس جميعا اسم كاجليوسترو ، ويشير هذا الاسم لدى غالبية الناس تداعيات شريرة مشؤومة فامضة ، تشبه ما يثيره اسم « راسبوتين » من تداعيات . ولكن قليلين من الناس ، حتى اكثرهم خبرة به ، هم من يعرفون عنه الكثير ، ذلك انه حتى المعلومات الاساسية من حياته تقع في دائرة الشك . الشيء الوحيد الذي نعرفه بأي نوع من اليقين هو انه مات ميتة فاجعة في سجون التفتيش عام ١٧٩٥ ، وربما كان قد مات خنقا على يدي سجنائه . وتتراوح الاراء بشأن ملكاته وقدراته تراوحا يغطي كل الاحتمالات ، من وصف كارلايل له بانه : « ملك الكذابين » و « الدجال المشعوذ الاعظم » الى ما وصفه به لويس سبنسر بانه : « واحد من اعظم الشخصيات في مجال علوم الغيب في كل العصور » .

بل ان هويته ، ومن يكون بالتحديد ، ما تزال موضع جدل واختلاف . تقول فرانسيس موسيكر في كتابها عن قضية « عقد الماس » ان : « اولئك الذين سيجعون الى دوائر المعارف ، سيكتشفون انه من الحقائق المقررة ان الكونت اليساندر وكاجليوسترو هو : « جويسبي بالاسمو من باليرمو » وقد يكفي ، لكي يهتز ايمان المرء بالمراجع والكتب الكبيرة ، اذا نظر الى الحقيقة القائلة ، بان هذا التعريف لشخصه انما يقوم الى الابد على اساس الدليل الوارد في كتاب

ورد من مجهول الى شرطة باريس . . » ورغم هذا ، فان الانسة موسيكر تختتم استنتاجاتها ، بأن تعترف بشكل ضعيف بأنه ربما كان كاجليوسترو ، وبالسامو شخصا واحدا . وهناك مؤلفون آخرون يمتدحون كاجليوسترو ، ولكنهم يؤكدون ان كازانوفيا قابل بالسامو وليس كاجليوسترو ، ولكن آخريين يقبلون انهما شخص واحد ، كان من بينهم جوتة ، الذي سحرته الحكايات . من كاجليوسترو حتى انه قام بزيارة عائلة بالسامو في باليرمو بصقلية ، ومن الممكن ان نجد وصفا تفصيليا للزيارة في كتاب فانك وبرنتانو : « كاجليوسترو ورفاقه » . ولكن جوتة يرسم صورته باعتباره نصا مخادعا في مسرحيته : « عظيم الاقباط » .

ولكن اهتمام جوتة بشخصية كاجليوسترو يعد مفتاحا للحقيقة التي ربما كانت تكمن وراء كل تلك التناقضات . ولست اعتقد انه من نوع اهتمام الفنان بالوغدا - وهو نوع الاهتمام الذي جعل توماس مان يضع كتابا عن محتل يبتسر نفوذ الناس بعد ان يكسب ثقتهم ، انما كان هذا الاهتمام اعترافا بالتشابه الاساسي بين الرجلين . وقد لاحظ شو ان الانسان لا يشعر بالانتماء الى مجتمع ما ولا بالراحة في داخله الى ان يعثر على مكانه الطبيعي ، سواء فوق المكان الذي ولد فيه او تحته . ولقد ولد كل من كاجليوسترو وجوتة في مكان ادنى بكثير من مكانيهما الطبيعي ، وانتهى كلاهما بمصاحبة الامراء والكاردينالات ، واكتساب الاحترام العالمي بقوة العبقرية المكتسبة غير الفطرية . ولقد كانت لديهما عبقرية طبيعية ، قوة طبيعية ، عند كاجليوسترو جعلت الجميع يشعرون بانكارها . وهناك شهود على هذه القوة ، رغم عدائهم الاصيل لكاجليوسترو ، من نسوع البارونة دوبركيش التي وصفت ما شعرت به من قوته بطريقتها العدائية ، بانها قوة شيطانية ، وانه كان قادرا على ان يعتمد العقل فيستعبده وان يشل الارادة ، ولا يمكن ان يوصف بهذا الوصف مغامر مبتدل ، وانما لا بد ان يكون رجلا ذا قوة حقيقية ، رغم ان كازانوفيا وصفه قبل ذلك بعشر سنوات بأنه قصير رديء التكوين ، ينم وجهه عن كل ما في العالم من ادعاء وإهكم ووقاحة لامبالية ، وهو الوصف الذي يوحى بالبصيرة التي زادت بها الغيرة حدة وقدرة على النفاذ .

وحينما وقع كاجليوسترو في ايدي قضاة التفتيش ، كتبت ترجمته على يدي واحد من كتاب التحقيق . ومن الطبيعي ان يرسم الكاتب صورة صاحب الترجمة ببساطة بوصفه وغدا مخادعا . وقد اتبع كالاريل وجميع المعلقين اصحاب الموقف العدائي هذه الترجمة « التفتيشية » التي كان هدفها المسبق تفسير حجم المترجم له ونسفه . ويثور من هنا السؤال الطبيعي : اذا كان كاجليوسترو مثل هذا الوغدا الوضيع الافاق ، فكيف استطاع ان يحقق كل هذا

التأثير وان يكتسب كل هذا النفوذ على هذا العدد الكبير من الناس ؟ يجيب كالاريل : لانه كان واحدا من اعظم المخادعين في كل العصور . ولا شك ان هذا الرأي الساذج التبسيطي انما ينكر القوة البارزة التي شهد لها الكثيرون .

فاذا قبلنا الرأي القائل بان كاجليوسترو كان عبقرى ، اي انه كان يمتلك حيوية باروقة اللدكاء فوق المستوى العادي بكثير - فان التناقضات ستشرع في الاختفاء ، وتتخذ قصة حياته شكلا واتجاها لم يشعر بهما كازانوف .

يكاد يكون من المؤكد انه ولد باعتباره جويسيمى بالاسمو ، وابنا لعائلة فقيرة في باليرمو عام ١٧٤٣ . ويصف جوته هذه العائلة باعتبارها اسرة بسيطة وان كانت من الفلاحين اصحاب المشاعرساخنة ، ويعيشون جميعا في غرفة واحدة . ومات ابوه وهو صغير ، ولما كان على استعداد طبيعي للانفجار ، فانه اصبح دون حاكم وغير قابل للخضوع لاي انسان . وارسل الى مدرسة « سانت روكو » اللاهوتية . ولكنه هرب منها عدة مرات ، فعين صبيا تابعا في دير الرهبان في كاتيرجرون . وذات يوم ، وفي انفجار معاد للاكليروس عدا عنيفا ، صدم الرهبان صدمة مروعة حينما راح يرتجل مشهدا تمثيلا اعتمد فيه على نص الكتاب المقدس للصلوات الذي كان يفترض فيه ان يقرأه بصوت مرتفع على رأس مائدة العشاء ، مستبدلا اسماء القديسين باسماء البغايا المشهورات . ووصل به هذا المشهد الى الهدف الذي كان يسعى اليه ، فقد طرد من الدير نهائيا . فراح يتلقى دروسا في الرسم حيث اثبت موهبة فير عادية . وامتدت مهارته في استخدام القلم والريشة الى مجال نسخ الرسائل ، وكتابة بطاقات المسرح ، وكل ما يمكن ان يحقق له شيئا من الربح .

ولكنه كان مشدودا بشكل طبيعي الى علوم الغيب ، والى السيمياء والتنجيم . ولا يعرف احد اين استطاع على وجه التحديد ان يحصل على معارفه الاساسية . ولكن صقلية كانت تمتليء بتقاليدھا الموروثة القديمة في مجالات السحر وعلوم الغيب ، ولا شك ان تعلمها كان سهلا لمن شاء ذلك . .

ونأتي كل القصص التي تتحدث عن اعماله القدرة في هذه المرحلة ، من كاتب ترجمته التابع لقضاة التفتيش ، فهي عرضة للشك لهذا السبب . وتقول اكثر هذه القصص شهرة انه اكتسب ثقة صانغ ذهب بائس ، واقنعه بانه يستطيع ان يصنع الذهب . واقام بالسامو طقوسه وسط حقل بعيد في منتصف الليل . وفي اللحظة الحاسمة ، خرجت اشباح غامضة من وسط الظلمة فضربت الصانغ المسكين حتى فقد الوعي ، وحينما افاق ، اقنعه بالسامو بان الشياطين انتزعت الجانب الاكبر من الذهب الذي جاء به لكي يستخدمه في اعمالهم السحرية . يقول المصدر نفسه ان بالسامو تعرض ايضا للسرقة في كالابريا ، فلما

وصل الى روما مفلسا حاول ان يكتسب عيشه اعتمادا على مواهبه في الرسم ، ويحكى جوته كيف قام بالسامو بتزييف بعض الوثائق لتلبية الماركيز من صقلية ، فالقي به في السجن لهذا السبب . ولكن الماركيز تمكن من تخليصه بعد ان ضرب القاضي وتوسط لدى مجلس التحقيق .

وسواء صدقت قصة التزييف ام لا ، فمن المؤكد انه استمر في دراسة علوم الغيب ، حتى اصبح مساعدا في المعمل كيوناني يدعى التوتاس ، الذي كان قد اكتشف كيف يمنح للاليف الزجاجية ملمسا ناعما وطريا كلمس الحرير ، بين اكتشافات اخرى . وسافرا معا الى مصر ، ووصلا الى مالطة حيث تعرفا بقائد فرسانها الذي كان يدعى بينتا . وكان بينتا هاويا متحمسا للسيما ، فرحب بـ « المعلمين » الفريبيين ، واستطاع بالسامو ان يبهره حتى اعطاه الرجل خطابات توصية الى عدد من الشخصيات البارزة في روما وفي نابولي . وفي روما حين كان بالسامو مجرد فنان شاب يقتحم الحياة بسرعة ، سحرته فتاة جميلة لا تزيد على الرابعة عشرة ، وكان هو في السادسة والعشرين . وكانت الفتاة ابنة لاحد صناع النحاس ، يعيش في شارع ضيق يحمل اسم كنيسة « ترينينادي بيليجريني » في منزل قديم قدر . كانت لورينزا فيليسياني امية ، ولكنها كانت خلابة الجمال ، ورغم بعض المعارضة من جانب والدها ، فقد تزوجت بالسامو .

وفي العام التالي التقى بهما كازانوفا في « ايكس ان بروفانس » جنوبي فرنسا . ويقول كازانوفا عنهما ان الناس اعتبروهما من ذوي اليسار والنبيل ، لانهما وزعا الكثير من الصدقات بسخاء عند دخولهما المدينة . كانا قد قاما بالحج الى كنيسة سانت جيمس في كومبو ستيللا بايطاليا ، ثم الى كنيسة العامود في اسبانيا ، وكانا الان في طريق العودة الى روما . وقالت لورينزا ، التي تركت لدى كازانوفا انطبعا قويا باعتبارها صادقة مخلصة متواضعة ، قالت ان الصدقات التي وزعها كانت هي ما تبقى معهما مما كانا قد تسولاه في اخر مدينة قاما بزيارتها . وطلب منه بالسامو ان يأخذ شيئا من الهدايا الباقية الموجودة على مائدة الفندق ، وطلبت منه لورينزا ان يمنحهما خطاب توصية لمدينة افينيون . وقد اثبت بالسامو فيما بعد مهارته في التزييف بأن صنع من هذا الخطاب نسخة اقسم كازانوفا انها هي خطابه الاصلي ، ثم حذر بالسامو او اوصاه بالاحترااس ، والا كلفته هذه الموهبة حياته .

... وسواء كان حجهما الى تلك الكنائس قد حدث بدوافع دينية ام لا ، فان بالسامو كان رجلا يحمل في داخله شيئا ما اراد دائما ان يبرز ليشهد وجوده . ولم يكن يوسعه ان يذهب فيستقر في صناعة النحاس في روما ، فقد شعر بأن العالم يخزن له شيئا اكثراهمية فظل يرتحل حتى عثر عليه .

ويبدو انهما عادا الى اسبانيا ، ثم سافرا الى انجلترا حيث عاشا حياة مضطربة عمل بالسامو اثناءها في الرسم وزخرفة المنازل ، ولكنه فشل في هذا العمل . وفي السفينة التي اقلتهما الى فرنسا ، تعرفا بشخص يدعى ميسو دوبليسيس ، كان مديرا لآعمال الماركيز دي بري . . ونجح دوبليسيس في اغواء الزوجة الجميلة الشابة مما انتهى بها وبه الى السجن لمدة سنة بطلب ممن بالسامو . وفي اثناء نفس العام كان بالسامو يشق طريقه ، فاكسب شهرة وشيئا من المال حينما صنع نوعا من دهان الجلد لعلاج البثرة باستخدام البوراكس ، ثم اصبح استاذًا للسيمياء وصار له تلميذان من الاغنياء . وبعد خروج الزوجة من السجن ، قرر العودة الى ايطاليا، واطلق بالسامو على نفسه اسم الماركيز بيليجريني، متخذًا اسم كنيسة بالقرب من بيت زوجته .

. . وفي عام ١٧٧٦ عاد بالسامو الى لندن واطلق على نفسه اسم كاجليوسترو، وهو اسم احد اعمامه في صقلية. وقد واجه حديثين هامين في هذه الزيارة الثانية لانجلترا . فقد حصل على عضوية جماعة الماسونيين الاحرار ، ثم طارده جماعة من النصابين ظنوا انه يمتلك شيئا ما يجعله قادرا على التنبؤ بالارقام الفائزة في اوراق الحظ (اليانصيب) . ورغم غموض القصة ، فمن المؤكد انه مثل امام المحكمة ، ويقول كارلايل ان اكبر النصابين في قرن النصب الاكبر (الثامن عشر) قد مثل صاعرا امام محكمة القانون الانجليزي « ولكن ليس هناك ما يثبت المدى الذي تورط اليه بالسامو في هذه العملية .

ورغم هذا فقد كان الاكثر اهمية بالنسبة لمستقبله هو حصوله على العضوية الروحية لجماعة الماسونيين الاحرار ، في منزل « راس الملك » في شارع جيرارد ، بحي سوهو ، يوم ١٢ ابريل عام ١٧٧٧ . وقد اطلق على نفسه يومها اسم « جوزيف كاجليوسترو كولونيل (عقيد) الفصيلة الثالثة في براندنبرج » ، وقد اصبحت زوجته ماسونية هي الاخرى .

والماسونيون الاحرار ، « جمعية سرية » ذات طبيعة دينية ، هدفهم الاساسي تحقيق الاخوة بين الناس . كانت في الاصل جمعية لعمال البناء بالحجارة ، كانوا يطوفون اوروبا ويستقرون حيثما كانت تقام الابنية العظيمة ، وكان لهم نظام سري من الاشارات والعلامات ، يتعرف به احدهم على الاخرين ، ثم اصبحت الجمعية موئلا لدارسي علوم الغيب ، والسيمايين والمنجمين ومن البهم ، وسوف يتذكر من قرأوا رواية « الحرب والسلام » المواجهة التي تحدث بين بيتر بزيكهوي وبين الماسونيين الاحرار حينما يشتد بيبير التشاؤم والاجهاد . ورغم ان تولستوي لم يكن هو نفسه ماسونيا فانه يقدم اهدافهم بوضوح وتعاطف : « واولها هي فكرة الاخوة : « لا يستطيع احد ان يحصل على الحقيقة

بمفرده . لا يمكن الا عن طريق وضع الحجر فوق الحجر بالتعاون بين الجميع ،
يبين ملايين الاجيال منذ ابينا آدم حتى يومنا هذا ، لا يمكن الا عن هذا الطريق
ان يشيد هذا المعبد حتى يمكن ان يكون مكانا جديرا بسكنى الرب العظيم » .
وتتمتع هذه الفكرة عن وجود موروث معين طال كتمانها والاحتفاظ بسريته ، تتمتع
باهمية جوهرية : « ان الهدف الرئيسي الاول لجماعتنا ، والاساس الذي تقوم
فوقه والذي لا تستطيع اية قوة بشرية على الارض ان تدمره ، هو المحافظة
على سر معين هام وتسليمه مكتوما وخفيا الى الاجيال القادمة ، وهو السر
الذي وصلنا سليما ومصانا من اقدم الازمنة والعصور ، بل منذ اول انسان -
وهو سر ربما كان مصير الانسانية يعتمد عليه . ولكن لما كان لهذا السر مثل
تلك الخصائص حتى لا يستطيع انسان ان يعرفه او ان يستخدمه الا اذا تم
اعداده لذلك عن طريق التطهر الذاتي الثوب الطويل ، فلا يستطيع انسان ان يأمل
في الحصول عليه بسرعة . ومن هنا فان لنا هدفا ثانويا : ذلك هو اعداد اعضاءنا
وتهيئتها بكل ما في وسعنا من جهد من اجل اصلاح قلوبها ، وتطهير عقولها
وتنويرها ، بوسائل ورثناها من الاسلاف مع بقية تراثنا منهم . . » ويمضي
تولستوي لكي يصف هدفهم الثالث : تجديد الانسانية . (وهذا هو الهدف الذي
يطيب لبيتر اكثر من غيره) . ثم يسرد بالتفصيل احداث : « الدرجات السبع
لمعبد سليمان » . (هناك بالضرورة ارتباط وثيق بين فكرة الماسونيين وبين
المعابد) . وهذه الدرجات هي الكتمان ، والطاعة ، وحسن الاخلاق ، وحب البشرية ،
والشجاعة ، والكرم ، وحب الموت . وينغمس ببيتر في التأمل المستمر حول الموت ،
فيجد ان هذا المبدأ هو اصعب ما يمكن ابتلاعه من المبادئ .

ولا بد لكل من يريد ان يفهم جاذبية الماسونية من ان يقرأ وصف تولستوي
لطقوس ضم المرشحين الى الجماعة ، او تعميدهم . ولا بد ان تبدو هذه الطقوس
لمن لم يكن ماسونيا ضربا من السخف : فالمرشح يضع نعلنا باربطة في احد
قدميه ، وحذاء ذا رقبة في قدمه الاخرى ، ثم تغطى عيناه ويقاد من يده عبر ممرات ،
ودهايلز طويلة مظلمة ، مفروشة بأبسطة من نوع معين ، فلا يسمع صوت خطواته
وانما يسمع صوت طرقات الخناجر والسيوف ، وقد احتضن « بوصلتين »
كبيرتين الى صدره ، وفي النهاية يجد نفسه في مواجهة عدد من الرجال يرتدون
العباءات وقد سدوا سيوفهم المشهورة نحوه ، فيركع عند « ابواب المعبد » ، الى
غير ذلك من تصرفات . وفي لحظة معينة ، يتساءل ببيتر فجأة ان كانت المسألة كلها
مجرد نكتة عملية . اما فرانك كينج ، فيلخص في كتابه : « كاجليوسترو ، اخر
المشعوذين » ، عملية « تعميدهم » كاجليوسترو باختصار ، فيقول :

« كان الاحتفال شديد الشبه بذلك الذي يتم في نقابات الماسونيين اليوم ،

مضافا اليه بعض المشاهد غير المؤدية ، ولكنها مهيئة ، كان المقصود منها التأثير على المرشح الجديد . فعلق جوزيف الى السقف بجبل وترك يتأرجح حتى شعر بالدوار ، مما يرمز الى عجزه دون العون الالهي . ثم طعن بخنجر ينزلق نصله عند العنق الى داخل مقبضه ، رمزا للمصير الذي ينتظره اذا خان رفاقه واسلم اسرار الجماعة . ثم اجبر على الركوع عاريا لكي يبرهن على خضوعه لرئيس النقابة »

نستطيع من كل هذا ان نرى ان الماسونيين الاحرار هم السلالة المباشرة للديانات الاورفية والفيثاغورية . والهدف من عملية التعميد هو توليد احساس هائل بالغزى والتكتم الشديد . ولئن يدهشنا ان بطل تولستوي ، في نهاية العملية كلها قد : « شعر بانه عائد من رحلة طويلة امضى في اثنا عشر اشهر من السنين ، وانه قد تغير تغيرا كاملا ، فترك وراءه كل عاداته القديمة واساليبه في الحياة . »

ويوضح هذا ايضا السبب الذي جعل الماسونيين يتعرضون لاحكام السجن والاعدام ، خاصة في ظل الكنيسة الكاثوليكية . ان الكنيسة قد تشعر بأن البروتستانتية وفروعها وفرقها المختلفة ليسوا سوى ابناء غير شرعيين جاؤوا بالصدقة لنفس الابوين ، او انهم ليسوا سوى صور مقلدة تقليدا ضعيفا تحاول عبثا ان تحل محل الاصل ، ولكنها لن تستطيع ابدا ان تمثل تحديا حقيقيا ، لانها لن تستطيع ان تقدم بديلا حقيقيا لجهاز الكاثوليكية الهائل . اما الماسونيين فكانوا بالفعل يقدمون بديلا ، او كنيسة بديلة تزعم لنفسها عراقا واصولا اقدم بكثير من عراقا واصول الكاثوليكية . كان كل من انضم اليها يشعر بانه عضو في الجمعية السرية الرئيسية ، قائم على حراسة اقدم الاسرار واكثرها عراقا . ويحقق الماسونيون الهدف الاساسي من اي دين منظم (كيفية ملء اتباعه بذلك الاحساس العميق بالهدف والمعنى ، وهو الاحساس الذي تطمسه وتقضي عليه العادات القديمة والانماط الشخصية الجامدة) عن طريق استخدام الاساليب الفنية التي استخدمتها الديانات الميثولوجية والسرية في اليونان القديمة . ولا بد ان يخرج المرشح بعد « تعميده » من كل هذه الطقوس باحساس الدخول في كون جديد مرتب محكم التنظيم ، حددت فجأة وبشكل حاسم كل اهدافه واغراضه . ان ترانا كاملا يرجع الى عهد آدم هو ما يقف وراءه ويسانده . وتمنحه فكرة الاخوة الانسانية احساسا جديدا بالانتماء الى الجنس البشري . والاكثر من هذا ان العالم مليء بالاخوة الماسونيين الآخرين - اخوة يملأهم الخير والنشاط ولن يتركوه يسقط وحيدا . ومن الطبيعي ان يكون هذا مصدر قوة جاذبية شديدة لاي ديانة ، ذلك ان غريزة البحث عن الامن والاحتماء بمكان محدد لاكثر عمقا من اي غريزة دينية كانت ، وهي تتطلب اشباعها أولا ، على الاقل عند اكثرية الناس . لقد كانت

القوة الحقيقية للكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى تكمن في الاديرة ، حيث كان الرهبان يحصلون على ما يمكن ان يسمى : « تأمين الولاية » او تأمين استمرارها دون امد محدد .

لقد ناقشت الماسونية بهذا الاسهاب لانه من المستحيل ان نفهم او ان نوضح ما تبقى من حياة كاجليوسترو دونها . فقد ظل كاجليوسترو حتى الان مجرد مفامر من نوع كازانوفافا، وفنان تقوده خطاه من القمة الى القاع او العكس بالصدفة، او بقوة قدر كان يتلذذ بتعديبه وبدفع قدمه من تحته . وتنتج مثل هذه الحياة الهائلة غير المستقرة احساسا بانعدام الهدف وبالتقطع غير المستمر ، وبالتاكل البطيء لاحترام الانسان لنفسه . كان كاجليوسترو قد بلغ الرابعة والثلاثين ، وكان قد قضى ما يقرب من عشرين عاما منها هائما على وجهه دون استقرار ، وكانت حياة المغامرة قد فقدت بالنسبة له سحرها القديم . وكان انضمامه الى الماسونيين اشبه بالعودة الى البيت بعد التوهان الطويل . وكان تأثير هذه العودة ، من الناحية الوجدانية اكثر ممقا مما شعر به بيتر بيزكهوي . وكان التحول كليا وشاملا . كان جبل النجاة قد القي اليه ، فلم يضع وقتا في محاولة الوصول الى الشاطئ . ومنذ ذلك الحين اصبحت الماسونية هي شغل حياته الشاغل .

والاكثر من هذا، انه طالما كان « ساحرا » بالفطرة منذ مولده ، لم يكن هو كاهنا « طبيعيا » من كهنة هذا الدين ؟ لم يكن العمل الجدير به ان يكون مجرد تابع بسيط ، مثل ذلك الخادم والسيمايالي المسن اللذين تم تعميدهما معه في نفس الوقت في نقابة الماسونيين في لندن . كان « استاذ اعظم » بالحق الطبيعي . ولو انه كان قد دخل سلك الكهنوت الكاثوليكي لشرع على الفور في وضع خطة الوصول الى كرسي البابوية ، شاعرا بان هذا هو مكانه الطبيعي . وما كان من الممكن لزملائه الكهنة ان يروا في اندفاعه هذا ما يمكن التسامح معه . اما الماسونيون فلم يهتموا به ادنى اهتمام . لم يكن ثمة مجال لاي شك في صدق ايمانه ، وكان من الواضح انه يستطيع ان يكون داعيا من اقوى الدعاة . ومثلما كانت إيطاليا هي الماوى الاصلي للكاثوليكية ، كذلك كانت إنجلترا هي الماوى الاصلي للماسونية . ذلك انها رغم كونها ليست هي المنبت الاول لها ، فانها كانت مسرح الاحياء العظيم للماسونية في القرن السادس عشر . فاين كان منبتهما الاول ؟ لقد عرف كاجليوسترو الجواب الصحيح : ويكاد هذا المنبت الاول ان يكون ، بشكل يقيني ، هو مصر . ما هو اقدم اثر معماري عظيم في العالم ؟ الاهرام . الا يحتوي هرم خوفو الاكبر على قياسات وارقام سرية تجسد الاسرار الغامضة ؟ لقد شيد الماسونيون فيملا بعد معبد سليمان ، ولكن هذا لم يحدث الا بعد ذلك

بزمن طويل ، لا يقل عن الفينين من السنين . فقد شيد هرم خوفو حوالي ٢٩٠٠ ق.م . اما معبد سليمان فينتمي الى القرن العاشر .

وقد زعم كاجليوسترو انه عثر في زيارته للندن على كتاب مخطوط حول السحر المصري وحول الماسونية من تأليف شخص يدعى جورج جاستون . ولا يهمننا هنا ان كانت قصة العثور على هذه المخطوطة صادقة ام كاذبة . فاما ان يكون كاجليوسترو قد اكتشف ، او ابتكر ، « الطقس المصري » ، وهو طقس اكثر قدما واكثر عراقة ووقارا من طقوس الماسونيين المحدثين . وقد كرس ما تبقى من حياته لترسيخ دعائم الطقس المصري . ولكن هذا الطقس لم يكن باي شكل بديلا لطقوس الماسونيين الراسخة بالفعل ، انما كان اضافة من نوع اكثر سموا ، ولم يكن بوسع احد سوى الماسونيين الكبار - ان يصمد لها . وكانت هذه فكرة طيبة بالنسبة للماسونيين . فقد خلق « الطقس » الجديد فرصة وجود طبقة ، اكثر سموا داخل الماسونيين ، تستطيع بما تكتسبه من علم جديد ان تضاعف نفوذها .

كان النيبان ايليا (١) واينوش (٢) هما اول مؤسسي الماسونية المصرية ،

(١) يذكر العهد القديم نيبا واحدا باسم ايليا (ملوك اول ولاني) . وعاش في عهد « اهاب » ملك اسرائيل . ويحكى العهد القديم قصته مع اهاب ، ومع كهنة الاله الوثني الفينيقي « بعل » الذي جعله اهاب شريكا لربه اسرائيل « يهوه » في ديانة اسرائيل ، نتيجة للعلاقات التجارية الوثنية بين اسرائيل والفينيقيين ، والعلاقات الشخصية والعسكرية القوية بين اهاب وحكام فينيقيا . ويرفض ايليا (الذي يبدو واحدا من كبار كهنة يهوه) عبادة بعل ، ويهرب الى سيناء جبل حوريبة حيث يمر بتجربته الدينية الكبيرة ، ويكتشف الفارق الاساسي بين يهوه وبعل : يهوه لا يتجسد في اي مظهر طبيعي (رغم انه اصلا احد آلهة الطبيعة) بينما كان بعل فذل على اصله ، يتجسد في الريح والشمس والزلازل . الخ . ويعود ايليا ويتحدى كهنة بعل ، ويثصر عليهم حينمبا يظهر يهوه كرامته ، (بنزل النار لتاكل قربان ايليا) ثم يرفع ايليا الى السماء في زوبعة من النار . وبذلك يكون ايليا اول من رفع الى السماء من انبياء اسرائيل ، ويحتل في اليهودية القديمة نفس مكانة موسى ، بينما اعتقد المسيحيون الشرقيون الاوائل انه كان بشيرا بمقدم المسيح ، وبالتالي فانه الصورة الاولى ليوحنا المعمدان ، وانه قد « اكمل » في شخص يوحنا ، بينما اعتقدت فرق مسيحية اخرى بانه ويوحنا ويسوع شخص واحد يتكون منهم المسيح ، واعتقدت فرق اخرى انه سيظهر مع موسى في الدينونة ليشهد في صف المسيح . وهناك تراث يهودي ومسيحي شرقي كبير من القصص حول معجزات ايليا ، وتنبؤاته ورواه ، القليل منها له علاقة بمصر ، ولكن الكثير منها ترجعت نصوحه الى اللغات الحديثة (اليونانية اساسا) في الاسكندرية في القرن الاول . ق . م (هـ . م) .

(٢) اينوش : احدى الشخصيات الاساسية التي وردت في العهد القديم على اساس التصوير =

وكان الاخير معروفا بلقب «عظيم الاقباط» . وفي الوقت المناسب ، رقي كاجليوسترو نفسه من المتحدث باسم «عظيم الاقباط» الى «عظيم الاقباط» نفسه . ثم اضاف ايضا بعض الالغاز المحيرة الشديدة التأثير الى مزاعمه . فتلامذة الانبياء لا يموتون ابدا ، وانما ينتقلون في الوقت المناسب باجسادهم الى السماء مثل ايليا . وهم يعيشون اثنتي عشرة حياة ، ثم يعيشون من رمادهم ، بعد كل حياة ، مثل طائر الفينيق . وبدأ كاجليوسترو يلقي بعض التلميحات العابرة التي تقول انه يبلغ من العمر الفا من السنين . اما زوجته ، التي ظلت تبدو في العشرين رغم انها كانت قد تجاوزت الثلاثين ، فبدأت تلمح ان لها ابنا يعمل ضابطا في الجيش . ولا يمكن ان يكون ثمة شك في ان كاجليوسترو بدأ يتحول الى شيء شبيه بالنصاب . ولكن اهدافه لم تعد اهدافا شخصية . فقد رأى في الماسونية اعظم وسيلة لتحقيق الخير للعالم ، وكانت طقوس الماسونية طقوسا

==المراني من عصر ما قبل موسى (قبل الخروج). وتذكر نسخة قديمة من التوراة (نسخة دووي) انه الابن الأكبر للابيل، ولكن النسخة الكنسية المعتمدة تقول انه احد أبناء الجيل السابع من احفاد آدم من سلالة شيت ابن نوح . ولكن سفر التكوين (ص ٢١ - ٢٢) يشير اشارة عابرة الى انه والد ميتو شالغ ، مما يصاعف من بعده عن آدم وشيت ونوح ، ومما يشير الى دخول اسطورة القدم عهدا عن « اينوش » على سفر التكوين في هذه الاشارة . ومن ناحية اخرى ، كشفت الدراسات والبحوث الحديثة (منذ القرن الماضي) عن وجود ثلاث صياغات مختلفة لكتاب اينوش : ينسب الكتاب الاول الى اثيوبيا حيث وجدت اولى مخطوطاته التي ثبت انها ترجمة عن اصل يوناني شر عليه فيما بعد في القسطنطينية (وقد شر على نسخ اخرى بالبطيحية المصرية في مدينة اقليم مصر) ، وثبت انها ترجمة عن نسخة يونانية اقدم عهدا من النسخة الاثيوبية) ، وتنسب الصياغة الثانية الى سلافونيا اليوغوسلافية ، وهي ايضا ترجمة عن اصل يوناني آخر لم يعثر عليه . وقد عثر على نسختين من كتاب اينوش السلافوني اطولهما هي الاقدم عمرا ، وتدل مادة الكتاب على ان الاصل اليوناني المفقود كان منقولا عن اصل يهودي اقدم عهدا ، وربما كان يرجع الى ما قبل تدمير الهيكل (٧٠ م) وهناك دلائل قوية على ان هذا الاصل كان مكتوبا بليونانية يهود الدياسبورا الاوائل، وخاصة في الاسكندرية ، ويحتوي هذا الاصل على مؤثرات يهودية قوية . اما الصياغة الثالثة لكتاب اينوش ، فهي مخطوطة عبرية ، كانت نتيجة لجهود حاخامات اليهود في القرن الثالث الميلادي لتجميع وتفسير ما نسب الى اينوش (ايا كان نسبه واقترابه او ابتعاده عن آدم ونوح) من حكايات واساطير . وتدور كلها حول رؤية لمستقبل البشرية عبر مراحل تاريخية محددة ومتكاملة ومنفصلة ، تنتهي بالدينونة ، بعد فترتوم « ابن الانسان » الذي يشير الى العلم بمقدم المسيح الغادي او المخلص ، ثم رؤية اخرى لماضي البشرية ابدا . بسقوط احد الملائكة الذي يدفع آدم الى السقوط ، ثم جولة المراج بين السموات والاجرام السماوية تنتهي بزيارة اينوش للملا الاعلى واطلاعه على الاسرار العلوية واكتسابه من ثم القدرة على رؤية الماضي والمستقبل . ويشير كتاب اينوش العبري الى قوة وسيطرة عقيدة « المخلص » وفكرة « الصعود الى السماء » على العقيدة اليهودية . (م . هـ) .

رمزية ، مثل طقوس القديس الكاثوليكي . ولم تكن مزاعم كاجليوسترو عن النبي
اينوش وعن طائر الفينيق سوى امتداد لهذه الحقيقة الرمزية ، وكانت تهدف الى
خلق الوضع العقلي الصحيح ، من اجل رفع البشر الى ما فوق مستوى ذواتهم
القديمة . ولا شك ان المعجزات السخيفة للقديسين والشهداء كانت ترمي الى
احداث نفس التأثير .

ولكن الشيء الاكثر اهمية كان التغير السيكولوجي الذي طرا على كاجليوسترو ،
والتناقض الجديد في نسبة انقسامه الذاتي ، مما كان له الاثر الذي لا بد ان
نتوقعه على قدراته الغيبية . .

كان كاجليوسترو قد اصبحت له رسالة ، وطريقته ايضا لكسب الرزق .
كان الآن ، حينما يدخل مدينة اوربية يتجه من فوره الى النقابة الماسونية ،
ويلقي خطبا واحاديث عن « الطقس المصري » ، ويعمد بنفسه من يقتنعون به .
ويبدو انه ذهب الى البندقية وبرلين ونورمبرج وليبزيغ . وفي ليبزيغ ، في اثناء
حفل اقيم لتكريمه ، تنبا بانه اذا رفضت النقابة الاعتراف بالطقس المصري ، فان
رئيسها سيثعر بثقل يد الله قبل نهاية الشهر . وحينما انتحر الرئيس -
وهو رجل يدعى سيكفورت بعد ذلك بقليل - اعلن الماسونيون في ليبزيغ اتباعهم
لنصيحة كاجليوسترو . واصبحت جولته في اوروبا موكبا ظافرا ينتقل من نقابة
الى نقابة بينما كانت سمعته تتقدمه باستمرار . ويقول تروبريدج ، اكبر المعجبين
به انه « لم يكن يتردد في تجنيد اتباعه عن طريق الخداع اذا لم يكن بوسعه عن
غير هذا الطريق - ان يؤثر فيهم » ، ولكنه يضيف ، بدقة لا يمكن الشك فيها ، انه
لا توجد حالة واحدة يمكن فيها الظن بانه حصل لنفسه على اي فائدة
شخصية من خلال ما قام به من خداع .

ولكنه تلقى ضربتين متتاليتين في كورلانه بالمانيا ، ثم في بطرسبرج ، حيث
خائنه زوجته مع بوتكين عشيق الامبراطورة كاترين العظمى ، ثم وقعت تحت
سيطرة طبيبي الامبراطورة اللذين كانا يكرهان زوجها حتى تمكنا من تحويلها
ضده . فرحل كاجليوسترو الى ستراسبورج ليلحق جراحه .

ولكنه لم يذهب الى ستراسبورج في صورة المهزوم ، وانما في صورة الغازي
المنتصر . دخلها بعربته ذات الجياد الثمانية ، اليابانية الطراز ، عليها الرموز والصور
السحرية ، وحوله سبعة من الخدم في اريدة حمراء فوق جياد سوداء ، وخرج
الناس الى الشوارع للفرجة على الموكب الجميل . ولم يذهب كاجليوسترو الى
الفندق الفاخر في المدينة وانما ذهب ليسكن في حجرة متواضعة فوق دكان
بائع طباق في شارع ضيق . وبدا على الفور في توزيع الادوية والاحجية ومعالجة
المرضى . ولم يعد ثمة شك ان كاجليوسترو ، سواء كان افاقا او لم يكن ، في

انه حاول ان يعيش باعتباره ماسونيا حقيقيا . ومثلما فعل في ايكس قبل عشر سنوات حينما وزع اموانه على الفقراء ، كذلك بدا هنا يعيش باعتباره « محسنا كبيرا » يتصدق بامواله او بعلمه .

بل انه رفض ان يعالج الاثرياء والارستقراطيين . لقد كان صاحب مثل اعلى: ان يعيد تجديد البشرية . فما الذي يجعله يضيع وقته في مقابله الارستقراطيين المعتزين بأرائهم الجاهزة وفي اشباع فضولهم الكسول ؟ وحينما اراد الفيلسوف لافاتير ، صديق جوته ، ان يقابله ، اجاب كاجليوسترو : « اذا كان علمك اكبر من علمي ، فانت لست بحاجة الي ، واذا كان علمي اكبر من علمك ، فما حاجتي اليك ؟ » . ولكن لافاتير اصر على لقائه ، واصبح فيما بعد اكثر المدافعين عنه حرارة .

وهنا يدخل الكاردينال دي روهان في قصتنا . كان الكاردينال رجلا غريبا ، اميرا من اسرة البوربون ، طويلا ، وسيما ، ثريا ، هائل الجاذبية . ورغم مركزه الرفيع في الكنيسة ، فقد كان مولعا بالصيد والنبيل والجنس الاخر . ولكن مأساة خيانه ، هو ان الملكة ، ماري انتوانيت ، كانت تكرهه . وكانت امها ، ماري تيريزا ، ملكة النمسا ، قد ابغضته بغضا شديدا حينما كان سفيرا في فيينا ، فراححت احلامه في ان يكون الكاردينال القوي ، شبيه ريشيليو ومارزان وراء لويس السادس عشر ، تتضاءل كل يوم . ولكن ، كانت له مأساة اكبر ، بل واكثر غرابة : كان يجب الملكة . كان قد قابلها للمرة الاولى قبل عشر سنوات ، حينما كانت قادمة عبر ستراسبورج (التي كان روهان اسقفا لها) ، وكانت فتاة في الخامسة عشرة من عمرها في الطريق الى الانتقاء بزوجها . كانت بالغة الجمال ، ذات شعر اشقر بلون القمح الناضج ، وجسد نحيل كان سيزداد امتلاء فيما بعد . وحينما كان الاسقف (الكاردينال فيما بعد) يقدم المناولة اثناء القداس الى الاميرة الجائبة امامه ، وجد نفسه يحسد الزوج الذي سيكون بعد قليل صاحب الحق في عذريتها . ولكن هذا لم يكن هو ما سيحدث بالفعل ، بكل ما في ذلك من غرابة . فقد وجد ملك فرنسا المقبل نفسه عينا حينما دخل الفراش مع زوجته . وفي يومياته لتلك الليلة كتب كلمة واحدة : « لا شيء » . ولكن الاسوا من هذا ، هو ان الموقف سرعان ما اصبح شائعا معروفا في كل ارجاء اوروبا . وقال اطباء لويس ان المشكلة كانت جسمية لا نفسية ، وانها يمكن ان تعالج بواسطة مبضع الجراح ، ولكن الملك (الذي ارتقى العرش عام ١٧٧٤) كان يخشى الألم ، فرفض الجراحة . وهكذا استمر طوال السنوات الست التالية ، يرقد كل ليلة فوق زوجته ، وتستمر النتيجة : « لا شيء » . ولا بد ان الموقف بدا للكاردينال باعتباره نوعا من خطيئة اهدار العطايا الطيبة ، فراح يعمق من انشغاله المؤلم المزمع بالشقراء الجميلة .

وبعد عشر سنوات من ذلك اللقاء الاول ، سمع الأسقف الكاردينال (فـسـي ستراسبورج) عن صانع المعجزات الذي كان يعيش الآن في نفس المدينة ، فارسل خطابا قصيرا الى كاجليوسترو ، يطلب فيه مقابلته ، ولكن طلبه رفض ، مثلما رفض من قبل طلب لافاتير . واجاب كاجليوسترو انه اذا كان الأسقف مريضا ، فانه قادر على معالجته ، فاذا لم يكن ، فانه ليس بحاجة الى طبيب ، ولا حاجة للطبيب به . ولم يياس الكاردينال ، وانما اعلن انه مصاب بالربو ، وطلب من كاجليوسترو ان يرعاه . وعلى الفور ، اثر كل منهما في الآخر . وقال الكاردينال فيما بعد انه شعر حينما رأى كاجليوسترو انه يعيش تجربة دينية من نوع خاص ، وبذلك اصبح رجل الكنيسة الكاثوليكية الكبير احد تلامذة رجل قد يتهم بعبادة الشيطان او بالتعاون معه ، واحد اتباعه . بل انه شعر بالزهو حينما قال له كاجليوسترو يوما : « ان روحك جديرة بروحي ، وانك لجدير بان تعرف كل اسراري » . ولكن غالبية الارستقراطيين واسعي النفوذ لم يرق لهم ان يصبح كاجليوسترو مالكا لكل هذا التأثير على الكاردينال ، ووصفه بعضهم باهتمام بالغ في مذكراتهم ، ولكنهم اجمعوا على الاعجاب به والنفور مما يبدو فيه من شر كامن ، كان اعجابهم بما في الرجل من « خطورة » ولكنهم ايضا كانوا يخافون من هذا الشر .

واكتسب كاجليوسترو شهرة كبيرة ، ونجاحا فائقا في ستراسبورج ، كطبيب وفتخصص في علوم الفيب في وقت واحد . كان يعتمد احيانا على مجرد مايشيعه في نفس المريض من ثقة ودفع ، واحيانا على ما اكتسبه من مهارات فعلية ، واحيانا على مجرد الحظ . وفي سلسلة من المصادفات التي تمكن فيها من شفاء بعض الارستقراطيين البارزين من امراض عضال ، تحسنت سمعته بين الارستقراطيين . بل ان جلساته الروحانية في ستراسبورج لم تكن تقل نجاحا وتأثيرا ، خاصة بعد ان كشف عن قدراته خاصة في مجال الحاسة السادسة والتواصل الروحي عن بعد (التليباتي) .

... من الممكن ان يقوم شيء من الشك في ان كاجليوسترو لم يكن يعتمز ان يخدع احدا . كان لديه قدر عظيم من المال . . وكان الهدف الذي يسعى اليه بعد ذلك هو ان يدعم مركزه ، وان يصبح صديق الامراء ، وان يجدد الجنس البشري . فلم يكن يحتاج في هذه المرحلة الى ان يكون نصابا او مخادعا . كان قد اثبت قدراته المتنوعة اكثر من مرة وبطريقة مذهلة ، وحتى لو حدث وقاطعه الكاردينال ، فان اتباعه من الماسونيين سيظلون الى جانبه (وكانت نقاباته المصرية الخاصة ترسل اليه اشتركاها المالية الصغيرة ، ولكن المستمرة) ،

اما بالنسبة للورينزا ، التي كانت الان امرأة فائنة في منتصف العشرينات ،

فقد كانت كفاح الشهيدة للمدينة بأسرها . ويقول كاتب الترجمة التابع لقضاة التفتيش انها راحت تمنح نفسها للكثيرين ، مقابل المال بالطبع . ولكن مصدرا اكثر ثقة يقول انها بينما كانت تستطيع ان تستمر في اثاره عواطفهم وان تقيدهم جميعا اليها باهتماماتها فيشعرون بالسعادة ، فانها ظلت مخصصة لزوجها . وهذا هو الحق دون شك ، فقد كانا يعيشان تحت انظار الجميع ، وكان من الممكن لاقبل نوع من الاستهتان يخرب حياتها وسمعتها ، هذا الى جانب ان زوجها كان قد صفح عنها بالفعل مرتين ، وربما لم يكن صبره يحتمل ان يمتد للمرة الثالثة .

ومن المؤسف ان كاجليو سترو لم يبق في ستراسبورج ، التي كان يستطيع ان يعيش فيها ما بقي من حياته في راحة كاملة . ولكن كراهية الاطباء جعلته يشعر بالانزعاج وحرمة من الراحة ، رغم انه استطاع ذات مرة ان يكتشف جاسوسا سره الى منزله . فذهب الى نابولي لكي يرضى صديقا كان يعاني من مرض عضال ، ثم ذهب الى بوردو ، ثم رحل الى ليونز . ثم خضع لاصرار الكاردينال وطلباته المتلاحقة ، فذهب الى باريس ، وبذلك وصل الى بداية مرحلة سقوطه ، وبمعنى اخر ، كانت الثورة الفرنسية تلوح في الافق .

لم يكن العقد الممتد بين عامي ١٧٧٠ ، ١٧٨٠ عقدا سعيدا بالنسبة لروهان ، لان الملكة كانت قد اصبحت تناصبه العداء صراحة ، وراحت تضيق عليه وتدمر فرص نجاحه العملي . فحينما اعتلى زوجها العرش ، حصلت منه على امر بعزل الكاردينال - او الاسقف كما كان حينذاك - من منصبه كسفير في النمسا . ثم بدلت جهودا كبيرة لكي تمنعه من الحصول على لقب الكاردينال ، وعلى مناصب رئيس ديوان الصدقات ، المحسن الاعظم ، والمدير العام لجامعة السوربون ، ورئيس دير سانت واتس في آراس ، ورغم فشلها في كل مرة ، فانها حرصت على ان تعلن عن غضبها الملكي وسخطها من خلال مئات المسائل الصغيرة . وكانت كلما زادت قسوة ، كلما زاد افتتان المعجب القديم بها . (وقد يفترض ان الاحباط الجنسي كان هو السبب الكامن وراء سخطها على الكاردينال المندفع في تقدمه الى الامام ، ولكنها لم تكن قد بقيت عذراء منذ العشرين من يوليو عام ١٧٧٧ ، حينما استطاع الملك في النهاية ان ينهض فيرقى الى مستوى الموقف . وبعد اسبوع من ذلك ، كانت قادرة على ان تؤكد لوالدتها ان : « الموضوع قد تكرر » . ثم حدث فيما بعد ان انجبت ولدين وبنتا واحدة) .

وكان بحث الكاردينال الدائب عن امرأة جميلة هو مكن سوء الحظ في حياته ، وكان هو الباب الذي ادى الى سقوطه ودماره ، والى سقوط كاجليو سترو ايضا . كان قد وقع في غرام امرأة فائنة تسمى « كونتيس دي لاموت » . واستطاع ان

يقدمها في البلاط ، واعجبت بها الملكة - ربما بدافع ان تسرق من الكاردينال الكريه صديقة جميلة - فضمتها الى وصيفاتها ، واصبحت « وصيفة ظهر الملكة » . ولكن دي لاموت - التي اراد الكاردينال ان يستخدمها جسرا يوصله الى الملكة ووسيلة لاقتناعها بصداقته ، كانت ترسم خططها الخاصة للشراء . ولما فاتحها الكاردينال في ان تكلم الملكة ، عادت اليه برد شفهي ، فلما سلمها خطابا مكتوبا ، عادت اليه ايضا بخطاب مكتوب بتوقيع الملكة . وهكذا كتبت دي لاموت عشرات الخطابات المزيفة باسم ماري انتوانيت وتوقيعها ، حتى كتبت مرة ان الملكة تريد ان تشتري عن طريقه عقدا يبلغ ثمنه مليوناً وثلثمائة الف فرنك ، لا كهدية ، وانما باعتبارها وسيطاً لها . واشترى الكاردينال العقد ، على ان تدفع الملكة الثمن بعد عدة شهور . وفي الموعد طالب اصحاب شركة الجواهر بنقودهم ، وكانت دي لاموت تظن ان الكاردينال سيدفع في صمت . ولكنه في الحقيقة لم يكن ثريا بسبب اسرافه الهائل . ولم يدفع الكاردينال ، فحمل الصانع القصة كلها الى الملكة . التي انفجرت وشعرت بالمهانة ، وجعلت الملك يأمر باعتقال الجميع : الكاردينال ودي لاموت وكاجليوسترو (الذي كان كل دوره انه كان كاتم سر الكاردينال وصاحب ثقته - وكان ايضا يصنع له احجية وصورا للملكة حتى ترق له) وامرت ايضا باعتقال زوج دي لاموت ، وعشيقتها الذي كانت تنفق عليه من اموال الكاردينال . اما روهان فقد انتهت حياته الدينية والدنيوية تماما ، واصبح كاجليوسترو اضحوكه باديس واوروبا ، ببساطة لانه لم يستطع ان يتنبأ لنفسه ، ولا لصديقه ، ولا للملكة بكل هذه الكوارث . وجلدت دي لاموت عارية في ميدان عام ، ثم اطلق سراحها لكي تهرب الى انجلترا ، وتموت هناك بعد قليل لسقوطها من نافذة مرتفعة ، ولكن بعد ان نشرت كتابا عن حياتها ملأته بالاكاذيب عن جميع ضحاياها . اما الكاردينال ، فقد مات في بادن ، بعد حياة منعزلة هادئة عام ١٨٠٣ . وحينما ماتت دي لاموت ، كان كاجليوسترو نزيلا في سجنون التفتيش منذ عامين .

كان كاجليوسترو ، في قصة الكاردينال والملكة ، هو المتفرج البريء . ولكنه كان اسواهم مصيرا ، رغم ان ماري انتوانيت ماتت على المقصلة . فقبل القاء القبض عليه ، كان ثريا ، مشهورا يتمتع باحترام الكثيرين . ولكن السجن الانفرادي في الباستيل حطم اعصابه تماما ، بالاضافة الى انه كان مجنونا بالانشغال على زوجته التي كانت قد اعتقلت معه . وبعد سبعة شهور ، اطلق سراحها وتعاطف معها الجميع . اما كاجليوسترو ، فقد ظل في السجن لما يقرب من عام كامل ، اثر فيه تأثيرا بالغ السوء . ثم ترك انطباعا مضحكا في المحكمة ، حينما جاء : « يتعثر ثم يندفع في معطف اخضر من قماش التافتا الحريري المعروش بالذهب » وقد تدلت خصلات شعره في دوائر مضمخة بالطيب الدهني على عنقه وكتفيه . وحينما ساله القاضي عن يكون ، اجاب في صوت ممثل متجول صعلوك : « انا رحالة نبيل ،

طفل الطبيعة السيء الحظ » فانفجر الحضور ضاحكين . وكان قد اعد للمحاكمة « قصة حياة » تبدو كما لو كان الهدف منها هو اثارة السخرية والتهكم . في هذه القصة زعم انه نبيل المولد، رغم انه يجهل واندبه ، وانه نشأ في بلاد العرب باسم « اشارات » ، وانه كان يملك مسكنا خاصا في قصر « المفتي صلاح اليوم » زعيم المسلمين والديانة المحمدية ، وانه قام بعد ذلك برحلات طويلة في آسيا وافريقيا ، ثم يلتقي باستاذة ، الثوناس ، الذي يموت في مالطة وهو ممسك بيديه . وتجري القصة ، على هذا النحو . ويبدو كاجليوسترو في المحاكمة كما لو كان قد فقد حسن تقديره وحكمته تماما .

وبعد تبرئته ، ذهب الى لندن ، منفيا بأمر الملك . وحاول هناك ان يقيم دعوى ضد حاكم الباستيل لكي يستعيد مبالغ ضخمة من المال والاشياء الاخرى سرقت منه اثناء القبض عليه ، ولكنه خسر القضية . . ووجه من لندن « خطابا الى الشعب الفرنسي » ، لقي على الفور رواجاً هائلا في باريس وبيعت منه كميات ضخمة . وكان هذا الخطاب مسمارا اضافيا في نعش النظام القديم . وتضمن الخطاب ايضا نبوءة لامعة ، بالنظر الى الاحداث التالية . فقد اعلن في الخطاب انه لن يعود الى باريس حتى يهدم الباستيل ويتحول الى منتزه عام ، وثنا بأن الفرنسيين سيكون لهم امير او ملك يلغي الاوامر الاستبدادية بالسجن او النفي ، ويدعو البرلمان (مجلس الامة) الى الانعقاد ، ووصفه بانه : « لن يرضى بان يكون رئيس وزرائه ، وانما سيهدف الى ان يكون رئيس الفرنسيين » . ولكن القول بان كاجليوسترو قد تنبأ بالثورة وبظهور نابوليون ، سيكون نوعا من المبالغة . انه لم يقل بأن الباستيل سوف يهدم ، وانما قال انه لن يعود الى باريس قبل ان يهدم ويتحول الى منتزه عام . ومع ذلك فمن المقبول القول بان خطابه قد ساهم بالكثير في تحقيق النتيجة التي لم تكن بعيدة . وقد كان الملك نفسه هو الذي وجه الدعوة الى البرلمان ، رغم ان العبارة الاخيرة من السطور التي اشرنا اليها تناسب مع نابوليون .

ولم تكن لندن ملجأ مناسباً له . فالماسونيون الانجليز لم يهتموا بالطقوس المصرية ، بينما نشرت مجلة : « كوريير دي ليروب » تحقيقا طويلا عن كاجليوسترو لا يقل ادانة له عن قصة حياته التي سجلها كاتب محكمة التفتيش ، وكشفت المجلة عن شخصيته الحقيقية على اساس انه « جويسبي بالسامو » . وانتقل كاجليوسترو ولورنيزا الى بازل ، ثم تورين ، ثم الى قرية روفيردو في التيرول النمساوي ، ولكن الشرطة كانت تأمرهما بالرحيل على الفور . ولكنه عثر فسي مدينة ترنت بالنمسا على كاردينال سيميائي اخر ابدى استعدادا لحمايته ، ولكن الامبراطور امره بان يغادر الاراضي النمساوية . وكانت زوجته قد فقدت جمالها ،

رغم انها كانت في بداية ثلاثيناتها ، ثم اضطرت الى بيع ماساتها ومجوهراتها حينما بدأت ثروتهما تتضاءل . واخيرا ارتكب كاجليوسترو خطاه الاكبر بالذهاب الى روما ، محاولا ارساء قاعدة للماسونية تحت انف البابا . وقد قبض عليه في عام ١٧٨٩ ، ولم يستعد حريته بعد ذلك ابدا . وكان الفاتيكان يشعر بالقلق ازاء المؤامرات الواسعة التي كان الثوار الفرنسيون يدبرونها للاطاحة بالكنيسة ، فضعف الحراسة حول قلعة سانت انجياو . ولا شك ان الهدف من محاكمة كاجليوسترو كان هو اعلان الحرب على الماسونية . ورد الماسونيون على قصة حياة كاجليوسترو التي وضعتها محكمة التفتيش بكتيب صغير كان له تأثير اعظم بكثير من القصة ، واقنع البابا بانه كان حكيما للتخلص من الماسوني الخطير . ونقل كاجليوسترو الى قلعة سان ليو ، حيث كانت الزنازين مصنوعة من الالواح المعدنية المأخوذة من احواض قديمة جافة او منحوتة من الصخور الصلدة . واصبح كاجليوسترو مدفونا وهو على قيد الحياة . ومات في عام ١٧٩٥ وهو في الثانية والخمسين من العمر . وماتت زوجته في احد الاديرة في عام ١٧٩٤ وكانت ما تزال تحت الاربعين . وحينما استولى الجنود الفرنسيون على سجن سان ليو عام ١٧٩٧ بحثوا عن كاجليوسترو ، معتزمين ان يعاملوه باعتباره بطلا ثوريا ، ولكنه كان قد مات .

ولا شك ان هذا الرجل البارز كان اخر السحرة ، وما يزال بعد قرنين من موته موضع لسوء الفهم مثلما كان اثناء حياته . وعلى الرغم من اتساع جانب المهرج في شخصيته ، فلا شك انه كان ساحرا حقيقيا . وقد اعتبر نفسه صاحب رسالة ، وراح يدعو اليها ويتابعها معتمدا على عقله وحده . وقد احب الحياة الثرية ، ولكنه ايضا كان بالغ الكرم - وهي الصفة التي ربما كانت العلامة الاساسية على الرجل الطيب . ومثلما اشار هو نفسه في محاكمته ، لا يكاد يوجد دليل واحد يعتد به على انه انزل الضرر بانسان واحد اثناء حياته غير العادية ، ولا يمكن الشك في انه اسدى الكثير من الخير . ومن العجيب ان حياته ، مثل حياة الكثيرين ممن تناولناهم قبله ، اجريبا وباراسيلس وجون دي وكازانوفا وميسمير - قد بلغت ذروة معينة ثم بدأت في الانحدار المستمر دون توقف . ويبدو هذا كما لو كان سمة مميزة لكل السحرة ، ومن الممكن ايضا ان نرى نفس الظاهرة في حياة مدام بلافاسكي واليستر كراولي وراسبوتين .

ولقد تركت عامدا ، واحدة من أبرز تنبؤاته للنهاية ، لانها تتضمن « علم الارقام » المعقد . وقد اطلق كاجليوسترو هذه النبوءة اثناء اجتماع ماسوني خلال فترة اقامته الاخيرة في باريس ، في بيت المستشرق الكونت دي جابلان .

واوضح كاجليوسترو للمجتمعين ان لكل حرف من حروف الابدجيدية قيمته العددية او مقابله من الارقام - وهو قانون اساسي من قوانين الكابالاه . ثم شرح

المذهب او النظام القائم على هذه القاعدة بشكل كامل ، محسلا اسماء كاترين دي ميديتشي ، وهنري الثالث وهنري الرابع ملكي فرنسا . ووضح لهم ، انسه حينما تجمع الارقام المقابلة للحروف التي تكون اسماءهم ، فان النتيجة (حاصل الجمع) يمكن ان « يقرأ » كما تقرأ خريطة النجم . ثم بدأ يطبق نفس المنهج على اسمي كل من لويس السادس عشر وماري انتوانيت . وقالت نبوءة الملك انه يجب ان يحذر الموت على المشنقة قبل ان يبلغ التاسعة والثلاثين ، وقال كاجليوسترو: « محكوم عليه بان يفقد رأسه حينما يثبت انه يتحمل جريرة الحرب » . وقال عن ماري انتوانيت : « ستكون سيئة الحظ ، تعيش في فرنسا ، ملكة دون عرش ولا نقود ، تتجمع بشرتها قبل الاوان بسبب الحزن والهم ، وتعيش على طعام بائس ، وشجن ، وينقطع رأسها » .

وقد اقام كاجليوسترو علم ارقامه على اساس المنهج الذي وضعه كورنيليوس اجريبا القائم على اساس الابدادية العبرية . وفي هذا المنهج ، تتقابل الارقام من واحد الى ثمانية مع الحروف التالية ، المرتبطة بها :

- 1 - A , I , Q , J , Y
- 2 - B , K , R
- 3 - C , G , L , S
- 4 - D , M , T
- 5 - E , H , N
- 6 - U , V , W , X
- 7 - O , Z
- 8 - F , P

وطريقة ايجاد « رقم شخص ما » . هي ان تأخذ حروف الاسم الاول والاسم الاخير ، وتجمع الارقام المقابلة لها ، ثم تجمع حدي الرقم الذي تحصل عليه (اذا كان حاصل جمع حروف الاسم ٤٤ مثلا ، كان الرقم الدال على شخصية صاحب الاسم هو ٨) . اما دلالة كل رقم من واحد الى تسعة فهي كالتالي :

واحد : رقم يدل على المباشرة والطموح والقوة . صاحبه شخصية رائدة مبتكرة ، لا ينتظر ان يكون له اصدقاء كثيرون او مساعدون مخلصون . قادر على الشفقة والكرم ، ولكنه قادر ايضا على القسوة والخلو من الرحمة . وقد لخص بيتس الشاعر العظيم ، شخصية صاحب الرقم « واحد » في السطور التالية :

ليس من ابله يستطيع ان يدعوني صديقا
وقد اتفدى في نهاية احدى الرحلات
بلحم لاندور ولحم دون .

ويمكننا ان نكتشف ان حاصل جمع حروف اسم ويليام بتلرييتس هو « واحد » ، وفي هذه الحالة تضاف حروف الاسم الاوسط لان ييتس كان معروفا ب « و . ب . ييتس » وليس باسم ويليام . ولكن الشيء الغريب تماما ، هو انه اذا اضيفت حروف اشهر اسماء تدليله ، وهو « ويلي » فان حاصل الجمع سيكون « واحد » ايضا .

اثنان : هذا هو عكس الرقم السابق ، يدل على شخصية متوازنة توازنا حسنا ، ورقيقة مهذبة . ويتحدث ريتشارد كافنديش في كتابه « الفن الاسود » عن هذا الرقم باعتباره رقما شريرا واثويا . ويستطيع اصحاب الرقم « اثنان » ان يصطنعوا تابعين ومساعدين بشكل جيد ، ولكنهم قد يكونون شديدي الحساسية ، سهل وقوعهم في قبضة الكآبة والانقباض . ومثلما ان الجانب السلبي للرقم « واحد » هو الاسراف في تأكيد الذات والثقة البالغة في النفس ، ورفض الاعتراف بالخطأ (وهو ما يدعوهم فان فوجت ب « رجل الصواب الدائم الرجل الذي سيتمسك بجنون بانه على صواب في وجه كل دليل يثبت عكس ذلك) كذلك فان الجانب السلبي للرقم « اثنان » هو الخداع والمراوغة او التدلبذ وعدم الثبات .

ثلاثة : رقم التنوع وتعدد الجوانب والوفرة . رقم الحظ السعيد بشكل تقليدي (يقال محظوظ ثلاث مرات) . اصحاب الرقم « ثلاثة » ، مرحون ، جذابون ، قابلون للتكيف ، طيعون ، موهوبون ، محظوظون ، ولكنهم قابلون الى ان يوجهوا وجهة مخالفة ، يبدلون الكثير من حياتهم من اجل ان يحصلوا على استحسان الآخرين واعجابهم .

اربعة : هذا هو الرقم « الكامل » الذي تحدث عنه الفيشافوريون . يشير الى المداومة والاستمرار وقوة التحمل وثبات الهدف والهدوء . يعني ، في جانبه السلبي ، الوقار والكآبة ، اي « الانغلاق » بالمعنى العامي الحديث . ولما كان ايضا هو رقم الارض ، فانه قد يشير ايضا الى النيران القوية الدفينة تحت السطح والتي قد تنفجر احيانا في شكل زلازل او براكين .

خمسة : هذا هو رقم السحر ، النجمة الخماسية . اصحاب الرقم « خمسة » محبوبون للمغامرة . وهم محظوظون ايضا ، ولكنهم ميالون الى عدم الاستقرار او عدم الثبات ، وغرابة الاطوار والشذوذ ، ممثلثون بالطاقة العصبية ، ميالون الى التباهي والتفاخر ، محبوبون للنساء ، وغالبا للمشروبات الكحولية ايضا .

ستة : هذا هو رقم الانسجام والثقة والرسوخ الذي يعتمد عليه . في افضل جوانب اصحاب هذا الرقم ، فانهم يكونون عطوفين ، محبين للسلام ، ثابتين ، محبين للبيت والاسرة . وفي اسوأ جوانبهم يميلون الى التفاهة والصغار ، ينشغلون

بالتفاصيل ، ويهتمون بالتنسيق الشكلي . ولما كان رقم « الستة » يقبل القسمة على الاثنين وعلى الثلاثة ، فإنه يرتبط بقوة بخصائص الرقمين جميعا .

سبعة : رقم سحري آخر ، انه رقم الاسرار والفموض والتصوف . قد يكون اصحابه مضطربين نفسيا وعادة ما يكونون منطوين على انفسهم مركزين على افكارهم الداخلية ، اكثر اهتماما بالواقع الداخلي منهم بالعالم الخارجي . انهم متباعدون ، مسيطرون على ذواتهم ، وقورون . وفي جانبهم السلبي ، قد يكونون بعيدا عن الواقع لا يلامسونه ، عاجزين بلا كفاءة ، غامضين .

ثمانية : هذا رقم ميمون سعيد ، يدل على العزيمة والنجاح . ولاصحابه علاقات قوية برقمي اربعة واثنين . انهم يتمتعون بالصلابة ، والاتزان الكامل ، قادرون على بذل الجهود الطويلة المدى والتركيز العظيم . وفي جانبهم السلبي ، قد تصل بهم نفس صفاتهم الى الصفاء والاصرار على المضي في الطريق الخطأ ، حيث تتحول المميزات الايجابية الى مميزات سلبية ، ويصبح النجاح فشلا .

تسعة : هذا هو الرقم الملكي ، الذي يرتبط بدرجة عالية من القدرة على الابداع والخلق (عرائس الفنون التسع) والانجاز الروحي . في افضل حالات اصحابه يكونون شعراء واصحاب رؤى ، وفي اسوأها يصبحون متقلبين سريعين الى التائر والاستشارة ، مستسلمين لنوع كثيف وحاد من الرومانتيكية .

ولا بد لكل من يحاول تجربة هذا المنهج من ان يحقق بعض النجاحات المدهشة . ولقد اشرت من قبل الى ان ييتس كان صورة نموذجية للرقم « واحد » . وحاصل جمع حروف اسم برناردشو هو « تسعة » . ومن الممتع حقا ، ان ريتشارد كافنديش ، يضيف ان اصحاب هذا الرقم كثيرا ما يقعون في الحب ويتخلصون منه ، ويقتطف قول شيرومن ان اصحاب الرقم « تسعة » كثيرا ما يتعرضون لضرورة اجراء العمليات الجراحية بسكين الجراح . والصفتان جميعا تنطبقان انطباقا كاملا على برناردشو .

ومع ذلك فلا بد من الاعتراف بان مرات الفشل يمكن الا تقل عن مرات النجاح . حاول مثلا ان تفكر في شخص نموذجي للرقم « ثلاثة » - المتنوع الجوانب ، المحظوظ ، المحب للناس . ان فيليكس مندلسون يبدو كما لو كان متطابقا مع هذه الاوصاف بدقة شديدة . ولكن حروف اسمه تتقابل مع ارقام حاصل جمع مدى الرقم الناتج عن حاصل جمعها ، هو « اربعة » ، « المتوازن » ، الكثيب » . وكان ويليام بليك جديرا بأن يكون رقم « تسعة » او « سبعة » على الاقل . ومع ذلك ، فان هذا الرجل ، الذي يعد من اكثر الناس انطواء وامتلاء بالرؤى هو من اصحاب رقم خمسة . : رقم المغامرة والتفاخر والمباهاة الكاذبة ، الذي يمكن

ان يناسب كازانوف او كاجليوسترو اكثر من بليك . ولكن كازانوف يتبع رقم « ثمانية » ويتبع كاجليوسترو رقم واحد . غير ان هذه الحقيقة لا يمكن ان تكون مصادفة عارضة ، لان حروف اسم « جويسيبى بالاسمو » تحمل رقم « ستة » ، وهو رقم يمكن ان يتناسب مع شخصية « مستر برونلو » التي ابدعها ديكنز ، او مع شخصية « مستر بوللي » التي ابدعها ويلز . اما اوسكار وايلد الذي كان يمكن ايضا ان يكون من اتباع رقم ثلاثة ، فيتبع رقم ثمانية الذي يشير الى قوة العزيمة وقوة الارادة . صحيح انه حقق نجاحا هائلا ، ثم تحول نجاحه الى فشل هائل ، ولكن هذا التحول يبدو اقرب الى التراجع والاهتزاز والدبدبة ، اكثر منه هدفا لا مهرب منه .

وهناك منهج آخر ، اكثر حداثة لعلم الارقام يكتب الارقام من واحد الى تسعة ، ثم يكتب حروف الابجدية بعدها ، بهذا الشكل :

1 - A , J , S

2 - B , K , T

3 - C , L , U

4 - D , M , V

5 - E , N , W

6 - F , O , X

7 - G , P , Y

8 - H , Q , Z

9 - I , R .

ومن الممكن الحصول على معلومات اكثر من الاسم نفسه بجمع الارقام المقابلة لحركات النطق فيه ، وهي التي تشير الى الطبيعة الداخلية للشخص المقصود . اما حاصل جمع الحروف الساكنة وحدها فيدل على الشخصية الخارجية ، الواجهة الاجتماعية للشخص .

ولا ينبغي ان ننسى القول بان علم الارقام يتضمن ما هو اكثر من هذا بكثير ، فعلى سبيل المثال يستفيد المشتغلون بعلم الارقام من التنجيم ، والعكس صحيح ايضا - فالعلماء المرتبطان ارتباطا شديدا . ولا شك ان نبوءة كاجليوسترو كان لا بد ان تستلزم عملا شديدا التعقيد من اجل استنتاج واستخلاص تلك الاجوبة التفصيلية من « العراف » القديم . ويشعر المرء باغراء شديد لصرف النظر عن القصة كلها بوصفها قصة اخرى مختلفة وملئمة بالتزييف عن احد السخرة . ولكن هناك تنبؤات اخرى عن نفس الموضوع ، وهي تستمتع بمصادر لا يرقى اليها الشك بالفعل ، مما لا يترك مجالا للشك في امكانية مثل هذه

النبوءات في ظروف مناسبة . فقد حدث ان جاك كازوت ، الملكسي النزعة وكاتب رواية « الشيطان المحبوب » حدث ان تنبأ بالثورة وبشيء من التفصيل في عام ١٧٨٨ في مادبة عشاء اقامتها الدوقة دي جرامونت . ومن الواضح ان كازوت - المشتغل بعلوم الغيب - قد تفجر في ذهنه ما لا يمكن ان يوصف الا بالالهام ، حيث استطاع ان يتنبأ بمستقبل عدد كبير من الحاضرين . فقد قال لكوندورسيه انه سيتناول السم لكي يخذع الجلاد ، وان تشامفورت سيقطع شريان يده ولكنه سيموت بعد ذلك بعدة شهور ، وان المنجم مسيو بيللي سيموت ممزقا بايدي الغوغاء ، وان الدوقة دي جرامونت ستموت بالمقصلة ، وان الوحيد ممن سيحكم عليه بالاعدام ، الذي سيسمح له بالاعتراف امام كاهن ، سيكون هو الملك نفسه . وكان من الحاضرين المفكر المالحمد جان دي لاهارب ، كان شديد الشك ، فكتب نبوءة كازوت على الفور بتفاصيلها ، وكان كازوت قد تنبأ له بأنه سيصبح مسيحيا ، وفي الحقيقة اصبح لاهارب راهبا ، وقد وجدت النبوءة بين اوراقه بعد وفاته عام ١٨٠٣ . وبعد قرن من العثور عليها ، قام الدكتور والتر بورمان بفحص دقيق للنبوءة وقارن بينها وبين مصائر الاشخاص المذكورين فيها على ضوء ما ذكر عنهم في صحف ذلك العصر والمذكرات الشخصية والخطابات . بل ان البارونة دوبيركيرش تذكر نفس النبوءة في مذكراتها التي طبعت عام ١٨٥٢ : فهي تصف امسية في صالون بيتها ناقشها الحاضرون فيها ، وكان الماركيز دي بيوسيجير (مكتشف التنبؤ المغناطيسي) قد جاء معه بوسيط ، فسأله عن تفاصيل النبوءة ، فراح يذكر المزيد من تفاصيلها وعن مصائر آخرين ممن كانوا حاضرين في مادبة الدوقة دي جرامونت ، وقد ثبتت صحة كل هذه التفاصيل فيما بعد .

ولكن من الضروري ان نقرر اننا نستخدم كلمة « العلم » هنا استخداما مجازيا . ليس هناك « علم » للتنبؤ ، سواء كان متعلقا بالنجوم او الارقام او ياطن الكف او اي شيء آخر . انما يعتمد كل شيء على موهبة « المتحسس » للمستقبل . لقد « استخدم » كاجليوسترو الارقام ، ولم « يستشرها » . ورغم هذا فهناك دائما اختلاف بين الطرق المتبعة في استخدام كل وسيلة منها ، ومرة ثانية لا يعود هذا الاختلاف الى اي اختلاف « منهجي » وانما يعود الى الفوارق الشخصية والمميزات الخاصة لكل « موهبة » فردية على حدة .

... ثمة كلمة اخيرة عن كاجليوسترو وعن « مأساته » . من ناحية لم يكن العصر الذي عاش فيه هو عصر « السحرة » رغم انه كان عصر الكثيرين من الفنانين العظام ، وبين الموهبتين علاقة وثيقة . ومن ناحية اخرى لم يكن كاجليوسترو - باعتباره ساحرا ومثله في ذلك مثل اسلافه الذين تحدثنا عنهم - قادرا على

الاكتشاف الموضوعي والتحليل الهادي للظروف الخارجية المحيطة به . كان يعتمد على قدراته الخاصة على التأثير في الناس وجاذبيته وذكائه وتمكنه الدائم من انفاذ الى قلوب الناس ومشاعرهم . وبذلك فقد القدرة على « الحكم » السليم والتقدير الصحيح للامور . لقد حطمت فترة السجن في الباستيل . وكان كل ما يحتاجه هو الاعتكاف في مكان هاديء لمدة سنتين آخرين حتى يستجمع قواه ببطء من جديد ، وحتى يحقق ما حققه وردزورث من بعده فيستعيد قوته وتفأؤله . ولكنه بدلا من ذلك اندفع الى المجادلات العقيمة والمحاكمات غير المجدية . كان يحتاج الى هاتين السنتين من العزلة ، حتى يتمكن مرة اخرى من الدخول في تيار التاريخ الصاعد فيتحول الى بطل ثوري مثلما فعل الكاردينال روهان في الحقيقة . ان سقوطه لا يرجع الا الى ضعف القدرة على التقدير الصحيح وعلى الحكم السليم . وكان سقوطه « تراجيديا » لا مهرب منه ولا نجاة .



اذا كانت قامة كاجليوسترو تترابد وترتفع كلما تعمقنا في بحثه ، فان العكس هو ما يصدق على « الساحر العظيم » الاخر لتلك الفترة ، كونت سانت جيرمين . يبدأ الفصل الذي كتبه عنه كيرت سيليجمان بعبارات تقول : « من كان ومن اين جاء ؟ لم يحل هذا اللغز ابدا » ان توارىخ مولده وموته مجهولة . واشياء وافعال لا تصدق تنسب اليه وينسبها هو الى نفسه . لقد وصفه فريدريك الاكبر بانه الرجل الذي لا يستطيع ان يموت ، وقد اكد الكونت نفسه انه عاش في عام وكان يستطيع ان يتحدث باللغة شديدة عن ثروته مع ملكة سبا وعن احداث رائعة وقعت في زواج كانا . . »

انه قادر على ان يبدو اكثر السحرة اثارة على الاطلاق . ولكن يبدو ان سيليجمان لم يكن يعرف نتائج بحوث جوستاف برتولد فولز في العشرينات . فقد كشفت هذه البحوث انه رغم ما يبدو على سانت جيرمين من انه اكثر رقيا من الناحية الذهنية واكثر ثقافة من كاجليوسترو فانه لا يزيد في الحقيقة عن الممثل الماهر . وحينما فحص فولز شهادات وكتابات المعاصرين تبين انه لم يظهر اية كفاءة خاصة تزيد عما اظهره كاجليوسترو ، ولكنه كان شخصية مسرفة فسي التفاخر والمباهاة ماهرة في الاعلان والدعاية لنفسها . وقد استطاع كازانوفا ، الذي كان دائما ما تبهره استعراضات الثقافة الرفيعة والسمو الذهني ، استطاع ان يكشف تهريجه على الفور ، ثم راح يتسلى بافاظته و « الضغط على دمل » في اثناء رحلتها المشتركة في بعثة دبلوماسية الى لاهاي . ولكن لم يكن على كازانوفا ان يبدل الكثير من المجهود لكي يكشفه ، فان سداخته وافتقاره الى المرونة والمباقة سرعان ما ادته الى سقوطه ، فكان عليه ان يهرب الى انجلترا .

ولكن يبقى رغم كل هذا سر واحد : اصله ومن اين جاء . ولا بد من ان نضع في اعتبارنا ان مثل هذا الموضوع لم يكن من الصعب ان يظل سرا غامضا في تلك الايام . كانت وسائل الاتصال سيئة للغاية ، وكانت معظم سجلات المواليد والموتى مقصورة على ما تقوم به الابريشيات المحلية . وربما كانت الرواية القائلة بان سانت جيرمين كان ابنا لجامع ضرائب في سان جيرمانو وانه ولد عام ١٧١٠ هي الرواية الصحيحة . ولكن لا يعرف اي شيء مطلقا عن حياته قبل الاعوام التالية لعام ١٧٤٠ حيث يبدو انه ظهر في قيينا وتعرف ببعض الارستقراطيين ، من بينهم الكونت زابور ولويسكويتز . ثم تعرف هناك ايضا بالمارشال الفرنسي « بل - ايل » الذي جاء به الى فرنسا . ولم يحل عام ١٧٥٨ - حين كان من المفروض انه قد بلغ اواخر اربعيناته - حتى كان شخصية مقربة تماما عند لويس الخامس عشر وعند عشيقة الملك مدام دي بومبادور (التي يفترض ان العقد الماسي الشهير كان يشتري لها) .

ويصفه كازانوفنا - الذي التقى به في هذه الفترة تقريبا - بانه من ابرز القادرين على الكلام وتبادل الاحاديث ممن التقى بهم في حياته - وهذه ملاحظة تقدير لها اعتبارها ، من رجل كانت له مواهبه المؤثرة . انه يصف سانت جيرمين بانه باحث ولغوي وموسيقي (ومغن ايضا ، اذ كان يتمتع بصوت بالغ العذوبة في الغناء) وكيميائي ، ووسيم ايضا (الصفة التي كان يفتقدها كازانوفنا ، اذ انه كان داكن اللون ، معقوف الانف) . وكان رجلا محبيا عند النساء تماما ، خبيرا بملاطفتهن ، كثيرا ما يهديهن مادة لدهان الوجه لاختفاء التجاعيد ، لا بد انها كانت تكلفه غالبا ، ولكنه كان يهديها بسخاء . ومن المحتمل ان يكون قد اقترب من الملك من خلال مدام دي بومبادور .

وكانت « الحيلة السحرية » التي يستخدمها سانت جيرمين هي زعمه انه لا يأكل ابدا ، وانما يعيش على نوع غريب من الطعام او « اكسير » يعده لنفسه بنفسه . كان يجلس في مآدب العشاء التي يدعى اليها ، ليستمر في تسلية الاكلبن باحاديثه ، رافضا ان يتناول اي طعام او شراب . وكان يفسر ذلك مبتسما بانه اكبر سنا بكثير مما يبدو ، ثم ينكر ما يزعمه الناس من انه يبلغ من العمر خمسمائة عام . ويقول كازانوفنا انه كان يؤكد بهدوء انه يبلغ من العمر ثلاثمائة عام فقط . وكانت معرفة سانت جيرمين بالتاريخ كبيرة الى درجة ملحوظة ، حتى انه كان قادرا على ان يردد الاحاديث التي تبادلتها شخصيات تاريخية بارزة بطريقة توحى بانه كان حاضرا مشتركا في الحوار . فاذا ما سئل ان كان قد « حضرها » بالفعل ، كانت اجابته مجرد ابتسامة غامضة . لقد استطاع ان يطور فن الالحاء بما هو وهمي وان يحوله الى احد الفنون الجميلة .

ماذا كانت منجزاته الحقيقية ؟ لقد كان لغويا ممتازا ، كما يبدو انه اكتشف سلسلة غريبة من العمليات لصبغة الحرير والجلد . وهذا هو ما يوحي بان هوى حياته الثابت كان علم الكيمياء . فحيثما استطاع ان يقنع احد الاثرياء مسن رعايته بان يوفر له الطعام والماوى ، كان يقيم معملا كيميائيا على الفور . وكان منتصف القرن الثامن عشر هو عصر ما قبل الكيمياء . وينتمي علماء الكيمياء الكبار ، بريسبلي وكافنديش ولافوازييه الى السنوات الاخيرة من هذا القرن . ولكن يبدو ان سانت جيرمين كان مشغولا بالمعادن والاصباغ بدلا من البحث عن تكوين الماء والهواء . وكانت معرفته بالكيمياء حقيقية واصيلة ، كما كانت جاذبيته وثقافته حقيقتين واصيلتين . ودفعته نزعة « مسرحية » ما ذلى ان يدهش الناس الى جانب تسليته عنهم ، ومن هنا جاءت تلك التلميحات الذكية الى وجوده فسي هرس كانا او اقتصراره على تناول نوع من الطعام السحري . (والاجابة البسيطة على هذا اللغز هي انه ربما كان نباتيا ، متنسكا طبيعيا نقر من الاسراف في اشرب والنهم الى الطعام الذي كان يشاهده كثيرا على موائد الاغنياء) (١٧)

وقد بلغ ميله المسرف الى التفاخر ان وصفه الكونت فارنشيت في عام ١٧٠٩ بانه : « اكبر مهرج ، ابله ، ضارب طبول ، منتفخ وفارغ كفقاعة هواء ، ونصاب » . ورغم هذا فان اسلوبه كان اقل زخرفة وتنسيقا من اسلوب كاجليوسترو ، وكان قادرا على ان يترك في الاذهان انطبعا واضحا عن هدوئه وتواضعه وانزائه . ويقول م. ا. بتلر ان علاقاته مع الاثرياء الذين قاموا برعايته دائما ما ب « تضمنت نوعا من تلمذهم عليه » بما يعني انه كان يهدف الى اثارة اهتمام العقل الى جانب رغبته في اثارة التعجب والدهشة لدى من يرعاه ، ومال دائما الى اتخاذ مكانة المعلم والاستاذ ومن الغريب تماما انه كان ماديا ، اعان ان همه الوحيد هو خير البشرية .

من الممكن لاي انسان ، حتى اكثر الناس ثباتا وتماسكا ، ان يبدو كما لو كان عدة اشخاص في وقت واحد في عيون مراقبيه المختلفين . ومن المؤكد ان شخصا هدف بوعي الى ان يجتذب انظار الناس وتعهد ان يكون زئبقيا مراوغا مثل سانت جيرمين ان يشير قدرا كبيرا من الخلاف في الراي حوله . لقد استطاع ان يفرض نفسه وصداقته على راعيه الاخير ، الامير تشارلس ، امير قلعة هيس ، ضد ارادة الامير الى حد كبير ، وانتهى الامر الى ان الامير تعلق به الى درجة انه صدم صدمة قوية بموت سانت جيرمين (في عام ١٧٨٤) وكتب يقول : « ربما كان هذا الرجل واحدا من اعظم الحكماء الذين عرفهم العالم . » (١٨)

(١٧) ث. ه. هوايت - « عصر الفضيحة » ، حيث يقدم المؤلف صورة متمعة لعادات الطعام الدهشة في هذا العصر .
(١٨) اسطورة الماوس . ص ١٩٩ .

ويبدو من حياته المعروفة انه عاشها تحت حماية مثل هؤلاء الرعاة . فبعد ان فشلت مهمته الدبلوماسية التي كلفه بها لويس الخامس عشر (وكان مكلفا بأن يتحسس امكانيات البحث عن السلام بين فرنسا وانجلترا) وكان الفشل راجعا الى تدخل وزير الخارجية الفرنسية ، الدوق دي شوازيول (الذي كان يبغضه) هرب الى لندن ، ثم ابتاع فيما بعد مزرعة في هولندا ، واتخذ اسم الكونت سيرمونت . واوشك ان يجمع ثروة طائلة عن طريق تسليح الاثرياء في المحافل الراقية بعملياته الكيميائية التي كانت تتضمن اعمال الصباغة وعمليات : « زيادة قيمة المعادن » او « زيادة نبلها » . ثم ارغم على ان يختفي عن الانظار لفترة ما ، وقد اخذ معه مائة الف جولدن ، ولكن المصانع التي اقامها لم تزدهر ابدا . ويبدو انه امضى السنوات العشر التالية او نحوها في روسيا ، واستطاع ثانية ان يصادق بعض ذوي المكانة ، وكان من بينهم الكونت انكسي اورلوف ، احد المهندسين الرئيسيين وراء المؤامرة التي وضعت كاترين العظمى على عرش القيصرية ، وبطل معركة تشيرميه (١٧٧٠) حيث انتصر الاسطول الروسي على الاسطول التركي . ويعتقد ا.م بتلران سانت جيرمين ساهم بنشاط في المجهود الحربي الروسي ، فنصب جنرالاً في الجيش الروسي واطلق على نفسه « الجنرال ويل - دن » (بما يعني الجنرال انبارع ، صاحب البراعة « Well - done »)

وحينما عاد الى نورمبرج عام ١٧٧٤ ، ادهش دون براندبرج الكبير margrave شارلس الكساندر ، وقد اصاب رفعة كبيرة وتحسن وضعه حينما عانقه اورلوف امام الناس . ولكنه قال للمارجراف ان اسمه الحقيقي هو « الامير راکوتزي » وانه آخر من بقي من سلالة اسرته ، وانه يخفي هويته لكي يتجنب الاغتيال . وفي عام ١٧٧٥ ، علم المارجراف ان اخر ثلاثة تبقوا من سلالة راکوتزي (٣) قد ماتوا ، وان ضيفه المكتب على الدراسة والبحث ، والمقيم في عزلته في قلعة تريرسدورف ، كان هو المخامر الذي غير قناعه اكثر من مرة ، وان احد اقنعتة كان اسم « سانت جيرمين » . ولما جاء به الدوق الكبير لاستجوابه ، لم يملك سانت جيرمين الا الاعتراف ، ولكنه اكد انه لم يحدث ابدا ان ارتكب ما يخل بالشرف تحت اي قناع من اقنعتة الكثيرة ، وانه لم يلجأ الى التنكر وتغيير اسمائه الا لكي يخدع من يحاولون اغتياله . غير انه اصر على انه « آخر » من تبقى من سلالة راکوتزي . ولكن الدوق الكبير رفض ان يصدق ، واضطر سانت جيرمين الذي كان قد طعن في السن الى معاودة الارتحال في عام ١٧٧٦ . وتجاهل فريدريك الاكبر رسالته التي بعث بها يطلب فيها الرعاية ، رغم ان هناك من الادلة ما يثبت ان سانت جيرمين قد

(٣) Rakoczy او Rakotsky الاسرة الملكية المجرية الاخيرة ، التي بدأت بالملك جورج الاول عام ١٥٩١ وانتهت بهزيمة فرانسيس الثاني الذي هزم عام ١٧٠٨ وهرب الى بولندا واصبحت المجر جزءا من الامبراطورية النمساوية . (ه . م .)

عمل دبلوماسيا سريا (اي جاسوسا) للملك البروسي ، خلال الفترة التي كان على علاقة وثيقة اثناءها بالاسرة الملكية الفرنسية (وقد كان هذا الشك هو الذي جعل من شوازيول عدوا له) .

وفي لايبزيغ ، امر الامير فريدريك اوجتس ، دوق برونزويك ، بالتحقيق معه والقيام بفحص شامل ودقيق لافكاره واعماله . وكان الدوق هو « الاستاذ الاعظم » لاتحادات الماسونيين في بروسيا . وانتهى الامر الى رفض اعتباره ماسونيا (وقد زعم سانت جيرمين في التحقيق انه ماسوني من الدرجة الرابعة ، ولكنه ادعى انه نسي كل الاشارات والعلامات السرية) . ولكنه عثر لحسن الحظ على اخر رعاته ، الامير تشارلس ، دوق « هيس كاسل » في عام ١٧٧٩ ، فامضى السنوات الاخيرة من عمره تحت رعايته . ولا بد انه كان يبدو في نحو اثمانية وثمانين حينما قابل الامير ، رغم انه لم يكن قد تجاوز اواخر الستينات من عمره . ولما اسكن في حجرة رطبة ، اصاب بالروماتيزم ، وبدأت تنتابه حالات من الانقباض والكآبة في سنواته الاخيرة . ورفض الكثيرون ان يصدقوا موته ، بعد ان اعلن موته رسميا وهو في الرابعة والسبعين من عمره . وقد ذكر شهود تحترم كلمتهم انهم شاهدوه بعد ذلك بثلاثين سنة ، وتقول قصة اخرى انه اكد لبعض الناس انه سيعيش خمسة وثمانين عاما في جبال الهيمالايا قبل ان يعود للظهور في اوروبا . وقد اعلنت مدام بلانكسكي انه كان واحدا من « الاساتذة السريين » المختفين في التبت .

وربما كان من الواجب ان نقدم اخر ما سنقوله عنه ، على لسان شاهد غير معاد له ، هو سفير بروسيا في درسدن ، الكونت الفيسلبيرين ، في عام ١٧٧٧ :

« انه رجل رفيع الموهبة يملك عقلا بالغ اليقظة ، ولكنه محروم كلية من القدرة على الحكم وحسن التقدير ، ولم يستطع ان يحرز سمعته الفريدة الا باستخدام ادنا واحط وسائل التملق والمداهنة التي يستطيعها الانسان ، بالاضافة الى ما تمتع به من فصاحة مذهشة تلفت النظر ، خاصة اذا ما ترك من يستمع اليه نفسه يستسلم لنكهة وثيرار الحرارة والحماس اللذين كان يعبر بهما عن افكاره . . ان غرورا غير عادي كان هو المنبع الاساسي لكل افعاله وكيانه . . . انه من عناصر اثارة الفضول والاهتمام في المجتمع ، طالما انه يكتفي بسرد حكاية ما او الاعراب عن فكرة معينة . ولكنه حالما يشرع في تطوير افكاره الخاصة ومحاولة تنميتها فان كل ما فيه من انواع الضعف تنكشف على الفور . . ولكن الويل لكل من يحاول ان يختلف معه . . . » (٢٤)

هكذا تتحول اسطورة رجل الغموض والالغاز الى فقاعة تنفجر دون ان تخلف

(٢٤) م . ٢٠٤ . بتلر - المصدر السابق - ص ٢٠٤ .

شيئا ، حينما تنعرض للفحص الدقيق . ولكن لم تكن ثمة حاجة في القرن العشرين لكل هذا الالغاز والايهام بغير الحقيقي واثارة الحيرة والارتباك . لقد كان من الممكن ان يصبح سانت جيرمين كيميائيا صناعيا بارزا ، او ربما استطاع ان يستثمر فصاحته في الكلام في التليفزيون . اما في القرن الذي قتل موتسارت جوعا ، وكاد ان يقتل باخ وهاندل من الاجهاد وكثرة العمل ، فقد كان عليه ان يقاتل لكي يبقى على قيد الحياة . لقد كان قرنا سيئا ، معاديا ، رديشا بالنسبة للسحرة .

القرن التاسع عشر

السحر والرومانتيكية . .

في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر ، مات رجل يستحق ان يعرفه دارسو علوم الغيب والتصوف : لويس كلود دي سانت مارتين ، : « الفيلسوف المجهول » . وتكمن اهميته الهائلة في انه يقف في منتصف الطريق بين المتصوفة التقليديين في الشرق او في الغرب وبين النزعة التطورية الجديدة . وتعرف فلسفته بلفحة غير عادية من التفاؤل . فالانسان بشكل اساسي اله ، وليس دودة ، في قول سانت مارتين . ويتشابه فكره مع فكر سوينبورج في هذا الجو من الصحة والعافية والنور . ولقد سبق ان اخذت في مطلع كتابي « قامة الانسان » (١) فقرة من كتاباته يمكن ان تعبر عن جوهر النزعة المارتيانية ، انه يقول ، في معرض حديثه عن فكرة ان الارض ليست اكثر من هباءة بالنسبة للكون :

« ربما كان هذا الارتباط الخاطيء بين الافكار هو الذي دفع بالبشر الى الفكرة الاكثر خطأ والتي تقول يانهم ليسوا جديرين بعناية خالقهم . لقد امتلكوا عن انفسهم انهم يطيعون اوامر رفعتهم وقوانين حطتهم حينما انكروا ان الارض والكون كله وما يحتويه لا يوجدان الا من اجل البشر ولحسابهم ، على اساس ان الاعتراف بمثل هذه الفكرة لن يكون سوى نوع من الفرور . ولكنهم لم يكونوا خائفين من الكسل والجبن اللذين سيكونان النتيجة الحتمية لهذا التواضع المتخاذل . ان الابتعاد في عصرنا عن الاعتقاد باننا اسمى المخلوقات في الكون لهو السبب في افتقارنا للشجاعة اللازمة من اجل العمل للحصول على هذه الرتبة ، وفي اعتبارنا للواجبات المترتبة عليها مجهدة اجهادا شديدا ، وان من الافضل

(١) في انجلترا صدر باسم « عصر الهزيمة » عام ١٩٥٩ .

لنا ان نتنازل عن وضعنا السامي من ان نحاول ان نقوم بهذه الواجبات بكل نتائجها . اين هو المرشد القائد الذي سيرشد سفينتنا في ابصارها وسط تلك الصخور المختبئة تحت الماء ، صخور الغرور والتواضع الرائف ؟



ولد لويس كلود دي سانت مارتين في نفس السنة التي ولد فيها كاجليوسترو - ١٧٤٣ . وعلى عكس حياة من عرفناهم من قبل ، الحياة المفعمة بالاحداث الى درجة مزرعة ، كانت حياة سانت مارتين . درس القانون ، ولكنه كره الحياة اليومية ، واحداثها العادية ، فالتحق بالجيش ، ولكن اوروبا بعد عام ١٧٦٦ كانت تعيش في سلام نسبي ، مما جعل الجيوش عاطلة تقريبا عن العمل . وفي الوقت الذي كان الضباط من زملاء سانت مارتين يسكرون او يقامرون ، كان هو يقرأ بنهم مسرف . وكان قد وجد كتابا عن معرفة الذات من تأليف ابادي Abadie وكان لهذا الكتاب تأثير كبير على عقله .

وفي سن الرابعة والعشرين ، حينما كانت فصيلته تراهط في بوردو ، التقى سانت مارتين بالرجل الذي سيكون له التأثير الحاسم في حياته ، وهو « دون مارتيني دي باسكال دي لاتور » وكان مارتيني عضوا في جمعية « الصليب الوردي » ولكنه كان يتميز عن الجمعية في جوانب كثيرة . وكانت هذه الجمعية من الجمعيات السرية الكثيرة في اوروبا في هذا القرن ، والتي تحمل جوانب شبه كثيرة مع الماسونيين ، وان كانت تؤكد في تعاليمها ونشاطاتها على العلوم السحرية وعلوم الغيب ، وقد قيل عنهم انهم اتباع باراسيلسوس . ويبدو ان كل الاساطير حول اصولهم كانت خرافات مختلفة (ومن الممكن العثور على كل هذه الاساطير في كتاب م. ا. ويتس : اخوة الصليب الوردي) . ولكن فكرة وجود هذه « الاخوة » الفامضة ، فكرة قيام هذه الجمعية العالمية الانتشار من العارفين بالسحر ، تبدو كما لو كانت قد اشبعت شيئا خاصا في خيال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد كانت الجماعات الصغيرة من اعضاء منتشرة في القارة كلها ، وكانت العلاقات مع الماسونيين قوية في هذه الجماعات ، وكان دون مارتيني عضوا ، وربما كان هو المؤسس ، لجماعة عجيبة في جمعية « الصليب الوردي » ذات ميول ماسونية قوية ، وكانت هذه الجماعة تدعى « الكوهينات المختارين Elect Cohens » . وكان مارتيني قد اسس بالفعل جماعة ممن يدعون « المستنيرين Illuminés » في باريس ، وكانت « الاستنارة » شكلا اخر من اشكال « الصلب الوردي » ، ولكنها مرتبطة باهداف سياسية (ومن الممكن ان يقال باختصار صحيح ، ان « المستنيرين » كانوا يعنون بالنسبة للماسونيين ولجماعة « الصليب الوردي » ما يعنيه اليسوعيون (الجزويت Jesuits) بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية) .

وكان مارتينييه شخصية شبيهة بشخصية كاجليوسترو . فقد زعم انه خبير محيط بعلوم السحر استطاع ان يصل فيها الى درجة عالية بالفعل . وقد تضمنت احتفالات جماعته تلاوة الرقى والتعاويذ بطريقة جماعة « مفتاح سليمان » ، بالاضافة الى شبكة معقدة من الطقوس المتعلقة بـ « علم الارقام » ، تختلف في جوانب اساسية كثيرة مع ما ذكرناه في الفصل السابق . ولكن لم تكن الجماعة تقوم بكل هذه الطقوس السحرية الا بهدف الوصول الى الاستنارة الصوفية النهائية المطلقة - الامر الذي جعل دي مارتينييه يجب ان يطلق على جماعته اسم « المستنيرين » رغم انهم لم يكونوا جماعة سياسية .

وانضم سانت مارتين الى جماعة « الكوهينات المختارين » في النصف الثاني من عام ١٧٦٨ . ولم تقل النتيجة عمقا عن نتيجة انضمام كاجليوسترو الى الماسونيين ، واصبح سانت مارتين رجلا مخلصا كل الاخلاص لجماعته الجديدة ، لا هم له سواها ، وشعر كأنما قد اصبحت لحياته رسالة معينة .

وترك الجيش بعد ثلاث سنوات (١٧٧١) وتفرغ طوال ما بقي من حياته للتبشير بنزعته الصوفية : ان الانسان بشكل ما هو « اله » نسي ميراثه او تنازل عنه مختارا ، قوصل الى القبول بأنه مجرد متسول . وكان دي مارتينييه قد اعتزل العمل ، ورحل الى سانتو دومينجو في جزر الهند الغربية ليموت هناك عام ١٧٧٤ . ولكن سانت مارتين واصل حياته رغم فقره الشديد نتيجة للثورة الفرنسية والاستيلاء على معظم ممتلكات أسرته ، وتحول بلاده (التورين) الى ساحة للقتال اكثر من مرة .

ولم تتضمن افكار سانت مارتين انه لا يوجد « اله » ، وانما قامت فلسفته - على العكس من ذلك - في اتجاه « الهى » تماما . ولما كان متدينا الى درجة عميقة ، فقد قبل الدين الذي نشأ عليه ، ولكنه أعاد تفسير « يسوع » والعدراء مثلما فعل سويدنبورج من قبل ، بطريقة الخاصة . وقد تأثرت نزعته الصوفية الى حد كبير بافكار جاكوب بوهم (١) الذي كان يكن له احتراماً كبيراً حتى انه

(١) جاكوب بوهم (او : بيهمين) ١٥٧٥ - ١٦٢٤ - متصوف الماني وفيلسوف تأملي بدأ حياته صانع احذية . تدور معتقداته حول الايمان بالقدرة الخلاقية للمخلاق للصراع بين الاعداد (فيمشل بذلك احد الجذور الاولى للفكر الهيجلي) التي تؤدي الى وحدة جديدة «خلق نقيضها في عالم الافكار» والايمان بمشيئة الله باعتبارها القوة الاساسية في الكون . ورأى بوهم ايضا ان الكون هو « التجلي » الاساسي للرب ، وان الشر هو طمس الله . وبهذه النزعة الثنائية يمثل ايضا احد الجذور الاولى للفكر الكانطي ، كما تأثر به ايضا كل من شليجل وهامان . اصدر العديد من الكتب اشهرها « اورورا : شفق الصباح » الذي ادانته كنيسة روما بالتجديف وامرت باحرقه . ولكن اخطر كتبه تأييراً على اللاهوت والشعر في اوربا هو « توقيع الاشياء = The Signature of things »

وضعه في المكانة التالية ليسوع مباشرة .

ولكن جوهر فلسفته يكمن في اعتقاده بأهمية الانسان . وقد اقترب كثيرا مما اعلنه فيما بعد سيرجوليان هكسلي (١٨) من ان الانسان يقوم الآن بنفسه بادارة عملية التطور في الكون ، حينما كتب يقول : « ان وظيفة الانسان تختلف عن وظائف الكائنات العضوية الاخرى ، لان وظيفته هي اصلاح ما في الكون من فوضى . » وتتمتع هذه الفكرة عن « الاصلاح » بأهمية محورية في فلسفته ، وتفسر الاهمية التي اولاهها ليسوع باعتباره « المصالح » الاعظم . وكانت الفكرة التي سحرت سانت مارتين هي ما يحصل عليه الانسان دائما من ومضات ساطعة الوضوح لـ « ملكاته الشبيهة بملكات الرب » ، فيبدو كما لو كانت تستيقظ في داخله قوى هائلة لا يعرف هو شيئا عنها : « يمتلك الانسان جوانب ومظاهر لا حصر لها للملكات التي كانت مستقرة في « العنصر الوسيط » الفعال الذي انتجه . . » . ولا ينبغي ان ندرك من هذه الجملة انها مجرد تعبير اخر عن فكرة وجود « ملكوت الرب » في داخلنا ، وانما هي تعبير عن « كمون » قوي معينة ، عظيمة القدرة ، لا بد من بدل المجهود العقلي الارادي من اجل تفجيرها ، وازاحة « السواتر » المعلقة التي تحجب عن العقل معرفته بقدراته الكامنة .

وقد وضع سانت مارتين غالبيت كتيبه تحت الاسم المستعار « الفيلسوف المجهول » ، فقد اراد ان يتجنب جذب الانظار كثيرا الى نفسه اذ كان يعيش في عصر من العنف والنزعة العقلية العدوانية ، الى جانب انه كان يعتقد ان كتاباته لن يستجيب لها الا عدد محدود من القراء . ولكنه كان مخطئا في هذا الاعتقاد . فحينما مات في الستين من عمره ، كانت النزعة المارتيئية قد اصبحت حركة اوروبية شاملة ، مثلها في ذلك مثل نزعة سويندنبورج او الماسونية ، واستمرت في تأثيرها ونفوذها الواسعين بعد موته . (فالماسوني الذي اقنع ببيير بزيكوى في « الحرب والسلام » - وهو شخص حقيقي يدعى بازديف - كان ايضا مارتيني النزعة) .

ولم يكن سانت مارتين على علاقة بالحياة السياسية في عصره ، مثل كاجليوسترو ، ولا يمكن القول بانه كان ممن اندلوا باقتراب الثورة مهما امتد

= الذي حل فيه الاساس المتناقض لطبيعة العالم والكون كله في لغة تقوم على الصورة الشعرية والرموز المستمدة من المسيحية وعلم التنجيم والسيما والكابالا . وفي هذا الكتاب قال بوهم ان الله والطبيعة شيء واحد ، والى لا يوجد شيء خارج الطبيعة . (هـ . م)

(١٨) هكسلي - جوليان (١٨٨٧ - ١٩٦٤) حفيد عالم الاحياء والتطور الانجليزي المشهور توماس هكسلي ، وشقيق الكاتب الروالي والمفكر التطوري والتجريبي والتصوف الكبير الدوس هكسلي . وكان من الوجوه البارزة في الفكر التطوري الانجليزي على احرار جده واخيه . احراف الكتابة لنشر المفاهيم والكشوف العلمية بطريقة مبسطة . (هـ . م) .

الخيال الى ذلك . ولكنه كان صاحب تأثير هائل على ثورة اخرى اعظم بكثير ، الحركة العظيمة التي اطلق عليها اسم : « الرومانتيكية » . كانت الرومانتيكية ، وهي الروح الجديدة التي خلقها جوتسه وشيللر وهوفمان ووردزورث وشيللي وبرليوز ، هي التعبير الفني عن النزعة الصوفية التي اقامها كلود دي سانت مارتن ، بما يكمن تحتها جميعا من تلك « الومضات البارقة » او النظرات الخاطفة ، اللحظات التي تنفجر فيها آلة العقل لكي توحى بأنها ممكن الحياة والقوة .

تقوم انزعة الرومانتيكية على لحظات من النشوة . فما هي النشوة ؟ ربما كان اقل التعريفات اثارا للاختلاف والجدل هو : انفجار مفاجيء ثم طوفان من الانفعالات المتصاعدة ، وحينما يجرب الانسان النشوة يختفي من امامه كل ما هو عادي وشائع ، يهتز جدلا في مهد من البهجة ، وتصبح الحياة فجأة حلوة حلوة لا يمكن احتمالها . انه لا يتبين - الا في مثل تلك اللحظات - حقيقة الشيء الفقير العريان الجائع ، الذي هو وعيه العادي .

كانت القوة الدافعة وراء الرومانتيكيين هي روح السحر ، وهي الروح التطورية للجنس البشري . وقد كان فيخته (١) هو من لاحظ التناقض

(١) فيخته - يوهان جوتليب (١٧٦٢ - ١٨١٤) الفيلسوف والميتافيزيقي الالماني المشهور ، الذي كان من ابرز تلامذة مدرسة كانت ، واول استاذ للفلسفة في جامعة برلين ، ثم فني عميد لها بعد ان طرد من جامعة « بينا » بتهمة الالحاد ، والذي جعلته « رسالة الى الامة الالمانية » بعد هزيمة بروسيا الساحقة في معركة بينا امام نابوليون عام ١٨٠٦ ، واحدا من اكبر رواد الحركة القومية الالمانية الى جانب هيردر . كان اكثر اعماله الفلسفية اهمية هو « المبادئ الاساسية للنظرية الكلية للعلم » عام ١٨١٠ ، الذي جعله رائد النزعة المثالية الكلاسيكية الالمانية . وكان فيخته نموذجا لانعكاس نمو البورجوازية على الفلسفة ، بتأكيد على النزعة « العملية » للفلسفة والليقة « التبريرية » للاخلاق ، وباهمية الدولة والنظام القانوني . وقد طور فيخته نزعة كانت الثنائية (الى تجمع بين العقل العملي والعقل الخالص) وتخلص من ازمة كانت المتمثلة في عجز العقل الخالص من تحقيق معرفة كاملة بالكون العملي ، بان ارجع كل معرفة مهما كان نوعها الى « ذات » خالصة واحدة ، تملك طاقة نشيطة لانهاية هي مصدر الوجود العملي . وليست هذه الذات الخالصة « فردية » ولا هي « جوهر » مثلما هي عند سبينوزا ، وانما هي النشاط الاخلاقي للعوي ، ومنها تنبع الذات الفردية ، الانسانية المحدودة غير المطلقة . في المعرفة قامت نظرية فيخته على نوع من الجدال المثالي ، على اساس المواجهة بين الذات التجريبية والطبيعة التجريبية ، كتنقيصين لا تداخل هليما بينهما ، وانما تتم معرفة الذات بالطبيعة عن طريق الحدس والتأمل . وفي الاخلاق اصبح محور البحث عند فيخته هو الحرية (بسبب الثورة الفرنسية) . واصبحت الحرية هي العمل السببي ، التابع من محاولة فهم الضرورة الحتمية . وبمكس سبينوزا ، لم يكن هذا الفهم عند فيخته محدودا بالحكمة الفردية وانما بالوضع التاريخي الذي يحكم الافراد . (ه . م)

الاساسي في الرومانتيكية : « لا شيء في ان « تكون » حرا ، اما ان « تصبح » حرا فهو شيء سماوي » (Fry seyn ist nichts , Frey werden is der Himmel) .
فحينما تكون حرا ، تمتلك الحرية ، فانك تتشاءب وتأخذ الحرية على علاقتها ، كشيء مسلم به ، لان ارادة الانسان غالبا ما تكون في حالة محايدة ، ولكن حينما تصبح حرا فجأة بعد فترة طويلة من البؤس والرزح تحت القيود ، يكون كل شيء مبهجا ، وتبدو الحياة ثرية ثراء ليس له حدود .

... وكان الرومانتيكي الذي وقع بقوة لا تضاهي تحت تأثير السحر هو :
« ا.ت. هوفمان » الذي اصبح معروفا لدى معظم القراء في العصر الحديث من خلال اوبرا « حكايات هوفمان » لافنباخ (١٨) . في هوفمان ، نستطيع ان نرى في لحظة واحدة ، ضعف الرومانتيكيين وقوتهم الفريدة . كان ضعفهم الرئيسي هو انهم لم يفكروا . ولكن قوتهم كانت قدرة على ان يسبحوا طافين فوق طوفان من الانفعال اخذهم بعيدا نحو الاستبصار الداخلي الصوفي . فقد استخدم الرومانتيكيون الخيال لكي يطلقوا اثار انواع الاحباط الحبسية ولكي يقيموا من رؤاهم العالم الذي احبوا ان يعيشوا فيه . كان اجريبا ، وباراسيلسوس وكاجليوسترو جوابي آفاق متجولين تعساء ، اما الرومانتيكيون فكانوا جوابين في عالم الخيال :

طوفت مرتحلا عبر ارض الرجال ،
ارض الرجال ، وارض النساء ايضا ،
ورايت وسمعت اشياء مفرعة لا شبيه لها
لم يعرفها الجوالون في الاراضي الباردة .
هكذا كتب ويليام بليك في « المسافر العقلي » .

يخلق هوفمان في رائعته الرئيسية^١ : « القدر الذهبي » مزيجا مختلطا متشابكا من الخرافة والسحر والسيما . .

في هذه الرواية ، نواجه احد الرموز الاساسية عند هوفمان . ففي لحظة معينة يجد بطلها ، انسيلموس (الذي كان عليه ان يختار بين الانعى - الجنية التي

(١٨) لافنباخ - جاله (١٨١٩ - ١٨٨٠) مؤسس اوبرا البورلسك الفرنسية ، رغم انه الماني المولد . قدم الكثير من الاوبرات الهزلية لمسارح باريس ، حيث اقام مسرحه الخاص . لم تكتمل اشهر اوبراته « الكونت هوفمان » التي انما جويرو بعد وفاته .

عشقته ، وبين ابنة رئيس الجامعة : اي بين عالم الخيال والسحر الفسيح ، وبين العالم العادي حيث كان سيحصل على وظيفة كبيرة) يجد انسليموس نفسه حبساً في قنينة زجاجية فوقه احد الرفوف . وفي الزجاجات الاخرى ، يرى انسليموس طلبة اللاهوت وكتبة القانون ، وجميعهم تبدو عليهم السعادة والحبور . وحينما يسألهم كيف يمكن ان يكونوا سعداء مبتهجين الى هذا الحد رغم انهم سجناء في الزجاجات المسدودة ، يجيبونه بانه لا بد يمزح ، فهم يقفون على جسر الالب ينظرون الى الماء الجاري ، وانهم يعتزمون ان يذهبوا بعد قليل ليشربوا كأساً في الحانة القريبة . ولا يلعب هذا المشهد اي دور حقيقي في نسيج الرواية ، ولكن من الواضح ان هوفمان ادخله على هذا النسيج لما ظنه فيه من اهمية كبرى . فمعظم الناس لا يفتنون الى انهم سجناء في هذه القنينات الزجاجية ، انهم واقفون من انهم احرار . ومن سوء حظ صاحب الادراك الاكثر عمقا انه يفتن الى انه سجين في زجاجة لا يستطيع الخروج منها .

ولكن هذه الصورة تشير ايضا الى الخطأ الاساسي لدى كل الرومانتيكيين: انهم متشائمون وانهزاميون . انهم لا يرون مخرجاً من القنينة الزجاجية سوى الهروب الى عالم الخيال غير الحقيقي الذي يضعف من يكرسون له انفسهم ويجعلهم غير صالحين للحياة الحقيقية . وفيما عدا جوته ، فان الرومانتيكيين لا يفتنون الى ذلك الشكل الاخر الذي تتخذه النشوة : الشهية المتفتحة العنيفة للمزيد من الحياة . ثمة حالات نفسية يبدو العالم كله فيها من الجمال بحيث يشعر الانسان انه يستطيع ان يشق الارض مندفعاً كالذبابة ، مكتسحاً امامه كل عقبة تعترضه . اما حالتنا العادية فهي حالة شهية فقيرة محدودة ، مثل مريض ناقه يشعر بانه لن يستطيع ابدا ان يتناول وجبة كبيرة . ولكنه يكتسب شهية هائلة في لحظات الكثافة والحدة، ويشعر بانه يستطيع ان يواصل تناول الطعام طوال اسبوع بأكمله ، ويبدو كل شيء - مهما كان قبحه - جميلاً وجذاباً .

وهذا بشكل مطلق هو السبب الذي يجعلنا نرى ضرورة رفض الرومانتيكيين . انهم يفشلون في التزام الطريق الصحيح بسبب ما يفلتون به انفسهم من الشعور بالاشفاق على الذات . ويبدو انه يكاد قانوننا ان علينا ان نقبل طرفاً من الطرفين غير المشبعين ولا الكافيين او الطرف الاخر : الساحر الذي ينعفس في الحياة اكثر من اللازم ، او الرومانتيكي الذي يخاف الانغماس فيها .

ولكن الاحياء الرومانتيكي جلب معه - على الاقل - احياء سحرية ايضا . كان القرن التاسع عشر قرناً صناعياً شديد الضوضاء : قرناً من القلادة والدخان ، والحجاري الرديئة ، والمداخن الملوثة بالسناج ، ولكنه ايضا كان قرن السكك

الحديدية والقنوت الملاحية العظيمة والكشوف الكبرى ، وكان قرن اللحم البقري الجيد والجمعة الجيدة ، والمعارض العظمى في باريس ولندن ، والقصر البللوري ، وانجلترا ديكنز وكوبيت ، وفرنسا فلوبيير وموباسان . وربما كان هو اكثر القرون في تاريخ البشرية حيوية واثارة . وفي غمار كل عمليات جمع الثروات وبناء الامبراطوريات دفع ما لا يقل عن خمسة وتسعين بالمائة من البشرية الى الجدار . ومن هنا كان احياء السحر ، الذي يعتبر بشكل اساسي ، ثورة ضد الحقيقة الواقعية الخشنة الفليضة الملمس .

وكان البلد الذي حدث فيه هذا الاحياء لاول مرة هو فرنسا . ومن الغريب تماما ، ان الرجل الذي قدم الحركة الدافعة الاولى هو ذلك « المؤرخ العظيم » لجامعي الثروات والانتهازين : هونوريه دي بلزاك . وقد كان بلزاك ميل صوفي قوي ، يبرز في اعمال له من مثل « لوي لامبير » ، « سيرفيتا » ، « البحث عن المطلق » . ولكن بالنسبة لكل من لوي لامبير وبالثاراكليا - بطل الرواية الاخيرة - ينتهي البحث عن المطلق بالموت ، لا بالانتصار .

وفي عام ١٨١٠ ، حينما كان بلزاك في الحادية عشرة من عمره فقط ، ولد في باريس ، الرجل الذي كان مقدر له ان يصبح مصدر الاحياء الحديث للسحر ، وهو الفونس لوي كونستانت ، الذي وضع كتبه تحست الاسم المستعار : « اليفازليفي » . وقد اعجب قسيس الابرشية التي يتبعها بذكائه ، فكان هو الاداة التي ساعدت على ارساله الى كلية سانت سالييس . واصبح كونستانت قسيسا ، ولكنه طرد من سلك الكهنوت بعد بضع سنين ، لانه كان : « يبشر بتعاليم مضادة للكنيسة » - ولكن لم تصل اليها هذه التعاليم بالتحديد . وفي اواخر عشريناته ، اصططحه صديق من الادباء ، يدعى الفونس اسكويروس ، لكي يستمع الى « نبي » غريب ، يدعى جانو ، وهو رجل مسن كان يرتدي عباءة امرأة ويثرثر بعصبية عن خلق العالم وعن سقوط الانسان امام جماعة من اتباعه ، والى جواره امرأة متقدمة في السن ، بينما يبدو الاتباع الملتحون الغارقون في النشوة ، كما لو كانوا ممن يمشون في نومهم مثلما وصفهم كونستانت فيما بعد في كتابه « تاريخ السحر » . وكان الرجل يعتقد انه التجسيد الجديد للويس السابع عشر ، بينما كان يعتقد ان زوجته هي التجسيد الجديد لماري انتوانيت (وبعد موت زوجها ظلت المرأة تعتقد انها ماري انتوانيت وتشعر بالمهانة وتعلن احتجاجها اذا ارتأب في ذلك احد) . وبعد الموعظة ذهب كونستانت واسكويروس مع جانو وزوجته الى شقته الفقيرة لكي يتفكها بهما ، ولكنهما انهزما امام فصاحته ، فاصبحا من اتباعه .

وقد سردت هنا قصة « جانو » بشيء من التفصيل ، لا لاهميتها التاريخية ، وانما لانها تحتوي على شيء من نكهة باريس في منتصف القرن الماضي ، بكل

ما كان يدور فيها من احاديث عن النشوة ، وعلوم الغيب ، والثورة . بل ان ليفي يحكي قصة غير عادية من احد اتباع جانو ، ويدعى سوبريه ، الذي بدأ يصيح في الشوارع ذات يوم من عام ١٨٤٨ داعيا الجماهير الى الذهاب الى البوليفاردي كابوسين والتعبير عن سخطهم مباشرة للوزراء . واخيرا ، اختفى بعد ان سارت وراءه نصف باريس . وبدأ احد الحراس عند « هويل دي كابوسين » باطلاق النار ، فبدأت الثورة فجأة ، وهكذا لعب سوبريه دوره في التاريخ وهو في حالة تقرب من حالة السبات .

وبعد ان تزوج فتاة تدعى نعومي كاديوت وتركته بعد ان وهبته طفلين ، اندفع الى المزيد من دراسة السحر رغم انه كان يكسب عيشه باعمال مختلفة على هامش الحياة الادبية . وفي عام ١٨٥٦ ظهر كتابه : « قانون وطقوس السحر المتطور » . ثم صدر كتابه عن « تاريخ السحر » وعدد اخر من الكتب في علوم الغيب . وتجمع حوله الاتباع والتلامذة ، حتى مات في الخامسة والستين ، في عام ١٨٧٥ ، بعد ان كان قد قام بعملية احياء السحر بمفرده بصورة عملية . وهو يعترف بأن مصدر الهامه كان رواية بلزاك « لويس لامبير » التي كانت هي الدراسة التي قدمها بلزاك لصوفي شاب ذكي بالغ التوتر . .

ولا يد من الاعتراف بان كتب ليفي لا توحى بالثقة . لان مما يزعمه ليس لسوء الحظ سوى اكلوبة .

« وراء قناع كل المجازات الغامضة والهيروغليفية للتعاليم القديمة ، ووراء العتمة المظلمة والامتحانات الغريبة لكل طقوس التعميد ، وتحت خاتم كل الكتابات المقدسة ، وفي خرائب نينوى وطيبة القديمتين ، وعلى الصخور الهاوية من المعابد القديمة وعلى الوجوه المغلقة على الاسرار لابي الهول المصري او الاشوري ، وفي الرسوم الرائعة او الوحشية التي تفسر لؤمني الهند صفحات « الفيدا » المليئة بالالهام ، وفي الرسوم الرمزية المميّنة في كتبنا القديمة عن السيمياء ، وفي انواع الاحتفال التي تقام في كل استقبال لاي جمعية سرية . . هنالك نجرد الدلالات التي تشير الى قانون هو قانون واحد في كل مكان ، وفي كل مكان يتم اخفاؤه بعناية وحرص . »

تكشف هذه الفقرة عن خيال بالغ الرومانتيكية ، كما تكشف عن شيء ضئيل آخر . ليس صحيحا ان هنسالك « قانونا سرييا » لا يعرفه الا الخبثاء المحنكون . فلم يملك « شامانات » العصر الحجري اي قانون سري ، وانما امتلكوا فقط ، توحدوا عجيبا مع الطبيعة واتصالا مباشرا مع قوى الانسان اللاواعية . ليس هنالك قانون سري بعيدا عن العلم ، مثلما رأينا بالفعل على مدى هذا الكتاب . وقد فكر كل من باراسيلسوس واجريبا وفيثاغوراس في انفسهم

باعتبارهم علماء ، وقد تصادف ان امتلكوا ايضا درجة معينة من القـسـدرات الشامانية . ونحن لا نقول هذا لكي ننكر ان « الاحتفالات السحرية » : « تعمل » اي تؤدي الى نتيجة فعلية . انها « تعمل » بالفعل . يذكر راينورجونسون وصفا قدمه جورج وهيلين ساندويـد لاحتفال السير على النار في جزر فيجي ، وهو احتفال سنوي : « يبدو ان السمة الرئيسة التي اتصف بها اولئك الذين اشتركوا في العملية هي انهم كانوا مشحونين بنوع ما مجهول من الطاقة (يفترض انها قد تولدت وانتقلت على المستوى الروحي) وقد كرست عشرة ايام كاملة من ممارسة طقوس تمهيدية معينة لتوليد تلك الطاقة وشحن المشتركين في السير على النار بها . وتم اجراء العديد من الاختبارات قبل الحدث النهائي الرئيسي : فطعنـت اجسادهم باسـياخ الحديد التي اخترقتها دون اي احساس بالآلم ودون ان يسيل منهم اي دمـاء ، ثم جلدوا بسيـاط ثقيلة دون ان يبدو عليهم ادنى شعور بالآلم ودون ان تظهر على اجسادهم اية علامات من اثر السيـاط . ويبدو ان نفس الطاقة تحتوي على امكانيات علاجية كبيرة ، وتوصف في هذا الصدد حالة الفتاة الهندية التي شفيت على الفور تقريبا من شلل ولدت به في ساقـيها » (٢٤) . ومن اجل احتفال السير على النار ، اشعلت اللهب في اربعين طنا من جدوع الاشجار ، حتى اصبح على القرابين منها - على بعد عشرين مترا - ان يغطوا وجوههم خوفا من لفحها . وقال احد من سيسـيرون على النار لجورج ساندويـد وزوجته : « هذا شيء فعال حقا ، وليس مجرد حديث ووعد » . ان الدليل على وجود مثل تلك الخوارق لا يقبل الجدل ، ولكنه لا يثبت ان الايام العشرة من ممارسة الطقوس التمهيدية قد تضمنت تلقين « قانون سري » ما ، فمهما كان الطقس ، فان هدفه هو دفع « الشامان » الى الاتصال المباشر بـ « الطاقة الروحية » التي يذكرها جونسون . (وهو يذكر ايضا ان حـسـاوث محزنة قد وقعت نتيجة للاعداد غير الكافي) .

وهكذا قامت كتب اليفازليفي ، على فرضية زائفة . بل ان « ١.١.١ وايت » الذي ترجمها (ولم يكن هو نفسه اكثر مؤرخي السحر جدارة بالثقة) قد حذر القراء من ان ليفي يستخدم خياله اكثر من اللازم . وهدفه هو التأثير على قرائه بمعرفته هو الخاصة بـ « التعاليم السرية » للكابالاه وما اليها . ولكنه في الحقيقة لم يكن يعرف العبرية ، او انه لم يعرف منها الا القليل . وباختصار ، فانه ليس سوى واحد من ذلك الصف الطويل من الحواة ، او المهرجين بالسحر . ولكن هذا لا يعني القول بانه ليس اكثر من نصاب او دجال . لقد درس السحر وآمن به ، بل ان « ١.١ م بتلر » الذي يقول عما يدمى علمه انه : « يصبح زيفه وكذبه اكثر افضاحا

كلما قلب المرء صفحة من صفحاته « على استعداد لان يقبل روايته عن استحضر روح أبولونيوس تاينا بالصورة التي وصفه به في الفصل الثالث عشر من كتابه « السحر المتسامي » .

.. وقد مارس ليفي تأثيرا قويا على الكاتب الروائي بالوير - ليتون ، الذي أصبح مثل تابع له ، ويعتبر الوصف الذي كتبه ليتون للساحر في روايته : « المطارِدون والمطارِدون » صورة خيالية لليفي ، كما توجد ملامح منه في روايات أخرى لليتون ، مثل « قصة قريبة » ، « زانوني » ، « الجنس القادم » ، التي تعتبر اولها عملا كلاسيكيا من اعمال الادب الغيبي وادب الاثارة النفسية وان كانت قد اهملت بشكل غريب في عصرنا . وتعتبر فكرة « النور الشبحي » واحدة من افكار ليفي الاساسية في قانونه السحري ، وكانت عبارة « النور الشبحي » هي الاسم الذي اطلقه ليفي على « الاثير السحري » الذي تحدث عنه سحرة آخرون ، وقد وصفه ليفي بأنه « قوة اقوى من البخار » ..

وقد كان بالوير ليتون هو الذي اشاع مسألة الاهتمام بالظواهر الغامضة وعلوم السحر في انجلترا ، وكان هو المسؤول بشكل اساسي عن حركة احياء السحر التي ضمت كتابا وشعراء من نوع ما درس ويتس وكراولي ووايت وديون فورشن ايتال . وكان من الممكن لحركة الاحياء هذه ان تبدأ قبل ذلك بخمسين عاما لو ان شخصا يدعى فرانسيس باريت كان كتابا من نوع افضل . ففي عام ١٨٠١ نشر باريت دراسة ضخمة عن السحر الشعائري بعنوان : « الماجوس » ، وما زال من الممكن ان ترى رسوم هذه الدراسة عن الشياطين في اكثر الكتب التي تؤرخ للسحر والاعمال السحرية - وقد وضع باريت « اعلانا » في نهاية الكتاب يطلب فيه من القراء ودارسي الموضوع ان يساعدوه على تكوين حلقة سحرية . ولكن الكتاب كثيب وغير جذاب رغم امتلائه بالمعلومات ، ولا يمكن مقارنته بكتاب ليفي . ويؤكد مونتاجو سامرز (وهو قسيس) ذلك المؤرخ العظيم للسحر الاسود ومصاصي الدماء ان باريت قد نجح بالفعل في تكوين الحلقة ، وان مدينة كامبريدج أصبحت بذلك اشبه ما تكون بمركز للسحر في انجلترا .



ان ما ينبغي ان يكون الان واضحا كل الوضوح هو ان روح السحر قد بدلت تبديلا كاملا في القرن التاسع عشر . كان السحر علما بالنسبة لبارسلياس . ولكنه بالنسبة لكاجليوسترو أصبح اداة لنشر دينه القائم على تجديد الانسانية . اما بالنسبة لليفي وليتون فقد أصبح ملكية ادبية رومانتيكية تحيطها سحب كثيفة من البخور . ان « فاوست » عند جوته يتحول الى السحر لانه يفشى وينفذ صبره ازاء انواع القصور التي تحدد مجال انسانيته ، وهو يريد ان يكتشف ارجاء تلك

اللحظات من الكثافة والحدة والقدرة على انفاذ الشبيهة بما يتميز به الله نفسه، وهي اللحظات التي كتب عنها سانت مارتين . وقد وجد انسان القرن التاسع عشر نفسه معلقا كالمصلوب في عالم مادي ممل . ولكن في العصور الوسطى كانت الشياطين حقيقة واقعة قبلها الجميع دون تشكك - ومن هنا كان ذلك الخيال المهلك المزمع الذي اثارته اسطورة ثيوفيللوس . غير ان الظلال تلاشت ، وجاء ضوء النهار الشائع المنتشر العادي فجعل كل شيء عاديا وواضحا . وراح الرومانتيكيون ينظرون بحنين مرضي الى الوراء ، نحو عصر الابالسة والجنيات ، فقد كانت هذه رغم كل شيء اكثر اثارة للخيال من السكك الحديدية ومن السفن البخارية ذات القلابات . كانت الشكوى العالمية الشائعة هي الضجر . ففي رواية «اوبرمان» عام ١٨٠٤ خلق اتيين دي سينانكور بطلا بيرونيا راح يفكر مستغرقا - وسط جبال سويسرا - حول عجز الانسان وفشله هو الخاص في اقامة اي اتصال حقيقي مع روعة الطبيعة الخلافة . ولم تكن المشكلة الحقيقية في الحياة بالنسبة له هي البؤس وانما انعدام المعنى . ويقول ان الجو الملبد بالغيوم يجعله يشعر بالحزن ، ولكن حينما تبرز الشمس من وسط السحب تبدو له شيئا « لا فائدة منه » . انه يشعر بالتعب خاليا من اي رغبة . انه ليس سعيدا ولا تعيسا - فحتى التعاسة كان يمكن ان تصبح متنفسا للكآبة والجمود . وقبل صامويل بيكيت بمائة وخمسين عاما ، جلس اوبرمان ينتظر جودو (x) دون جدوى . وقد كان هذا الاحساس بالعقم والضجر هو اساس حركة احياء الاهتمام بالعالم الغامض وبالوسائل السحرية لاكتشاف اصقاعه .

ولكن ماذا من امر الاحساس بأن الانسان يملك قدرات تشبه قدرات الله ، وهو الاحساس القائم على الحقيقة ، اذا كانت مزاعم « السائرين على النار » في جرر فيجي حقيقية وصادقة ؟ ماذا عن احساس رجال اذكاء مثل اوبرمان ، ومثل ماتيو ارنولد الذي كتب عنه قصيدة - بالعجز والوهن الكامل والشلل ، وبانهم مجرد دمي تلعب بها قوى اعظم منهم بكثير ؟ ليست هناك سوى اجابة واحدة هي : ان السبب هو انهم « عقليون » خاضعون لـ « النظرة العلمية الى العالم » . وقد

(x) انتفاخ جودو - مسرحية طبيعية حديثة من اعمال صامويل بيكيت (١٩٥٢) وتعد الان احدى من كلاسيكيات مدرسة الميثاق في الدراما الغربية المعاصرة ، ولقيت نجاحا هائلا عندما عرضت لأول مرة في مسرح نابليون في باريس (من اخراج روجير بلين) وانتقلت بعد ٤٠٠ ليلة عرض الى مسرح هيرتوت ، في المسرحية ، لا نعرف ابدا لماذا ينتظر المصعوكان « مسيو جودو » ، وهما يتشاجران ويتأملان ويتذكران ويحاولان الانتماء ويكسلان العجز ، ولا نعرف من هو مسيو جودو هذا . ولا يحدث شيء في المسرحية سوى ظهور سيد مع عبده المربوط بحبل طويل في عنقه يجره السيد وهو يفرقع بالسوط . واجمع النقاد تقريبا على ان جودو ، وعدم مجيئه ، انما يمثلان ميثقة الامل والوجود الانسانيين وانعدام اية قيمة لهما . (ه . م .)

تعرف رجال مثل بالويرليتون واليفازيلفي على هذه الحقيقة بشكل غريزي ، فتقدموا الى الامام لكي ينازلوها . ومن هنا كان « الاحياء السحري » .
ولكن هذا الاحياء اتخذ صورة جديدة ، وبدا عصره الجديد في امريكا ، فسي مساء يوم ٣١ مارس عام ١٨٤٨ في منزل احدى العائلات في نيويورك ، حينما اعلنت فتاتان شقيقتان انهما تستمعان الى ضوضاء غامضة وغريبة ، وتستطيعان بالفرقة باصابعهما ان تجعل الضوضاء تصدر من نفس المكان ثانية كما لو كانت اجابة على فرقة الاصابع . ثم بدأت الفتاتان تعرفان بانهما قادرتان على الشعور بوجود « الارواح » اينما كانت ، وبذلك بدأ مفهوم « الوساطة » . وقد تمكنتا من الكشف عن مصدر الضوضاء في منزلهما باكتشاف جثة رجل مفتول كانت مدفونة في حديقة البيت . وعلى الفور انتشرت الحكاية في امريكا كلها ، ثم بدأ ظهور مئات من « الوسطاء Mediums » في طول البلاد وعرضها ، وقد ثبت بالطبع ان الكثيرين منهم كانوا نصابين ، ولكن ثبت ايضا ان الكثيرين كانوا اصحاب قدرات حقيقية .

وسوف نناقش هذه الظاهرة فيما بعد ، ولكننا لا نذكرها هنا الا كتمهيد للحديث عن واحدة من اكثر الشخصيات لمعانا وتباها في تاريخ علوم الغيب : هيلينا بتروفا بلافانسكي .

كانت قد ولدت باسم هيليناهاهن ، ابنة لكونيل روسي ، في عام ١٨٣١ ، وابنة عم سيرجي ويت ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء وصديقا لراسبوتين . وتبدو من بداية حياتها شخصية بالغة الغرابة والشذوذ . فبعد ان تزوجت في السادسة عشرة من عمرها رجلا يكبرها بعشرين عاما وهجرته ، بدأت ترتحل وتعيش على هواها وتمتن اعمالا متنوعة وغريبة : من لعبة سيرك ، الى مدرسة بيانو في باريس ولندن ، الى مساعدة ل احد الوسطاء المشهورين في لندن ، الى صاحبة مصنع للزهور الصناعية في تفليس بايران ، الى رحالة وسكرتيرة لعدد من كبار الرحالة حتى انها تذكر في روايتها انها سافرت الى الهند والتبت والمكسيك وكندا وتكساس وتجوات كثيرا في كل منها ، بالإضافة الى جولاتها التي جابت فيها اوروبا كلها وامريكا وشمال افريقيا وتركيا . وقد اصبحت يحدث اثناء عملها بهلوانة على ظهور الخيل في السيرك ، مما ادى الى تغيير وضع رحمها ، وجعلها تقول انه يبدو كالكيس المنتفخ المليء بقطع « الخيار » المتكسرة ، كما ادى الى نوع من الخلل الكامل في حياتها الجنسية ، جعلها تكره معاشره الرجال بشكل طبيعي ، كما يبدو ان هذا هو السبب الذي جعلها نهمة الى الطعام او جعل غدها تصاب باختلال معين ادى الى تضخم وزنها الى درجة انه بلغ ٢٣٢ رطلا (انجليزيا - حوالي ١٠٠ كيلو جرام) ، كما انها لم تكن تنقطع عن تدخين الماريجوانا (التي لم تكن محرمة في تلك الايام المعقولة) . ورغم كل

هذا فقد كانت شخصية جذابة مرحة الى درجة طافية . وتعرفت في امريكا على محام يدعى هنري ستيل اولكوت ، كان يحمل ايضا رتبة كولونيل في الجيش ، فسحرت به بحيويتها وصراحتها وجراتها على الفور ، وكتب عنها عدة مرات في صحيفة كان يرأسها ، ثم ظل على اتصال بها بعد عودتها الى نيويورك . ولكن لم تقم بينهما اية علاقة عاطفية ، ثم تزوجت مهاجرا من ولاية جورجيا يدعى ميشيل بيتانيللي ، واشترطت عليه الا يحاول غزو فراشها ، ولما عجز عن الالتزام بعهده ، انفصلا على الفور . ولم تكن تبالي اصلا بزوجه الروسي ، نائب الحاكم الذي يدعى بلافاتسكي . وقد نقل عنها عدة مرات قولها ان الحب الجنسي ليس سوى : « شهوة وحشية لا بد من تجويعها حتى يتم ترويضها واخضاعها » .

وشاع عنها بين اصدقائها الامريكيين - الذين سحرتهم بشخصيتها - انها تتمتع بقدرات روحانية كبيرة ، وانهم كثيرا ما سمعوا في وجودها اصواتا غامضة كالطرقات والاحتكاكات . وبدأت شهرتها تديع حينما طلبوا اليها ان تكون حكما في قضية اتهام « وسيطين » شقيقتين بالدجل . وقد اشترك في هذه القضية ، الاشتراكي الخيالي الانجليزي روبرت اوين ، واهداها عقدا من الجواهر . وقد حكمت مدام بلافاتسكي في القضية لصالح الاخوين واكدت انهما وسيطان حقيقيان (ربما لانها لم تكن تملك الوسائل لاثبات دجلهما ، وربما لانها ارادت ان تؤكد فكرة استحضر الارواح وقدرتها هي شخصا على الاتصال بها) .

واصبح من الواضح عندها وعند المعجبين بها ان مستقبلها قد ارتبط بحكاية النعمة الروحانية ، وساعدها الكولونيل اولكوت في العام التالي لتعارفهما بعد ان ازداد ايمانه بها . ولكن المشكلة كانت تتمثل في تضائل موجة الاهتمام بالروحانيات بعد انتشارها الهائل عام ١٨٤٨ . وفشلت المجلة التي اصدرتها لنشر قصص الارواح فشلا سريعا . فانشأت مع الكولونييل « نادي المعجزات » ليكون حلقة تحضير للارواح ، ولكن النادي لم يزدهر . وتكاثر طلبائها من الكولونيل ، وكانت تقول انها طلبات بعض « المهاتمات » الهنود السحريين الذين قابلتهم في التبت ، وانهم رسل روحانيون سيجيئون يوما لكي يجددوا شباب العالم . ثم انشأت جماعة اخرى باسم « اخوة الاقصر » . - ففي الايام الاولى لنشاطها كانت تركز على مصر القديمة بدلا من التبت - وكانت الجماعة ترسل خطابات للنشر في المجلة الروحانية « راية النور » ، وكانت المجلة تنشر روايات عن اعمال مدام بلافاتسكي مقابل معونة مالية (اعلانات ؟)

واقترح احد اعضاء « اخوة الاقصر » ان يهجر الكولونيل زوجته واطفاله الثلاثة لكي يعيش مع مدام بلافاتسكي . ولم يكن زواج الكولونيل موفقا ، لذلك شعر بالسعادة وهو ينفذ الاقتراح .

وفي سبتمبر عام ١٨٧٥، استقرت مدام بلافاتسكي على العمل الذي سيجلب لها الشهرة العالمية . فقد حدث ان قام شخص يدعى فليت بالقضاء محاضرات على مجموعة صغيرة حول الاسرار الكهوتية السحرية التي تسمى تجسدها مقاييس الاهرام المصرية . وقال ان « قوانين المناسيب » هذه يمكنها ايضا ان تستحضر الارواح ، وقال ان الارواح التي تم استحضارها لم تكن على قدر كبير من الدكاء . واقترح الكولونيل انهم ينبغي ان يكونوا جمعية لدراسة هذا الموضوع ، ووافقت « ه . ي . ب » - مدام بلافاتسكي كما اصبحت تعرف بين المعجبين بها - بحماس وقوة. وفي خلال الاسبوع التالي ، فكروا في الاسم المناسب للجمعية ، واختاروا الاسم : الجمعية الثيوصوفية .

ولم تكن كلمة « ثيوصوفية » Theosophism من ابتكار « ه . ي . ب » . وانما كانت مستخدمة كمرادف للنزعة الغيبية mysticism منذ قرون عديدة . فعلى سبيل المثال ، يشير الاسقف مارتينسين الى مذهب جاكوب بوهم باعتباره « ثيوصوفية » في كتابه الكلاسيكي عن بوهم عام ١٨٨٢ . ولكن طبقا لتفسير « ه . ي . ب » كانت الثيوصوفية تعني اولا واساسا مذهبا عجيبا يجمع بين النزعة الغيبية mysticism في الشرق والغرب ، وبين « التعاليم السرية » وبين الروحانية . وحالما تم تكوين الجمعية ، شرعت « ه . ي . ب » في تأليف انجيلها . راحت تكتب دون توقف يوما بعد يوم ، لا تنقطع عن التدخين ، ونادرا ما ترفع رأسها لكي تنظر نظرة سريعة في كتاب تناوله لها الارواح . وكانت النتيجة هي كتاب : « رفع النقاب عن وجه ايريس » ، في مجلدين ، الذي صدر في سبتمبر عام ١٨٧٧ ، ولقى رواجاً مذهشاً . وكان الكتاب ينم على معرفة واسعة بشكل لا يصدق ، يمزج بين تعاليم مستمدة من الكتابسالة ، ومن كورنيليوس اجريبا ومن فيثاغوراس ومن المخطوطات اليوزية والهندوسية والطاوية . ولذلك ما يزال من الممكن ان يستمتع القاريء بدراسته ، حتى ولو لمجرد الجسارة غير العادية لتصويراته . ولقد اشرنا من قبل بالفعل الى فكرة « الاجناس الاصلية » عند حديثنا عن قارة الاطلنطيس . فالجنس الاصيلي الاول عاش بالقرب من القطب الشمالي ولم يكن « مرثيا » لان ابناؤه كانوا مصنوعين من الضباب الناري . وعاش الجنس الثاني في شمال آسيا ، وكان مرثيا بالكاد - وقد ابتكر ايناوّه الجماع الجنسي . وكان الجنس الاصيلي الثالث هم عمالقة « ليموريا » الشبيهة بالقردة الضخمة وكانوا يتواصلون عقليا او روحيا ولم يكونوا يفكرون بطريقتنا نحن في التفكير ، وكان الجيل الرابع هم ابناؤه قارة الاطلنطيس الذين دمروا انفسهم بالسحر الاسود ، اما نحن فاننا الجنس الخامس (وطبقا لما يقوله دارس علوم الغيب لويس سبنس ، فاننا نسرع الخطى نحسب مصير ابناء الاطلنطيس) ، وسوف ينشأ الجنس الاصيلي السادس من الجنس البشري الحالي

وسوف يعيش في ليموريا (في المحيط الهادي) مرة اخرى ، وبعد نهاية الجنس الاصلي السابع ، ستهجر الحياة كوكبنا الارضي لكي تبدأ من جديد فسي كوكب « عطارد » . وفي قلب كل تلك الافكار المدهشة ، التي تساق باعتبارها حقائق مؤكدة لا تقبل الجدل ، تكمن فكرة يالفة الاهمية ، هي ان الانسان يتمتع بوضع متميز . من الحق ان روحه قد وقعت في اسر قيد الجسد الذي لم يسبق له مثيل ، ولكنه يمتلك الإرادة والدهن اللازمين لمواجهة قيود هذا الاسر . انه « يستطيع » اذا شاء ، بالثقة والشجاعة ان يكون شبيها بالالهة .

وازدهرت الجمعية الثيوصوفية الى حد ما في امريكا لمدة ثلاثة اعوام . ثم قررت « ه . ي . ب » ان الاهتمام بين الجمهور اقل يخبو ، وانهم يجب ان ينتقلوا الى الهند . وقد دفعت مصادفة غريبة الى سرعة اتخاذ هذا القرار ، حينما التقى الكولونيل بهندي يدعى « مولجي ثاكر ساي » في احدى السفن . وبعد سبع سنوات التقى الكولونيل بصديق كان قد عاد لتوه من الهند فساله عن مولجي ، واكد الصديق انه يعرفه ، بل انه يحمل عنوانه . واجاب ثاكر ساي على رسالة الكولونيل التي حدثه فيها عن الجمعية الثيوصوفية . وقال ثاكر ساي انه يعمل الآن لحركة هندية دينية جديدة يقودها مدرس بارز يدعى « سوامي داياناندا ساراسفاني » باسم « آرياسامي » . وكتب اولكون الى سوامي ، وسرعان ما قبلت الجمعية الثيوصوفية ان تندمج بحركة « آرياسامي » . وصدر بعد ذلك كتاب الوسيط الروحاني « مانيل دنجلاس هوم » الذي سبق ان عملت معه « ه . ي . ب » مساعدا له في شبابه ، وأشار فيه هوم الى مدام بلافاتسكي (منافسته الآن) اشارة مهينة ، فقررت المدام ، انه قد آن الاوان لها لكي تهجر انغرب الخائن حتى تبحث عن النور في الهند .

وهناك حققت نجاحا مذهلا ، وانتهت الى السقوط المخجل . بهرت الجايات الاوروبية بخوارقها من قبيل العثور على الاشياء الضائعة ، واسقاط اوراق النقد من السقف ، واشعال المصابيح واطفائها بمجرد الاشارة اليها واستحضار اشياء من الهواء . ثم بدأت تسمح لاتباعها بمراسلة « الروح » او « السيد » الذي قالت انه من المهاتمات الهنود السريين في التبت ، واسمه « كوت هومي سال سينغ » وكانت خطاباته التي يرد بها على خطابات الاتباع تصل اليهم بطريقة غريبة دائما . ولكن المتاعب بدأت ايضا بالشكوك الكثيرة التي احاطت بها واتهامها المتكرر بالدجل مما كان يدفعها الى نوبات من التهيج المروع والامعان في ابتكار الخوارق الجديدة لاثبات مقدرتها ، وتضاعفت المتاعب برحيل الكولونيل الكون الى سيلان واعتناقه البوذية مما اثار سخط سوامي ساراسفاني واتهامه الكوت بالخيانة ، ولكسسن الكولونيل القادم من الغرب لم يكن يجد اختلافا ظاهرا بين كل هذه الاديان

الشرقية فأصدر كتابا بعنوان « مجذوب بوذي » فلقى رواجاً واسعاً مما دعم مكانة الكولونيل في الجمعية الثيوصوفية ومنحه استقلالاً داخلها في مواجهة « ه . ي . ب » ولكن هذا هو الذي دفع سوامي إلى اعلان انفصال « آرياساماي » عن الجمعية واتهام الكولونيل ومدام « ه . ي . ب . » بأنهما مشعوذان لا علاقة لهما بالاخلاق ولا بالطريق القويم .

ولكن لم تمض غير سنوات قليلة على وجودها في الهند الا وكانت على رأس واحدة من اوسع الحركات نفوذا في البلاد - وخاصة بين الجاليات الاوروبية . وحينما ذهبت الى اوروبا استدعتها جمعية البحوث الفيزيكية للتثبت من صحة قدراتها ، ولكن بداية السقوط كانت في انتظارها لدى عودتها الى الهند . فقد كانت « مدام كولومب » ، مدبرة بيتها ، قد اقامت اتصالا خاصا مع احد المبشرين المسيحيين ، وهو محرر مجلة « كريستيان كوليچ » . وكانت ارساليات التبشير المسيحية في الهند هي اقوى خصوم « ه . ي . ب » بسبب علاقاتها الوثيقة مع رهبان الديانات الوثنية القديمة . واستطاع محرر مجلة « كريستيان كوليچ » ان يطلع - عن طريق كولومب - على خطابات من مدام بلافانسكي تثبت ان كثيرا من « حيلها » كانت تعتمد على انواع متعددة من الخداع . وزعمت كولومب ان « ه . ي . ب » قد صنعت نموذجا من الخشب لكوت هومي وكانت تتحول في الليالي القمرية وهي تحمله على كتفها ، وكانت تجعل خطابات المهاتمات الهندود « تصل » الى اصحابها عن طريق اسقاطها من فجوات مفتوحة في سقف الغرفة . وكانت الفضيحة هائلة . وانتقل مراسل جريدة « التايمز » لكي يكتب تقريرا لصحيفته من بومباي ، وجاء احد الروحانيين الامريكيين ، ويدعى هنري كيدل ، فاضاف وقودا جديدا باعلان ان « كوت هومي » قد سرق في خطاباته المنشورة عديدا من الفقرات من احدى محاضراته التي نشرتها الصحف من قبل . واجاب « كوت هومي » بعد قليل على هذا الاتهام بالزعم بأنه عشر على هذه الفقرات على شكل كلمات سباحة في « الاثير النفسي » فالتقطها وسجلها دون تفكير .

وارسلت جمعية البحوث الفيزيكية مندوبا عنها الى الهند للتحقيق ، قبل ان تعلن الجمعية تقريرها . ولكن المندوب ، بعد ان سمح له اخيرا بدخول الحجرة التي يوجد بها « المقام » - وكان هذا المقام قمرة مصنوعة من الواح خشب البلوط كانت خطابات المهاتمات توجد بها ويتم تسلمها عن طريقها - وجد جدران القمرة وقد تم تجديدها ، كما وجد القمرة خالية . ولكن احد الاتباع المخلصين ، اراد ان يثبت امام المندوب ان أي خداع كان مستحيلا ، فحبط على جدران المقام قائلا : « انظر ، انها مصمتة تماما » ولكن تحت خطاطه تحرك جزء من الجدار الداخلي كاشفا عن فتحة داخلية موصلة الى فتحة اخرى في جدار

حجرة نوم « ه . ي ب » . واقتنع الحاضرون بان كل هذا كان من صنع السيدة كولومب وزوجها الخائنين ، وكان المعروف ان زوجها كان نجارا ، هكذا نقل « المقام » الى حجرة اخرى، حيث تم اخراجه فيما بعد . وعلى هذا الاساس جاء تقرير جمعية البحوث الفيزيقية مليئا بالشكوك .

وكانت مدام بلافاتسكي مريضة بسبب اثار وزنها وحجمها الهائلين ، ولما فكرت في رفع دعوى ضد ارسالية التبشير المشرفة على المجلة ، نصحتها اصدقائها الا تفعل . وقالوا ان « الساحر » دائما سيكون موضع الشك امام المحكمة، خاصة اذا كان خصومه من رجال الدين، وسوف يطلب منه ان يثبت مزاعمه عمليا في « جو » غير مناسب ولم يهيا من قبل . . ولكن ارسالية لم تسكت من جانبها ، وانما قررت اقامة اندعوى ضد جنرال اتهم السيدة كولومب بانها كاذبة ولصّة . وكان من الضروري ان تؤدي المحاكمة الجديدة الى نفس النتائج ، من اضطرار « ه . ي . ب » الى الوقوف امام المحكمة واظهار « قدراتها » . . فهربت من الهند الى اوروبا . . وبذلك كانت قد اكملت دائرة حياة اي ساحر ومصييره ، والصعود المظفر والسقوط المفاجيء .

وفي اوروبا تجولت مدام بلافاتسكي في ايطاليا وسويسرا والمانيا . وكانت تموت ببطء بسبب مرض في الكلى اصيبت به في الهند . وقررت ان تضع كتابا ثانيا تشرح فيه الجوانب الغامضة من كتاب: «رفع النقاب عن وجه ايريس» . ومرة اخرى راحت صفحات الكتاب تتراكم بينما يجري قلمها لتسويد صفحات جديدة (وقد بلغ عدد صفحات الكتاب عند طبعه ١٥٠٠ صفحة) . وفي اثناء زيارتها الثانية لانجلترا ، وكانت ما تزال « تؤلف » ، قالت لبيتس : « انني اكتب ، واكتب ، واكتب ، تماما مثلما لا يفعل اليهودي التائه سوى ان يسير ويسير ويسير . . » . وقد كشف بيتس في مذكراته عن جانب من مدام بلافاتسكي لا يتضح من كتاباتها ، وذلك هو احساسها بالفكاهة ومرحها الساخر . .

وكانت مخطوطة الكتاب الجديد « القانون السري » كومة هائلة من الاوراق غير المنسقة . وقد قرأ المخطوطة اصدقاء متنوعون وقالوا لها انها لا يمكن ان تفهم . ولكنها طلبت منهم ان يشرعوا في اعداده ، وهكذا تم نسخه وترتيبه . وصدر الكتاب في عام ١٨٨٨ . وقامت آني بيزانت ، التي كانت عضو الجمعية الغابية ، والمشيقة السابقة ليرناردشو ، قامت بكتابة عرض نقدي للكتاب ، وطلبت في نهاية المقال ان تقابل المؤلفة . وفي بداية المقابلة ، كان انطباع آني بيزانت عدائيا، ولكن « ه . ي . ب » استطاعت ان تستحوذ عليها في النهاية، بل ان آني اصبحت قيما بعد رئيسة الجمعية الثيوصوفية . ولا يعرف احد ان كان ذلك بايحاء من شوام لا . ولكن المؤكد ان علاقتها كانت قد انتهت به نهاية محزنة قبل ذلك بقليل . . وقد وصفها شو بعد

ذلك بسنوات كثيرة ، في لقاءه مع ابنها الهندي بالتبني ، انها لم تكن ابدا قادرة على التفكير السليم ..

وماتت « ه.ي.ب » في عام ١٨٩١ ، في عامها الستين ، بعد ان عانت من عدة امراض سيئة طوال السنوات الست الاخيرة من حياتها . وقد وصفها كاتب سيرتها ، جون سيموندز بانها كانت من ابرز من عاش من النساء على الارض اطلاقا ، وانها كانت اكبر من ان تحتملها الحياة .

وقد زعم اليستر كراولي انه هو التجسيد الجديد لا ليفازلفي . فاذا كان هذا صحيحا فلا بد ان مدام بلاقاتسكي كانت هي التجسيد الجديد لكاجليوسترو . فقد تمتعت بنفس ما تمتع هو به من جاذبية وسحر ، ونفس النزعة الى المغامرة ، ونفس المزيج من الدعابة والحماسة والقدرة النفسانية الاصيل التي لا شك فيها ، والتي يحكى عنها الكثيرون (من بينهم الجنرال جوردون والشاعر بيتس) قصصا كثيرة ..

ولكن سوامي داياناندا ، كان لا شك محقا حينما انتقد الثيوصوفيين لتركيز اهتمامهم على « الظواهر » الغريبة . فالنساء الهندوس ، يصرون على ان اي مارس متقدم لليوجا ، يستطيع ان « يولد » هذه الظواهر ، وانها ليست سوى مضيفة للوقت ، وليست سوى نوع من التشبث على طول طريق التقدم الروحي . وتمتلىء كتابات الثيوصوفيين - التي تتضمن اعمالا كلاسيكية بارزة ، مثل كتاب « الحكمة القديمة » لاني بيزانت ، « البوذية الغربية » لسينيت - تمتلىء بالاشارات المرجعية الى المخطوطات البوذية واليوانيشادية ، ولكن كل من يتحول عن هذه الكتابات الى المخطوطات الاصلية ، سوف يتبين سريعا ان ثمة هوة هائلة تفصل بينهما ، فقد ضاع نقاء الدافع الديني الاصيل القديم اثناء عملية النقل . وليس السبب هو افتقار الديانات القديمة - مثل الهندوسية - الى القصص المعجبية والمخيفة عن المعجزات المختلفة . فان كتاب « ترجمة ذاتية لمحب اليوجا » الذي كتبه بارامهانا يوجاناندا - وهو كتاب حديث لرجل مات عام ١٩٥٢ - يحتوي على قصص تبلغ من الغرابة مبلغ اي شيء يمكن ان تلتقي به في حياة قديسي العصور الوسطى . ولا تتضمن هذه القصص مجرد حكايات التواصل عن بعد او « التجسد » عن طريق الجسد الاثيري من مسافات بعيدة ، وانما عن خلق قصر سحري في الهيمالايا ، ومداداة ذراع احد محبي اليوجا وشغائه في ليلة واحدة رغم ان الذراع كان قد انتزع من الكتف تقريبا . ورغم ذلك فان كتاب يوجاناندا يشع بروح الهندوسية الحققة ، ويستطيع ان يخلق ذلك التشبع الروحي الفريد الذي يمكننا ان نعره عليه ايضا في كتاب : « انجيل سري رامكريشنا » ونسي « البهاجا فادجيتا » . ان كتاب « القانون السري » اذا ما قورن بمثل هذه الكتب ، لن يزيد عن ان يكون عملا في مستوى حكايات الاطفال الخرافية ، مزيجا مهوشا

كالوحد العشوائي، يحمل على سطحه كل انواع الاشياء الغريبة . اننا نشعر مرة اخرى بان الاهتمام بعلوم الغيب ، يتضمن غالبا نوعا معيناً من الفجاجة او هدم النضج .

بل ان هذا يصبح اكثر وضوحا حينما نفكر في حركة احياء السحر التي تبعت موت اليفازليفي في فرنسا . كان اهم تلامذة ليفي هو الماركيز الشاب ستانيسلاس دي جويتا الذي كتب مجموعة من القصائد الفنائية بطريقة بودلير وكان يتعاطى الافيون والمورفين . وقد كون دي جويتا ، بالاشتراك مع دارس شباب للكابالاه ، يدعى اوزوالد ويرث، فرعا لجمعية « الصلب الوردي » في باريس . ثم وضع كتابا عجيبا يقع في عدة مجلدات تحت عنوان : « افعى سفر التكوين » وله عنوان فرعي : « معبد الشيطان » حيث شن هجوما عنيفا ضد : « نبي مزيف كذاب » يدعى ايوجين فنتراس ووصفه فيه بـ : المعبود الوضيع لسدوم الغامضة، والمساحر من اسوا واردا الانواع ، والمجرم الملعون ، المدعو جوزيف انتوان بولان .

ويحتل فنتراس وبولان - هدفا هذا الهجوم - مكانا بارزا في تاريخ علوم الغيب والسحر الفرنسية في القرن التاسع عشر . وقد برز فينتراس من خلال قصة معقدة وغريبة عن انضمامه الى كارل ويليام نوندورف ، الالماني الذي ادعى انه لويس السابع عشر ، الابن الغامض المصير للويس السادس عشر وماري انطوانيت، والمطالب بالعرش الفرنسي ، وما كان من تحول فنتراس الى الساحر والمتنبئ الخاص بحركة نوندورف ، ثم اشتراكه مع جوزيف بولان في تأسيس جماعة تهتم بعبادة الشيطان وتقيم شعائرها واحتفالاتها السحرية في العراء حيث كانت تتحول الى حفلات عريضة جنسية تستمر اياما عديدة .

وتشير الادلة التاريخية الى ان ابن لويس السادس عشر وماري انتوانيت، قد مات في السجن وهو في العاشرة من عمره عام ١٧٩٥ . فقد سجن الطفل التاعس الحظ في حجرة مظلمة لمدة ستة شهور ، وكان طعامه يدفع اليه من اسفل الباب ، فمات بعد الشهور الستة بداء الاسقربوط (من امراض سوء التغذية والرطوبة) . ولكن لا يبدو ان احدا قد رأى جثة الطفل بعد موته ، واشيع فيما بعد انه كان قد تمكن من الهرب . بل ان « دائرة المعارف البريطانية »، تعترف بان قصة الهرب محتملة تماما كقصة الموت بسوء التغذية . وعلى اي حال ، فان احدا لم يسمع به بعد ذلك ابدا . ولكن حدث في عام ١٨٢٢ ان ظهر رجل الماني يدعى كارل ويليام نوندورف في فرنسا ، واعلن انه هو وارث العرش المفقود . ولكنه نفي من فرنسا وطرد في عام ١٨٢٦ رغم انه كان قد جمع حوله عددا كبيرا من المؤيدين المتحمسين . واعلن اتباع نوندورف بعد موته ان فرنسا توشك ان تدخل مرحلة من الكوارث المروعة (واطلقوا على انفسهم اسم : منقذي فرنسا) وقد

ثبت فيما بعد أن نبوءتهم كان صائبة ، وأنه لم يكن من الممكن تجنب هذه الكوارث ما لم يعد صاحب العرش الى عرشه ، فيبدأ على الفور عصر ذهبي ، عصر من الرخاء الذي لم يسبق له مثيل ، ماديا ومعنويا .

وحدث أن وصلت النبوءة بطريقة غامضة الى فينتراس الذي كانت تنتابه اعراض الصرع باستمرار ، وكان كثيرا ما يرى في نوباته نوافير السدم ويطلق الصيحات عن الدماء المتدفقة . وانضم فينتراس الى نوندورف وراح يبشر بمقدمه ومقدم عصره . وانضم اليه عدد من رجال الكنيسة وعارضه اخرون ، ثم دخل السجن وخرج منه في عام ١٨٤٥ - نفس العام الذي مات فيه نوندورف في إنجلترا - ولكن جمعيته استمرت في الازدهار . ثم اعلن انه التجسيد الجديد للنبي ايليا ، مثلما اعلن كاجليوسترو ذلك من قبل . ورغم ان البابا اعلن ان جماعته محرومة من الكنيسة ووصمها بالهرطقة فان الجماعة استمرت في الازدهار . ثم عاد الى فرنسا عام ١٨٧٥ ، وضم الى جمعيته التي اطلق عليها اسم « كنيسة الكرمل » جماعة من القساوسة ، ومات في ديسمبر من نفس العام .

وكان احد هؤلاء القساوسة هو بوللان الذي كان قسيسا مطرودا من الكنيسة . ويقول كاتب ترجمته - ضمن كتاب عن حياة هيوسمانس - وهوروبرت بالديك ، زميل كلية بامبروك في جامعة اوكسفورد - يقول ان دراسة اوراقه الخاصة التي اكتشفت حديثا في قرية فرنسية نائية (واكتشفها مسيو بيسر لامبرت) بالاضافة الى « اعتراف » كان بوللان قد كتبه بنفسه اثناء وجوده في سجن « الادارة المقدسة » - تقدم الادلة الكافية على وجود اسباب قوية لطرده من الكنيسة . واسس بوللان جمعية دينية بالقرب من باريس عام ١٨٥٩ تقوم على اساس فكرة ان « الجماع الجنسي » هو الوسيلة المثلى للخلاص ، وجعل اتباعه يعتقدون انهم يمارسون الجنس مع كليبواترة اومع الاسكندر الاكبر ، ومع بعض القديسين وكبار الملائكة ايضا . وفي ١٨٦٠ ، ذبح بوللان طفله غير الشرعي الذي كانت زميلته في تأسيس الجمعية قد ولدته له ، وقدمه قربانا للشيطان في حفل ديني . ولكن هذا فيما يبدو لم يعجب الرب ، فدخل بوللان السجن حتى عام ١٨٧٠ ، ثم اسس جمعية جديدة واصدر مجلة باسم « الصحة النفسية في القرن التاسع عشر » واستمر في ممارسة نشاطه في مجال السحر وعبادة الشيطان ، وظل اساس تعاليمه فيما يبدو جنسيا ، وراح يعلم اتباعه كيف يحلمون بانهم يجامعون القديسات او القديسين عن طريق الايحاء الذاتي . وعند هذه المرحلة تدخل رئيس اساقفة باريس وحصل على قرار بحرمانه نهائيا من الكنيسة ، ولكن بوللان انضم بعد ذلك الى فينتراس ، ثم بدأ النزاع بينهما حينما اعلن بوللان ان فينتراس قد عينه خليفة له في رئاسة « كنيسة الكرمل » ، وتم

الانفصال بينهما ، في نفس الوقت الذي كان بوللان فيه يطور افكاره : فلما كان آدم وحواء قد طردا من الجنة وسقطا بسبب الجنس ، فلا بد للانسان من ان يعيد رفع نفسه ويسمو بنفس الوسيطة ، ولما كان الجماع الجنسي اتحادا بين جسدين ، فان ممارسة هذا الجماع مع شخص اكثر سموا ستؤدي الى ان ترفع نفسك وتسمو الى مستواه ، ومن هنا تأثر اهمية التصورات الخيالية عن ممارسة الجنس مع يسوع نفسه او مع العذراء المقدسة ذاتها . ولما كان بوللان نفسه يحتل مكانة اكثر سموا - من الناحية الروحية - بالمقارنة مع عضوات جماعته ، فانه كان قادرا على الدوام على ان يساعدن في الصعود خطوة الى الامام على ذلك الطريق الصاعد نحو السمو .

وكانت هذه الافكار الجنسية هي هدف الهجوم السلي شنه ستانيسلاس دي جويتا في كتاب « معبد الشيطان » في عام ١٨٩١ ، وقال انها افكار ترقى الى مستوى ممارسة الجنس مع اناث الجن وذكره . وكان ان تمكن هو وزميله ويرث من الانضمام الى جمعيته حتى كسبا ثقته فكشف لهما عن التعاليم الجنسية (السرية بالطبع) للجمعية . ولكنهما دبرا « انقلابا » داخل الجمعية واستصدرا قرارا بحرمانه ، واصدرا ضده حكما بالاعدام بعد ان ثبت انه مذنب .

واعلن بوللان ان دي جويتا وويرث يريدان قتله بالسحر ، وبدأت الحرب بين الطرفين في شكل محاولات مستمرة - وفاشلة - تبادلها فيها كل وسائل القتل بالسحر دون فائدة . وانضم الى دي جويتا وويرث (الذي كتب بعد ذلك مؤلفا كبيرا عن اوراق التاروت) اثنان من اعضاء جماعة « الصلب الوردي » اولهما هو الشاعر ادوارد دوبو ، والثاني هو الكاتب الروائي الذي فضل ان يخفي شخصيته تحت اسم سار بيلادان الذي كان شخصا شاذا غريب الاطوار . واستمرت المعركة طوال سنوات حتى مات بوللان في ٣ يناير عام ١٨٩٣ ، بسبب التهاب في الرئة وازمة قلبية ، اما جويتا فمات بعده بخمس سنوات (ولم يكن قد بلغ الثلاثين بعد) بسبب جرعة كبيرة من المخدرات . وكان بوللان قد التقى قبل موته بالكاتب الروائي ج.ك. هيوسمانز بناء على طلب الاخير ، الذي سعى الى « الساحر » لكي يحصل منه على المادة اللازمة لكتابة رواية عن عبادة الشيطان ، واعدا بوللان بأن يجعله احدي شخصياتها الرئيسية ، بوصفه « الانسان الاسمي » . وقد وُفسي بوعده بعد ان اقام مع بوللان في ليونز مدة من الزمن . وصدرت الرواية في عام ١٨٩١ بعنوان « العالم السفلي » متضمنة صورة محبة لبوللان بوصفه الساحر الابيض الذي يسيء الناس فهمه . باسم « الدكتور يوهانس » وهو الاسم الذي كان بوللان يتخذه احيانا ، الذي يقوم بالمعجزات ويشفي الناس من آثار اعمال السحرة الاشرار .

ولا يمكن أن نعتبر « العالم السفلي » رواية جيدة ، بل انها لا تكاد تكون رواية على الإطلاق . ولكنها تعتبر وثيقة هامة للغاية لا تلقي الضوء على التكوين النفسي للحررة الفرنسيين في القرن التاسع عشر فحسب ، وانما على طبيعة « الحر الاسود » في كل العصور ، وخاصة من خلال الصورة التي تقدمها لـ «القدس الاسود » الذي يقيمه الحر للشيطان ويرفعون فيه صليبا مقلوبا يتدلّى منه رأس المسيح نحو الارض ، وهي صورة يمتزج فيها القبح بالقادرة بالشر والقسوة امتزاجا كاملا ...

ولكن الشيء الذي يبرز برونزا واضحا في وصفه للقدس الاسود هو رغبة المشاركون في « هز انفسهم » للخروج من حالة ركودهم وكآبتهم انعادية . ان سمة من اكثر السمات غريبة في كل مثل تلك الاحتفالات - مثل سبت الساحرات وما الى ذلك - هو ذلك التاكيد على الاوساخ والقادرة . وعند هيوسمان، يصبح واضحا ان الامر كله ، مع بعده الكامل عن ان يكون مرعبا وشريرا ، لا يبدو ان يكون تعبيراً عن انواع الاحباط البورجوازية . ان الابوين يطلبان من الاطفال ان يحافظوا على نظافتهم ، ولذلك كان الانغماس في القادرة يولد احساسا بان من يفعل ذلك شرير . اما انواع « التجديف » وصور الهرطقة ، فتبدو خالية من اي ضرر بالنسبة لكل من لم يكن كاثوليكيًا ولكل من لم يقبل الاعتقاد بان رفض الايمان بالوهية المسيح يتضمن لعنة ابدية وادانة شاملة . اما تشنجات المشاركون في القدس الاسود وتقلصاتهم القبيحة التي تضاعف من قبح اشكالهم الاصلية ، فان المؤلف لم يسهب في وصفها الا بقصد التنفيس عن الطاقة المكبوتة مثلما يحدث في التمثيليات والافلام الداعرة ..

ان القبح هو ما يفترض ان يكون مملكة الشيطان . ولكن يستطيع القارئ ان يلمس عنصر التناقض الذاتي داخل رواية هيوسمان . فكل هذا القبح والدمامة الكئيبة لا يستطيعان اظهار القدس الاسود في مظهر الشر ، لاننا لا بد ان نسأل : من الذي يريد ان يشهد شيئاً باعثاً على الغثيان بهذا القدر ؟ ولذلك ، فانه يحرم على ان ينبه الى حضور بعض الجميلات من النساء ، بل ووجود فتاة صغيرة رائعة الجمال . وهو بهذا ، يكشف عن العيب السخيف المتناقض الكامن في نزعة عبادة الشيطان . ان العنصر الذي يجعل من القدس الاسود شيئاً جذاباً هو الجنس الوثني، الصحي الطبيعي للغاية . والقوة الدافعة الكامنة وراءه هي الكبت الجنسي الحتمي في كل حضارة ، حيث يتيح الفراغ لكل شخص ان يفرق في احلام اليقظة احيانا حول الجنس . وليست الصور المغيثة للاجساد القبيحة الملوثة بالوسخ والقادرة سوى محاولة لتفطية هذه الحقيقة واخفائها . ولم تكن قد مضت اكثر من عشرين سنة بعد صدور رواية « العالم السفلي » حتى

جاء « د. هـ. لورنس » لكي ينسف كل الاسس التي قام عليها هذا النوع من « الشيطانية » الصبغانية العقيم ، بتأكده ان الجنس نشاط محرر ، وان « عضو الذكر الجنسي » هو الحبل الذي يصل بين الانسان وبين النجوم » ، وان الزوجين الصحيحين ، سيشعران بعد الجماع الجنسي بشعور من « يسبح في المحيط » الذي يميز التصوف . ولا يمكن ان يكون هذا الاحساس بالسباحة في المحيط احساسا شيطانيا ، انما هو التهيؤ للتشبه بالآلهة . ولو امتلك عباد الشيطان عند هيوسمان اي قدرة على ملاحظة ذواتهم ، للاحظوا انهم كانوا يحسون بالتححرر والتخفف من كثير من مكبوتاتهم ، ولا حسوا بذلك « الوعي الكوني » بعد احتفالهم المليء بالعريضة ، وان هذه الاحاسيس هي ما تتناقض بشكل كامل مع احترافهم لمهنة عبادة الشيطان . ليست عبادة الشيطان سوى فرضية عكسية مصطنعة ، دفعها الى الوجود والتعصب والاحباط - وليست تعبيرا اصيلا عن تمرد الانسان ضد كل ما يشبه الرب .

ويؤكد هذا الاستنتاج ، ما يكشف عنه هيوسمان من ضعف وفجاجة في شخصية بطل الرواية (دورتال) الذي يفترض انه صورة شخصية للمؤلف نفسه . وتنشأ مشاكل « دورتال » من ضجره وقلة نشاطه . وكان ضجره هو السبب الذي دفعه الى حالة من الحمى العاطفية حينما يتسلم بعض الخطابات من سيدة مجهولة . وحينما يكتشف ان هذه « المجهولة » هي احدى سيدات المجتمع كان قد قابلها يشعر بالابتهاج والاحباط معا . يشعر بالاحباط لان السيدة كانت اقل بريقا من « مجهولته » الخيالية ، وبالابتهاج لان السيدة كانت - رغم كل شيء - ما تزال مغربة من الناحية الجنسية . وحينما تتمنع عليه يبدأ في الشعور بالرغبة الجنونية فيها . ثم يصل الى ذروة سعادته حينما تسمح له بان يقبلها بينما زوجها في الحجرة المجاورة . وحالما تستسلم له ثور اعصابه ، وفي صباح ليلتهما المقبضة ، يفرق في افكاره حول التطهر وحب الخير . ولكي يعتذر عن النوم معها مرة اخرى ، يقول لها ان له عشيقة وطفلا مريضا ، ويستفز مشاعره حتى يوشك على البكاء . وليس « دورتال » بهذا الشكل سوى اضافة ضئيلة الى الصف الطويل من الابطال الضعفاء في الادب الفرنسي : اوبرمان عند كونستانت ادولف ، وجوليان عند ستندال ، وروبيمبريه عند بلزاك . وليس هناك اعتراض عليه سوى ان هيوسمان لم يكن مدركا لهذا الضعف ، وانما يظن ان عذابات دورتال - وهي العذابات التي ستعيد المؤلف مرة اخرى الى الكنيسة في رواية « الكاتدرائية » - هي عذابات الحساسية والدكاء والشعور المرهف ، وليست ناشئة من مجرد الاسراف في الاهتمام بالذات والافتقار الى النظام والانضباط .

وكان هيوسمان قد نال شهرة كبيرة في عصره بسبب روايته الاولى الجديرة بالاهتمام : « ضد البذرة » التي تحدث فيها عن شاب ثري يدعى « دي ايسيانس » الذي ينفر مما في الحياة اليومية من ابتذال وتفاهة ، فيحبس نفسه في منزله الريفي الفاخر ، تحيط به الكتب واللوحات والمشروبات الكحولية وانواع الطعام الجيد الغريب لكي يعيش حياة لا تعتمد الا على الخيال وتغذية الحواس . ويعتبر « دي ايسيانس » واحدا من اعظم رموز الثورة الرومانتيكية ضد « العالم » . (يقول « آكسيل » في مسرحية فيار/ديليل آدم : « اما فيما يتعلق بالحياة ، فان خدمنا يستطيعون القيام بذلك لاجلنا ») . وقد بدأ هيوسمان باختياره واحدا من اتباع زولا والمدرسة الطبيعية ، ولكنه كان اكثر ميلا وتعاطفا مع النزعة الالحادية عند اوسكار وايلد (وقد اصبحت روايته « ضد البذرة » هي انجيل دوريان جراي في رواية وايلد الشهيرة) . ولكنه ازداد شغفا بموضوع عبادة الشيطان - الذي كان احد الموضوعات التي نوقشت في الرواية الاولى - فقرر ان يكتب روايته الثانية حوله . وكان لا بد ان يجمع مادته ، وعليه ان يلتقي باحد المتخصصين والمحترفين في عبادة الشيطان ، ومن هنا بدأت علاقته ببوللان الذي كان قد سمع به . . وقرر هيوسمان ان يقيم بناء روايته على اساس المواجهة بين الساحر « دكتور يوهانس » وبينه هو شخصيا تحت اسم « دورتال » .

ويسجل هيوسمان حياة دورتال ومسار مستقبله - وحياته هو شخصيا ومستقبله - في ثلاث روايات متتالية : « في الطريق » ، « الكاتدرائية » ، « خادم الدير » . ومن الصعب ان نطلق على هذه الكتب مثل « العالم السفلي » تماما صفة الرواية ، ولكنها تقدم بالتفصيل صورة لطريق دورتال الى قاع الكنيسة - فهو ينتهي الى ان يكون خادما في احد اديرة الرهبان البندكتيين - مع مناقشات مطولة حول لاهوت العصور الوسطى وحياة القديسين . ولكن القاريء لا يلمس حلا لمشاكل دورتال ، لان الكاثوليكية ليست هي الحل . ان دورتال منقسم على نفسه ، تميس ، غير راض مطلقا عن حياته ولا عن نفسه . وما يدفعه ليس سوى احتياج تطوري ملح ، انها الرغبة في الوصول الى « الطرف البنفسجي » من طيف الوعي ، وهو يفشل في بلوغ ذلك الطرف .

✱

« في قاعة المطالعة بالمتحف البريطاني ، كنت كثيرا ما ارى رجلا في السادسة او السابعة والثلاثين ، في سترة من القטיפه البنية ، له وجه مصمم نحيل ، وجسد رياضي قوي ممشوق ، بدا لي ، قبل ان اعرف اسمه ولا ما يدرسه ، كشخصية من الشخصيات الروائية . ثم قدمني اليه احدهم . . كان يدعى ليسدل

ماترز ، ولكنه سرعان ما سيصبح ، بتأثير « الحركة الكلتية » (١) : ماك جريجور ماترز ، ثم ماك جريجور فحسب . كان هو مؤلف : « كشف النقاب عن الكابالاه » . ولم يكن يشغله في دراسته الا موضوعان : السحر ونظرية الحرب ، لانه كان يؤمن انه قائد بالفطرة ، ولم يكن هناك ما يتساوى في نظر هذا اليهودي القديم سوى الحكمة والقوة . كان قد نسخ العديد من المخطوطات حول السحر ، تعاليمه وطقوسه ، في المتحف البريطاني ، وكان يعتزم ان ينسخ مخطوطات مشابهة كثيرة اخرى من عدد آخر من المكتبات الاوروبية ، وقد بدأت انا - من خلاله اساسا - في دراسات معينة وفي عدد من التجارب التي اقنعتني ان صورا بعينها تتبع صاعدة امام عين العقل قادمة من مصدر اكثر عمقا من الذاكرة اللاواعية او الواعية . واعتقد ان عقله في تلك الايام الباكورة لم يكن يناقض وجهه وجسده او يخفي حقيقتهم ، رغم انه في سنوات متأخرة بعد ذلك أصبح عقله مشوشا - مثلما كان عقل دون كيشوت مشوشا - لانه راح يدافع عن كبريائه وسط الفقر الفظيع . وقد اخبرني شخص كان يمارس معه الملاكمة كل ليلة انه كان يستطيع ان يطرحه ارضا طوال اسابيع رغم ان ماترز كان هو الاقوى ، ثم عرف بعد ذلك بمدة طويلة ان ماترز كان لا يكاد يأكل شيئا في تلك الاسابيع .

لقد اوردت هاهذه الفقرة الطويلة من يتس لان صورة ماترز تحتوي كل العناصر الاساسية في الساحر . هناك الفقر ، وقوة الارادة الدافعة والاحساس الغامض بالمصير ، والرومانتيكية التي تجعله يغير اسمه من ليدل الى ماك جريجور . وقد نجد ما يفرينا بالقول بانه رجل ولد في عصر ليس عصره ، مغامر يكتشف ان القرن التاسع عشر قد أصبح مروضاً اكثر مما ينبغي ، ولكن طالما ان باراسليساس واجريبا - مثلما رأينا من قبل - لم يكونا احسن حظا فسي عصرهما الاقل ترويضاً ، فانه لا يتمسك طويلاً بذلك الاكتشاف . اما « اليهودي القديم » الذي يشير اليه يتس في تشبيهه فهو احشوريوش اليهودي التائه او المتجول . وقد افنتن يتس بالصورة التي رسمها شيللي في قصيدته « هيللاس »

(١) الحركة الكلتية (او حركة البعث الايرلندي) حركة قومية الطابع ، ذات اتجاهات قومية وسياسية قوية ، نشأت في ايرلندا في اواخر القرن الماضي واستمرت حتى عشرينات القرن الحالي ، لتنادي بالاستقلال الوطني لايرلندا ، واهياء لغتها الكلتية الغالية القديمة ، مع اعادة الكشف عن تراثها الشعبي والاسطوري الغني الذي يرجع الى عصر ما قبل المسيحية والفسزو الروماني لبريطانيا ، وتهدف الى اعادة صياغة الشخصية القومية الايرلندية بعيدا عن المؤثرات الاوروبية . شارك في تأسيس الحركة ، يتس ولاندي جريجوري وجورج مور وجون سينج وشيبن اوكيزي ، كما تأثر بهم بقوة جيمس جويس ، وانثرو بقوة ايضا في معظم مدارس الشعر والدراما الغريبيين الحديثة . (ه . م)

التي يصف فيها اليهودي القديم الذي يعيش في « كهف بحري » يقع في وسط « بحر الشيطان ». ثم أصبح يتس ثيوصوفيا ، وانضم الى « جماعة دبلين » التي التفت حول جورج راسل (- لانهم اكدوا وجود اليهودي المتجول حقا) . وتعد هذه الفكرة عن رجل وحيد من نوع اكثر سموا ، يمتلك من القوة والحكمة ما يزيد عما يمتلكه البشر ، تعد فكرة شديدة الجاذبية بالنسبة لاناس من نوع يتس ، ابغضوا عصرهم ونفروا منه .

وقد قدم مائرز يتس الى جماعة صغيرة من « القبلانيين » ، الباحثين في الكابالاه من المسيحيين يسمون انفسهم « طلاب علوم السحر » ، ثم قرروا بعد ذلك بقليل ان يسموا انفسهم « جماعة الفجر الذهبي » . وراح مائرز يتحدث بغموض عن « سيد » مجهول امره بأن يؤسس جماعة « طلاب علوم السحر » - وربما كان هذا السيد هوسانت جيرمين نفسه . ويبدو ان الحقيقة هي ان مائرز كان عضوا في جماعة « الصلب الوردي » وقد سألته عضو آخر هو الدكتور ويليام وودمان ان يترجم مخطوطة كان وودمان قد اشتراها من احدى المكتبات في « شارع فارينجدون » . واكتشفا معا ان المخطوطة كانت تصف طقوس فرع من فروع السحر الشعائري ، وذكرت اسم جماعة من السحرة في المانيا . وقام مائرز وودمان والدكتور وين ويسكوت ، وهو احد قضاة التحقيق في جرائم القتل في لندن ، قاموا بالكتابة للجمعية الالمانية فحصلوا منها على التصريح اللازم لاقامة جماعتهم الخاصة . وانتهى مائرز - بطبيعته الديكتاتورية - الى ان أصبح القائد الوحيد للجماعة ..

وكونت جماعة « الفجر الذهبي » فروعا لها في ادنبرة وباريس ولندن وويستونسوبر - مار . وزعم مائرز انه قد تمكن من الاتصال بالرؤساء السريين في باريس ، وزادت سلطته باكتشاف مخطوط قديم من الجلد ، طبع في باريس عام ١٤٥٨ ، باسم « كتاب السحر المقدس لصاحبه ابرا - ميلين الساحر » وقد عثر عليه في مكتبة الارسنال .

.. وقد حصل مائرز على منحة سنوية من سيدة ثرية كان يعمل امينا لمكتبة ومتحف والدها الخاصين ، وكانت زوجته ، ابنة الفيلسوف بيرجسون ، من « العرافين » ايضا وتشتغل بالتنبؤ بالمستقبل . وانتقل بعد ذلك الى باريس حيث بدأ في التبشير بالشعائر المصرية ، التي يخطر ان تكون هي نفس « الطقس المصري » الذي كان يبشر به كاجليسترو . . . وحينما مات مائرز عام ١٩١٨ - بعد معارك عديدة مع الشخصيات البارزة الاخرى من الجماعة - كتب يتس في ترجمته الذاتية انه يعتقد انه قد قتل بالسحر ، قتله البستر كراولي الذي كان مائرز قد استخدمه من قبل في احدى معاركه مع منافسيه على قيادة الجماعة . .

ويعصف فرانسيس كينج في كتابه الممتاز عن « السحر الشعائري فسي
انجلترا » ١٩٧٠ ما كان بعد ذلك من مصير جماعة « الفجر الذهبي » . فقد
انقسمت الجماعة اثناء حياة مائرز ، ثم استمرت انقساماتها ، وكانت اهم الجماعات
المنقسمة هي جماعة « ستيلاماثيوتينا » التي نشرت قوانينها السرية تلميذة
كراولي فرانسيس اسراييل ريجاردي ، الامر الذي ادى الى مزيد من التفكك .
وقامت احدى الجماعات المنشقة الاخرى بدفن راياتها وأدواتها في قمة احدى
التلال المشرفة على البحر عند الشاطئ الجنوبي . ولكن حدث عام ١٩٦٦ ان
انهارت القمة واكتسحتها مياه البحر فتناثرت الدفائن القديمة على الشاطئ ،
وراحت جماعات سحرية مختلفة تتنازع ملكيتها . ويبدو ان هذا هو ما يختتم
تاريخ جماعة « الفجر الذهبي » .

القسم الثالث

قوى الإنسان الخفية

فيها « أزوث الاسد الاحمر » الذي صنعه بيديه . ولا يتضح لنا ان كان قدعالج الفتاة باستخدام نوع من « القوة العقلية » بدلا من العلاج الطبي باستخدام الدواء، ولكن يبدو ان هذا هو الاقرب احتمالا، بالنظر الى عبارته التي قال فيها ان الطبيب الجيد يعتمد على « سحر » طبيعي . وقد اطلق باراسيلسوس اسم « أزوث » على سيفه كذلك ، الذي كان متعلقا به الى حد ان قيل انه كان ينام في الفراش وهو الى جانبه .

وفي عام ١٥٢٤ استقر لمدة من الزمن في بازل، حيث عين استاذاً لعلم الطب . فبدأ تعليمه هنالك بان امر تلامذته بان يوقدوا نارا كبيرة لكي يقدفوا فيها باعمال جالينوس وابن سينا والرازي ، وعدد آخر من الاطباء البارزين القدماء ، صائحا بانهم جميعا كانوا اقل موهبة من شعرات ذقنه . وادانه الاساتذة الآخرون ممن مدرسي الطب في المدرسة ووصفوه بالمشعوذ الاستعراضي ، وبدلوا جهودهم لكي يحصلوا على امر طرده من الجامعة ، ولكن السلطات وقفت الى جانبه . كان صخباً شاذ الاطوار ، جامدا في معتقداته . يقول عنه احد من كتبوا عنه انه كان « سكرانا على الدوام واضح التفكير رائق العقل على الدوام » . وكان يتمتع بموهبة بارزة في الهجاء وسب الآخرين ، وقال يوما لزملائه : « لستم شيئا اكثر من مدرسين ومعلمي صبية ، تمزجون بين قملكم والهرش . انكم لا تستاهلون حتى ان يرفع كلب ساقه الخلفية ليستند بها اليكم في تبوله . اما اميركم جالينوس فهو في الجحيم ، من حيث راح يرسل الي الرسائل، فاذا عرفتم ما قال لي فيها، لرسمتم على وجوهكم علامة الصليب بديل ثعلب . » كانت لغته دائما مفعمة بالالوان والحركة .

وتأرجحت حظوظه بمعدل يبعث على الدوران . كان قد عالج ساقا متعفة للناشر فوربينهوس ، كان طبيبه الخاص يريد ان يترها . اما علاجه لازاموس(١)

(١) ادااموس - ديزديريوس (واسمه الحقيقي جيرهارد جيرهاردز اوجيرجيرول) ١٤٦٦ / ١٥٣٦ - واحد من أبرز اسماء النهضة الانسانية الاوروبيين في عصر النهضة - هولندي الاصل ، ولكنه عاش متجولا بين باريس ولندن ، كامباري وروما ، كامبريدج واورليتز ، وان كان قد استقر فترتين في حياته في لندن وبازل . يعتبر أبرز اصحاب المواقف « العاقلة » في حركة الاصلاح ، ومن المستنيرين الكبار في عصر النهضة ، والمحالين الاساسيين على الروح المسيحية وعلى فكرة الوحدة الاوروبية في ظل كنيسة مستنيرة . وقف ضد تعصب لول وحد الفساد الفكري والاخلاقي في البلاط البابوي . اعتبر كتابته اللاتينية اعظم ما كتب بهذه اللغة في عصر النهضة الامر الذي البت عدم صلاحيتها للاغراض « الدلوية » . والعلمية الحديثة . كتب في النقد الفكري والاخلاقي والاجتماعي ، وبشر بالنزعة العقلانية وحب الطبيعة والتبصر بقوانينها البدئية ودافع عن الفلسفة العقلية . وعن الحس الديني النقي من اللاهوتيات المغلفة في وقت واحد . ومات كاثوليكيًا رغم دفاعه عن حركة الاصلاح وتطهير الكنيسة ورغم صداقته لتوماس مور . (ه . م .)

في أمريكا وفرنسا من اقامة سلطة الارادة الذكرية « الاكثر بعدا عن الشخصية » والاكثر صحة . ولكن ، حدث كنتيجة لهذه السيطرة الانثوية ان ظهرت الى الوجود كل الجوانب الرديئة ، الاقل بهجة ، للمسيحية - مثل فكرة ان الجنس خطيئة ، والافكار المفثية الصبيانية عن الفضيلة وعن الثواب في عالم ابدى ، في : « منفى مجازي لم يبرز فيه الوجود ابدى » . لقد خنقت قدرة الابداع ونزعة المغامرة ، لان « هاجس الامن والاستقرار الهاديء ذلك الهاجس الانثوي ، جعلهما اشياء خطيرة لا بد من تجنبها . وقد يكون ثمة شك في ان هذا الموقف شر في حد ذاته ، ولكنه يولد الشر بالتأكيد . ان ثورة رجال من نوع « دي صاد » وغيره من الذين سيطرت مكبوتاتهم على ملكات الابداع والخلق ونزعات المغامرة فيهم ، ان هذه الثورة كانت رد الفعل « الذكري » ضد هذه الفكرة الانثوية الخائفة عن « الطيبة » ، ولكنها كانت ثورة تماثل الفكرة المرفوضة نفسها في التفاهة والعقم رغم انها كانت تقيضها ورقضها . لقد اصبحت المسيحية ، طبقا لما يقوله بليك ، دينا انثويا وساليا ، نوعا من التعبير عن سلوك « مدبرات المنازل » القائم على المنوعات والتحذيرات التي تبدأ دائما بعبارة : « انك لن تفعل كذا او كيت !! »

فاذا كان كل هذا صحيحا ، اذا كان بليك وتراث علوم السحر على صواب في نظرتهما الى النساء ، فان النتيجة ستكون نظرة داخلية جديدة تماما الى تاريخ الساحرات . لماذا نفكر في « الساحرات Witches » باعتبارهن نساء ؟ على الدوام ؟ ان الكلمة (الانجليزية) تنطبق على الرجال والنساء ، ولكن التصور الذهني عن رجل يتمتع بقدرات سحرية تستدعي على الفور صورة كاهن او عراف عجوز ، من نوع ميرلين (١) او « جاندالف » في رواية تولكين ، او ربما تستدعي صورة الساحر الافعى الدائرية الذي تحدث عنه ليتون . ان كلمة « ساحرة Witch » تستثير رؤى عن نساء يمتطين عصي الكائنات الطويلة ، ويملأن المراحل بالاعشاب وجذور النباتات ، او يقدمن للشيطان المأوى والدفع البليء . فلماذا هذا الربط بين تلك الافكار والاشياء ؟

في هذه المرحلة من التاريخ الانساني ، يهدف التطور الى الحصول على

(١) ميرلين - الشاعر والساحر الكاهن الغامض في مجموعة حكايات واساطير الملك آرثر ، النورماندية والسكسونية . انه « امير الفنان » الذي كان ابن احدى عرائس الغاب التي اغواها جني صغير ، ولكن ميرلين يتم تعميده على يدي القديس عابر فيصبح مسيحيا وينقذ من الشيطان ، ويصبح مفسيا ومرافا وكهنا للملك آرثر ، الى ان تأسره جنية عظيمة (سيادة البحيرة) وتسجنه في شجرة شوك بسحرها القوي ، ومن هناك يستطيع آرثر الملك ان يسمع صوته ويحصل على نصائحه دون ان يراه . ويبدو انه كان هناك شاعر يحمل هذا الاسم نحو القرن الخامس الميلادي ، وقد اصبحت شخصيته مادة الهام خصيب في الشعر الانجليزي ، الرومانتيكي خصوصا . (ه . م .)

« الملكة س » . والبشر حيوانات في جانب منهم ، اننا مقيدون الى اللحظة الراهنة، كالابقار . ولكننا نمتلك ايضا قدرة معينة هامة بارزة لا يتمتع بها اي حيوان آخر . فلنفكر في تلك الفقرة من رواية ديكنز : « كريسماس كارول » : حيث يفكر سكروج في نفسه حينما كان تلميذا في المدرسة ، فيتخلف عن زملائه ويبقى داخل حجرة الدرس لكي يقرأ « الف ليلة وليلة » برؤاها عن المدن البعيدة وتصور السلاطين وعلي بابا والسندباد . وفي تلك اللحظة يتبين الى اي مدى اخطأت حياته الطريق الصحيح . لقد كان هدف العقل الانساني ان يحصل على اجنحة لكي يحلق فيفلت من مجرد اللحظة الراهنة ، منطلقا بعيدا الى ازمته وامكنة اخرى .

فاذا حرم الازكياء الحيويون من الناس ، من هذه « العطلة » من التفاهات اليومية ، لاتخذت قدراتهم الخلاقة شكل النور المتزايد التوهج ضد الحياة التي تسجنهم ، وضد معاييرها الاخلاقية . ولكن ، ليس الخيال الانساني وحده هو ما يشتاق الى التحرر ويسعى الى الانطلاق ، فان الارادة الانسانية تحتاج الى الاهداف والى الرغبات التي تستغرها .

ومن الممكن ان نرى النتيجة في الحالة المشهورة التي تجسدها « ايزوبيل جووداي » ، ساحرة اوولديارن التي قررت فجأة ان « تعترف » في عام ١٦٦٢ ، فخلقت بذلك اسطورة حافظت على قوة تأثيرها طوال قرون . ويبدو انها كانت فتاة جدابة ، ذات شعر احمر ، تزوجت من مزارع اسكتلندي كانت مزرعته النائية تقع بالقرب من بلدة اوولديارن في مقاطعة موراشاير . وكانت الحيلة كثيفة غليظة في المزرعة ، وظلت ايزوبيل دون اطفال . وكان زوجها فلاحا جلفا محروما من الخيال . وتزعم ايزوبيل انها قابلت « رجلا في ملابس رمادية » في منطقة خلاوية على سفوح التلال القريبة ، واته قام بتعميدها كساحرة في نفس ذلك المساء في كنيسة اوولديارن . وكان هذا في عام ١٦٤٧ . واخذت ايزوبيل تصف « ايام سبت الساحرات » - حيث يتجمعن في مجموعات كل مجموعة من ثلاث عشرة ساحرة . وقدرتها بعد ذلك على ان تحول نفسها الى ارنب بري او الى قطة . ومن الهام هنا ان نتذكر ان اعترافاتها كانت جنسية الى درجة مرضية ، فقد ذكرت انها نامت مع الابالسة في ايام سبت الساحرات ، ومع الشيطان الاكبر نفسه ، بل ان احد الابالسة من عشاقها جامعها حينما كانت تنام في فراشها الى جانب زوجها ، وقالت ان السائل المنوي للشيطان كان باردا كالثلج . وان الشيطان الاكبر اعتاد ان يضرب الساحرات ، اللواتي يكن بالطبع عرايا .

وبذلك تبدو الصورة التي تبرز من هذه الاعترافات صورة خيالية صادرة من فتاة ذات رغبة جنسية قوية قادها الاحباط والكبت الى نصف الجنون ، حتى انشأت

من خيالها بناء وهمي كاملا عن قوى الشر . وهو بناء وهمي ماسوشي في أساسه، حيث يتم تعميدها بدمائها التي امتصها الشيطان من جسدها ، ثم يضربها الابالسة ويفتصبونها جنسيا . وبعد قليل تقع حياتها جميعا تحت سيطرة هذا الوهم الذي تزيده قوة ميولها الماسوشية القوية . ان كبتها ونكوصها الجنسي يتطور حتى يتحول الى نوع من السم الحلو ، يضاعف من قوته التعاليم الدينية التي سيطرت على المنطقة ، من النزعات البرسبييتاريانية (١) القائمة على تعاليم كالفين المنذرة المهددة . ولم يكن يخالجها شك في انها قد باعت نفسها للشيطان ، لان الخيالات التي كانت تسيطر عليها ليلا ونهارا كانت خيالات تعيش الشياطين في كل اركانها : فالشيطان الاكبر يفرق بسوطه في الهواء ، ثم يغتصبها بعنقه الهائل الحجم ، الامر الذي يجعلها تشعر بالآلام فظيعة وتتناقص نفس التقلصات التي تنتاب الام لحظة الوضع ، رغم انها آلام وتقلصات ممتعة مفعمة بلذة هائلة . وبعد خمسة عشر عاما من هذه الاوهام ، تملكها فجأة فكرة مربعة ، تكاد تكون بعيدة كل البعد عن العقل . انها فكرة تشبه الدوافع التي تجعل بعض الرجال يكشفون عن اعضائهم امام الاطفال ، او مثل الدافع الذي جعل القاتل الجماعي بيتر كورتين يعود الى مساح جرائمه لكي يتلذذ بما يراه على وجوه المتجمعين من امارات الرعب . ماذا يمنعها من ان تدفع امر اوهاما ، وان تذهل كل الناس بما ستسرده عليهم مما يجري وراء ظهور جماعتهم المتزمتة المتجمدة الفارقة في طمانيتها البليدة ؟ ولماذا لا تجر في خيالاتها بعض الشركاء من اعضاء الجماعة ؟ - ولن يكون هذا بالطبع مناقضا لما سترويه ، وانما لانه سيكون عاملا مؤديا الى مزيد من اقتناع الآخرين . انها تعترف ، وتسبب اعترافاتها طوال الاسابيع الستة من ٣ ابريل الى ٢٧ مايو عام ١٦٦٢ ، وتبتهج هي وتزداد فرحا وهي ترقب الصدمة التي تولدها اعترافاتها . انهم ينزعون ملابسها لكي يكشفوا آثار ضرب الشيطان ومخالبه ، وتشعر هي بان هذه العملية ممتعة للغاية مفعمة باللذة .

ولا يتضح من رواية المؤرخين ما حدث لها ، او لساحرات اووديارن الاخرى اللواتي جرتنن ايزوبيل معها : يقول احد المصادر انها احرقت وذر

(١) الكنيسة البرسبييتاريانية - احدى الكنائس التي قامت على تعاليم كالفين الاصلاحية البروتستانتية اصلا، حيث يقوم الشيوخ (البرسبييتارز) بتمثيل مجموع اعضاء الكنيسة في حكمها. انتشرت هذه النزعة في اسكتلندا وبعض اجزاء الولايات المتحدة بعد عام ١٩٢٩، حينما عادت الوحدة بين الكنيسة الحرة المنفصلة وبين الكنيسة الوطنية الاسكتلندية ، على اثر اقرار مطلب الكنيسة الحرة بعدم تدخل الدولة في الشؤون الروحية للمواطنين ولا غسسي كيفية ادارتهم لكنالسهام . (هـ . م) .

رمادها في الريح ، ويعلن آخر ان السجلات والوثائق ناقصة ، وانه من المحتمل ان تكون. قد اطلق سراحها بعد الاعتراف . ومن المحتمل بالفعل ان تكون قد اعدمت . ولكن القصة على اي حال تحتل مركزا رئيسيا في تاريخ السحر بسبب ما تحتويه من تفاصيل - اي بسبب خصوبة خيال ايزوبيل جووداي .

ولكن هذا لا يعني التاكيد بان كل اعمال السحر منذ القرن الثالث عشر حتى القرن الثامن عشر يمكن ان تقف عند حدود الخيال والاحباط الجنسي . اننا نعرف ان نسبة كبيرة من الناس يتمتعون بقدرات غامضة وغريبة ، وان هذا كان هو الحال دائما . وتتراوح هذه القدرات من القدرة على « قراءة الشخصية » انى القدرة على التسبب في احداث « غير طبيعية » . وتشيع مثل هذه القدرات بشكل اكثر بين اهل الريف منها بين اهل المدن . ونحن نعرف ايضا انه حينما تتمكن فكرة قوية من الربط بقوة بين الارادة والخيال ، فان الواقع الحقيقي غالبا ما يبدو وكأنه يؤكد هذه الفكرة . وقد زعم الساحر كراولي في القرن الماضي ان مهاتما سريا من التبت هو الذي املى عليه كتابة : « كتاب القانون » بعد ان اتصل به عن طريق ذوجته . وليس علينا ان نصدق مثل هذا الزعم . فنحن نعرف ان كراولي كان يؤمن ايمانا قويا بالسحر الى درجة وقوعه انفعاليا تحت سيطرة هذا الايمان الذي تمكنت قنوات قدراته الابداعية من شق طريقها من خلاله الى السطح . وهناك الكثير من القصص المشابهة تماما عن « الالهام » التي تتراوح بين نبوءات نوستراداموس الى نبوءات جونا سوثكوت في نهاية القرن الثامن عشر (وقد انتهت حياتها كمتنبئة ملهمة في عام ١٨١٤ حينما تنبأت انها على وشك ان تضع طفلا وهي عذراء، وان طفلها هو « امير السلام » . وقد عاشت طوال الشهور التسعة التالية كل مراحل الحمل والوضع ، ولكنها لم تلد الطفل) وتكشف ترجمة ستريندبرج الذاتية بعنوان « جهنم » الطريقة التي يبدو بها الاعتقاد الداخلي المسيطر في فكرة معينة حول القدرات غير الطبيعية ، كيف يبدو مثل هذا الاعتقاد قادرا على التسبب في احداث تؤكد حقيقة تلك القدرات . وطبقا لما يقوله ويليام بليك فان الاقتناع الراسخ بان شيئا معينا على نحو بعينه ، يجعله يصبح على ذلك النحو . فحالما تمت اقامة النموذج الخيالي ، فاستثار الهواجس المسيطرة الخلاقة ، فان الباقي يتتالى من تلقاء نفسه .

ومن الجدير بالملاحظة هنا ان نذكر ان غالبية من ذكرناهم في هذا الكتاب من السحرة الرجال كانوا ذوي ميول طيبة تتجه الى الخير : اجريبا ، دي ، كاجليوسترو ، سانت جيرمان . بل ان كراولي ذي الميول العادية الواضحة والذي يمكن ان يوصف بالقسوة الجسدية والعريضة الحسية البالغة ، قد أكد ان سحره كان من النوع « الابيض » ، ولا توجد بالفعل اية قصة عن قيامه بايذاء اي شخص

باستخدام السحر . وحينما اكتشف بوير انه كان قادرا على ايلءاء الناس بما في انفجارات غضبه من طاقات نفسانية ، اصبح : « ميالا الى الخير بطريقة عصابية » اما النساء من جانب آخر فهن اكثر استعدادا للوقوع في قبضة الهواجس الداخلية المسيطرة ، وفي حالة « الساحرات بطبيعتهن » فانهن اكثر استعدادا لاساءة استخدام قدراتهن - ليس لخدمة أغراضهن وحصولهن على مميزات شخصية ، وانما بهدف الاضرار بأعدائهن .

ويوحى كل هذا بنظرية عن السحر تختلف بشكل جوهري عن الفرضيتين اللتين سيطرتا على هذا المجال حتى الآن . وكانت الفرضية الاولى ، التي مثلها القس مونتاجي سامرز ، تقول بأن الشيطان حقيقي هو واتباعه من قطعان الابالسة وان الساحرات والسحرة يمتلكون قوة حقيقية وانهم بالفعل في قبضة الشيطان واتباعه . وتقول الفرضية الثانية ، انني يمكننا ان نعثر عليها في « دائرة معارف السحر » التي وضعها روسيل هوب روبينز ، تقول بان الامر كله لا يعدو ان يكون محض وهم خيالي وايحاء ذاتي بالوهم . اما الراي الذي اقترحه هنا فهو ان للسحرة وقدراتهم وجودا حقيقيا لا مجال للتقليل من شأنه ، اما الشيطان وقدراته فليس لهما شيء من ذلك . ولا يمكن ان يكون مونتاجي سامرز ، ذلك القسيس الرومانتيكي الشكاك ، على خطأ تماما حينما يقول ان غالبية السحرة يستحقون ما يلحقون . وليس معنى هذا اننا نقول بانهم يستحقون التعذيب والحرق ، فلا احد يقول بذلك . ولكن لا شك ان الكثيرين منهم قد اعتقدوا انهم خدم الشيطان . ومن الامور ذات الدلالة الهامة هنا ان كل ما وصفته ايزوبيل جووادي من « سحر » انما الهمة النية السيئة والرغبات الشريرة : فقد ذكرت ان الساحرات استخرجن من القبر جثة طفل رضيع مات قبل تعميده ثم دفنه وسط كومة السنابل التي حصدها فلاح قبل ان يقوم بدرسها لكي يفسدن محصوله ، وصنعن دمي من الطين غرسن فيها دبابيس صغيرة بقصد قتل اطفال العمدة ، ثم حرثن قطعة من الارض بمحراث صغير يقوده ذكر ضفدع كبير الحجم لكي يجعلن الارض تجذب ، وسواء كانت ايزوبيل قد اشتركت في هذه الاعمال السحرية ام لا فان هذا موضع مناقشة ، ولكن لا سبيل الى الشك في ان ساحرات وسحرة كثيرين قد قاموا بذلك . وفي حالات كثيرة - ربما في اغلب الحالات - لا بد ان اعمالهم كانت مؤثرة ، والا لما اعتقد الناس في خطرهما .

وهناك جانب آخر لا بد من وضعه في الاعتبار . ففي الجماعات الصغيرة المعزولة ، تستطيع الخرافات نفسها ان تخلق « جوا سحريا » يمكن ان يزيد من تاثير الاعمال التي من هذا النوع . ومن الممكن ان نرى هذا الجانب في واحدة

من قضايا بلدنا ذاتها (انجلترا) ، وهي قضية : « جريمة القتل بالسحر » التي راح ضحيتها تشارلز والتون في شهر فبراير عام ١٩٤٥ في بلدة « لووار كوينتون » بمقاطعة ووريكشاير . فقد عثر على والتون ، وهو عامل زراعة يبلغ الرابعة والسبعين من عمره ، مطروحا على ظهره تحت شجرة صفصاف ، وقد اخترقت حلقه « مدواة » وانفست اسنانهما في الارض بعد ان تغذت من ظاهر رقبته ، ثم مزق جلده فوق ضلوعه على شكل صليب ، وترك الخطاف الحديدي الذي استخدم في « رسم الصليب » على جلده ، مغروسا في ضلوعه معلقا بها . وكان لدى المحقق فابيان - من سكوتلاند يارد الذي ارسله الى لووار كوينتون - كان لديه كل الاسباب التي دفعته الى تقرير انها قضية لن تستغرق اكثر من الزمن اللازم لفتح التحقيق ثم اختتامه لكي ينتهي منها ، لانه اذا كان لوالتون اعداء فلا بد ان كل سكان المنطقة سيعرفونهم . واخذ الفريق الذي عمل في القضية مع فابيان اقوال اربعة آلاف شخص ، وارسلوا تسعة وعشرين نموذجا من اللابس والشعر والدم لكي يتم تحليلها في معامل الشرطة ، ولكن دون نتيجة . كان الناس متوترين يرفضون المعاونة . وقد اضطر المحققون الى الانتظار يوما كاملا لكي يستجوبوا رجلا شوهد وهو يطل برأسه من باب منزله ويقول : « لقد انقضى الآن شهر كامل على موته ودفنه - فما الذي يزعجكم ؟ » ثم اغلق بابة بقوة .

ويبدو الاستنتاج المنطقي من هذه الصورة واضحة بشكل معقول : فلا بد ان الكثيرين من سكان المنطقة كانوا يعرفون القاتل ، ولكنهم لا يبوحون باسمه . وتقع لووار كوينتون في وسط منطقة ريفية اشتهرت بالسحر ومن اقام فيها من السحرة . فعلى بعد ميلين من البلدة ، وفوق هضبة صخرية مرتفعة ، تنتصب « صخور روللي رايت » ، وهي نصب قديم من المحتمل ان يكون في مثل قدم آثار « ستون هينج » العتيقة ، ولا يشك في انها كانت في ازمة غابرة تستخدم في اقامة احتفالات السحرة في ايام السبت الشهيرة . والمنطقة ريفية ذات تلال تكسوها الغابات ، وتشققها طرق متعرجة عليها اكواخ قديمة شيدت عند مفارق الطرق ، واسماء شريرة المعاني : كوع الشيطان ، الجزر (او المذبح) الاعلى والاسفل ، وكان لتلاميذ نفسه ، حيث وقعت الجريمة على سفحه ، سمعة شريرة تدور حول ممارسة السحر .

ويروي دونالد ماك كورماك الذي وضع كتابا عن هذه القضية ، يروي محادثة دارت في حانة القرية ، قرر فيها احد الاهالي انه يعرف ساحريين (او ساحرتين) ما زالا يعيشان في المنطقة ، وقال آخر انه تزوج من ساحرة ثم هجرته بعد الزواج . وقد شاعت شهرة الرجل الميت نفسه بسبب « حاسته السادسة » . فقد حدث له في صباه ان رأى ثلاث مرات في ثلاث ليال كلبا اسود

يجري فوق قمة « تل ميون » وفي الليلة الرابعة أصبح الكلب امرأة بلا رأس ، وفي نفس الليلة ماتت شقيقته . وكان يربي ضفادع كبيرة ، وكان الكثير منها فسي حديقته ، حينما مات . وقد رأى فابيان بنفسه كلبا اسود يجري هابطا تل ميون ، يتبعه عن قرب عامل من عمال الزراعة ، ولكن حينما سأله فابيان عن الكلب الذي كان قد جرى واختفى ، شحب وجه الرجل وقال متسائلا في استنكار : « اي كلب ؟ » . وفي مساء ذلك اليوم صدمت سيارة الشرطة كلبا اسود وقتلته . وفي اليوم الثالث ماتت بقرة صغيرة لسقوطها في حفرة عميقة ، وكانت هي البقرة الثانية التي تموت بنفس الطريقة منذ وصول فابيان .

وما يزال لفر مقتل تشارلز والتون دون حل ، ولكن من الممكن القيام بنوع مجرد من التخمين حول ما حدث بالفعل . لقد اعتقد الناصي ان والتون ساحر ، وضاعت عاداته التي يمارسها في وحدته من قوة هذا الانطباع . كان يربي ذكران الضفادع الكبيرة - وهذه هواية غريبة - وقد روى اخذ السكان لدونا لدمالك كورميك انه كان يربط هذه الضفادع احيانا بمحراث صغير كالدمية ويتركها لكي « تسرح » به في الحقول . وقد زعمت ايزوبيل جوواي انها استخدمت نفس الطريقة لكي تؤدي الى افقار المحاصيل . ومن المؤكد - حسب المعلومات الموجودة - ان الفلاحين حصدوا محصولا فقيرا للغاية في العام السابق ، وقد اشتهى الكثيرون منهم لغايبان من هذا . كان العام هو ١٩٤٥ ، آخر سنوات الحرب ، وطوال السنوات الخمس السابقة كان جنوبي وورويك شاير معزولا عزلة غير عادية - فلم يأت أي زائر غريب الى ستراتفورد او ايفشام ، ولم تكن الحانات تقدم الا بيرة من نوع رديء ، وحتى هذا النوع لم يكن متوافرا . وفي عام ١٩٤٤ كان المحصول رديئا ، ولكن بدأ العام التالي ١٩٤٥ دافئا ورطبيا ، ولكن « شخصا ما » اعتقد ان تشارلز والتون وضفادعه سيؤدون الى محصول رديء آخر . ولجنوبي وورويك شاير تقاليده الخاصة في طرق التعامل مع السحرة . فهناك اعتقاد يقول انه اذا امكن اسالة الدم من جسم الساحر - او اذا امكن جعله ينزف - فان قوى الساحر او الساحرة سوف تتلاشى ويتم تحييدها . ففي عام ١٦٤٣ رأى جنود البرلمان (١) امرأة عجوزا تسير فوق النهر عند نيوبيري ، فاطلقوا عليها الرصاص ، بعد ان جرحوا جبهتها لكي يجردوها من قوتها . (ويقول روبينز انها كانت تسير على عصوين طويلتين كالعكازات) . وفي عام ١٨٧٥ - قبل قتل تشارلز والتون بسبعين عاما - اقتنع احد بلهاء القرى ويدعى جون هاي وود بان امرأة عجوزا تدعى آن تيرنر

(١) جنود البرلمان - المقصود هنا هم جنود جيش كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) الذين هزموا تحت قيادته ، وباسم البرلمان ، جيش الملك تشارلز الثاني ، الذي اعدم فيما بعد عام ١٦٤٥ ، اثر انتهاء الحرب الاهلية الانجليزية الكبرى بين البرلمانيين والملك . (ه . م) .

(او تينانت) قد سحرته ، فثبتها في الارض بشوكة القش ، ثم رسم على جلدها جرحا غائرا على شكل صليب فوق حلقها وصدرها مستخدما خطافا حديديا مما تحمل به حزم القش المضغوط الضخمة ، وقد حدث هذا على بعد ميلين فقط من « لوووار كوينتون » - في قرية لونج كومبتون .

ربما يكون موضع شك ان والتون كان ساحرا ، ولكن من المؤكد تقريبا ان السكان المحليين قد اعتقدوا انه ساحر . ولكي نفهم هذه الجريمة ، وكيف يفترض ان اناسا طبييين استطاعوا ان يندفعوا اليها ، فعلى المرء ان يبذل مجهودا بخياله ، وان يحمل عقله على الرجوع الى الورا ، الى شهر يناير وفبراير الدافئتين من عام ١٩٤٥ ، في إحدى القرى البعيدة عن الطرق الرئيسية والتي تعاني من آثار ويلات خمس سنوات من الحرب . لقد قتل والتون في الرابع عشر من شهر فبراير ، الذي لا يوافق فحسب عيد القديس فالنتين كما يوافق « اربعاء الرماد » او « الاربعاء الحزين » وانما يوافق ايضا اليوم الذي كان الدرويدون القدماء يقدمون فيه قرايبتهم . (ويوافق التقويم الدرويدي يوم ١ فبراير ، ولكن هذا التقويم متأخر اسبوعين عن تقويمنا) وكانت هذه القرايين تقدم بهدف الحصول على محصولات وفيرة طيبة . فمن المحتمل ان يكون قتل والتون قد خطط له قبل وقوعه بشهور ، وربما تم ذلك في الخريف السابق حيث حدد التاريخ . ويبدو انه من المؤكد الى حد كبير ان الاهالي كان يعتقدون ان « قرينه » كان كلبا اسود ، لانه حدث ان عثر على كلب اسود مشنوق فوق تل ميون بعد جريمة القتل بعدة ايام . فاذا كان هناك من شعر بالندم لقتل عامل زراعي عجوز غير مؤذ ، فمن المحتمل ان يكون هذا الندم قد اختفى مع تقدم الشهور من ذلك العام ، وكان المحصول « رديئا » بالفعل ، رغم الطقس الجيد . ويورد ماك كورميل عبارة من حديث احد الريفيين يقول : « كان المفروض ان تكون المحاصيل هي افضل ما عرفناه مع بداية الربيع . ليس هناك سبب للمحاصيل الرديئة . لا بد ان يكون هناك خطأ حينما تأتي المحاصيل مناقضة للطبيعة » .

وليست قضية قرية لوووار كوينتون مثيرة للاهتمام بشكل خاص لذاتها ، ولكنها تساعدنا على ان نفهم شيئا عن السحر والاعمال السحرية في اوربا . ذلك ان « جنون السحر الاوروبي » - مثلما يصفه البروفيسور تريفور روبير - هي ظاهرة تثير الدهشة لم تجد تفسيرا لها مقنعا حتى الآن . ان العصور الوسطى لم تؤمن بالسحرة ، وقد قرر قانون الكنيسة الرسمي ، الذي عبر عنه القانون الاسقفي « Canon Episcopi » قرر ان كل من يؤمن بالسحرة : « فلا شك انه خائن ووثنى » .

وبدا تغيير هذا الموقف في القرن الحادي عشر ، مع ظهور فرقة او جماعة

قوية تدعى « الكاثارس » او « المتطهرون Cathars » (١) ومن ناحية العقيدة، كان المتطهرون من سلالة الفنوصيين (الادريين) والمانوئين الذين درسناهم في فصل سابق . لقد اعتقدوا ان رب العهد القديم كان شيطانا ، وان العالم كان من خلق الشيطان ، هو « وحش الفوضى » . وقد قبلوا فكرة انه من الممكن الوصول الى الخلاص عن طريق يسوع ، ولكن من الواضح انهم اصرروا على انكار ان يسوع قد صلب على الصليب ، وقالوا ان شكله الارضي كان شبحا ، لانه كيف يمكن لجوهر الخير ان يتجسد في اي مادة ، التي هي شر بطبيعتها ؟ ومثلما آمن المانويون ، وآمنت بعدهم الجماعة الروسية التي اطلقت على نفسها اسم « سكوبتزي » ، كذلك آمن المتطهرون بالامتناع عن الجنس ، على اساس ان كل ما يساعد على توسيع مجال الوجود الجسدي هو سحر .

والشيء المدهش هو ان النزعة الكاثارثية (او التطهيرية) قد حازت ذلك القبول الهائل على نطاق واسع . فبعد ان نشأوا - فيما يبدو - في البلقان في القرن العاشر - انتشروا ببطء في اوروبا كلها . واصبحت جماعة من المتطهرين ، في مدينة « البي » جنوبي فرنسا ، باسم « الابلانيين » . وفي اشكال وتحت اسماء مختلفة ، انتشرت هذه النزعة الفنوصية الجديدة ، شرقا من القسطنطينية (حيث عرفوا باسم البوجوموليين) الى الغرب وشمال فرنسا حيث نصب اول اسقف متطهر (كاثاري) في عام ١١٤٩ . وحينما اقتربت نهاية القرن الثاني عشر كان هناك احد عشر اسقفا من المتطهرين ، ستة منهم في ايطاليا نفسها .

ولا شك ان ما شاع في القرون الوسطى من يؤس واوبئة كلن عاملا مساعدا على تدعيم هذا النجاح . فالبلاد الثرية ترضى بدين سهل المآخذ ، ولكن حيث يسود الفقر ، يتطلب الامر شيئا اكثر جمودا وعتمة . وهذا هو السبب الذي جعل النزعة البرسييتاريانية تلقى ما نعرفه من نجاح في اسكتلندا ، والذي جعل النزعة الميثودية (٢) تزدهر في قرى كورندول الجذباء الموحلة . وهناك ايضا شيء كامن في التعاليم المانوية يجعلها تتجاوب مع النزعة الرومانتيكية

(١) من الكلمة الاغريقية القديمة Katharisis بمعنى يطهر او ينقى من النجس . (هـ-٤٠).

(٢) الكنيسة والنزعة الميثودية : مجموعة التعاليم والافكار غير المترابطة حقا ، وذات الاصل البروتستانتي ، التي قدمها الواعظان والمصلحان الدينيان الاخوان جون وشارلز ويزلي في اوساط طلبة جامعة اوكسفورد عام ١٧٩٢ ، والتي اطلق الطلبة انفسهم عليها صفة « ميثوديست » على اساس ان « المنهجية » - من method - منهج ، كانت هي الصفة الواحدة التي تربط بين مختلف هذه التعاليم . وقد اصطبغت الحركة بعد ذلك بالصيغة الانجيلية ، ثم انفصلت عن كنيسة إنجلترا ، ثم انتشرت ايضا في الولايات المتحدة . (هـ . م .)

العميقة في الطبيعة البشرية ، هذا الشيء هو الاحساس بأن عالمنا هذا هو الجحيم وأن سعادة الإنسان تكمن في « عالم آخر » .

وحينما أصبح كونت تولوز رايموند السادس ، متطهرا ، قرر البابا ان قد آن اوان القيام بعمل ما حول هذا الاتجاه ، فاطلق الدعوة لشن حملة صليبية . وكانت مثل هذه الحملة اشبه برياضة صيد الخنازير البرية بالنسبة لغالبية فرسان وبارونات فرنسا ، وكان المفروض الا تستغرق اكثر من اربعين يوما (الزمن التقليدي المحدد لاي حملة صليبية) وكان من المؤكد انها ستضمن الكثير من النهب واغتصاب النساء . وانطلق جيش كثيف يكتسح جنوبي فرنسا ، وايدت من الوجود مدن بأكملها ، المجدفة والمؤمنة على حد سواء . وكان سيمون دي مونتفورت (والد دي مونتفورت مؤسس البرلمان الانجليزي) هو اكثر هؤلاء الغزاة النهابين قسوة ، وانتهى به الامر الى الاستقرار حول تولوز ، مشعلا حربا دموية . وولدت محكمة التفتيش السيئة السمعة في تولوز عام ١٢٢٩ ، وكان اقوى عملائها عزيمة هم الرهبان الدومينكان ، الذين راحوا يجوبون البلاد لكي يبلغوا عن كل ما يسمعون من تجديف اينما وجدوه . ولم يحدث ابدا ان سردت القصة الكاملة لكل ما احتوته تلك السنوات من صنوف الرعب ، وربما كان هذا صوابا الى حد كبير . كانت الكنيسة عازمة على القضاء على هذه الهرطقة بأي ثمن . ومن الممكن ان يتبنى الكاتب الشكاك الرأي القائل بان كاردينالات روما الذين كانوا يتخمون بطونهم بشواء الخنازير البرية ونبيل ايطاليا الجيد قد شعروا بما يهددهم في تعاليم الكاثاريين المتطهرين الصريحة في مطالبتها بالتنسك والزهد . وعلى اي حال ، فقد تمت تصفية الكاثاريين والالبانيين تصفية كاملة ، وانسحب القليلون الذين نجوا من المذابح الى القرى النائية ، مثلما فعل « الفالدينيون » في ظل ظروف اباداة مشابهة بعد قرنين كامليين . وجاء دومينيك (سانت دومينيك فيما بعد) مؤسس جماعة « الاخوة الوعاظ » والذي اقام مركزه الرئيسي في تولوز عام ١٢١٥ ، فندب ان يكرس نفسه لتدمير الكاثاريين : « بواسطة الاقتناع الموجه الى القلب والعقل » . ولكن شرطته السرية - لان هذا في الحقيقة هو ما كانه الدومينيكيون - سرعان ما عضوا على كلمة « التدمير » بالنواجذ ، فراوا في كل ظل عابر عابدا للشيطان . وكان هؤلاء « الوعاظ » الدومينيكيون هم الذين اكتشفوا ان الشيطان قد استبدل تكتيكاته ، فبعد ان فقد جيشه من الكاثاريين ، استطاع ان يجند جيشا جديدا سرى من النسوة العجائز الشريرات اللواتي ندرن انفسهن لخدمته وللعمل السري من اجل القضاء على سلطة الكنيسة . ومن المحتمل الا يكونوا على خطأ بشكل كامل . فمن المؤكد ان القسوة المتطرفة والاضطهاد لا بد ان تولد تحركا « تحت الارض » يكرس نفسه للقضاء على من يمارسون الاضطهاد وتدميرهم بوسائل سرية ، وهكذا

ينبغي ان نفكر في « اوائل » السحرة ، بوصفهم حركة مقاومة كاثاريسية ، او صورة تشبه « الجيش الجمهوري الايرلندي » ولكنها تجمع هراطقة لا فدائيين . وليس هذا في الحقيقة قولاً عابثاً او سخيلاً مثلما يبدو لاول وهلة . من الحقيقي انه كان هناك سحرة على الدوام - في اعداد صغيرة . ولكنهم كانوا يمارسون عملهم « بطريقة شخصية » وفي حدود خاصة للغاية . لقد اعتقد الكاثاريون ان « الرب » الذي خلق هذا العالم ، هو شيطان استطاع بشكل ما ان يقتصب قوته من « الاله » الاسمى ، الذي هو اكثر سموا من ان تشغله تفاهات لا شأن لها مثل عملية الخلق . وليس هذا بالاعتقاد المريح . فلمن يمكن ان تصلي حين تطبق عليك التعاسة ؟ انك لن تصلي لـ « الكائن الاسمى » ، فلماذا ينبغي عليه ان يهتم بما قد يجري لواحد من « الايونات » الساقطة منه ؟ ولا شك ان هذا يشمل « الايون » الشرير نفسه ، وحش الفوضى ، « اللااحد » القديم . ربما رأت امرأة من الكاثاريين زوجها واطفالها يذبحون امام عينيها ، فتوجهت بصلاتها « بالفعل » الى « وحش الفوضى » طلباً للانتقام . ولكن بعد قرنين من الزمان ، لم يكن للكاثاريين وجود بعد ، وكان الرهبان الدومينيكيون يتلمظون بالرقبة في القضاء على السحرة ، الذين اطلقوا عليهم اسم « الفالدينيس » ، الذين كانوا يجتمعون معاً في ايام السبت او في « الفالديزيا » - (وكان يطلق على الفالدينين ايضاً اسم « الفوديين » نسبة الى اسم قرية في مملكة بيدمونت في جبال الالب الغربية ، حيث اقاموا اول تجمع لهم) . وفي جبال البرانس (البيرينيس) كان يطلق على السحرة اسم « جازاري » ، ومن الواضح انها كلمة مستمدة من « كاثاري » .

واستمر الدومينيكيون في مطالبتهم الكنيسة بان تسمح رسمياً بشن الحملة الصليبية على السحرة ، ولكن الكنيسة اجمعت عن ذلك طوال قرن آخر ، بناء على انكار « القانون الاسقفي » لوجود السحرة اصلاً . ولسوء الحظ اصبح شخص مختل بالشعور ، مؤمن بالخرافات ، هو البابا جون الثاني والعشرون . وكان مقتنعاً بان اعداءه يتآمرون عليه لقتله بالسحر ، وهكذا كان هو الذي وافق على طلب الدومينيكان بان تعتبر « الشعوذة » نفسها جريمة ، بعيداً تماماً عن مسألة التجديف او الهرطقة . وكان هذا في عام ١٣٢٦ ، في Super illius specula ومن المهم ان نذكر ان نفس هذا البابا ، هو الذي اعلن قانون ادانة الرهبان الفرانسيסקان بالهرطقة بسبب قولهم بفقر المسيح ، فقد كان كل ما له علاقة بالفقر موضع الشك .

ورغم ذلك ، فان وباء السحر بدأ ببطء . وقد بدأ في جبال البرانس وفي جبال الالب في المنطقتين اللتين عاشت فيهما جماعتا الالبانيين والفالدينين . وظهر النموذج العام منذ مرحلة باكراً للغاية . وفي اول محاكمة « زمنية » بتهمة السحر في

باريس ، في عام ١٣٩٠ ، اتهمت امرأة تدعى جيهان دي بريج بتهمة الشعوذة ، وقام باتهامها رجل كانت قد عالجتة وانقذته من المرض وهو على حافة الموت ! وقالت جيهان انها ليست ساحرة ، ولكنها ببساطة استخدمت الرقى والتعاويذ التي لتقنتها اباهما امرأة اخرى ، وكانت هذه التعاويذ تتضمن عبارة : « باسم الاب ، والابن ، والروح القدس - » الامر الذي يستدل منسبه ان اسس « التعويذ » و « الرقى » لم تتغير طوال ستمائة عام . وتحت وطأة التهديد بالتعذيب ، وبعد ان سجنحت في زنزانة سفلية باردة وقذرة طوال شتاء ١٣٩٠ - ١٣٩١ ، « اعترفت » جيهان اخيرا بان لها قرينا من الابالسة يدعى هوسيبوت . وذكر « ريولي » وهو الرجل الذي كانت قد عالجتة ، امام المحكمة ان جيهان ارجعت مرضه الى ان عشيقته كانت قد سحرته ، وكان له من العشيقه طفلان . وتحت تهديد التعذيب مرة اخرى ، اعترفت جيهان انها هي التي كانت قد سحرت ريولي بطلب من زوجته « ماسيت » التي كانت تريد ان تخلو لملاقاتها العاطفية الخاصة مع الخوري (القسيس) في الكنيسة المحلية . وحينذاك القي القبض على ماسيت ايضا ، وتم تعذيبها على « المشد » ، فاعترفت . ولا نجد ما يوضح لنا السبب الذي جعل جيهان تسحر ريولي ثم تشفيه . ولكن تم اعدام المراتين ، جيهان وماسيت . ولا شك انه كانت هناك حالات كثيرة ادى فيها « السحر الابيض » - الذي هو التطبيق الطبيعى للقدرات الفيبية للانسان - الى التعذيب والاعدام . ففي عام ١٦١٨ ، قال صلوك في مدينة ايرفينج انه يرى سفينة تفرق بالقرب من بادستو في كودنول . ولما كان في اسكتلندا وقت ان صرح برؤياه ، وجاءت الاخبار بعد ذلك بفرق السفينة ، القي القبض عليه بتهمة « الحاسة السادسة » . والقي القبض ايضا على امرأة كانت على ظهر السفينة وكانت قد اطلقت لعنة ما ضد شخص آخر في نفس السفينة ، واتهمت بانها ساحرة . وتحت التعذيب اعترفت على امراتين اخريين وعلى ابنة احدهما وكانت في الثامنة من عمرها . واعترفت الطفلة بانها رأت شيطانا في صورة كلب كان يشع الضوء بينما كانت امها والمرأة المتهمة (مارجريت بارسلي) تديبان تماثيل شمعية صغيرة امام النار . وحكم على مارجريت بارسلي بالخنق ثم احرق جثتها ، رغم انها عادت امام المحكمة فسحبت الاعتراف الذي ادلت به تحت التعذيب . وماتت احدي المراتين اللتين اتهمتهما في اعترافهما بعد ان سقطت من فوق سقف الكنيسة اثناء محاولتها الهرب من برج الجرس . اما الاخرى فقد اعترفت ايضا تحت التعذيب ثم عادت فسحبت اعترافها امام المحكمة ، ثم رفضت ان تمنح غفرانها للجلاد الذي اشعل فيها النار في النهاية . اما جون ستيوارت فقد استطاع ان يشنق نفسه مستخدما رباط قبعته اثناء انتظاره تنفيذ الاعدام في السجن .

وبعد نشر كتاب : « مطرقة الساحرات » - الذي اشرنا اليه من قبل في بداية

الفصل الخامس من القسم الثاني من هذا الكتاب - في عام ١٤٨٦ ، لعب فن الطباعة الجديد دوره البهام في اتساع مجال جنون السحر . فقد كان باستطاعة اي كاتب ذي خيال نشيط ان يركن الى تحقيق درجة كبيرة من الشهرة ببعض الوصف للابالسة الذين تستحضرهم الساحرات . ويشير البروفيسور زيفور روبير الى ان غالبية هؤلاء الباحثين في « علم الشياطين » الذين كانوا سببا في كل هذه العذابات الكثيرة ، كانوا شخصيات عاجزة عن الاضرار باحد متفرغين للدراسة والبحث . فقد كان « ريمي » شاعرا يكتب قصائده باللاتينية ومؤرخا ، رغم انه حينما مات عام ١٦١٦ كان قد ارسل الى « عامود المحرقة » ما يقرب من ثلاثة آلاف ضحية ، وكان كسل من بوجسويت و « دي لانكر » باحثين متواضعين ومتخصصين في اللغة اللاتينية .

وقد كان « سعار السحر » مربعا وواسع الانتشار الى درجة يعجز معنا الخيال الانساني عن الاحاطة بها . اننا نجد من الصعب ان نتصور اباداة هتلر لستة ملايين من اليهود في مدة تقل عن عشر سنوات ، كذلك فمن المستحيل تماما ان نتخيل حملة من التعذيب والقتل تدوم طوال اربعة قرون . من الحق ان عمليات اعدام السحرة كانت تدور في مجال اضيق من مجال الجرائم النازية ، ولكن لا بد ان نتذكر ايضا ان كل ساحر كان يتم تعذيبه بمفرده . ويقول روسيل هوب روبينز بشعور من المهانة الاخلاقية : « ان سجل السحر مربع مليء بالقسوة الوحشية ، لقد تمكن الانحطاط من خنق كل رقة او طيبة ، وتقنعت القسوة الانفعالات بقناع الدين ، واجبر عقل الانسان الذكي على ان يتسامح مع اعمال وحشية لا بد ان مخلوقات « ياهو » التي تخيلها سويفت (١) كانت ستخجل من ارتكابها . ولم تشهد الانسانية ابدا مثل هذا الخطا يستمر طوال مثل هذه المدة . » ولكننا بعد ان نقرأ اثنتي عشرة صحيفة او نحوها من كتابه « دائرة معارف السحر » نشعر بأن تلك الكلمات تخطيء بميلها نحو الاعتدال .

ولا يمكن ان يكون هناك دافع وحيد لبشاعات ترتكب على مثل هذا النطاق . فقد كان الدافع سياسيا في جانب من جوانبه ، فقد خضعت البلاد اولا لسيطرة بروتستانتية ثم تلتها السيطرة الكاثوليكية ، وحينما كانت الكنيسة تريد معاقبة جماعة من السكان البروتستانت فانها كانت ترسل قضاة التفتيش من الرهبان الدومينيكان . وادت عودة السيطرة الكاثوليكية الى مذابح السحرة في مناطق

(١) مخلوقات « ياهو » : في رحلات جاليليو لسويفت ، يذهب البخار السيء الحظ الى بلاد « ياهو » الذين يتميزون بالقسوة والغلظة والخسة والوضاعة رغم اشكلهم الانسانية ، وتحكمهم خيول ذات قنول مستنيرة وحكمة سديدة . فاصبحوا مضرب المثل ، في الادب الغربي للوضاعة والحقارة رغم الجمال . (ه . م)

الراين لاند والفلاندرز وبولندا والمجر . فقد كانت هذه هي الطريقة التي اتبعتها الكنيسة في الانتقام من البروتستانت . بل من نفس الطريقة كانت قابلة لان يستخدمها امير او بارون كوسيلة للانتقام من الرعايا المتمردين - طريقة مأمونة ، لن تؤدي الى مزيد من التمرد .

ولكن الدوافع النفسية تتمتع بنفس القدر من الاهمية . فقد جاءت بداية « سعار السحر » في نفس الوقت الذي انتشر فيه الطاعون (الموت الاسود) وانفجرت فيه حرب المائة عام . وحينما يضغط على الناس القهر والبؤس ، يصبح العنف ضرورة سيكولوجية . والعنف دائما مرتبط بالجنس ، وخاصة فسي المجتمعات القائمة على التزمت الاخلاقي والكبت . لقد اجبرت انساحرات على الاعتراف بالاتصال الجنسي بالابالسة ، وفحصت اجسادهن بدقة بحثا عن علامة الساحر (نقطة من الجسم لا تشعر بالآلم) . ان فرانز ويرمان ، الذي عينه رئيس اساقفة وامير كولونيا « صياد السحرة » قد استخدم منصبه في اعواء نساء لم يكن يستطيع ارغامهن على الخضوع له بغير هذه الطريقة . وكانت هناك سيدة تدعى « بيللر » رفضت مرادياته لها وكانت زوجة لاحد الموظفين الملحقين في البلاط . وتصرف بويرمان بسرعة ، فالتقي القبض عليها و « خلق » كل ما على جسدها ورأسها من شعر ، وسمح لمساعد الجلاد السدي قام بتعذيبها باغتصابها وهو يخلق شعرها . اما بويرمان ، الذي كان واقفا يراقب العملية ، فدرس في فمها خرقة قدرة لكي يكتف صرخاتها . ثم احرق حية في كوخ ممثليء بالقش الجاف . وتم كل هذا في خلال ساعات قليلة . كان بويرمان يحتل منصبا يمكنه معه اثبات افعال لا توصف الا بانها تمثيل واقعي لخيالات جنسية سادية . فالقصة السابقة تبدو مثل حادثة يرويه الماركيزي ساد في احدي رواياته .

ويكل هذا الحديث عن الابالسة ، وايام سبت الساحرات ، والتعذيب ، ورائحة اللحم البشري المحترق ، أصبح انسحر هاجسا مسيطرا مراوفا قاتم اللون . ولا بد ان ما يساويه ويمثله في ايامنا هذه ، هو الجريمة الجنسية ، التي تتبعها على الدوام : اولا : جرائم تقلد الجريمة الاصلية ، وثانيا : اعترافات يدلي بها بلهاء او معتوهون . فقد ارتكبت ، بعد جريمة قتل اليزابيت شورت (الدالبا السوداء) في هوليوود عام ١٩٤٩ ، ست جرائم قتل اخرى مشابهة في منطقة لوس انجيلوس ، وقدمت الى الشرطة اعترافات تسعة وعشرين شخصا يقرون ارتكابهم للجريمة الاولى . ذلك ان الطريقة المربعة التي ارتكبت بها الجريمة الاولى - فقد علقت الضحية من قدميها ، وعذبت ، ثم شطر جسدها بالطول الى شطرين - جعلتها موضوعا رئيسيا في الصفحات الاولى طوال اسابيع . ولا بد ان الرجال الذين يعيشون في عزلة كاملة ، ويتأملون الصحف ولساعات طويلة في مساكنهم المزدهجة ، قد قرروا في النهاية ان القيام بمثل هذا انعمل

قد يستحق المخاطرة . وينفس هذا الشكل ، فلا بد ان نسوة يعشن في وحدة ويمتلكن الضجر مثل ايزوبيل جووادي ، ويعشن حياة ضيقة خالية من الراحة، قد شعرن بأن الكتيبات الرهيبة عن الاتصال الجنسي بالابالسة هي اشياء مرعبة مثيرة للخيال ، ولما كان الاعتقاد بان الهواء مزدحم بالابالسة الذين لا يدركهم البصر شائعا ، فان مثل هؤلاء النساء لم يمر عليهن وقت طويل قبل ان يقتنعن بان الشيطان قد عرف رغباتهن الخفية . ولا شك ان حلما جنسيا يمكن ان يؤكد هذا الاقتناع .

ولكن لماذا حدث كل هذا بعد حركة الاصلاح ؟ (١) ربما كانت العصور الوسطى هي عصور الايمان . ولكنها ايضا كانت هي عصور الحروب والفقر والوبئة والاعتقاد في الابالسة . كانت كل الشروط متوافرة متحققة ، باستثناء شرط واحد . الشرط الانساني الفريد ، الذي هو : حرية الخيال . لم يكن هذا الشرط قد تطور بعد في العصور الوسطى . كان الانسان يزرع تحت ثقل اعبائه اليومية ، ولم يكن يستطيع ان يبصر شيئا بعيدا عنها . ولم يكن ما حدث بعد عام ١٤٥٠ مجرد تغير اجتماعي وانما كان تغيرا « نظوريا » ايضا ، واحدة من تلك الموجبات الدورية التي تبدو كما لو كانت تخترق صفوف البشر كما تخترق الريح صفوف اعمود القمح في الحقل . ان : « جيل دي ري » وهو شخصية غامضة متعددة الجوانب ، يشير بشخصيته الى وصول هذه الموجة في النصف الاول من القرن . ان روحه تريد ان تنسف سجنها ، ان ترتكب جرائم لم يجرؤ انسان ابدا على ارتكابها ، وان تقيم اتصالا مع الشيطان نفسه ، وان يصبح اكبر امراء العالم المسيحي قوة و ثراء . وكان الفلاحون الذين سرق منهم اطفالهم صبورين ، كادحين ، صامتين كالبقر الذي يغفر لمعذبه في النهاية . ولكن حدث في القرن التالي ، ان القلق الذي دفع « جيل » الى النزعة الشيطانية كان قد وصل الى الفلاحين ، وزادت شحنة القلق بسبب الضجر القاتل . ان الدكتور (٥) مارجريت موراي ، تسال

(١) حركة الاصلاح : هي تاريخ الكنيسة الغربية ، الحركة التي ادت الى مختلف الانشقاقات البروتستانتية من كنيسة روما الكاثوليكية في القرن السادس عشر . كان قادتها : مارتن لوتر في ألمانيا ، وجون كالفين في فرنسا ، واولريخ زفينجلي في سويسرا ، وجون نوكس في اسكتلندا . كانت الحركة ، بشكل عام ، انعكاسا للتطورات الاجتماعية والسياسية والكشوف العلمية والفكرية العظمى والتأثر بافكار الفلاسفة المسلمين والهنود وبانتصارات الاتراك وتفكك الامبراطورية المقدسة مع نمو المراكز القومية الكبرى ، وفشل الكنيسة في توحيد العالم المسيحي بالشعاعات الصليبية . الخ في القرن الـ ١٦ الهائل . ورغم الطابع الديني لبداية الحركة فانها سرعان ما أصبحت حركة سياسية واجتماعية هائلة ، افرقت أوروبا طوال قرنين في سلسلة من الحروب والتقلصات الاجتماعية والقومية العنيفة . (هـ . م) .

عن السبب الذي يجعل كل الروايات التي تصف « أيام سبت الساحرات » متشابهة الى هذه الدرجة الواضحة ، سواء جاءت هذه الروايات من فرنسا في القرن الرابع عشر ، او من النمسا في القرن التالي ، او من اسبانيا في القرن السادس عشر او من هولندا (الاراضي الواطئة) في القرن الثامن عشر ؟ لماذا يوصف الشيطان دائما باعتباره رجلا ضخما يشبه التيس (او يشبه ذكر الضفدع الضخم في روايات اقل شيوعا) يتحدث بصوت خشن « مثل شخص يتحدث من خلال ثقب في برميل » ويجعل الساحرات يقبلن مؤخرته القدرة الى درجة تبعث على الغثيان ، وتشيع من احضانه برودة كالجليد ؟ لا بد ان يكون في الامر شيء اكثر من مجرد الخيال ، والا لاختلفت بعض القصص ، فتجعل الشيطان دافئا ، او طيب الرائحة ، او جميل الصوت . ان « مونتاجو سامرز » يتخذ من هذا التطابق الكامل بين الروايات دليلا على حقيقة وجود الشيطان ، ولكن الدكتور (ة) موراي لا تذهب بعيدا الى هذا الحد ، ولكنها تقول بأن « أيام سبت الساحرات » كانت بالفعل حقيقة واقعة ، وان الشيطان كان يمثل فيها برجل يرتدي قناعا وعباءة ضخمة ، وكان يستخدم شيئا كالعضو التناسلي الصناعي ينثر منه لبنا باردا . ومن المؤكد انها لا تشك في ان احتفالات أيام السبت من هذا النوع قد حدثت ، كذلك لم يشك في حدوثها اكثر المؤرخين استعدادا للشك . ويبدو ان ما حدث في ذلك الحين هو ان « سعار السحر » قد ولد نوعا من الهستيريا ادى الى عكس ما كان هذا السعار يريد تدميره بالتحديد . وهذه خاصية ينفرد بها الخيال الانساني عرفناها الان فحسب عن طريق علم النفس : وهو انه حينما يحرم هذا الخيال من التعبير الخلاق للشيط ، فانه يبحث عن اي عامل اثاره خارجي قوي مهما كان مزعبا او سلبيا . ان العقل الانساني يسمى الى الحركة ، اي حركة . يصف سارتر في واحد من كتبه الاولى ، حالة فتاة في مستقبل الشباب ، تلقت تعليمها في احد الاديرة ، ثم تزوجت من رجل مشغول بعمله . ولما كانت تترك طول اليوم في شقتها ، فقد بدأت تعاني من ضغط داخلي سخي ، يدفعها اني ان تذهب الى النافذة لكي تستدعي الرجال الى منزلها كالبغي . وقد كتب جوته قصة كلاسيكية بعنوان : « وكيل النيابة الامين » حيث تقع زوجة فاضلة ، تترك لنفسها طوال الوقت ، فريسة لها جس مسيطر يوحى لها بشكل جنوني بضرورة ان ترتكب خيانة زوجية — لا لشيء بالتحديد الا لان الفكرة في حد ذاتها ترعبها . ان المبدأ او العامل المؤثر هنا هو نفس العامل المؤثر في التنويم المغناطيسي . فالضجر او الفراغ يسمحان للعقل بان يمتليء بطاقة غير مستخدمة ، فيتولد بذلك احساس مؤلم كما لو كانت المثانة قد امتلأت دون قدرة على تفريغها . ويتم توليد حالة من الوعي المسرف والمفرط بالذات . ويؤدي هذا الى النتيجة المعادة بمنع الفرائز من القيام بعملها الهادي الذي لا يعترضه عائق ، وتتجمد الاحاسيس . وتصبح الرغبة في احساس قوية — وهي اكثر الاحتياجات السيكلوجية الانسانية

اساسية - تصبح احتياجا جارحا مؤلما . ان الانسان يفضل الاحساس بالاثم والبؤس على الضجر والبلادة . ان ما يحتاج اليه العقل حقا هو الاحساس بالاتساع والرحابة العريضة ، بازمنة اخرى واماكن مختلفة ،اي بـ « المعنى » . اما ما كان قضاة التفتيش يفعلونه فهو خلق كتلة من الاساطير والرموز يتسم « شحنها من اعلى » بالمعنى، فتكتسب بالتالي قدرة على الجذب الغلاب المسيطر على النسوة الضجرات ذوات الخيال الخصب . اما الشيطان بمعناه الحرفي فيجد مجاله مفتوحا في الايدي المتبلة والعقول العاطلة .

انني اميل الى النظر الى هذا باعتباره اكثر عناصر « سعار السحر » اهمية، بل انه اكثر اهمية من مسائل الكنيسة السياسية ، بل واكثر اهمية من عمليات معاقبة « الوسطاء الطبيعيين » واصحاب القدرات غير الطبيعية الذين لا ضرر منهم . فاذا كان هذا هو الامر، فلا بد ايضا من ان نعترف بان محققي التفتيش وقضاة لم يكونوا جديرين باللوم كما نعتقد الآن . كانت معلوماتهم قليلة ، او انهم لم يكونوا يعرفون شيئا على الاطلاق عن اعراض الهستيريا الجنسية . كما كانت اعراض « المس الشيطاني » ، مقنعة للغاية في الغالب بالتأكيد . . . فلنتصور مفكرا متحررا عقليا حديثا في نفس وضع قسيس ابرشية عادي من القرن السابع عشر وهو يقرأ كتيبا عن استحواذ الشيطان على فتاة تدعى اليزابيث اللابر . فحينما تنتاب الراهبة - انتي كانت في السابعة والعشرين - نوبات يستطيع اي طبيب نفس حديث ان يتعرف عليها بانها صور من الهستيريا الجنسية ، وتحدث بصوت رجالي خشن ، كان الراهب الدومينيكي فرانسوا فاركونيت يتمسك بترديد الصلوات اللازمة لطرد الارواح ويستجوب الابالسة، ويقر هؤلاء باسمائهم ، ويقولون انهما اثنان : اورجيول وبونيفاس ، ويعترفان بانهما « تلبسا » الفتاة بعد ان دخلها فوق كسرة من الخبز حين كانت في السابعة من عمرها ، وانهما يعتزمان البقاء داخلها حتى تموت . ولكن الراهب يواصل صلواته وترايمه طوال يومي السبت والاحد ، واخيرا ، حينما يشهر في يده ادواته المقدسة وصلبانه ويصبح آمرا : « اخرج ، اذن ، ايها المخلوقان التعيسان » تتقلص الفتاة في تشنجات فظيعة ، ويتدلى لسانها خارج فمها عدة بوصات ، ثم يعلن الشيطانان بصوت خشن متألم : « ها انا اخرج ، يابسوع » . ومنذ تلك اللحظة (او هكذا نزع) تكون الفتاة قد شفيت . ولم ينزل بأحد اي ضرر ، ولم يحرق احد او يعذب ، فالمسألة لا تعدو ان تكون حالة ، قام فيها راهب مقدس بتحرير فتاة مسكينة من روحيين شريرين . فهل يمكن ان نبرر - حتى لآكثر قساوسة الابرشيات ميلا الى الشك - ان يتساءل ان كانت الابالسة توجد حقا ، او ان كان ينبغي عليه ان يحذر رواد كنيسته بجدية كاملة لكي ينبههم الى اهمية تلاوة صلاة الشكر قبل كل وجبة ، ورسم علامة الصليب فوق اي شيء نتناوله بين الوجبات ؟ والاكثر من هذا ، فعلى الرغم

من انه من الحق ان الكثير من اعترافات السحرة صدرت تحت وطأة التعذيب ، فان الكثير من هذه الاعترافات كانت تلقائية وقد ادلت بها نساء يعرفن ان فرصتهن الوحيدة لانتقاذ ارواحهن من العذاب الابدي هي ان يسلمن اجسادهن لكي تاكلها نيران الكنيسة .

ومن الحق ايضا انه قد وجد بعض المتشككين - مثل يوهان فيار (تلميذ كورنيليوس اجريبا) وريجنالدسكوت وفريدريش فوسبي ، الذي كان هو نفسه قاضيا في محاكم السحرة ولكنه غير رايه فيهم اثناء شغله لهذا المنصب - ولكن كيف يمكن للمرء ان يأخذ مثل هؤلاء الناس على محمل الجد ؟ انهم يؤكدون انه لا وجود للسحرة ، وان الروايات المتناقضة عن التعاويذ واللعنات وعن الحاسة السادسة ليست سوى حكايات تحكيها عجائز النساء ، في نفس الوقت الذي قد يعرف فيه كل من يتبع الابرشية ان زوجة البقال قد حلمت بموت والدها في نفس يوم وفاته فجأة وان الجياد تنفر وتهتاج عند البقعة التي دفنت فيها ساحرتان في مقبرة غير تابعة للكنيسة . ويعتبر هذا النوع من الشك في الحقيقة عجزا عن تصور الاحساس الديني ، وهو نفس النوع من الشك الذي يستطيع ان يصف ولادة العذراء ذاتها باعتباره خرافة .

ومثل هذا النوع من التفكير صحيح بالطبع بشكل اساسي . ولكن الدليل على تأثير الابالسة وعلى وجود ايام سبت الساحرات كان نوعا من الادلة التي لا يستطيع العقل المنطقي وغير المتميز ان يرفضها . فلا شك انه كان باستطاعة بعض السحرة ان يدمروا المحاصيل بلعناتهم . وكان باستطاعة الالاف من النسوة العجائز ان يتنبأن بالمستقبل وان يعالجن الجراح بالتعاويذ والرقى . وكان ما عجز قضاة التفتيش - المخلصون والمتدينون منهم - ان يروه هو ان كل ذلك لا يمثل سببا وجيها للتعذيب والحرق ، وان التعذيب والحرق لا يؤديان في الحقيقة الا الى زيادة قوة قبضة « الشيطان » على الخيال الانساني .

ولا بد لنا ايضا من ان نضع في اعتبارنا تأثير التعذيب والحرق على الخيال الانساني واغرائهما له في نفس الوقت . فالانسان لم يتحضر منذ زمن طويل - لم يتحضر الا منذ بضعة آلاف من السنين . والمسيحية لم تصل الى القوة والانتشار بشكل طبيعي . لقد تلهف التجار والمزارعون المستقرون الى السلام والى الانتظام الهاديء للحياة ، ولكن المفطورين على الجندية يحلمون باحراز المجد في المعارك ، ويحلم المفطورون على الاجرام باحراق المدن واغتصاب النساء . وممن الدلالات الهامة ان المظاهر العنيفة للسعار السحري تعود الى فترة « انتهاء » حرب المائة عام (عام ١٤٥٣) ، فيما يوحي بأن هذا السعار كاد ان يكون بديلا للحرب . ثم وصلت هذه المظاهر الى نهايتها في الاعوام الاخيرة من القرن الثامن عشر ، قبيل

عصر الحروب والثورات الجديدة التي دفعت أوروبا الى حمامات الدم الجماعية من جديد .

واكتسح جنون اصطياد السحرة ، وجنون السحر ، أوروبا في موجات متتالية ، قامت بعد كل موجة منها فترة من الهدوء . وكانت هناك فترات اصبحت فيها انواع العقاب دموية الى درجة قامت ضدها فيها ثورات تلقائية لايقافها . ففي بداية القرن السادس عشر ، كاد هذا الجنون المزدوج يبلغ احدى ذراه الخطيرة ، وبوجه خاص في المانيا ، حيث يبدو ان اكثر مظاهره سادية وقسوة كانت تحدث باستمرار . وكان يحدث ان يحرق قضاة التفتيش انفسهم باعتبارهم سحرة اذا هم ابدوا بعض التسامح او التساهل مع من يحاكمونهم بتهمة السحر . وقد حدث هذا للسيد « ديتريش فلد » الذي كان نائبا لحاكم « تريف » ومديرا للجامعة ، فقد استخدم نفوذه لكبح جماح صيادي السحرة ، وكان يبذل كل ما يملك من قوة لكي يكون عقابهم النفي بدلا من الاحراق . وجعله هذا التساهل عرضة للشكوك في انه يقف الى جانب الشيطان ، فاستطاع احد صيادي السحرة (ويدعى زاندت) ان « يقيته » تماما بأن دفع رشوة لبعض المدانين بالسحر بأن يصيحوا بان فلد نفسه ساحر (وكانت رشوتهم ان يخنقوا قبل احراقهم) . وعلى الرغم من مكانة فلد ، فقد تم القاء القبض عليه ، وحوكم محاكمة سريعة وخنق ثم احرق جثته . وفي مدينة بامبرج في عام ١٦٢٨ ، اتهم جورج هان ، الذي كان يشغل منصب نائب المستشار ، بانه شديد التسامح مع السحرة ، فحوكم هو وزوجته وابنته واحرقوا جميعا رغم ان الامبراطور بنفسه امر باطلاق سراحهم . وفي حالة « هان » بالذات ، تبدو هذه النهاية البشعة نوعا من « العدالة الشعرية » لانه كان واحدا ممن وجهوا الاتهام الى العمدة « يوهان يونيوس » الذي كان خطابه الاخير الى ابنته قبل اعدامه مدانا بالسحر وثيقة من اكثر الوثائق في تاريخ السحر اثارة للمواطف :

« وبعد ذلك جاء - ولشملنا الله برحمته في سماواته العلي - الجلال ، فوضع معاصر الاصابع في يدي ، بعد ان ربط يدي كلتيهما احدهما الى الاخرى ، حتى تناثرت الدماء من اظافري ومن كل مكان في يدي ، حتى انني لم استطع استخدام يدي طوال اربعة اسابيع ، كما تستطيعين ان ترى من خطي .

وبعد ذلك خلعوا ملابسي ، وربطوا يدي وراء ظهري ، ثم رفعوني على « السلم » . حينذاك ظننت ان نهاية الارض والسماء قد اوشكت . رفعوني على هذه الآلة الجهنمية ثمانى مرات ، وتركوني اسقط من فوقها ثانية ، حتى عانيت الما فظيعة لا يطاق . وقلت للدكتور برون : « فليغفر لك الله ما تفعله من اساءة لبريء لم يقترف ذنبا . . » فاجابني : « انك محتال وغد » . .

والآن يا ابنتي العزيزة ، يا اعز اطفالي ، ها قد عرفت كل افعالي واعترافاتي التي لا بد ان اموت جزاء لها . وليست كلها سوى محض اكاذيب واختراعات لا اساس لها ، ولذلك فليكن الله في عوني . فاذا لم يرسل الله علامات تدفع الحقيقة الى النور ، فسوف يحرقون كل أسرتنا .»

ولقد حوكم مواطنون بارزون آخرون واعدموا ، وذهبت ممتلكاتهم - التي قلدت بنحو ٢٢٠ الف فلورين الى الاسقف الامير جوتفريد يوهان فون دورنهايم (اما ابن عمه ، اسقف فوزبرج ، فقد احرق تسعمائة شخص بتهمة السحر فيما يبسن عامي ١٦٢٣ ، ١٦٣١) . وتضمنت اعمال التعذيب « سحق » اجساد المتهمين بالاثقال الضخمة ، وتمزيق اوصالهم على « السلم » - وهي آلة تشبه « الشدادة » الاسبانية ، التي تشد الاعضاء حتى تنتزع عظام الدراعين من مفاصلهما - ووضع المعدبين في المياه المغلية (وهي عملية قتل اثناءها ستة اشخاص - حسب السجلات - عام ١٦٣٠) وارغامهم على تناول طعامهم من سمك « الرنجة » المظفرة بالكثير من الملح ثم حرمانهم من الماء ، وغرس المسامير والابسر تحت الاظافر - بالاضافة الى الحرمان من النوم طوال ايام او اسابيع - وكانت هذه هي اكثر الوسائل فعالية في انتزاع الاعترافات المطلوبة . وتضمنت العقوبات قطع الايدي ، وانتزاع اداء النسوة بملاقط حادة ساخنة الى درجة الاحمرار ، ولكن الامبراطور فرديناند اضطر في النهاية الى التدخل لكي تكون المحاكمات علنية ولايقاف عمليات مصادرة الممتلكات . ومات الاسقف في عام ١٦٣٢ ، وكان ابن عمه قد مات في العام السابق ، ولم تكن امثال هذه الطوائع السادية تتوقف الا بموت باعثها على قراشه آمننا مطمئنا .

وقد كان رئيسا اساقفة فوزبيرج وبامبرج ساديين وحشيين في قسوتهم . ولكن بعض صيادي السحرة الآخرين كانوا من الحمقى المتعصبين . فكانوا اسوأ هذه الشخصيات شهرة في انجلترا ، ماتيو هوبكينز : « المكتشف العام للسحرة » والذي زعم انه قد حصل على « قائمة الشيطان باسماء كل السحرة في انجلترا القرن السابع عشر » حينما لم يكن في الحقيقة قد قرأ سوى كتابين عن عبادة الشيطان . ومثلما فعل السناتور جو مكارثي بعد ذلك ، انشأ هوبكينز « لجنة » ، وسرعان ما راح يدرع انجلترا من الشمال الى الجنوب لكي يبحث عن السحرة ويحقق معهم ، منفقا مبالغ كبيرة من المال مقابل خدماته . وكان في ماضيه محاميا فاشلا اصبح فيما بعد « مدعيا عاما » بالغ النجاح طوال اربعة عشر شهرا . واعلن ان علامة الساحرة هي ان يكون لها قرين - شيطان يتخذ شكل حيوان - وقد تضمن الادعاء الذي كتبه ضد اولي ضحاياه - اليزابيث كلارك من بلدة مانيجري في مقاطعة اسكس - يمينا مغلظة على انه رأى بصحبته اربعة عفاريث على شكل كلب وقطة وكلب حراسة رمادي اللون وقرد اسود . (وقد اقسم

مساعدوه على انهم رأوا العفاريت الاربعة ايضا) . وكانت وسائله في انتزاع الاعترافات اقل رعبا من وسائل مكتشفي السحرة الالمان ، ولكنها لم تكن تقل عنها فعالية : فقد كان يلقي المتهمات في البحيرات العميقة لكي يرى ان كن سيفرقن ام لا ، وكان يرغم المتهمين على الجلوس فوق مقعد واطيء وقد تشابكت سيقانهم لمدة طويلة حتى يعترفوا . وكان يرغمهم ايضا على السير دون انقطاع حتى تتورم اقدامهم . وكان هذا النوع من التعذيب يتطلب مرافقين من « المشاة » يستبدلون كل فترة من الزمن بينما يواصل المتهم سيره الالنهائي . وارغم خادم عجوز في السبعين من عمره، يدعى جون لاوز ، على ان يظل مستيقظا عدة ايام بلياليها ، وان يجري بأقصى سرعته جيئة وذهابا في حجرة طويلة حتى اعترف بكل ما وجه اليه من اتهامات . وقد سحب لاوز اعترافه فيما بعد ، ولكنه شنق على كل حال .

وكانت الحرب الاهلية ما تزال مستعرة ، ووجد التوتر متنفسا في محاكمات السحرة . . وحينما حوكم . وشنق اثنا عشر شخصا دفعة واحدة ، انتاب الجميع احساس وهمي بان كل شيء سيكون افضل حالا بعد ذلك . وكانت هناك محاكمات جماعية ، وفي عام ١٦٤٥ ، حوكم وشنق تسعة عشر شخصا دفعة واحدة فسي تشيلمز فورد ، وكان اربعة من مجموعة المتهمين الاثنيين والثلاثين قد ماتوا في السجن قبل المحاكمة ، واميد عدد كبير من الباقيين الى السجن بعدها . . وكان هوبكينز مسؤولا عن اعدام ثمانية وستين شخصا في مقاطعة سافولك وحدها عام ١٦٤٥ . ولكن بدأ الاعتدال يؤكد وجوده في العام التالي . فقد تمكن قسيس من بلدة « هنتينجدون » يدعى جون جول ، ان يمنع محاكمات السحرة في بلده وان يمنع هوبكينز من دخولها بان القى موعظة نارية ضده في الكنيسة حينما سمع انه يريد ان يأتي لكي يفتش فيها عن السحرة ، وارعد هوبكينز واهرق ، وهدد وتوعد ولكن سلطانه انهار بنفس السرعة التي قام بها ، فعاد الى بلده مائنتجيري، من حيث بدأ وحيث افتال اولى ضحاياه ، لكي يتقاعد فيها ، ثم يموت بعد عام واحد مريضا بالسل . ولكنه كان قد قضى على حياة بضع مئات من البشر في خلال اربعة عشر شهرا . وجاء قانون ابطال العمل بقانون السحر في عام ١٧٣٦ - حتى لا تكون العقوبة الوحيدة هي الموت - لكي يضع نهاية جنون السحر في انجلترا، رغم ان الناس استمروا في « تمويم » السحرة (اغراقهم) طوال خمسين عاما بعد منع العمل بالقانون القديم .

ان القراءة الطويلة لعدد كبير من الروايات حول محاكمات السحرة ، مثلما فعلت قبل كتابة هذا الفصل، لا بد ان تؤدي الى الاحساس بشيء من الجنون . وتؤدي الروايات عن التعذيب بالمرء الى ان يتساءل ان كان البشر يمكن ان يقتلوا انفسهم ابدا ، ففي مقابل كل قديس ، انتج الجنس البشري - فيما هو واضح -

مائة قاتل قادرين على بلوغ احط درجات القسوة والعنف . اما السخافات الخالية تماما من اي عقل والتي ارغم المتهمون على الاعتراف بارتكابها فتضيف نفمة نشارا من الكوميديا المضحكة الى المأساة المبكية . ومع هذا ، فمن الغريب تماما ان يكون الاحساس النهائي هو الاحساس بالشفقة - شفقة بالمتهمين ومن وجهوا اليهم الاتهام معا . لم يخلق العقل البشري ابدا لكي يعيش في حصار داخل مساحة ضيقة ، ولكنه حينما يقع في الفخ الضيق ، فانه يصبح تافها وفاسدا وشريرا . ولم تكن المأساة الحقيقية في سافولك عام ١٦٤٥ هي انه هوبكينز تمكن من شنق نحو مائة شخص ، وانما هي ان البشر كانوا قد انحطوا معنويا وحيويا لدرجة انهم اصبحوا على استعداد للقبول بشنق هؤلاء الناس . فقد كانت الجماعات الريفية قد اصبحت كالبرك الآسنة العفنة التي لا بد ان تنمو فيها طفيليات التعصب والجهل والقسوة .

ولكن من الصعب بالنسبة لنا نحن ان ندرك مثل هذا الوضع في عصر المدن الكبيرة واساليب الاتصال والاعلام الجماهيرية ، اننا لا نستطيع ان نتخيل هذا النوع من الخمول العفن حيث لا مهرب للعقل الانساني من نفسه الا من خلال اثرثرة سيئة الطوية والاشاعات الخبيثة عن الجيران . وكان الخط الفاصل بين ذلك العالم القديم وبين عالمنا نحن حدثا معينا وقع في عام ١٧٤٠ : نشر رواية بعنوان : « بامبلا » . وقد يبدو ما اريد ان اقله خاليا من المعنى ، ولكن فلنتأمله عن قرب . فقبل ان يكتب ريتشاردسون رواية « بامبلا » ، كان الشكل الرئيسي من اشكال التسلية « الهروية » التي كانت تصدر عن المطابع ، هي تلك الكتيبات ، التي كانت تحمل في العادة عنوانا مثل : « حكاية حقيقية عن الجريمة المرعبة التي ارتكبت في يورك وارتكبها المجرم « فلان الفلاني » . . » . اما روايات ديفو (١) والتي قد صدرت قبل ان يشرع ريتشاردسون في الكتابة بربع قرن ، فكانت كتيبات « مكبرة » تحتوي ايضا « حكايات حقيقية » . اما رواية « بامبلا » فتقدم بالحروف والكلمات وصفا لمقاومة فتاة فاضلة ضد الشخص الذي كان يريد اغواءها ، وهو وصف طويل للغاية . وكان باستطاعة قارئها ان يدخل عالم حياة شخص آخر ، وان يبقى داخل هذا العالم طوال ايام قبل ان يبلغ نهايته .

فلو اننا تخيلنا جين اوستين او الاخوات برونتي وقد نشئن في ابرشية

(١) ديفو - دانييل (١٦٥٩ - ١٧٢١) من اوائل كتاب الرواية والمصنفين الانجليزوا برزهم مؤلف « روبنسون كروزو » و « مول فلاندرز ونصيبتها من السعادة والشقاء » ، ومؤلف « يوميات سنوات الطاعون » ، اولى عمل روائي تسجيلي في التاريخ ، واحد رواد النزعة العملية البودجوازية ورائد صحافة « الاصلاح البودجوزي » في انجلترا القرنين السابع عشر والثامن عشر . (هـ . م .) .

ريفيّة في عام ١٧٠٠ لا يمكننا على الفور ان ندرك اهمية ما حدث . لا شك ان جين اوستين كانت ستنظر قادرة على ان تقرأ هومير ودانتي وشيكسبير ، فتصبح سيدة شابة مثقفة فصيحة ، ولكن كان من الممكن الا يكون الامر على هذا النحو ، فلا شك ان هذه الاعمال الكلاسيكية بعيدة الى حد ما عن الحياة الواقعية المعاصرة . اما روايتا ريتشاردسون : « باميللا » ، « كلاريسا » ورواية روسو : « جولي » او « هلويز الجديدة » ورواية جوته : « فيرثر » فكانت كلها اعمالا مختلفة اختلافها كاملا . كانت هذه الاعمال غذاء ثريا للمعاطف والانفعالات مثلما كانت كذلك ايضا للذهن . كان العقل الانساني مثل طائر في اللحظة التي تفتح له فيها باب القفص . وتدقت الروايات من المطابع ، وكانت رواية « كورسير » لبايرون ، « سيدة البحيرة » لسكوت ، روايتين رومانتيكيتين كتبتا بالشعر . ولم يكن من الممكن مشاهدة مسرحيات شيكسبير ودرايدن وشيريدان الا في الميادين الكبيرة ، ولكن هذه الكتب الصغيرة في حجم « الجيب » استطاعت ان تنقل الى ابعد ركن من ابعد بلد في اوروبا . من الحقيقي بالطبع ان اكثر الناس لم يكونوا يستطيعون القراءة ، ولكن ليست هذه سوى نقطة ضئيلة الشأن . فكل من يمتلك ما يكفي من الذكاء بحيث يريد ان يقرأ استطاع ان يفعل ذلك - من ابناء عمال المزارع الى قساوسة الريف سواء بسواء .

وفي القرن التاسع عشر اصبح ابداع « عوالم اخرى » صناعة ضخمة ، وشرع كتاب روائيون مثل بلزاك وهوجو وديكنز وتروллоپ في ابداع عالم فعلي لا يقل ثراء وتعقدا عن العالم الحقيقي ، اننا الآن ننظر الى هذا باعتباره مسلما لا تحتاج الى برهان او الى من يشير لنا اليها ، فلقد اعتدنا ان يكون اماننا الخيار لكي ننتقل بين بدائل كثيرة من العوالم المختلفة ، من تولستوي وفلوبير الى احدث اوبرا تجارية تعرضها شاشات التلفزيون . ونحن نعرف انه كانت هناك روايات ادبية كبرى قبل ريتشاردسون بوقت طويل : نعرف كتابات تشوسر ومالوري ومونتانيسي وسيرفانتس ورابليه وبوكاشيو . ولكننا ننسى انه لم يكن يوجد منهم سوى عدد قليل للغاية ، وانهم لم يكونوا معروفين الا لدى الباحثين المتخصصين . كانت الحياة في القرن الخامس عشر رتيبة مكرورة مقبضة بالنسبة للجميع ، من « اللورد » في قلعه الى القسيس المحلي في كنيسة الى الفلاح على محراثه او الراعي وسط قطيعه . من المحتمل انه كان هناك عدد من الناس المغممين خيالا وحساسية لا يقل عن من يوجد منهم اليوم - على الاقل بالنسبة لعدد السكان - ولكنهم لم يكونوا يملكون بديلا للنمو على نفس الصورة الكثيبة المقبضة التي تميزت بها بيئتهم . وكانت لمسة الغرابة او الخروج على المألوف العادي ، الوحيدة التي استطاعت ان تدخل حياتهم ، هي اللمسة التي حدثت حينما عرض البقال وسط بضاعته كتبيا صغيرا يتضمن اعترافات احدى الساحرات ، او حينما راح الخوري يحذرهم من

الاقتراب من احدى المعجزة الشمطوات التي تستطيع ان تحول نفسها الى ارنب بري .

وطوال خمسة قرون او اكثر قليلا ، كانت الروح الانسانية محرومة من « فيتامين » اساسي ، وهو نوع من « الفيتامين » كانت الكنيسة قد ظلت قادرة على توفيره رغم انها لم توفره الا بكميات ضئيلة . ان الانسان لا يمتلك فحسب مجرد قدرة على « الشعور بالآخرين » ، وعلى الانصراف والتحول بعيدا عما تتميز به ذاته المنفردة من ضيق محصور الى العالم الاعظم رحابة الذي يحيط به ، وانما هو يمتلك شهية عارمة ورغبة ليس لها حدود في ان يفعل ذلك . وانني لارى « جنون السحر » كنتيجة مباشرة لهذا النقص الشديد في ذلك « الفيتامين » . وحينما شرع التيار الصخاب العريض للثقافة الرومانتيكية في اشباع هذه الشهية ، اصبح السحر - فجأة - شيئا ينتمي الى الماضي البعيد .

وتؤيد هذا الاستنتاج ، واحدة من ابرز الروايات التي كتبت حول موضوع السحر وممارسته ، وهي رواية « الملاك الناري » التي كتبها فاليري بروسوف ، وحولها بروكوفيف الى واحدة من اقوى اوبراته . وكان بروسوف احد كتاب المدرسة الرمزية الروسية في اوائل هذا القرن ، ورغم انه ظل بعد الثورة كاتباً مشهوراً في بلده ومقرباً من السلطة الجديدة فيها ، فان رواية « الملاك الناري » لم تلق نفس الترحيب الذي لقيته بقية اعماله بعد الثورة . ومع هذا فان اوبرا « الملاك الناري » لبروكوفيف ما تزال معروفة في روسيا .

تحكي الرواية قصة الجندي « رابخت » ، الذي يعود الى موطن في اوربا ، من امريكا الجنوبية في ثلاثينات القرن الخامس عشر ، حينما كان اجريبسا وبارسيلساس يتمتعان بالشهرة الواسعة في المانيا كلها . وفي فندق صغير حيث كان يقضي ليلته ، يسمع صوت امرأة تئن وتبكي . وفي الحجرة المجاورة ، يثر على فتاة صغيرة تدعى ريناتا ، تناديه باسمه قبل ان تسقط على الارض وهي تتلوى في تشنجات قوية ، وتصرخ معلنة ان الشياطين قد مستها وتملكتها . وينجح رابخت في النهاية في تهدئتها ويجعلها ترقد على الفراش . وحينئذ تصر على ان تحكي له قصتها : كيف حدث ، وهي في الثامنة من عمرها ، ان جاءها ملاك ذهبي الشعر ، يتوهج كما لو كانت اشعة الشمس تنعكس عليه ، فلعب معها وهي في حجرتها . وكان اسمه ماديل . وظلا طوال سنوات يلعبان معا ، واخبرها انها قد قدر لها ان تصبح قديسة ، وشجعها على ان تبدا تمرينات قاسية في التنسك والزهد . وكانت ريناتا راغبة تماما في ان تصبح قديسة ، ولكنها ارادت ايضا ان تكون عروس ماديل . ولكنه تركها ذات ليلة ، بعد ان بدلت مجهودا مركزا في سبيل اغوائه . ولكنه عاد بعد مدة من الزمن ، فظهر لها في حلمها واخبرها ان

توقعه مرة أخرى ، ولكن في شكل آدمي يأتي في خلال شهرين . وبعد شهرين تماما جاء نبيل شاب يدعى الكونت هاينريش لزيارة أسرته . واستطاعت هي ان توقعه في حبالها ، ثم هربا معا الى قلعة هينريش على نهر الدانوب . ولكنه تركها بعد سنتين من السعادة ، وهجرها دون تفسير ، ولم يعد ثانية منذ ذلك الحين . وظلت ريناتا تبحث عنه منذ هجرها الى ان التقت بـ رابرت ، تعدها الابالسة

وامضى رابرت الليلة راقدًا الى جوارها في الفراش ، ولكن في طهارة كاملة ، وفي الصباح اصطحبها معه . ولكنه كان بالطبع قد وقع في حبها . غير انه حينما كان يحاول ان يأخذها الى الفراش ، تنابها المستيريا ، وتقول له ان عليها ان تحافظ على نفسها من اجل الكونت هينريش . واصبح رابرت مستعبدا لها حتى انه كان يوافق على مساعدتها في البحث عن حبيبها المختفي . وتحول الرواية الى صورة طبية قوية لارتباط رابرت الماسوشي بريناتا .

وتقنعه ريناتا بان يدلك نفسه بمرهم سحري لكي يزور تجمعًا للساحرات في احد ايام السبت . ويعتبر وصف بـ يوسف ليوم سبت الساحرات وصفا دقيقًا قائمًا على المراجع المعترف بها ، ولا بد ان يقرأه كل من يريد ان يفهم ما كان يفترض ان تفعله الساحرات في مثل هذه المناسبة . ويصاب رابرت بالدوار بتأثير المرهم ، فيرقد على الارض . ثم يجد نفسه طائرًا في الهواء ممتطيا ظهر « شاة » كبيرة . وبعد نصف ساعة يهبطان في واد بين تلين ، وعلى الفور تحيط به جماعة من النسوة القاضبات العاريات ، فيحملنه الى حيث يقف امام عرش خشبي كبير ، يجلس عليه الشيطان نفسه :

« كان الشخص الجالس هائل القامة ، يشبه الانسان حتى حصره ولكن نصفه الاسفل كان يشبه ذكران الماعز . وقد انتهى سافاه بحافرين ، ولكن يديه كانتا مثل ايدي البشر ، كذلك كان وجهه انسانيًا ، احمر اللون ، لوحته الشمس مثل هندي احمر من الالباش وكانت عيناه كبيرتين مستديرتين وله لحية متوسطة الحجم . كان مظهره يوحي بان عمره لا يزيد على الاربعين ، وفي تعبير وجهه شيء حزين يشير الشفقة ، ولكن هذا الاحساس اختفى حالما ارتفعت نظرتي فوق جبهته العالية لكي ارى قرونا ثلاثة تبرز بوضوح من وسط شعره المجعد الاسود ، اثنان صغيران في مؤخرة رأسه والقرن الكبير وسطهما في المقدمة . وحول القرون الثلاثة وضع تاج من الواضح انه مصنوع من الفضة ، كان يشع بريقًا ليلاً مثل ضوء القمر .

وضعتني الساحرات العاريات امام العرش وصحن صرخات : « ايها السيد ليونارد . انه جديد ! » حينئذ سمعت صوتًا ، خشنا بعيدًا وخاليا من اي تعبير كما لو كان ذلك الذي تحدث لم يكن معتادًا على لفظ الكلمات ، ولكن الصوت

كان قويا مليئا بالاحساس بالسيادة وهو يوجه الي الخطاب قائلا : « مرحبا ، يا ابني ... » .

وكان على رابرخت ان ينكر الله ويسوع والعذراء ، ثم ان يقبل يد الشيطان وردفه . ويلاحظ رابرخت ان اصابع اليد كلها كانت متساوية الطول ، بما في ذلك الابهام ، مشقة كالاعلاف .

ويتبع هذا الرقص وسط ذكران ضفادع هائلة الحجم ، وافاع وذئاب ، ثم يأتي دور تناول الطعام الذي كان خشنا فقيرا مع نبيذ رديء ، وفي نهاية الوجبة ، تأخذ ساحرة شابة رابرخت الى الغابة فترغمه على مضاجعتها . ويستيقظ رابرخت لكي يجد نفسه راقدًا على الارض في حجرته مع احساس قوي بالدوار والصداع . ولكنه لم يكن قد عرف ابن يوجد الكونت هنريش .

وتبدو بعض التفاصيل في وصف بوريوس عجيبة حقا ، كما يشير بعضها التساؤلات . فلماذا ينبغي ان يقدم الشيطان لاتباعه طعاما فقيرا مع رديء النبيذ ، رغم انه ، على اي حال : « امير هذا العالم ؟ » .

... كذلك فان الشيطان يظل جالسا ، ويبدو في هيئة بشرية تماما ، بصرف النظر عن جرمه الهائل ، فهل يمكن ان يكون رجلا يرتدي « سروالا » يجعل نصفه السفلي يبدو مثل جلد الماعز بحوافره الواضحة بدلا من القدمين ؟ ان اجزاء معينة من رواية بوريوس قد نقلت عن محاكمة فعلية جرت بالقرب من مدينة فيرزبرج ، عام ١٧٤٩ ، للراهبة ماريا ريناتا فوق موساو ، التي عذبت ، وقطع رأسها ، ثم أحرقت جثتها في النهاية . وتتضمن اعترافاتها نفس التفاصيل الجنسية المثيرة المألوفة - بل انها اكثر من المعتادة في الحقيقة - وهكذا كان لبوريوس الحق في ان يركز كثيرا - كما فعل - على الجوانب الجنسية من صورته .

ويتضمن الفصل الجميل السابع من الرواية وصفا لزيارة رابرخت لمدينة بون التي ذهب اليها لكي يلتقي مع كورنيليوس اجريبا . ولا يمكن ان يكون هناك شك في صحة المادة التاريخية المستخدمة في هذا الفصل ، ومن المهم ان نلاحظ ان اجريبا يدمغ السحر بأنه هراء صبياني ، ويصر على ان للفلسفة وللتأمل الصوفي اهمية اعظم بكثير . فحينما اصدر اجريب كتابه « الفلسفة الغيبية » كان قد بدأ ينظر الى السحر باعتباره عملا من اعمال الطفولة وانشغالات العقل المراهق .

وحينما يعود رابرخت الى كولونيا ، تسمح له ريناتا فسي النهاية بأن يمتلكها ، ولكنها كانت ليلة خالية من السرور الى حد بعيد كانت ريناتا خلالها

محمومة لا يرضيها شيء، وكانت تفكر - بشكل واضح - طوال الوقت في شخص آخر . ويفرق رابراخت في ماسوشيته البطولية .

واخيرا يظهر الكونت هينريش في كولونيا ، وتتمكن ريناتا من اقناع رابراخت بأن يتحداه للمبارزة . ويوافق رابراخت ، ضد ارادته الى حد كبير ، ويبدأ فني تبين ان ريناتا ليست الفتاة البريئة التي ظنها من قبل . كانت قد تمكنت من اغواء الكونت هينريش الذي كان من اعضاء جماعة « الصلب الوردي » وكان قد نذر نفسه للعفة الكاملة ، ثم تمكنت من اقناع رابراخت بممارسة السحر الاسود ، وهو الآن يبغضها . وما ان يتمكن رابراخت من ارغام هينريش على الموافقة على مبارزته ، حتى تغير ريناتا رأيها، وتنتزع وعدا من رابراخت الا يؤذيه ، الامر الذي يؤدي بالضرورة الى ان يصاب رابراخت بجرح خطير ، فتقوم ريناتا على تمريره حتى يسترد صحته . وتبدو بعد هذا كما لو كانت قد تخلصت من ولعها المرضي بهنريش ، وتمنح نفسها لرابراخت . ثم تقرر ان عليها ان تصبح قديسة ، فتهاجره، وتذهب الى احد الاديرة .

ويخصص بربوسوف عدة فصول للقاء طويل بين رابراخت وبين الدكتور فاوستس (في وجود مفيستوفوليس ، بالطبع) . واخيرا يعثر رابراخت على الدير الذي كانت ريناتا قد لجأت اليه . وكانت الابالسة قد تمكنت من غزوها مرة أخرى ، وتنتاب التشنجات جميع الراهبات . ويلقى القبض على ريناتا بأمر من رئيس اساقفة ترير ، وتعرض للتعذيب . ولكنها تموت في النهاية بين ذراعي رابراخت قبل لحظات من اخذها الى عامود المحرقة . ويجعل بروكوفيف من مشهد الراهبات الممسوسات اقوى مشاهد الاوبرا التي اخذها عن رواية بربوسوف واكثرها اثارة للفرع .

ان ما يجعل هذه الرواية جديرة بأن نتوقف عندها الى هذه الدرجة ، هو ان بربوسوف قد اعترف من خلالها ان يحاول فهم ما حدث حقا في فترة « جنون السحر » . ان ريناتا شخصية هينترية ، يدفعها دافع جنسي قوي ، ولكنها ايضا تعرف اسم رابراخت حالما تراه وقبل ان يبوح لها باسمه . انها تمتلك اذن قدرات غيبية معينة . ولكن من المؤكد ان الكونت هينريش ليس هو ماديل ، الملاك الناري ، فيصبح كل بحث ريناتا عنه بحثا عقيما وخاليا من المعنى . ان الكتاب يدور حول مجموعة من الناس وقعوا في اسر دوامة من صنع خيالاتهم الوهمية ، ثم تتخذ خيالاتهم مظهر حقيقة غريبة بسبب من تأثير القوى اللاواعية التي حركها دافع معين من الخارج . وبالنسبة لكاتب ينتمي الى مرحلة ما قبل فرويد (فقد صدر الكتاب عام ١٩٠٧) فان هذا التحليل الذي اعتمد عليه بربوسوف يعتبر « ضربة عبقرية » مقنعة حول التكوينات النفسية غير الطبيعية .

أن بريوسوف ، بوصفه شاعرا ، كان يميل ميلا خاصا الى البحث عن الحقائق الغريبة المتعلقة بالساحرات ، كما كان يملك فكرة غامضة حول هذه الحقائق: فكرة تقول بان قدرات العقل الانساني اقوى بكثير مما نفهم نحن ، وانه من الممكن ان نطلق هذه القدرات من عقالها بواسطة « الرموز » . هل كانت مصادفة ان يذكر ان « السيد ليونارد » يضع على راسه تاجا يشع « بريقا قمريا » - نسبة الى القمر، الربة البيضاء ، رمز القدرات وااقوى الكامنة ، التي تختفي وراء الشخصية العادية ؟



هناك قصة من تأليف الكاتب الياباني اكو تاجاوا ، تقرر بوضوح الهدف الذي كنت أسعى اليه عبر هذا الكتاب . عنوان هذه القصة ، هو « التنين » . هناك كاهن يريد ان ينتقم من دير معين ، فالرهبان يسخرون دائما من انفه الاحمر . ولذلك ، فانه يقيم على شاطئ بركة صغيرة بالقرب من الدير ، لوحة من الخشب كتب عليها : « في الثالث من مارس ، سيخرج تنين من هذه البركة » . وكان للوحة وما كتب عليها تأثيرهما المنتظر . فقد انتشرت الانباء ، وفي الثالث من مارس كانت هناك حشود ضخمة تنتظر خروج التنين على شاطئ البركة . ويشعر الرهبان بحرج شديد ، فهم يعرفون انه حينما يمر الوقت دون ان يبدو التنين لانظار الناس فانهم هم من سيوجه اليهم اللوم . وتتوالى ساعات النهار ، وتمتد حشود المنتظرين اميالا حول البحيرة ، ويبدأ القسيس في الندم على فكاهته العابثة . وبالتدريج ، يتزايد تأثيره بقوة جو الانتظار القوي الشائع حوله ، فيجد نفسه يحرق بتلف حقيقي الى سطح البركة الساكن . وفجأة تماما تظهر السحب الكثيفة في السماء ، وتنفجر عاصفة هائلة ، وفي وسط الرعد والبرق ، يبرز من قلب البركة شكل التنين يجلله دخان كثيف ، ويصعد كالومض الى السماء . ويراها كل الحاضرين .

وحينما يعترف الكاهن فيما بعد بانه هو الذي وضع اللوحة وكتب عليها : « لا يصدق احد » .

ان ابرز ما تقرره هذه القصة اهمية هو ما يتعلق بالتوقع القوي المتنهف والانتظار اليقيني الكثيف من جانب الحشود ، هذا التوقع الذي يؤثر حتى في الكاهن الذي كان قد رسم بنفسه اللوحة التي اعلنت موعد ظهور التنين ، ومع هذا فان الضغط التليثائي (المنتقل عن بعد) من جانب آلاف المؤمنين ، يرغم غرائزه في النهاية على ان تستجيب مع مشاعر هذه الآلاف . ليس هناك انقسام للذات على نفسها . ان الضغط النفساني ليشبه خبطات الاقدام المنتظمة التي شققت جدران اريحا وهدمتها . ففي البداية ، تظهر السحب في السماء الصحو ، ثم تهب العاصفة ، الرمز المرئي لانطلاق التوتر الحبيس ، ان شيئا ما على وشك

ان يحدث . ان وصف التنين بانه « هلوسة جماعية » لا بد ان يؤدي الى اخطاء الهدف كله . انما هو « ظهور » او « رؤية » جماعية ، تجسيد تلقائي لقوى اللاوعي . مثله مثل كل السحر ، دون استثناء .

ان القدرة على التواصل الجماعي لـ « احداث الاشياء » عن بعد هي قدرة معروفة لدى غالبية الشعوب البدائية. وقد اخبرني المرحوم نيجلي فارسون في مناسبات عديدة كيف رأى ساحرا من ليبيريا وهو يستنزل المطر من سماء صافية ليست فيها سحابة واحدة .

وقد روى لي جاري ، مارتين ديلاني ، الذي وصفت قدراته العجيبة في مجال العرافة في ملحق خاص من كتابي عن « راسبوتين » ، روى لي حادثة لا تقل غرابة . فقد اكد طبيب ساحر في نيجيريا لجماعة من المستكشفين البيض ، ان السيل الجارف الذي كان يتدفق من السماء منذ عدة ايام ، سوف يتوقف لمدة ساعتين عندما تبدأ حفلة معينة كانت ستقام لتكريم الجماعة . وقد توقف المطر بالفعل حالما بدأت الحفلة ، ثم عاد من جديد بنفس عنقه الاول ، بعد انتهائها .

وفي نفس الملحق ، رويت بالتفصيل القصة العجيبة التي وقعت في « المنشار الكهربائي » التابع لنفس الشركة التي اقامت الحفل المذكور سابقا . فقد حدث ان طارت دجاجة فسقطت داخل آلة المنشار ، واطن العمال الزوج ان السبب يرجع الى ان « اله الحديد » يريد استرضاء ببعض القرابين . ورفض مستر ديلاني اقامة الاحتفال الشعائري المطلوب ، لانه كان سيتضمن ذبح كلب صغير اسود اللون . وبعد يومين سقطت دجاجة اخرى داخل آلة المنشار ، وبعد وقت قصير كان من الضروري ان توقف الآلة وتفك اجزاؤها الخارجية لاجراء بعض الاصلاحات ، ورغم ان الكهرباء كانت مفصولة عنها من الموتور ، فقد دارت فجأة وجرح يد المدير جرحا بالغا . امضى المهندسون عدة ساعات في فحص الآلة والموتور ، ثم اعلنوا انه كان من المستحيل ان تدير الآلة نفسها بهذا الشكل . واخير ، انحرف نصل المنشار الفولاذي ذات يوم وهو يقطع كتلة خشب كبيرة ، فاطار كرة معدنية اصابت عامل التشغيل فقتلته على الفور . وفي النهاية ، وافق مستر ديلاني على اقامة الاحتفال المطلوب والتضحية بالكلب ، فكفت هذه الحوادث عن الوقوع .

فاذا صرفنا النظر عن فكرة المصادفة ، لا تضح لنا ان هناك احتمالين للتفسير . فاما ان الطبيب الساحر نفسه كان قادرا على التسبب في هذه الحوادث بواسطة نوع من الحركة النفسية الحيوية Psycho - Kinesis او ما يعرفه العامة باسم « العين الشريرة » ، واما ان الخوف الذي اجتاحت جماعة العمال كان هو السبب في تلك الحوادث . وقد استبعد المستر ديلاني ان يكون الطبيب الساحر هو المسؤول وقال انه كان رجلا عجوزا طيبا رقيقا . اما الفرضية

الثانية فمن المؤكد انها تتناسب مع ما كنا نقول بدرجة اكبر . فقد خبر اكثر الناس شيئا من نفس النوع ولكن في مجال اضيق : احساس عصبي متوتر بأن شيئا ما يسير بشكل خاطيء ، ويتلو هذا الاحساس كارثة صغيرة .

ومن المحتمل ان تكون افضل طريقة للتوصل الى فهم ما اظاهرة السحرة الاوروبيين ، هي دراسة روايات شهود العيان عن السحر الافريقي المعاصر لنا . ويقدم كتاب « شاهد على السحر » من تأليف هاري . ب . رايت ، بعض الامثلة العجيبة . انه يصف « رقصة الرعد » في منطقة « ابومي » غربي افريقيا كمثال على « الاوتباط الغريب الذي يبدو قائما بين الاعمال البدائية التي يقسم بها هؤلاء الناس وبين قوى الطبيعة نفسها . . » فقد رقص احد المواطنين الطوال القائمة تصاحبه اناشيد معقدة ، وهو يقذف في الهواء بعضا الرقص الطويلة . . « كان اليوم صحوا صافيا حينما بدأت الرقصة ولكنني رفعت بصري فجأة الى أعلى ، فرايت السماء يفتشاها الظلام بالسحب الكثيفة » ومع ذلك فقد قال الامير لرايت : « انها لن تمطر ، لاننا لن نسمح بنزول المطر دون رقصة المطر » . ولم تمطر السماء بالفعل . ومرة اخرى يبدو لنا جديرا بالملاحظة ان نقول ان رايت شعر بنفسه يشارك في الهوس الجماعي الذي ادت اليه الرقصة . وحينما انتهت الرقصة ، صفت السماء مرة اخرى .

ويصف رايت ايضا « رقصة الفهد » التي ربما كان تفسيرها اقل صعوبة . فقد راحت فتاة جميلة طويلة اقامة من المواطنين بالرقص على اضواء النيران . واكد مرافق رايت الافريقي انه استطاع ان يرى بعض الفهود . اما رايت فلم يستطع ان يرى حولها سوى بعض الظلال . ولكن بدا ان المواطنين كانوا يتابعون بعيونهم الفهود غير المرئية . وحينئذ ، وفي قمة الاحتفال ، برزت ثلاثة فهود كبيرة تخطر قادمة من الادغال، وعبرت الباحة الواسعة ، ثم دخلت الادغال مرة اخرى من الناحية المقابلة ، وكان بين فكي احدها طائر ميت . ويقول رايت : « لو انني كنت قد غرقت في السبات من خلال عملية تنويم مغناطيسي جماعية اذن فانهما عملية تمت بطريقة جيدة ، لانني لم اشعر بخلاف هذا الا بانني عاقل تماما وفي حالة طبيعية . » ولكن ليست هناك حاجة الى التفكير فيما حدث على اساس التنويم المغناطيسي . ان الحيوانات تليبائية بطبيعتها ، وليس هناك ما هو اكثر احتمالا من ان تأتي اسرة من الفهود الحقيقية لكي تلقي نظرة لتكتشف ان كانت « الفهود المتخيلة » قد جاءت لكي تفزو منطقتها ، ام ان الاهالي يمارسون لعبتهم مرة اخرى (وقد اوضح رئيس القبيلة مرة لرايت ، انهم قد استحضروا الرعد لكي يسروا عن انفسهم) .

ويؤدي بنا هذا الى نوع من التفسير الجزئي على الاقل لاسطورتين وجدنا

وبقيتنا باستمرار منذ اقدم الازمنة : مصاصي الدماء والانسان الذئب . وقد اكتشف مونتاجي سامرز عددا كبيرا من الصنفين ، حتى لقد كان يستطيع ان يخصص كتابين كبيرين لموضوع مصاصي الدماء وحده .

كان الاساس الجنسي لنزعة مص الدماء والاستدآب قد اعترف به في المرحلة السابقة على فرويد . ان رغبة الذكر الجنسية اقوى بكثير من رغبة المرأة الجنسية بشكل عام . والشبق الشديد او « القلعة » ظاهرة نادرة بين النساء ، ولكن يكاد كل رجل صحيح الجسم - في خياله على الاقل - ان يكون فحلا شديدا للشبق .

وتصبح هذه الشهية الجنسية العنيفة ، غير المتعلقة بوحدة بعينها ، عند الذكر ، خطيرة اذا تعرضت للاحباط ، وقد تتحول الى عنصر من عناصر القسوة . ان الصورة التي رسمها روبرت موزيل للقاتل الجنسي « موسبرجر » في روايته : « رجل بلا هوية » تؤكد الاحباط الذي حاصر النجار المتجول الذي « ينام نومة خشنة » ويتجول من قرية الى قرية ، دون ان تتاح له ابدا الفرصة لاشباع الشهية المتفتحة الى : « شيء يشواق اليه المرء ، تماما مثلما يشواق الى الخبز والماء ، وهو هناك امامه يمكنه ان ينظر اليه . وبعد مضي بعض الوقت ، تصبح رغبة المرء فيه رغبة غير طبيعية . هاهو يسير عابرا امامي ، ومازرت النساء تتأرجح حول كواحلها . ها هو يتسلق صاعدا درجا ، يصبح ظاهرا للعيون حتى الركبتين . » ولقد اوضحت في كتاب « كراسة مذكرات الجرائم القتل » - عام ١٩٦٩ كيف يتحول متشردون من نوع موسبرجر الى قتلة جنسيين . فان قوة الرغبة وشراستها قد تتحول الى ازدياد للنساء . وقد قال مرتكب جرائم برمنجهام في « ي . و . س . » ، باتريك بايرن ، قال انه قام بالقتل لكي : « - ينتقم من النساء لانهن يدفعنه الى التوتر من خلال الجنس » . اما القاتل الالماني بوميرينك ، فقد ارتكب - اولى جرائمه الجنسية في حديقة بعد ان رأى فيلما بعنوان « الوصايا العشر » اقنعه بأن كل ما في النساء شر (فاذا كان هذا صحيحا ، فلماذا الاغتصاب الى جانب القتل ؟) وفي نفس العام الذي كتبت اثناءه هذا الفصل (١٩٧٠) كان جون كولينز يقف امام المحكمة في « آن آرپور » متهما بقتل كارين بينمان ، ولم تكن الفتاة قد اغتصبت وخنقت فحسب ، وانما كانت ايضا قد عذبت بآلة ملببة حادة ، وبالاخصام .

يقول علماء النفس ان لكل الناس « شخصية اجتماعية » ، التزاما يرغبهم على ان يسلكوا بطريقة متوافقة وودية ، وان هذه الشخصية قد تغطي بعدا عميقا الفور من الاحباط القاتل المميت . وينطبق هذا بشكل خاص على من كانوا في عمر الشباب . (يرتكب غالبية الجرائم الجنسية رجال تحت الخامسة والعشرين ، وكثيرا ما يكونون تحت العشرين) . . . ولدى امرأة من نوع ايزروبييل جووداي ، يؤدي هذا النوع من « الشخصية المنقسمة » الى السحر ، اما لدى الرجل ، فانها

قد تؤدي الى شكل من اشكال « استدأب » ، حيث تهيمن شخصية « الوحش » وترتكب جريمة الاغتصاب . هذا هو الراي الذي طرحه روبرت ايزلر ، عالم النفس الذي ينتمي الى مدرسة يونج في كتابه : « الانسان متحولا الى ذئب » عام ١٩٤٩ . وفي هذا الكتاب ، يطرح ايزلر رأيا شائقا يقول فيه ان الانسان كان في مرحلة ما ، قردا نباتيا مسالما ، يعيش على الجذور والثمار البرية . ولكن الانسان ايضا مخلوق يميل الى المحاكاة ، وفي معركته ضد الحيوانات المتوحشة ، وهي صراع حياة او موت ، بدأ يكتسب عامدا ما تتميز به الحيوانات المفترسة من قسوة وشهوة الى الدماء . والمظهر الحديث لهذا الميل المكتسب القديم ، هو الاعجاب المستتر الذي يتخلله الخوف الذي يكنه الكثيرون من الناس للمجرمين ، وبوجه خاص للمجرمين الذين يتميزون بالعنف . انهم يشعرون بان القسوة المتميزين بالعنف من الناس ، يحتاجون الى ان « نعرف عنهم شيئا » وان انجع وسيلة لمعرفة شيء عنهم هو ان نولد قدرا معيننا من التعاطف ازاءهم .

ومن المؤكد ان هذا الراي يمكن ان يفسر رقصة الفهد التي شاهدها هناري رايت ، وان يفسر ايضا عبادات الفهد والحيوانات المتوحشة الاخرى في افريقيا . ان ويليام سيبروك ، يروي قصة كاتب ضئيل الحجم بالغ الهدوء من الاهالي ، ارتدى جلد « ببر » بعد ان زوده بمخالب حديدية ، ثم قتل فتاة بهذه المخالب . وكان الكاتب مقتنعا كل الاقتناع بانّه يتحول كل فترة معينة من الزمن الى ببر ، وقال لسيبروك انه كان يفضل حياة البربر تماما على حياته هو الانسانية . ومن الطبيعي ان يخشى اهالي افريقيا البربر والفهد - خوفا اكثر بكثير من خوفهم من الاسد او النمر اللذين نادرا ما يتحولان الى قتلة للبشر - ومنذ اقدم الازمنة ، كانت الاستجابة لهذا الخوف ، من جانب اصحاب الارواح الاكثر جسارة ، هي محاولة التوصل الى نوع من التشابه الداخلي مع ائقطة . ولا شك ان استجابة الانسان البدائي ازاء دهب الكهوف تصور نفس الوضع تصويرا مشابها .

وقد كانت الذئاب في اوربا العصور الوسطى هي اخطر حيوانات البرية ، ولا شك ان الكوابيت والهواجس الجنسية التي تعذبت بها ايزوبيل جووداي ، هي التي دفعت الفلاحين المحبطين جنسيا الى التشبه بالذئاب . ولكن اكثر الاسئلة اثارا للتعجب هنا ، هو الى اي مدى يمكن لتلك الهواجس ان تؤدي الى تغيرات جسدية فعلية . يقدم ويليام سيبروك وصفاها ما وملفتا للنظر عن كيف اخذت امرأة روسية مهاجرة في التأمل حول المقطع رقم ٤٩ من كتاب « اي تشينج » الذي يرتبط معناه بفراء الحيوان وبطرح الحيوان لجلده او شعره القديم واكتسابه جلدا او شعرا جديدا . وتخلت المرأة نفسها ذئبا يسير على الجليد ، ثم بدأت في الصراخ بطريقة تشبه العواء ، واخذ الزبد يتدفق من جانبي فمها . وحينما حاول

احد الشهود ان يوقظها ، قفزت الى عنقه وحاولت ان تعضه . اما في حالة جيلز جاريير الذي اعدم بتهمة الاستاذاب في عام ١٥٧٤ ، فيبدو انه هاجم ضحاياه من الاطفال اما في شكل ذئب او في شكل رجل عادي . وزعمت وثيقة الاتهام التي كتبت ورفعت القضية على اساسها في مدينة « دول » زعمت انه امسك بفتاة في الثانية عشرة من عمرها وقتلها في حديقة كروم بيديه واسنانه ، ثم جرها على الارض - باسنانه - الى داخل الغابة عند بلدة « لاسير » حيث التهم اكثر جدها . وقد بلغ من استمتاعه بالوجبة انه اخذ جزءا من جسمها الى زوجته . (ولا يعني هذا ان الزوجة ايضا كانت ذئبة متخفية في وكرها ، فبعد ثلاثمائة عام ، وفي نفس المنطقة ، اعتاد فلاح يدعى مارتين دومولارد ، ان يقتل الفتيات اللواتي كان يأخذهن الى امكنة منزلة ، ثم يأخذ ملاسهن الى زوجته . وكان يقول لها في كل مرة : « لقد قتلت فتاة اخرى » ، ثم يذهب مسرعا . ويبدو انها كانت تنظر الى هذه الاعمال باعتبارها نوعا بسيطا من الشدوذ) وقتل جاريير صبيا في الثانية عشرة من عمره داخل غابة ، وكان على وشك ان يلتهم لحمه (« رغم ان اليوم كان يوم جمعة » - هكذا تقول وثيقة الاتهام !) حينما قطع بعض الرجال عليه متعته . وقد شهدوا بانهم رأوه في هيئة رجل ، ووافق جاريير على ذلك . ولكنه اصر على انه كان في هيئة ذئب حينما خنق غلاما في العاشرة من عمره وانتزع الساقين باظافره وانيابه ، ولم يوضح كيف يستطيع الذئب ان يخنق احدا . وقد هاجم ايضا فتاة في العاشرة من عمرها - مرتديا هيئته الذئبية مرة اخرى - ولكنه اضطر الى الفرار حينما شعر باقتراب بعض الناس . وماتت الفتاة بعد ذلك متأثرة بجراحها . وفي هذه المرة قال الفلاحون الذين باغتوا جاريير انهم رأوه في شكل ذئب ، ولكنهم رغم ذلك ظنوا انهم تعرفوا على وجه جاريير . وقد حكم عليه بالموت حرقا .

وليس من غير المؤلف باي حال بالنسبة للقتلة الجنسيين ان يلتهموا الاجزاء من اجسام ضحاياهم . فقد قام البرت فيش بطهو والتهام اجزاء من جسد الفتاة البالغة من العمر عشرة اعوام ، جريس باد ، في جرينبرج ، بنيويورك عام ١٩٢٨ . وقام ايدجايين ، قاتل مدينة ويسكونسين ، بالتهام اجزاء من اجساد النساء اللواتي قتلهن ، وصنع من جلودهن ستراته قصيرة . (وذكرونا هذا بشعائر اخصاب الارض لدى شعب الازتيك (جنوب المكسيك) التي وصفتها اونيلا فولتا في كتابها حول نزعة مص الدماء ، حيث يقوم الكاهن اولا بالتضحية بعذراء ، ثم يسلخ جلدها ويرتديه لكي يقوم بالرقصة الشعائرية) . وبذلك فان اشتهاء جاريير الغريب للحم الانساني لا ينبغي ان يتخذ دليلا على انه قد تحول حقا الى ذئب . ولكنهم المستحيل ان نشك انه غرق في حالة اشبه بالسبات حيث شعر بنفسه انه صار ذئبا ، مثل المهاجرة الروسية التي تحدث عنها سيبروك . وليس من

المعقول ان يكون بعض التحول الجسدي قد حدث بالفعل ، كتعبير جسدي عن القوى الغريزية التي تبعث بقوة من لواعيه ؟ في فيلم « الرجل الذئب » الذي قام بتمثيله لون تشاني ، يتحول تشاني الى وحش كامل بصورة ما ، اشبه بالقرد الكبير منه بالذئب . والوصاف التي ادلى بها الفلاحون في قضية جارنيير تجعلنا ندرك ان هذا هو ما راوه ايضا .

وقد وقعت اشهر محاكمة اوروبية لشخص مستوحش كالذئب بالقرب من كولونيا بعد خمسة عشر عاما من اعدام جارنيير ، وهي في نفس الوقت اكثر ارتباطا بالحالات التقليدية لممارسة السحر . فقد اعترف بيتر ستيوب (او ستامف) بانه ظل على علاقة جنسية بشيطانة (او جنية) طوال ثمانية وعشرين عاما ، وان الجنية قد اعطته حزاما سحريا ، يستطيع بواسطته ان يحول نفسه الى ذئب ، فيصبح مخلوقا ضخما قويا . وطوال السنوات الثماني والعشرين ، ارتكب ستيوب عددا كبيرا من جرائم القتل - وتتشابه التفاصيل الى حد كبير مع تفاصيل جرائم جارنيير - بل انه حاول ان يقضي على حياة اثنتين من زوجات ابنائه (الامر الذي يتطابق الى حد كبير مع حالات الغيرة الجنسية) . وكان الحكم الذي صدر ضد ستيوب ، قاسيا قسوة من نوع خاص : ان ينتزع لحمه من جسمه بملاقط من الحديد المحمي بالنار ، وان تحطم عظامه بضربات المطارق الخشبية ، قبل ان يفصل رأسه عن جسمه . وهناك حقيقة مؤكدة هي ان ستيوب قد عذب عذابا لا يطاق قبل المحاكمة من اجل ان ينتزع منه هذا الاعتراف ، الامر الذي يثير احتمال ان يكون كل ما جاء في اعترافه محض خيال . فلم يعثر ابدا على « الحزام السحري » الذي قال انه كان قد اخفاه مدفونا في احد الوديان . وقد اثارت القضية - رغم هذا - الكثير من المشاعر في اوروبا كلها .

ويروي مونتاجو سامرز عددا كبيرا من حكايات المستدئين ، بطريقته التي توحي بانه يصدق كل ما جاء فيها ، ولكن القليل جدا من بينها هو ما يضيف شيئا جديدا الى ما قلناه بالفعل . على العكس ، فاننا سنكتشف كلما اوغلنا في قراءة كتابه ، ان الكثير من هذه القصص ينبغي ان يقرأ - اذا قرأناه - كما يمكن ان نستمع الى حكايات العجائز عن العفاريت الاشقياء . وهناك عنصر واحد اساسي شائع بينها جميعا : ان يتمكن الشخص الذي يهاجمه المستدئ من قطع مخلبه (او ان يقتلع عينه ، او ان يجرحه في رقبته) ثم يكتشف رجل او امرأة فيما بعد وقد قطعت يده او اقلعت عينه فيعترف بانه هو المستدئ الجريش . ويروي اولوس ماجنوس ، وهو احد كتاب يوميات التاريخ في القرون الوسطى ، قصة هبد اراد ان يقنع سيده بحقيقة وجود المستدئين ، فخرج لها من باب القبو في شكل ذئب ، ولكن كلابها هاجمته ففقد احدى عينيه . وفي اليوم التالي اكتشفت

السيدة ان عبدها قد فقد عينا . ويحكى كل من مونتاجو سامرز وسيسر جيمس
فريزر (في كتابه « الفصن الذهبي ») قصة صياد من مدينة اوفيرني استطاع ان
يقطع مخلب ذئب كان قد هاجمه ، ولما ذهب يروي القصة لاحد اصدقائه ، واراد ان
يطلعها على المخلب ، اكتشف ان المخلب قد تحول الى يد امرأة ، ووجد في اصبع
الكف خاتما ذهبيا، واكتشف الصديق هو خاتم زوجته . واعترفت الزوجة ،
التي كانت تعالج رسفها الذي فقد كفه المقطوعة ، بانها مستدبنة ، فاعدمت . ثم
ياخذ فريزر في رواية القصص الصينية عن البشر الذين يتحولون الى ثور ،
والى قطط ، بل الى تماسيح ، موضحا بذلك ان لكل شعب تنويعاته الخاصة على
نفس الموضوع . ومن العناصر المشتركة في كل تلك القصص في مناطق متفرقة
من العالم ان التحول لا يحدث الا مع اكتمال القمر (الربة البيضاء مرة اخرى) فاذا
ما فقد الشخص المتحول الى حيوان متوحش يده او قدمه ، فانه يفقد قوته معها
مؤقتا . ويبدو في بعض الروايات نوع من الارتباك في النظر الى المخلوق الذي
يقوم بهذا التحول (سواء كان ذئبا او قطة او ارنبا) وما اذا كان يعتبر شيطانا
حقيقيا ، ام مجرد ساحر .

ولم تستطع ظاهرة « الاستدءاب » ان تبقى بعد انتهاء عصر السحر ، وقد
يكون من المهم ان نبحث عن سبب اختفائها . وقد تكون الاجابة هي انه لا يوجد
مكان في الحضارة الحديثة لمثل هذا النوع من الشدوذ . وقد كان ضحايا
المستدببين بشكل عام من الاطفال ، وربما شعر رجال من نوع جارنيير وستيوب
بالاحتياج الى الهرب من عدايات الضمير من طريق اقناع انفسهم بانهم كانوا
ضحايا حكم رهيب من احكام القدر . اما مفتصب الاطفال الحديث ، فعادة ما يكون
منهارا من الناحية الاخلاقية ومعتل العقل الى درجة بالغة ، حتى
انه لا يشعر بالاحتياج الى مثل هذا المبرر . وقد يساعد هذا ايضا على تفسير
استمرار حكايات « مصاصي الدماء » في التأثير على الخيال الانساني . انها التجسيد
الذهني لنوع من الانفعالات اكثر انتشارا وقوة . ولا شك ان المشرفين على الامن
في كل مدينة كبرى من مدن العالم اليوم ، قد اعتادوا على نوع معين من المنحرفين
جنسيا يطلق عليه اسم « الوخاز » لانه يستخدم اداة مدببة صغيرة يخز بها اجساد
النساء في وسط الزحام ويختفي بنفس السرعة . . وهو لا يسعى الى احداث
جرح خطير ولا الى القتل ، وانما يكتفي بالوخز تعبيرا عن رغبته في « الدخول »
في جسم المرأة ، وايدائها ايضا . فاذا تحدثنا هنا عن « العدوان السادي »
مثلما تفعل الكتب المدرسية ، نكون قد تركنا الظاهرة دون تفسير . ان كل ما
يحدث هنا ، هو ان رجلا او شابا يحمل تعلقا « رومانتيكيا » قويا بالنساء ، يفتقر
في نفس الوقت الى الشجاعة الضرورية للاقترب منهن ، او انه لا يبالي المبالة
اللازمة لذلك ، الى ان تتحول الرغبة الكامنة الى نوع من العذاب الداخلي المتفجر .

ان احلامه بممارسة الحب معهن تفتقر الى التحقق ، كما تفتقر الى قوة الاقناع ،
لانه يشعر بانهن سوف يرفضنه . ولكن احلام اليقظة التي تتضمن هجماته
السادية عليهن ، يمكن ان تكون اكثر اشباعا ، لانه يستطيع ان يتخيل نفسه
وهو يفتصب فتاة . وحينما يفرس اداته المدببة الصغيرة في ردف فتاة جميلة
وسط الزحام ، يشعر ايضا بانه قد انتقم منها لانها ترفضه .

ويوضع هذا التفسير ايضا التكوين النفسي لنزعة مص الدماء . انها رغبة
جنسية جامحة محبطة تحولت الى عدوان . وبلاضافة الى هذا ، هناك الخوف
من الموتى ومن الاشياء المتعلقة بما وراء الطبيعة ، فتحصل القصة بذلك على
قوة قادرة على السيطرة على الخيال الانساني . ولكن هذا لا يعني القول بان نزعة
مص الدماء ليس سوى نوع من الخرافة او الوهم . فالامثلة المعروفة عنها تتمتع
بمصادر قوية حتى انه سيكون من العبث التمسك بالموقف المنطقي الصارم . اننا
هنا ، مرة اخرى ، نقف في المنطقة الواقعة خارج حدود العقل الانساني ، حيث
تستطيع قوى غريبة ان تنبع من اللاوعي لكي تتخذ شكلا ماديا واضحا . ويقتطف
مونتاجو سامرز حالة معينة من « محاضر جلسات العمل القومي للبحوث النفسية »
في عام ١٩٢٧ ، حيث قامت فتاة رومانية ، تدعى اليانور زوجون ، بالكشف عن
اثار وندوب ناشئة مما اسمته « عضات الشيطان » على يديها وذراعيها . ويصف
المحقق كيف كانت على وشك ان ترشف من قدح الشاي الموضوع امامها حينما
صرخت . وظهرت آثار اسنان على ظاهر يدها سرعان ما تحولت الى ما يشبه
الندوب . وبعد دقائق قليلة، ظهرت اثار العض على مقدمة ذراعها ، تحت طرف الكم
ومرة اخرى كانت آثار الاسنان غائرة وواضحة . فهل كان في الامر « شبح »
خفي ، ام ان عقل اليانور الباطن كان يشكل ما قد افلت من كل سيطرة ؟
السؤال هنا عقيم ، طالما اننا لا نملك اية فكرة عن القوى التي « يمكن » ان
توجد . لم يتمكن انسان ابدا من النزول الى اعماق اللاوعي لكي يكتشف كل
دهاليزه الخفية . فلماذا ينبغي ان تؤكد ان سبب تلك الندوب ، كان هو العقل
الباطن لاليانور زوجون ؟ انه ، اذا كان يونج على صواب ، وكان هناك « لاوعي
جماعي » فقد تكون هذه الندوب من فعل عقل شخص آخر . ان قراء رواية
« ثلاثة وجوه لحواء » من تأليف ثيجبين وكليكلي ، سيتمكنون من ادراك هذه النقطة
دون صعوبة . ويصف الكتاب كيف حدث ان امرأة متروجة ، حسنة السلوك ، هادئة
تماما ، قد وقعت تماما تحت سيطرة « ذات اخرى » ، صاخبة ، جنسية الميول ،
فارغة العقل ، تحب الاستمتاع بحياتها . ان هذا الوضع ليبدو اقل اثارة للحيرة
مما هو بالفعل ، اننا جميعا نعرف حالات يصبح فيها بعض الناس مختلفين
اختلافا كليا حينما يسكرون . ولكننا ، اذ نقرأ الكتاب ، يزداد امامنا وضوح ان
« وجهي حواء » كانا في الحقيقة « شخصين » مختلفين اختلافا كاملا ، انها حالة

من حالات « المس » بصورة حرفية ، ومن المؤكد انها كانت ستعامل في القرن الخامس عشر على يد القسيس المتخصص في طرد الارواح ، وربما على يد جلاد التعذيب التابع لمحكمة التفتيش. ومنذ تمكنت حواء في النهاية ، ان تتوصل الى شخصية متسقة ومتكاملة ، وحدث « وجهيها » ، فاننا نستطيع ان نتقبل ان « حواء البيضاء » و « حواء السوداء » لم تكونا سوى جانبين لشخصيتها الواحدة . ولكن العقل لا يستطيع ان « يدرك » هذا ، اننا لا نستطيع سوى ان نتقبل الظاهرة بشكل ذهني . ويدرك المرء فجأة بوضوح حدود الوعي ، ولكنه بالتالي يكون اقل استعدادا للتقدم بتفسيرات مدققة بشكل ظاهري لما حدث لاليانور روجون .

وهناك قصة اقل شهرة من حالة « حواء » ، ولكنها اكثر منها اثارة للحيرة من جوانب عديدة ، وهي قصة « سالي وتشامب » التي اثارت القلق في اوساط علم النفس الامريكي في اواخر تسعينات القرن الماضي . ففي عام ١٨٩٨ ، ذهبت فتاة تدعى كريستين . ل . بوتشامب الى الدكتور مورتون برينس ، من كلية تافنس الطبية ، وكانت تعاني من الاجهاد العصبي . وحينما فشل معها العلاج العادي ، جرب الدكتور برينس التنويم المغناطيسي . وذات يوم ، ودون توقع تماما ، برزت شخصية اخرى تماما من خلال العلاج - شخصية فتاة مرحة ، صخابة ، مندفعة ، قالت انها تدعى « سالي بوتشامب » . واصرت سالي على انها « ليست » كريستين ، رغم اعترافها بان لهما جسدا واحدا . ومثلما هو الوضع في حالة « حواء » كانت سالي تعرف كل شيء عن الشخصية الاولى ، بينما كانت هذه الاولى - كريستين - تجهل كل شيء من مجرد وجود كريستين . وكانت سالي صحيحة التكوين تماما من الناحية النفسية الى درجة التفتح والقوة والانطلاق ، وكانت تحتقر كريستين لضعفها البالغ . وذات يوم ، قررت كريستين ان تذهب الى اوربا لقضاء عطلة ، ولكنها كانت بالغة الاجهاد ، حتى انها ذهبت الى احد المستشفيات لكي تستعيد صحتها . ودعي الدكتور برينس لكي يكتشف حالتها ، وقيل له انها مليئة بالحياة ، فذهب ليراها ، واكتشف ان سالي قد ظهرت وسيطرت على الموقف . لم تكن سالي مستعدة لان تخسر عطلة تقضيها في اوربا ، وكانت عازمة على ان تبقى في جسد كريستين حتى يستقلا السفينة . واستطاع الدكتور برينس ان يقنع سالي بلاخلاقية موقفها ، وفي الوقت المناسب استعادت كريستين قوتها وتمكنت من السفر في عطلتها .

في البداية ، كانت سالي مغمضة العينين دائما ، لان كريستين كانت تحت تأثير التنويم المغناطيسي . وفي النهاية نجحت في فتحهما ، وحينئذ اصبحت حياة كريستين اكثر تعقيدا . كانت سالي تستطيع ان تفرض سيطرتها طوال ساعات ، ثم تستيقظ كريستين ، فتتساءل متعجبة عما تكون قد فعلته خلال « فقدانها لذاكرتها » .

وعند هذه النقطة، ظهرت شخصية ثالثة - متميزة واضحة بقدر تميز ووضوح كل من سالي وكريستين - وكانت شخصية حادة اشبه بشخصيات ناظرات المدارس . (وكانت سالي تدموها بالبلهاء) . وكانت هذه الشخصية الجديدة ، التي لم يكن لها اسم فيما يبدو ، تعرف كل شيء عن سالي ، وتبادلت الاثنان كراهية عنيفة . وتعلمت سالي كيف تقرا ما يدور بخلد ها . ودار الصراع بين النسوة الثلاث حول السيطرة على الجسد - رغم انه ليس من الدقة ان نقول ان كريستين اشتركت في هذا الصراع ، انما كانت تدفع الى هذه الناحية او تلك . ولا بد ان ارتباكها المضطرب كان هائلا . وذات يوم قررت ان تحصل على وظيفة في نيويورك . وفي القطار تمكنت سالي من فرض سيطرتها ، فنزلت من القطار في مدينة نيويورك . وحصلت سالي على وظيفة « جرسونة » في احد المطاعم . ولكن كريستين شعرت بانها وظيفة مرهقة . وكرهت « الناظرة » هذا العمل لانه ضيق ويدوي . وذات يوم، اعلنت « الناظرة » انها ستترك العمل ، واخذت اجرها ، وانصرفت ، ثم « رهنه » ساعة يد كريستين ، ورحلت الى بوسطن . ثم تمكنت سالي من السيطرة ، واستأجرت غرفة بدلا من الذهاب الى شقة كريستين . وحينما عادت كريستين ، تملكتهما الحيرة اذ وجدت نفسها في حجرة غريبة في بوسطن ، بدلا من ان تكون في مطعم الفندق الذي كانت تعمل به في نيويورك .

واكتشف الدكتور برينس ان لكل من سالي و « الناظرة » ذاكرة مستقلة في جزءين مختلفين من حياة كريستين ، وان « الناظرة » برزت الى الوجود بوضوح للمرة الاولى ، حينما تسلسل رجل من نافذة حجرة كريستين ، فاصيبت بصدمة ، حين فوجئت به يحاول ان يقلبها . كان الامر مربكا للغاية . ولكنه بعد قليل ، واثناء فترة من فترات سيطرة « الناظرة » استطاع برينس ان يجعلها تندمج في كريستين . ولكن كان من الضروري اخضاع سالي واقناعها بالرحيل ، ولكنها صرخت : « لا ، لا اريد ان اموت ، ان لي من الحق في الحياة قدر ما لها . . » . ولكنها اقتنعت في النهاية . وقرر عالم النفس ويليام ماك دوجالد ، ان سالي لم تكن جزءا من الذات الخفية لكريستين ، وانما كانت كيانا نفسيا او روحيا مختلفا تماما . ويميل المرء الى الاتفاق مع هذا الرأي .

ان اقرب ما رأته الى نوع من التفسير الفينومينولوجي العقلي لهذه المشكلة هو ما يبدو - بكل ما في ذلك من غرابة - في رواية من القصص العلمي بعنوان « الكوكب المحرم » من تأليف و . ج . ستيفارت . حيث يحكي قصة بعثة علمية الى كوكب بعيد كلفت ان تكتشف السبب الذي ادى الى تدمير وفناء كل البعثات الاخرى الى هذا الكوكب . اما الرجل الوحيد الذي استطاع ان يعيش في امان كامل على الكوكب ، فهو عالم عجوز يدعى مورييوس ، وكان في وسعه ان يقول لافراد

البعثة الجديدة ان البعثات الاخرى قد لقيت نهايتها على يسد وحش لا يمكن رؤيته ، ومن الواضح ايضا انه لا يمكن القضاء عليه .

وكان موريوس يقوم بدراسة بقايا حضارة قديمة بائدة كانت تعيش وتزدهر في هذا الكوكب - وكان بناء هذه الحضارة كائنات توصلت الى القدرة على شحن افكارها ، اي شحن قوة « نواياها » حتى اصبح في وسعها ان تجسد تصوراتها العقلية وتحولها الى حقيقة خارجية . وفي نهاية الرواية ، يتبين موريوس الشيء الذي ادى الى فناء البعثات السابقة . فقد اصبح قادرا ، هو نفسه ، ودون حتى ان يشك في الامر او يشعر به ، على شحن « نواياه » الكامنة في عقله الباطن ، رغبته اللاواعية في ان يعيش وحيدا على هذا الكوكب المهجور ، وكانت هذه « النوايا » المتجسدة في قوة خارجية ، هي « الوحش الخفي » الذي قضى على البعثات السابقة الواحدة بعد الاخرى .

ولا بد ان يقرأ هذا الكتاب كل من يحاول دراسة علم النفس الفينومولوجي (الظاهراتي) ، وربما كان الفرض الاساسي من هذا الكتاب هو ان يكون قصة خيالية ، ولكنه ربما يكون قد اقترب من حقيقة النفس الانسانية باكثر مما اقترب فرويد او يونج .

فاذا كانت هذه الفرضية صحيحة ، فانها لن تكون قادرة على توضيح لغز مصاصي الدماء ، والمستذئبين ، والارواح الشريرة وحدها - وانما ستكون قادرة ايضا على تفسير كل ما يدعى بـ « الظواهر الغامضة » او الغيبية . ان العقل الباطن ليس ببساطة مجرد نوع من « المستودعات » المدفونة على عمق كبير من الذاكرات الغارقة والرغبات المقتولة الدفينة ، وانما هو مجموعة معينة ، مختزنة ، من القوى التي تستطيع في ظروف بعينها ان تظهر نفسها في العالم المادي بقوة تفوق اية قوة اخرى يستطيع العقل الواعي ان يسيطر عليها . اننا نألف جميعا لحظات معينة تبدو فيها شخصيتنا الواعية كأنما قد اصبحت اكثر حقيقية ، اكثر صلابة وسيطرة ، فنشعر باحساس فريد من القوة . فلنشغل هذا النوع من القوة والسيطرة وقد دفع الى قوى اللاوعي الاضخم بكثير ، وحينذاك سنبدأ في تبين الملامح غير الواضحة لنظريتنا من السحر وبقية تلك العوالم الغامضة ، وهي نظرية تتجنب كلا الطرفين المتقابلين : التصديق الكامل الساذج ، والشك الرافض الذي لا يقل سداجة .

لقد كان الافتقار الكامل الى مثل تلك النظرية العامة ، هو السبب الذي جعل غالبية ما وضع من كتب حول هذه الموضوعات غير مقنع تماما . ان سامرز يمزج بين قصص تتميز باكبر قدر من الاستحالة مع روايات تحتوي على حلقة تربطها بالحققة الممكنة . اما « اونيلا قولتا » وهي من احداث مؤرخي اسطورة

« مصاصي الدماء » فتتخذ وجهة نظر طبية وانثروبولوجية ، ولكنها تفشل في إقامة العلاقة بين المجرمين الجنسيين ، مثل جاك الخناق ، وسير جانت برتراند ، وبين خرافات دراكيولا . ويبدو انها تحاول القول بان الانتشار الوبائي لنزعة مص الدماء ، مثل ما حدث في منطقة وسط أوروبا فيما بين ١٧٣٠ ، ١٧٣٥ ، انما هو نوع من انتشار الجرائم الجنسية ونزعة مضاجعة الموتى ، بينما يفشل هذا التفسير - في الحقيقة - في التطابق مع ٩٩ بالمائة على الحالات التي يذكرها سامرز ، حيث يحكى ان مصاصي الدماء كانوا جثثا ميتة ، بعثت الى الحياة ، اما بواسطة الشياطين ، او بواسطة ارواح اصحاب هذه الجثث السابقة .

والقصة النموذجية من قصص مصاصي الدماء ، هي تلك التي حكاها اوجستين كالميت في كتابه : « تاريخ الاشباح » الذي صدر عام ١٧٤٦ ، ثم كررها كل كتاب وضع حول هذا الموضوع منذ ذلك الحين . وهي كالتالي :

« في عشرينات القرن الثامن عشر ، كانت الامبراطورية النمساوية تستمتع بفترة من فترات السلام ، بعد سنوات من الحروب المتقطعة ضد الاتراك ، وكانت عملية بناء الجيوش تجري على مهل وبتدبير في الجنوب الغربي . ووجه الامر الى جندي شاب (ذكر احد المصادر ان اسمه كان جواشيم هابنر) بان يسكن في قرية هايلام ، على الحدود النمساوية المجرية .

وذات مساء ، لحظة تناول العشاء ، وبينما كان الجندي جالسا يحتسي النبيذ مع مضيفه وابنه الذي يبلغ من العمر خمسة عشر عاما ، فتح الباب ، ودخل رجل عجوز ، فجلس على المائدة ، وملأ الدرع قلب الجميع . وانحنى العجوز الى الامام ، ولمس الفلاح الاب على كتفه ، ثم انصرف خارجا .

وفي الصباح التالي عشر على الفلاح الاب ميتا في فراشه . وقال الابن المجندي ، ان الرجل العجوز كان هو جده الذي مات منذ عشر سنوات .

وكان من الطبيعي ان هابنر راح يروي القصة لزملائه الجنود في فصيلته ، وبالتالي وصلت القصة الى الكولونيل ، الذي قرر ان يجري تحقيقا فيها ، لأنها كانت تنشر الدرع بين الجنود . وامر الكونت دي كاريراس ، قائد احدى فصائل المشاة ، بان يحصل على بعض الشهادات الموثقة في القرية ، من كل اعضاء عائلة الفلاح الميت . وكان الدليل مقنع الدرجة ان كادريراس امر بان تحفر مقبرة الرجل العجوز . واكتشف ان الجسد كان في حالة جيدة تماما ، كما لو كان قد دفن لتوه ، وبامر من كاريراس فصل الرأس عن الجسد .

وابلغت البعثة بحالات اخرى مشابهة ، عن رجل عاد ثلاث مرات منذ موته قبل ثلاثين عاما ، وحاول ان يمتص الدم من بعض افراد عائلته . وتم فتح مقابر

كل هؤلاء « مصاصي الدماء » ، ووجدوا جميعا في نفس الحالة الجيدة التسي وجد عليها الرجل الاول . واكد القرويون ان احدهم كان خطيرا للغاية ، حتى انهم لن يقنعوا الا اذا احرق الكونت جثته .

وسمع الامبراطور تشارلز السادس عن تلك الاحداث ، فارسل بعثة ثانية للتحقيق ، فأكدت قصة البعثة الثانية . وفي عام ١٧٣٠ ، املى كاديراس القصة لاحد الموظفين في جامعة فريبورج ، ولا بد ان كالميت قد رأى هذه الشهادة خلال السنوات الخمس التالية ، طالما انه يقرر ان تلك الاحداث قد وقعت : « منذ خمس عشرة سنة » . ويزعم مونتاجو سامرز ان مخطوطة الشهادة ما زالت موجودة .

وتبدو القصة ذات اطار من الظروف والملابسات محبوك بما فيه الكفاية ، رغم ان هذا ليس ضمانا بصدقها . انني لم اتمكن من العثور على قرية تسمى هايدام ، لا على الخريطة ، ولا في دوائر المعارف ، ولكن هذا لا يثبت شيئا ، طالما ان القرى تتغير اسمائها اذا ما تغيرت الحدود . وسواء كانت القصة صادقة ام لا - وسامرز يشير اليها باعتبارها واحدة من افضل حالات « مص الدماء » توثيقا - فانها تحمل كل الملامح النموذجية التقليدية في قصة عن هذا الموضوع : الميت الذي يتجول ليلا ، والذي لا يمكن القضاء عليه الا بالاحراق او بفصل رأسه عن جسده (او احيانا بدق وتد او سيخ حديدي في قلبه) ، والهجمات التي يشنها على الاحياء الذين يقال انهم يتحولون الى مصاصين للدماء بعد موتهم .

وتشير اورنيلا فولتا الى ان جثة القديسة تيريزا من افيللا ظلت دون ان تتحلل في قبرها لمدة طويلة من الزمن - تقول عنها انها ١٧٨ سنة . ولكن ج. م. كوهين ، في مقدمته لترجمتها الذاتية يقنع بملاحظة تقول : « ان اعمال الطيران الغامضة هذه (فقد كانت القديسة تطير في الهواء اثناء الصلوات) لم يحدث ان مائلها شيء سوى ان جسدها لم يفسد بعد موتها » . .

ويبدو ان وباء مص الدماء الذي انتشر في الفترة من ١٧٣٠ الى ١٧٣٥ قد بدأ في قرية ماديو جونا ، بالقرب من بلجراد ، على يدي جندي شاب يدعى ارنولد باول ، كان قد عاد من الخدمة العاملة في اليونان عام ١٧٢٧ . وروى للفتاة التي كان خطيبا لها ان مصاصا للدماء هاجمه ليلا في اليونان (وهي دولة اخرى تشتهر بأساطير مصاصي الدماء) ولكنه تمكن من معرفة مقبرته واستطاع ان يقضي عليه - الامر الذي كان ينبغي ان يؤدي الى انتهاء اللعنة المسيطرة على الميت وعلى من هاجمه معا . ومع ذلك ، فقد مات الجندي ، ثم شوهد يتجول حول القرية بعد هبوط الظلام . وبعد عشرة اسابيع ، عقب ان زعم عدد كبير من الناس

انهم رأوه ، او حلموا به ثم شعروا بضعف غريب يمتلكهم في الصباح بعد الاستيقاظ من النوم ، قام اثنان من جراحي الجيش واحد النقيب ومساعدوه ، باستخراج الجثة ، وكانت آثار الدم ما تزال عالقة بفمها . وتم تغطية الجثة بالثوم ، الذي يفترض انه يقوم بمهمة الحماية من مصاصي الدماء ، وغرس وتد طويل في قلبها ، ثم اعيد دفنها .

ويقوه سامرز ، ان قرية ماديو جنا ، اجتاحتها وباء من مصاصي الدماء بعد ذلك بست سنوات ، وفي هذه المرة ، قام عدد كبير من الاطباء البارزين بالتحقيق ، وتم في ٧ يناير عام ١٧٣٢ ، التوقيع على التقرير الطبي ، واشترك في التوقيع الاطباء : يوهان فليكنجر ، ايزال سيبدل ، يوهان بومجارتز ، وضابطان من بلجراد ، احدهما برتبة « ليوتنانت كولونيل » ، والاخر اقل منه رتبة . وقد شهدوا جميعا بانهم قاموا بفحص اربع عشرة جثة ، سجلوا اسماءها ووصفوها ، بما في ذلك جثة فتاة في العاشرة من عمرها . وكانت اثنتان فقط من بين الاربعة عشرة - لام وطفلها - في حالة تحلل طبيعية ، اما الجثث الاخرى فكانت : « في حالة مصاصي الدماء التي لا يمكن اخطاؤها » . ولم يحتو التقرير على ما تم عمله ازاء هذه الجثث ، وان كان المفترض انها قد احرقت او فصلت رؤوسها ...

ولا بد من الاعتراف بأن سامرز لا يقدم اي دليل مقنع ، من النوع الذي يمكن ان يرضى « جمعية البحوث النفسية » عبر كتابه المكون من مجلدين كبيرين . ولا شك ان هذا يرجع الى ان فضوله بشأن مثل تلك الاشياء كان فضولا يقطا ، ولكنه ظل سطحيًا دون عمق ، لم يكن قادرا على النفاذ الى ما يكمن وراءها .

ولكن الوضع يختلف تماما مع ديوفورشن ، التي تعد واحدة من اعظم دارسي علوم الغيب المحدثين ، والتي يعتبر كتابها : « دفاع الذات النفسي » عام ١٩٣٠ ، عملا كلاسيكيا في مجاله . انها تربط ربطا مباشرا بين نزعة مص الدماء وبين القوى النفسية السلبية ، تلك التي يعرفها العامة باسم « العين الشريرة » . وقد روت في كتابها قصة مديرة مدرسة شنت ضدها « هجوما نفسيا » . ولكن هذا الهجوم ، بالصورة الذي روته هي به في الفصل الاول من الكتاب ، لا يكاد يبدو هجوما نفسيا . . وعلى اي حال ، فان هجوم المديرة على مسز فيرث (فهذا هو الاسم الاصلي لديون فورشن) قد ادى الى اجهادها روحيا واستنزاف حيويتهن طوال ثلاث سنوات ، ولكنها بعد ان تمكنت من استرداد قوتها العقلية ، حولت اهتمامها الى علم النفس ، ثم الى علوم الغيب .

.. وتبدأ ديون فورشن الفصل الذي كتبه عن نزعة مص الدماء ، بوصف مجموعة من الحالات التي واجهتها في عملها كطبيبة نفسية ، حينما يتبادل زوجان استنزاف طاقة احدهما الآخر الحيوية ، او حينما يستنزف احد الابوين طاقة

طفلة (وهي تزعم ان كل حالات عقدة اوديب ترجع الى هذا السبب) . ونقول . .
« يبدو لي اننا لم ندرك بعد بشكل كامل ، كيف يؤدي الشريك السلبي في علاقة
من هذا النوع الى « انخفاض في الطاقة » عند الشريك الايجابي . ان عملية
« لعق » للطاقة تجري في مثل هذا الوضع ، ويقوم الشريك المسيطر ، بشكل واع
او اقل وعيا بلعقتها ، ان لم يكن يمتصها امتصاصا » . ثم تقتطف من الكوماندو
بريان جولد ، مؤلف كتاب « غرائب » ما يزعمه من ان ابناء قبيلة بيريلانج في
الفيلبين ، يمارسون بالفعل مص الدماء ، ولكنهم يمتصون الحيوية من الآخرين
وليس الدم - عن طريق تحرير اجسادهم الانيرية من اجسادهم المادية وتسلطها
على من يريدون امتصاص حيويته . ثم تبدأ ديون فورشن في سرد حالة كانت قد
واجهتها بنفسها ، عن جندي فرنسي كان يعاني من المثلية الجنسية ، وكان تحت
العلاج النفسي ، ولكنه كان يستيقظ كل صباح مجهدا تماما ، ليروي كيف انه
كان يحلم طوال الليل بان شبعا معينا يهاجمه ، وكانت نوافذ الحجرة توجد دائما
مفتوحة ولا ينفع اغلاقها باحكام في شيء . واعترف الجندي الشاب بانه كان على
علاقة جنسية شاذة مع ابن عمه الذي ضبط وهو يضاجع جثث الجنود القتلى في
الجبهة الفرنسية القريبة فاعيد الى الخطوط الخلفية ، لكي يعالج نفسيا ، وفي
المستشفى جاء ابن العم (صاحب الحالة) لكي يراققه فبدأت العلاقة بينهما ، وقد
حدث اثنله احدى مرات معانقتهما ان عضه ابن عمه في رقبته وامتص الدماء
من الجرح .

وتقول ديون فورشن ان ابن العم الذي عض جنديها الشاب السلي كانت
تعالجه ، لم يكن هو « مصاص الدماء » الاصلي في هذه الحالة ، وانما كان قد
اصبح مملوكا للجسد الاثيري لاحد من كان يضاجعهم من الجنود القتلى ، وهذا
الجسد الاثيري هو الذي انتقل الى الجندي الشاب من خلال حادثة العض التي
امتص خلالها ابن عمه دمه . .

« لا شك ان هذا التعليل يبدو خياليا الى حد بعيد ، ولكن ديون فورشن تقيم
تفسيرها على اساس نظرية قدرة بعض الناس على تعلم حيلة من الحيل المعروفة
في علوم الغيب - وخاصة لدى المجريين - والتي تؤدي بصاحبها الى القدرة على
تجنب « الموت الثاني » اي تجنب موت الجسد الاثيري بعد موت الجسد المادي ،
من خلال حصول الجسد الاثيري على الحيوية اللازمة له من اجساد الاحياء الذين
يتمكن من الاستيلاء عليهم .

وتقيم ديون فورشن تفسيرها لظاهرة الاستداء على نفس النظرية ، على
اساس ان بعض الناس من اصحاب العقول القوية ، يستطيعون ان يخلقوا اشكالا
فكرية تمتلك فعليا حياة مستقلة ، فتصبح ذات كيان مادي محسوس .



ومن المهم هنا ان نلاحظ ان « الوطواط مصاص الدماء » قد حصل على هذا الاسم من الاوروبيين بناء على معرفتهم بالاسطورة ، وليس العكس . ولكن هذا الوطواط ، لا يمتص الدماء في الحقيقة ، وانما هو يلعقها كما تلعق القطعة اللسان . وقد لاحظ علماء الحيوان في هذا الصدد ملاحظة هامة ، هي ان الوطواط مصاص الدماء ، الذي يجرح ضحيته جرحا غائرا بمخلبه ، ثم يثبت فمه على الجرح ويتحرك لسانه بسرعة هائلة داخل الجرح ليلعق ما يسيل منه من دم : لا يوقظ ضحيته النائمة ، ولا تكاد الضحية ان كانت مستيقظة تشعر بالهجوم الذي يشنه عليها . انما يستيقظ الرجل في وسط وغرب افريقيا - بعد ان يكون الوطواط قد هاجمه في نومه - فيجد ان دمه قد بلل فراشه دون ان يشعر ، ولاحظ العلماء ان الحيوانات وهي ترعى او تسترخي ، يهاجمها مصاص الدماء فلا تتحرك ولا تهتز : ولا احد يعرف السر في هذه الظاهرة .

ولكن قد يكون من الممتع ان نعرف ما سيلحق بأسطورة مصاصي الدماء البشري بعد ان تنتشر المعلومات الجديدة عن الوطواط مصاص الدماء .

وقد نشرت صحيفة « الديلي اكسبرس » في شهر يونيه عام ١٩٧٠ قصة تدل على ان اسطورة « مصاص الدماء » لا تزال حية بين الناس . فقد ادانت محكمة « كليركينويل » في لندن ، شابا في الرابعة والعشرين من عمره ، يدعى آلان فارو ، لدخوله مقبرة هاجيت ، لاسباب غير مشروعة ، وكان قد القي القبض عليه داخل المقبرة ، وهو يحمل « وندا » خشبيا وصليبا كبيرا من الحديد ، وقال انه دخل هناك لانه يعتقد بوجود كائن غير طبيعي يختفي في المقابر ، ولا بد من القضاء عليه بان يفرس في قلبه وندا من الخشب . وقد ادلى المستر سيان مانستر ، رئيس الجمعية البريطانية لعلوم الفيب للصحيفة بتصريح اكد فيه انه يعتقد بوجود « مصاص للدماء » في مقبرة هاجيت ، وقال ان عدة تقارير من سكان المنطقة ومن العابرين ، جاءت للجمعية ، تقول انهم شاهدوا شخصا كالشبح ، هائل الحجم يتجول بالقرب من البوابة الشمالية للمقبرة .



كان الاعتقاد الشائع حتى عام ١٩٥٣ ان السحر قد انتهى في انجلترا بحل جماعة « الفجر الذهبي » في منتصف الثلاثينات . (وقد نشر احد تلامذة كراولي ، ويدعى فرانيس اسرايل ريجاردي رواية كاملة عن طقوس وشعائير جماعة « الفجر الذهبي » في اربعة مجلدات ضخمة ، ولكن القلائل الباقين من اعضاء الجمعية يقررون ان هذا الكتاب الضخم لا يكاد يستحق قراءته كاملا) . ولكن حدث في عام ١٩٥٣ ، ان صدر كتاب بعنوان « السحر اليوم » ومؤلفه جيرالد جاردنر ، فثار ردود فعل قوية على الفور . واعتمد جاردنر على النظرية

المعروفة لمارجريت موري والتي تقول بان السحر بقية من بقايا الديانات الوثنية ، ثم راح يثبت بعد ذلك ان السحر في انجلترا ما زال شائعا اليوم مثلما كان شائعا في القرن الخامس عشر . وقال جاردنر ان الساحرات والسحرة المحدثين ، يعبدون الها ذا قرون والى جانبه ربة القمر . ولاحظ قراء كتاب « السحر اليوم » رغبة قوية في سرد روايات التعذيب والجلد بالسياط ، وربما كانوا قد استنتجوا ان الصفة التي يدفع جاردنر بها السحر ، تحتوي على نفقات جنسية قوية كثيرة . ويقول فرانسيس كينج في كتابه : « السحر الشعائري في انجلترا » بوضوح صريح ان : جاردنر كان ذا ميول سادية ماسوشية ، يستعذب ان يجلد بالسوط ، وان يقوم في ذات الوقت بمشاهدة الآخرين وهم يجلدون .

ويبدو ان جاردنر ، الذي مات عام ١٩٦٤ في الثمانين من عمره ، كان شخصية متوهجة كثيرة الزخرف بطريقة كراولي - وهذا يعني بانه كان على شيء من النزعة الاستعراضية ... وقد عاش في الشرق حتى عام ١٩٣٦ ، حينما عاد الى انجلترا واصبح دارسا وممارسا للسحر . وانضم الى جمعية للسحر في عام ١٩٤٦ ، طبقا لروايته هو . ونتيجة لكتابه « السحر اليوم » ظهرت في إنجلترا عدة جمعيات ، أطلق عليها اسمه ، وطبقا لما يرويهِ جاردنر نفسه ، فان هدف هذه الجمعيات ، كان ممارسة السحر الابيض . معالجة المرضى ، واقامة الاحتفالات الشعائرية لضمان جودة المحاصيل . الخ . ولكنها كانت شعائر ذات جوانب جنسية قوية . وفي كتاب بعنوان : « الانسان والخرافة والسحر » يصف صحفي ومصور يدعى سيرج كورديف كيف اشترك في جمعية للسحر تبدو ذات صفات مستمدة من تعاليم جاردنر الى حد بعيد . فحينما وصل هو وزوجته الى مقر الجمعية في منزل عتيق من الطراز الفيكتوري ، وجدا نفسيهما في حجرة لخلع المعاطف بدت مشاجبها وصناديق حفظ الملابس فيها ملأى بمجموعات كاملة من الملابس بما فيها الملابس الداخلية . اما الاحتفال الذي اقيم امام مذبح اضيئت امامه ست شموع سوداء فقد تضمن لمسات ميلودرامية قوية مع اطلاق مجموعة من النذر وتأكيداتها بعلامات ترسم بالدم والتضحية بديك اسو اللون . وراح « الاستاذ » الذي كان رجلا عاريا يلتصق جسمه بالزيت الاحمر اللون ، راح يلمس الاعضاء التناسلية للحاضرين . وفي مناسبة اخرى ، قام استاذ باغتصاب فتاة على المذبح كعقاب لها على خيانة ما عرفت من اسرار . ويزعّم كورديف ان حظه تحسن فجأة حينما كان عضوا في الجمعية، ثم تدهور حينما انفصل عنها .

وتضمنت طقوس جيرالد جاردنر ايضا عمليات جلد شعائرية وجماع جنسي يتم بين الكاهنة والكاهن العظيمين . وقد اصر على ان ممارسة السحر كانت عبادة من نوع صحي ، وانه لا بد من النظر اليها باعتبارها دينا من الاديان .

ويظل موضوعا للخلاف والجدل ما اذا كان جاردنر على صواب ام لا ، فقد يؤدي بنا بعض الاسنقصاء الدقيق الى الاحساس بان ثمة قدرا من الاختراع في كتابيه بل ان فرانسيس كينج يقرر انه قد قام بتزوير « كتاب قواعد للسحرة » تحت عنوان : « كتاب الظلال » . وترك جاردنر في وصيته متحفا للسحر في مدينة « كاسل تاون » في « جزيرة مان » ، سيدة تسمى مونيك ويلسون ، وهي ساحرة معاصرة مشهورة اخرى، وتعرف في دوائر السحرة باسم « لادي اولوين » . وتقوم مسزم ويلسون الآن بادارة المتحف ، بالاشتراك مع زوجها ، كما يعقدان اجتماعات سحرية اسبوعية في كوخ جاردنر القديم . وهي تؤكد ان طقسا جنسيا معينا ، اسمه « الزواج المقدس » لا يجري الا مرة واحدة كل خمس سنوات ، وتصر على ان السحر الانجليزي الحديث ، هو في اساسه عبادة الربة الام : « الارض » .

ويقول فرانسيس كينج ان السنوات الاخيرة شهدت حركة احياء لجمعية « الفجر الذهبي » وطقوسها . ولكن من الصعب الآن ، العثور على كتاب اسرائيل ريجاردي ذي المجلدات الاربعة ، فاذا ما امكن الحصول عليه ، فان ثمنه يزيد على ثمانين جنيه استرلينا ، ولكن كتابا ثانيا عن التعاليم الداخلية السرية لجماعة « الفجر الذهبي » قد صدر اخيرا في انجلترا ، عام ١٩٦٩ ، واصدره الناشر نيفيل سيرمان وهو كتاب : « الفجر الذهبي : تعاليمه السحرية » . ويقول كينج ، ان جمعيات السحرة الجديدة ، تضم عادة خريجي الجامعة الجدد من الشبان ، ويزعم اثنان من قادة هذه الجمعيات انهما تجسيدا جديدا لالستر كراولي . وهناك جمعية تزدهر الآن في مدينة « وولفرهامبتون » وفي اقليم « ميدلاند » وتطلق على نفسها اسم « الصخرة المكعبة » ويبدو انها اقرب الى كراولي منها الى جماعة « الفجر الذهبي » . وقد اشار كينج الى فقرات مطولة ، اقتبسها من مجلة « مونوليت : الذي يضيئه القمر » وهي المجلة التي تصدرها الجمعية ، وكان على صواب فيما استخلصه من هذه الفقرات عن النجـاح الاستعراضي الذي تحققه اجتماعات الجمعية العامة . . وفي رأي كينج ان اعضاء « جماعة الصخرة المكعبة » ينبغي اعتبارهم طلبة جادين ودارسين يحملون المشاق المختلفة لدراسة علوم الغيب ، متبعين في ذلك المنهج « الانوشي » .

وقد يكون من الاسلام حقا ان نقول ان انجلترا وامريكا ، تضمان الان اعدادا من السحرة تزيد على ما كان فيهما منذ عصر الإصلاح . وقد اكدت ساحرة منهم ، تدعى مادلين مونتالبان ، انه : « ينبغي على السحر ان يجعل الحياة اسهل . . هذا هو كل هدفه » .

ولكي نلخص كل شيء نقول : يبدو ان فن السحر الحديث اكثر تنوعا بكثير من شبيهه الاقدم عهدا . ولا شك ان كثيرا من الجماعات السحرية ليست سوى

المبرر المعلن لاقامة احتفالات العريضة الجنسية ، واستعراض بعض الافراد لمواهبهم وقواهم الخاصة . وبعض هذه الجماعات تتسم بنزعة تطهيرية بارزة ، وتتعامل مع السحر بوصفه ديناً مؤملاً لمن يلتزم بتعاليمه ، وتمارسه بعض الجمعيات بروح البحث، وبهدف اكتشاف المدى الذي تستطيع الشعائر القديمة الوصول اليه في مجال تحقيق النتائج ، الموضوعية او الذاتية . وربما كان من الضروري ان ننظر الى هذه الجماعات الاخيرة نظرة جدية تماما . فلاسباب لا نفهمها حتى الان ، تؤدي بعض هذه الطقوس بالفعل الى نتائج معينة - على الاقل ، حينما يقوم بها الشخص الصحيح . ولا بد ان معنى هذا هو ان هناك قوانين معينة ، تتحكم في هذه الظاهرة . وفي القرون السالفة ، لم يكن ثمة فضول يتطلع الى معرفة تلك القوانين ، لان الناس كانوا يفترضون ان الشيطان وعصابته هم من يقفون وراء ما يحدث من ظواهر . ولكن حدث ان بزغ عصر العلم في وقت معين ، وحينذاك ، اختفى السحر . والان ، وحينما تاكل الايمان بالعلم وتلاشى ، يرى السحر حركة احيائه وبعثه . ان التوقيت على الاقل ، توقيت ممتاز .

نظرات خاطفة

يعرف كل علماء الطبيعيات ، انك حينما تتعامل مع ظاهرة لا يمكن ملاحظتها بشكل مباشر ، من نوع ما يجري داخل ذرة او نوية ذرية ، فان الضرورة الاولى هي صياغة نظرية تتناسب مع الحقائق المعروفة وتلك التي يمكن الحصول عليها . فالحقائق دون نظرية ، ليست سوى شذرات مشوشة من لفز « اجزاء الصورة » الممزقة ، ملقاة داخل صندوقها دون علاقة تربط بينها . وفي هذا الفصل ، سأحاول ان اقترح نظرية عامة قد تستطيع ان تفرض نوعا من النظام على الكتلة الضخمة التي تشكل ظاهرة النزوع الى الوسائل الغيبية ، وهي الكتلة التي فحسناها في الفصول السابقة بالفعل . ومن الممكن ان نطرح هنا جوهر هذه النظرية في سطور قليلة . ان « الوحي العادي » ، عاجز عجزا ميثوسا منه ويقف تحت المستوى الطبيعي للأشياء . . وقد حاولت مختلف الفرق والانظمة الدينية والصوفية والنسكية ان تقدم علاجا لهذا القصور الذي تدعوه المسيحية بالخطيئة الاصلية ، ولكن اعظم الخطوات الى الامام قد وقعت في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر حينما بدأ ادموند هوسرل في صياغة المذهب او النظام الفلسفي الذي اطلق عليه اسم « الظاهراتية » ، وهو شكل من اشكال علم النفس التحليلي قائم على الاعتراف بـ « عمدية » كل تصرفاتنا العقلية . ان هذا النظام - الذي لم يفهم حتى الآن الا بشكل جزئي - يؤدي الان ببطء الى نوع من الفهم لشكل العمليات وميكانيكياتها المتضمنة بالتحديد في تلك التصرفات العقلية ، وعلى ذلك يؤدي الى فهم الجزء المفقود منها . والموقف الاساسي لهذا الكتاب ، هو انه اذا امكن ان تدفع الآلة الى العمل بشكل طبيعي ، فان الانسان سيستطيع التوصل الى ، او سيتمكن من ان يتعلم استخدام قدرات وملكات ما تزال حتى الان غيبية (خبيثة ، خفية) ، وقد يكتشف الانسان ان هذه القدرات ان هي الا قدرات طبيعية رغم كل شيء .

لقد اعترفت جميع النزعات الغيبية بوجود قوة حيوية لم يتعرف عليها -

ولم يصل اليها مطلقا - العلم التقليدي الجامد . وقد اطلق عليها ميسمير اسم: « المغناطيسية الحيوانية » ، اما ماري بيكر ايدي ، فقد اعتقدت ان هذه القوة هي « سر الصحة » .

وفي عام ١٨٤٥ ، ظهر في المانيا كتاب ضخيم يمكن ان نختصر عنوانه الطويل الى : « بحوث فيسيو - سيكولوجية حول ديناميكيات المغناطيسية ، الخ ، فيسي علاقتها بالقوة الحيوية » . وكلن هذا الكتاب من تأليف عالم كيميائي محترم هو البارون كارل فون رايشنباخ ، قال في احدى صفحاته الاولى :

« من خلال تلمظ جراح يعمل في فينا ، تعرفت في مارس عام ١٨٤٤ على احدى مريضاته وهي ابنة احد جامعي الضرائب في نوفوتني رقم ٤٧١ شارع لاندستريست ، وهي امرأة شابة تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها ، كانت تعاني من آلام في راسها طوال ثمانية اعوام ، ثم تنتابها نوبات صرع حادة ..

وقد ظهرت فيها كل كثافة الحواس المجيدة ، حتى انها لم تكن تستطيع ان تتحمل الشمس ولا ضوء الشمعة .

وسمحت أنا لابيها بان يجري للفتاة اولى التجارب التمهيديّة .. وطلبت منه ان يوضع في مواجهة الفتاة ، في منتصف الليل ، اكبر مغناطيس موجود الان في العالم ، وهو على شكل « خندوة حصان » ذات تسع طبقات ، قادرة على التقاط ورفع نحو تسعين رطلا من الحديد .. وتم هذا بالفعل ، وفي الصباح التالي ابلغت ان الفتاة شعرت بوجود « ضوء مستمر متميز » طوال تشغيل المغناطيس الى جوارها .. وكان الضوء الناري مساويا في حجمه لكل من قطبي المغناطيس .. وقريبا من الفولاذ الذي كان هذا الضوء يتدفق منه ، بدا ان الضوء يشكل شيئا كالبخار الناري ، وكان هذا الشكل محاطا بنوع من الهالة من خيوط الاشعة .. »

وعثر رايشنباخ بعد هذا على اربع فتيات اخريات مصابات بالنيورثانيا (التوثر العصبي) وقد راين جميعا نفس الضوء . ورائه بعضهم متخذة شكل الشفق القطبي مشعا ضوءا اصفر محمرا من القطب الجنوبي ، وضوءا اخضر مزرقا من الشمالي .

... وقد حاول بعض العلماء في بلدان اخرى ان يجروا نفس التجارب التي اجراها رايشنباخ فحصلوا على نفس التجارب . هناك على سبيل المثال ، الدكتور جون آشبورنر ، وهو مترجم رايشنباخ الى اللغة الانجليزية ، وقد ملا هوامش الكتاب بملاحظات المطولة عن تجاربه هو الخاصة ، التي تتفق احيانا ، ولا تتفق في احيان اخرى مع رايشنباخ . ولكن كان هناك - حتى منذ البداية - عدد من النقاد الذين وصفوا كتاب رايشنباخ بأنه كتلة من السخافات والاكاذيب . وفي انجلترا ، ظهر جيمس برياد ، وهو الرجل الذي درس ظاهرة التنويم

المغناطيسي ، فوجد تفسيراً أكثر بساطة للظاهرة التي أطلق عليها رايشنباخ اسم « قوة الجذب » بعد أن أثبتت تجاربه أن نسبة كبيرة من الناس تستطيع أجسامهم أن تجتذب عدداً كبيراً من العناصر المعدنية ، بصرف النظر عن الوانها ، وما إذا كانت قابلة للمغنطة (كالحديد والكريستال) أم لم تكن ، وسواء كانت تمتلك طاقة كهرومغناطيسية أم لا . وكان تفسير برياد ببساطة لتلك الظاهرة هو : الإيحاء من طريق التنويم المغناطيسي . وقال أن هذا هو ما يبرر ضرورة أن يكون كل الأشخاص الذين استخدموا في هذه التجارب مرضى وشديدي الحساسية . وبدأ الناس الذين أشادوا بكتاب رايشنباخ باعتباره أكثر ما أضيف إلى العلم أهمية منذ كتاب نيوتن « المبادئ » ، بدأوا في كبح جماح حماسهم وفي التعبير عن أسفهم . وفي عام ١٨٥٩ اكتسحت العالم موجة المناقشات حول النظرية الداروينية ؛ وبذلك بدأ الناس ينظرون إلى مسألة قوة الجذب المغناطيسية في الأجساد البشرية باعتبارها نكتة خرافية قديمة ، وإلى مكشفتها باعتباره مشعوذاً أساء اختيار وجهته . ولا بد لكل عالم يقتبس الروحانيون شيئاً من أعماله أن يكون مشعوذاً دجالاً .

ومع هذا . . فرغم أن كتاب « بحوث في المغناطيسية » لرايشنباخ قد سبي منذ وقت طويل ، وأن المكتبات التي لا تزال تمتلك منه نسخة قد اعتادت أن تضعه تحت قائمة الكتب في علم « الكهرباء » فإنه يظل كتاباً مقنناً ولا يمكن نسيانه . فهل يمكن أن يكون بعد كل شيء على صواب ؟ أن الهندوس يؤمنون بقوة يدعونها « كونداليني » يحاول فلاسفة وممارسو اليوجا أن يسيطروا عليها ، وهي تهبط على طول النخاع الشوكي وتتحرك من « مركز » إلى « مركز » في الجسم . وكثيراً ما تظهر في صور الأشخاص المنحوتة على جدران المعابد في الهند وسيلان واليابان « هالات شبحية » خارجة ممتدة من الجسد ، وتصميمات الألوان تذكرنا إلى حد قريب بالتصميمات التي وضعها رايشنباخ عن ألوان الطيف الخارج من أجساد الأشخاص الذين أجرى عليهم تجاربه . ويقول باراسيلسوس : « أن القوة الحيوية ليست حبيسة داخل الإنسان ، وإنما هي تشع حوله مثل مجال مضيء . . وفي تلك الإشعاعات شبه الطبيعية ، قد ينتج خيال الإنسان نتائج صحية أو مريضة . »

... وفي عام ١٩٣٩ ، أدهش عالم نفس فرويدي بارز ، هو فلهم رايش ، زملاءه وأثار غضبهم ، بإعلانه أنه قد اكتشف نوعاً جديداً من الطاقة لم يكن معروفاً عند علماء الطبيعة ولا عند الأطباء : الطاقة الحيوية التي تنظم صحة المخلوقات الحية . وتبلغ حالة فلهم رايش درجة كبيرة من الغرابة حتى أنها تستحق أن نتفحصها بتطويل نسبي . فهي تذكرنا برايشنباخ من نواح عدة .

ولد رايش في عام ١٨٩٧ ، وفي منتصف العشرينات من القرن شغل مركزاً

قويا في حركة التحليل النفسي في فيينا . وكان عضوا في الحزب الشيوعي الى ان طرد منه عام ١٩٣٣ حينما قال ان الفاشية نتيجة للقهر الجنسي لا للعوامل الاقتصادية .

وكان اكثر مفاهيمه اهمية هو مفهوم « درع الشخصية » ، القوقعة الشبيهة بصدفه السلحفاة التي يخلقها العصبيون لانفسهم لكي يخفوا ضعفهم الداخلي وقلقهم ، والتي يمكن ان تعبر عن وجودها حتى في شكل التصلب العضلي او الشلل وراى رايخ ان وظيفة المعالج النفسي هي ان يحطم هذه الدرع .

ولكن من الواضح ان ثمة منصرا سلبيا في هذا المفهوم . فمن الممكن ان نفسر شخصية اي انسان باعتبارها درعا دفاعية ، سواء كان شخصا انبساطيا او انطوائيا ، مدمرا ام مبدا . فاذا سيطرت فكرة رايخ على شخص ما ، فلا بد ان ان يرى جميع الآخرين باعتبارهم مرضى . وقد كان لدى رايخ مفهوم عن الشخصية الصحية : الشخص الذي يكون قد تعلم ان يعبر عن الدوافع الجنسية بحرية كاملة . ولكنه كان واسع الادراك بما يكفي لان يرى ان هذا ايضا سيكون موقفا سلبيا . (وهو في الحقيقة ليس سوى نوع من التكرار لموقف د.هـ. لورنس) . فان بلوغ النشوة الجنسية لا يمكن ان يكون حقا هو الهدف النهائي للجنس البشري . وانطلق عقله بحثا عن مفهوم جديد اكثر ايجابية . وفي الترويج عام ١٩٣٩ ، اعتقد انه قد عثر على هذا المفهوم : الطاقة الاورجونية (من عضوي organic) وقال ان : « . . الاورجون طاقة مؤثرة بشكل عملي ومن الممكن رؤيتها وقياسها وذات طبيعة كونية » ، قال هذا في هامش ص ٣٠٤ من كتابه « تحليل الشخصية » .

« ان الفلسفة الطبيعية الحديثة ، من اجل ان تفسر العالم ، كانت مرفوضة على ان تعترف بعامل فعال وسيط وكوني لا يمكن التفكير فيه (و) قد استطاعت حتى ان تبرهن على حضوره الدائم . . . وحول هذا المبدأ الكوني الاساسي ، يتفق زرادشت مع هيراكليتس ، ويتفق فيثاغوراس مع سانت بول ، ويتفق القبلانيون مع باراسيلسوس . ان الربة « سيبيل - مايا » (١) تحكم في كل مكان ، باعتبارها

(١) سيبيل مايا - في الميثولوجيا الغربية الكلاسيكية (اليونانية) ام الالهة وجميع الارباب ترجع اصلا الى هريجيا الاسبوية ، ولكن اليونانيين طابقوا بينها وبين « ريا » ربة الطبيعة والعناصر والقوى الطبيعية ، وجعلوها زوجة كرونوس (الزمن) الذي راح يتلع ابناها واحدا بعد الآخر ، حتى انقذت آخرهم (اورانوس) بان اعطت لابيه حجرا ملفوفا في القماط ليبتلعه بدلا منه ، ويكسر اورانوس ، ويتعاون مع امه في قتل ابيه واستخراج اخوته من بطنه ، وعاش سيبيل بعد ذلك رمزا للكون والفساد ، واصبحت كبيرة الاولمب الروماني ، الى جانب جوبيتر وجنو (زيوس وهيرا) .
(هـ . م) .

روح العالم الجبارة ، المادة المتأرجحة المرنة التي تستخدمها بمحض ارادتها
نفحة الروح الخلاقة ... يتحول السائل ويتشكل ، يتجمد او يسيل ، يخف او
يزداد ثقلا ، طبقا للنفوس التي تغطيها او للعالم الذي تطويه داخلها .

ليس هذا اقتباسا من راينغ ، وانما هو اقتباس من كتاب « الموهوبون العظام »
الذي كتبه ادوارد شوريه ، الذي يتحدث فيه عن « الضوء الهالي » . وقد اعاد
راينغ اكتشاف « الضوء الهالي » واطلق عليه اسم الطاقة الاورجونية . وهذه طاقة
زرقاء تتخلل الكون كله ، وتكون مجالا حول الكائنات الحية . انها نفس « قوة
الجذب » التي تحدث عنها رايشنباخ ، وهي « الهالة » التي تحدث عنها فويبي
بايني . ان السبب الذي يجعل التلامس الجسدي بين الطفل وامه يؤدي الى تخفيف
التوتر - على سبيل المثال - هو ان مجالي الطاقة الاورجونية عند كل منهما
يتوحدان مثل قطرتين من الماء .

وفي النشوة الجنسية ، تتركز الطاقة الاورجونية في الاعضاء التناسلية ،
انه ذلك الاحساس بالوخز الخفيف الذي نعرفه في حالة الاستثارة الجنسية . نقد
صنعت المادة الحية من « البيونات » وهي خلايا دقيقة تنبض بالطاقة
الاورجونية ، داخل الخلية الحية .

فكيف تأتى لراينغ ان يصل الى هذا الاكتشاف المدهش ؟ من المهم ان نفهم انه
نظر اليه باعتباره تطورا منطقيا مرتبطا بقوة بعلم النفس الفرويدي . ان
الامراض العصابية تنشأ بسبب انواع « الركود الجنسي » التي تجمد « السائل
الجنسي » ، ثم تأتى النشوة الجنسية فتطلق شحنة الطاقات الجنسية الحبيسة ،
وتقضي على الامراض العصابية . ووجد راينغ نفسه ميالا الى الاعتقاد بوجود
طاقة بيولوجية من نوع خاص ، متميزة عن الطاقات المادية للجسد ، وقد سلم
كاميرار (عالم البيولوجي البارز) بوجود طاقة مشابهة ، وهي نفسها « قوة
الحياة » التي تحدث عنها برنارشو . ولكن هذه الطاقة البيولوجية « هي » في نفس
الوقت طاقة مادية ، وليست روحية بشكل ما . وفي وقت ما حول عام ١٩٣٣
اعتقد راينغ انه قد اكتشف الوحدة الاساسية للمادة الحية ، وهي البيونات ، تحت
المجهر . فاذا ما دفعت المادة الحية الى التورم او التضخم بالانتفاخ ، بواسطة
هيدروكسنايد البوتاسيوم على سبيل المثال ، فان هذه البيونات ستكون مرئية
بوضوح . يقول راينغ انه اذا ما اسقطت جزئيات معينة من الكربون في محلول
مقطر من البوليون وكلوريد البوتاسيوم ، فان « البيونات » الزرقاء سرعان ما ستبدأ
في الظهور ، وتغير جزئيات الكربون الثقيلة طبيعتها وتصبح مادة حية . وحينما
تتحلل البيونات ، تكون النتيجة هي ما دعاه راينغ باسم « ث - باسيلي » التي
تسبب السرطان .

وبعد سنوات من ممارسة التجارب من أجل خلق « البيونات » التي يزعم راينخ انها مرئية بوضوح تحت المجهر ، حدث ان عشر راينخ على الطاقة الاورجونية بالصدفة . كان يفحص مزرعة من رمال البحر يوميا ، فاصيبت عينه التي كان ينظر بها في المجهر بالتهابات في الملتحمة . فاستنتج راينخ ان هذه المزرعة من رمال البحر تنتج نوعا قويا من الاشعاع . ولكن اختبارات النشاط الاشعاعي كانت سلبية ، ورغم هذا فقد اكتشف ان مزرعة رمال البحر يمكن ان تجعل اللحم يتورم وان تصيبه بالام واضحة . ولاحظ راينخ ان الناس في غرفة تزدحم بعدد كبير من مثل هذه المزارع، يصابون بالصداع ويتعبون بسرعة . ولاحظ ان المزارع في العتمة تشع ضوءا ازرق رماديا . واكتشف ان بعض الاشياء يمكن ان تشحن بهذه الطاقة الزرقاء، فتستطيع بعد ذلك ان تؤثر في الالكترسكوب (جهاز كشف الطاقة الكهربائية) . واستنتج في النهاية ان هذه الطاقة الجديدة المجهولة تأتي من الشمس ، وان المواد العضوية تملك القدرة على امتصاص هذه الطاقة واعادة اشعاعها .

وصمم راينخ صندوقا لمنع الطاقة من الهرب . وكان لا بد ان تكون جدران الصندوق معدنية، لان المواد العضوية تمتص الطاقة الاورجونية — وتحاط الجدران المعدنية بمركبات عضوية من الخارج ، حتى تتمكن من امتصاص اي قدر من الطاقة قد يتسرب من خلال المعدن . ولاحظ راينخ وجود ضوء قريب اللون من الزرقة حول الاطباق التي تحتوي المزرعة في هذا الصندوق . ولكنه دهش حينما لاحظ وجود نفس الضوء الازرق في الصندوق ، بعد رفع المزارع من داخله .

وفي اثناء عطلة كان يقضيها في معبد عام ١٩٤٠ ، لاحظ راينخ ان النجوم في الافق الشرقي كانت تلمع بقوة اكثر من النجوم في الافق الغربي . وقد رآه لو كان اللعنان المتقطع راجعا الى تشتت الضوء في الجو ، لكن من الضروري ان يكون بنفس القدر في الناحيتين . ثم لاحظ ان هناك رقعا زرقاء بين النجوم ، يخفق ضوءها ، وتنتج بذلك ومضات من الضوء . وحينذاك طرأت له الاجابة . ان الطاقة الاورجونية تتخلل الكون كله وتتخلل كل شيء ، وانها هي السبب في خفقان ضوء النجوم . وكان « صندوقه » يلتقط هذه الطاقة ويحتفظ بها في مركباته العضوية الخارجية، ويرسل الطاقة عبر جدرانه المعدنية ، حيث تنجس ، مثل الحرارة داخل البيت الزجاجي لتربية النباتات . وكان هذا هو اصل « صندوق الاورجون » الذي صممه راينخ ، والذي اعتبره احد تلاميذه ووصفه بانه اعظم اكتشاف تم التوصل اليه في تاريخ علم الطب . وصندوق الاورجون ، يمكن اعتباره نوعا من مفاعلات الطاقة ، ويقول راينخ ، انه اذا جلس مريض في داخل مثل هذا الصندوق ، فانه سيعاد شحنه سريعا . فاذا جلس لمدة اطول من اللازم،

فستكون النتيجة هي الصداع والشعور بالغثيان ، مثل نتيجة الإصابة بضربة الشمس .

وقد اقتنع راينخ اقتناعا كاملا بأهمية اكتشافه ، ولكن زملاءه من الأطباء والعلماء ما كانوا يدفعون في هذا الاكتشاف أبخس الائمان . وقالوا ان صورته لـ « البيونات » لم تكن الا صورا فوتوغرافية لانواع من البكتيريا المنتشرة في الهواء . وكان راينخ قد قال انك اذا حدثت في السماء الزرقاء ، فسوف ترى موجات تعبرها بشكل منتظم وفي ايقاع مستمر . وقال العلماء ان هذه الموجات لم تكن ببساطة سوى نتيجة لاجهاد عضلات العين . .

وكانت السنوات الاخيرة من حياة راينخ مأساوية بالفعل . لقد اقتنع بالاهمية الكبرى لاكتشافاته ، وبدأت المؤسسة التي اقامها في مين في اذاعة هذه الاكتشافات . واستطاع ان يقنع الكثيرين ، ولكن اصحاب مهنة الطب تصرفوا بنفس الطريقة التي تصرفوا بها ازاء كل المجددين منذ باراسيلسوس . وفي عام ١٩٥٦ ، حكم على راينخ بالسجن لمدة عامين وبأن يدفع غرامة قدرها مائة الف من الجنيهات ، بتهمة وجهتها اليه ادارة الاغذية والعقاقير ، لانه يبيع ادوية مزيفة وضارة . ولكنه مات بأزمة قلبية بعد ان امضى في السجن ثمانية شهور .

ان الفحص الدقيق وغير المتحيز لمزاعم راينخ ، يقوم به علماء متخصصون ، هو وحده الذي يستطيع ان يقرر ما اذا كانت مزاعم راينخ مضللة وغير صحيحة بشكل كلي في خلال العشرين سنة الاخيرة من حياته ، او ما اذا كان قد عثر حقا على اكتشاف هام . وكل ما يمكن ان يقال الان ، هو انه لا اشارة تدل حتى الان على استعداد اي عالم للقيام بمثل هذا الفحص . . وسوف نرى ان مزاعمه لا تتضارب بأي شكل من النظريات التي عرضت في هذا الكتاب - لن تتضارب على سبيل المثال مع فكرة الدكتور فوستر عن قدرة الاشعة الكونية على نقل اشارات تحمل معلومات معينة . فطبقا لما يقوله راينخ ، فان الاشعة الكونية هي اصلاح نوع من الطاقة الاورجونية ، ولا يوجد احتمال اكبر من احتمال امتلاك هذه الاشعة تقدرات تجعلها قادرة على تنظيم المادة . ويشير راينخ الى ما نشعر به من اختلاف واضح بين طبيعة الطاقات الانفعالية وطبيعة الطاقات الكهربائية ، ومن الواضح ، مرة ثانية ، انه على صواب في ذلك . فاذا كان من حقنا ان نحدد هنا اقل الفروض عملية من بين تلك التي برزت في هذا الكتاب ، فان هذا الفرض هو : هنالك انواع من الطاقة تتعلق بالعمليات الحيوية لم يمكن حتى الان تحديدها ولا تعريفها في العمل . ويقدم راينخ حجة تقول ، بأن الاورام السرطانية تنمو في الاعضاء الهينة من الجسم ، التي لعبت دورا رئيسيا في الدرع العضلي الذي كبت الاستشارة

الجنسية » . ولكن ما زال هناك ميل بين الباحثين الطبيين الى اعتبار الاورام السرطانية مرضا يرجع الى فيروسات عادية ، ولكن من المؤكد ايضا ان لهذه الاورام علاقة غريبة بنوع من الانحدار في الطاقة . فقد كشف بحث امريكي ان الطلبة الذين يفرقون في حالة من الانقباض النفسي العنيف نتيجة للاجهاد في العمل ، ابدوا ميلا غير عادي الى الاصابة بالسرطان . اما راي شو الذي عبر عنه في مجموعة مسرحيات « العودة الى ميتوشالغ » فاقرب كثيرا الى راي راينخ . يؤمن شو ان الكون تتخلله « طاقة الحياة » وان انواعا معينة من المادة تمثل « متلقيا » جيدا لهذه الطاقة ، بينما تمثل انواع اخرى المتلقي الرديء . فاذا أصبت بكدمة قاسية استمرت مدة طويلة ، او بصدمة تدوم زمنا طويلا ، فان قدرة اللحم على « التلقي » قد تصاب بالدمار ، وبالتالي فانها تؤدي الى ارسال تيار حياة هابط ، الامر الذي قد يساعد اللحم على ان يتصرف وينمو لحسابه الخاص . اما راينخ ، فكان يمكن ان يقول ان اللحم المكدم يبدي انهيارا في تبيان « بيوناته » داخل خلاياه الحية .

وتشير هذه النقطة سؤالا هاما . فان اكثر الكدمات لا تتحول الى اورام سرطانية . فما هو القانون المتضمن في هذه الظاهرة ؟ فالعملية فيما يبدو تحمل بعض ملامح التشابه مع العملية المتضمنة في المرض العقلي . اي ان شخص قد يفرقه في حالة غامضة من الاحساس بالهزيمة والانقباض ، ولكن هذا لا يؤدي الى فرق حقيقي في نشاطاته اليومية ، بينما تتنوع وتختلف حالاته العقلية من يوم الى يوم . ثم يأتي يوم يندفع فيه الى مستوى اكثر هبوطا بسبب حادث عارض غير سار او بسبب خوف مؤقت ، فيبقى هناك في ذلك المستوى الخفيض ، كما لو كان قد سقط من فوق حافة هوة او خطا فوق حفرة عميقة . ومن ثم فانه يحتاج الى بذل مجهود هائل طويل المدى لكي يرفعه فيعيده الى مستواه القديم . ان الامر ليبدو كما لو كان التطور الانساني ليس صعودا مستمرا على سفح تل مائل ، وانما شيئا يشبه الصعود على سلم تتباعد المسافة بين درجاته وتتسع . ومثلما يبرز برناردشو في مقدمة « العودة الى ميتوشالغ » فان التطور لا يتقدم بثبات ، وانما في قفزات مفاجئة . مثلما يحدث وانت تتعلم ركوب الدراجة ، فتسقط خمسين مرة ، ولكنك فجأة تنجح في السير بها في المرة الواحدة بعد الخمسين كما لو كنت في كل مرة من مرات المحاولة والفشل ، تراكم كمية صغيرة من المهارة التي لا تثبت وجودها على الفور ، وانما تنضاف الى « مخزون احتياطي » يتزايد حتى تصبح جاهزا للنهوض في الخطوة التالية ، على الطريق الصحيح . ولا بد لنا ان نناقش المفزى الكامن لهذا فيما بعد ، ولكننا نستطيع ان نبرز نقطة واحدة على الفور . فاذا كنا نستطيع ان نسقط قنند حرج هابطين سلم التطور بسبب الملل والاستعداد للهزيمة ، فاننا نستطيع ايضا ان نتسلقه صاعدين الى مستويات جديدة

من خلال مجهود تراكمي لطيف ، فلا تكون ثمة حاجة الى قفزة متهوسة بالتوتر . وتشير الادلة المتوفرة دون احتمال للخطأ الى ان تلك المستويات الاعلى هي المستويات التي تكف فيها القوى « الخبيثة والخفية » عن ان تكون خفية او خبيثة .

وتثير تعليقات رايخ عن الاستثارة الجنسية نقطة بالغة الاهمية في هذه المناقشة . فان الاستثارة الجنسية تحدث فسي قسمين : قسم عقلي ، حيث تزداد اهمية الخيال ، وقسم مادي ، حيث يسيطر الجسد وينفجر عند دخوله الدروة الحسية . ونحن نتقبل هذا دون مناقشة ، ولكنه يكاد يكون شيئا قريدا ولا شبيه له في عالم التجربة الانسانية . ذلك انه اذا حدث ان حركتي مقطوعة موسيقية ، او روائح صباح ربيعي ، فان استشارتي « الخيالية » تزايد ، ثم تخبو وتراجع ، دون اي مقابل جسدي او مادي لها . وهذا الجانب الخيالي جانب « عمدي » بمعنى ان اية ضجة مفاجئة يمكن ان تحطم تركيزي فتدمر العملية كلها . والمراهق الذي يمر بتجربة النشوة الجنسية للمرة الاولى ، يعرف الطبيعة المدهشة للحدث الذي يمر به . انه حادث يكاد يشبه في غرابته ان تنمو له اجنحة يسطها ويطيح بها . فان ما كان من قبل مجرد استشارة عقلية « عمدية » قد انفجر متسعا لكي يبلغ عالم الجسدي والمادي . ويبدو هذا في حد ذاته مدهشا مثيرا للعجب ، لان الجسد ، رغم كل شيء ، يصاب بنزلات البرد ، ويشعر بالجوع ، ويحس بالتعب ، دون ان يطلب الاذن من العقل .

ويعاني البشر من هذه الفكرة الخاطئة التي تقول بان الجسد والعقل يسيران في طريقين متوازيين ، دون ان يؤثر احدهما في الاخر تأثيرا حقيقيا . ولكن اكثرية الناس من بين من يعرفون النمو الجنسي المبكر ، انما يحققون هذا لانهم مشغولون انشغالا كثيفا بالموضوع ، وهذا الانشغال « يتراكم » في كل مرة مثلما تتراكم نتائج الجهود المبذولة لتعلم ركوب الدراجة ، حتى تحدث « الطفرة » ذات يوم ، وفي هذه الحالة ، فان الطفرة المقصودة هي القدرة على ممارسة الدروة الجسدية .

وهذا هو ما يثير السؤال الهام التالي : ما هي القوى الاخرى التي يمكننا ان نميها اذا ما بدلنا مجهودا مصمما قويا ؟

هناك بالتأكيد قصص كثيرة ، قديمة وحديثة ومعاصرة لنا ، تدور حول ما تمتع به بعض الاشخاص من قدرات تتلخص كلها في امكانية السيطرة الارادية على الجسد ، او على الوجود الفيزيقي للجسم وعلى قوانينه الطبيعية ، ودفع الجسد الى القيام باعمال « خارقة » - او تواضع الناس على وصفها بذلك ، باعتبارها تخرق قوانين الطبيعة المعروفة - بل وبامكانهم ان يقوموا بمثل هذه

الاعمال بالنسبة لمواد وظواهر طبيعية خارج الجسم البشري ، بحيث يلوح ان الانسان « سيطير » على هذه المواد ، او على تلك الظواهر بمحض ارادته ، وعسن طريق تركيز تيار الارادة على « الشيء » لكي يتم اخضاعه ...

وقد يكون كل ذلك من الامور التي يمكن تصورها . فانا قد نحس ، وقد لا نحس ، بالميل الى تقبلها ، ولكنها لا « تتصارع » باي شكل مع معرفتنا بطرائق سير العالم وكيفية تحركه . ويمكننا ان نقول بنفس الطريقة ، انه لو كان بوسع دانتي ان يطل على القرن العشرين ، لكان جديرا بان يظن ان الراديو والتلفزيون شيان غريبان للغاية ، ولكن وجودهما ما كان ليتناقض مع كل ما كان يعرفه بالفعل عن الكون . وليس هناك ما يؤيد او يدحض - علميا - مسألة الجسد الاثيري (رغم ان هناك الكثير من الادلة على وجود القدرة على التكهن بالمستقبل والانتقال في المكان والزمن ، وهي ادلة توحى بانها تشير الى تلك المسألة) .

ومن ناحية اخرى ، فان تجربة المعرفة السابقة على وقوع الاحداث او الاشياء ، او التكهن بالمستقبل ، تتناقض بالفعل مع ما نعرفه ، او ما نظن اننا نعرفه ، عن الزمن . ونحن نعني بكلمة « الزمن » معنى وقوع التقدم ، ان شيئا ما يحدث . فلو كان بوسعك ان تتخيل كونا خاليا فارغا تاما ، لا شيء فيه من اي نوع ، لكان ايضا كونا دون زمن . فالزمن شيء يقاس بواسطة ما يحدث للهويات المادية - بواسطة لولب مضغوط ينحل بانتظام داخل الساعة ، بواسطة جسدي الذي يصبح اكثر عجزا بالتدرج . وبقدر ما نعلم نحن عن الزمن ، فانه غير قابل لان يستعاد . فلو كنت استمع الى اسطوانة موسيقية ، و اردت ان استمع مرة اخرى الى اجزائها الاولى ، فان بامكاني ان ارفع رأس الدراع لكي اضعه من جديد على الخطوط الاولى من الاسطوانة . ولكن ليست هناك « آلة للزمن » تستطيع ان تعيدني مرة اخرى الى الامس ، وليست الفكرة نفسها سوى نوع من السخف . لانه اذا كان بوسعي ان اعود الى الامس ، او حتى الى عشر ثوان مضت ، لقابلت «أنا» آخر ، اصغر عمرا بعشر ثوان . واستطيع - اذن - من الناحية النظرية ، ان اجمع صور نفسي التي تعد بالملايين ثم اعود بها جميعا الى الحاضر القائم . كلا ، انما تكمن المشكلة في استخدامنا للغة والافكار . ولقد ضربت في مكان اخر ، المثال التالي . لنفترض ان الناس يولدون في قطارات متحركة ، ويبقون فيها طول حياتهم ، اذن لكان من الضروري ان يبتكروا كلمة للتعبير عن الاحساس بالاشياء في عبورها السريع الى الوراء اذ ينظرون اليها من نوافذ

القطار - كلمة مثل « يحور » (ي) . فإذا حدث ان توقف القطار لكان من الممكن ان يقولوا ان « الحوران » قد كف عن الوقوع . وإذا سار القطار الى الخلف، لقالوا انه يتجه الى الوراء او يتراجع . . . بما يعني ان « الحوران » لا يوجد في ذاته، انما هو مصنوع من اشياء عديدة : الخلاء الواسع ، القطار ، وأنا نفسي ناظرا الى جريان الخلاء الى الخلف من النافذة . وينطبق نفس الشيء على الزمن . انه لا يوجد . لا يوجد سوى عملية جريان الاشياء .

وفي هذه الحالة، كيف يمكن بحق الشيطان ان احلم بالمستقبل ؟ الرأي الشائع . يقول لي ان اي شيء يمكن ان يحدث . فلتخيل جماعة من النحل ، تتطاير حول الزهور في حديقة . لا توجد آلة حاسبة في العالم - ولا اظنها ستوجد - تستطيع ان تتنبأ بوضع او بمكان نحلة معينة بعد عشرين ثانية ، لان هذا الوضع يعتمد على حركات الالاف الاخرى من النحل ، وعلى عشرات العوامل الاخرى ، واكثرها عوامل عارضة .

فإذا كان التنبؤ بالمستقبل ممكنا ، لدلنا على ان هذا الرأي زائف من اساسه . ولكن لا شك ان اكثر المؤمنين بعلوم القيب سخفا وجنونا لا بد سوف يتردد قبل ان يؤكد انه ليس هناك ما يسمى بـ « الصدفة » . لقد اكد جورديف ان حياة معظم الناس انما هي صدفة « كلها » . .

وهناك حالات شائعة وذائعة الشهرة عن القدرة على التنبؤ بالمستقبل ، يمكننا ان نضرب لها مثلا بما ذكره ج. ب. بريستلي عن احلامه التنبؤية في كتابه « الانسان والزمن » . . . وكان من نتيجة تكرار تلك الاحلام التنبؤية ان عكف بريستلي بشكل اضطراري ، على دراسة نظريات ج. و. دان حول الزمن ، وهي نظريات ادت الى حدوث قدر عظيم من الاستثارة في الثلاثينات ، والهمت بريستلي ثلاثا من مسرحياته . ففي كتاب : « تجربة مع الزمن » يصف دان كيف تحير ازاء دقة التنبؤات التي رآها في احلامه . ثم عاد في الكتاب الذي صدر بعد موته بعنوان : « تداخلات » فسر عددا كبيرا من هذه الحالات التي وقعت له شخصا .

(ي) استخدم ويلسون هنا كلمة Zyme التي تعني حرفيا « خميرة » او « اختار » . وبهذا فانه يستخدم كلمة ذات معنى محدد لوجودها السابق في اللغة ، رغم ان السياق كان يقتضيه ابتكار كلمة جديدة ، والمعنى الذي يشير اليه في السياق له كلمة عربية تعبر عنه الى حد كبير هي « يحور » التي استخدمناها هنا ، والتي يبدو انها ارتبطت بصورة التغير المستمر في شكل ونظام السماء بالليل ، وبعملية انسلاخ النهار عن الليل . اليتنا : « . . اذا انت انقصيت فلاتحوري » .
في قول الشاعر العربي القديم . (هـ . م)

وكان « دان » رجلا ذكيا ، وكان مهندسا متخصصا في علوم الطيران ، وتركت هوايته في الاهتمام بعلوم الطبيعة والرياضيات . وهكذا حاول ان يشيد نظرية تتناسب مع افكار اينشتاين « النسبية » عن الزمن . وقد اقنعت النتائج التي توصل اليها في ذلك الوقت الكثيرين من الناس ، ولكنها فقدت الكثير من الارضية التي كانت قد اكتسبتها منذ ذلك الحين . ويمكننا ان نلخص ما يقوله بشكل عام في التالي : اذا كان الزمن شيئا ينساب الى الامام او يتقدم سائرا اذن فلا بد ان يكون ثمة نوع اخر من الزمن الذي نستخدمه في قياس سرعة الزمن الاول . ثم لا بد من ان يكون هناك نوع ثالث من الزمن الذي نستخدمه في قياس سرعة هذا الزمن الثاني . ومع ذلك فان هذا التاكيد المحير ، ليس هاما حقا بالنسبة لغرضيته الاساسية التي تقول بان للبشر ايضا مستويات عديدة . هناك « انا » الذي يحيا ويعاني حياتي . وهنا « انا » آخر ، يمي بوجود ذلك « الانا » الاول ، ويصبح واضحا ، ويظهر ، حينما اتحدث عن « نفسي » . ويقول « دان » انه من المحتمل ان يكون هناك عدد لا نهائي ، سلسلة لا نهاية لها من « الانات » . وان هذه « الانا » الثانية ، البعيدة ، هي ما توجد في الزمن الثاني ، وهي القادرة على ان تنظر الى الامام والى الوراء في الزمن .

ولكي يفسر « دان » هذا التاكيد الغريب ، فانه يطرح افتراضا آخر . فلنفترض ان كل ما يحدث لي في خلال حياتي ، يتجسد بالخارج في سلسلة من الصور ، مثل « فيلم » ملون ، يبدأ بميلادي وينتهي بموتي . فاذا مضيت في حياتي بشكل معتم وكثيب وسلبى ، كالبقرة ، فستكون لتلك الحياة خاصية رتيبة مملة واحدة . وانا في الحقيقة : « انتبه » لمجموعة بعينها من الاشياء واتجاهل اشياء اخرى . وعلى ذلك ، فهناك « انا » الاول ، الذي ينساب عبر الحياة « رائيا » الاشياء فحسب ، وهناك « انا » آخر ، يوجه « انتباهه » الى بعض الاشياء التي « اراها » ولا يوجه انتباهه الى اشياء اخرى مما ارى . ويطلق « دان » ، على هذا المراقب الاخر ، اسم « العقل » . ومن الطبيعي ان يكون للعقل مجال ضيق للاختيار بين ما ينظر اليه ، من احداث حياتي ، ولكن حينما اكون نائما ، فلن يكون لديه ما يركز عليه . ويقول « دان » ، انه قد يقوم حينذاك بشغل ما لديه من وقت بالقاء النظرات الفاحصة على الماضي او على المستقبل .

وهو يقرر في النهاية ، ان هناك « عقلا كونيا » تكون العقول الفردية جوانب صغيرة منه . وقد يحق لنا ان نكف عن متابعته هنا عند هذه النقطة ، اذ من الواضح انه عندها قد قفز داخل نوع من النرمة الصوفية الغيبية لا علاقة لها بالمناقشة الحالية .

ويأتي بريستلي ، فيتخذ من « دان » نقطة انطلاق له ، على اساس انه يمتلك

عددا من الاقتراحات النفاذة . انه يرفض فكرة دان عن وجود عدد لا نهائي مسن « النفوس » ويشير الى ان كل ما نحن بحاجة اليه منها لا يزيد على ثلاث . فهناك « انا » الذي يرقب الاشياء في فتور و لامبالاة ، انه « الانا » الذي يوجد حينما احدث من نافذة قطار، نصفنائم ، لا افعل اكثر من تسجيل المناظر العابرة . فاذا ما جذبت اجزاء نفسي المبعثرة فتماسكت ، وشرعت في التفكير فيما اراه - اذا كنت مثلاً ، اعبر خلال منظر يشير اهتمامي فرحت احدث باهتمام عظيم ، باحثا عن شيء معين - اذن، فان « انا » آخر ، سيبرز الى الوجود ، انه « الانا » الذي يحكم على الاشياء ويميز فيما بينها . ثم هناك « انا » آخر ، يقوم بمراقبة الاثنين الاولين . ذلك انني اذا كنت قادرا على ملاحظة « انا » الثاني ، فلا بد ان يكون هناك « انا » ثالث للقيام بهذه المهمة . .

اما بالنسبة للزمن نفسه ، فان بريستلي يقول بانه يبدو ان ثمة ثلاثة انواع مختلفة من الزمن . هناك الزمن العادي الذي يمضي بينما اقوم بواجباتي العادية . وهناك « الزمن » الذي ادركه وعيي بوجوده في لحظات السكينة والتأمل - مثلاً ، الزمن الذي خبره ارنولد توينبي حينما اصبح واعيا ، فجأة ، بالتاريخ كله . ثم هناك نوع ثالث من الزمن الذي يبدو انني قادر على السيطرة عليه في لحظات التركيز والكثافة العظيمين ، انه الزمن الذي اخبره حينما اكون خلاقا ومبدعا بشكل شامل عميق .

... اما بالنسبة للزمن الثالث (او رقم ٣) فانه يمضي لكي يتحدث عن السرعة الهائلة التي انجز بها كتابة اربع من انجح مسرحياته واكثرها صعوبة ، ويعلق قائلا انه اذ ينظر الى هذه التجربة القديمة : « فاني شعرت بما يشعر به رجل يراقب نفسه وهو يجري بسرعة هائلة عبر حقل الغام » . وهو يميل الى الاعتقاد بان للعقل اللاواعي النوع الخاص به من الزمن ، وان هذا النوع هو النوع المتعلق بذلك النوع الخاص ، البالغ السرعة ، من الابداع والقدرة على الخلق .

اما ما يقترحه بريستلي بعد ذلك فهو شيء قريب من نظريات الزمن التي عبر عنها اوزينسكي في كتابه : « نموذج جديد للكون » وتلميذ اوزينسكي ، ج. ج. بينيت في كتابه : « الكون الدرامي » ، وهي النظريات التي تقول بان للزمن ابعادا ثلاثة مثل المكان ... ويشيران الى احداث توحى بان الزمن عنصر يتم تحديده سلفا (مثل الاحلام التي تنبأ باحداث المستقبل بدقة غير عادية) . فماذا عن الاحلام التي تنبأ باحداث المستقبل ، فتجعل صاحبها يتجنب حدوث ما تنبأ له به الحلم؟ انها توحى بوجود نوع آخر من الزمن : « مرتبط بشكل ما بالقدرة على الوصل بين ما هو محتمل وما هو قائم فضلا او الفصل بينهما » اذا استخدمنا عبارة بينيت .

تقوم نظرية بريستلي اذن على ان الزمن الاول هو الزمن الذي يمر بشكل عازدي، زمن العيش اليومي : « العيش والعيش بشكل جزئي » مثلما يقول البيوت . اما الزمن الثاني ، فهو « الزمن التأملّي » الذي يصبح واضحا لنا احيانا في الاحلام . اما الزمن الثالث فهو الزمن الذي يمكن ان تنجز فيه التغيرات . ويبدو ان بليك كان يصف هذا النوع من الزمن حينما كتب يقول :

يظل كل انسان في قبضته قوة شبحه ،
حتى اوان وصول تلك الساعة ،
حينما تستيقظ انسانيته
وتتدفق بشبحه الى البحيرة ...

ويمكننا نحن ان نقول ، تابعين في ذلك لجورديف ، ان الانسان يكون في العادة ، في حالة نوم . انه يستيقظ ، او تستيقظ فيه الملكة « س » ، في لحظات التأمل ، من نوع تلك اللحظات التي عرفها توينبي بالقرب من ميسترا . ومع ذلك ، فما يزال من الممكن ان تكون هناك يقظة اكبر واكثر عمقا ، حيث يعيش الانسان ويمارس العمل بحرية حقيقية ، وحيث يستطيع حقا ان « يفعل » الاشياء .

ويقول بريستلي في رايه النهائي اننا نواجه مستقبلا : « قد تشكل بالفعل ولكنه ما يزال مرنا يمكن ان يتغير » ، وانه حتى بعد ان يموت الجسد ، فاننا بشكل ما نستمر في الوجود في الزمنين الثاني والثالث . اما اوزبينسكي فيميل الى قبول فكرة نيته من العود الابدي - فكرة اننا نعود لكي نعيش حياتنا المرة بعد المرة ، ولكنه يعتقد ايضا انه من الممكن ان تقع تغيرات طفيفة ، وان لبعض الناس : « خطأ داخليا علويا » يرفعهم ببطء الى مستويات اسمى واكثر ارتفاعا . (وهو يميز بين نوعين مختلفين : اولئك الذين يصبح النجاح بالنسبة لهم متزايدا السهولة ، واولئك الذين يتضمن كيانهم عنصر انحلال وتدهور فطري ، يؤدي بهم الى « الفرق » من حياة الى حياة) . ويبرهن اوزبينسكي على ان هذا الرأي لم يكن مجرد تأمل عارض ، بروايته : « حياة ايفان اوسكين الغريبة » ، حيث يطلب البطل من الساحر ، بعد ان يخيب امله في الحب ، بان يسمح له بان يعود بالزمن الى الوراء ، حتى يستطيع ان يتجنب الوقوع في الاخطاء التي وقع فيها من قبل . ولكنه - مثلما يحدث في مسرحية « عزيزي برو » و « لجميس باري » - يكرر نفس الاخطاء جميعا مرة اخرى ، فيعود بذلك الى نفس النقطة ، وهي لقاءه بالساحر . ولكنه في هذه المرة يتبين ما حدث ، ويسأل الساحر ان كان مسن الممكن ان تفسر الاشياء قليلا . ويتسم الساحر - الذي يبدو واضحا انه جورديف نفسه - ويقول : « آه ، ذلك هو السؤال الذي كان ينبغي ان تسأله من قبل . . » . وبكلمات اخرى ، فان الاشياء يمكن ان تكون على غير ما كانت عليه ، ان كان يوسع الانسان ان

يتعلم كيف يكون غير ما كان . عليه ان يفرس وان يرعى بذرة الحرية الضئيلة التي يمتلكها .

ان رؤية اوزبىسكي قد تبدو متجهمه ومعتمة بشكل غير حتمي ولا ضروري . واذا كنا ، من ناحية عملية ، نمتلك حقاً بعضاً من القدرات والقوى التي اشرنا اليها في هذا الفصل ، اذن فانها رؤية تكاد تكون غير صادقة بالتأكيد . انه يقول بان الانسان مكبل مقيد الى جسده والى مصيره ، كالعبد المدمور الدليل . فاذا كان هذا صحيحاً ، فكيف امكن للانسان ان يحلم بالمستقبل ، وان يبصره بعينه وان ينتقل اليه بروحه عبر قرون الزمان والعصور ؟

وفي اجابة على سؤال وجهته الى الشاعر دونالد دى كان قد عاش اية تجربة ذات طابع غيبي ، كتب الشاعر قصة بعنوان « لهب الغاية » (١) يجسد بشكل قصصي تجربته الخاصة التي تعني انه « عاش من قبل » . . . ويحكي القصة شخص هندي (وقد امضى دى سنوات عديدة في الهند تلميذاً لفاندي) يقول انه ولد في انجلترا باسم ابركرومبي مارتين ، وانه كان خاضعاً لسيطرة ابيه المطلقة الذي كان يريد ان يعيش حياته مرة اخرى (بالنيابة) من خلال ولده . ولكن الابن كانت قنطابه لحظات معينة ، وخاصة حين ينحني لكي يلتقط شيئاً ما من الارض ، فيتذكر مخاضة معينة عند نهر معين ، فتومض الذكرى في عقله كالبرق . وذهب كرومبي الى الهند ، وراح يتجول في ارجائها كالصعلوك ، وذات يوم وجد نفسه امام المخاضة نفسها على ضفة النهر نفسه ، من خلال نوع من احلام اليقظة . وقبلة تحدثت اليه امرأة - هي زوجته - ثم لم يعد هو الانجليزي المدعو ابركرومبي مارتين ، وانما هنديا يدعى جيتندرا نارايان ، كان قد ذهب لكي ياتي بالماء من النهر في جرة ، وغرق في حلم يقظة طويل على شاطئ النهر .

ان دى كان يحاول هنا ان يمسك بجوهر لحظات من نوع معين حينما ينحل ويتشتت احساس الانسان باليقين وبالهوية الخاصة المتميزة كاشفاً ، ليس عن عالم من الفوضى او الجنون ، وانما عن جوانب ووجوه منطقية الى حد غريب . وفي المقاطع التمهيدية عن قصيدته الملحمية « الانسان » يصف دى كيف حدث ان امثلته - وهو يجلس في شقته في لندن - طوال ايام عديدة ذكريات تنتمي الى ماضي الجنس البشري ، احساس بـ « الحياة من قبل » او الحياة السابقة ، ليس لنفسه فحسب ، بل لاسلافه البعيدين . ويقول انه ملا الجدران العارية بالخطوط الملونة لمجرد ان يكسر رتابة منظرها المملة ، واذ رفع بصره عما كان

(١) مجلة ارجوسي ، مارس ١٩٦٨ .

يكتبه فيما بعد ، تبين انه كان دون شعور منه قد رسم صورة لشعبان من نوع البيسون ، ولبعض الناس يتقاتلون بالعصي وبعض الحيوانات التي تنتمي الى عصور ما قبل التاريخ . وقد حدث هذا قبل ان يكون قد رأى رسوما مشابهة مأخوذة عن رسوم الكهوف في لاسكو . . وقد طرأ لديه : « انني لم اكن فسي السابعة والاربعين من عمري ، وانما ربما كنت قد تجاوزت العشرين الفا من سنوات الحياة ، وقد اجتاز فيما بعد رؤية التجربة التي تأتي كبرهان لما قاله يونج عن « ذاكرة الجنس البشري » .

اما روبرت جريفر ، فيحكي تجربة اكثر غرابة ، من تجارب حياته الشخصية ، في مقطوعة بعنوان : « مسترجن الثلجي » (١) يحكي فيها كيف كان يحلس في مكان خلوي ، واكتشف فجأة انه « يعرف كل شيء » . يقول : « اذكر كيف تركت عقلي يجول بسرعة بين كل موضوعات المعرفة المألوفة لديه ، لكي اكتشف ان هذا لم يكن وهما غيبيا . انني اعرف كل شيء بالفعل . ولكي اكون صريحا وواضحا ، اقول : رغم ادراكي الواحي بانني لم اقطع الا اقل من ثلث طريق التعليم الرسمي العادي ، ورغم ضعفي في الرياضيات ، وعدم تمكني من قواعد اللغة اليونانية ، وعدم ثباتي في اللغة الانجليزية ، فانني مع هذا امسكت بمفتاح الحقيقة في يدي ، وتمكنت من ان استخدمه لكي افتح مغاليق اي باب . لم تكن نظريتي نظرية دينية او فلسفية ، وانما هي منهج بسيط وطريقة في النظر الجانبي الى الحقائق غير المنظمة والمشعبة لكي اصنع منها معنى كاملا » . وفي الصباح التالي كانت هذه الرؤية ما تزال قائمة ، رغم ان محاولات تسجيلها على الورق اثارت المشاكل المتعلقة بالتعبير الذاتي التي ادت الى نسف الرؤية ذاتها ، فتلاشت الرؤية في مساء ذلك اليوم .

ويصبح ما يعنيه جريفر ب « معرفة كل شيء » اكثر وضوحا في حكاية اخرى يقدمها عن صبي اصبح قادرا فجأة على حل مسائل حسابية باللغة الصعبة بسرعة مذهلة ، تكاد تكون فورية ، اي فور سماعه للمسألة . وكان استاذة قد طلب منه ان يحسب الجذر التكعيبي لعددتين يتكون كل منهما من عدة ارقام . وقال الاستاذ حين سمع الصبي يعطيه الاجابة الصحيحة فورا ، ان ذلك مستحيل ما لم يكن قد ذهب لكي ينجز « العمل بالخارج » .

ولكن القدرة على اجراء عمليات حسابية ذات ارقام واعداد هائلة هي قدرة شائعة الى حد كبير . ومن يسمون بالمعجزات الحسابية يظهرون ويعودون للظهور في كل عمر ، وقد يكونون او لا يكونون من الشبان غير المتعلمين الذين لا

(١) مجموعة قصص القصيرة ص ٩٠ .

يظهرون اية قدرة اخرى في اي مجال آخر . والكثير من القصص عنهم يمكن أن توجد في كتاب : « قصص حسابية » الذي وضعه و.و. روز بول . وليس من المعروف حتى الان كيف يستطيع الدماغ البشري ان يأتي خوارق من هذا النوع - بل ان اصحاب هذه الخوارق نفسها لا يستطيعون ان يوضحوا كيفية قيامهم بالعملية - ولكن الفرضية التي يقدمها بريستلي عن الزمن توحى على الفور بأن ما نتعامل معه هنا هو واحدة من تلك العمليات الابداعية البارقة كالوميض التي تتم في « الزمن الثالث » . والشيء الذي يحل تلك المشكلات المطروحة هو ما يدعوه الفيلسوف برنارد اونرجان باسم : « البصيرة » في كتابه الهام بنفس العنوان . بمعنى انك تشعر بانك قد رفعت فجأة فوق الارض ، كما لو كنت قادرا على ان تلقي نظرة من عيني طائر محلق على منظر مدهش لمتاهة مذهلة ، فترى طريق الخروج منها بدلا من التخبط في البحث عنها اعتمادا على وصفة قديمة . ويقتبس لونرجان صحيفة ارشميدس : « ايوركا » (وجدتها) التي عبر بها عن ادراكه الفجائي لقانون طفو الاجسام ، كمثال نموذجي للبصيرة ، ويمكننا ان نرى ان جوهر مثل تلك « الومضة » هي انها تمتلك بوضوح كامل خاصية « المفتاح » المؤدي الى الفهم ، تماما كما يقول جريفرز . انها تجيب على العشرات من الاسئلة التي تسير كلها على طريق واحد في اتجاه واحد ، وتؤدي الاثارة النابعة من هذا الكشف بالعقل الى ان يرى مزيدا من صور الاسئلة التي يمكن ان يجيب عليها نفس المفتاح - وهكذا دواليك ، بأحاساس يشبه الدوائر المتزايدة الاتساع عبر سطح البحيرة .

انني ، اذا طلب مني ان احل مسألة حسابية ، فاني ابدأ معالجتها من خلال عملية مطابقة مع مسائل اخرى ، ثم ابدأ في الحساب خطوة خطوة ، كما لو كنت اصعد طابقا من الدرجات . ولكن اذا طرأ « الاستبصار » الحقيقي - وهو الامر النادر الحدوث ، طالما كنت محاسبا ضعيفا - فان ايقاع العملية كلها يتسارع وتصبح امكانية الوصول الى قمة السام في قفزين سريعتين ، امكانية قائمة وواضحة .

من المعقول اذن ، ان يكون هذا هو ما حدث لجريفرز . انه يقرر بوضوح ان الامر لم يكن « فكرة » فلسفية او دينية من نوع ما ، وانما كان « مفتاحا » (ولقد ناقشت التجربة معه ، ولم يكن قادرا ان يزيد قوله هذا - الوارد هنا - وضوحا) . ان الاستبصار يؤدي دائما الى « ربط » الافكار غير المترابطة ، مثلما يحدث في لعب الاطفال التي تربط فيها بين سلسلة من النقاط ، فتكون النتيجة هي اكمال فجائي لصورة شيء ما : انها صورة لم يكن بوسعك ابدأ ان تتنبأ بإمكانية وجودها اذا اقتصر على دراسة النقاط .

وانني لاظن انه لا مجال للشك في ان « الاستبصار » سواء كان يستخدم الزمن الثالث او لا يستخدمه، هو ملكة من الملكات « الطبيعية » للدماغ البشري لم نصل حتى الان الى مرحلة القدرة على تطويره .

وقد وضعت عملية « الاستبصار » بوضوح ساطع في مقال كتبه ويليام جيمس بعنوان : « اقتراح حول النزعة الصوفية » . ويقول اقتراحه : « اذا شئنا وضعه بشكل شديد الاختصار، هو انه من المحتمل ان تكون حالات الحدس الصوفي مجرد امتدادات عظيمة، ومفاجئة للغاية لـ « مجال الوعي العادي » . وهو يقول عن مثل هذه النظرة الواضحة السريعة : « سوف تكون من اجل التوحيد ، لان ما فيها من عمليات التثام قائمة ، سوف تمتد الى كل ما هو بعيد عنها ، اماما في الظروف العادية ، وسوف يتم توسيع معنى « العلاقة » توسيعا عظيما » . (اي : معنى امتلاك مفتاح يؤدي الى تجارب اخرى) . ثم يذكر ثلاث تجارب مارس في أثنائها مثل تلك النظرات البارقة كالوميض ، ويقول :

« كان ما حدث في كل مرة هو انني احسست كما لو كنت - في لحظة واحدة - قد ذكرت بالتجربة الماضية ، وهذا التذكير ، ان كان باستطاعتي ان اتصوره او ان احدد اسمه بوضوح وتمييز ، قد تطور متحولا الى شيء ابعد مما كان متضمنا فيه منتيمالياه، وقد تحول هذا الشيء بدوره الى شيء اكثر بعدا ، وهكذا ، حتى تلاشت العملية، تاركة اياي مسحورا في رؤية مفاجئة لانواع المدى المترايد للحقيقة البعيدة التي لم يكن بوسعي ان اصفها وصفا دقيقا . لقد كانت حالة الوعي حالة «صورية لا حالة ادراكية - كان المجال يتسع بسرعة بالغة حتى لم يبد لي ان ثمة زمنا يكفي لان يقوم الادراك او التعرف بعمله . كان ثمة احساس قوي الاثارة بان معرفتي بالماضي (ام بالحاضر ؟) تتسع وتتزايد نبضة بعد نبضة، ولكن بسرعة بالغة حتى ان عملياتي الذهنية لم تستطع ان تستمر في السياق ، وبذلك ضاع « المضمون » ضياعا كليا بالنسبة لمحاولات الاستعادة والتذكر - لقد غرقت في المؤخرة المظلمة حيث تختفي الاحلام حينما نستيقظ بالتدريج . لقد تاتي لما حصلت عليه من احساس - وليس لي ان اسميه اعتقادا - نوع مفاجيء من التفتح كان من يشاهده من نافذة قادرا على رؤيته . وكانت الحقائق البعيدة التي ارتبطت بحياتي بشكل غير مفهوم بالغة الدقة حتى انني لا استطيع اليوم ان التقطها او ان احركها من مكانها .

وهذا تقرير واضح بشكل غير عادي . لقد استطاع جيمس - من حين الى حين - ان : « يستيقظ » ، بالمعنى الذي كان يقصده جورديف - فكان الوعي يتوقف حينذاك عن ان يجر نفسه مثلما تجر ذبابة ميتة نفسها فوق سطح مائدة امس ، ثم يقذف بنفسه طائرا الى بعد « الاستبصار » الخالص . . لقد استعان

ويليام جيمس بفكرة محددة للتخلص من الفزع الذي ينتابه ازاء احساسه بانه منقسم ، او بانه يقع تحت سيطرة شخص آخر ، تسلسل احلامه اليه هو في نومه : فكرة الاحساس بان حلم شخص آخر قد تسلسل الى راسه بشكل ما ، وبان احساسنا العادي بالامان و « الحقيقة » ليس سوى خطأ . ولكن من الواضح اذن ، انه حينما يستيقظ المرء من نوم عميق ، فان الاحساس المباشر لما يسميه بريستلي : « النفس الاولى » ، هو ان النفس العادية ، اليومية ، هي ما تنساب طافية عبر الزمن الاول . اما ما يبدو ان « النفس اليومية العادية » لجيمس قد القت عليه نظرتها الخاطفة ، فهو المناظر والمشاهد المزعجة ل « ابعاد » اخرى من الزمن . ويبدو ان هذه التجربة السلبية تؤكد فكرة بريستلي عن الزمن ، وخاصة حينما نتذكر ان جيمس قال عن هذه التجربة انها : « اعماق واكثر التجارب تميزا وتفردا في حياتي كلها » . ومن الواضح انها تجربة كانت تحمل من المعاني والدلالات ما كان جيمس عاجزا عن التعبير عنه على الورق .

واعتقد انه من الممكن ان نرى ان تجربة وليام جيمس ودخوله في : « افاق الحقيقة الممتدة » ليست شيئا اقل من نقطة شاملة وكلية ل « الملكة س » ، التي سبق ان قلت انها احساس بالحقيقة الموضوعية لوجود ازمة وامكنة اخرى ، بدلا من نظرة عين الدودة الداتية المعتادة التي نظل طوال حياتنا اسرى فخاها المنصوبة . انها نظرة تشبه الوقوف على قمة جبل وابصار ما هو ابعد بكثير مما تستطيع ان تراه وانت في قاع الوادي . والحقيقة ان الصورة التي رسمها بريستلي للضباب المنقشع من سماء « جراند كانيون » تعبر عن هذا المعنى تعبيرا يدعو الى الاعجاب . ويمكننا اذن ان ندرك السبب الذي جعل جريفز يشعر بانه « قد عرف كل شيء » في اللحظات التي استغرقتها تلك النظرة الخاطفة . ومن المهم ايضا ان نتذكر انه رغم ان جيمس يعتقد ان مثل تلك التجارب لا تستطيع الا ان تكون بارقة سريعة عابرة ، فان تجربة جريفز قد استمرت نحو اربع وعشرين ساعة . وهذه حقيقة بالغة الاهمية . . ذلك انه اذا كانت هذه التجربة قد استمرت يوما كاملا ، فلماذا لا ينبغي لها ان تستمر طول الوقت .

انه لمن الضروري ان نحاول الحصول على مزيد من الاستبصار والنفاذ داخل طبيعة هذه « النظرة الخاطفة » . انها هي - بوضوح تام - ما تحدث عنه المتصوفون على الدوام . ولقد اكد المتصوفون انها نظرة اقدس من ان يتحدثوا عنها ، او انها نظرة لا يمكن ان توصف ، غير قابلة لان توصف او ان تحلل . ولقد قطعنا في هذا الكتاب شوطا طويلا نحو تحليلها ، وربما كان علينا ان نقطع المزيد .

يصف وأرفر اللين ، في كتابه الممتع : « اللحظة التي لا زمن لها » كيف خبر
« النظرة الخاطفة » الصوفية الاساسية :

« حينما كان الكاتب على مشارف الخمسين ، طرأ له ، مثلما لا بد قد طرأ
للعديد من الصحفيين العاديين ، والذين لم يكونوا اقل منه عداً للفجاجة الواضحة
للنزعة الصوفية التقليدية .. طرأ له انه قد عاش طوال ما يقرب من نصف قرن
دون ان يفرض في الحياة اي شكل او تصميم لهدف قائم على العقل . ربما كان
من الممكن ان تلخص آراؤه في هذا الشأن باعتبارها فكرة غامضة تقول بان
انكون تلفة وتغطيه ظلمة لا يمكن اختراقها ، تضعها قوى الحياة والموت ، والخوف
من ان تفقد الحياة نكهتها كمغامرة جسور اذا ما امكن حل لغز الموت والعذاب ،
واذا قام في مكان الشك وانعدام اليقين ، الثقة من مجيء « الطوبى » والنعيم في
المستقبل . لقد جاء حلم غريب الحيوية فهز ايمانه بهذا التفسير المهتز الخائر
للجهل الانساني .. لقد مضى هذا البحث عن الحقيقة عبر طرق تعج بالاختار
وتكتنفها ظلمة ، غير مبصرة ، ولكن ، في خلال عام واحد .. جاءت اجابة .

جاءت الاجابة وامضة كالبرق خلال حفل موسيقي في قاعة « الملكة » عرفت
فيه سيمفونية بيتوفن السابعة . جاءت في خلال تلك الحركة الظافرة السريعة ،
حينما : « صدحت كل نجوم الصباح بالغناء معا ، وصاح كل ابناء الرب من
الفرح » . لم يحاول شيء ان يقطع استمرارية انسياب الموسيقى السريع ، حتى
ظننت ان ما يدعوه مستر . س اليوت : « تداخل اجزاء اللحظة التي لا زمن
لها » (بالزمن) لا بد قد انزلق داخل الفاصل القائم بين ما يشبه ان يكون نصفي
لحظتين من لحظات النغم . وبعد زمن طويل ، حينما رحت احل ما حدث في
ضوء الاسترجاع التأملية البارد ، بدا لي انه وقع في ثلاثة اجزاء : الاول ، هو
الحدث الفاض نفسه ، الذي وقع في جزء من الثانية لا يمكن قياسه ، ثم الفهم ،
تيار من الاحاسيس المعقدة التي لا يمكن التعبير عنها بالكلمات ، حيث امتزجت
تجربة الاتحاد بالعاطفة الابقاعية التي تثيرها الموسيقى ، . . واخيرا ، الاستنارة ،
جمع كل ما تحتويه التجربة من تعقد في سكون هادئة ، كما لو كانت تكتسب
صياغتها وشعاراتها من اشكل الفكر والكلمات . . . »

ويصبح من المؤكد تقريبا ان هذه هي نفس التجربة التي يتحدث عنها وليم
جيمس حينما نفكر في ملاحظة جيمس الاولى من ان تجاربه كانت قصيرة
قصرا بالغا : « في لحظة وجيزة كنت مشتركاً في حوار ، ولكنني اشك في ان
محدثي قد لاحظ تجريدي وغياب ذهني » . اما المرحلة الثانية من التجربة التي
يتحدث عنها اللين - مرحلة التيار الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات المكون من
الاحاسيس المعقدة والذي كان يتضخم بما تمده به روافد التجارب المرتبطة

بنفس التجربة ، فانها توضح ان اللين كان يتحدث ايضا عن ذلك الامتداد نحو الخارج للتداعيات الذي وصفه جيمس . وباختصار ، فان متعة الموسيقى وما ولدته من اثارة قد ضاعت من طاقات عقل وارنر اللين ، حتى وصل الى « الاستيعار » الى نظرة الطائر المحلق ، بشكل سريع وفجائي مثل شرارة تنطلق الى الفضاء .

وهذه هي نفس التجربة الصوفية التي وصفها تشسترتون باعتبارها احساسا بـ « الاخبار الطيبة السخيفة » ، وهي نفسها الفرح الذي انفجر داخل فاوست حينما سمع اجراس عيد الفصح ، وهي نفسها الاحساس الغلاب المسيطر بالاستيعار الداخلي النفاذ ، الذي يصاحب الوصول الى ذروة النشوة الجنسية .

وتصف شارلوت برونتي نظرة خاطفة مشابهة في روايتها « ثيرلي » ، باعتبارها : « رؤية نشوى مفاجئة للحياة كما ترغبها . كلا - ليس كما ترغبها ، فلم يكن لديها ما يكفي من الوقت لكي ترغب : ان النور الساطع المجيد ينتشر ويتمدد ، بأسطفا وناشرا روعته باسرع مما يستطيع الفكر ان يجمع اصوله واجزائه ، وبأسرع مما يستطيع الاول ان يلفظ باشواقه » . ان اللفة هنا لتشبه لغة جيمس حتى يمكن للمرء ان يعتقد انه كان يقتبسها في كتابته دون وعي .

ويصف « ر . هـ . وارد » في روايته : « مذكرات مدمن مخدرات » تجربته الخاصة في تناول حمض الميثان ، ولكنه يصل في النهاية الى استنتاج ان تجربته لم تكن تجربة صوفية ، ويجري مقارنة بينها وبين تجربة صوفية حقيقية لاحد اصدقائه ، يصف فيها الصديق كيف اجتاحه فجأة احساس بالانبعاث الداخلي الى الحياة ، بنهوض شيء ما داخل الانسان جديد وحي ، وبالقدرة على الانفصال عن الم عارض تؤدي الى الانفصال عن الجسد كله . . انه يصف احساسا بالبهجة مرتبطا بالاشياء والاعمال العادية ، وهو احساس يشترك في صفات كثيرة مع الوصف الذي يقدمه الدوس هكسلي للاحساس بـ « الماهية الوجودية » المستقلة للاشياء تحت تأثير عقار المسكاليين . ومع ذلك فان التجربة تتضمن بالتأكيد ادراكا معيناً لتلك « الأبعاد الأخرى للزمن » . فهو يوضح على سبيل المثال ان الموت لم يعد شيئاً مخيفاً او مثيراً للفرع ، وانما اصبح « الموت الجميل . . العريض » .

وتستدعي هذه التجربة تعليقات كثيرة . فرغم قوله انه قد « فصل نفسه » عن الالم ونوعه ، فمن الواضح ان سبب الالم قد اختفى . لقد كان شيئاً سلبياً ، بعد ان تمكنت « قفزة العقل الصاعدة الى أعلى » من صرفه والقضاء عليه . ويعتبر هذا الاسلوب شائعاً بين المتصوفين ، وهو اسلوب التوصل الى مستوى أعلى للعقل - التذكير العمدي للذات بانها مختلفة اختلافاً كلياً عن الجسد . فانا نجد عند المفكر الهندي المعاصر سري رامانا ماهاراشي قوله بانه اجتاز « نشوته »

الاولى ، نتيجة للتفكير في موت جسده ، ثم ادرك فجأة ، كحقيقة واقعة ، انه « هو » ليس الا « نفسا لا تموت » و متميزة كل التميز عن الجسد .



... ربما كان من الممكن اذن ، ان نقول بوجود نوعين من الوعي : وعي احادي ، وعي مزدوج . ففي مواجهة خطر او حصار ، يكون الهدف الاساسي هو المحافظة على الذات . ولا شك ان اكثر الناس « شخصيون » اكثر من اللازم . انهم يتعلقون كثيرا ويهتمون كثيرا بامراضهم ومتاعبهم وما يعانون منه . وحينما يحدث هذا ، تضيق الرؤية وينحصر مجالها . وهذا هو ما عنيته بتعبير : الوعي الاحادي . فاني اذا جلست في حجرة مزدحمة بالاشياء ، يسيطر علي الضجر وتملاني الكتابة ، اكون منحصر في واقع واحد ضيق ومحصور - الواقع الذي يحيط بي . فاذا طرقت على النافذة قطرات المطر ، فان البهجة المفاجئة التي تغمرني ستكون نابعة من التذكر المفاجيء لوجود واقع آخر : « هناك بالخارج » . وهذا هو الوعي المزدوج ، وهذا هو ما يحدث لفاوست حينما يسمع اجراس عيد الفصح : الاحساس المبهج بان: اجل ، يوجد شيء آخر . اننا موجودون عادة داخل شرك الغرفة المزدحمة التي تصنعها الذاتية . ولكن حينما يبدأ الوعي المزدوج ، فاني استطيع ان اتنفس بعمق . اتحقق حينذاك من الحقيقة الهائلة الاهمية القائلة بان نفسي ايضا يمكن ان تخلق بنفس السهولة التي يمكن ان يخلق بها الجسد . انها قد تموت بسبب نقص نوع آخر من الاوكسجين . اما نجاحها من الاختناق فتشبه في تأثيرها النشوة الجنسية بالصورة التي وصفها بها د. هـ. لورنس على سبيل المثال ..

وتبدو التجارب المختلفة التي وصفت فيما سبق كما لو كانت نوعا من « الوصول » ، كما لو كانت « قفزات مفاجئة لحمامة في طيرانها » لا يستطيع البشر ان يفعلوا شيئا للسيطرة عليها . ان شيللي ، يوجه حديثه الى « روح الجمال » ثم يسأل :

لماذا لا تنطلقين بعيدا وتتركين حالتنا ووضعنا ،

هذا الاناء المعتم الواسع من الدموع ، خاليا ومهجورا ؟

ولا شك ان هذه هي اكثر حالات الوجود الانساني جوهرية . فلماذا هي كذلك ؟ لماذا تتبخر وتتلاشى انواع يقيننا ، وما نبلغه من نشوة ، وما نحققه من كثافة ، بمثل هذه السهولة ، فتتركنا باحساس كالصداع الذي تخلفه الخمر بعد اليقظة ؟

يقول علم النفس القائم على تعاليم هوسرل ان المعالجة الصحيحة لدراسة

المشكلة هو فحصها بطريقة تشبه طريقة العين العملية التي يبحث بها الميكانيكي عن السبب في تعطل السيارة .

وعند هذه النقطة ، لا بد لي من ان ابدل محاولة لعرض تحليلي الخاص لكلية الانسان وشموله ، وان احاول « لم » موضوعات وقضايا هذا الكتاب ومنحها نوعا من الوحدة .

تقوم فرضيتي الاساسية على القول بان هناك خطأ ما كامنا في البشر . انهم يعانون بشكل دائم شيئا يشبه « نزلة البرد العقلية » ، تشبه في تأثيرها على العقل ، تأثير نزلة البرد العادية على جهاز التنفس ، حينما يحس المصاب بالاختناق . ولكنهم ، حينما يسقطون فريسة المرض او الاجهاد ، فان الاحساس بالاختناق يصبح ضاغطا وثقيلًا حتى يتحول الى نوع من الفرع المؤلم ، ويمكن ان يكون هذا الاحساس هو بداية المرض العقلي القاسي .

ثم تكون هناك اللحظات العابرة التي يصفو فيها الرأس ، مثلما يشعر المصاب بنزلة البرد كأنما انفجرت فقاعة خلف الانف فأصبح قادرا على التنفس ، والسمع ، والرؤية بطراجة منعشة جديدة . يستيقظ شيء ما في داخلنا وينهض ، وتفغره البهجة بالعالم الذي يجد نفسه في داخله . ويبدو الكون لا نهائيا في تعقده ومتعته وأهميته .

وفي كل تلك اللحظات من الكثافة و« الجدة » يفمرنا الادراك باحساس « الترابط » الداخلي ، كما لو كان وعي الانسان قد اصبح قبضة مضمومة بقوة .

وهذا هو المفتاح الحيوي . اننا نعرف ان اجسادنا مصنوعة من سرب هائل من الالكترونات ، كسرب من النحل يطن باستمرار ، ولكنه يتماسك ويتحول الى كتلة واحدة بفعل قوى الجذب الداخلية . ولكن نفس القاعدة هي ما تنطبق على « الجسد الشبحي » ، او اي اسم آخر تختاره لكي تصف به « انا » الشاعرة ، المفكرة ، الحية . انه ايضا سرب هائل من الجزيئات ، مثل النحل . ولكنه يختلف عن الجسد المادي في جانب واحد هام . ان لجسدك المادي دائما نفس الحجم والشكل بصورة تقريبية . اما هذا الجسد « العقلي » فيستطيع ان يتمدد ويتحول الى سحابة منتشرة منتشرة لا شكل لها ، او تظل تتحرك حتى تصبح كما لو كانت « كرة » متوهجة بارقة من الكثافة . وقد كان f . 1 هوكان ، هو من اذاع القول بان الشعر الحقيقي هو ما يجعل شعر الرأس يقف وجلد الرأس يقشعر . وهو ايضا ما يجعل « الجسد العقلي » يترايط . يبدو الجلد كما لو كان قد اصبح اكثر احكاما على الجسد . يصف سارتر هذا الاحساس في رواية « الفثيان » بقوله : « شعرت بجسدي يتصلب والفثيان يختفي ، وفجأة اصبح مما لا يحتمل

ان اصبح بهذه الدرجة من الصلابة والدكاء » . ويقول ايضا : « اشعر بجسدي يتحرك مستريحا مثل آلة في كمال حركتها وانضباط ايقاعها » . وتثير هذه الصور الاحساس بـ « الترابط » : اي الصلابة ، التي تعني ان الجلد كاد ان يتحول الى غلاف رقيق مصبوب من الصلب المجلفن .

ويحدث الشيء نفسه عند بلوغ ذروة النشوة الجنسية : احساس بالترابط الداخلي . انه الخطوة الاولى نحو ما يسميه شو : « الدرجة السابعة من التركيز » . وهذا هو ما خبره بروسست حينما تذوق الكعكة المغموسة في الشاي ، فكف فجأة عن الشعور بانه : « عادي ، عارض ، فان » .

لم يكن هذا الاحساس وهما . كان قد عثر فجأة على قوة عادية من قوى النفس الانسانية : الملكة س . لسنا : « عاديين ، عارضين ، فانيين » رغم اننا نشعر باننا كذلك غالب اعمارنا .

ولقد اشرت الى ان ثمة دليلا قويا على وجود الجسد الشبحي . ولكن بالنظر الى هدفنا الحالي - فليس هناك فارق بين ما اذا كان يوجد حقا ، او ما اذا اعتبرناه مجرد شيء لا وجود له الا في الكلام . فلكي نتحقق من واقعية « الترابط الداخلي » ، لن يكون عليك الا ان تتحمل مشقة ملاحظة نفسك فسي اول مرة قادمة تشعر فيها بالبهجة المفاجئة الفامرة .

فاذا ما اعترفنا بذلك ، امكننا ان ندفع التحليل الى مزيد من التقدم . سيكون من الممكن ان نرى ان درجة معينة من الترابط ، تنتج الاحساس بالشعر ومعناه ، روح الجمال عندشيللي ، وهي ايضا « تجربة القمة » . والمزيد من الترابط ينتج الاحساس بـ « الكينونة » ، بـ « ان اكون قادرا على الفعل » ، تلك التي يسميها بريستلي البعد الثالث للزمان . وهذه هي حالة الاستبصار ، حينما تبدو كل الملكات وكأنها اصبحت اكثر سموا وحدة في سرعة العمل . انها تفسر السبب الذي يدفع الناس الى ان يكونوا سائقي سيارات سباق ، ومتسلقي جبال ، او مستكشفين للصحراء مثل ت. 1. لورنس : ذلك انهم يريدون ان يساوجوا طارئا يرغبهم على « الترابط » في هذا المستوى الجديد للسيطرة والقدرة على التحكم .

وعند نقطة معينة من التركيز ، تبدأ سلسلة من ردود الافعال فسي التطور . وسيعرف القراء الذين درسوا الطبيعة الدرية ، ان هذا هو المبدأ الذي تقوم عليه القنبلة الدرية . فاليورانيوم ٢٣٥ ، هو نظير مشع يتحلل بصورة دائمة ومستمرة بسبب نشاطه الاشعاعي العالي . وفي حالة وجوده في كتلة صغيرة ، يتم التحلل ببطء . ولكن اذا تم التحام بين كتلتين من هذا النظير المشع ، بحيث تكونان معا كتلة واحدة من حجم معين ، فان عملية التحلل تتسارع فجأة بمعدل مروع ،

لان « قذائف » الطاقة ، توجه ضربات مباشرة تصيب نويات الذرات الاخرى ، مما يؤدي الى تحللها . وتوجه الذرات المتفجرة مزيدا من انقذائف ، تصيب المزيد من نويات الذرات الاخرى . والنتيجة هي انفجار ذري . وفي القنبلة الذرية ، يتم لحم مفاجيء بين كتلتين « حرجتين » من اليورانيوم ٢٣٥ ، فتكونان كتلة واحدة ، تنفجر على الفور .

وفي عملية التركيز يوجد مبدا مماثل ومطابق . فعند نقطة معينة - يبدو الوجود (او الكيان) العقلي للانسان - سرب النحل . كما لو كان يبلغ وضعا يشبه وضع « الكتلة الحرجة » فتتطور عندئذ سلسلة كاملة من ردود الافعال . ان شيئا من هذا النوع هو ما يبدو انه حدث مع روبرت جريفز ، بينما كان يجلس امام زحافة الحديقة .

وتبرز ظاهرة على قدر كبير من الاهمية عند هذه النقطة . ان حالات السعادة المفاجئة الغامرة ، غالبا ما تتحلل كما لو كانت تحت ضغطها هي الداخلي . وبنفس الطريقة ، فاذا ما تم التقريب بين كتلتي يورانيوم ٢٣٥ صغيرتين لكي تكونا معا « كتلة حرجة » فلن تكون النتيجة انفجارا هائلا ، لان رد الفعل الإنشائي من عملية « مجرد » التقريب ، سيفصلهما ثانية ويعددهما الواحدة عن الاخرى ، فيتبعثر اليورانيوم قبل ان ينفجر . ولكن في بناء القنبلة الذرية ، لا بد من الاساك بهما ، والتقريب بينهما بالقوة . وهذا هو ما يفسر السبب في القصر الشديد المعتاد للتجربة الصوفية - مثل تجربة وارنر اللين في قاعة الملكة : « بين نعمتين من سيفمونية » . انها تجربة تؤدي الى تحللها هي نفسها . ولكن ، ما السبب في هذا ، اذا كان الصوفي « يريد » بمثل هذه الشدة ان يطيل امدها ؟

ان للاجابة اهمية اساسية ، لان « العضلات » التي تستطيع ان تمسك بهذه التجربة فتثبتها ، عضلات رخوة وغير متطورة . اننا لا نستخدم تلك العضلات الا بشكل تلقائي ، غير عمدي ، حينما تستثار قفزة من خلال (او بسبب) الجمال او الاحساس بقيام ازمة معينة . وهذا الوضع - في حد ذاته مناف للطبيعة وللعمل . كما لو ان احدا لا يستخدم عضلاته ساقه الا حينما ينقر احدهم على ركبته فتتحرك في شكل رد فعل سلبي مؤقت .

اننا نمتلك العضلات اللازمة للضغط على الومي وتوليد حالات الكثافة العميقة ، ولكننا لا نستخدمها الا بشكل نادر للغاية ، لدرجة اننا لا نكاد نشعر بوجودها .

ومن الممكن هنا ان نطور المثال الذي ضربته بالقنبلة الذرية . ان هذه القنبلة ، يمكن ان تستخدم كجهاز تفجير للقنبلة الهيدروجينية ، فان تفجير الهيدروجين - التفجير الذي يولد حرارة الشمس - يتطلب درجات من الحرارة والضغط تماثل

تلك الدرجات الموجودة في قلب الشمس . ومن الممكن ان تولد درجات الحرارة والضغط المطلوبة بشكل سريع ومؤقت ، اذا امكننا ان نفجر قنبلة ذرية في وسط كتلة من الهيدروجين الثقيل المضغوط ، اندي سيتحول في تلك اللحظة - او تتحول ذراته - الى ذرات غاز الهليوم الاكثر تعقدا ، منتجة انفجارا تبلغ فوته الف ضعف قوة انفجار القنبلة الذرية . ان الوعي الانساني ، قادر - من الناحية النظرية - على توليد هذا النوع من الطاقة . ان الانسان - حريبا - اله : انه اله يعاني من الكسل ، وفقدان الذاكرة ، والكوابيس .

ويطلق الكاثوليك على هذا « الخطأ » الكامن في الوعي الانساني ، اسم « الخطيئة الاصلية » . ويسميه هايدجر : « نسيان الوجود » . ولكن من المهم ان نفهم انه ليس خطأ اساسيا ، او فطريا . انما نحن نعاني من « نزلة البرد الروحية » تلك ، وليبد ذلك غريبا بقدر ما تشاؤون ، لاننا نريد ان نعاني منها . ان الانسان الذي يريد ان يفكر ، يحبس نفسه في حجرة هادئة ، وربما يفلق كل النوافذ . ولهذا السلوك مميزاته ، وله اضراره ايضا . فهو يسمح له بالتركيز ولكنه يمنع عنه الهواء النقي ويحرمه من اصوات الطيور . فاذا شاء ان يخرج للهواء الطلق ، فلن يكون باستطاعته - ببساطة - ان يفتح كل تلك النوافذ مرة اخرى . فالافتتاح ، او الاسترخاء ، يستغرق وقتا طويلا .

وهذا هو السبب في ان معظم البشر ينفقون اكثر حياتهم في حالة متعبة ، خالية من الراحة ، من : « التوتر الفائق العام » ، دون ان يعرفوا ما ينبغي ان يعملوه .

ربما يفكرون في سبيلين عاديين : الاستسلام ، او البحث عن مهرب . ولكن هناك سبيل ثالث ، هو بدل المجهود اللازم للتركيز ، للوصول الى حالة التقلص الداخلي ، حيث « يترايط » الكيان الداخلي ، وستكون النتيجة احساسا جديدا بالقوة ، والتحكم ، والحرية . ان القسيس السكير ، عاشق الويسكي ، عند جراهام جرين ، عند لحظة اعدامه رميا بالرصاص ، يتبين انه : « لقد كان من السهل جدا ان اكون قديسا » . لماذا ؟ لان التهديد بالموت - الابادة - المباشر الفوري يؤدي الى التقلص الداخلي ، وهو مجهود تبذله الارادة اعظم بكثير من كل مابدلته هذه الارادة طوال سنوات ، وربما ، طوال حياة صاحبها . وهو يتبين ، مصدوما ، انه لو كان قد بذل نفس هذا المجهود للارادة من قبل ، لما كان قد احتاج الى ان يضيع حياته هدرًا .

يمتلك الانسان القدرة على تحقيق التماسك لجسده الشبكي ، عن طريق الارادة . ولكنه لا يمي امتلاكه لهذه القدرة . والبرهان على جهله هو استعداده للضجر . والضجر هو تمدد « الجسد الشبكي » ، حيث يتحول سرب النحل الى

سحابة مشتتة مبشرة لا شكل لها . في هذه الحالة ، نعاني من نوع من « فقدان الذاكرة »، ويختفي الاحساس بالمعنى . « تفشل » الحياة ، وتسقط الطاقات الداخلية في وهدة منخفضة . ستكون المرحلة التالية للتطور الانساني ، هي التطوير العمدي لهذه « العضلة » الخاصة بالارادة، والتطوير المماثل للاحساس بالمعنى .

ومن الممكن اذن ان نرى، انه طبقا لهذه الخطة التي سيتبعها التطور، ان المراتب الثلاثة للزمن، التي وضعها بريستلي، تصبح غير ضرورية . فالزمن الاول هو الطريقة التي اميش بها الزمن حينما اكون سلبيا وغير مركز . والزمن الثاني هو الطريقة التي اميشه بها حينما يصبح عقلي متحكما في ذاته ، وهو ما يحدث حينما يتركز العقل على «معنى» بعينه . والزمن الثالث هو الطريقة التي اميش بها الزمن حينما تبدأ سلسلة ردود الافعال الخلاقة ، حينما امارس احساسا بالتحكم الكلي في عملياتي العقلية وبالدراك غير المتردد ولا المهتز للمعنى .

هناك بعض النقاط الهامة التي تجب ملاحظتها بشأن هذه المعايشت الثلاثة للزمن . ان اكثر الثلاثة اجهادا هو الزمن الاول ، وهو « الحياة السلبية فسي الحاضر » . انني اذا شعرت بالاجهاد ، فان افضل السبل للتخلص منه هو العثور على شيء يهمني بشكل عميق، والتركيز عليه . فاذا شعرت بالاجهاد « و » الضجر، فستكون النتيجة العجيبة، هي ان استمر في الهبوط الى مستوى اقل انخفاضاً، مثل سيارة تركت انوارها مضاءة لكي تستهلك « غسيل المخ » للجواسيس . فيترك وهذا المبدأ هو ما استخدم في عمليات « غسيل المخ » للجواسيس . فيترك الجاسوس في حجرة يشملها الظلام الحالك والسكون ، وحالما يتملكه الضجر ، تسترخي ارادته ، ويتلاشى احساسه بالمعنى ، ويتصاعد احساس بالبؤس والفزع ، وتبدأ قواه الحيوية في التحلل . ويتصاعد احساسه بانه : « عادي ، وعارض ، وفان » . وفي هذه الحالة يكون قريبة سهلة للمحقق .

وفي الجانب المقابل ، اذا كنت ضجرا ومجهدا ، ثم يحدث شيء ما يثير اعماق اهتماماتي ، فأنني اجاهل الاجهاد . اركز ، وتبدأ « بطارياتي » الحيوية تحسن نفسها من جديد الى اقصى حد ممكن .

ان تجربة الزمن الثالث هي اكثر هذه التجارب اهمية لانها تتضمن اكشسر درجات السيطرة والتحكم شمولاً . انني اذا كنت غارقا بعمق في تأمل شيء آخر - مثل توينبي عند ميسترا او بريستلي خارج محل السمك - فأنني اكون ما ازال سلبيا بشكل اساسي، وقد تحول عقلي الى الخارج : هذا هو الزمن الثاني . ولكن في لحظات التأمل والنشاط العقلي الكثيف ، فأنني اكون مدركا لارتباطي بسلسلة متتالية من ردود الافعال . وبما يعني أنني كلما ازدادت تركيزاً،

كلما ازداد تحديدي للمعنى ، وكلما ازداد تحديدي للمعنى ، كلما زادت كثافة تركيزي .

ان التركيز الجسدي ، من اجل النجاح في تحقيق قدر معين هائل من السيطرة على الجسد في وضع وحركة معينين ، والتركيز العقلي من اجل تحقيق اعماق فهم ممكن لعمل فني عظيم مثلاً ، هما ما يؤديان الى تحقيق هذا الاحساس بالحرية ، بالوجود خارج اطار الزمن ، دون اي اعتبار لمحاولة تجزئة « معنى » الزمن ذاته .

وهذا هو ما ينبغي ان يوضح السبب في ميلي الى رفض فكرة الزمن ذي الابعاد الثلاثة . الا يقع بريستي في نفس الخطأ الذي يقع فيه « دان » في التعامل مع الزمن كما لو كان « كينونة » او وجوداً ثابتاً حقيقياً ، مثل البحر ، بينما هو في الحقيقة « عملية » تتحرك ، مثل موجة في البحر ؟ وباعتبار الزمن عملية تتحرك ، فانه وظيفة لما وافقت على تسميته باسم « الجسد الشبحي » مؤقتاً ، لكي اميز « انا » الحي ، الواعي ، من القوقعة المادية التي سوف تموت في الوقت المناسب .

ان ما يحدث في الحالتين (حالة التركيز الجسدي ، ثم حالة التركيز العقلي) لا بد من ان يكون واضحا كل الوضوح . فبدلاً من ان تترك التجربة الجمالية لكي تؤثر في حواس سلبية ، يبدل الانسان مجهوداً من اجل زيادة سرعة العملية عن طريق التركيز . وقد يبدو هذا هو الاتجاه الخطأ : لانه ، اليس من المؤكد ان الموسيقى ، مثل الشعر ، تتطلب موقفاً اكثر انفتاحاً ، مثل « القدرة السلبية » التي تحدث عنها كيتس ؟ ولكن اصحاب المنهج الظاهري (الفينومينولوجيين) يعرفون ان هذا محض خطأ . فان كل عمليات الادراك هي اعمال « عمدية » حتى ولو لم تكن شاعرين بوعي بحدوثها . انك اذا استرخيت استرخاء شديداً ، فانك ستبدأ في الاحساس بالضجر والكآبة . ولكنك تضغط على عضلة التركيز لكي تبدل مجهوداً شاملاً ونهائياً ، وتكون النتيجة ومضة خاطفة من ذلك النوع من السيطرة والتحكم في الجسد الذي « سوف » يكون ممكناً في المرحلة القادمة من تطور الانسان . ولا شك انه من الممكن ان يتحقق هذا التحكم ، ويتم التوصل الى نتيجته دون اعداد سابق . انك قد تنظر دون وهي ، ودون ارادة واضحة الى منظر ما ، فلا يستثير المنظر لديك استجابة من اي نوع ، ويظل عقلك خالياً من اي معنى متعلق بالمنظر نفسه . ولكنك تستطيع ان « تستولد » المعنى ، بعد ان تبدل مجهوداً خاصاً كبيراً ، يولد صدمة استجابة مفاجئة ، احساساً بالمعنى الذي تم توليده ، كما لو كان المنظر قد باح بشيء معين وتكلم فجأة بعد ان كان

صامتا لا يبين. وقد يظل هذا الاحساس قائما بعد ان تنتهي اللحظة ،
ويحل الاسترخاء .

ويساعدني هذا على ان اقرر هنا بوضوح كامل ، ما اعتقده بشأن التطور
البشري . أن عددا معينا من وظائفنا يعمل بشكل اوتوماتيكي ، كالتنفس والهضم
والاستجابة للامرات ، وهذا يعني انني قد اغوص في حالة من النقصان الكامل
للارادة ، ولكن هذه الوظائف تستمر في اداء عملها ، دون ان تتأثر بحاتي . و« قد
كان ينبغي » للوظائف الاخرى ان تكون اوتوماتيكية ، ولكنها ليست كذلك حتى
الان . فالفتاة على سبيل المثال ، غالبا ما تدهش بشدة ازاء قوة وحدة حبها
لطفلها الاول ، فان شخصيتها العادية اليومية قد لا تستطيع ان تمدها بساي
سبب يدفعها الى توقع ان استجابتها للامومة ستكون بكل هذه القوة . وهذا
مثال لما نعلمه بان يتحول المعنى فيصبح اوتوماتيكي ، حينما تنتبه اليه غرائزنا
فتتولى رعايته . ونحن لسوء الحظ لا نملك نفس الاستجابة الفطرية ازاء صباح
ايام الربيع وازاء آلاف الظواهر الطبيعية الاخرى التي نستجيب اليها « احيانا »
بابتهاج واحساس بالمتعة . ان الرجل الذي يخرج لتوه من سجن طويل قد يعيش
« تجربة قمة » مثل تجربة «ويني» ، اذا نظر الى مشهد غروب الشمس ، اما اكثرية
سكان المدن فلا ينظرون الى هذا المشهد الا باعتباره شيئا عاديا ، وقد ينظرون اليه
بشكل اسود ، فيقولون : « اجل ، انه جميل » ، دون ان « يشعروا » ازاءه بشيء
محدد .

اننا نحمل عادة نظرية في داخلنا تجعلنا ميالين الى السلبية التي هي اكثر
خطرا من تدخين السجائر او تعاطي المخدرات . لماذا : « اكثر خطرا » ؟ لانها تنتج
حالة الضجر والاختناق الداخلية التي تجعلنا نشاق الى حدوث ازمة ، الى
التوتر والقلق ، وهي التي تفسر على سبيل المثال التزايد الثابت في معدل
الجريمة ، والجرائم المتزايدة العنف والتي تحدث دون دافع معين ، انه اذا حدث
ان تراكمت السموم في دمائي ، فان لجسدي وسيلة اوتوماتيكية للتخلص منها : تنمو
بعض « الدمامل » ، ثم تنفجر بعد ان تتراكم فيها السموم التي تسيل خارج
الجسم . ولكنني اذا سمحت لنفسني بان اغرق في حالة من الاختناق الداخلي ،
فانني لا املك اي نظام دفاعي اوتوماتيكي ضد هذه الحالة ، ولا بد لي من البحث
للتوصل الى نوع من التحدي او الاستثارة لاستعادة التوازن الحيوي . ان المجرم
الجنسي الذي يخرج للبحث عن فتاة يفتصبها ، انما يبحث عن علاج لمرضه ، مثل
كل مريض يمرض بمضغ الحشائش التي يعرف انها تحتوي على العلاج . ان الانسان ،
عند هذه النقطة من تطوره ، بعد ان ازدحمت الارض ، يحتاج الى ان ينمي
نظاما اوتوماتيكي للتعامل مع تلك السموم التي تظهر نتيجة للاختناق ، ومن
التفاهة اللانهائية التي تتميز بها الحياة المتحضرة . عليه ان ينمي « العضلة

العقلية « التي تحدثت عنها : « الملكة س » . وهذه عملية اقل صعوبة مما تبدو ، ومن الممكن ان يتحول اي شيء الى عادة اذا : « اردنا نحن حقاً ان نحوله » . علينا اولاً ان نعترف بضرورة ذلك .

فما هي العلاقة بين « الملكة س » وبين ملكات الانسان الاخرى - مثل القدرة على « الوساطة » ، او التواصل مع مظاهر الوجود وقواه غير المادية ، على سبيل المثال ؟ . .

. . ولكن لا بد ان اكرر هنا انه من الخطأ ان نستخدم المصطلح : « القدرات الغيبية » كما لو كانت هذه القدرات مختلفة « نوعياً » عن ملكاتنا الاخرى العادية . انها ببساطة ، ليست سوى جزء آخر من الطيف الضوئي الواحد ، انها قسوى « غيبية » فقط بمعنى ان الكائنات البشرية قد كادت ان تنساها في غمار عملية تطور القدرات العقلية . ولكن المرحلة التالية من عملية الارتقاء ، مرحلة التطور الى مدى اكثر بعد لهذه القدرات العقلية ، ستضمن عملية « اغادة تنمية » وتطوير تلك الملكات .

ولقد تأكدت هذه النقطة تأكيداً يثير الاهتمام من خلال الابحاث حول « الغدة الصنوبرية » ، وهي الغدة الغامضة ، او العضو غير المفهوم في الدماغ ، الذي يقول عنه الهندوس انه مكن « القدرات الغيبية » (بل ان ديكارت ، العقلاني الكامل ، يقول عن هذه الغدة ، انها المكان الذي يتم فيه الامتزاج بين نفس الانسان وجسده) . ولقد زعم ان الغدة الصنوبرية هي عين مهمة ، « عين ثالثة » رغم ان احدا لا يستطيع ان يحدد تماماً وظيفة او نفع عين مدفونة في وسط الدماغ . وفي القرن العشرين ، بدأ العلماء يكتشفون علاقة غريبة وغير منتظمة بين « الغدة الصنوبرية » وبين الطاقة والنزوع الجنسيين . فقد اكتشف الطبيب الالماني ، اوتوهيوبنر ، ان صبياً صغيراً ، كانت له اعضاء تناسلية كبيرة الحجم الى درجة غير عادية ، كانت « الغدة الصنوبرية » لديه متورمة . واكتشفت الطبيبة الامريكية ، فيرجينيا فيسكه ، ان الفئران اذا تعرضت للضوء باستمرار ، فان غددها الصنوبرية تتضاعف في احجامها ، بينما تتضائل اعضاءها التناسلية . وقد تم الاتفاق اخيراً ، على ان هذا العضو هو « غدة » ، وليس عينا مهمة ، وانها تنتج نوعاً من الهرمونات ، اطلق عليه اسم « ملبوتونين » . ثم توصلت الابحاث الاكثر تطوراً الى ان هورمون الملبوتونين ، يتم انتاجه من خلال تفاعل بعض الانزيمات مع مركب كيميائي اسمه « سيروتونين »

وهنا يبدأ الغموض الحقيقي - وهو غموض السر الذي لم يتم توضيحه جزئياً الا في وقت كتابة هذه السطور . فان هذا المركب الكيميائي (السيروتونين) يبدو عاملاً قوي التأثير في عملية ارتقاء الانواع . فالحيوانات الثديية الرئيسية

(الرئيسيات) ، وهي البشر والقرودة العليا ، تملك نسبة من السيروتونين اكثر بكثير مما يملكه اي نوع اخر . ويبدو ان هذا المركب يتم تصنيعه في الغدة الصنوبرية ، وان احدى وظائفه هو كبح النمو الجنسي وزيادة الذكاء . وهذا هو ما يبدو انه يفسر السبب الذي يجعل اكثر الاذكاء من البشر اقل نموا من الناحية الجنسية وقل سرعة في نموهم الجنسي ، بينما يفسر السبب في ان اكثر من يسرعون في نموهم الجنسي ، لا يظهرون قدرا كبيرا من الذكاء ، اذا اظهروا اي ذكاء اصلا .

ومن الاضواء الجانبية التي تخلق اللب حول هذا الاكتشاف ، ان شجرة « البوا » ، الشجرة التي يقال ان بودا قد وصل وهو جالس تحتها الى الاستنارة الكاملة ، ثمرنوعا من التين (يسمى *Ficus religiosa* - اي التين الديني - تكريما لجوتاما - البوذا) يحتوي على كمية كبيرة بشكل غير عادي من مركب السيروتونين ، الامر الذي يؤدي الى فكرة هامة ، تقول بان غذاء بودا كان هو الغذاء الامثل الذي يمكن عن طريقه التوصل الى الاستنارة العقلية بشأن الوضع الانساني .

وفي عام ١٩٤٨ ، اكتشفت خصائص عقار « ل.س.د - ٢٥ » التي تؤدي الى « تغيير العقل » وتم الاكتشاف بالصدفة ، حينما بدأت اغراض الهلوسة تظهر على كيميائي سويسري يدعى هوفمان ، وكان يقوم ببعض التجارب على فطر « الارخوت » ، وهو فطر ينمو في النباتات الجافة ، كالقمح والذرة ، ويصيب حبوبها ، وقد اكتشف ان هذه الامراض كانت ناشئة بتاثير مادة يحتويها فطر الارخوت ، اطلق عليها فيما بعد اسم « ل.س.د - ٢٥ » ، وعرف فيما بعد ان خصائصها تشبه الى حد كبير خصائص المسكاليين ، وهو مركب كيميائي يستخلص من نبات البتولا المكسيكي . ويستطيع كل من المسكاليين و«ل.س.د» ان يولدا نوعا واسعا ومكتفا من الوعي ، واحساسا بالتطابق والتوحد الكامل مع الكون ، واشكالا جميلة من الالوان والاضواء ، وحيوية جديدة في الادراك . ومن الواضح انهما يؤديان الى ذلك ، عن طريق « سد الطريق » على ملكة الانسان العقلية . ولقد قلت من قبل ، اننا نغلق ابوابنا ونوافذنا العقلية من اجل ان نفكر بوضوح تفكيرنا صافيا . ولكن هذه المركبات الكيميائية تفتح تلك النوافذ ، ثم تتركها مفتوحة على مصاريحها مدة طويلة . ولم يعرف حتى الان بالتحديد الطريقة التي تحقق بها هذه المركبات تلك النتيجة . ولكن ، يبدو انه من المؤكد الان الى حد بعيد ، ان جزيء عقار « ل.س.د » يحققها عن طريق تدمير جزيئات مركب السيروتونين .

وقد توصل فريق من العلماء في مستشفى فيرفيلد هيلز في مدينة نيويورك

يولايه كونيكيتكت الامريكية ، الى اكتشاف هام ، هو ان المصابين بالشيذوفرانيا (انفصام الشخصية) لا تحمل ادمغتهم الا كميات ضئيلة بشكل غير عادي من السيروتونين ، ولبرهة وجيزة ، كان المأمول ان يكون الطب قد اكتشف في النهاية علاجاً مؤكداً للشيذوفرانيا - وهو السيروتونين . ولكن احدا لم يكتشف حتى الان الطريقة التي يمكن بها نقله الى المكان المطلوب : الغدة الصنوبرية . بل انني اريد ايضا ان اقول ان فكرة ان الشيذوفرانيا راجعة الى نقص كمية السيروتونين قد تكون من قبيل وضع العربة امام الحصان . فالشيذوفرانيا حالة من هبوط الحيوية ، حيث تسيطر « الآلة » او « الروبوت » اللاواعي في داخلنا على الوظائف الحيوية ، بما يعني ان « انا » الذي يتحرك في حالة تشبه الحلم ، يكون مقتربا تماما عن الوجود . وقد يكون من الصحيح ان يقال ان نقص السيروتونين هو نتيجة لهذا الهبوط في الحيوية وتجمد الارادة واختناقها .

ولقد وصفت في مكان آخر (٢) تجربتي الخاصة مع عقار المسكاليين . انه يريد من صعوبة التفكير العقلي ، وبدا لي انه يغمرني بموجات من الوجد العاطفي والاستبصار الحدسي . (فعلى سبيل المثال ، تملكني حدس قوي بان المنطقة التي اعيش فيها - وهي كورنوا - كانت لها علاقة وثيقة بالسحر الاسود ولكنني لم اتمكن من التثبت من هذا الحدس حتى الآن) . ومن المؤكد انه كان ثمة احساس قوي بالخير الكوني الذي هو جوهر العالم ، ولكن هذا - في حدود ما كنت اهتم به - لم يعوض الاحساس بخسارة القدرة على تركيز عقلي ، والاحساس بـ « عضلات » التركيز قد اصبحت بالشلل . فقد كان واضحا لي ان المسكاليين قد انتج آثاره عن طريق ايقاف عمليات « التصفية » الطبيعية التي يقوم بها الدماغ ، تاركاً الحواس لكي تفرق تحت طوفان ثراء العالم المحسوس وبذلك ، فانه يجمد حركة وفعالية « الملكة س » . ان « الاستنارات » التي يحققها المسكاليين كانت هي النقيض المقابل للكثافة العقلية التي تتطور وتنمو في داخلي احيانا حينما اكون منكبا على العمل . ولقد كانت تجربة المسكاليين في الحقيقة هي النقيض المقابل للكثافة . كانت عملية تخفيض للضغط العقلي ، او عملية تثبت لحزمة اشعة التركيز . واعتقد انني حينما اكون في حالة استبصار عميق وكثيف فان هذه « الحزمة من اشعة التركيز » تزداد كثافة وتماسكا حتى تصل الى كثافة السيل من اشعة الليزر، وهناك علاقة فعل ورد فعل متبادل بين التركيز وبين ادراك المعنى - ولكن المسكاليين يدمر كل امكانية لقياس او لاستمرار هذه العلاقة ، فهو يقوم - ببساطة - بفتح الحواس ، ويسمح لكل شيء بالدخول .

(٢) ما بعد اللامنتهي ، الملحق الاول .

يوحي كل ذلك - اذن - بان السيروتونين ، هو مركب كيميائي ، مرتبط بالتركيز وبالملكة « س » . وهو ما يفسر بدقة السبب الذي يجعل « القدرات الغيبية » من نوع الوساطة والتواصل عن بعد والقدرة على التنبؤ بالمستقبل ، هي بشكل ما النقيض المباشر للملكة س . انها - بالتأكيد - مرتبطة بحالة « الاستعداد للتلقي السلبي » التي يخلقها عقار المسكاليين او عقار « ل . س . د » ، اما الملكة « س » فهي مرتبطة بحالة التركيز التي تعتمد على السيروتونين .

... فإذا كان انتاج السيروتونين يعتمد على كمية التركيز التي نحققها في العادة ، فانه من الممكن ان تزداد هذه الكمية بزيادة التعود على التركيز . وعلى النقيض من ذلك ، ان الخطر الرئيسي الكامن في العقاقير المؤثرة على الجهاز العصبي وعلى الحالة النفسية ، والكامن أيضا - ربما - في الماريجوانا - هو ان التعود على استخدامها قد يؤدي الى هبوط حاد في انتاج السيروتونين في الدماغ) . ويبدو لي ان الخطوة التالية في عملية التطور الانساني ، انما تعتمد ببساطة على اكتساب عادات التركيز والكثافة العقلية لكي يتم احلالها محل اعتيادنا المألوف للسلبية والكسل . يستطیع الطبی ان یجری بسرعة الريح ، وتشم سمكة السالمون رائحة النهر الذي فيه موطنها على بعد آلاف الاميال ، وتنتج سمكة الرعاش (الكهربائية) شحنة كهربائية بقوة ستماية فولت ، ويسبح الدلفين بسرعة تفوق سرعة القطار السريع ، ويطيّر « ابو الحناء » مهتديا بالذبذبات التي يلتقطها من سديم المجرة (الطريق اللبني) . . في كل حالة من هذه الحالات ، تم تطوير « ملكة معينة » - نملكها جميعا - لكي تصل الى مستوى اكثر سموا بواسطة الجهد المبذول . ان الملكة التي تميز كل « الرئيسات » بين الحيوانات الثديية ، وتميز الانسان بشكل عام ، من جميع المخلوقات الاخرى ، هي القدرة على « تركيز المعنى » اي على التعلم . وان اكثر ما يميز الانسان قوة ، لهي تلك القدرة على ان يسيطر على تلك المجموعة المتنوعة من المهارات ، ثم السيطرة عليها الى هذه الدرجة العالية بشكل لا يصدق . ان لاعب « الاكروبات » يستطيع ان يلعب بعدة كرات صغيرة في لحظة واحدة وهو منتصب متوازن على سلك مشدود فوق هوة مرتفعة ، وكان باستطاعة هوديني ان يخرج من خزانة حديدية اغلقت عليه باحكام وهو مقيد بقيد حديدي ثم القيت به في النهر فخرج منها سالما كأنه كان يسبح في بحيرة منزلية ، واستطاع ويليام روان هاميلتون ان يتقن اللغات اللاتينية والاغريقية القديمة والعبرية في الخامسة من عمره ، ويستطيع زيراه كولبورن ان يقوم بعمليات ضرب ارقام هائلة ، في عقله ، وفي غضون ثوان قليلة ، وما زال باستطاعة الرياضيين ان يسجلوا ارقاما قياسية في العرعة والندرة على الارتفاع ورفع الاثقال : ضد الزمن والمسافة والثقل ، ومنذ قرن واحد مضى كانت قمة جبل « ماتهورن »

تعتبر مستحيلة على التسلق ، ولكن متسلقي الجبال يعتبرونها الان شيئا يمكن التجول فوقه على سبيل التنزه في ايام الاحد ، لا يبدو ان ثمة شيئا يستحيل على الانسان القيام به : اذا ركز ذهنه عليه . فطالما كانت لديه فكرة عما يريد ان يفعله ، فانه يبدو غير قابل لان ينهزم . ولم تكن مشكلته ابدا هي قوة الارادة ، وانما الخيال : ان يعرف ما ينبغي ان يحول ارادته « نحوه » وهذا هو ما يشكل اعظم سبب للتفاؤل عند هذه النقطة من التاريخ - دون استثناء نوستراداموس وادجار كايس . ان التطور يتقدم في قفزات كالطفرات ، وقد بلغ الانسان الان النقطة الهامة حيث اصبح مهيا لان يفهمه « بشكل واع » وان يتحرك الى الامام بفهم كامل لما يفعله او يقوم به وكانت مشكلتنا في الماضي هي الاتصال المحدود بين الذكاء والغريزة ، الامر الذي كان يعني ان الاذكياء من الناس كانوا يفتقرون الى القوة والى الحيوية ، بينما افتقر الغريزيون من الناس الى الرؤية والى الهدف البعيد المدى . ولكن من الممكن ان يتم التوحيد بين الذكاء وبين الغريزة عن طريق تنمية وتطوير الملكة « س » ولن يستطيع شيء ان يمنع الانسان من التقدم ، حالما يدرك هذا .

انني اصل الان الى اكثر نقاط هذا الكتاب اهمية : محاولة وضع نظرية عامة . فلنتناس الان الدليل على التواصل الروحي من بعد ، والتنبؤ ، والتناسخ ، والحياء بعد الموت ، ولنتمسك بالمنطق والحقائق التي كشفها العلم .

وتؤكد النظرية الحيوية في التطور ، التي ناقشتها في هذا الكتاب ، ان الروح والمادة متعاديتان . هناك حرب قائمة ، ونحن منها في خط الجبهة .

من الواضح ان كوننا يتمدد ، وقد احصى الفلكيون ، انه اذا كان يشمده باستمرار بنفس المعدل الحالي ، اذن فلا بد ابيه بدأ منذ نحو عشرة بلايين سنة - عشرة آلاف مليون من السنين . وتبلغ شمسا من العمر ، نحو ستة بلايين سنة (ومن المتوقع ان يعيش لمدة ستة بلايين اخرى) . اما هذه الارض التي تسكنها فمن المحتمل ان تكون قد بلغت من العمر نحو ثلاثة بلايين من السنين . وطوال البليون الاول من وجودها ، ظلت « فرنا » مستعرا باللهب ، تطوف في الفضاء سابحة حول الشمس لتبرد بالتدريج . وعند لحظة ما تمكنت قوة الحياة من ان تصطنع لنفسها موطن قدم في مملكة الذرات . وقد وصف « ت . ا . هيلم » احد تلامذة برجسون ، الحياة باعتبارها : « الفرس التدريجي للمزيد والمزيد من الحرية في قلب المادة » ، ثم يستمر قائلا : « يمكنك اذن القول بان النبض في الاميبا قد صنع شقا او خرقا صغيرا ، اصبح من الممكن ان يدفع النشاط الحر من خلاله لكي يغرس في العالم ، وكانت عملية التطور هي التوسيع التدريجي لهذا الشق . »

وقد بدأت الحياة بامتزاج الدرات في الجزيئات المعروفة باسم الاحماض الامينية ، ثم استخدمت تلك الجزيئات لخلق الخلايا الحية . وستحاول المدرسة الداروينية الحديثة في علم الحياة (البيولوجي) ان تدفعنا الى الاعتقاد بأن هذا : « التركيب المتصاعد » كان صدفة عارضة - الامر الذي يشبه مطالبتنا بالاعتقاد بأن كومة من اجزاء السيارات الصدئة في « مزبلة » المخلفات قد تندفع متجمعة لكي تتخلق منها سيارة « رولز رويس » جديدة .

وطوال بليون عام اخرى او نحوها ، راحت تلك الخلايا الحية تسبح طافية في البحار الدافئة ، لا تتوالد ولا تموت . لم يحدث اي تغير . ولم يبدأ التطور الحقيقي الا منذ نصف بليون من الاعوام فقط ، فبشكل ما ، تمكنت الحياة من ان تنتصر على مشكلتها الاساسية الاولى : النسيان . فالتطور لا يمكن ان يتقدم دون تراكم المعرفة ، والاميبا المنفردة الوحيدة لا تستطيع ان تجمع الكثير من المعرفة . ولم تصبح جوانب وانواع التقدم الجديدة ممكنة حتى ابتكرت الحياة حيلة تخزين رموز المعارف المكتسبة وتحويلها الى الاجيال الجديدة في ثنابا عملية الانتاج الجديد . فقد كانت مخلوقات الحقبة المعروفة باسم : « ما قبل العصر الكامبري » *« Pre - Cambrian »* تسقط الخلايا القديمة وتنمي خلايا جديدة بنفس الطريقة التي تغير جسدي بها كل خلاياه القديمة كل ثماني سنوات . وبابتكار الموت واعادة انتاج الحياة ، استطاعت هذه المخلوقات ان تسقط اجسادا قديمة وان تنمي اجسادا جديدة . وهكذا حل التنوع محل التكرار لكي يصبح القانون الاساسي للجسود .

لقد ابتكرت الحياة الموت . وليس من مهرب من هذه الحقيقة المتناقضة ، رغم ان نظرة اكثر محافظة قد تقول ببساطة ان الحياة قد تعلمت كيف تستفيد من الموت للوصول الى اهدافها الخاصة . ولكن دلالات كلا القولين واحدة . ان الحياة ليست تحت رحمة الموت . انما هي في وضع السيطرة على الموت . فمنذ خمسمائة ألف عام ، تعلمت الحياة سر التناسخ .

وكان الهدف من كل هذه المناورات هو اقامة رأس جسر قوي وثابت في كون المادة . فالمخلوقات الفردية (المنفردة) تميل الى التجمد والاختناق حينما تكتشف لنفسها « عادة » مريحة تمارسها في ثقة كما تمارس الشعائر ، على نفس الصورة مرارا وتكرارا . والمخلوق الحديث السن يقاتل ويناضل ويتعلم ، اما المخلوق المتقدم في السن فيجأ في خمول وبلادة . وقد ابتكر الموت بهدف احلال مقاتلين وقادرين على التعلم محل البلداء الخاملين ، بهدف سحب الجنود العاجزين القدامى من خطوط القتال واستبدالهم بفصائل صدام جديدة قوية . وكانت الخطوة التالية العظمى في هذه الحرب - او في عملية الاستعمار

هذه - هي ابتكار الوعي : وهذا يعني ابتكار مجموعة من الملكات منفصلة عن الدوافع الفريزية . وما هدفها؟ ان تلاحظ وان تسجل وان تحتفظ بالسجلات . فمن الممكن ان يوصف الوعي بانه قوة منظمة الشرطة السرية الخاصة بالحياة . ومثل اي شرطة سرية في دولة شمولية ، فان هذه القوة هي خادم الحكومة - خادمات وقوي - ولكنه خادم رغم كل شيء . وقد كان الوعي خطوة تطويرية متأخرة لان الامر استلزم وقتا طويلا قبل ان تكون الحياة قادرة على توفير الطاقة اللازمة لمثل هذه التجربة . ان وظيفة الوعي هي الانتباه لكل شيء ، واستمرار المراقبة للحركات السطحية في عالم المادة . ولكن غالبية المعلومات التي يجمعها بهذا الشكل متكررة ولا نفع منها ، ولكن من حين الى حين ، ثمر يقظته التي لا تتوقف وتؤدي العائد المقابل لما يبذل فيها من طاقة ، فتتكامل وتتربط ببعض الملاحظات العابرة العارضة لكي تتشكل منها اضافة جديدة من المعرفة .

ولكن الوعي ضرر واحد هائل : انه يقسم الحياة ضد نفسها . فحينما كانت الحياة قاصرة على المستويات الفريزية ، فان دوافعها كانت بسيطة : كان هدفها هو ان تزيد او توسع موطئ قدمها في عالم المادة . والوعي يهتم بالمشاكل السطحية، فالبوليس السري لا يعرف شيئا عن الاهداف العليا للحكومة ، ولا عن سياساتها الاقتصادية والخارجية . ولا يشكل هذا خطرا كبيرا طالما ان الحكومة تتمتع بسيطرة كاملة . ولكن نجاح الوعي كان نجاحا استعراضيا ، لافتا للانظار وباهرا ، حتى ان الوعي نفسه تحول الى نوع من « الادارات الحكومية » المستقلة . وهذا هو الخطر . وقد تزايد الخطر تزايدا لا حد له في القرون الثلاثة الاخيرة . فقد حقق ابتكار الكتابة قوة دافعة كبيرة للتطور الانساني ، وغير من رؤية الانسان الى نفسه . وليس هناك دليل على ان ايزاك نيوطن كان اكثر ذكاء من موسسى او كونفوشيوس ، ولكنه كان يمتلك وسائل اكثر قوة ورسوخا لتخزين معارفه واستخدامها . ونتيجة لقرون ثلاثة من العلم « النيوطني » اصبح الانسان ملكا لقلعته الارضية . لم يعد يأخذ الحياة ولا الموت على علاقتهما مثلما فعل اسلافه . وانما راح ينظر الى الكون مثلما ينظر السيد الى ممتلكاته الخاصة . ولكن « ليس » الوعي هو السيد ، انما هو الخادم . انه يفتقر الى القوة والى الدافع اللذين تتميز بهما قوى الحياة الفريزية . انه اذا ما ترك لنفسه فانه يميل الى ان يصبح سلبيا تتناهبه المخاوف والهموم ، غريبا عن عالم الفريزة وعن عالم المادة . انه سيد ضاع منه كل احساس بالسيادة .

ولقد تقدم التطور الانساني بسرعة بالغة ، واصبحت عملياته اكثر تعقيدا بكثير مما يحتاجه صالحه الخاص . ولكن هذه العمليات يمكن ان تبسط . ويستطيع الوعي ان يتحول الى الداخل ، الى فهم العمليات الحيوية والدوافع الكامنة وراء التطور .

أن عدو الحياة الرئيسي ليس هو الموت ، وإنما النسيان ، الفناء . اننا نفقد اتجاهنا بسهولة كاملة . وهذه هي العقوبة العظمى ، الجزء الأكبر الذي كان على الحياة أن تدفعه مقابل نزولها الى عالم المادة : نوع من فقدان الذاكرة .

الا ان الخطوة التالية من مناقشتنا هذه ، هي الخطوة الحاسمة . فالكون مليء بكل انواع الطاقات . فالمادة طاقة - اكثر انواع الطاقة قدرة على المقاومة واشدها صلابة وقوة ، واذا كانت الحياة قد حققت رجة من النجاح فسي غزو المادة ، اليس من السخف والعبث ان نفترض انها لم تنجح باشكال من الطاقة اكثر طواعية ومرونة ؟

ها نحن نعود الى فكرة دافيد فوستر عن « الكون الذكي » ، ولكن ليس من الضروري الان ان نسأل : من الذي يقوم بصنع الرموز وتسجيلها ؟ اننا نعرف الاجابة . انها قوة الحياة نفسها ، التي كانت تفقد حملتها من اجل استعمار المادة منذ بليون من السنين .

ويبرز كل هذا بشكل منطقي من الاعتراف بأن الحياة ليست « تجليا » من تجليات المادة ، وإنما هي قوة مناقضة للمادة . يقول « ليليث » (١) الذي ابدعه برناردشو : « لقد جئت بالحياة الى دوامة القوة ، وارغمت خصمي اللدود ، المادة ، على ان تطيع روحا حية . ولكنني باسترقاق عدو الحياة ، جعلت من الروح الحية

(١) ليليث : في الاسطورة السامية القديمة ، وربما كانت بابلية الاصل ، يفترض انها جنية هائلة ، تطوف الليل والبراري الموحشة في موكب من العاصلة ، تلتهم الاطفال وتبقر بطسوق النساء الحوامل . اشارت اليها التوراة (شعيا - ص ٣٤) باسم : « البومة العياضة » في ترجمة الملك جيمس ، وباسم « وحش الليل » في طبعة اوكسفورد الحديثة المصححة ، ويشير اليها المحرر في الهامش بانها « ليليث » ، وتسميها الترجمة العربية : « النكارة » ، ويشرحها القاموس بانها نوع من اخبث الحيات ، لا يعرف رأسه من ذنبه ولا يرى فمه حين يلدغ (ويلاحظ هنا الربط في الترجمة العربية بين ليليث وبين الحية ، ويلاحظ علاقة الحية من قبل في « التكوين » بالهواء حواء وسقوط آدم) - ذلك ان التلموديين يقولون بان ليليث نصف الملائكة ونصف الشيطان والوراة الساحرة ، كانت في الاصل زوجة اولى آدم ، قبل حواء ، وانها رفضت ان تعيش معه في الفردوس وهربت لتعيش في الفناء وسط نيران الصاعقة والبرق ، وما تزال تظهر في الليل . استخدمها جوتيه في فاوست ، واستخدمها روزيتي في « هامبل القوس في جنة عدن » وقال ان ليليث استخدمت الحية وسيلة لانتقامها من آدم وزوجته الجديدة ، لانها تزوجت الشيطان بعد فرارها من الفردوس (وهذه هي الحكاية العربية عنها ، وتقول الاسطورة العربية انها ام الجن الكافرين الذين انجبتهم من ابليس) . اما برناردشو فجعلها رمزا للعقم والوحدة في مسرحية : « في البداية » اولى المسرحيات الخمس في مجموعة « العودة الى ميتوشالج » ، وفي النهاية ، جعلها قادرة على الانجاب لكي تظهر الموت . (هـ م) .

سييدا للحياة . . » . وقبل هذه السطور من مجموعة مسرحيات « العودة الى ميتوشالغ » يعبر « ليليث » عن الحدس القائل بأن الحياة قد توجد في مستويات من الطاقة أكثر سموا: « في قلب الأرض المضغوط بقوة هائلة ، حيث ما تزال تنهض حرارة الشمس التي لا يمكن تصورها ، تعيش الصخرة في تقلصات ذرية قوية ، مثلما نعيش نحن بطريقتنا الأكثر بطئا . وحينما نقذف الى السطح تموت ، مثلما تموت سمكة من أسماك أعماق البحار إذا أخرجت الى سطحه » . وقد عبر الفريد نورث هوإتهيد - وهو فيلسوف حيوي آخر عن هذه الفكرة في قوله ان الحياة تتخلل الكون الذي ينشر بها ، مثلما يتخلل الماء قطعة من الإسفنج .

اما اعظم الاسرار التي لم تحل حتى الآن ، فهو سر « الفردية » . فإذا كانت الحياة هي « وحدة » واحدة بشكل ما ، فكيف تشعر كل من وحداتها المستقلة بأنها منفصلة وفريدة متميزة الى هذا الحد ؟ وقد عبر تشترتون عن هذا اللغز في الفصل الرابع الأخير من « الرجل الذي كان يوم الخميس » بقوله : « لماذا يشن كل شيء على الأرض حربا ضد شيء آخر ؟ لماذا يكون على كل شيء صغير في العالم ان يقاتل العالم كله ذاته ؟ لماذا تقاتل ذبابة الكون كله ؟ » ولكن السؤال ليس « لماذا ؟ » فقط ، انه « كيف ؟ » ايضا . ربما كانت هناك في العالم ، مثلما يقول سير اليستر هاردي ، مخلوقات تمتلك « وعيا جماعيا » . ربما كانت هناك انواع من البعوض الصغير ، تهوم في الهواء في كتل كالسحب وتشعر كل منها بوجود الاخريات مثلما تشعر بوجودها . ولكننا لا نستطيع حتى ان نتصور هذا . ان جماعة من مدخني « النرجيلة الجماعية » ممن يمارسون « التجمع والمشاركة » انما يخادعون انفسهم ، مثلما توهم الطفلة نفسها بان دميته حية ترزق . ان الفردية الانسانية فردية مطلقة لا حد لها ، حتى اننا لا نستطيع ان نتخيل انفسنا دونها باكثر مما يمكن ان نتخيل ان حاصل جمع واحد وواحد هو ثلاثة .

ان السؤال : « كيف ؟ » سؤال لا يمكن الاجابة عليه ، ولا نستطيع الا ان نرسم ان قوة الحياة قد بدأت غزوها للمادة بان قسمت نفسها بشكل ما الى وحدات متعددة ، شعرت كل منها بأنها « منفصلة » عن باقي الكون . ويجب تشترتون على السؤال : « لماذا ؟ » قائلا : « حتى يحصل كل شيء يطبع القانون على مجد الفوضوي وعزلته . وحتى يمكن لكل رجل يقاتل من اجل النظام ان يكون في مثل شجاعته وفضل من يدس اللغم في اساس النظام » . وهذا يعني ببساطة انه بدون الفردية ، لما تمكنت الحياة من ان تستجمع نفس القوة اليائسة العظيمة . ان انسان الحشد ، الذي هو مجرد جزء من حشد كبير ، انسان ضعيف متخاذل ،

والناس الذين يحتاجون الى الناس هم اكثر الناس غباء في العالم . وهكذا يبدو التناقض الاساسي الكامن في الطبيعة الانسانية تناقضا موروثا ونظريا في قوة الحياة نفسها : فدون التحدي او الازمة ، تستسهل هذه القوة الامور ، وتنحط الى مستوى التوسط والعادية . وقد كان على كل ما في الارض من حياة ، حتى الان ، ان تنساق او ان تدفع الى الامام ، مثلما كان على العبيد قديما ان يضربوا بالسياط لكي يندفعوا الى القتال . انها لم تمتلك ابدا هدفا وضعا ايجابيا - لم يكن لها سوى الهدف السلبي للبقاء على قيد الحياة وتجنب الالم . لقد قال ليوناردو : « الشر المادي يشعر به الجسد » واصلا بذلك السى لب المسألة . اما السؤال اللاهوتي القديم : « لماذا الشر ؟ » فيجد الاجابة عليه في معرفة انه بدون الشر، ستقوم التفاهة والعادية والتوسط على مستوى الكون كله ، منتهية الى الموت . ولكن لم يحدث في اللحظة القائمة من التاريخ ان كف ذلك عن ان يكون صحيحا بشكل كامل . فعن طريق تطوير الفن والعلم والفلسفة ، حقق الانسان امكانية قيام : « هدف ايجابي ، هدف يستطيع ان يندفع نحوه الى الامام ، بدلا من ان يدفع من الخلف » . حقا ان الدين كان على الدوام تعبيراً عن هذا الهدف (ولكن الدين كان راضيا عن التناقض التالي : تأكيد وجوب انكار « العالم » بشكل ما من جانب « الروح » ، دون محاولة لفهم السبب في ضرورة هذا) . فاذا امكن اقامة الهدف الايجابي بوصفه القوة الانسانية الدافعة ، لكانت هذه نقطة تحول في تاريخ التطور ، لانه سيكون اكثر قوة ، اضعافا مضاعفة من الهدف السلبي لتجنب الالم . فان الانسان يستطيع ان يقوم باشياء بدافع الحب او الحماس يستحيل ان يقوم بها بدافع الخوف . ان مشكلته الاساسية في اللحظة الراهنة هي ان يفلت من ضيق الحياة اليومية وتفاهتها وان يدرك طبيعة هدفه النهائي ، وسيطلب هذا بدوره تطوير ما دعاه بليك بـ « الخيال » .

ويبدو ان كوننا قائم في الاساس على مبدأ الفردية ، حيث تصبح كل وحدة من وحدات الحياة مثل الواحة المنعزلة . وليس علينا الا ان ندرك ان الفردية المتميزة تتجاوز الجسد المادي وتسمو عليه ، وهذا يعني ان هذا الجسد ، مثله مثل الموت ، هو « اداة » للحياة ، وليس نتيجة عارضة لها ، وهذا من اجل ان ندرك ان المنطق يقف في صف وجود نوع ما من « الحياة بعد الموت » بالاضافة الى التناسخ او التجسد من جديد ان كل هدف حملة الحياة ضد المادة هو ان تقيم الاستمرارية وتدمجها ، ان تقهر « النسيان » وتتغلب عليه ، وهذا هو الهدف القائم امام الفريزة وذاكرة الجنس ومجموعة رموز « د.ن.م » . وهذه هي كل اشكال النجاة من الموت الجسدي ، فاذا لم توجد اشكال اخرى ، فلا شك ان هذا اذا اكتفيننا بأقل ما يمكن ان يقال ، هو اهدار غير عادي للفرص المتاحة .

لقد شعر ناثانيل هاورثون بأن الخوارق التي قام بها هوم في مجال الوساطة والقدرة على التغلب على الجاذبية بالطفو الارادي ، هي اشياء تثير الاهتمام ، ولكنها لا مكان لها في الواقع . لماذا ؟ لانه كان فنانا ، والفنان يحب العالم الحسي . مثله في ذلك مثل البير كامو حينما كان يرقب الطيور الضخمة تحوم في سماء « جميلة » فيريد ان يشعر بثقل حياته يحط بقوة على كتفيه ، بينما يبدو الحديث عن وجود حياة بعد الموت وعدا زائفا . ان الفنان يرى بوضوح ان « الحل » لما تتميز به الحياة الانسانية من افتقار عجيب لاي هدف ، ليس هو وجود حياة « اخرى » ، وانما يرى الحل في اللحظات العارضة من الكثافة والمدة والسيطرة المفعة بالنشوة حينما يبدو هذا الكون مثيرا للاهتمام دون حدود ، وتبدو فكرة الحياة الابدية في مثل هذا الكون فكرة مترعة بالبهجة والفرح . ومن الممكن ان نجد هذه الفكرة في الفكر التصوفي الروسي - عند فيدوروف ودستويفسكي وروزانوف - من ان الحياة الابدية انما تعني الحياة « على هذه الارض » وليس في عالم اخر . ويؤمن « شهود يهوه » بقانون مشابه ، رغم كل ما في هذا من غرابة : يقول انه بعد يوم الدينونة ، ستتحول الارض نفسها الى فردوس ، وهذا هو ما يوضح السبب الذي ينزع من قلب الشاعر كل ثقة بالحياة الاخرى ، فهو اقل ميلا من غالبية البشر الى التقليل من قيمة هذه الحياة الاولى .

ان النظرية التي طرحتها هنا تحل التناقض . فالشاعر على حق في ان يكون غير واثق بشأن كل ما يتعلق بـ « عوالم اخرى » تأتي باعتبارها حلا لمشاكل هذا العالم . فاذا كان تفكيري صحيحا ، فليس المقصود من « العالم الاخر » ان يكون حلا . اننا نقف في خط القتال الامامي ، اما القائد فهو في مركز القيادة عند المؤخرة ، وليست « العوالم الاخرى » التي توجد بيننا وبين مركز القيادة سوى وحدات معاونية ومراكز تموين ، وليست مستوى من الوجود اكثر سموا ، ربما كانت هناك حربة اكثر في تلك المستويات ، وامكانية لرؤية اكثر اتساعا ، ووعي اكثر شمولاً - ولكن ليس هناك سوى فرصة اقل للانجاز الفعلي . اما امكانية الانجاز الفعلي فتكمن هنا ، حيث نحن نعيش . اننا نرى « الاجابة » على لغز الوجود المادي في كل لحظات الحدة والكثافة العظيمة . لقد قال نيجنسكي : « ان الله نار تلتهب في الرأس » ، فحينما يتأجج العقل كالنار المستعرة ، لا نعود بحاجة الى التساؤل عن السبب في حياتنا . والهدف هو السيطرة الكلية الشاملة . وستصبح الحياة وحدة حينما تقوم تلك السيطرة وتحقق ، فلا يكون ثمة فرق ولا تمايز بين « عوالم اخرى » وبين هذا العالم . الا يوحى ما حدث فجأة في القرن التاسع عشر بكل هذا ؟ لقد كان القرن التاسع عشر هو عصر الرومانتيكية ، ولاول مرة في التاريخ كف الانسان عن التفكير في نفسه بوصفه حيوانا او عبدا ،

ورأى نفسه بوصفه «الها» محتملا ، او كما لو كان قارا على ان يكون الها ، وقد كانت كل صيحات التمرد ضد « الله » . من، دي ساد ، الى « مانفريد » بايرون، الى « قطاع الطرق » عند شيللر ، الى « فاوست » جوته ، الى عباقره هوفمان المجانين - هي التعبيرات المختلفة عن هذه الروح الجديدة . . كانت هذه هي اللحظة المناسبة الصحيحة ، وكان الانسان يشرع في فهم نفسه .

انني لا اعتبر نفسي كاشفا لعالم الغموض والسحر ، لانني اكثر اهتماما بطرق وقواعد عمل الوعي اليومي العادي . وفي الماضي ، كانت مميزة الانسان الرئيسية هي « استعداداه وميله للهزيمة » . وحتى عمالقة القرن التاسع عشر كانوا ميالين الى الاعتقاد بان الجنون ملجأ صالح من تفاهة الواقع اليومي . ولكن الجواب انما يكمن في فهم طرق وقواعد عمل الوعي . فاذا ما تحققت فهمها لامكن توجيهها نحو تقبل المزيد من الحقيقة . وتتطلب هذه العملية التركيز والدقة ، وهما الفضيلتان المميزتان لصانع الساعات الماهر .

هكذا نعود الى ما اكدناه في الفصل الاول : يكمن مستقبل الانسان في غرس « الملكة س » ورعايتها .

فهرست

صفحة	
٥	مقدمة
	القسم الاول : استقصاء للموضوع
٢٥	حـ السحر - علم المستقبل
٥٩	الجانب المظلم من القمر
٩٥	الشاعر عارفا بالغيب
	القسم الثاني : تاريخ السحر
١٣٣	تقدم الانسان
١٥٧	سحر الانسان البدائي
١٩٢	خبراء ومبتدئون
٢٠٩	عالم القبليين
٢٦٢	خبراء ودجالون
٣١٣	القرن التاسع عشر : السحر والرومانتيكية
	القسم الثالث : قوى الانسان الخفية
٣٤٣	السحر وجنون اللثاب
٣٩١	نظرات خاطفة

كتب للمؤلف

- | | |
|----------------------|-------------------|
| ★ ضياع في سوهو | ترجمة شرورو وييق |
| ★ المعقول واللامعقول | » انيس زكي حسن |
| في الادب الحديث | |
| ★ أصول الدافع الجنسي | » شرورو وكتاب |
| ★ اللامنتمي | » انيس زكي حسن |
| ★ ما بعد اللامنتمي | » شرورو وكتاب |
| ★ القفص الزجاجي | » سامي خشبة |
| ★ طغوس في الظلام | » فاروق محمد يوسف |
| ★ مقووط الحضارة | » انيس زكي حسن |
| ★ رحلة نحو البداية | » سامي خشبة |
| ★ الشعر والصوفية | » عمر الديراوي |
| ★ الحالم | » سامي خشبة |
| ★ إله المتاهة | » سامي خشبة |

الثنى : ١٨ ل . ل . او ما يعادلها

Bibliotheca Alexandrina



02006699